



لوحة للفنان: صلاح طاهر

المسرح العالمى

د. لويس عوض



المسرح العالمى

(من أسخيلوس إلى أرثر ميللر)

د. لويس عوض



مهرجان القراءة للجميع
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة / سوزان مبارك

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

تقـديـم

- منذ خمسة عشر عامًا أطلقت السيدة الفاضلة سوزان مبارك فكرتها الرائدة عن مشروع القراءة للجميع، هادفة إلى إتاحة فرصة القراءة لجميع أفراد الشعب، بعد أن كانت أسعار الكتب قد وصلت إلى أرقام كبيرة لا تحتملها ميزانية كل راغب فى القراءة والمعرفة.
- ولاشك أن أى مؤرخ للحركة الثقافية فى مصر سوف يتوقف كثيرًا عند فكرة هذا المشروع، وأثره الكبير على الثقافة والمثقفين فى مصر فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين.
- وقد أسهمت الهيئة المصرية العامة للكتاب فى هذا المشروع «بمكتبة الأسرة» التى تصدر بانتظام منذ أحد عشر عامًا، وتستعد لخطوة أخرى من التطوير فى عامها الثانى عشر.
- لقد قدمت هيئة الكتاب على مدى السنوات من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٤م ومن خلال مكتبة الأسرة بسلاسلها المختلفة ٣١١٣

عنوانًا فى مختلف فروع المعرفة، طَبعت منها أكثر من ٣٧ مليون نسخة وطرحتها فى الأسواق بأسعار زهيدة فى متناول الجميع، تبدأ من عشرة قروش وتتدرج، ولا تزيد عن ثلاثة أو أربعة جنيهات للكتب الكبيرة الحجم، أو متعددة الأجزاء.

● وهذه الأرقام تعطى دلالة لعدد المستفيدين من القرَّاء، ولعل جزءًا كبيرًا منهم من القراء الجدد.

● ولكن المستفيد لم يكن القارئ وحده فقد عادت الفائدة أيضًا على مجموع الكُتَّاب الذين أسهموا فى مكتبة الأسرة، وقد بلغ عددهم ١٣٦٨ كاتبًا كما عادت الفائدة أيضًا على المطابع، ودور النشر الأخرى التى شاركت فى المشروع. وبالتالى فالفائدة قد عمَّت كل الأوساط الثقافية المهتمة بالكتاب.

● وقبل انطلاق مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٥م خلال الشهر القادم نعيد طرح حوالى مائة عنوان فى ثوب جديد، ويُعتبر ذلك تقدمة لانطلاقة أخرى لمكتبتنا.

● فإلى اللقاء مع مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م الشهر القادم بإذن الله.

ناصر الأنصارى

القاهرة

مايو ٢٠٠٥

مأساة أوريست

للشاعر اليونانى أسخيلوس

لا يذكر الشاعر اليونانى العظيم أسخيلوس الا ويقال انه أبو المسرح اليونانى وليس أسخيلوس أول من كتب للمسرح بين اليونان فقد سبقه الى ذلك جملة شعراء أشهرهم ثيسبيس ، ولكن أسخيلوس أول من طور الدراما وأعطاها الصورة الفنية التى نعرفها اليوم وقد كانت من قبله عبارة عن سلسلة من المنشدين وقد قال أرسطو المعلم الأول فى أسخيلوس انه أول من استخدم « الممثل الثانى » على المسرح وبذلك وضع أساس الحوار كما نفهمه اليوم ٠

وقد كان أسخيلوس فاتحة قرن زاهر بالفنون والآداب فى اليونان القديمة ، وهو القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الذى سمت فيه أثينا حتى سطعت على العالمين كالثريا فى أوج السماء وقد بدأت هذه النهضة الفنية العظمى حين أقام عاهل بيزيستراتوس المعروف بالطاغية مباراة سنوية بين شعراء المسرح فى عيد ديونيزوس اله الخمر وقد فاز أسخيلوس بالجائزة لأول مرة عام ٤٨٤ ق٠م وظل سيد المسرح غير منازع حتى جاء سوفوكليس فانتزع منه زعامة المسرح ، ولكنه ظل مع ذلك يكتب للمسرح حتى توفى فى صقلية عام ٤٥٥ ق٠م ، وقد فاز أسخيلوس بجائزة المسرح الأولى ثلاث عشرة مرة فى حياته وكان مجموع ما كتب من

مسرحيات نحو تسعين مسرحية لم يبق لنا منها الا سبع مسرحيات هى : الضارعات ـ الفرس ـ سبعة ضد طيبة ـ بروميثيوس مغللا ـ أجا ممنون ـ حاملات القرابين ـ الصافحات ٠

تقول وأين « مأساة أوريست » من كل ذلك ؟ ان مأساة أوريست هى موضوع المسرحيات الثلاث الأخيرة ، فقد كان من عادة اليونان آن ينشئوا المآسى من ثلاث تراجيديات تؤلف وحدة واحدة وتدور حول موضوع واحد ، لأنها تتناول بطلا من الأبطال فى ثلاث مراحل أو ثلاث حلقات ٠٠٠ سمها ما شئت من الأسماء ٠ وقد كتب أسخيلوس «مأساة أوريست» فى ثلاث تراجيديات متصلة لا سبيل الى الفصل بينها هى :

« أجا ممنون » و « حاملات القرابين » و « الصافحات » وهى فى مجموعها تعرف « بالأوريستيا » ٠

ومن يكون أوريست هذا ؟

لعل أقرب شخصية فى المسرح الحديث لشخصية آوريست هى شخصية هاملت التى خلدها شكسبير فى مأساته المعروفة ٠ ومن يقرأ هاملت يجد فيها ملامح كثيرة من «مأساة أوريست» ولكن اليونان كانوا يقولون ان من بين البيوت بيوتا ملوثة تحل عليها اللعنة جيلا بعد جيل ، ولا ترتفع عنها الا بعد أن تدمرها تدميرا أو يأتيها عفو السماء وهذا هو الأغلب ٠ فقد جرت الأساطير أن بيت أتريوس كان آحد هذه البيوت الملوثة الملعونة ولم يكن بيت آتريوس ملوثا ولا ملعونا لأن القدر قد اختص أبناء هذه الأسرة بكيده ولكن لأن فعالهم وجرائمهم قد جرت عليهم هذه اللعنة ٠

فقد كان هناك رجل يسمى بيلوبس وكان لبيلوبس هذا ولدان أحدهما يدعى أتريوس والآخر يدعى ثايست ، وتخاصم الولدان لأن ثايست أفسد زوجة أتريوس فصار بعضهم لبعض عدوا وانتقم أتريوس من أخيه انتقاما شنيعا حفظته ذاكرة التاريخ لفرط شناعته ٠ ذلك أنه ذبح أطفال

ثايست وأقام لأخيه مأدبة وأطعم أخاه من لحم بنيه · وهكذا حلت اللعنة على آل أتريوس عقابا لهم على هذه الجريمة النكراء وغدت أسرتهم ملوثة جيلا بعد جيل ·

فقد كان لأتريوس ولدان لا يذكر اليونان الا ذكرا ، فهما المحور الذى دارت حوله حرب طروادة ذلك أن منيلاوس كان زوجا لهيلانة التى اشتهرت فى الأيام الخوالى بأنها أجمل أهل الأرض طرا ، هيلانة التى هجرت زوجها وفرت مع باريس الى طروادة فاجتمعت كلمة اليونان حول أجا ممنون الذى كان أقوى ملك بينهم على غزو طروادة والثأر منها ، واسترداد شرف اليونان المسلوب فى شخص هيلانة · وحين اجتمعت سفائن الحملة فى ميناء أوليس كانت الربة أرتميس حامية طروادة غضبى فأرسلت فى البحر رياحا عكسية عاقت أسطول اليونان عن الابحار زمنا حتى انتشر القلق فى نفوس البحارة ، وشاع فيهم سخط شديد ، فلما استخار القوم العراف كالكاس أفتى لهم بأن الأسطول لن يرحل حتى يقدم سيد اليونان آجا ممنون ابنته ايفجنيا قربانا للربة أرتميس ففعل أجا ممنون ذلك بعد نضال نفسى عنيف ، وهكذا أقلع الأسطول عن الميناء وبعد حرب ضروس دامت عشر سنوات حول أسوار طروادة وفى مشارفها نفذ اليونان بالمكر والخديعة فى هذه المدينة ، وخربوها تخريبا وبعد أن سقطت طروادة عاد قادة اليونان المظفرون الى بلاد اليونان ·

وهنا تبدأ مسرحية « أجا ممنون » فنحن الآن فى قصر الملك بأرجوس حيث الملكة كليتمنسترا تقيم مع عشيقها ايجيست ، وهى لا تعلم بعد بسقوط طروادة ولا بعودة زوجها الملك أجا ممنون الى حاضرة ملكه رجوع الظافر المتوج بأكاليل الغار ·

ونرى من أمام القصر الحارس وقد وقف تحت جنح الليل فوق سطح القصر وهو يناجى الآلهة أن تجعل لسهاده نهاية فهو قد سهر الليلة بعد الليلة كل هذه السنوات الطويلة ، يتطلع الى النجوم ويجيل بصره فى الآفاق لعله يرى فوق

التلال البعيدة النار تشتعل وتتوهج فى كبد الظلام ، اشارة على أن « طروادة قد سقطت » فهذا هو الأمل الذى لا يبرح فؤاد « كليتمنسترا » سيدة القصر « تلك التى لها صدر أنثى ولكن يخفق فيه قلب رجل » ٠

وفيما الحارس يناجى نفسه على هذا النحو يبصر على مدى البصر نار المشعل المرتقب تتوهج حمراء فى الأفق المظلم ، فيعلم أن هذه علامة النصر ، بل يعلم أن نار الظلام هذه هى التى « ستنشر فى ربوع أرجوس النور والرقص والأغانى » ٠

ويمضى مسرعا الى الملكة كليتمنسترا ليحمل اليها البشرى ٠ ويا لها من بشرى هذه التى تقول ان زوجها الملك أجا ممنون عائد اليها من ساحة الوغى ! ولقد كان خليقا بالحارس أن يرقص طربا لهذا النبأ العظيم ، ولكن الحارس رغم سروره لا يرقص ولا يستخفه الطرب فهو القائل : « وهكذا أتقلب فى فراش الضنى وقد بللنى ندى الليل فلا تراود جفنى الرؤى ولا تداعبنى الأحلام ، وواها لى !٠٠ فالخوف قد بات نديمى مكان النوم وهو يطرد الكرى عن عينى فلا ينطبق جفناى ، فان طيبت روحى بين الحين والحين بالأغانى والألحان بعد أن حرمت بلسم النوم الشافى ، فسرعان ما تجيش الدموع فى مقلتى فأندب الأحزان التى تخيم على هذا البيت الذى لم يعد يجلله الشرف كما كان فى الزمان الخالى » ٠ نعم ان القصر الملكى تجرى فيه أشياء لا تغتبط بها نفس الراعى ولا تثلج قلب الرعية ٠ ولكن الحارس مع هذا يخف مسرعا الى مولاته ليحمل اليها النبأ العظيم ٠

ويأتى كوراس من المنشدين الشيوخ كل متكىء على عصاه ويقفون الى جوار المذبح ويعربون عن قلقهم العميق ٠ فان هذه الحرب الطويلة التى لا تبدو لها نهاية قد أقضت المضاجع وجعلت فى كل بيت قلبا مكلوما ٠ فزهرة شباب اليونان يخرجون ولا يعودون ٠ انهم ــ هؤلاء الشيوخ ــ قد

جاءوا الى الملكة يتساءلون هل جاء نبأ من الميدان ؟ ان قلوبهم تتمزق لما كان ولما يكون من قتال وحشى وفواجع تهصر النفوس هصرا ، وقد هدتهم كلمتهم الى ان هذه الآلام المبرحة التى يبتلى بها البشر ان هى الا من عند الله أو من عند زيوس رب الأرباب كما كانوا يسمونه وهم فى ذلك يقولون : « انه زيوس وحده لا سواه الذى ينير أمامنا طريق المعرفة : فلقد أقام في الوجود ناموسا هو أن الانسان يتعلم الحكمة فى مدرسة الأحزان : ففى رؤى الليل تنهمر على الروح الذكريات الفاجعة كالغيث المنهمر ، ومن الدموع والآلام تصيب الروح الحكمة وهى راغمة : وهذه فيما نحسب هبة من الله الذى يصون بالقوة عرشه فوق أجواز السماء » !

فكل هذه المحن التى يمتحن بها زيوس اليونان هى سبيلهم الوحيد لبلوغ المعرفة الحقة والحكمة الصحيحة ·

واذا كانت محنة اليونان فظيعة فلا شك أن محنة ملكهم أجا ممنون أشد وأنكى ، فقد وقع هذا الملك الشقى بين قضاءين أخفهما أفظع من نيران الجحيم · فما كان له أن يضن بشىء على قومه ولو كان فلذة كبده فهو عقلهم المدبر وقلبهم الخافق ورمز عزتهم ومجدهم وشرفهم ، وما كانت له على الربة أرتميس حيلة وهى عطشى الى دم ابنته · وهكذا حمل هذا الملك الشقى عن شعبه هذا العبء المفروض بقوة قاهرة وحده على كاهله وحلت عليه اللعنة من دونهم أجمعين ·

وتبشر كليتمنسترا كوراس الشيوخ بنبأ سقوط طروادة فى تلك الليلة فيعجبون لذلك ويوشكون ألا يصدقوا النبأ فهم لا يفهمون كيف تنتقل الأنباء هكذا فى ساعات قليلة من طروادة الى أرجوس ولكن كليتمنسترا تفسر للشيوخ كيف جاءت الرسالة بالمشاعل على قمم الجبال والتلال ، فقد كان على كل قمة بطول الطريق ديدبان ساهر ينتظر ، فما أن أعلن النبأ وأشعل أول مشعل من قمة جبل ايدا حتى أخذ كل الاشارة عن صاحبه وأعطاها لمن بعده حتى بلغت بلاط أرجوس فى هذا الزمن القصير ·

ثم يأتى رسول معلنا عودة الملك المظفر أجا ممنون وبعد قليل يصل موكب الملك ويقف أجا ممنون أمام قصره فى عجلته الحربية ومن خلفه عجلة أخرى تحمل كاساندرا بنت ملك طروادة التى سباها اليونان وقدموها هدية لقائدهم أجا ممنون ويخف اليه شيوخ أرجوس فى كوراس مرحبين بمقدمه ممتدحين نصره فيذكرهم أجا ممنون بأن للآلهة نصيبا فى هذا الانتصار بقدر ما للبشر ، ولذا فقد وجب عليه التوجه الى محراب قصره لشكر الآلهة ، ثم تخف اليه كليتمنسترا مرحبة بعودته الى وطنه والى داره والى أحضان زوجته متوجا بأكاليل الغار وتسرف كليتمنسترا فى الترحيب بزوجها وفى تمجيده اسرافا يجعله ينهرها فى رفق ، وتأمر الملكة وصيفاتها بأن يفرشن البساط الأحمر أمام القصر ليمشى عليه هذا الغازى العظيم كما مشى من قبل على طروادة ولكن الملك لا يريد أن تقبل زوجته الأرض بين يديه أو أن تغالى فى تكريمه أو أن تفرش له البساط « كأنه ملك من ملوك الشرق المفتونين » • ان هذه الأبهة لا تليق بملك بل تليق باله فما يحق للملك أيا كانت أمجاده أن يطأ بنعله الطنافس الفاخرة • هذا بعض ما تعلمه البطل أجا ممنون عن تفاهة الانسان والحياة الانسانية بعد كل هذه الأهوال والعبر التى مر بها ومرت به فى الكفاح ضد طروادة ، بل انه ليوشك أن يتمنى لنفسه الموت فيتذكر المثل السائر القائل : (لا تسم انسانا سعيدا حتى يتوج سلام الموت حياته الشقية) ، وهو يطلب الى كليتمنسترا أن تكون رحيمة بالعذراء الأجنبية كاساندرا « فالله فى علاه ينظر بعين الرضا الى المنتصر الذى لم تجفف لحظة انتصاره ينبوع الرحمة فى قلبه ، فما من أحد يقبل نير الرق راضيا ، وهذه العذراء وهى صفوة ما ظفرنا به وأروع ما كسبنا قد جاءت الينا فى حاشيتنا فهى هدية الجيش الى قائده ومولاه » •

ويدخل أجا ممنون قصره تتبعه كليتمنسترا بعد أن تغلظ القول لكاساندرا وهى واقفة فى عجلتها بين كوراس الشيوخ فلا تجيب عليها كاساندرا بكلمة واحدة كأنها

لا تعرف من اليونانية حرفا واحدا ، وهى التى تعرف من لغة اليونان ما يعرفه اليونان رغم أنها أميرة طروادة ، ولكن كاساندرا لا تسمع لكليتمنسترا قولاً ولا تصدع بأمر لها ضنا بكرامتها ومقتا لهذه الملكة المتجبرة ٠

وما أن تجد كاساندرا نفسها وحيدة مع الكوراس حتى تستنجد بذلك الاله الذى اختصها بأسراره من دون الآلهة ألا وهو أبولو كما تستنجد بأمنا الأرض فقد اشتهرت هذه العذراء منذ حداثتها بل وقبل أن تبدأ حرب طروادة بأن أرواحا تتملكها فتكشف أمام بصرها علم الغيب ، حتى لقد عرفت آنا بالمجذوبة وآنا بالنبية الكاذبة ، وحقيقة الأمر أن أمنا الأرض والاله أبولو المتمثل فى قرص الشمس وهما الملهمان بأسرار الغيوب عند اليونان كانا يفصحان لها عما يضمره الغيب من مآس للناس ٠

وتتنبأ كاساندرا أمام أهل أرجوس بأن هذا البيت الملعون المخضب بدماء الحروب ودماء الغدر هذا المرتع الخصب للحب الآثم والجرائم النكراء سوف يكون بين لحظة وأخرى مسرحا لجريمة جديدة نكراء ، فالملكة كليتمنسترا قد أعدت العدة لقتل زوجها أجا ممنون وتقرأ كاساندرا فى الغيب أيضا أنها سوف تشارك آسرها ومولاها مصيره الفاجع ، وهكذا تنزل من عجلتها وتلتقى بأجا ممنون فى قصره ٠

وفيما الجميع واقف أمام القصر وقد اضطربت النفوس لهول ما سمع الناس من نبوءة ، ترتفع من القصر صرخة يتبين منها الجميع صوت أجا ممنون وهو يخر مجندلا بطعنات قاضية تجهز عليه وتقف كليتمنسترا وعند قدميها أجا ممنون وجثة كاساندرا وقد خضب الدم جبين هذه الملكة القاتلة ٠ انها ليست نادمة على ما فعلت فقد لقى زوجها على يديها ما استحق من عقاب ، ان أجا ممنون لم يرحم دموعها يوم قدم ابنتها وابنته أيفجنيا قربانا للربة أرتميس حتى تأذن الرياح فتحرك أسطول اليونان الى طروادة ٠

وقاتل ولده لا شك رجل ملعون والاله المنتقم قد تقمص شخص كليتمنسترا واتخذ من يدها أداته للاقتصاص من هذا الملك الملعون ، كذلك خانها أجا ممنون مع ألف معشوقة ومعشوقة منذ أن ارتحل الى طروادة وقد نال فى حياته جزاءه ، اذ أنها اصطفت لنفسها عشيقا يحميها ويقف الى جوارها فى الملمات ألا وهو ايجيست ، والآن وقد حلت عقدتها مع أجا ممنون فهى سوف تتزوج من ايجيست ، ولسوف يجلسان معا على عرش أرجوس ·

بهذا تدافع الملكة القاتلة كليتمنسترا عن جريمتها أمام شيوخ ارجوس ، ولكن هل يقبل الشيوخ هذا الدفاع ؟ كلا فهم يعرضون عنها منذرين بسوء المصير ، ان لعنة آل اتريوس قد حلت على كليتمنسترا قاتلة الزوج · والسماء لا تترك جريمة بغير قصاص ·

وبهذا تنتهى مسرحية « أجا ممنون » ·

- ٢ -

وتبدأ مسرحية « حاملات القرابين » فاذا بنا نجد أنه بالاضافة الى شخصية كليتمنسترا الملكة وشخصية ايجيست عشيقها اللتين تعرفنا عليهما فى مسرحية « أجا ممنون » نجد شخصيات أخرى أهمها شخصية أوريست وصاحبه بيلاد الملازم له وشخصية الكترا وكوراس من نساء أرجوس الأرقاء ومربية وخادم ·

وكما كان أجا ممنون محور المسرحية الأولى كذلك نجد أن أوريست محور المسرحية الثانية وبطلها · وأوريست هذا هو ولد أجا ممنون الذى تركه ملك أرجوس غلاما عند رحيله فى حملة طروادة ، فلما خلا الجو لكليتمنسترا وعشيقها ايجيست قررا ابعاده عن القصر الملكى ، فأوفداه الى مدينة فوكيس ليتلقى العلم هناك قبل أن تتسع مدارك الصبى

فيدرك ما يجرى فى قصر أبيه من المنكرات ، وهو ابعاد من قبيل النفى ، أما صديقه الحميم بيلاد فهو الخدن الذى اصطفاه أوريست من أيام الدراسة وقدمه على كل من يعرف من الناس حتى لقد أصبحا كالتوءمين المتلازمين ٠

ولقد كان أجا ممنون يود أن يرى ابنه أوريست بعد غيبة عشر سنوات فى جهاد الطرواديين ، وأن يضم الى صدره هذا الفتى الذى تركه صبيا ولكن كليتمنسترا فسرت غيبة أوريست فى فوكيس بأنها أرادت أن تحميه مما قد يحاك حوله وحول العرش من دسائس فأوفدته الى تلك المدينة ليكون من كل ذلك بمأمن وهكذا قتل قاهر طروادة دون أن يرى ولده أوريست ٠

أما اليكترا فهى أخت أوريست وبنت أجا ممنون وكليتمنسترا وهى تقيم فى القصر الملكى بأرجوس ٠ فهى اذن على علم بكل ما قد جرى ٠

ويصل أوريست الى أرجوس فيجد نفسه مع بيلاد بالقرب من القصر واذا به واقف عند قبر أبيه وقد امسك بخصلتين قصهما من شعره ثم وضعهما على القبر ـ وفيما هو يتحادث مع بيلاد تقبل عليهما جماعة من النساء متشحات بالسواد ويحملن القرابين والأنبذة التى تصب على قبور الموتى تهدئة لأرواحهم على عادة اليونانيين القدماء واذ تتقدم هذه الجماعة نحو قبر الملك الراحل يتبين أوريست أخته اليكترا تمشى وراءهن كسيرة محسورة فينسحب هو وبيلاد ليستمعا الى حديثهن خفية ٠

أما كوراس النساء الأرقاء فهو يغنى على قبر أجا ممنون أغنية تعبر عن معتقدات اليونان فى تلك الأيام ، وهى أن أرواح القتلى فى العالم السفلى ، عالم الظلمات ، ثائرة أبدا ومتمردة أبدا ، ولن تهدأ روح قتيل قط حتى يقتل قاتله ، من أجل هذا أوفدت كليتمنسترا هذه الجماعة من نسائها الأرقاء حاملات القرابين الى قبر أجا ممنون عسى أن تهدأ روحه فى قبرها حين يسكب على القبر النبيذ ٠

وأما اليكترا فهى تندب قتل أبيها ولا تدرى كيف تكون الصلاة على قبره ... أتصلى لكى تقبل روح أجا ممنون الأنبذة الزلفى التى أرسلتها كليتمنسترا فتهدأ الروح ويهدأ كل شىء فى أرجوس . ان ايجيست الذى اغتصب عرش أوريست يحكم البلاد بالقسوة والارهاب ، حتى لقد استتب له الأمر فى كل شىء ، ولم يبق الا أن تغفر روح القتيل لقاتلها فترتفع اللعنة ويسود السلام .

ولكن كوراس النساء الأرقاء ينصح اليكترا بأن تصلى من أجل ظهور المخلص وهو قاتل القاتل ، بل أن تصلى من أجل عودة أوريست الطريد الى وطنه ليأخذ العدل مجراه وتجازى كل نفس بما قدمت .

ثم يقع بصر اليكترا على الخصلتين فتتبين فيهما شعرا شبيها بشعر أخيها ويساورها احساس غريب بأن الأقدار تخبىء لها شيئا وتضطرب لذلك أيما اضطراب . وعندئذ يظهر أوريست وبيلاد ويقتربان منهما ويتم تعارف الأخ وأخته ، ويقص الأخ على أخته سر حضوره الى أرجوس . فقد أوحى اليه الرب أبولو ملهم البشر بالغيب أن يرحل عن نوكيس قاصدا أرجوس وليس فى عزمه الا شىء واحد ، وهو أن يثأر من قاتل أبيه . وحذر أبولو أوريست من مغبة التراخى قائلا : ان حياته كلها سوف تكون تكفيرا شنيعا جزاء له على قعوده عن الثأر لأبيه .

وهكذا تعاهد الأخ وأخته — على قبر أبيهما — على أن يثأر أوريست لأبيه فيعود كل شىء الى نصابه .

ويحتاط أوريست للأمر فلا يعلن عن شخصيته حتى لا يقع فى قبضة ايجيست وحراسه ، بل يدخل فى زيه الذى جاب به الطرق والرحاب ، وهو زى الغريب عن الديار الذى يطرق باب الملك حاملا رسالة ، وهكذا ينفذ أوريست فى القصر فيجد نفسه وجها لوجه أمام أمه كليتمنسترا .

أما الرسالة التى يحملها أوريست فهى أن رجلا ما فى

فوكيس حين علم برحلته الى أرجوس رجاه ابلاغ الملك أن أوريست قد قضى ، وأنه ينتظر ارشاداته السنية فى هـذا الصدد ، ويخف الملك بشخصه ليسمع هذا النبأ السعيد ولكن ما أن يلتقى أوريست بايجيست حتى يجندله بحسامه ثم يلتفت الى أمه وسيفه فى يده يقطر دما . فتقول :

ـ تمهل يا ولدى ولا تقدم على الطعن . لكم ارتاح رأسك على صدرى هذا يا بنى ورضع فمك اللبن منى قبل أن تنبت فيه أسنان ..

أوريست : قل يا بيلاد : أأستطيع أن أعفو عن أمى ؟ .

بيلاد : اذا كان الأمر كذلك فما جدوى ارشاد أبولو اياك فى دلف وما جدوى العهد العظيم الذى قطعته على نفسك . بين غضب الناس وغضب الآلهة تخير غضب الناس يا أوريست .

أوريست : اقتنعت وعندى أن رأيك صائب .

(مخاطبا كليتمنسترا) .

هيا اتبعينى فانى أريد أن أقتلك الى جواره . أجل أريد أن أقتلك الى جوار من كان قبل موته أدنى الى فؤادك من آجا ممنون ..

ـ : لقد نهنهتك وأنت صغير .

أوريست : ولقد قتلت والدى أفتقيمين معى ؟

ـ : على القدر بعض الوزر فيما كان ، يا ولدى !

أوريست : والقدر أيضا قد هيأ لك هذا المصير .

ـ : حذار يا ولدى من لعنة الوالد وهو يموت .

أوريست : الوالد الذى قذف بى بين شرور الحياة ؟

ـ : أنا ما طردتك ، ولكن أرسلتك الى بيت صديق .

أوريست : وأنا ولدت حرا فبعتنى فى صفقة مرتين .

ـ : أين اذن الثمن الذى تقاضيته فيك ؟

أوريست : هو العار • ولن أعيرك بكلام أوضح من هذا •

ــ : ولماذا لا تذكر عهارات أبيك أيضا ؟

أوريست : لا تلومى من يكابد فى الخارج وأنت قعيدة الدار

ــ : عسير على الزوجات يا ولدى أن يعشن كالأرامل•

أوريست : ألا يجاهد الزوج الغائب فى سبيل ربات الخدور ؟

ــ : انك تتأهب لقتل أمك ؟

أوريست : لن أقتلك أنا وانما تقتلين نفسك •

ــ : حذار من زبانية الانتقام التى سترسلها أمك من الجحيم •

أوريست : وكيف أنجو من زبانية أبى لو أعفيتك من القصاص ؟

ان هذه المحاورة اليائسة لا تجدى فتيلا ، فقد حكمت كليتمنسترا على نفسها بالاعدام يوم قتلت أجا ممنون لأن « من عاش بالسيف مات بالسيف كذلك » •

فهذا ما كان الكوراس يقوله •

وينقض أوريست على أمه فيطعنها الطعنة النجلاء ، وهكذا يغسل شرف أجا ممنون العظيم ويلقى كل آثم جزاءه العادل • هذا هو قانون العدالة الالهية الذى آمن به اليونان : الدم يهدر الدم والقاتل يقتل ولو كان فى أقاصى الأرض أو فى بروج مشيدة ، فبغير هذا يختل نظام الخليقة ، وتعم الفوضى فى أرجاء الكون •

- ٣ -

ولكن الويل لكم يا آل أتريوس من هذا القضاء القاطع الرهيب ومن هذه العدالة القاطعة المعصوبة العينين . ثم الويل لنا نحن البشر من هذا السيف البتار الذى يشطر الوجود الى شطرين ويدمى وليس فى يده بلسم أو شفاء

أين المفر يا أوريست ؟

ان القاتل يقتل فهكذا جرى حكم القضاء فى كل الجناة ، وما أنت بقاتل بل أنت وحش من أعمق أعماق الغاب : أنت قاتل أمه ! فما منقذك من حكم القضاء ؟ وما مخلصك من عذاب الجحيم ؟

هذا هو موضوع المسرحية الثالثة فى «مأساة أوريست» وهى مسرحية « الصافحات » ، وبهذا تنتهى مسرحية هذا البيت الملوث الملعون .

ان شبح كليتمنسترا ينهض من عالم الظلمات مستغيثا بالفوريات أو ربات الانتقام طالبا القصاص ، فتستيقظ ربات الانتقام لهذا النداء وتستجيب له . ألم يقولوا ان أرواح الموتى تتعذب وتعوى كالذئاب طالبة القصاص من قاتليهم ولا تهدأ ولا تستقر الا بعد أن يستوفى كل عقابه ؟ ان ناموس العدالة هذا الذى أقامه زيوس أبو الآلهة فى العالم لم يفرق بين روح طاهرة وروح نجسة ، وكل روح من حقها أن تجاب الى ندائها ولو كانت روحا آثمة سوداء .

لهذا نرى أن أوريست بعد أن فتك بأمه أخذت تطارده ربات الانتقام وتنشبن أظافرهن الحداد فى قلبه وفى كبده حتى غدا رجلا يعيش بغير أمل ، وأظلمت نفسه ، نراه يهرب منها فتلاحقه أينما ذهب لا تفرق بين بكرة وعشية ولا بين نوم وصحو ، وهكذا يعيش أوريست ساهدا سهد الأبد فى جحيم متصل ، يعتصم آنا بمحراب أبولو ، ذلك الاله الذى ساقه الى هذا المصير ، فيشد أبولو أزره ولكن هيهات لأبولو أن يغير من الناموس الأكبر الذى استقام به عمود الخليقة ،

ولا يستقيم الا به ، وهيهـات لأبولو أن يذود عن أوريست زبانية الجحيم . ان هـذا القانون الأزلى يسرى على الآلهـة أنفسهم .

وفى معبد الربة أثينا بنت زيوس كبير الآلهـة يحاكم أوريست ، فتجتمع لمحاكمته هيئة من اثنى عشر أثينيا عند قمة جبل الأكروبول . كل ذلك وأوريست حاسر الرأس ذليل يمسك مستجيرا بتمثال الربة أثينا عسى أن يجد فيها ملاذا ويتولى كوراس الزبانية اتهام أوريست ويقوم أبولو بالدفاع عنه . أما الزبانية فهى لا تفتأ تذكر المحلفين الاثنى عشر بقداسة العدالة وبأزلية الناموس ، وخلاصة منطقها ان نار الجحيم هى الينبوع الأكبر الذى تنبع منه الفضائل ، فلولاها لتحول الانسان الى وحش كاسر .

انها تطالب بالميزان ، ذلك الميزان الذى اذا اختل اختلت معه الحياة والأحياء ، أما أبولو فهو يدافع دفاعا مجيدا عن هذا البطل قاتل أمه ، ولا تعوزه بلاغة ، فهو رب البلاغة فى القاء تبعة هذه الجريمة المشروعة على القضاء الذى اتخذ من أوريست المسكين أداة للقصاص من أمه الآثمة ، أداة يسوقها للخير فتنساق حيث تشاء ارادة القضاء .

وبعد أن يستمع المحلفون الى أقوال الطرفين يتدبرون الأمر والجمع الحاضر معلقة أنفاسه ثم تؤخذ الأصوات .

فاذا ستة أصوات تحكم بالادانة ... وستة أصوات تحكم بالبراءة .

وهـكذا تعجز عـدالة الأرض عن الفصـل فى جريمة أوريست ويقف العقل البشرى والضـمير البشرى فى تعادل كامل حائرين فى هذه الألغاز المبهمة لا يجـدان مخرجا من هذا الاشكال .

وهنا تلقى الربة أثينا بصوتها فى جانب براءة الانسان فتنقذ أوريست من مخالب الزبانية باللطف الالهى .

فحيث تعجز العـدالة .. فللطف يد اذا امتدت أغلقت أبواب الجحيم .

أوديب ملكا

للشاعر اليونانى سوفوكليس

ثلاثة أسماء فى تاريخ المسرح اليونانى تذكر معا اذا ذكرت متعاقبة • وهى أسماء أسخيلوس وهو أولهم ، وسوفوكليس وهو ثانيهم ، وأوربيديس وهو ثالثهم ، فقد كان كل منهم سيد التراجيديا فى أثينا القديمة فترة من الزمن حتى خلفه من جاء بعده وانتزع منه زعامة المسرح •

واذا أردت أن تعرف الفرق بين هؤلاء الثلاثة فى كلمات فالأول قد اتخذ من الله محوراً لأدبه ، والثالث قد اتخذ من الانسان محورا لأدبه ، وأما الثانى وهو سوفوكليس فقد ركز فنه على وصف العلاقة بين الله والانسان فى مختلف صورها • كذلك قل عن الأول انه كان محافظا فى فكره وفى فنه وان الثالث كان متحررا فى فكره وفى فنه ، أما الثانى وهو سوفوكليس فقد كان بين بين ، أو قل انه جمع خير ما فى هذا وذاك •

ولد سوفوكليس صاحب مأساة « أوديب » المشهورة فى أثينا القديمة عام ٤٩٥ ق•م وتوفى عام ٤٠٥ ق•م عن تسعين عاما كتب أثناءها نحو مائة وخمس وعشرين مسرحية لم يصلنا منها الا سبع مسرحيات أهمها مأساة «أوديب ملكا» التى يعتقد كثير من النقاد أنها أعظم ما وصلنا من مسرح اليونان على الاطلاق •• وقد فاز سوفوكليس بجائزة المسرح

عشرين مــرة وانتزع زعامة الفن المسرحي من أبي المسرح اليوناني وهو أسخيلوس ، وظل متربعا عــلى عرش المسرح حتى انتزع زعامته منه أوربيديس ٠

وكلما ذكرت مأساة « أوديب ملكا » قيــل هــذه مأساة القدر ، ففيها نجد القدر يرســم للأبطال طــريق مجــدهم ويسطر لهم خطوط السقوط، فكأنما البشر من قطع الشطرنج تحركها يد خفية ترى كل شيء ولا يراها أحد ، ولكن بقــدر ما يهولنا فيها سيطرة القدر على حياة الانسان ، يهولنا فيها كذلك جهاد الانسان في سبيل تغيير مصــيره وفرض ارادته الحرة ٠ فالمأساة اذن مأساة الصراع بين القدر وبين الانسان، أو بين الجبر والاختيار ، ولئن سقط فيها الانسان صريعــا فحسبه أنه سعى ليتجنب سوء المصير ٠

ولكن هل ننصف سوفوكليس لو اكتفينا بهذا القدر من الايضاح ؟ لعل ســوفوكليس أراد أن يتهكم بنا فيقول : انظروا الى البطل أوديب تروا ضعفه في قوته ، فقــد خال أن في وسعه أن يتحدى القضاء وأن يدفع المحظور ، وهذه خطيئة ، فلو انه لم يعتمد على قوته ومكره كل هذا الاعتماد واعتمد على من عليه وحدة الاعتماد فلربما لطفت به السماء وخففت من محنته وبلائه ٠ وهكذا حال الانسان فليصل كما صلى الشاعر المصري قائلا :

وفي الأرض شر مقــاديره لطيف السماء ورحمانها !

أم ترى سوفوكليس يريد أن يقول : للقــدر أن يملي وعلى الانسان أن يكافح كفاح أوديب ليحرر نفسه من املاء القدر ؟

حرب بينهما سجال تبدأ بالميلاد ولا تنتهي الا حين تعبر تخوم الحياة !

●

القصر الملكي في طيبة ببلاد اليونان أيام عصرها الزاهر القديم حين كانت تنير العالم بضياء الفــكر وتضفي عليــه

غلائل الشعر ومطارف الخيال • وأمام القصر مذبح صغير مما تقدم عليه القرابين ، وجماعة من المصلين أو الضارعين كما ألف قدماء اليونان أن يقولوا ، بعضهم شيب وبعضهم شباب وبعضهم صغار ، وكاهن زيوس كبير الآلهة واقف على مبعدة يتمتم بالصلوات •

ويدخل أوديب ملك طيبة الذى طبقت شهرته الآفاق ويسأل قومه فيم جاءوا وعلام اجتمعوا حاملين أكاليل الزهور وقد ملأوا جو المدينة بالبخور وأرجاءها بالصلوات الدامعة ودعوات الشفاء • فمن كانت له شكاة فليتقدم بها الى ملك البلاد ، فأوديب ليس بحاجة الى وسيط يحمل اليه شكاة شعبه •

ويتقدم كاهن زيوس قائلا ان طيبة قد تكاثرت عليها الكوارث والأرزاء ، فالوباء لا يريد أن يرتحل عنها والمجاعة تفتك ببنيها والأشجار قد صوحت ، فهى لم تعد تثمر الثمار ، والماشية قد صارت عجافا فى المراعى الدارسة ، وحتى النساء غدون عاقرات ، وعما قريب تنطوى صفحة طيبة ويندثر أهلوها ، ذرية كادموس العظيم •

وهم يضرعون الى ملكهم أوديب أن ينتشل المدينة كما انتشلها فى سابق الأيام لئلا يقال : فى عهده نجت طيبة ثم هلكت • فان كان لديه نصح فكلهم آذان ، وان كان يستطيع لهم شفاعة عند الآلهة فليتشفع لهم ، فهو المنقذ الذى أنقذهم من الموت المحقق يوم جاء طيبة وحده منذ سنين فلعل فى يده خلاصهم من هذا البلاء الجديد •

ويستمع أوديب الى شكاة قومه فى أسى بالغ قائلا انه الراعى العارف بحال الرعية ، وان آلامهم ليست الا بعض آلامه ، وهو قد أوفد كريون أخا زوجته الملكة جوكاستا منذ أيام الى معبد أبولو رب الشمس والعارف بالغيب لعله ينبئه بما ينبغى عمله لترتفع اللعنة عن المدينة وأن كريون قد استوفى رحلته ، وهو لا شك فى طريقه اليهم بالنبأ اليقين ، أو لعله قد عاد فعلا الى المدينة •

وفيما هو يطمئن قومه يدخل عليهم كريون فيبادره أوديب بالسؤال عما قالته العرافة بمعبد أبولو . ويتردد كريون في الكلام أمام هذا الجمع ، ولكن أوديب يهيب به قائلا انه لا يكتم عن شعبه المعذب شيئا يرفع عنه هذا العذاب . فيجيب كريون بأن الرب أبولو يقول ان في طيبة شيئا ملوثا يلوث المدينة ، وهو يأمر أهل طيبة بأن ينبذوه ، وهذا الشيء الملوث رجل لابد من نفيه من المدينة أو قتله ، فهو قاتل ، فما هذه اللعنة التي حلت بأهل طيبة الا من هذا الدم الذي سفك . أما القتيل فهو لايوس ملك طيبة السابق الذي كان يجلس على عرشها قبل أن يرتقيه أوديب . وهو لم يقتل في قصره ولا في وطنه ولكنه قتل في أرض الغربة وهو في طريقه الى دلف حيث معبد الرب أبولو ، وقد كان مع الملك نفر من الرفاق هلكوا جميعا الا واحدا ملكه الذعر ففر هاربا ، وقد روى هذا الهارب أن عصبة من اللصوص عديدة النفر انقضت على الركب وفتكت بالملك وحاشيته . وهذا أبولو يقول ان اللعنة لن ترتفع عن طيبة حتى يثأر أهلها لمولاهم المقتول .

ويؤنب أوديب قومه لأنهم سمعوا بقتل ملكهم السابق لايوس ، ذلك الذي لم يره أوديب قط فهو غريب عن المدينة ولم يظهر بينهم من يثأر لقتله ، ولكن كريون يعتذر بأن نبأ قتل لايوس انما جاء والمدينة في محنة شديدة ألهت أهلها عن واجبهم نحو مولاهم ، فقد كانت يومئذ تربض بباب المدينة تلك المخلوقة الساحرة العذراء الماكرة المعروفة بأبي الهول تغني أغانيها المبهمة وتلقي على كل داخل ألغازها وأحاجيها ، وحين يعجز عن الاجابة تجهز عليه . وهكذا ملأت المدينة ذعرا حتى جاء أوديب وخلص أهلها من براثنها وفتك بهذه الساحرة الماكرة .

وقد كان أوديب أول من حل لغزها يوم قدم الى المدينة قدوم الغريب فاستوقفته ببابها سائلة : ما ذلك المخلوق الذي يمشي في الصباح على أربع وفي الظهر على اثنتين وفي المساء

على ثلاث ؟ فأجابها لفوره قائلا : هو الانسان : الانسان طفلا والانسان رجلا والانسان شيخا • وحين حل أوديب بذكائه الخارق لغز أبى الهول خارت قوى هذه الساحرة الماكرة فغلبها بقوته الخارقة وفتك بها وخلص طيبة من شرها •

من أجل هذا دخل أوديب طيبة دخول الظافرين ، وكان النبأ قد جاء بموت الملك لايوس فأعلن أهل طيبة مخلصهم ملكا عليها وسلموه مقاليدها وصولجانها ، بل وزوجوه من ملكتها جوكاستا أرملة الملك الشيخ الراحل لايوس •

فكيف ينتظر أوديب ألا يذهل أهل طيبة عن الانتقام لمولاهم القتيل وهم فى رعب قاتل من الوحش الكاسر الجاثم بباب مدينتهم ؟ وهكذا انقضت الأعوام والأعوام حتى نسى أهل طيبة لايوس وقصته ، ولولا ما عاد به كريون من أنباء تلقاها من كاهنة أبولو لما ذكروه •

أما أوديب فيتهيأ للانتقام ، ويعلن لقومه أنه لن يغمض له جفن حتى يعثر على قتلة لايوس ، وحين ينزل بهم ما يستحقونه من قصاص سوف ترتفع اللعنة عن المدينة ويعود اليها سلامها والرخاء ، وينقشع عنها الوباء •

بل هو يخاطب قومه محذرا ومنذرا ويهيب بكل من يعرف قاتل لايوس أن يدله عليه دون خوف أو وجل ، واعدا اياه بجزيل العطاء • فمن كانت له يد فى قتله فليتقدم ، وهو آمن على حياته فقصاصه هو النفى عن البلاد • وهو يهيب بكل من يعرف الأمر ويكتمه لعلة فى نفسه أن يطرد القاتل من حضرته فلا يظله بسقف ولا يخاطبه بكلمة ولا يعينه على عبادة ، لأنه اللوثة التى تلوث المدينة ، فهذا ما قالته كاهنة أبولو عرافة دلف التى لم يكذب لها نبأ من قبل • وأوديب خليق بأن يكون ذراع أبولو التى تمتد الى الجانى ولو كان فى أقصى المعمورة ، بل ولو كان بين أبهاء قصره ، فأوديب يقسم أمام قومه أنه لا يفرض على قومه شيئا لا يفرضه على نفسه، فلو قد كان الجانى أقرب قريب اليه لأنزل به عين القصاص • وهو يجعل أهل طيبة ممثلين فى

الكورس أى فى جماعة الضارعين المنشدين ، أن يقسموا بما أقسم هو عليه ، ويصلى الى الرب أبولو أن يبطش بالجانى فلا ينبت له أرضا ولا يثمر له رحما ولا يصلح له نسلا .

●

وهنا يسأل أهل طيبة أوديب أن يرسل فى طلب العراف الضرير تيريسياس الذى لا يخفى عليه غيب ، فقد اوتى علم الزمان وعلم المكان لأنه يعيش فى كل زمان وفى كل مكان . فتيريسياس لا شك يعرف الجانى من يكون ، وهو يعرف ان كان لا يزال حيا يرزق أم غدا فى عداد الأموات ، ويعرف أن كان طيبيا أو غريبا عن البلاد ، فله علم أبولو وهو يفصح حيث يبهم الكهان .

ولكن أوديب المحب لشعبه لم يكن بالذى ينتظر حتى يطالبه شعبه بأداء واجب أو التماس سبيل ، فهو قد أرسل فى طلب تيريسياس بناء على مشورة كريون ، وها هو ذا تيريسياس يمثل بين يديه ضريرا يقوده غلام .

ويفصح أوديب لتيريسياس عن مراده ، ان طيبة ، ملكا وشعبا ، تطلب قاتل لايوس . وهو يناشده على رأس شعبه أن يستخير الطير وأن يستخدم كل ما تعرفه الكهانة من فن وعلم ليدل على الجانى .

وحين يسمع تيريسياس هذا الكلام تضطرب نفسه أشد الاضطراب ، فلو قد عرف فيم استقدمه أوديب الملك لما قدم . انه ليس بحاجة الى طير ولا كهانة ولا سحر ولا تعاويذ . فهو يعلم من القاتل ، ولكنه لا يستطيع أن يفصح عنه ، فيالها من معرفة رهيبة هذه التى تكنها ضمائر العرفاء ولا تجرى بها ألسنتهم .

ويأبى تيريسياس أن ينطق بكلمة ، ويرجو الى الملك أن يأذن له فى الانصراف فليحمل الملك جهله فى ضميره ، وليحمل العراف علمه فى ضميره ، فان بعض العلم يقتل ، وبعض الحق تنشق له الأرض وتميد له الجبال .

ويستحلف أوديب تيريسياس جاثيا على ركبتيه أن يعرب عن الحقيقة ، ولكن تيريسياس يمعن فى الإباء فيغضب أوديب ويوشك أن يتهمه بخيانة وطنه الذى رعاه ودولته التى كلفته ، فهو يعلم من قاتل لايوس وملوث المدينة وجالب اللعنة عليها ولكنه لا يريد أن يبوح باسمه · أما تيريسياس فلا يهتز ولا يلين · ان المستقبل وحده هو الذى سيهتك ستر الغيب ويبين عن كل شىء أما هو فلن يخرج عن صمته أبدا ·

وهنا تشتد ثورة أوديب ويهتاج اهتياجا عظيما ويتهم العراف الضرير بأنه لا شك شريك فى هذه الجريمة التى يعرف عنها كل شىء ، ويخفى ما يعرف بهذه المداورة المكشوفة · ولو أن تيريسياس لم يكن ضريرا لما تردد أوديب فى اتهامه بقتل لايوس بيده لا بيد غيره · فلا يجد تيريسياس مفرا من أن يقول :

اليك يا أوديب هذه الكلمة الأخيرة من عراف ضرير : « ان هذا الذى تبحث عنه منذ أمد طويل مهددا متوعدا مناديا بالتنقيب عن قاتل لايوس ، انه هنا ، وهو فى الظاهر أجنبى يقيم فى البلاد ، ولكن سوف يتضح عما قريب أنه طيبى من بنى طيبة ، ولن يجد فى مصيره مدعاة للسعادة : فهذا البصير سوف يصبح ضريرا ، وهذا الغنى سوف يؤول الى سائل مسكين ، وسوف يسعى فى طريقه الى بلاد غريبة وهو يتحسس الأرض بعصاه · وسيعرف الناس أنه أبو بنيه وأخوهم فى وقت واحد ، وأنه زوج المرأة التى أنجبته ، وأنه وريث فراش أبيه وسافك دمه ، هيا ادخل قصرك وتدبر قولى ، فان وجدت أنى جانبت الصواب ، فلك أن تعلن منذ اليوم أنى لا أفقه فى علم الغيب شيئا » ·

وهكذا ينصرف تيريسياس يقوده الغلام بعد أن قرأ الماضى والحاضر والمستقبل لأوديب ·

وينصرف أوديب الى كريون يحاوره ما هذه الترهات التى يلقيها العراف تيريسياس القاء ؟ ان كريون هو الذى أوحى اليه باستدعاء هذا العراف لأمر فى نفسه · ألم يكن

تيريسياس يزاول العرافة منذ سنوات وسنوات حين قتل لايوس ؟ نعم ، وكان فى قمة مجده . فلم لم ينبىء يومئذ بما ينبىء به اليوم ، وهو أن أوديب هو قاتل لايوس ؟

ويتهم أوديب أخا زوجته كريون بأنه قد دبر هذه الخطة ليقضى عليه ويغتصب منه العرش . ويدفع كريون عن نفسه هذه التهمة بقوله انه صاحب حظوة عند أوديب ومقدم فى قصره على جميع الرجال فهو لا يطلب طلبا الا ويجاب ، وكل من فى طيبة يتقدم اليه زلفى ليحمل سؤاله الى اذن الملك . فكيف يخلع كريون عن نفسه كل هذا النفوذالواسع والسلطان العريض ويلبس نير الملك الثقيل . كلا ، ان كريون ليس بأحمق حتى يحمل هم المملكة لقاء تاج وصولجان .

فان كان أوديب لا يزال يشك فى كلامه فليوفد الى عرافة أبولو بمعبد دلف من يستطلع الأمر ويعود اليه بالخبر اليقين ، فان عاد اليه يقول ان كريون قد حرف كلمة واحدة مما سمعه فى معبد الرب أبولو فهو راض بأن تؤخذ منه حياته جزاء له على خيانته .

وحين يسمع تيريسياس هذا الكلام يصرخ فى أوديب قائلا : « اذن فاسمع الحقيقة منى : انى أطالبك أن تصدع بالأمر الذى نطقت به شفتاك ، فلا تكلم بعد اليوم أحدا من هؤلاء القوم ولا تكلمنى : فانك أنت ملوث هذه المدينة اللعين » .

ويتجادل الرجلان ويشتد بينهما اللجاج ويستفز أوديب تيريسياس بجارح الكلام فيتمادى العراف فيما بدأه قائلا : « وأنا أقول انك تعيش فى خزى لا علم لك به مع أقرب الناس اليك ، ولا تبصر ما آلت اليه حالك من مصير أليم » .

ويتهم أوديب تيريسياس بأنه يكيل له هذه التهم بوحى من كريون الذى لا شك يضمر فى نفسه شيئا ، ويتهكم به فيعيره آنا بعماه ويعرض آنا بعرافته الزائفة هذه التى يخدع بها الناس وهى لا تعرف شيئا . فأين كان تيريسياس

وأين كانت عرافته يوم كانت الساحرة الماكرة التى اتخذت صورة أبى الهول تربض بباب المدينة تلقى على الناس غامض الأغانى وتقطع على السابلة السبيل ؟ ولم لم يحل تيريسياس يومئذ طلاسمها ويرح طيبة من شرها الذى أرعب المدينة حتى جاء أوديب ، أوديب الجاهل الذى لا يدعى لنفسه عرافة ولا علما وحل لغزها فأخرسها دون ما حاجة الى طيور سانحات أو طيور بارحات ·

ويهم أوديب بطرد العراف الضرير من ساحته ساخرا من حماقته · ويهم تيريسياس بالخروج وهو يجمجم قائلا : « أحمق أنا فى عينك ، ولكنى كنت عند والديك حكيما » · وما أن يسمع أوديب ذكر والديه حتى يضطرب فؤاده ، ويستوقف العراف الضرير ويسأله المزيد عن أبيه · ولكن تيريسياس لا يوضح ولا يبين ، وانما يضيف الى ما ذكر من الألغاز لغزا جديدا فيقول : « لسوف يكشف هذا اليوم عن مولدك ويجلب عليك دمارك » · ان أوديب ليس بحاجة الى مزيد من الايضاح فهو العبقرى الذى حل الغاز أبى الهول العويصة وأنقذ طيبة من الدمار · ولكن هذا العبقرى لا يستطيع أن يحل ألغاز حياته أو أن ينقذ نفسه من الدمار ·

ولكن أوديب الذى أعماه الغضب لا يسمع له قولا ، وقد استقر فى روعه أن كريون قد دبر له مؤامرة ليخلعه من عرش طيبة ويجلس على العرش مكانه · ان النفى لا يكفى لردع هذا الخائن ، فلابد من قتله ليكون عظة للناس · وهكذا ينقلب أوديب الحاكم بالعدل والخير بين الناس الى طاغية يدين الناس بالشبهات ·

وهنا تدخل جوكاستا فتعلم ما بين زوجها وأخيها من أمر عظيم · ويقسم كريون أمامها على براءته من هذا الاثم الذى ينسبه اليه أوديب ، ويستمطر على نفسه اللعنات ان ثبت كذب كلامه · وتتوسط جوكاستا وكوراس الطيبين حتى يتدبر أوديب الأمر من جديد ، فاليمين على من أنكر والبينة على من ادعى ، وعلى أوديب أن يأتى بالبينة قبل أن ينفذ

قضاءه فى كريون هذا الذى لم يتعود فيه أهل طيبة خيانة من قبل ، بل عرفوا فيه كل ولاء للعرش وللمدينة ٠

وتستفسر جوكاستا عما أفضى الى كل هذا الغضب العنيف وتعلم من أوديب أن كريون قد سخر تيريسياس ليقول ان أوديب هو قاتل لايوس ٠ فتطمئنه جوكاستا بقولها كذب المنجمون ولو صدقوا ، فالآلهة تفصح عن مرادها بنفسها ، وهى ليست بحاجة الى لسان وسيط ٠

وجوكاستا أعرف الناس بكذب المنجمين والعرافين : فهى تذكر لأديب مثلا من أمثلة هذه العرافة الكاذبة ٠ فقد جاء فى الأيام الخوالى ، حين كان زوجها ومولاها الأول لايوس يحكم طيبة رسول من كهنة أبولو يقول ان لايوس سوف يموت قتيلا وأن قاتله لن يكون الا ولده من جوكاستا وجزع لايوس لما سمع جزعا شديدا ، فما أن أنجبت جوكاستا له غلاما حتى دق فى كاحليه الأسياخ ليوثقهما وأمر بأن يقذف بالوليد على جبل أجرد ليموت فى العراء ٠ ومرت الأيام ومات لايوس خارج طيبة ، وجاءت الأنباء بأن عصبة من اللصوص انقضت وهو فى مفترق طرق ثلاثة هى طريق فوكيس وطريق دلف وطريق داوليا ٠ وهكذا فقد كذبت نبوءة كاهن أبولو ، فلايوس لم يمت بيد ولده وانما مات بأيدى اللصوص الذين قطعوا عليه الطريق ٠

فليطمئن اذن أوديب نفسا ، فلو أراد الرب أبولو من البشر شيئا فهو قادر على كشف كل الأمور ٠

وتحسب جوكاستا أنها تهدىء بكلامها هذا روع أوديب، فاذا بها تجعله يضطرب فرقا ، وهى تقص عليه هذه القصة القديمة ٠

ويقف أوديب أمامها وقد تملكته الهواجس الغامضة ، فهو يعرف عن منبته وعن نشأته وتصاريف قضائه مالا يعرفه أقرب المقربين اليه من أهل طيبة الذين لا يعرفون عنه الا أنه غريب جاء من بلاد بعيدة وأنقذ طيبة من الوحش

الذى كان يعيث فيها فسادا فأجلسه أهلها على عرشها الخالى وزوجوه من أرملة لايوس ملكهم القديم .

أما هو فيعرف أنه قد جاء من مدينة كورنث ، وأنه ابن الملك بوليبوس والملكة ميروبيه الجالسين على عرش تلك المدينة وقد ترعرع أوديب فى كورنث حتى بلغ الشباب ، وذات يوم أقيمت فى المدينة مأدبة سالت فيها الراح أنهارا ، واجترأ عليه ثمل من بين الحاضرين قائلا ان أوديب هذا ولى عهد المدينة ليس ولد الملك بوليبوس ولا من صلبه . وقد كان ينبغى أن يثور أوديب حين سمع هذا الكلام ولكنه غالب نفسه حتى غلبها ، وفى اليوم التالى قصد الى أبيه وأمه مستفسرا عن حقيقة ما سمع، فلم ير منهما الا غضبا شديدا على ذلك الفتى الذى جرى لسانه بهذا الهراء . واطمأن قلب أوديب بعض الشىء ، ولكن نازعا به ظل يأكل نفسه بهواجس وقارىء كل مكنون ومستور فى أمر بنوته لبوليبوس . ولكن لا يعرف لها كنها ، وزاد من هواجسه أن هذه الشائعة كانت تتردد على كل لسان ، فانطلق خفية ، على غير علم من أمه وأبيه ، قاصدا الى دلف ليستخبر عرافة أبولو عارف الغيوب كاهنة أبولو لم تفصح له بشىء عن منبته ولم تلمح له بشىء بل لزمت الصمت العميق . غير أنها قرأت له غيبا غير هذا الذى جاء ليجلوه ، وتكهنت له بمصير فاجع شنيع ، فقالت ان لوح قدره قد خط فيه أنه قد كتب على أوديب أن يقتل أباه وأن يدنس فراش أمه وأن ينجب للعالم سبطا لا تقع عليه عين الا وانزوت عنه حزنا واشمئزازا .

وحين سمع الفتى أوديب هذه النبوءة الفظيعة تملكه الرعب وخشى أن ينفذ فيه هذا القضاء المفجع ففر من أرض كورنث ليتجنب أباه بوليبوس وأمه ميروبيه ، وهام على وجهه فى البقاع حتى بلغ مفترق طرق ثلاثة ، وهناك وجد ركبا فيه رسول يتقدم وعربة تجرها جياد بها شيخ عجوز ومن حوله صحبه . وتصدى له الركب فى غلظة ليفسح الطريق ، فثار فى عروقه دم الشباب ولم يرع للشيخ حرمة

والتحم بالركب وقتل رجاله عن بكرة أبيهم : ثم استأنف طريقه الى طيبة حيث كان ما كان بينه وبين أبى الهول وارتقائه عرش طيبة ٠

فكيف لا يرتاع أوديب وهو يستمع الى أمه وهى تقص عليه قصة النبوءة التى أطلقها رسول أبولو وولده الملعون هذا الذى قضى عليه أن يقتل أباه وأن يدنس فراش أمه ؟

ويذهب أوديب يسأل أمه كالمحموم عن لايوس ورحلته ٠ ماذا كانت هيئته ؟ كان شيخا اصطبغ شعره بفضة المشيب ودانت قامته قامة أوديب ٠ وكم كان عدد الركب ؟ كانوا خمسة بينهم لايوس وكانوا فى طريقهم الى معبد أبولو بدلف للصلاة ولاستخارة رب الغيوب ٠ ومن ذا الذى حمل هذه الأنباء الى أهل طيبة ؟ فلاح كان فى معية لايوس وتملكه الفزع فلاذ بالفرار وعاد الى طيبة ٠

الويل لك يا أوديب ! ان كل كلمة تخرج من فم جوكاستا تملأ نفسه فزعا وتفترس وجدانه افتراسا ٠ كل ما سمع من أمر لايوس ينطبق على ما حدث له فى الطريق الا شيئا واحدا ٠

ان الفلاح الهارب قال ان الذى فتك بلايوس ورجاله لم يكن رجلا واحدا بل عصبة من اللصوص ٠ وأوديب كان يهيم بمفرده حين التقى بذلك الركب عند مفترق الطرق الثلاثة ٠

وهكذا يصيح أوديب قائلا : الينا بالفلاح ٠٠ الينا بالفلاح ! لم يبق له من أمل الا ذلك الفلاح الذى شهد الموقعة ٠ فان تمسك الفلاح بقصة اللصوص برئت ساحته أمام ضميره وأمام الناس ، وان عدل عنها كان فى ذلك هلاك هذا الملك الضال ٠

أما جوكاستا فهى ترى أن زوجها أوديب قد أصابه مس واستسلم للهذيان ، فهى تعلم أن القدر فيما أرجف المرجفون قد أضمر للايوس أن تغتاله يد ولده منها ، ولكنها تعلم أيضا أن هذا الولد قد قضى نحبه وهو بعد وليد حين دق

أبوه الأسياخ فى قدميه وطرح به فى العراء الذى لا يرحم بين الجبال ٠

وتمتلىء رأس أوديب بالهوس القاتل والهيـاج العنيف فهو فى جزع فظيع كأن الأشباح تطارده ، وهـو يبحث عن الحقيقــة بحث المســتميت ويخشى أن تنبــلج له الحقيقــة فتصرعه ٠

ويمتلىء القصر الملكى بهوس أوديب ، فالكل فى رعب من هذا الرعب الذى ينهش نفسه نهشا ، وتمضى جوكاستا بقرابينها الى المذبح والمحراب مصلية أن تعود السـكينة الى فؤاد زوجها المحموم ٠

ويقبل من كورنث رسول هرم يعلن أن ملكها بوليبوس قد قضى نحبه وأن أهلها يطلبون أوديب ملكا عليهم مكانه ٠ وحين تسمع جوكاستا هذه البشرى تسعد بها أيما سعادة لأن فيها تكذيبا لما تكهنت به عرافة دلف وحسما لكل الأمور ، فها هو ذا بوليبوس قد مات ميتة الشيخوخة ٠ فلم يسفك دمه ولده أوديب وتطمئن نفس أوديب حين يسمع بهذا النبأ ، ولكنه يخاف أن يعود الى كورنث خشية أن تتحقق النبــوءة القائلة بأنه مقدر عليه أن يدنس فراش أمه ، فأمه ميروبيــه لا تزال حية ترزق ٠

كلا ٠٠ ان أوديب لن يعود الى وطنه كورنث خشية أن يقع المحظور الذى أنبأ به أبولو العارف بالغيوب ٠ فليعــد الرسول وحده اذن الى كورنث ٠ فأوديب قد نجا من قضائه الأول بفراره من كورنث ليتجنب قتل أبيه ، ولسوف ينجو من قضــائه الثــانى حين يصر على غربتــه ليتجنب الزواج من أمه ٠

وما أن يسمع الرسول هذا القول حتى يقبل على أوديب مطمئنا ٠ فليرسم القــدر طريق أوديب ما شاء أن يرسم ، وليقل الغيب ما أحب أن يقول ، فطريق أوديب الى كورنث

ليس محفوفا بالمهالك كما يتوهم، بل محفوفا بالمجد والسعادة فبوليبوس هذا الذى حسبه أوديب أباه ليس أبا له ، وميروبيه هذه التى حسبها أوديب أمه لم تلده ، وانما هو ابنهما بالتبنى ، وليس فى عروقه من دمائهما قطرة واحدة ٠

فقد كان ملك كورنث وملكته عاقرين يعيشان فى وحدة أليمة وحرمان حزين ، حتى جاءهما هذا الرسول الهرم نفسه بأوديب وهو بعد طفل رضيع ، فتبنياه وأحباه حب الوالدين للولد ٠ وقد وجد هذا الرسول الطفل أوديب بين الجبال فى وادى « كثيرون » حيث كان الرسول فى تلك الأيام الغابرة يرعى غنمه ، وجده فى كفالة راع آخر من رعاة الملك لايوس ، وكان الطفل عليلا وقد أوثقت قدماه من الكاحل الى الكاحل بأسياخ من حديد فتورمتا ، ومن هنا جاء أن سموه « أوديب » أى « ذا القدم الوارمة » ٠ وأخذته به رحمة ، فأخذه من الراعي وحمله الى وطنه كورنث وقدمه هدية الى ملك المدينة وملكتها بوليبوس وميروبيه ، فلقى منهما جزاء سخيا ٠

فكيف يخشى أوديب العودة الى كورنث ، وليس فيها فخ واحد نصبه له القضاء ٠٠

ويحسب الرسول العجوز أنه قد أثلج قلب أوديب بهذا القول ، ولكن كلماته نزلت كالضربات القاتلة على أوديب التعيس ٠ ان رواية هذا الرسول تكمل رواية الملكة جوكاستا عن طفلها الذى ألقى بأمر من أبيه لايوس ليهلك بين الجبال وقد دقت فى قدمه أسياخ الحديد ٠ إن أوديب يعلم الآن أنه ليس ابن بوليبوس وميروبيه فابن من هو اذن ؟ ٠

يوشك ألا يكون هناك سوى جواب واحد ، وهو أن أوديب ابن لايوس ملك طيبة وجوكاستا ملكتها ، فهو عين الوليد الذى أراد به أبوه شرا ليتجنب نفاذ القضاء فيه وفى ذويه ، فأنقذه القدر ذو التصاريف الفاجعة ليجرى كل شيء فى مجراه المرسوم ، وبعد أن نما الوليد وشب فر من كورنث الى طيبة ليتجنب قتل الوالد والزواج المحرم ، فاذا بهذا الفرار

ذاته هو الفخ الذى نصبه له القدر حتى يصير كل شيء الى قضاء محتوم .

لم تبق الا حلقة واحدة مفقودة ان وجدت ختمت كل شيء وحسمت كل أمر . ويعلم أوديب من كوراس الطيبيين أن الراعى الذى خرج بالوليد الى وادى « كثيرون » بين الجبال ليقتله هو عين الفلاح الذى شهد مقتل لايوس وأبلغ به قومه وهو الآن فى طريقه الى القصر .

وتدرك جوكاستا أن النهاية قد اقتربت فتميد بها الأرض وتنقطع نياط قلبها ألما . ان شاهد العيان هذا المنتظر انما هو شاهد القدر ، ان قال نعم فقد قتل وهدم البيت على آله ، وان قال لا فقد أحيا ورد السكينة الى كل نفس .

وتهيب جوكاستا بأوديب أن يكف عن السؤال وتضرع اليه قائلة : « استحلفتك بالآلهة أن تكف عن البحث ان كنت تبقى على حياتك ! وكفانى ما أنا فيه من عذاب ! » ولكن أوديب لا يصغى لها بل يطلب معرفة الحقيقة كاملة ، فتخرج جوكاستا فى لوعة مفجعة صائحة «يا للشقاء ! يا للشقاء !»

ويقبل الراعى ليدلى بالشهادة ، ويمثل بين يدى أوديب الملك ، وبعد جهد يتعرف على الرسول العجوز الذى أخذ منه الطفل ليكفله . وحين يسمع الراعى من الرسول أن أوديب الملك ليس الا ذلك الطفل ، يحجم عن الكلام ، ويتوعده أوديب بأفظع العقاب فيعترف بالحقيقة وهو يرتعد فرقا : انه كان عبدا فى قصر لايوس يرعى غنمه فى وادى كثيرون وقد أعطته الملكة جوكاستا ذلك الوليد الذى قيل يومئذ انه ولدها من لايوس ليخرج به الى العراء ويقتله حتى لا تتحقق نبوءة شنيعة ، فأشفق على الوليد وسلمه الى هذا الرسول الواقف ليرحل به الى أرض بعيدة .

وما أن يتم الراعى حديثه الشقى حتى يدرك أوديب الشقى أن القضاء قد نفذ فيه وأنه الملعون بكل لسان والملوث وذريته الى أبد الآبدين .

وينطلق أوديب كالمجنون الى القصر باحثـا عن سـيف سائلا عن هـذه الزوجة التى ما هى بزوجة وعن هـذه الأم التى ما هى بأم ولكنها لعنة من السماء وقطعة من أعمـاق الجحيم . ويجد أوديب أبوابها موصدة فيتحامل عليها بقوة هائلة حتى تتحطم ، ويقتحم حجرة جوكاستا فيجدها مدلاة تتأرجح فى الهواء وقد شنقت نفسها بحبل . فينصهر قلبه أسى لهذه التاعسة ويفك الحبل عن عنقها وهو يصيح قائلا : « يا للشقاء ! يا للشقاء » ! ويريح جسدها على الأرض ، ثم ينزع من ثوبها دبوسها الذهبى الذى كانت تتحلى به ، ويفقأ به عينيه الواحدة بعد الأخـرى حتى لا تبصر عينـاه ولديه وبنتيه من هذا الزواج الآثم .

●

ويخـرج أوديب معتمدا عـلى خدمه صـائحا : افتحوا الأبواب ؟ افتحوا الأبواب ليرى أهل طيبة بنو كادموس قاتل أبيه الزانى بأمه ، فيطردوه من حماها ويطهروا أرضها من آثامه ويهتف أوديب فى بنى قـومه قائلا : « انه أبـولو ! انه أبولو يا أصدقائى ! انه أبولو الذى جلب على كل هـذا الشقاء وكل هذه الفواجع الأليمة : ولكن اليـد التى فقأت عينى لم تكن الا يد أوديب الشقى ! » .

وهكذا يرحل هذا الملك المتغطرس التعيس الذى ظن أنه حل ألغاز الأرض والسماء ، عن طيبة التى تؤول أمورها الى كريون ، فترتفع عنها اللعنة ، ويمضى أوديب الضرير يقوده رجاله الى مستقره الأخير ، يمضى الى ذلك الوادى التعيس الذى حمل اليه وهو بعد وليد ليلقى حتفه ، يشيعه نشيد حزين يلقيه قومه الحزانى قائلين : « لا تقولوا عن أحد من بنى الفناء انه سعيد ، حتى يعبر تخوم الحيـاة وقد تحـرر من الآلام ! » .

هيبوليت : أو غضب أفروديت

للشاعر اليونانى أوريبيديس

تجرى حوادث مأساة هيبوليت فى القصر الملكى ببلدة ترويزين بعيدا عن شواطىء أثينا القديمة • وفى بهو القصر أقيم تمثالان لمعبودتين من أشهر من عبد اليونان القدماء هما الربة أفروديت والربة أرتميس ، وقد وقفت كل منهما فى جانب من البهو مقابل الأخرى ، وأمامها مذبح تقدم عليه القرابين •

أما الربة أفروديت فهى أشهر من أن تعرف • فأفروديت عند اليونان هى ربة العشق والحب الجسدى ، تلك التى كان الرومان يسمونها فينوس أم الغرام ، وكنيتها القبرصية ، لأنها خرجت من محارة عند شواطىء جزيرة قبرص ذات الكروم الكثيرة • وأما الربة أرتميس فهى ربة الصيد والحرب والطراد ، عذراء لا شك فى عذارتها ، تحتقر الغرام ولا تجد متعة فى الوجود الا الخروج على جوادها حاملة رمحها فى طراد الظباء •

وصاحب هذا القصر هو ملك أثينا المنفى ثسيوس الذى كان اسمه علما من أعلام العالم القديم ، أثر عنه حب الصيد والقنص والرياضة • فلا غرابة اذن أن يخب الملك ثسيوس غير زوجته الملكة فيدرا امرأة من تلك النسوة المسترجلات

اللواتى اشتهرن فى العالم القديم بالفروسية وحب الحرب والطراد وعرفن باسم الأمازونات ، وقد أنجب الملك ثسيوس فى الزنا من هـذه الأمازونة غلاما هـو ولده هيبوليت الذى نبت على غرار أبيه وأمه ، فكان أعظم فارس بين بنى قومه وكان أعرف الفتيان بفنون الصيد والقنص • ولكن أعظم فضائله جميعا كانت عفتـه وطهارته التى سـارت بذكرها الركبان • فمن بين آلهة الأولمب الكثيرة اختار الفارس العفيف هيبوليت الربة أرتميس ليختصها بالولاء والخلوص ، فأقام كل فرائضها ولم يهمل لها قربانا وأعلى ذكرها بين قـومه فباركت له فى جياده وفى رياضته وفى صيده ، ومن بين آلهة الأولمب الكثيرة اختـار هـذا الفارس العفيف الـربة أفروديت آلهة الحب ، ليختصها ببغضه واحتقـاره فأهمـل شعائرها وقاوم سلطانها وندد بها فى كل مكان •

لهذا تحقد عليه أفروديت وتبيت له شرا وبيلا ، فهى ما تعودت أن يعصى أحد لها أمرا أو يهمل فرائض الحب الذى تغرسه فى القلوب والأجسـاد فتتجـدد به الحياة على وجه الأرض ويخصب به الحرث ويكثر النسل •

●

وتتجـلى أفروديت فى بهـو القصر وتقـول والغضب يملؤها :

أفروديت : سلطانى عـلى دولة البشر عظيم ، واسـم القبرصية رفيع فى أبهاء السماء وعند سكان الأرض الذين يجتلون ضياء أبولو رب الشمس ، ما بين تخوم البحر وتخوم أطلس ، وأنا أسعى الى المجد بمن يحفلون بسلطانى ، أما من يتحدوننى فانى أجلب على رؤوسهم الدمار • فالآلهة كالبشر تسر بما يقدمه الناس من فروض التجلة والاكرام • والحق الذى سأظهره الآن هو أن هيبوليت ولد ثسيوس من الأمازونة وربيب بثيوس هو الوحيد بين هذه البلاد ، أرض ترويزين الذى يسمينى أخس الآلهة • فهو يحتقر الحب ، ويأبى أ ـ

يتزوج • ولكنه يجل أرتميس ، ابنة زيوس وأخت أبولو ، ويعدها كبيرة الربات ، وهو يطهر الأرض من الوحوش بكلاب صيده السريعة ساعيا دائما أبدا في الغابة الخضراء ، ساهرا دائما أبدا على ربته العذراء ، ناعما بصحبة هذه الربة التي تعلو على أفهام البشر • وما هذا الذي يحنقني فيه ! فكيف أغضب لهذا ، ولكن الذي يغضبني هو ما يقترفه ضدي من آثام وما يكيده لي من كيد ، ولسوف أثأر اليوم من هيبوليت ، واليوم يوم ثأري •

وكيف تثأر أفروديت من هذا الفتى الطاهر العفيف الذي جفا صحبة النساء وأعرض حتى عن الزواج وهو سنة الخلائق التي لم يكسرها أحد الا وكسرته أفروديت رمز الحب في هذا الوجود ؟

انها قد أعدت لكل شيء عدته ، ولم يبق في انتقامها الا القليل • فهي قد بثت منذ زمن في قلب فيدرا زوجة أبيه ثسيوس بذور الحب الآثم لهذا الفتى العاصي على شرعة الحب المستكبر على سلطان الغرام • فما أن رأت فيدرا هيبوليت وهو عائد الى أثينا من بلاد بعيدة حتى علق به قلبها وهامت به هياما عجيبا ، فلما رضي زوجها الملك ثسيوس بالنفي الطائع من أثينا عاما كاملا ليتجنب اثما عظيما على عادة قومه في تلك الأيام ، ونزل بشواطيء ترويزين حيث أقام مع زوجته الملكة فيدرا ، ذوت فيدرا وصوح عودها من فرط الصبابة الحزينة • فحبيب قلبها هيبوليت غائب عن عينيها ، وهي لا تقوى على فراقه • ولكن هذه الملكة المسكينة فيدرا لم تكن بغيا بل كانت نعم الزوج شريفة بين النساء • فهي تكتم هواها الغريب الآثم هذا الذي رمتها به المقادير ولم تكن لها فيه حيلة ، وهي لا تعلم أنه من كيد أفروديت ربة الغرام • ويراها خدمها ووصيفاتها كل يوم تذبل وتذوى فيعجبون لهذا الداء الدفين الذي يفتك بها فتكا ولا تفصح لهم عن علتها •

نعم ، اليوم تثأر أفروديت من الفارس الجميل هيبوليت

المستكبر على الحب والزواج • فهو اليوم قادم الى قصر أبيه بعد طول غياب ، وهو اليوم راجع من الصيد والطراد مع صحبه وحاشيته رجوع الظافر بأثمن الغنائم ، ولسوف يحتفل مع صحبه وحاشيته بما حبته به أرتميس من حظ وتوفيق فى رحلته ويقيم شعائرها ويعلى كلمتها فى القصر وبين الرعية ، ولكن أفروديت قد دبرت له نهاية فاجعة ، فهو على موعد مع أبيه الغائب كذلك فى هذا اليوم ، لكنه على موعد مع الموت أيضا ، وسيلقى مصرعه تصاحبه لعنات أبيه، فهذا ما دبرته له أفروديت • لسوف تطلع ثسيوس عند عودته على قصة هذا الحب الآثم الذى تحمله فيدرا لولده ابن السفاح هيبوليت • وسوف يثور الملك ثسيوس لشرفه ويقضى على ولده ، وهكذا تثأر أفروديت لنفسها •

●

وما أن تنصرف أفرديت من بهو القصر حتى يدخل هيبوليت ورفاقه فى الصيد والقنص وهم يمرحون ويغنون، ويتقدمون من محراب أرتميس ليقدموا لها الشكر والقرابين، ويخاطب هيبوليت تمثال أرتميس بقوله :

هيبوليت : جئتك يا سيدتى بهذا الاكليل المعقود الذى جمعت أزهاره من المرج البكر الذى لا يجسر راع أن يرعى فيه غنمه ولم يجتث أعشابه قط منجل •

ويضع هيبوليت اكليله على رأس التمثال ، ثم يهم بالانصراف فينبهه قائد حاشيته أنه قد حيا أرتميس ولكنه لم يحى أفروديت القبرصية ، وقد كان يقضى الذوق بأن يحييها كذلك ، فيجيبه هيبوليت قائلا :

هيبوليت : أنا أحييها من بعيد ، ومحتفظا بطهارتى •

القائد : ولكنها آلهة عظيمة ، طبقت شهرتها الآفاق •

هيبوليت : نحن نأنس الى بعض الآلهة أكثر مما نأنس الى غيرهم ، شأننا مع البشر •

القائد : أتمنى لك التوفيق ، وأرجو أن تصيب من الحكمة ما أنت بحاجة اليه ٠

هيبوليت : أنا لا أفتن باله تتطلب عبادته ستر الليل ٠

ويأمر هيبوليت قائد الحاشية أن يمضى ليطهم جياده ليشدها من بعد الى عجلته ويخرج بها للرياضة ، ثم ينصرف الى داخل القصر تتبعه الحاشية ، ولا يبقى فى البهو الا قائد الحاشية الذى يتقدم الى تمثال أفروديت ليقيم شعائرها وحين يفرغ من مناجاة أفروديت يلحق بالجميع ٠

وتدخل البهو جماعة من نساء ترويزين فى هيئة كوراس ويتحدثن عن هذه العلة الغريبة التى استبدت بمولاتهن الملكة فيدرا ، فهى فى صوم لا ينقطع منذ ثلاثة أيام ، وقد اعتكفت فى فراشها لا تحدث أحدا ولا تشكو لأحد ٠ وتحار النسوة فى أمر فيدرا ، فلا يعلمن ان كانت قد سكنتها روح من تلك الأرواح التى تسكن أجساد النساء وتعذبها تعذيبا أم أنها تكظم فى قلبها الطاهر شوقا جارفا مدمرا الى شىء محرم ٠

وتدخل عليهن فيدرا وقد أصابها هزال شديد وفى معيتها مربيتها العجوز التى تعينها على السير وتريحها على أريكة ممدودة فى البهو ٠ والمربية ليست أقل حيرة من النسوة فى أمر مولاتها ٠ فهى تسأل ولا تجاب ، وانما تسمع فيدرا تهذى بغامض الكلام الذى لو سمعه سامع يظن بالملكة الظنون ويرتاب فى اتزان عقلها ٠ ففيدرا تتمنى لو أنها كانت تنهل من معين مائه النقى الطاهر من قطر الندى ، وتطلب أن تستلقى للراحة على حشائش المرج فى ظلال شجرة الحور ٠ وهى ترجو أن تحمل الى الجبال والى الغابات حيث تركب جوادا كريما وتطارد وحوش البرية وتنصت فى فرح وحشى لكلاب الصيد وهى تشتاق الى الخروج على صهوة جواد تخب به على الرمال السوية ٠

وتفيق فيدرا من هذا الهذيان الذى يوشك أن يفضح

ما يجرى في سريرتها من معان غريبة ، وتعنف نفسها على الاسترسال في هذه الخواطر اللعينة التي لا ريب قد بثها في ضميرها شيطان من الشياطين • ويأخذها الخجل من هذه الأفكار التي تراودها فتطلب الى مربيتها أن تغطى وجهها لتستر خجلها وتحجب عارها قبلما ينكشف للعيون •

وتشتد حيرة المربية فهى لا تفهم لكل هذه الأحزان سببا ، ولكنها على يقين من أن مولاتها فيدرا تطلب الموت ، فهى قد أمسكت عن الزاد ثلاثة أيام كاملة وهى قد استسلمت لحزن عظيم • وتلحف المربية على فيدرا أن تفصح عما بها لعلها تعلم سبيلا الى شفائها ، وتنهرها قائلة ان فى موتها جناية على أبنائها فلئن ماتت فيدرا خلا الجو لابن الزنا هيبوليت ولد ثسيوس من خليلته الأمازونة ، وهو لن يضيع وقتا بل سيعود ليحتل المكان الأول فى الملك بعد موت ثيسيوس •••

وما أن تذكر المربية اسم هيبوليت حتى تأخذ فيدرا رعشة فظيعة وتتألم ألما عظيما وتستحلف مربيتها ألا تنطق باسمه أمامها ثانية • فتعلم المربية أن فى الأمر سرا ، وأن هذا السر يدور حول هيبوليت ، وتذهب تحاورها ، فتقول فيدرا ان جسدها طاهر ولكن روحها آثمة ، وأن ما بها من داء ليس مكرا من مكر عدو سحر لها ، بل سحر من صديق برىء فى مثل براءتها • وتؤكد فيدرا لمربيتها أن زوجها الملك ثسيوس لم يذنب معها فى شىء بل كان نعم الزوج لها ونعم الأب لبنيها ، وأنها تخلص له الود ولن تخونه أبدا ولو لقيت الموت فى سبيل الوفاء •

وتستعطف المربية فيدرا أن تصارحها بحقيقة الأمر بدلا من كل هذه الألغاز والأحاجى ، وتضعف فيدرا ، فتقول ان هناك لعنة قديمة كتبت على أسرتها وهذه اللعنة هى لعنة الحب • فأمها قد ذهبت صريعة العشق ، وأختها تنتظرها الكارثة فى سبيل العشق فهى عروس الاله ديونيزوس رب

الخمر • وها هى ذى فيدرا صريعة العشق ، فقد أصماها سهمه المسموم الذى لا يرجى منه شفاء •

نعم ان فيدرا تحب ابن الأمازونة هيبوليت العفيف • وهو لا يعلم عن حبها شيئا ولن يعلم بأمره ، ففيدرا شريفة بين النساء وفية لزوجها الكريم حتى الموت ، وانهـا لتطلب الموت لأنه وحده سبيل الشرف الذى ينقذها من حياة العار • لكم جالدت فيدرا نفسها وقاومت هذا السحر المـدمر الذى يدمرها بالشهوة الآثمة وغالبت طيف هيبـوليت ليغرب عن خيالها ، ولكن الحب ولد أفروديت القبرصية قهرها وسـد عليها جميع المنافذ ، فلم يبق أمامها الا سبيل واحد هو سبيل الموت • وهى تعلم أنها طاهرة الجسد ، ولكنهـا لا تعـرف كيف تواجه زوجها وفى رأسها كل هذه الخواطر الآثمة • فكيف يكـون الأمر لو زلت فى الحقيقة لا فى الأمانى ؟ ان الحياة بغير هيبوليت هول لا يطاق، والحياة به أهوال وأهوال•

وحين تقف المربيـة العجـوز عـــلى النداء الذى يفتك بسيدتها ، تصيح أول الأمر قائلة : يا للعار ! ياللعار ! ولكنها لا تلبث أن تتدبر الأمر وتقول ان فيدرا ترتكب اثما أفظـع لو أنها أسلمت نفسها للموت ان فيدرا قد قاومت سـلطان الهوى بقـدر ما اسـتطاعت وصـارعته بكل ما أوتيت من فضيلة وارادة ، وهو الآن قد صرعها فمن الحق ألا تسـلم بالهزيمة ، ومن الحكمة أن تجد الى حبيبها سبيلا •

وتلمن فيدرا مربيتها وتنهاها عن الاسترسال فى هذا الكلام الشائن الذى يغوى القلب مهما كان طاهرا • ففيدرا لا تزال نقية النفس لا يداخل فضيلتها فساد ، ولكنها تعلم أن كلام مربيتها عذب كالغرام العـذب يتسـلل الى مواطن الضعف منها ويضيع الحذر فى جسدها وارادتها • فالمربية تقول ان ما تسميه فيدرا طريق الشرف اذا بلغ هذا المبلغ الذى يدمر فيه انسان نفسه ويسـعى بارادته الى ظلمـات القبر لم يعد طريق الشرف ، ولكن غدا طـريق الكبرياء •

ففيدرا لا تخشى الزلل بل تخشى العار ، والخير لها أن تعيش في عار الحب الآثم من أن تموت فى طهارة الفضيلة المستكبرة ٠

وتقول المربية ان لديها بعض أحجبة السحر تخفيها فى دارها وهى تستطيع أن تأسر بهـا قلب الفـارس العفيف هيبوليت فتجمع بينهما دون أن تذل كبرياء مولاتها فيدرا ، وكل ما تحتاج اليه فى هذا السبيل قطعة من رداء الحبيب أو أى أثر من آثاره ، بهذا وحده تشفى فيدرا من هذه البرحاء التى تهصرها هصرا ٠ ان كل ما تطلبه المربية هو أن تعتصم فيدرا بالشجاعة وأن تترك لمربيتها العجوز التى نهنهتها منذ طفولتها وأحبتها حبهـا لولدها أن تدبر الأمر كمـا ترى ، ولسوف تجد فى حيلة أفروديت الواسعة خير عون لهـا فى مسعاها ٠

وتثور فيدرا ثورة الخوف والخجل معا لمربيتها : اياك أن تنطقى بكلمة واحدة عن هذا الابن تسيوس ٠

●

وتمضى المربية الى داخل القصر فى طلب هيبوليت ، وبعد حين قليل يسمع صياح منكر ولعنات هائجـة ، فتدرك فيدرا أن مربيتها الحمقاء قد خانتها فانطلقت الى هيبوليت وفضحت له غرام مولاتها به ٠ ويرتفع صوت هيبوليت من الداخل واصفا المربية بأنها قوادة تصـل الرجال بالنسـاء وخائنة تلوث شرف مولاها وولى نعمتها الملك ٠ فتصرخ فيدرا من فرط العار وتولول قائلة : « لقد انتهيت لقد انتهيت » وتوشك أن تتهافت ٠ ويدخل هيبوليت البهو فى هياج عظيم تتبعه المربية وهى فى اضطراب عظيم ٠ لقد جعلته يقسـم أغلظ الايمان بزيوس كبير الآلهة ألا يتفوه بكلمـة اذا هى أطلعته على سر خطير ، فأقسم هيبوليت دون أن يعلم أنهـا ستشتط فى الكلام على هذا النحو وهى الآن تذكره بأنه أسير هذا القسم الذى أقسم ٠

نعم ، ان هيبوليت أسير قسـمه ، ولـكم كان يحب أن

يعنف الملكة بقارس الكلام وأن يعلن بأجهر صوته في البلاط وأن يخرج فى الشوارع هائما صائحا فى الناس : أيها الناس ! انظروا الى الملكة الساقطة فيدرا ، هذه التى تحبونها مثلا للعفة ورمزا للنقاء ! انها تراودنى عن نفسى !

ولكن هيبوليت أسير قسمه • وهو يرغى ويزبد حتى يفرغ كيله • انه لا يندد بفيدرا ، ولكنه يندد بنساء الأرض جميعا فيقول مخاطبا كبير الآلهة :

هيبوليت : أى زيوس العظيم لم خلقت المرأة ، هذا الكائن الزائف الشرير لتعيش حيث تشرق الشمس، فأشقيت بها الرجل ؟ ولو كان مرادك أن يتكاثر البشر فقد كان يجدر ألا تكون المرأة سبيلهم الى ذلك ، بل أن يبتاع كل فى معابدك بالذهب أو الحديد أو ثقيل البرونز لنفسه أسرة ، وكل ما قدم لك من قرابين ، وهكذا يستقل الرجال ، ويتحررون من النساء •

ان هيبوليت عدو المرأة الأكبر ، ومقته للنساء لا يدانيه مقت ، وكلما ازدادت المرأة ذكاء وحيلة وعلما ، ازداد مقته لها فمثل هذه المرأة تعرف مالا ينبغى للمرأة أن تعرف وتطلب مالا ينبغى للمرأة أن تطلب ، ومثل هذه المرأة شهوانية تعرف من خسة أفروديت أكثر مما تعرفه بقية النساء • وأصلح النساء امرأة ساذجة هى والكم المهمل سواء ، عاطل من كل ذكاء أو حيلة أو علم • ان فيدرا بغى من بغايا آفروديت ، ولولا القسم الذى أقسم لأطلع أباه على كل ما جرى •

وبعد أن يفرغ هيبوليت كل ما فى جعبته من نقمة على النساء ينطلق الى داخل القصر تاركا فيدرا ومربيتها فى أسوأ حال •

وتندم فيدرا على أنها أفشت سر حبها المنكود لمربيتها الحمقاء • لقد كانت تطلب الموت الصامت فى شرف وفى سبيل الشرف • أما الآن فماذا ينقذها من العار الأبدى ؟

لقد افتضح حبها الآثم ولم تجن من فضيحتها الا الاسم الملوث الى الأبد وغدا يذيع هـذا الفتى المستكبر بعفته كل ما كان فيفضحها أمام زوجها ، ويفضحها أمام المواطنين ، ويجـرى ذكرها على كل لسان فيقال ، انها فيدرا الخائنة لقد قضت عليها مربيتها الحمقاء قضاء مبرما من حيث لا تريد • فلقد أرادت لها خيرا ، وما جلبت عليها وعلى آلها الا العار الأبدى •

●

فكيف الخلاص من هـذا المأزق ؟ وهـل من سـبيل الى الخلاص الا أن تقتل فيدرا نفسها ؟ ولكن فيدرا التى كانت تطلب الموت وحدها لتنجو من غرامها الشقى وتحفظ اسمها رمزا للخلف نقيا طاهرا ، لن تموت الآن وحدها ، بل ستجر معها الى القبر هذا الفتى العفيف المستكبر بعفته الذى يلوث اسمها ويجعلها أمثولة بين النساء •• نعم ، لسوف تنتقم منه فى موتها شر انتقام ، فالموتى ينتقمون كما ينتقم الأحياء •

●

وتختفى فيدرا فى مخدعها حينا ، وبعد هنيهة ، يعلو عويل المربية معلنة أن مولاتها شنقت نفسها ، فيضطرب كل من فى القصر •

وفى هذا الاضطراب ، يدخل ثسيوس الملك ومن ورائه حاشيته ، وحين يرى ما هنالك من اضطراب عظيم يستفسر عن الخبر فيعرف بموت فيدرا فيتمزق قلبه أسى على هـذه الزوجة الطاهرة التى كانت مثلا للطهر والوفاء • ولا يعلم لانتحارها سببا فيؤمن بأن محنته لا شك قصاص لذنوب قديمة ارتكبها أسلافه • وتأتيه نساء القصر بجثة فيدرا ويضعنها عند باب البهو ، فيبكيها بدمع مدرار ويرثى فضائلها التى لم تكتمل لامرأة غيرها من نساء الأرض • ويعاهد روحهـا على أن يبقى وفيا لذكراها ما بقى حيا ، فلا يفتح أبـواب قصره لزوجة من بعدها •

ثم يلمح فى يدها الباردة ورقة انطبقت عليها أناملهـا الشاحبة ، فيعرف أنها قد تركت وراءها رسالة • وينزع الورقة من يدها ويقرؤها ، فيرتجف غضبا •

ان فيدرا تقول فى رسالتها ان ولده العفيف هيبوليت، هذا الذى جرت عفته مجرى الأمثال ، قد اغتصبها ، فلوث شرفها وشرف أبيه الملك ، فلم تجد فيدرا سبيلا لمحو هـذا العار العظيم الا بالانتحار ٠

ويأخذ الهياج من ثسيوس كل مأخذ فيرفع يديه ضارعا الى بوزيدون رب البحـر ؟ أى بوزيدون ! يا أبتاه ! لقـد وعـدتنى من قبـل أن تجيب ثلاثا من ضراعاتى ٠ وهأنذا أضرع اليـك أن تفتك بولدى ، ولا تجعـل له مهـربا من قبضتك قبلما ينقضى اليوم ، فاسـتجب لضراعتى ان كان ما وعدت به صدقا ٠

لقد كان ثسيوس يحب أن يهـوى بحسامه عـلى ولده فيصرعه بنفسه ، ولكنه يخاف أن يلوث يده بدم ابنه ، فقتل الولد يجلب لعنة السـماء الى أبد الآبدين ٠ فلتقتص منـه السماء ، ان كان فى السـماء عدالة ٠ أما ثسـيوس فهـو يصيح : لقد أمرنا بنفيه ٠ لقد أمرنا بنفيه من البلاد !

وهنا يعود هيبوليت ليرى جثمان فيدرا بباب البهو ومن حوله النساء ، ويبصر آباه فى ثورة ما بعدها ثورة ، ويبدى هيبوليت عجبه لموت فيدرا التى كان قد تركها منـذ لحظات حية بين الأحياء ٠ فينهال عليه أبوه بالاتهام ، واصفا اياه بأخس الصفات ، ويعلنه بأنه منفى من البلاد ٠

ويدافع هيبوليت عن نفسه معلنـا براءته من كل أمر مشين نسبه اليه أبوه ويوشك أن يطلع أباه على الحقيقة ، ولكنه يتذكر القسم الذى أقسمه بألا يفشى سر فيدرا لأحد ، فيمسك عن الكلام ٠ ولكنه يناشد أباه أن ينصفه بمحاكمة يثبت فيها براءته ، فان لم يقبل أبوه محاكمته ، فهو يقبل حكم السماء عليه ، وهو يطلب الى أبيه أن يستخير الطير أو أن يرسل الى من يشاء من الكهان ليقضوا فى هـذه التهمة الباطلة بل هو يقسم على عذارته التى لم تفضها بعد امرأة ٠

ولكن أباه لم يستمع له بل يأمره بمغادرة القصر عـلى

الفور والرحيل عن البلاد دون ابطاء • وهكذا ينصرف هيبوليت يتبعه عدد عظيم من رجال حاشيته • ويخرج هيبوليت الى الشاطىء حيث مركبته وجيادة وهو كاسف البال حزين النفس •

●

ويجد هيبوليت رجاله عند الشاطىء يطهمون جياده وقد علموا بنبأ نفى سيدهم ، فأعدوا مركبته وذهبوا يتأوهون على ما أصاب هذا الفارس العفيف الذى لا تخالط عفته شائبة ولا ترقى الى فضيلته شبهة • ويسألهم هيبوليت أن يكفوا عن هذا النواح ، فالأمر قد قضى فيه ولا مفر من الرحيل ، ثم يرفع بصره صوب السماء ويصلى قائلا : « أى زيوس أردنى قتيلا ان كنت قد أذنبت ، وأعلم أبى عبرة بموتى ان لم تشأ أن تعلمه عبرة بحياتى ، فيعرف بذلك كيف أساء الى ثم يتناول سوطه ويلهب به ظهور الخيل فتجرى مركبته تنهب الأرض نهبا فى الطريق الواقع بجوار الشاطىء بين بلدة أرجوس وبلدة أبيداوروس ، حتى تتجاوز حدود البلاد ، ويبلغ بقعة صخرية جرداء لا أنس فيها • عندئذ تميد الأرض كأنما زلزل زلزالها فتشب الخيل على رجلين فزعا • وتخرج من البحر موجة عالية ، كأنها الطود وتقتحم الشاطىء ومن زبد الموجة يخرج ثور هائل كأنه زيوس كبير الآلهة حين يتخذ هيئة الثور • فترتاع الجياد أيما ارتياع ، ويقبض هيبوليت على زمامها بكلتا يديه ، ولكن فروسيته العظيمة لا تجدى نفعا ، فترتطم عربته بالصخور وتتحطم ويسقط هيبوليت جريحا على الأرض الصفاة تجره جياده المذعورة فى جنون وهو معلق فى زمامها المشتبك حوله لا يستطيع منه فكاكا ، ويصيح هيبوليت صيحة اليأس قائلا لجياده : « قفى ! قفى يا جيادى التى أطعمتها بيدى فى الحظيرة ولا تقضى على قضاء مبرما • واها من هذه اللعنة الأسيفة التى صبها أبى على ! أما من منقذ ينقذنى ، ولو من أجل فضيلتى الكاملة » ؟

ولكن هيهات لهيبوليت أن يجد من ينقذه أو ينقذ فضيلته

الكاملة هذه من مخالب الموت ، فالركب متخلف وراءه وأتباعه وهم جمع غفير لا يدركونه الا وهو معلق بين الحياة والموت ولم يبق في صدره الا رمق قصير ٠

ويحمله أتباعه الى قصر أبيه لعل أباه يرق له فلا يموت فى بلاد غريبة ، ولعل أباه يقتنع ببراءة هذا الفارس العفيف الذى صان عفته عن كل النساء ٠

ولكن الملك ثيسيوس يرى فى عذاب ولده هيبوليت الذى يصارع الموت آية على خطيئته ، فهــو قد صلى الى بوزيدون العظيم أن يصرع ولده ، عقابا له على اثمه فاستجاب له رب البحر ، فأثبت بذلك خطيئته ٠

ولا يهتــدى ثيسيوس الى الحق الا حين تتجلى له الربة أرتميس مولاة الفارس العفيف التى سحرته بفنون الصــيد وجعلته يقلو صحبة النساء ويزيد فى الحب ، ويثــور عــلى سلطان أفروديت ٠ وقبل أن تفيض روح هيبوليت المسكين يعلم الأب والابن جميعا أن كل ما جرى انما كان من كيــد الربة أفروديت لهذا الفتى الذى تحدى سلطانها فأعرض عن الحب وأعرض عن الــزواج وأراد أن يكسر هــذه الشرعة القاسية التى تحكم بها أم الغرام عالم الأحياء ٠ وقبل أن تفيض روح هيبوليت المســكين يعلم الأب والابن جميعا أن هيبوليت لم يلق حتفه بلعنة أبيــه ، فهو ما كان امرأ سوء ، ولكن بتلك اللعنة التى جلبها هو على نفسه حين صلى لزيوس أن يصرعه ان كان من المذنبين ٠ فهو قد استعلى على الحب وأراد أن يخرق ناموس الحياة ٠

ليزيستراتا

للشاعر اليونانى أرسطوفانيس

كانت مشكلة السلام تقض مضاجع القدماء كما تقض اليوم مضاجعنا وذهبت أحلام القدماء مذاهب شتى فى تصور عالم تختفى فيه الحروب ويسود فيه السلام على وجه الأرض، فحلم أنبياء التوراة بيوم لا يغمد فيه الانسان سيفه المشرع بل يصهره ويجعل منه سنانا للمحراث يشق به بطن الأرض ويستخرج منها أطيب الثمرات • وتصور شاعر الرومان الأكبر فرجيل يوما تتآخى فيه الذئاب والحملان وتتناغى فيه السباع والظباء وكتب هوراس الرومانى يبث حنينه الى السلام ذى الأبواب المفتوحة •

كل هؤلاء أخذوا السلام مأخذ الجد ، ولكن امام الكوميديا أرسطوفان وجد فى قضية السلام مناسبة يجرب فيها فكاهته المريرة وسخريته الموجعة • فقد كان أرسطوفانيس متشائما وشكاكا فى الطبيعة البشرية • وكان عدوا للمرأة كثير النقد لها ، ولكنه فى الكوميديا المشهورة « ليزيستراتا » يسخر من الرجل بقدر سخريته من المرأة ، ويجد أن الرجل لا يقل سفاهة فى التفكير عن المرأة • فالمرأة تحاول بطريقتها الخاصة المضحكة أن تضع حدا للحروب وأن تقر السلام الدائم ، ولكن الرجل بما فطر عليه من غرائز القتال وشعور بالسيادة الطبيعية يعرقل مساعيها ولكنه يرضخ

أخيرا حين تتضامن نساء اليونان فى تنفيذ خطة ماكرة تهديهن اليها ـ زعيمتهن ليزيستراتا · يرضخ الرجال أخيرا ، فيعقدون الصلح ويعلنون السلام ، وينعمون بأطايب الحب والحياة ، ولكنهم حتى فى احتفالهم بالسلام يرقصون رقصة تشبه رقصة الحرب ويشربون الانخاب للربة أثينا ذات الخوذة والرمح « حامية » أثينا وللربة أرتميس ذات السهام الكثيرة ، حامية اسبرطة ، عدوة أثينا اللدود ·

وليزيستراتا سيدة من أشراف أثينا القديمة تسكن بجوار الأكروبول ، وهو أكبر معبد بالمدينة بنى على رابية عالية فهو يشرف على أثينا كأنه القلعة المنيفة · والحرب ضروس بين مدن اليونان تسيل فيها الدماء أنهارا ، وقد تزعمت أثينا فريقا من المدن وتزعمت أسبرطة فريقا آخر · وتمر السنوات فلا يرى أحد لهذا القتال السجال من آخر · وشباب كل مدينة ورجالها فى عدة الحرب خرجوا عن بكرة أبيهم ، فلم يبق فى مدن اليونان الا النساء والشيوخ والأطفال · والمحاربون لا يعودون الى ديارهم الا لماما ، كلما أعلنت هدنة أو أعفوا للراحة وحسن التأهب ·

وتضيق نساء اليونان بهذه الحالة ، وتكون أشدهن ضيقا السيدة ليزيستراتا · وتبعث ليزيستراتا الدعوة الى ألمع نساء اليونان فى أثينا وفى أسبرطة وفى كورينث وفى سائر المدن والجزر ليجتمعن فى هيئة مؤتمر عند الأكروبول ليتداولن فى أمر مهم · ويأتى الموعد المحدد فتتأخر كل النساء ، فتصيح ليزيستراتا وقد أخذ منها الضيق كل مأخذ:

ليزيستراتا : واها لهن ! لو أنهن دعين الى حفلة من حفلات باخوس رب الخمر أو الى عيد من أعياد بان رب الاخصاب أو أفروديت ربة الغرام ، لازدحمت بهن الشوارع واكتظت على نغمات التامبورين · ولكنى لا أرى منهن واحدة ! مهلا ! · · الا جارتي كليونيسا التي أراها قادمة من بعيد ·

وتأتى كليونيسا وتحيى ليزيستراتا وتعجب لما تراه فى محياها من عبوس وتقطيب وتتذمر ليزيستراتا قائلة : ان النساء اذا دعين لأمر جلل نمن طول الصباح • ولكن كليونيسا تدعوها أن تتمسك بالصبر ، فالنساء لا يغـادرون دورهن الا بكل مشقة : هذه تعنى بزوجها وتلك توقظ خادمتها وتلك تغسـل طفلهـا أو تطعمه • أما ليزيستراتا فلا تزال عـلى ضيقها لأن الأمر الذى دعت فيه نساء اليونان خطير ومقـدم على كل هذه الأمور التافهة •

وتأبى ليزيستراتا أن تشرح لكليونيسا سبب دعوتهـا لنساء اليونان قبل أن يكتمل عقدهن فى الأكروبول ، وانما تقول ان لديها خطة خطيرة قلبتها فى رأسها الليالى الطـوال كلما أرقها السهاد • وهى خطة عظيمة حقـا كمـا تتـوقع كليونيسا ، وكيف لا تكـون عظيمة وهى لو تحققت لقـال جميع الناس وروى التاريخ : ان اليونان أنقذتها نساؤها ! ان كليونيسا تهزأ الآن من هذه الفكرة وهى أن اليونان يمكن أن تنقذها نساؤها الضعيفات • ولكنها لن تهزأ غـدا حين ترى المعجزة قد تحققت • وأن الوطن فى خطر ولن ينقذه الا نساؤه • ولسوف ترى كليونيسا بنفسها كيف سيسحرن رجال البلوبونيز ورجال بويوتيا ورجال أثينـا وكل رجال الاغريق اذا سرن بحسب ما وضعت لهن ليزيستراتا من خطة •

وتسألها كليونيسا عاجبة : ولكن كيف نحقق نحن النساء هذه المعجزة الهائلة ، ونحن اناث ضعيفات نعيش قابعات فى مقر ديارنا نتزين بثياب وضاءة شفافة من الدمقس الأصفر الفضفاض ، ونتحلى بالأزهار العـاطرة ونلبس الشـباشب الصغيرة الجميلة !

فتجيبها ليزيستراتا قائلة : انها لا تفهم أن هذه الثياب الحريرية الشفافة الهفهافة وهـذه العطور النفاذة وهـذه الشباشب الدقيقة الجميلة هى ذاتها مصـدر قوتهن ، وهى ذاتها أسلحتهن التى سيحرزن بها النصر على الرجال ، وحين

ينتصرن لن يجرد رجل على رجل سيفا أو يهز فى وجهه رمحا أو يحتمى منه وراء درع ٠

وفيما تتحدث المرأتان تلمحان جمعا كبيرا من النساء قادمات من بعيد ، وبعد قليل يصل رهط كثيف من نساء أناجيرا تقوده سيدة تدعى ميرينيه ٠ وتعتذر ميرينيه عن تأخرها فتعنفها ليزيستراتا فتجيب ميرينيه بأنها ظلت تبحث عن زنارها طويلا فلم تجده ، وهذا سر تأخرها ٠

ثم لا تلبث أن تفد عليهن أربع نساء أخريات احداهن امرأة مسترجلة ضخمة الجثة من أسبرطة اسمها لامبيتو ، ومعها امرأتان من بويوتيا وامرأة من كورينث ٠ وترحب ليزيسيراتا بالأسبرطية ترحيبا عظيما تطرى جمالها وعضلاتها ودم الصحة الذى يطفر من وجنتيها ، فهى تبدو فى قوة الثور ، بل لو أنها صارعت ثورا لصرعته ٠ وتسر لامبيتو لهذا الاطراء وتجيب بأن الفضل فى كل هذا يعود الى الرياضة التى تمارسها كل يوم ورقص الشلاليت الذى تتدرب عليه كل صباح ٠

وهنا تكثر الأسئلة وتنهال على ليزيستراتا من كل جانب : فى أى أمر دعت ليزيستراتا مجلس النساء هذا ؟ وتبتسم ليزيستراتا وتجيب : سأجيب على سؤالكن ، ولكن بعد أن تجبن على سؤالى وهو :

ليزيستراتا : ألا يحزنكن ويملأكن شقاء أن ترين آباء أطفالكن بعيدين عنكن فى الجيش ؟ انى أراهن أنه ليست بينكن واحدة لم يرحل عنها زوجها ٠

وهنا تبدأ الشكوى كأنما أثارت ليزيستراتا منهن الأشجان فكليونيسا تقول : ان زوجها فى طراقيا منذ خمسة شهور ، وميرينيه تقول : ان زوجها غائب فى بيلوس منذ سبعة شهور ، أما زوج لامبيتو فلا يعود اليها من القتال الا ليخرج سريعا الى القتال، وهنا تسألهن ليزيستراتا قائلة : ان لديها خطة لوضع حد للحرب فهل يؤيدنها فى خطتها

فتؤكد لها جميع النساء أنهن مؤيدات لها فى كل ما تفعل مهما كلفهن هذا من عنت وعناء ، ولو مشين الى أطراف الأرض ، ولو صعدن الجبال الشاهقات ، ولو صمن الأيام والليالى ، فليس أحب اليهن من انتهاء الحرب وعودة الأزواج الى بيوتهم ·

وتظهر ليزيستراتا لهن سرها الخطير صائحة :

ليزيستراتا : ·· يا أخواتى العزيزات · اذا أردنا أن نرغم أزواجنا على اقرار السلم فقد وجب أن نمتنع عن ··

كليونيسا : نمتنع عن ماذا ؟ خبرينا · خبرينا ·

ليزيستراتا : وهل تمتنعن حقا ·· ؟

ميرينيه : نعم نمتنع · نعم نمتنع ·· ولو كلفنا ذلك الحياة نفسها ·

ليزيستراتا : اذن فلابد أن نمتنع عن مضاجعتهم تماما ·· ما هذا ؟ لماذا تولينني ظهوركن ؟ الى أين أنتن ذاهبات · أراكن تعضضن الشفاه ، وتهززن الرءوس · فيم كل هذا الشحوب ؟ وفيم هذه النظرات الحزينة ؟ فيم هذه الدموع ؟ أجبنني : أأنتن موافقات ؟ أجبن فى كلمة : نعم ، أو لا · هل تترددن فى القبول ؟

كليونيسا : أنا لن أمتنع · ولتستمر الحرب ·

ميرينيه : ولا أنا ولتستمر الحرب ·

وتعيرهن ليزيستراتا بحماسهن الزائف فتقول كليونيسا: « اطلبى الينا أى شىء ·· أى شىء الا هذا · مرينى أن أمشى فى النيران اذا أردت ، ولكن غير معقول أن تحرمينا من أحلى شىء فى الحياة ، يا حبيبتى ليزيستراتا » ؟

وتؤيد ميرينيه كلام كليونيسا ، فتثور ليزيستراتا قائلة : « يا لنا من جنس داعر خسيس ، اننا نستحق ما أظهرنا فيه شعراء المآسى من صور الاجرام، .فنحن لا نصلح

لشيء الا للحب وللعهارة » • وهنا تتدخل لامبيتو الأسبرطية قائلة بعد ترو : « ان ما تطلب ليزيستراتا لأمر عسير حقا ، ولكنها ترى رأيها ، فالسلام مقـدم عـلى كل شيء • فتفرح ليزيستراتا وتتهلل قائلة : ان لامبيتو هي الوحيـدة بينهن الجديرة باسم المرأة •

وتستفهم كليونيسا قائلة : وكيف يأتي هـذا الامتناع بالسـلام • فتشرح لهـا ليزيستراتا الأمر قائلة : ان الحب ليس نقطة الضعف في المرأة وحدها ، ولكنه نقطة الضـعف في الرجل كذلك • وما على المرأة الا أن تنتظر عودة زوجها متزينة بأجمل زينة مبدية كل مفاتنها من غلائلها الشفافة متعطرة بأطيب العطور لتلهب في زوجها نار الرغبة • وحين تضطرم فيه نار الرغبة تمتنع عليه حتى يستسلم لارادتها ويعقد السلم ويكف عن القتال • انها مقتنعة بأن هذه الخطة ناجعة ، فهذا أمضى سلاح يمكن أن تشـهره المرأة في وجه الرجل وترده به الى صوابه •

ويكثر الجدل بين النسوة ، وأخيرا يقتنعن بالفكرة • ولكن كليونيسا تخشى أن يستعمل الرجال مع نسائهن العنف • وتأمرهن ليزيستراتا أن يقاومن ما استطعن الى ذلك سبيلا ، أما اذا اعتـدى عليهن الـرجال بالضرب فليرضخن رضـوخ الكارهات ، وهذا وحده كفيل بأن ينفر الرجال ، فالرجال يزهدون في الحب ان لم تشارك فيه النساء بقلوبهن • وتقول لامبيتو متحدثة بلسان نساء الأسبرطيين أعداء أثينا •

لامبيتو : أما نحن الاسبرطيات فلسنا نشك في أننـا سنقنع أزواجنا بعقد صلح عادل شريف ، ولكن ما العمل مع رعاع الأثينيين ، وكيف نشفي هؤلاء القـوم من هسـتيريا الحرب التي تنتابهم ؟

ليزيستراتا : لا تخشي شيئا • سنتكفل بجعل رجالنـا يستمعون لصوت العقل •

لامبيتو : محال أن يستمعوا لصوت العقل وفي حوزتهم

سفائنهم العتيدة وتحت يدهم الكنوز المخزونة فى معبد أثينا بالأكروبول ·

ليزيستراتا : اننا قد أخذنا لهذا عدته ، ففى هذا اليوم بالذات سيسقط الأكروبول فى أيدينا ، وقد عهدنا الى النساء العجائز بالاستيلاء عليه ، وفيما نحن مجتمعون هنا فى هذا المجلس ، تمضى العجائز اليه متظاهرات بتقديم القرابين ، وبهذا يستولين على القلعة ·

وبعد أن يطمئن الجميع الى احكام الخطة تجمع ليزيستراتا النساء ليقسمن على احترام هذا العهد الذى قطعنه على أنفسهن · فتأتيهن ليزيستراتا بدرع ليذبحن شاة وليقسمن عليه ، فتنبهها كليونيسا الى أن من يطلبن السلام لا يقسمن على أداة من أدوات الحرب · وينتهى أمر النساء الى الاتفاق، فتأتى ليزيستراتا باناء أسود كبير ، وتكون ذبيحتهن قربة من أطيب النبيذ يفرغنها فى الاناء ، وقد امتدت أيديهن الى الاناء وهن يرددن القسم بعد ليزيستراتا التى تقول كالمصلية :

ليزيستراتا : لن أسلم نفسى لأحد ، عاشقا كان أو زوجا ولو جاءنى يتقد بالأشواق ، وسأعيش فى دارى لا يقربنى رجل ، أرتدى جميل الثياب وألبس غلالة من الحرير الأصفر الشفاف قاصدة أن أذكى فى زوجى نار الغرام ، ولن أستسلم له راضية ·· فان بررت بقسمى كافأتنى الآلهة بجرعة من هذا النبيذ أما ان حنثت به فلتمتلىء كئوسى بالماء ·

وبعد أن يفرغن من القسم يدور عليهن اناء النبيذ فتشرب كل حتى ترتوى · ويأتى النبأ بأن النساء العجائز قد استولين على الأكروبول · فتودع ليزيستراتا لامبيتو الأسبرطية ، فهى تعود الى أسبرطة لتتولى تنظيم هذه الحركة بين نسائها ·

وتنتقل ليزيستراتا على رأس النساء الى الأكروبول ويعسكرن فيه وقد أخذن أهبتهن للدفاع عنه اذا جاءهن

مهاجم . وتأتى جماعة من الرجال العجائز وهم يحملون الأخشاب ليوقدوا النار تحية للربة أثينا ، فيجد هؤلاء الرجال العجائز النساء تحرس أبواب الأكروبول وتنهاهم عن دخوله .

ويعجب الشيوخ لما يرونه ويتحدثون عن تأديب هؤلاء النسوة الفاجرات اللواتى يثرن على كل التقاليد ويجترئن على محراب الربة أثينا فيستولين عليه . ويوقد الشيوخ نارهم ، وهم يصيحون أنهم يخفون الى اغاثة الربة أثينا ، فلا يخرج من نارهم لهب كثير وانما يخرج دخان كثيريدخل فى عيونهم فيوجعها . ويجتمع كوراس الشيوخ حول النار ولا يزال ينفخون فى الأخشاب حتى ترعى فيها النار ، وهم يقصدون أن يهاجموا جمع النساء ويقذفوهن بالألواح المحترقة ليجلوهن عن الأكروبول .

ويصلى الشيوخ الى الربة أثينا سائلين النصر على النساء الوقحات المتمردات اللائى اغتصبن محرابها ، راجين أن تذكى الربة أثينا نارهم فيحرقوا بها النساء . فيجيبهم كوراس النساء قائلات : « ردى كيدهم أيتها الربة ، وباذنك اجعلينى أرى أثينا وبلاد الاغريق كلها تشفى من هوس الحرب الذى يسيطر عليهم . فانما أخذت النساء محرابك ، أى أثينا يا حامية مدينتنا ويا ذات الدرع الذهبى ، لتحقيق هذه الغاية ، فكونى صديقة النساء وحليفهن ، يا أثينا ، واذا ألقى علينا رجل من الرجال أخشابه المشتعلة ، فأعينينا على اطفائها بما نحمل من ماء » .

وتخف النساء الى الينبوع يملأن منه جرار الماء ، ويقبل الشيوخ على نيرانهم يذكونها . وتتشاتم النساء والشيوخ . فيصيح قائد الشيوخ : « أيتها النساء ، اللعينات » فتصيح به قائدة النساء : « وأنتم أيها الأحياء والأموات ، ماذا أنتم فاعلون بالنار فى هذا المكان ؟ » . ويهم الشيوخ بالنساء فتدلق النساء عليهم جرار الماء وتغرقنهم به وتطفئن نارهم .

ويصرخ الشيوخ مستجيرين « كفى ! كفى ! » وهم يرتعشون من البلل ٠

ويقبل ضابط أثينى ومعه أربعة من جنوده القوقازيين الأشداء ، بعد أن تختفى النساء وراء الباب ويغلقنه بالمزلاج ٠ ويسمع الضابط شكوى الشيوخ فيثور ويقرر أن يحطم الباب ويقتحم الأكروبول ويجلى عنه النساء ، ويهيب برجاله أن يأتوه بعتلة وروافع وتسمع ليزيستراتا كلامه فتفتح الباب فى هدوء قائلة أنهم ليسوا بحاجة الى عتلة وروافع بل الى شىء من المنطق ٠ وما أن يراها الضابط حتى يأمر رجاله بالقبض عليها ، فتتوعده ليزيستراتا بسوء المآل ان هو مسها ، ويتقدم جندى من جنوده القوقازيين الأشداء ليقبض على ليزيستراتا ، ولكنه سرعان ما يرتد خائفا ازاء تهديد كليونيسا ٠٠ ثم يتقدم الثانى فتتوعده ميرينيه والشرر يتوقد فى عينيها ، فيرتد خائفا ٠ وهكذا الثالث وهكذا الرابع ، ولا يجد الضابط حيلة يشتت بها النساء الا أن يجمع رجاله من حوله ويحمل بهم على صفوف النساء كأنه يخوض معركة ٠ ولكن الضابط ورجاله يرتدون سريعا طالبين السلامة بعد أن توسعهم النساء ضربا ولكما وصوت ليزيستراتا يرعد فى أذنه : « لقد ظننتنا جماعة من رقيق النساء ٠٠ لقد كنت تجهل معنى الحمية التى تعرفها النساء الأحرار » ٠ وهنا يسألها الضابط :

الضابط : سؤالى الأول هو : لم أغلقتم أبواب الأكروبول؟

ليزيستراتا : لنستولى على الخزانة : فاذا انقطع المال توقفت الحرب ٠

الضابط : اذن فالمال هو سبب الحرب ؟

ليزيستراتا : وسبب كل المصائب ٠ أنظر : الى بيساندر والى كل المهيجين ، انهم لم يشعلوا الثورة بعد الثورة الا ليجدوا وسيلة للنهب ! ولكنهم لن يحصلوا منا على درهم واحد ٠

الضـــابط : وماذا اعتزمتن أن تفعلن ؟

ليزيستراتا : أتسألنى هذا السؤال ؟ اعتزمنا طبعا أن ندير الخزانة بأنفسنا ٠

الضـــابط : أنتن تدرن الخزانة ؟

ليزيستراتا : وما موطن العجب فى هـــذا ؟ نحن نـدير ميزانية البيت ؟

الضـــابط : ولكن هذا شيء آخر ٠

ليزيستراتا : وأى فرق بين هذا وذاك ؟

الضـــابط : أن الخزانة تمول الحرب ٠

ليزيستراتا : وهذا أول مبدأ من مبادئنا : الغاء الحرب !

الضـــابط : ما هذا الكلام ؟ وسلامة المدينة ؟

ليزيستراتا : نحن نتكفل بسلامة المدينة ٠

الضـــابط : أنتن ؟

ليزيستراتا : نعم ، نحن !

الضـــابط : اذن أبشرى بطول سلامة يا أثينا !

ليزيستراتا : نحن سننقذك ، سواء رغبت أم كرهت ٠٠٠ نعم أنت ستنقذ يا صديقى الطيب ٠

الضـــابط : ولكنى لا أريد أن أنقذ !

ليزيستراتا : هذا سبب أدعى لانقاذك ٠

ويشـتد غضب الضـابط فيزأر فى وجه ليزيستراتا قائلا : « أية فكرة جنونية هذه أن تشغلن أنفسكن بشـئون السلم والحرب » ! فتجيبه ليزيستراتا فى حـزم قائلة : ان نساء اليونان قد صبرن طويلا على تصرفات الرجال دون أن ترتفع لهن شكوى أو يسمع لهن أحد أنينا ٠ وفى كل بيت كان كل الرجال يجتمعون ويتجادلون فى السياسة ، والنساء

صامتات لا يفتحن أفواههن • فان فتحت احداهن فاها سمعت زوجها يقول : اخرسى أيتها الحمقاء ، أو أرجوك أن تسكتى، فان اجترأت على الحديث رفع يده متوعدا أن يلطمها صائحا ان الحرب من شئون الرجال • ولكن الكيل ، كيل النساء ، قد طفح فبالأمس مشى المنادى ينادى فى شوارع آثينا قائلا : « هل بقى بالمدينة رجال ! » وتبين ان أثينا غدت خلوا من الرجال • وهنا استقر عزم النساء على أن يتحدوا لانقاذ اليونان من هذا الجنون المطبق • فاذا رضى الرجال بأن ينتصحوا بنصحهن فلقد تسير الأمور على ما يرام •

ويقول الضابط ساخرا انه يؤثر الموت على الاستماع لذات خمار ! ثم يصيح غاضبا :

الضابط : أليس هذا جريمة وعارا أن نبصر هؤلاء النسوة يصرفن شئون الدولة وهن لا يحملن شيئا من أعباء الحرب ولا يعرفن من فنونها شيئا ؟

فتنفجر فيه ليزيستراتا قائلة :

ليزيستراتا : أى قول هذا أيها البائس ! بل قل اننا نحمل العبء الأكبر من دون الرجال ، فأولا نحن نلد الأبناء الذين يخرجون من أثينا للقتال •

الضابط : كفى ما قلته ، ولا تفتحى باب الذكريات الحزينة !

ليزيستراتا : وثانيا ، بدلا من أن ننعم بأطايب الحب ونستمتع بشبابنا وجمالنا ، نحن نتخلف بعيدا عن أزواجنا وندبل فى وحدتنا • ولكن كفى حديثا عن أنفسنا ، وانما تتفطر قلوبنا حين نرى بناتنا يتقدمن فى العمر فى هذه الوحدة الحزينة

الضابط : ألا يتقدم الرجال فى العمر كذلك ؟

ليزيستراتا : نعم ، ولكن أمرهم مختلف ، فالجندى حين يعود من الحروب سرعان ما يجد لنفسه زوجة شابة مهما كسا

المشيب رأسه . أما المرأة فليس لها الا ربيع واحد ، واذا لم توفق فى شبابها غدت عانسا لا يلتفت اليها الرجال ، وقضت بقية حياتها تزور الأولياء الذين لا يرسلون اليها زوجا .

ويعلو صخب الشيوخ ويتصايحون : « الطغيان ! الطغيان ! طغيان أفظع من طغيان هيبياس » . ان الشيوخ يقدرون أن النساء يستولين على الحكم ليقمن حكومة النساء ، فاذا نجحن فى مسعاهن حكمت نساء آثينا رجالها ، وعندئذ يكون طغيان أفظع من طغيان هيبياس . أما زعيم الشيوخ فيقول انه لن يرضى بهذا الطغيان أبدا ، والموت أحب اليه من الاستسلام لحكم النساء . انه يحمل بين طيات ردائه خنجرا . وهو يعرف كيف يجهز به على نفسه فى الميدان العام اذا حكمت أثينا النساء فيموت شهيد الحرية ! وتتوعد النساء الشيوخ بالشباشب ان لم يخلدوا الى الصمت ويكفوا عن الثرثرة . ولكن الشيوخ يمضون فى صياحهم المفزوع ، فهم يعلمون أن جرأة النساء لا تحد بحدود ، ولو ترك لهن الحبل على الغارب ، فغدا يبنين الأساطيل ويحاربن فى البحر شأن الرجال ويركبن الخيل ويتفوقن على الرجال فى فنون الفروسية والقتال كما فعلت النساء الأمازونات من قبل برجال اليونان .

ولكن ليزيستراتا تترك الشيوخ وشأنهم فقد اكتشفت أن بين صفوفها تسرى « الخيانة » ، ولابد من قبضة حازمة ليجرى كل شىء فى مجراه . فهذه امرأة تحاول أن تتسلل خفية من الأكروبول عن طريق الباب الخلفى وقد تدلت بحبل قاصدة العودة الى بيتها حيث ينتظرها زوجها العائد من الميدان . وحين تضبطها ليزيستراتا تعتذر بأنها انما أرادت أن تنقى صوفها ثم تعود على الفور الى الجماعة وهذه أخرى تحاول أن تهرب بحجة نشر كتانها وثالثة تستأذن ليزيستراتا فى الانصراف لأنها حامل وسيأتيها المخاض عما قريب . وتعجب ليزيستراتا لها فهى تعلم أنها فى الأمس لم تكن حبلى ، وتتحسس بطنها فتجد أنها قد نفخت نفسها بخوذة

الربة أثينا ! وهذه رابعة تقول انها لا تستطيع النـوم في الأكروبول بعد أن رأت الحية المنحوتة التى تحرس المعبـد ! وهذه خامسة تشكو من نعيق البوم وتطلب الانصراف ٠

وتنهرهن ليزيستراتا على خداعهن، وتقوى من عزائمهن قائلة ان المعركة معركة صبر وارادة ٠ فلا شك أن أزواجهن يشتاقون اليهن بمثل ما يشتقن هن لأزواجهن ولكن النصر سيكون حليف من صابر وكابد ٠

ويبدو على منحدر الأكروبول رجل فيمشى الاضطراب في صـفوف النسـاء ٠ وبعـد قليل يتبين أنه سينسياس زوج ميرينيه الذى عاد من الوغى مشوقا الى أحضـان زوجتـه ٠ وتجد ليزيستراتا أن الفرصة مهيأة للبدء فى تحطيم معنويات الرجال فتنصح ميرينيه قائلة : « هيا الى العمل يا ميرينيه ! فلتكن مهمتك الهابه وتعذيبه فجربى معه كل ما تعرفين من فنون النساء من اغراء وملاطفة واستشاطة ثم اعراض ، أعطيه كل ما يطلب الا ما حرمه عليـه القسم الذى أقسمت حول اناء النبيذ » ٠

وتخلى النسوة المجال لينفرد سينسياس بزوجته ميرينيه ٠

ويشكو سينسياس لميرينيه حبه المتقـد وعذاب الفراق ويطلب اليها أن تقترب منه فتعرض عنه في ازدراء قائلة : انه لا يريدها ويسترسل سنسياس فى نجوى غرامه مؤكدا لها حبه متوسلا اليها ألا تستمع للنساء المخرفات المعتصمات في الأكروبول وأن تعود معه الى دارهما حيث يقيمان شعائر أفروديت ، فيكون جوابها الصريح « لن أفعل ذلك حتى توقع معاهدة عادلة تضع حدا للحـرب » ٠ فيقـول سينسياس : « ما دمت حريصة على هذا كل الحرص ، فسـنوقع هـذه المعاهدة التى تطلبينها » ٠ فتجيبه قائلة : « جميل ! وحين توقع المعاهدة سأعود الى البيت ٠ أما قبل ذلك فانى مقيدة بقسمى » ٠ فيذهب سينسياس يحدثها عن غرامه بها وشوقه اليها ، وتذهب ميرينيه تحدثه عن السلام ووجوب التصويت

فى الجمعية ضد الحرب فتستخلص منه الوعود ولا يستخلص هو منها شيئا أكثر من الوعود ، وتتركه أسوأ حالا مما جاء ، وقد جعله الحب يهذى كالمجنون ، فينطلق من حيث جاء وهو لا حديث له الا الحب والسلام ٠

ويأتى رسول من أسبرطة حاملا رسائل يقول انها موجهة الى مجلس الشيوخ وأنها تعرض الصلح على رجال أثينا ، ويستوقفه الضابط الذى يشتبه فى اضطرابه ٠ فيعلم منه أن أسبرطة وحلفاءها قد غدوا فى أسوأ حال ، منذ أن كتلت لامبيتو نساءها وعبأتهن ليقاطعن رجالهن حتى يبرم الصلح بين أسبرطة وأثينا ٠ وهنا يقول الضابط : « الآن أرى أن المؤامرة عامة تشمل كل بلاد اليونان ٠ هيا عد الى أسبرطة واطلب اليهم أن يوفدوا الينا وفدا مفوضا لعقد الصلح ، وسوف أطلب أنا الى مجلس شيوخنا أن يعين من بيننا وفدا» ٠

وبعد قليل يصل وفد من أسبرطة ووفد من لاكونيا ، فيبحث الضابط عن ليزيستراتا فهى خير من يساعدهم على الوصول الى شرط الصلح ، وتخرج اليهم ليزيستراتا من الأكروبول ٠ ويناشدها كوراس الشيوخ قائلا : « لك التحيات يا أشجع النساء ! لقد جاء الأوان لتظهرى قدرتك على التوفيق دون تفريط ، فتشتدى حين تلزم الشدة وتلينى حين يلزم اللين وتجمعى بين كبرياء المتعالى وتواضع المتواضع ٠ هيا استحضرى كل ما تملكين من حذق وفن ، فقد مثل أمامك أقطاب اليونان بقوة سحرك وتراضوا على أن يعهدوا اليك بانهاء ما بينهم من احن » ٠ فتجيبه ليزيستراتا هازئة :

« ولن يكون هذا أمرا عسيرا اذا كف الرجال عن الاستعاضة بالرجال عن النساء فاذا كانت حالهم قد استقامت فلن يخفى ذلك علينا ٠ أين ربة السلام الوديعة ؟ الينا بوفد لاكونيا ٠ الينا بوفد أثينا ٠٠ والآن أصغوا لى جميعا : ما أنا الا امرأة ، ومع ذلك فعندى المنطق الراجح ، فالطبيعة قد زودتنى بالنظر الثاقب وحسن التمييز بين الأمور ، وهى

موهبة نميتها بفضل ما علمنيه والدى من تعـاليم الحكمة وبفضل ما أخذته عن شيوخ مدينتنا من الفـكر الراجح • وأول ما أقوله لكم هو أنى ألومكم جميعا ، فكلكم فى هـذا مذنب على قدم المساواة يا آل أثينا ويا آل أسبرطة : فأنتم تعبدون فى أوليمبيا وفى ثرمو بيلاى وفى دلف وفى أماكن أخرى لا تعـد ولا تحصى نفس المعبودات التى يشترك فى تقديسـها كل أبنـاء اليونان ، تقيمون فى محـاريبها عين الشعائر التى يعرفها جميع اليونان • ومع كل ذلك فانكم تذبحون بعضـكم وتدمرون مدن هيـلاس ، بينما البرابرة يتهددونكم • هذه أول نقطة فى كلامى » •

ثم تلتفت ليزيستراتا الى وفد أسبرطة وتقول معنفة :

« انى أخاطبكم يا آل لاكونيا ، فأقول : هل نسيتم كيف جلس ابن جلدتكم بريكليداس ضارعا عند محاريبنا ، وكيف بدا شاحب الوجه فى عباءته الأرجوانية ! أنسيتم أنه جاء يرجونا أن نبعث اليه جيشا من أبناء أثينا ، وكان ذلك يوم هاجمتكم مسينا وضيقت عليكم الخناق ، وكان رب البحـر يهز جنبات الأرض • فخرج سيمون لنجدتكم على رأس أربعة آلاف فارس وأنقذ أسبرطة • أبعد هـذا الصنيع تدمرون أرض من أحسن اليكم » ؟

ثم تلتفت الى الأثينيين وتقول :

« والآن هذه كلمتى أسوقها الى الأثينيين أنسيتم أيام لبستم رداء الذل فجاء الأسبرطيون حاملين السلاح وفتكوا برهط تساليا وأنصار الطاغية هيبياس الذى استعبدكم ؟ لم يقاتل فى صفكم الا أبناء أسبرطة وحدهم فى ذلك اليـوم المشهود ، فحرروكم من ربقة الطغيان ، فالفضل لهم اذا كان شـعب أثينا قد خلع عنـه رداء العبيـد ولبس مكانه رداء الأحرار » •

ويجـد الأسبرطيـون والأثينيون فى لباقة ليزيستراتا وحصافتها ما يرضيهم ، فهى لا تنحاز لهـؤلاء ضد أولئك ،

ولا تنحاز لأولئك ضد هؤلاء ، ولكن تعطى كل ذى حق حقه . وأخيرا تقول ليزيستراتا :

« فاذا كانت كل هذه العرى الكريمة تربطكم ، فكيف ترضون بأن يشهر كل سلاحه فى وجه صاحبه .. كفوا عن هذا القتال البغيض ولتأتلف قلوبكم . فماذا يمنعكم عن الصلح » ؟

ويصيح مندوب أسبرطة قائلا : « نحن على أتم استعداد للصلح اذا ردوا لنا حصننا » .

ليزيستراتا : أى حصن يا صديقى ؟

مندوب أسبرطة : بيلوس التى ما فتئنا نطالب بها منذ زمن طويل .

الضابط الأثينى : أقسم برب البحر ! لن تكون لكم بيلوس !

ليزيستراتا : اتفقوا يا أصدقائى ، اتفقوا .

الضابط الأثينى : ولكن اذا أعطيناهم بيلوس فلن نجد مدينة نثير فيها الاضطرابات .

ليزيستراتا : اطلبوا مدينة أخرى مقابلها .

الضابط الأثينى : فهمت الفكرة ! اذن ، أول كل شىء أعطونا أخينوس وخليج ماليا المتصل بها ، وساقى ميجارا .

مندوب أسبرطة : بحق الآلهة ، لن تحصلوا على هذا .

ليزيستراتا : اتفقوا ، اتفقوا ، لا تختلفوا على ساقين!

وكأنما ردهم حديث السيقان الى التفكير فى نسائهم ، فذهبوا يطلقون الفكاهات على السيقان ، فتردهم ليزيستراتا قائلة : « لن تكون لأحد سيقان الا اذا أبرم الصلح .. هيا ، عودوا الى حلفائكم وتشاوروا معهم فى الأمر » . فيعلن مندوبو أسبرطة ومندوبو أثينا أنهم يعبرون عن رأى

حلفائهم الذين لا يقلون عنهم شوقا الى السلام ومباهجه الكثيرة ·

وهكذا تتفق أثينا وأسبرطة أخيرا بعد صراع دام أعواما طوالا · وبعد أن يتم الاتفاق تعلن فيهم ليزيستراتا أن نساءهم قد أعددن لهم وليمة عظيمة داخل الأكروبول يأكلون فيها هنيئا ويشربون فيها مريئا ، وتأذن لهم ليزيستراتا فى دخول الأكروبول فيجدون زوجاتهم ، ينتظرنهم بشوق فائض وقلوب سخية · ويغنى كوراس النساء محتفلا بحلول السلام مرحبا بعودة الغائبين قائلا :

« الخز والديباج وأجمل الثياب الفضفاضة الهفهافة . وحلى الذهب ، وكل ما أملك ، أهديك اياه بقلب سخى . فخذها كلها من أجل أطفالك ·· هيا ادخلوا ، فانى أدعو كلا منكم للدخول ، وليختر كل منكم ما يهواه فؤاده · فهنا لا أقفال ولا أختام ، وكل عقدة لها حل ، فلا تدخلوا دخول اللصوص الذين يفضون الأختام ويحملون الكنز المكنوز ·· فان كان بيتكم من لا يجد قمحا يطعم به عبيده وصغاره الكثيرين ، ففى دارى من الخير فيض قليل اقتسمه معه ، وليأخذ مما أعطى وفيه خبز كثير ، وليأت جيرانى الفقراء وليملأ كل جعبته مما ادخرت » ·

وتقام المأدبة احتفالا بالسلام ، وتجرى فيها الراح أنهارا ويأكل الجمع من أعناب اليونان الشهية ، ويعزف العازفون بالناى ، بشير السلام والحب الوادع الخلى · ويرقص كوراس الأسبرطيين تحية لأثينا ، ويرقص كوراس الأثينيين تحية لأسبرطة · أما كوراس الأسبرطيين فيغنى قائلا :

« أى ربة الرقص والغناء ، ألهمى هؤلاء الرجال ، وألهمى عرائس وجدانى العارف بأمجاد أسبرطة وبأمجاد أثينا : فلقد انقضوا فى وقعة أرتميسيوم على سفن الميديين انقضاض البواشق فى بسالة من بسالة الآلهة ! وما كان أروع

ذلك النصر ! ، فجنود ليونيداس كانوا كالوعول البرية التى تشحذ سنانها ، وتصبب العرق على وجوههم فابتلت به ثيابهم ، فلقد كان الفرس حقا بلا حصر ولا عدد كأنهم الرمال على شاطىء البحر • أى أرتميس ! يا ملكة الصيد والطراد ! يا من تخترق سهامك وحوش الآجام ، أيتها الربة العذراء ! باركى هذا الصلح الذى نعقد ، ولتأتلف بنغمتك قلوبنا طويلا ، ولتوثيق هذه المعاهدة أواصر الصداقة السعيدة الى أبد الآبدين • فلا نعود الى مكائد الحرب وخدع المحاربين ، فأعيننا على ذلك ، أعيننا أيتها العذراء يا ربة الصيد والطراد ! » •

أما كوراس الأثينيين فيجيبهم منشدا :

« يا راقصات اخرجن ، في كنف ربات الجمال ! فلنتوجه جميعا بالدعاء الى الربة أرتميس وأخيها الالهى أبولو الجميل ، مولى الرقص ، وديونيزوس رب الخمر الذى تقدح عينه شررا ولهبا وهو يتقدم تحيط به كوكبة من العذارى الميانيد ، ولنتوجه بالدعاء الى زيوس كبير الأرباب الذى صولجانه من البرق الخاطف ، والى زوجته الجليلة هيرا ، ملكة السماء ، عليها السلام ثلاثا ! أجل فلنتوجه بالدعاء الى هؤلاء جميعا ، والى سائر الآلهة ، داعين قطان السماء كلهم ليكونوا شهودا على هذا الصلح الشريف الذى عقدناه الآن برعاية أفروديت ربة الغرام ! •• هيا أنشدوا، وارقصوا واقفزوا احتفالا بهذا النصر الذى أحرزناه » •

وهكذا يخيم السلام على اليونان فيكف بنوها عن صيد الرجال فى حومة الحرب الى صيد الوحوش فى الآجام ، كأنما الصيد والطراد فريضة على بنى الانسان !

السيد ..

للشاعر المسرحي بيير كورناى

ولد كورناى عام ١٦٠٦ وتوفى عام ١٦٨٤ عن ثمان وسبعين سنة ، وكان مولده فى مدينة روان بشمال فرنسا لأسرة نورماندية عريقة أكثر أبنائها يشتغل بالقضاء ، وقضى بالريف أكثر حياته أو ستا وخمسين سنة على وجه التحديد ، عاشها عيشة هادئة ولم يكن يزور باريس الا بين الفينة والفينة ليلتقى بالفنانين والكتاب . ولكنه لم يغش صالونات باريس الأدبية قط .

وكان أكثر نظم كورناى من الشعر المسرحى من لون التراجيديا أو المآسى وأهم ما وضع من هذه المآسى مأساة « السيد » (١٦٣٦) و « هوراس » (١٦٤٠) و « سينا » (١٦٤٠) و « بوليوكت » (١٦٤٣) و « نيكوميد » (١٦٥١) وهى أسماء كلها من أسماء الأعلام . وكان آخر ما كتبه كورناى للمسرح مسرحية تدعى « برناديت » (١٦٥٢) فشلت فشلا ذريعا فكف عن الكتابة للمسرح ، واعتكف عن الحياة الفنية وظل نحوا من ست سنوات يترجم الشعر الدينى والكنسى . ثم أقنعه بعض أصدقائه أن يخرج من عزلته وينتقل الى باريس ليكون على مقربة من الأوساط الفنية التى أخذ الشاعر المسرحى الشاب راسين يسيطر عليها بعد أن كان كورناى سيدها .

واضطربت حياة كورناى فى باريس من الناحية المالية لقلة موارده نسبيا وكثرت همومه ، فقد تزوجت بناته وتوفى بنوه وعاش فيما يشبه العزلة ولكن أعظم جانب من مأساته كان مرده أفول نجمه فى عالم المسرح بعد أن كان فيه كالثريا الساطعة ، فقد تغير الذوق وحلت المدرسة الكلاسيكية محل طريقته فى الابداع ، وهى طريقة تقف موقفا وسطا بين فن عصر النهضة القائم على الخيال والتحرر والعاطفة الصاخبة والتجديد فى كل شىء ، وفن المدرسة الكلاسيكية القائم على العقل والعاطفة المصقولة واتباع السلف فى كل شىء ! ..

وقد بلغ من النجاح الذى أصابته مسرحية « السيد » عند ظهورها أن تألب على كورناى جميع كتاب المسرح فى فرنسا بغية تحطيمه واشترك معهم فى ذلك الكاردينال ريشليو نفسه الذى كان مؤلفا فاشلا يكتب للمسرح فى أوقات فراغه . وقد أوعز ريشليو الى الأكاديمية الفرنسية أن تجرح عمل كورناى ، ولكن جمهور المسرح لم يعبأ برأى ريشليو ولا برأى الأكاديمية بل ذهب يتغنى بجمال مسرحية « السيد » ...

ويمكن تنويها بمقام كورناى فى الأدب أن نقول انه واضع أساس المسرح الفرنسى بالمعنى الجاد لهذه الكلمة ، وأعظم كاتب للمسرح فى فرنسا قبل راسين ..

●

والسيد قصة صراع بين الحب والواجب أو الشرف احتدم فى صدر امرأة فجعلها نهبا للعواطف المتضاربة لا يستقر لها قرار تحب أبغض شىء الى قلبها وتبغض أحب شىء فى فؤادها ، ولا تجد مخرجا من هذا الجحيم الذى تعيش فيه الا أن تعتزل العالم فترة من الزمن .

ولبعض أشخاص هذه القصة وجود تاريخى كما أن الحادث الذى تدور عليه المأساة جرت فيه الروايات القديمة جرى الأساطير . فالملك الذى تجرى وقائع هذه المأساة فى

بلاطه هو الملك فردينـانـد الأول أو فردينـانـد الكبير ملك كاستيل ، وهى ولاية من ولايات اسـبانيا اشتهر رجالهـا بالعواطف الصاخبة والخيال الملتهب وقد مات هذا الملك عام ١٠٧٥ ميلادية ، واسمه فى هذه المسرحية دون فرنان . أول ملك لولاية كاستيل هذه ولهذا الملك ولية عهد أو انفانتـا كما يسميها الاسبان ، واسم هذه الانفانتا ، دونا أوراك ٠

أما الفترة التاريخية التى جرت فيها هذه الوقائع فهى تلك الأيام التى نهض فيها الاسبان ليقاوموا حـكم العـرب ويقصوهم عن ديارهم بعد أن ظل العرب سادة الأندلس قرونا عديدة ٠ وقد برز فى البطولة فارس شاب من أهل كاسـتيل بالأندلس يدعى دون روديريجو (لذريق) ولد نبيل من نبلاء البلاد يدعى دون دييجو ، وطار صيت فروسيته ، حتى لقبه الجميع «بالسيد» ، وهى كلمة عربية جرت على لسان الاسبان تحمل معنى الشرف والفروسـية والامارة ، ولـكن الفتى رودريج هذا رغم بطولته هذه وتفوقه فى القتال والتفـاف قلوب الاسبان من حوله كان فتى شقيا يحمل فى قلبه غراما بائسا فقد علق قلبه بفاتنة من بنات النبلاء تدعى كيمين ، كان أبوها وهو الكونت جوميز من رجال الحاشية مقربا الى الملك فرناندو ٠ وكانت كيمين الجميلة تحب رودريج الباسل كما كان الباسل رودريج يحب الجميلة كيمين ٠ وقد تقـدم لخطبة كيمين شابان فى وقت واحد هما دون رودريج ودون سانكو الذى كان ينافس رودريج فى حب كيمين ٠ ولم تتأمل كيمين طويلا فى صفحة قلبها لتقرأ فيها أن رودريج هو فتى أحلامها ، رغم أنه كان حديث العهد بالفروسية لم تعجم بعد المعارك عوده أو تظهر صلابته لمواطنيه ٠

ولكن القلب يغالب نفسه ، فالتقاليـد فى تلك الأيام كانت تنهى الفتاة عن اظهار شىء مما يعتمـل فى صـدرها والكشف عن هواها أين يميل حتى يأذن لها أبوها فى ذلك ، بل حتى يقول أبوها قولته ويدلى برأيه فيمن ينبغى عليهـا أن تختاره زوجا ٠

وهكذا تقف كيمين معلقة بين هذين العاشقين ، بين رودريج وسانكو ، تنتظر قرار أبيها الكونت جوميز : كل منهما يخطب ودها ولكنها لا تبوح بشيء • وتصارح كيمين مربيتها الفيرا بحقيقة شعورها ، فتطمئنها الفيرا بان أباها الكونت يقر اختيارها دون رودريج • ان المربية تعرف كل شيء عن هواها • ولكنها في كل حديث لها مع الكونت قد صورت له قلب كيمين خاليا من كل هوى ، فهى لا تحيى الأمل في قلب هذا ولا تقتله في قلب ذلك ، وهى توزع بينهما نظراتها وكلماتها بالعدل وهى تنتظر أمر أبيها بأن تختار من بينهما زوجا » •

ويسر الأب بعفة ابنته وادراكها لواجبها حين يسمع كل هذا من مربيتها ، فيصارح المربية برأيه فى الشابين معا ، انهما من خيرة شباب كاستيل ، وكلاهما كريم المحتد نبيل الأسلاف ، وكلاهما من بيت اشتهر بالفرسان والشجعان وفضائل الحرب والطعان ، وهذه فى رأى الكونت وفى رأى قومه فى ذلك الزمان • رأس كل فضيلة ولكنه يختص بالايثار دون رودريج رغم تساويهما في نبالة المحتد ، فدون رودريج صورة من أبيه الشيخ دييجو الذى قضى حياته كلها فى حومة الوغى وبرز فى فنون السيف •

ونعلم أن الانفانتا أو ولية العهد ، ابنة الملك فرناندو، عاشقة للفتى النبيل رودريج ، وهى تعشقه عشقا يملك عليها حواسها ، ولكنها رغم ذلك تسحق غرامها فى صدرها وتجالد هواها ما استطاعت الى ذلك سبيلا • وكيف تأذن الانفانتا ، ولية العهد ، لنفسها بالاسترسال فى حب هذا الفتى وهى تعلم أنه مجرد فارس فى بلاط أبيها الملك ، وانه حقا لمن أسرة نبيلة ، ولكن أى عزاء فى هذا اذا كانت الشرائع والتقاليد تقول ان الملوك للملوك والنبلاء للنبلاء ؟ ان وريثة عرش كاستيل لا يمكن أن تزف الا الى ملك أو أمير يجرى دم الملوك فى عروقه • فلا مناص اذن من أن تطوى الانفانتا غرامها الشقى هذا فى قلبها الحزين ، وتكتمه فى

أعماق سريرتها بحيث لا تطلع عليه عين الا عين مربيتها الوفية ليونورا التى تسعد أعظم سعادة حين ترى مولاتها تقدم واجبها نحو عرشها وأسرتها ورعيتها على رغبات القلب وأمنيات الفؤاد ٠

لهذا نجد أن الانفانتا تمهد بنفسها لزواج فارس أحلامها من كيمين فتزين له حبها وتزين لها حبه عسى أن يتم زواجهما فيقتل اليأس هذا الغرام البائس فى قلب الانفانتا ٠ بل ان الانفانتا تتعجل على كره منها هذا الزواج وتصطبر على هذا المكروه فى شجاعة كلها لوعة وفى لوعة كلها شجاعة ٠

ولكن الحياة لا تجرى دائما حسبما ترسم ارادة الانسان، بل تتكسر كالتيار على الجنادل والصخور ٠

فالملك فرناندو الذى كان يختار لولده الصغير مؤدبا يعلمه آداب الملوك وفنون السيف وأصول السياسة يتخطى الكونت جوميز ، والد الفتاة كيمين ، رغم رفعة شأنه بين رجال البلاد ، ويقع اختياره على الشيخ دون دييجو ، والد الفتى رودريج ٠

ويثور الكونت جوميز ، فهو يعتقد أن فى هذا التكريم للشيخ دييجو حطا من شأنه هو وافتئاتا على حقوقه ، فهو أولى بتأديب أمير كاستيل الصغير ٠ وتشتد الملاحاة بين الوالدين ، فالكونت جوميز يزعم أن الملك قد حابى الشيخ دييجو ، والشيخ دييجو يجيب بأن ارادة الملك تقدير لخدماته للعرش وللبلاد ٠ وتشتد ثورة الكونت عند ذكر الخدمات التى قدمها الفارس فى سبيل الملك ، ويتباهى الرجلان بما أحرزا من انتصارات ٠ وبما قدما من آيات الولاء وبما أتقنا من فنون السيف ٠ ويتطور بينهما الأمر فيلطم الكونت الشيخ دييجو وتكون هذه بداية الكارثة ٠

فاللطمة فى شريعة النبلاء لا يغسلها الا الدم ٠ ويستل الفارس الشيخ دييجو سيفه ، ويهم بالانقضاض على غريمه

الكونت ولكن سرعان ما يتبين له أن الشيخوخة قد فتت في عضده ، فهو لم يعد قادرا كما كان على استخلاص حقه بحد الحسام وينصرف الكونت جوميز عنه بعد أن يشبعه زراية بضعفه وتخاذله ٠

ويقبل الفارس الفتى دون رودريجو فيجد أباه في أسوأ حال يرغى ويزبد ويزأر زئير الأسد العجوز الجريح ، ان شرف آل دييجو قد لوثته هذه اللطمة التي لا يغسلها الا الدم ٠ ولابد من الثأر والا عاشت الأسرة في ذل لا يرتفع لها رأس ولا تقوى لها عين على مجابهة الناس ٠

ويعرف الفتى رودريجو واجبه لأول وهلة ٠ اذا كان أبوه الشيخ قد أدركه الوهن فذراعه هي ذراع الفتوة وسيفه هو حامى الذمار ٠ نعم ، لابد من الثأر والا نكس الرأس الى أبد الآبدين ٠ وكيف يكون كفئا لمحبوبته أو لأية حسناء من حسان الأندلس اذا رضى أن يعيش في هوان الاهانة ! ان قلبه يتفطر أسى لأن هذا الذى سيخرج ليتحداه ويبارزه هو أبو محبوبته ٠ ولكن لابد مما ليس منه بد ٠ ثم ان الكونت جوميز مغوار لا يشق له غبار ، ما أفلت منه سيف وما سقط عنه درع فلعله يلقى حتفه في هذه المبارزة وهو الحدث الذى لم يتمرس بعد في أهوال القتال ٠ وأيا كان الأمر فليكن ما يكون ، وليخرج طلبا للثأر الذى به وحده يغسل العار ٠ انه بين حبه وواجبه يقدم فريضة الواجب على فريضة الغرام ٠

●

ويتلفت الملك بين رجاله آسفا على هذا الشقاق الذى سيدمر بلاطه ، ويرسل دون آدياس الى الكونت جوميز يأمره بأن يعتذر لصاحب الحق عما بدر منه حقنا للدماء ٠ والكونت الغضوب يعلم حقا أنه قد أسلم زمامه للغضب أكثر مما ينبغي وأنه حقا لنادم على ذلك ، ولكن كبرياءه يمنعه من الاعتذار ٠ ثم ان الملك قد أساء اليه باختيار رجل أبعد منه عن عرشه

وأقل منه جدارة فى حمل الحسام فيما يعتقـد ، والشـيخ دييجو قد فاخره وباهاه وأساء اليه بقارس الكلام فى ساعة اللجاج ، فكيف يعتذر بعد كل هذا الذى حدث ؟ نعم انه يعلم انه قد أسرف في خدش شرف دييجو ، ولكن الاعتذار شيمة الضعفاء · وللملك أن يغضب منه كما يشاء ، فهو يعلم أنه منه فى أمان ، فلولا سيفه البتار لهوى تاجه ، فهـو حامى العرش من أعدائه ، والملك أول من يعلم ذلك · انه لن يطيع للملك أمرا يخدش كرامته وينكس رأسه فى بلاط كاستيل· لا اعتذار !

ويتحدى الفتى رودريج الكونت جوميز وتكون بينهما مبارزة مشهورة يتحدث عنها كل من فى البـلاط ، فما كان بينهم من يعتقد أن هذا الفتى الغض الاهاب الناضر الشباب يمكن ان يصارع أبرع صاحب سيف فى كاستيل ويصرعه ·

أما الفتاة البائسـة كيمين حبيبة رودريج فهى طـوال المبـارزة فى لهفـة حائرة ، وهى موزعة القلب بين أبيهـا وحبيبها تخشى على حبيبها من أبيها ، وتخشى عـلى أبيها من حبيبها · كذلك الانفانتا ولية العهد فى لهفة حائرة لا تقـل فظاعة عن لهة كيمين الحائرة · فهى تعلم أنها خاسرة عـلى الحالين · فلئن سقط رودريج الذى تحب صريعـا فالحيـاة عندها لا تساوى من بعده خردلة ، ولئن نجا رودريج الذى تحب من الموت فهو سائر الى ذراعى كيمين ، وهو مصير أشق على نفسها من الموت ·

ويأتى النبأ الى البلاط بأن رودريج قد جنـدل بسيفه الكونت جوميز ، فتأخذ الدهشة كل من فى البـلاط وعـلى رأسهم الملك ، ولكنهم يأسون لفقـد قائدهم الهصـور فهـم يعلمون أن بموته قد هوى أرسخ عمود يرتكز عليـه صرح المملكة ، ويتطيرون جزعا على مستقبل دولة كاستيل ·

وتهرع كيمين الشقية الى الملك فرناندو باكيـة العين مستصرخة قائلة : « يا مولاى ! هذا أبى قد مات وقد جئتك

أطالب بالثأر ، فالثأر يحفظ لك ولائى ولكنه قبل كل شيء يحفظ لك حقك وخيرك » ، لقد سقط عماد التاج ولا ينقذ التاج الا أن يرعى الحقوق ويقتص للدم بالدم .

ويتقدم الشيخ دييجو صوب الملك ضارعا اليه أن يعفو عن ولده الذى ما أقدم على ما فعل الا باسمه فما هذه المعركة التى سقط فيها الكونت جوميز الا معركة الشيخ دييجو نفسه . ويبسط الشيخ دييجو أمام الملك فرناندو كل ما لحقه من اهانة واستفزاز لا لشيء الا لأن مولاه قد اختاره ليكون مؤدبا للأمير الصغير . واذا كان ولده رودريج قد عصا الأمر الملكى الذى نهى عن المبارزات بين رجال البلاط ، فهو انما قد وقع بين نارين : واجبه فى طاعة مولاه ، وواجبه فى غسل شرف الأسرة . وقد آثر سبيل الشرف على واجب الطاعة ، وهو ماتقضى به الأصالة والنبالة وتقاليد الفرسان . فان كان للملك حق فى حياته فليقتص من الشيخ دييجو لا من ولده رودريج ، فاذا كانت الذراع التى قتلت ذراع رودريج فان الارادة التى حركتها انما كانت ارادة الشيخ دييجو .

●

ويحار الملك فرناندو بين كيمين ابنة قائده المطالبة بحقها فى قصاص الجانى وبين الشيخ دييجو المطالب الذى يطلب أن يفتديه بحياته اذا لزم الأمر ، وأن يموت مرتاح الضمير بعد أن أنقذ ولده شرف أسرته . ولا ينفع مع كيمين كل ما يقوله الملك ليخفف مصابها وما يعدها به من أنه سيكون من بعد أبيها أبا بارا رحيما . انها تطلب القصاص بميزان العدل ولو أنها كانت رجلا لطلبت القصاص بسيف الثأر .

ولكن هذه التى تطالب بالقصاص انما تتمزق نياط قلبها فهى تعلم أن فى موت رودريج موتها ، وهى لا تقدم للسياف الا صدرها وقلبها هذا الذى يتفطر بين حبها لأبيها وحبها لحبيبها . ولكن سحقا لهذا القلب المحب اذا كان ينسيها

حقوق الآباء فى البنين • وليمت حبيبها وليمت معه قلبها ، وليندك صرح الدولة كلها اذا عجزت عن اقامة العـدل بين الرعية •

ويستمهل الملك الفتاة كيمين والشيخ دييجـو ليتـدبر الأمر فى روية •

●

ويغتنم سانكو هذا الموقف فيتردد عـلى كيمين الثكلى ، فهو يحبها كما يحبها رودريج ، وان لم تكن تبادله حبا بحب• ويعرض سانكو على كيمين آن يكون فارسها الذى ينتقم لهـا ويثأر لموت أبيها قائلا انه عـلى استعداد ليـلاقى المنون فى سبيلها ، ويحرك سانكو أشـجان كيمين ما اسـتطاع الى ذلك سبيلا • ولكن كيمين رغم شقائها الفظيع تستهمله قائلة انها تطلب النصفة أولا من مليكها ، فان لم ينصفها مليكها فسوف تلوذ به كحل آخر •

وحين تخلو كيمين بمربيتها الفيرا تجهش فى البكاء ، وتولول قائلة : «اذرفى الدمع يا عين ، وانهمرى ياعبراتى ! نصف حياتى قد وارى الثرى نصفها الآخر » • انها لا تزال تحب رودريج رغم ما جنتـه يده الآثمـة ، وهى تحس بأن « رودريج ، رغم كل ما يجتاحهـا من غضب آكل ، لا يزال يقاتل أبى فى حنايا فؤادى • فهو يهاجمـه ويشـدد عليـه النكير ، ثم هو يتراجع ويدافع عن حياته ، وهو آنا قوى • وآنا ضعيف ، وآنا منتصر • وهو فى هذا القتال المرير بين نار الحقد ونار الهوى يمزق قلبى ولكنه لا ينفذ الى روحى ، ورغم سلطان الهوى الذى يستبد بفؤادى لست أتردد لحظة فى أداء واجبى » • وهل واجبها الا تدمير حبيبها حتى تستقر روح أبيها آمنة فى ثراها ؟ انها تطلب رأسه ، ولكنها تخشى أن تظفر بها ، وليس هناك من مخرج اذن من هـذا الجحيم الذى تعيش فيه الا أن تطارده حتى تدمره ثم تدمر نفسـها من بعده •

أما القاتل العاشق رودريج ، فهو قد غسل حقا شرف أسرته ، ولكنه رغم ذلك شقى بما أحرزه من نصر • فحبه لكيمين لا تخف لواعجه • وهو يقصد اليها بدلا من أن يتوارى عن بصرها خجلا مما جنت يداه ، فلا تصدق كيمين عينيها حين تراه ، فهى ما كانت تظن فيه كل هذا الاجتراء • وتأمره بالانصراف ولكن رودريج يستعطفها أن تستمع اليه برهة ، ويذهب يناجيها بكلام يفتت الصخر • نعم انها تمقته ، فالجرم الذى ارتكب أعظم من أن تغتفره كيمين ، ولكنه جرم لم يكن عنه محيد لأنه رجل بين الرجال وشرفه لا يقل فى عينيه قيمة عن الحياة ذاتها • وانه ليمقت نفسه أضعاف ما تمقته حبيبته لأنه رزأها فى أبيها وسبب لها كل هذه الآلام • ولكنه أيضا يحبها ولا يستطيع الحياة بغيرها ، فكيف السبيل ! كيف السبيل ! •

انها تعرف السبيل الذى لا سبيل غيره وهى تقول : « نعم ، لابد أن أفقدك بعد أن فقدته ، فهذه ضريبة الشرف، والشرف مقدم على الهوى • هذا هو واجبى البغيض الذى ان أطعته مت كمدا ، وهو يلزمنى بالسعى بشخصى الى تدميرك» ان كان رودريج يحسب أنه وحده الذى يثأر لأبيه ويصون عهد الشرف فهو مخطىء ، فهى مثله تثأر لأبيها وتصون عهد الشرف فهما فى هذا صنوان وبالثأر وحده يكون كل منهما كفئا لصاحبه • أو لم يعلمه أبوه « ان الحب سعادة ولكن الشرف واجب » والواجب مقدم على السعادة ؟

ويصرح رودريج الى كيمين أن تفعل ما يمليه الشرف عليها ، وانه ليقدم لها رأسه طائعا مختارا ويعطيها سيفه لتجهز به عليه فتثأر هى لأبيها وينجو هو من حياته المعذبة • ولكن كيمين تأبى هذا اللون من الانتقام اليسير ، فهو حين ثأر لأبيه لم يطلب عونا من أحد ، وهى حين تثأر لأبيها لن تطلب من أحد عونا ، وهى لا ترضى لذكرى أبيها أن يلوثها رودريج بغرامه اليائس هذا الذى يجعله يقدم نفسه طائعا ككبش الفداء • انها على يقين من شىء واحد : انها لا تمقته

لكنها ستسعى الى الفتك به وهى تمنى النفس آن يفلت من قبضتها ففى موتها موته ٠

ولكن لأبيه رأيا آخر ٠ فاذا لم يكن من الموت بد فهناك جيوش المغرب ، التى تحدق بكاستيل ، وبالليل تصل أساطيل المغاربة مع مد البحر وينزل منها الجند ليدكوا قلاع أشبيلية، وخير أن يموت رودريج فى حومة الوغى من أن يموت طريد العدالة أو شهيد الغرام٠ ولئن عاد رودريج من القتال مظفرا فلا شك أن الملك سيعفو عنه وينسى الخسارة الفادحة التى خسرها جيشه بموت قائده الكونت جوميز ٠ ولئن عاد رودريج مظفرا فلسوف تصمت كيمين صمتا أبديا وتطوى فى صدرها أحزانها ، بل لسوف تنسى كل ما كان وترضى به زوجا ٠

●

ويعود رودريج مظفرا من حومة الوغى وقد توجت جبينه أكاليل الغار ، يعود رودريج وقد أسر ملكين من ملوك المغرب عرف عنهما شدة المراس ، وقد تفرد بالشجاعة النادرة حتى اعترف له أهل المغرب أنفسهم بالفروسية النادرة ولقبوه بالسيد جزاء له على فروسيته أما بنو قومه فقد رأوا فيه حصنهم الأمين وركنهم الركين ٠

وحين يبلغ نبأ عودته مسمع كيمين تطرب أول الأمر لعودة من تحب ، ولكنها لا تلبث أن تثوب الى رشدها وتذكر أن لأبيها فيه حقا لم يؤد ٠ وتحاول مربيتها الفيرا أن تهدىء من روعها ، ولكن هيهات لها أن تثنى كيمين عن رغبتها فى تدميره ٠

وتقبل عليها الانفانتا ولية العهد بقلب ثقيل تتصارع فيه العواطف ٠

وتقول كيمين ان رودريج قد أنقذ المدينة حقا وخدم ملكه فى ولاء عظيم فكل لسان يلهج بحمده ، ولكنها وحدها

شقية بعودة هذا الفارس لأنها تجدد فيها الرغبة في الثأر منه ، وهي لن يقر لها قرار حتى ينفذ فيه القصاص .

أما الانفانتا فقد جاءت لتتشفع لرودريج قائلة ان الملك والشعب ينظران اليه الآن نظرة الى عماد الدولة ، فان هوى هذا العماد فلن يحمي الدولة شيء من غزوات المغاربة ، وتختم الانفانتا ما جاءت فيه بقولها ان لكيمين أن تنصرف عنه يحبها ولكنها ترجوها أن تبقى لهم على حياته من أجل وطنه ولعل في انصرافها عنه أفظع عقابله عما جنت يداه .

أما كيمين فهي كالصخر الصلد . انها تطالب الملك بالقصاص فهذا حق لها فيمن قتل أباها وهي لن تنزل عن حقها مهما كانت الظروف ، فان كان الملك يرى في رودريج أنه عماد دولته فليرفض طلبها اذا شاء ، أما هي فلن تكف عن المطالبة . فان رفض الملك طلبها فهو قد أخل بحق مقدس للرعية على الراعي ، وهو أن يرعى بينهم الحقوق ويقيم الحدود ، وهو أول عماد لملكه الذى لا يضاهيه عماد .

وتمضي كيمين الى بلاط الملك لتطالب بقصاص رودريج ، ويوحي الشيخ دييجو الى الملك أن كيمين رغم عزمها على الانتقام لأبيها انما تتمنى أن تنقذه في الوقت نفسه ، ويرى الملك امتحان عواطفها فينبئها بأن هذا الذى جاءت تطلب القصاص منه قد اقتصت منه السماء ، فتحسب كيمين أن رودريج قد قتل في معركة من المعارك ويشحب لونها وتوشك أن تتهافت . فيعود الملك ويطمئنها قائلا انه حي يرزق وأنه لا يزال يحمل لها الحب الذى كان يحمل . وهنا تتشبث كيمين بحقها في رأس رودريج ، وحين يذكرها الملك بأمجاده وما أسدى للدولة من خدمات ، لا تخف غلواؤها فهي لا ترى الا شيئا واحدا ، وهو أن القاتل يقتل ، فان أذن الملك لهذا القاتل أن يذرع أشبيليه حرا طليقا ، فهو اذن قد أهدر القانون الذى يحكم به باسم السماء ، وهو اذن يجعل كل شيء مستباحا في ملكه للأقوياء ، أما هي فهي لا تملك الا دموعها التي تتوجه بها الى عدالة أعلى لا تتحيز

لقوى على ضعيف · وأنها الآن لتعد نفسها من أرقاء رودريج أو أسيرة بين أسراه ، فليضمهـا الملك اذن الى موكب الأسرى حين يخرج رودريج أمامهم فى عجلته ليعرض أمجاده على أهل المدينة ·

ويحاول الملك أن يهدىء من روعها ولكنـه لا يجد الى ذلك سـبيلا · وتهيب به كيمين قائلة : « اذا كان مـولاها لا يريد أن ينصفها بميزان العدل حتى تجف دموعها ، فليأذن لها أن تأخذ من الجانى حقها بقوة السلاح كما يجرى العرف فى شرعة الفروسية التى تحقق لكل معتدى عليـه أن يطلب منازلة المعتدى · وانها لتطلب رأس رودريج من كل فرسان البلاط ، فمن قاتل منهم من أجلهـا وجاءها برأسـه وهبته نفسها وكانت له زوجا · هذه تقاليد الفروسية منـذ أقدم العصور ، وهى ترجو من مولاها الملك أن يذيع نداءها هذا بين كافة فرسانه ·

ولكن الملك يجيب كيمين على ذلك بقوله : ان هذه العادة القديمة تجعل الدولة تفقد زهرة محاربيها ، وهو يريد أن يدخر رجاله وعلى رأسهم رودريج لحماية الدولة · ولـكن ما دامت كيمين تصر على ممارسة هذا الحق فانه يرضى أن يحصر النزال فى فارس واحد يتحدى رودريج ، ومن انتصر منهما فى النزال كانت له كيمين زوجا ·

وهنا يتقدم دون سانكو قائلا انه على استعداد اذا أذن له مولاه الملك أن يكون هذا الفارس المنازل لرودريج ، فان كتب له النصر فيد كيمين هى أعز ما يرجوه فى هذه الحياة · ويسأل الملك كيمين ان كانت ترضى بالفارس سـانكو منازلا عنها فتجيبه بالايجاب ، ولكنها تجادله فى الزواج من رودريج ان خرج من المعركة منتصرا ، وتطمع فى أن يعفيها من هذه المشقة التى لا ترضى بها نفس أبية · فيداعبها الملك قائلا : « انه يعرف ما يكنه قلبها من حب لرودريج وان قلبها العاشق ليتمنى فى دخيلته أن يخـرج رودريج من النزال منتصرا ،

ومهما يكن من شيء فهذه شرعة النزال التي يقرها ان قبلتها كان بها ، والا فلا ٠

ويعود رودريج الى كيمين مودعا قبل النزال ، ويبثها غرامه قائلا ان كان هذا العذاب الذى تنزله كيمين به قد مشى فى نفسه باليأس حتى لقد غدت الحياة لديه شيئا سقيما خلا من كل معنى ، وانه ليحس أنه لن يستطع أن يحسن القتال، ولسوف يموت شهيد غرامها فما به الى الحياة حاجة ٠

وتسخر منه كيمين قائلة : أيخاف مثله الموت أو يخشى من كانت له هذه الأمجاد منازلة فارس لا شأن له مثل سانكو ؟ ولكن رودريج يشرح لها زهده فى الحياة قائلا : « ما دامت كيمين تطلب له الموت فهو زاهد فى الحياة ليحقق لها ما تتحرق اليه روحها من ثأر لأبيها ، ولن يقول الناس ان سانكو هزم رودريج ، فالكل يعلم أن رودريج لا يهزمه أحد ، ولكن سيعلم الجميع أنه ما قتل رودريج الا كيمين ٠ نعم سيقولون : « لقد كان يعبد كيمين فعزف عن الحياة لأن حياته تجلب عليه مقتها ، وهو قد أسلم نفسه للقضاء القاسى الذى دفع سيدة فؤاده الى التماس موته ٠٠٠ وهو ضيع حبه ليثأر لشرفه وضيع حياته ليثأر لمولاته ، مؤثرا شرفه على كيمين ومؤثرا كيمين على الحياة » ٠

وتترقرق فى عين كيمين عبرة حين تسمع هذا الكلام ، وتناشده أن يدافع عن نفسه بذراع ثابتة وجنان ثابت ، وتضعف كيمين لحظة وتهيب به أن يقاتل قتالا باسلا ٠٠٠ من أجلها ، بل أن يدافع عنها لينقذها من دون سانكو الذى تمجه نفسها ولا تطيق الحياة معه ، فان كان لا يزال على عهد الهوى القديم فليخرج منتصرا من نزال فيه كيمين جائزة المنتصر ٠

ويحمر وجه كيمين خجلا وهى تتفوه بهذا الكلام ٠ أما رودريج فتتجدد فى نفسه الآمال ويهتف قائلا : ان كل

من أرضعت اسبانيا ومن أرضع المغرب من فوارس لا يستطيعون أن يمسوا شعرة فى رأسه ولو قاتلوه مجتمعين.

كل ذلك والانفانتا نفسها عاشقة رودريج تصلى بنار غرامها ولا يحس بها أحد . فقلبها يحدثها أن تستسلم لحبها الطاغى وأن تنسى شجرتها الملكية التى تحرمها ممن تحب . وحبها يهمس فى صدرها قائلا : ان هذا الفارس المغوار الذى أسر ملكين لا ينقصه تاج الملوك . وهذا البطل الصنديد الذى لقبوه « بالسيد » وهو لقب جد عظيم جدير بها وبأكرم الأميرات والملكات. ولكن الانفانتا تعود الى رشدها فتقول : بل خير وأبقى أن يظل كل فى مداره فالقدر الذى شاء ان يعاقبنى قد حفظ زهرة الحب ناضرة حتى فى قلوب الأعداء .

وحين تسمع مربيتها ليونورا هذا الكلام تثبت قلبها قائلة ان ما بين كيمين ورودريج من غرام لم يزعزعه شىء حتى موت أبيها . بل ان كيمين لسعيدة بدون سانكو هذا الذى سينازل فتاها رودريجو . فلو كانت رغبتها جادة فى القضاء عليه لاختارت لنفسها فارسا أكثر صلابة وخبرة بفنون القتال من دون سانكو . فهى بهذا النزال غير المتكافىء انما تبرىء ذمتها من واجبها نحو أبيها ، وتضمن لحبيبها رودريج نصرا لا مشقة فيه ، فتبدو أمام ضميرها وأمام الناس أنها لم تقصر فى شىء نحو ذكرى أبيها .

وفيما تنتظر كيمين والفيرا نتيجة النزال فى قلق شديد يعود اليها اضطرابها ويمتلىء قلبها اشفاقا من النهاية أية تكن . فهى تعلم أن موت دون سانكو معناه زواجها من رودريج قاتل أبيها .

ويدخل عليها سانكو حاملا سيف رودريج وهى على هذا الاضطراب الشديد ، فتشهق شهقة بائسة ، وتصرخ قائلة : « قضى الأمر ! .. قضى الأمر ! » .

ويتقدم اليها دون سانكو ليضع سيف رودريج تحت قدميها ، فتصرخ فى وجهه قائلة : « اغرب عن وجهى أيها

القاتل ! يا من قتلت البطل الذى أعبد ! لا شك أنك قتلته غيلة فمثله لا يقهر فى طعان · هيا اغرب عن وجهى ولا تعد فما لك فى قلبى مكان » !

وتنطلق كيمين الى الملك فرناندو ملتاعة باكية مولولة بأنها قد فقدت أباها ومن بعد أبيها حبيبها فهى أشقى امرأة فى الوجود ، ولو نفذ فيها حكم الملك وأرغمها على الزواج من هذا القاتل سانكو فهى لن تستطيع للحياة احتمالا · انها على استعداد لأن تترك لسانكو كل ما تملك على أن يتركها وشأنها ·

ولكن الملك يطيب خاطرها قائلا انها تتوهم أشياء لا وجود لها ، فدون سانكو لم يقتل رودريج ولم يقل أبدا انه قتله ، فردوريج حى يرزق · بل رودريج هو الذى انتصر فى النزال ، وبعد أن أطاح بسيف غريمه دون سانكو وجرده من سلاحه لم يشأ أن يجهز عليه بل قال انه لا يريد أن يسفك دم رجل جازف بدمه من أجل كيمين ، وان كان هذا يترك النصر بينهما معلقا ، ولما كان الملك قد دعاه لأمر ما ، فقد أوفد رودريج دون سانكو الى محبوبته ليضع سيف المنتصر عند قدميها فأخطأت كيمين فهم ما كان وخالت أن دون سانكو هو الذى انتصر ·

ويسلم سانكو بهزيمته فى الحب والحرب ، ويقول الملك انه لم يبق الا أن يزف رودريج الى كيمين ·

ويجتمع كل من فى البلاط حول عرش الملك وتأخذ الانفانتا بيد كيمين لتسلمها الى رودريج فيتخذ منها زوجا ، فاذا كيمين تذرف الدمع السخين وغشت وجهها كآبة · ويحار رودريج فى أمرها ، اذ يدرك أنها لم تنس بعد أباها ولن تنساه ولو جازف بحياته كل يوم من أجلها ·

وتعلن كيمين فى هدوء حزين قائلة : انها حقا تهوى رودريج وقد فضحت كلماتها هواها الذى كانت تؤثر أن يبقى خبيئا فى قلبها · وأنها حقا لتصدع بأمر الملك الذى

يأمر فيطاع · وأنها حقـا لتعلم مبلغ ما تكنه من اعجـاب بحاميها ومبلغ ما تعلقه عليه من آمال · ولكنها رغم هذا كله تحتكم الى ضمائرهم جميعا : متى كان مثـل هـذا الزواج شيئا مشروعا ؟ وهل ينبغي أن تكون هي الأجر الذى تدفعه الدولة لرودريج لقاء دفاعه عنها · وهـل يجـوز لهـا أن تتزوج من قاتل أبيها فتغمس يديها فى دم القتيل وتحمـل هذا العار الأبدى ؟

أما الملك فيرى أنها له وهو لها ، ولو برابطة الروح ، حسبما رسمت شرائع الفروسية · وهو مع ذلك لا يتعجـل الأمور فيأذن لكيمين أن تؤجل هذا الزواج الى أجل غير مسمى حتى تجف دموعها · والى أن يحين ذلك الحين فعلى رودريج أن يظفر فى المعارك كل يوم باكليل جديد من الغار ·

أندروماك

للشاعر المسرحي جان راسين

دامت حرب طروادة المشهورة بين الاغريق والطرواديين عشرة أعوام كاملة مريرة جرت فيها الدماء أنهارا وسقط فيها الأبطال من الجانبين بعد معارك رهيبة اشتركت فيها الآلهة نفسها ، وتيتم الأطفال وترملت النساء بلا عدد يحصى وانتهت هذه الحرب الضروس باستيلاء الاغريق على طروادة ..

كل ذلك من أجل هيلانة الاغريقية زوجة منيلاوس الاغريقي التى اختطفها الفتى باديس ابن ملك طروادة وعاد بها الى عاصمة ملكه ، وبعد أن نزل ضيفا على منيلاوس خانه وفر بزوجته . فاستصرخ منيلاوس أخاه العظيم أجا ممنون ملك الاغريق ، .واستصرخ أجا ممنون أمراء الاغريق ونبلاءهم وأبطالهم ورعاياهم الشرفاء ، فالتف أبطال اليونان من حول ملكهم أجا ممنون وجهزوا السفن والعتاد وخرجوا تحت امرته للثأر لشرفهم ولتدمير طروادة واسترداد هيلانة الجميلة التى خلد ذكرها هوميروس فى ملحمته العظيمة « الالياذة » ..

وبعد أن قهر الاغريق طروادة وزع ملوكهم وأبطالهم الأسلاب فيما بينهم كل بحسب ما بذل فى الجهاد . وعاد

أجا ممنـــون الى حاضرة ملكه فى أرجـــوس وكانت غنيمتـــه كاساندرا بنت ملك طروادة وما أن وطىء أرض بلاده حتى لقى مصرعه بيد زوجته الضـــارية التى جعلت منـــه قربانا لغرامها الآثم وكفارة عن ذنوبه الكثيرة ٠ ولم يبق فى أرجوس من يحكمها بعد أجا ممنون غير ولده الفتى أورست ٠ ولمـــا ســـقطت طروادة فى يد الاغـــريق كانت أندروماك أرملة هكتور الذى جندله أخيل أبو بيروس من نصيب بيروس فى الغنيمة ومع أندروماك ولدها الصغير الذى عاش معها أخيرا فى قصر بيروس ٠ واستولى بيروس على ملك هكتـــور كمـــا اســـتولى عـــلى زوجه وولده فحكم مكانه فى أبير ، وعاش فى قصره ٠ وهيلانة ؟ كانت لها بنت من منيـــلاوس الاغريقى تدعى هرميون ، اتفقت كلمة اليـــونان عـــلى تزويجها من بيروس ولد آخيل ، وخطبت له وأوفدها أبوها منيلاوس الى قصر بيروس فى أبير فى حاشية عظيمة ليســـتطلع أمر هـــذا الفتى العجيب الذى أعطى الكلمة والعهـــد بالزواج ولكنـــه ما لبث يسوف ويماطل حتى ضج منيلاوس ورجاله ، وبدأوا يستشعرون أن فى الأمر ما يهدر كرامتهم وكانت هرميـــون لبيروس عاشقة لا تطيق الحياة بغيره فلا عجب أن تنزلت فى بلاطه والقلق يمـــلأ فؤادها وصـــدرها يزخـــر بالأمانى والمخاوف ٠ فما لبثت أن وقفت على حقيقة أليمة جعلت من عرسها المرتقب وليمة تسيل فيها مكان الخمر الدماء ٠

ولم تكن هرميون وحدها التى نزلت ببلاط بيروس فقد جاء الى قصر بيروس ولد آخيل الفتى أورست ولد أجا ممنون على رأس وفد عظيم من نبلاء اليونان وأشرافهم ٠ جاء يطلب الى بيروس تسليم الغلام الطروادى الصغير ابن أندروماك من البطل هكتور الذى ذبح أبناء الاغريق فى رباع طروادة جماعات ويتم أطفالهم ورمل نساءهم بل وفتك بأعظم بطل من بينهم وهو آخيل أبو بيروس نفسه ٠ فالاغريق غاضبون ينادون بالقصاص ويطالبون بتسليم هـــذا الغـــلام ليقدموه قربانا للآلهة ٠ فهذا الغلام صورة أبيه هكتور ولو قدر له

أن يعيش ويكبر لاجتمع الطرواديون من حوله كما كانوا يجتمعون حول أبيه البطل ولثأروا لمدينتهم المخربة ولأبطالهم الصرعى وهم كثيرون ، والاغريق لا يفهمون كيف يبسط بيروس حمايته على هـذا الغلام الذى قتل أبوه أباه • وولد هكتور يعيش كأمه فى الأسر حقا ، ولكن الأسر لا يكفى ، بل لابد من قتله حتى يقتص الاغريق لقتلاهم ويطيحوا بآخر أمل عند بنى طروادة •

وأورست اذ يحمل هـذه الرسالة الى بيروس وينتظر رده ، انما يحمل فى فؤاده عبئا أثقل من كل عبء ، ألا وهو غرامه بالفتاة هرميون بنت هيلانة الجميلة والملك منيلاوس وهو شقى بهذا الحب لأنه يعلم أن هرميون ما سعت الى أبير الا لتزف الى بيروس ، وليس له من أمل فى الحيـاة الا أن تبادله هرميون حبا بحب ، وأن تعدل عن هذا الزواج وتعود معه الى أرجوس حيث يتوجها ملكة على قلبه ويجلسها علـى عرش بلاده •

ولكن القلوب تضمر المنى وتصاريف القدر تجرى بغير ما تشتهى القلوب •

ونرى الفتى أوريست فى قاعة من قاعات القصر الملكى فى أبير حيث يحكم بيروس يناجى صديقه الوفى بيلاد الذى يتبعه كظله فى السراء والضراء ويخفف عنه أشجانه ويعينه على كل مكروه يحيق به • وأوريست يقول ان قلبه يتوجس خيفة من تصاريف القـدر ومما يخبئه القضـاء • فقلبه العاشق يقوده الى هرميون القاسية الفؤاد ، وهو شقى بهذا الحب لأنه يعلم أن منيلاوس قد وعد بيروس المنتقم للاغريق يد ابنته الجميلة هرميون جزاء له عـلى جهـاده فى سبيل استرداد أمها هيلانة ، وقلب أوريست يحدثه بأن هرميون مدلهة بحب بيروس • وهو مع ذلك يعيش بأمل عظيم ، وهو

أن يكون بيروس نفسه غير مقبل على هذا الزواج المرتب ٠ فالشائعات تجرى بأنه عاشق لأندروماك بنت طروادة ، وأنه يبسط حمايته على ابنها الغلام استياناكس الذى استطاعت أندروماك أن تنقذه من الموت بأن سلمت للاغريق غلاما آخر يشبهه ليقتلوه حاسبين أنه ولدها ولكن الأمر قد افتضح ، وها هم الاغريق قد أوفدوا أوريست الى بلاط بيروس ليسلمهم الغلام استياناكس ٠ فيا ليت أوريست يعود الى بلاده بهرميون بدلا من أن يعود اليها بهذا الغلام الذى يطالب الاغريق برأسه ٠

أما بيلاد فيقول ان غرام بيروس بأندروماك لا شك فيه ، ولكن أرملة هكتور لا تبادله حبا بحب بل تبادله حبا بمقت شديد عاصف ضار ، فهى لا تنسى أن بيروس هو قاتل زوجها ، وهى حقا أسيرة فى قصره ، ولكنها تقصيه عنها كلما بثها غرامه وعرض عليها الزواج غير مبالية بغضبه ٠ وهرميون المحبة لبيروس ترى كل ذلك وتتظاهر بازدراء هذا السلوك العجيب الذى يجعل بطلا من أبطال اليونان يدله بحب أرملة قاتل أبيه ٠ ولكنها تبكى فى الخفاء وتندب حظها العاثر الذى جعلها تهوى من لا يكترث لها ٠ وهى فى كل يوم معلقة بين الرحيل والبقاء ، تتأهب كل صباح للرحيل عن بلاط هذا الملك الغادر بعهدها ، ولكنها رغم ذلك تبقى على أمل جديد ٠

ويلتقى أوريست ببيروس ليعلنه بما جاء من أجله قائلا : « اسمح لى يا سيدى قبل أن يحدثك لسانى بما اجتمعت عليه كلمة الاغريق ، أن أباهى أمامك باختيارهم اياى وأن أعرب عن اغتباطى برؤية ولد أخيل ، قاهر طروادة ، نعم ، نحن نعجب ببطولة أبيك ، ولكننا نقدر بطولتك أيضا يا بيروس ، فلئن كان هكتور قد سقط تحت قبضته فلقد سقطت طروادة فى قبضتك ٠٠ » ولكن الاغريق كلها فى حزن عظيم لأن بيروس قد نسى ما فعله هكتور لا يذكر أمام أى امرأة فى أية رقعة ببلاداليونان الا وسقطت

مغشيا عليها ، فهو الذى سلب نساء اليونان أزواجهن وأباءهن وأبناءهن • فكيف بعد كل هذا الذى حدث يتخذى بيروس شعور بنى قومه ويؤوى الغلام استياناكس ولد هكتور لابد اذن من تسليم هذا الغلام ليقتص منه شعب اليونان •

فيجيب بيروس قائلا انه لعاجب أشد العجب أن يضطرب اليونان كل هذا الاضطراب العظيم من أجل طفل بلا حول ولا قوة ، وأن يوفدوا ولد أجا ممنون الكبير نفسه رسولا اليه فى هذا المسعى الذى لا يليق بشعب اليونان • وان ما أنزله اليونان بطروادة وبنيها من عذاب أليم لفيه الكفاية ، فكاساندرا بنت ملك طروادة قد لقيت حتفها فى أرجوس مع وليها أجا ممنون ، وهكوبا تعيش فى ذل فظيع مع البطل أوليس الذى سباها ، وأندروماك تحيا مع ولدها فى كنفه أسيرة مهيضة الجناح • فليبحث الاغريق اذن عن فريسة أخرى غير هذا الغلام البرىء المسكين ، وبيروس لن يسلم الصغير استياناكس الى هؤلاء العطشى للدماء •

وعبثا يحاول أوريست اقناع بيروس بتسليم الغلام ، فهو يقول ان اليونان لا تطلب الغلام ولكنها تطلب أباه هكتور فى شخصه ، وأنها لن تنسى ما أنزله بها هكتور من آلام حتى يدمر ولده ، وانها لمطاردته أينما كان حتى الموت ولكن بيروس يتحداه قائلا انه سيدافع عن الغلام ، ولو حاصرت اليونان أبير كما حاصرت طروادة من قبل • وحين ييأس أوريست من اقناع بيروس بتهمة أنه فتى ثائر على قومه ، أنه لولا توسط هرميون لدى أبيها منيلاوس لأدبه منيلاوس تأديبا ولكن بيروس لا يحفل بهذه الغلظة فى الكلام ، قائلا انه لن يكون عبدا لأبى هرميون وليعد أوريست بجوابه الى اليونان ، وهو الرفض • وهو يستطيع أن يبلغ هرميون نفسها بهذا القرار ، فلينطلق اليها أوريست وينهى اليها ما كان بينهما من حديث •

وبيروس يعلم أن أوريست عاشق لهرميون ، فهو يأمل

بهذا أن تيأس هرميون من حبه لها وترحل عن بلاطه الى ذويها مع هذا العاشق المتيم فى هواها ٠

ويعلم بيروس أن أندروماك تبحث عنه فيخف اليها بقلب مشغوف ، فاذا بها قد سعت الى ولدها وتبكى الى جواره كعادتها كل يوم فلم تجده ٠ ان هذا الغلام هو كل ما بقى لها من زوجها هكتور ومن طروادة وهى لا تطيق أن تحرم من رؤيته ٠ ولكن بيروس يبلغها أن حقد الاغريق على فكتور لم ينطفىء بعد فهم قد أرسلوا اليه طالبين أن يسلمهم ولد هكتور ليفتكوا به ، ويطمئن قلب أندروماك حين تعلم ما كان من اباء بيروس أن يسلمهم الغلام رغم التهديد والوعيد ٠ ولكن بيروس يغتنم هذه الفرصة ليطارح أندروماك هواه ٠ فهو قد شق عصا الطاعة على قومه من أجلها ، وعرض نفسه لمقتهم وعدوانهم ولا أمل له الا أن تبسم له حبيبته القاسية أندروماك وأن ترضى به زوجا ، فتؤنبه أندروماك قائلة :

« ماذا ألم بك يا سيدى ! وماذا تقول اليونان ! أيمكن لمثل هذا القلب الكبير أن يبدى مثل هذا الضعف الشديد » ؟ انه يسلك طريق النبل والشهامة ، فكيف يفسد هذا النبل بنزوات القلب ؟ وكيف يطمع فى حب أندروماك وهى الأثيرة فى قيده الى يوم الممات ٠ لقد كانت تنتظر منه أن يحترم أحزانها وأن يتركها لشقائها فلا يثقل عليها بأحاديث الصبابة والغرام ٠ ان بيروس يقول انه على استعداد لأن يحمل السلاح فى وجه قومه مرضاة لها بل وأن يعيد لها ولولدها مجد طروادة القديم لو رضيت به بعلا ، ولكن طروادة وأمجادها والحب وأفراحه ، كل هذه قد غدت فى فؤادها الميت أطيافا خاوية لا تهز مشاعرها ٠ ان كل ما بقى لها فى هذه الحياة هو ذكرى زوجها هكتور التى لا تغرب عن مخيلتها وصورته التى تطالعها كل يوم كلما رأت ولدها الصغير ٠

وان غرام بيروس بها يثير من حولها ومن حول ولدها

الضــغائن فليعد بيروس الى أميرته اليونانيــة هرميون بنت ميلانة وليترك أندروماك لأحزانها ، وكيف يعقل أن تتزوج أندروماك من بيروس الذى قتل أبوه آخيل زوجهــا المغــوار هكتور • ان أمجاد آخيل فى القتال قد خطت بدم هكتور • نعم ، فليترك بيروس أندروماك الشقية لذكرياتها الحزينة ولينصرف الى بنت قومه هرميــون التى تتحــرق شــوقا الى عودته •

ويســتولى الغضب على بيروس ويتهم أندروماك بأنهــا سيدة جاحدة ناكرة للجميل قائلا انهــا تتخــذ من أحزانهــا ستارا لتخفى ما يكنه قلبها له ولأبيه من حقــد مســموم • ويهدد بيروس أندروماك قائلا انه ســوف يتخلى عن ولدها ويسلمه لمن جاءوا فى طلبه ان هى مضت فيما تحمله له من بغض وسخيمة • ان فى يدها وحدها انقاذ هذا الغلام البرىء • فلتمض أندروماك لزيارة ولدها فلعل رؤيته ترقق قلبهــا وتجعلها تعاون بيروس فى انقاذه •

وتصرخ أندروماك قائلة : « وا أسفاه ! فليمت ولدى اذن ، فما له من حام الا دموعى وبراءته » •

ويسعى أوريست بدوره الى لقــاء هرميون ليكاشــفها بهواه • وتتردد هرميون فى استقباله ، فهى تعلم حقــا أنه يحبها من أعماق قلبه ، ولكنها تقول لصاحبتها كليون التى تلازمها دائما أبدا ان لقــاءأوريست فيــه مذلة لها بعد أن أعرض عنهــا بيروس كل هـــذا الاعــراض وانصرف الى أندروماك الطــروادية • ففى هزيمتها انتصــار لأوريست الذى يعلم بكل ما يجرى ، ولسوف يعاملها أوريست معاملته لسقط المتــاع • ولــكن هرميون ترضى أخــيرا أن تستقبل أوريست الذى يبثها لواعج الهوى ويقول ان حيــاته بغيرها لا تساوى شيئا ، فهو زاهد فى الحياة ، ولكم طلب الموت فى القتال بشتى البلاد والأمصار ولكن الموت عز عليه ، وهرميون وحدها التى تستطيع أن تحييه وتميته •

وتلوم هرميون أوريست على هراء العشاق المغاميد هذا الذى يجعله ينسى ما جاء من أجله ، بل وينسى انه سليل الملوك والأبطال . وتوحى اليه برقيق الكلام أن قلبها لا يخلو من الـوُد له ، فيضطرب أوريست حين يسمع هـذه العبـارة ولا يدرى أيصدق أذنيه أم يكذبهما ولكن هرميون تذكره بما أوفدته اليونان من أجله ، ألا وهو ذلك الغلام الذى أبى بيروس العاق تسليمه الى بنى قومه . لابد اذن من أن يجمع أوريست أمراء اليونان من حوله لتأديب هـذا العـاصى وانتزاع الغـلام منـه ولو جعلوا من أبير طـروادة ثانيـة ودكوها دكا .

وأوريست رهن اشـارة من مولاته هرميـون ، وهـو فارسها الذى سيقتحم أبير اقتحاما ، ولكن قلبه يتمزق حين يحس فى كلام هرميون رغبة ضارية فى التشفى من بيروس ويشعر من مرارتها أن دافعها الى كل ما تطلب هـو حبهـا الجارف لهذا الفتى الذى يزدريها ، حبها المدمر الذى انقلب الى بغض مدمر يبين عن حقيقته . ثم هى تبـدى لأوريست جزعهـا من أن يتزوج بيروس اليـونانى من أندروماك الطروادية وتطلب أن يحال بينه وبينها ، فلا يعرف أوريست ان كان ما تهذى به هرميون من أقوال من املاء الواجب أم من املاء الغيرة العمياء وهى آية الحب الأولى .

ويعاهد أوريست هرميون على انتزاع الغلام من بيروس قوة واقتـدارا ويسـعى أوريست الى بيروس لينذره انذارا أخيرا أن يسلمه الغلام . ويعجب أشد العجب حين يرى من بيروس كل اسـتجابة فبيروس يقـول انه قد فكر فى الأمر وتدبر فرأى أن واجبه يقضى عليه بتسليم الغلام لبنى قومه ، فان لهم فيه حقوقا هى حقوق الثأر من أبيه .

أما حقيقة هذا التحول التى لم يكن يعرفهـا أوريست ولا هرميـون فهى أن أندروماك الطـروادية بعد أن مضت لرؤية ولدها لم تعد من عنده الا وهى أشد عزما على الأعراض عن بيروس مهما كلفها ذلك من تضحيـة ، وقد كان بيروس

يرجو أن يلين قلبهـا عنـد رؤية ولدها فترضى به زوجا فى سبيل انقاذه ولكن أندروماك ما أن رأت ولدها حتى أخذت تهتف باسم هكتور ألف مرة ، وتندب قائلة وهى تقبل ولدها: « انه هكتور ! عينـاه عينا هكتور وفمه فم هكتـور بل ان بسالة هكتور قد بدأت تتجلى فيه · انه هو بذاته ، وما أقبل الاك يا زوجى الحبيب حين أقبله » · وما أن سمع بيروس هذا الكلام حتى قرر تسليم الغلام ·

بل ان بيروس قرر أكثر من هـذا بعد أن يئس من أندروماك وهو ينبىء أوريست بأنه يعـرف الآن واجبـه ، وأنه لن يرد الغلام الى اليونان فحسب ، ولكنه سيتزوج من هرميون كذلك · بل هـو يطلب الى أوريست أن يمضى الى هرميون ليزف لها هذه البشرى ! غدا يكون زفافهما وليس خيرا من أوريست نفسه فى تمثيل أبيها فهو رحم لهـا وفى تمثيل ملوك اليـونان كلهم فهـو رسولهم المفوض منهم الى بلاط أبير !

ويسـتولى عـلى أوريست جنون الحب حين يعلم بعـزم بيروس على الزواج من هرميون ، وينتابه هيـاج شـديد ، وحين يخلو الى صاحبه بيلاد يعلنـه بعـزمه عـلى اختطاف هرميون من بلاط بيروس ، انه يملك السفن والرجال ، وهو مستطيع أن يأخذها عنوة من قصر الملك ، وليترك بيروس مع أندروماك الطروادية ليشقى بها وتشقى به أو يسـعد بها أو تسعد به · أما هو فلا غناء له عن هرميون · وهكذا يتفق أوريست وبيلاد على اختطاف هرميون حين يهبط الليل، وأن يعلنا غير ما يبطنان خشية أن يفتضح أمرهما ·

أما هرميون فهى على عكس أوريست سعيدة بهذا التحول كل السعادة · غدا يكون زفافها الى من تحب · وهى تمنى نفسها بعذب الأمانى · ان بيروس ليس بالرجل الذى يجزع خوفا من اليونان حتى يتزوجها مرضاة لهم · لابد أنه يحبها ما دام قد قـرر أن يزف اليهـا · ويكـون بين هرميـون

وأندروماك لقاء أليم ، تظهر فيه هرميون لهذه المرأة الشقية من ألوان الصلف ما يشتد به شقاؤها ·

وتقترب الساعة الحاسمة ، ويدنو موعد زفاف بيروس الى هرميوس كما يدنو موعد تسليم الغلام الى أوريست والوفد الذى جاء فى طلبه فيشتد اضطراب أندروماك وبيروس معا ·

أما بيروس فهو يعاود الكرة لعله يجد منفذا الى قلب أندروماك الصلد قبل أن ينفذ فيهما حكم القضاء ، فيزف هو الى من لا يحب ، وتفقد هى وحيدها الى الأبد ·

وأما أندروماك فتتبلبل خواطرها ويتفطر فؤادها كلما ذكرت أن ولدها سيساق عما قريب الى المذبح حيث يقدمه هؤلاء الهمج قربانا للآلهة وكفارة عن آثام أبيه كما يزعمون· ويدب فى عزيمتها الخور وتحضها صديقتها الوفية سفيز أن تضحى بنفسها لانقاذ ولدها قبل فوات الأوان ، فهى تعلم أن كلمة من فم أندروماك بالقبول تجعل كل شىء فى قصر بيروس وفى قلبه يتبدل فى طرفة عين ولا تعرف أندروماك الشقية بم تجيب ، فهى تعلم علم اليقين أنها لن تجعل لبطلها الراحل هكتور من يخلفه فى فراشها وهى تعلم علم اليقين أنها لن تترك ولدها يذبح ذبح الشاة لترتوى آلهة اليونان العطشى بدمه الزكى · وهى بين هذين الواجبين حائرة ملتاعة لا تعرف أى السبيلين تسلك ·

ان صديقتها الوفية سفيز تقول ان من الاخلاص ما قتل ، ومن الوفاء ما يبلغ مبلغ الاجرام ، وهى لا تعرف على ذلك اجابة ، فقلبها المصدوع لا يحدثها بشىء قاطع ، فلتخرج أندروماك اذن الى قبر زوجها لتستوحى منه الجواب·

وتعود أندروماك من قبر هكتور وقد حلت فى نفسها السكينة · فلقد وجدت فيه ما تطلب · وحين تسعى معه الى المعبد فى الحفل العظيم ، لسوف يقسم أمام الآلهة وأمام المواطنين قسمين ويأخذ على نفسه عهدين يرتبط بهما بقية

أيام حياته ، ولا تحله منهما قوة على هذه الأرض · لسوف يقسم أن يكون زوجا وفيا لزوجه أندروماك ويتوجها على العرش الى جواره شريكة له في ملك البلاد · ولسوف يقسم أن يكون الأب الرحيم البار لولدها وأن يعطيه كل ما للبنين على آبائهم من حقوق ، وبعد أن يأخذ بيروس على نفسه هذين العهدين وينفض الحفل ، فأندروماك تعرف سبيلها حق المعرفة · وهل أمامها من سبيل الا أن تقتل نفسها فتنقذ شرف هكتور وشرف ذويها وشرف طروادة كما أنقذت حياة ابنها ؟

وتعلم صديقتها الوفية سفيز بما اعتزمت أندروماك أن تفعله فتقول انها سوف تلحق بها دون تردد ، ولكن أندروماك تنهاها عن ذلك وتناشدها أن تبقى الى جوار بيروس لتذكره بالعهد دائما أبدا ، وأن تبقى الى جوار ولدها لتلقنه كيف يكون ابن هكتور ·

وتبلغ أندروماك بيروس بقرارها فيسعد به أيما سعادة ، سيقام الحفل كما رسم وأملى ، ولكن عروسه لن تكون هرميون بل أندروماك ·

ويجن جنون هرميون حين تعلم بما استقرت عليه الأمور ، أما أوريست فيسر به سرورا عظيما · وسعى هرميون الى أوريست بعد مشهد عاصف بينها وبين بيروس ، وهي تعلم مبلغ سلطانها على قلب هذا الفتى المحموم ولد أجا ممنون · ان هرميون تقبله زوجا اذا أثبت لها حقا أنه يحبها - ان الأقوال وحدها لا تكفي ، ولو أنه صاغ لها من قصائد الهوى ما ليس له أول ولا آخر لما صدقته لابد من الأفعال ليثبت أوريست لهرميون أنه يحبها كل هذا الحب الذي يدعيه ·

لابد أن يقتل أوريست بيروس · لابد أن يقتله في يوم عرسه ، وهو جالس في المعبد الى جوار هذه الطروادية التي

اصطفاها قلبه . نعم لابد من قتل بيروس عقابا له على خيانته لبني قومه . ان أوريست اذ يغمد سيفه في قلب هذا الخائن المارق انما يثأر لكل اليونان من هذا الرجل الذي يهين ملوكهم وأمراءهم وشعبهم ويأبى أن يسلمهم ابن عدوهم اللدود . ان قتل بيروس عمل وطني عظيم فهو يحقق حكم الدولة في ابن عاص خائن من بنيها .

ويسمع أوريست النبيل كل هذا الكلام وهو يرتجف ، ان هرميون تريد منه أن يصير الى سفاح أثيم يغتال ملكا أعزل وهو في حفل زفافه ــ ولو أنه فعل ذلك لاحتقر خسته وجبنه كل انسان . بل هي تريد منه أن يغتال بيروس في المعبد المقدس تحت بصر الآلهة . ولو أنه فعل ذلك لحلت به لعنة الآلهة .

ويجادل أوريست هرميون في كل ذلك ولكن حقدها الذي ينهشها نهشا يجعلها كالنمرة المفترسة . وهي لا تفتأ تحدث أوريست عن خيانة بيروس لقومه ووطنه حتى توشك أن تقنعه بأن سيفه انما هو سيف اليونان عن بكرة أبيهم . فان قصر أوريست عن اغتيال بيروس فهو ليس لها وهي ليست له .

وماذا يفعل أوريست ذو القلب المحموم الذي سيطر حب هرميون على فؤاده فأغماه ؟

وينطلق أوريست مع أتباعه الى المعبد كالمسحور بقوة لا تقهر . ثم يعود الى هرميون ورداؤه مخضب بالدماء ، ويصف لها كيف كان مصرع بيروس وهو جالس على عرشه الى جوار أندروماك وبينهما الغلام استياناكس ، ومن حولهم الكهنة ينشدون أناشيد الزفاف . وبعد أن أعطى بيروس العهد لأندروماك وألبسها تاج الملك بيديه ثم أعطى العهد لولدها أمام جميع المواطنين ، انقضت عليه الخناجر والسيوف فلم تترك في جسده مكانا لمطعن . لقد انتهى كل شيء كما

رسمت هرميون ولم يبق الا أن ترحل مع أوريست ليحملا البشرى معا الى ملوك اليونان ولرعاياها ٠

وحين تسمع هرميون هذا الكلام تثوب الى رشدها وكأنما كانت فى حلم مرعب وتولول باكية وتقذف أوريست بأشنع اللعنات ٠ انه قاتل ، سفاح لا فرق بينه وبين أحقر قاطع طريق ٠ انه يزعم أنه ما نفذ الا ما رسمت وما فعل الا ما أمرت ولكنه كذاب أشر فهى ما رسمت من هذا شيئا وهى ما أمرت بشىء من هذا ، فلئن كانت قد فعلت فهى قد كانت فى نوبة من الجنون ، وما كان ينبغى له أن يصغى الى كلامها المجنون ، كلا ٠ لسوف يحمل أوريست وحده هذا العار الى يوم يموت ٠ أما هرميون فهى لن تعود الى بلاد اليونان ٠ انها تتنكر أهلها وذويها ووطنها ، وتبقى فى أرض أبير حيث جثمان حبيبها مسجى ٠

وتجرى هرميون الى المعبد حيث تجد الجند يتأهبون لحمل جدث بيروس فتهوى على الجدث وتطعن قلبها بنصل مميت ٠

أما أوريست فتعتريه لوثة من الجنون ويشبه له أنه يرى الأشباح والأفاعى أينما اتجه ببصره ٠ ويقوده صاحبه بيلاد تحت جنح الظلام ويخرج به من القصر ومن أبير قبل أن تراه العيون ٠

ولا يبقى فى أبير الا أندروماك بنت طروادة متوجة عليها أمام جميع المواطنين ومعها ولدها ووريث عرشها الذى أراد له اليونان شيئا ولكن القدر أراد له أشياء أخرى لينصف طروادة من البغاة الذين دمروها ٠

فيـــدر

للشاعر المسرحي جان راسين

في اليونان القديمة تجـري وقائع مأساة فيـدر زوجة الملك ثيسيوس ملك أثينا ، وأطراف هذه المأساة غير الملك والملكة الأمير الشاب هيبوليت ولد الملك ثيسيوس من أشبوب ملكة الأمازونات ، وهن أمة من النسـاء العمـالقة جـرت الأساطير بشهرتهن في الحرب والطراد . ثم الأميرة أريسيا وهى من دم أثينا الملكى ، ثم أوينـون وهى صـفية الملكة فيدرو بانوب وهى امرأة في معيتها وثرامين وهو مؤدب الأمير هيبوليت واسين وهى صـفية الأميرة أريسـيا وطائفـة من الحرس . أما المكان فهو بلدة تريزين من أعمال البلوبونيز ببلاد اليونان .

ويعلن الفتى هيبـوليت لمؤدبه ثيرامين أن مقـامه في تريزين الجميلة قد قارب نهايته . فهو عنها راحل وقد أعد عدته للرحيل . فأبوه الملك ثيسيوس مختف وقد طال غيابه عن البلاد ، وقد بدأت الوسـاوس تنهش قلبـه . وقد كان ينبغى أن يخـرج هيبوليت للبحث عن أبيـه المختفى الذى لا يعلم أحد مصيره ، ولكن الخمول أقعـده ، وها قد مضت عليه ستة شهور لم يحرك فيها ساكنا ، وانه لخجل من هـذا التقصير ، ولقد عقد العزم أخيرا عـلى الخروج من تريزين للبحث عن الملك ثيسيوس .

ويجيبه ثيرامين قائلا انه ليس هناك ما يدعو الى رحيل الأمير هيبوليت ، فهو لن يعثر لأبيه على أثر مهما بحث وقد قام هو بشخصه بالبحث عن الملك ثيسيوس فى كل أرض وبحر فلم يهتد الى مقره • وهو لا يستبعد أن يكون ثيسيوس قد اختفى عامدا وأراد أن يبقى مخبأه سرا فى طى الكتمان• فلعله عاشق يجدد صبواته الناعمة مع معشوقة جديدة فى معزل عن فضول الناس تاركا قومه ينزعجون دون مبرر •

ويعنف الفتى هيبوليت مؤدبه على سوء ظنه بالملك • فثيسيوس كان حقا فى شبابه مشهورا بكثرة صبواته ، ولكنه أقلع عن الغواية منذ زمن بعيد وبات نعم الزوج الوفى لزوجته فيدر • وهيبوليت اذن راحل للبحث عن أبيه كما يقضى بذلك واجبه • وهو لم يعد كما كان شديد التعلق ببلدة تريزين الهادئة التى كان يؤثرها على أثينا الفخمة وبلاطها الفخم ، ولكنه زهد فيها منذ أن نزلتها فيدر زوجة أبيه • انه يتأذى من مجرد رؤيتها •

ويحسب ثيرامين أن هيبوليت يريد النزوح عن تريزين كرها فى امرأة أبيه واتقاء لحقدها ، ويهون عليه الأمر قائلا ان فيدر مريضة بداء دفين لا تكشف عنه لأحد وقد استبد بها الهزال والسقم فهى سائرة الى القبر لا محالة • فليس هناك ما يدعو هيبوليت الى النزوح عن تريزين اتقاء امرأة عليلة شفها المرض فهى لا تملك نفعا ولا ضرا •

ولكن هيبوليت يقول انه لا يطلب الفرار من امرأة أبيه بل يطلب الفرار من الفتاة الحسناء أريسيا التى يجرى فى دمها دم ملوك أثينا • وهو يعلم أن اخوتها الغادرين لا يكفون عن حبك المؤامرات من حوله ومن حول أبيه ، ولكنه يعلم أن الأميرة الجميلة أريسيا بريئة من مكائدهم • فهو لا يبغضها كما يبغضهم ، ولو أنه كان يبغضها لما سعى للفرار منها •

فيدرك ثيرامين أن هيبوليت ، وهو عدو الحب وعدو المرأة العنيد ، قد أصماه أخيرا سهم الغرام ، فهو انما يريد

أن يرحل عن تريزين فرارا من الأميرة أريسيا مالكة فؤاده مخافة أن يقع فى أسر غرامها ويشجع ثيرامين هيبوليت على أن يرضخ أخيرا لسلطان فينوس ربة الهوى فالأميرة أريسيا هى النبل والطهر والجمال مجسدا . فليتزوجها هيبوليت بدلا من أن يفر منها فالزواج وهو شريعة فينوس ، هو أس الحياة وهو الذى به تعمر الدنيا فأين يكون هيبوليت نفسه لو أن أباه ثيسيوس لم يخضع لسلطان الهوى ويتزوج من أمه الأمازونة أنتيوب ؟

ويعجب هيبوليت لمؤدبه هذا الذى علمه فيما مضى أن يقدس الصيد والطراد وجلائل الأعمال وكل ما هو خليق برجولة الرجال وفتوة الفتيان ، وأن يتنكب عن طريق فينوس التى تزين للناس الرخاوة بما تهيئه من ناعم الملذات .

ان ثيرامين الذى أدب هيبوليت فأحسن تأديبه كان يقص عليه بطولات أبيه ثيسيوس وأمجاده فى الحروب وفى مقاتلة الشرور وتطهير العالم من الوحوش كأنه خليفة هرقل العظيم ، يشير عليه الآن أن يستسلم للأسر وأن يتزوج من الأميرة أريسيا .

كلا . ان أباه ثيسيوس له عذره فان كان قد استسلم للصبابات فهو لم يفعل ذلك الا بعد أن تعددت أمجاده وخلد ذكره فى الحرب والطعان . أما هو فلم يفعل بعد شيئا جليلا، وهو لا يرضى أن يقال عنه ان هيبوليت قد انتصر على أريسيا ، وهذا كل ما انتصر عليه هيبوليت .

ثم ان بين هيبوليت وأريسيا هوة لا سبيل الى اجتيازها . فأبوه قد بلغ من نقمته على آلها واخوتها ومن بغضه لمكرهم ودسهم أنه حرم عليها الزواج وقضى بأن تبقى أريسيا تحت سقفه عذراء حتى يطويها الموت فلا يبقى لأسرتها اسم ولا ذرية من بعدها . لابد اذن من رحيل هيبوليت وأنه لراحل للبحث عن أبيه وللبحث عن أمجاد الشجعان وفتوة الفتيان . ولكن لابد قبل رحيله من أن يقابل امرأة أبيه

الملكة فيدر ويستأذنها فى الرحيل ، فهكذا تقضى آداب الملوك والأمراء ٠

ويطلب هيبوليت مقابلة فيدر فيعلم من صاحبتها أوينون أن الملكة قد استبدت بها علتها الدفينة التى لا تريد أن تفصح عنها ، وقد استولى عليها الحزن القاتل وملأت روحها المضطربة أفكار غامضة سوداء ، وهى توشك أن تلقى حتفها من فرط كمدها ٠ فيقول هيبوليت انه لن يزعجها بزيارتها فهو يعلم أن رؤيته بغيضة الى قلبها ٠

وتجتمع فيدر ووصيفتها أوينون ، فتشكو فيدر لصديقتها ما بها من برحاء ، ولكنها لا تزال تخفى عنها سر أشجانها ٠ ان قوتها قد غاضت وأنها قد سئمت الحياة فهى لا ترى لعلتها شفاء ، وهى قد عقدت عزمها على وضع حد لآلامها ولن يشفيها من آلامها الا الموت ٠

وحين تسمع أوينون هذا الكلام تعنف فيدر قائلة ان فى طلبها الموت جناية على الآلهة التى منحتها الحياة جناية على زوجها الذى وضع فيها كل ثقته وأولادها كل حبه ، جناية على ولدها الذى ينتظر منها الحماية وهو ولى العهد ، فبموتها يتطلع هيبوليت ابن الأجنبية الى عرش أثينا ويغتصبه من ولدها قوة واقتدارا ٠ فينبغى اذن أن تعيش فيدر من أجل ولدها ومن أجل زوجها ومرضاة للآلهة التى وهبتها الحياة ٠ فان اختارت فيدر طريق الموت فلتعلم أن صديقتها أوينوب سوف تتبعها الى القبر بغير تردد ٠

أما فيدر فلا تجد ما تقوله الا أنها ارتكبت اثما عظيما لا يطهرها منه الا الموت ٠ ولو عرفت أوينوب حقيقة اثمها الاسود لأقرتها على ما اعتزمت أن تفعله ٠ انها لم تقتل أحدا ولكن جريمتها أفظع من القتل ، وهى سر شقائها الذى لن ينتهى يطويها القبر فتستريح من عذاب الضمير ٠

وتستحلف أوينون فيدر أن تفصح لها عن سرها وتهيب بها قائلة : « تكلمى ! انى لك مصغية ! » فتصرخ فيدر

قائلة : « أيتها السماء ! ترى ماذا أقول ! ترى أين أبدأ ؟ » ان أسرتها كلها أسرة شقية تطاردها فينوس ربة الغرام بحقدها وغضبها • فأمها قد لقيت حتفها فى سبيل الحب المجنون • وأختها أريان سقطت صريعة الهوى، فالويل لفيدر من فينوس التى تتربص بها ولن تتركها الا جثة هامدة • ان فيدر عاشقة ، والعشق هو جريمتها النكراء • ان فيدر عاشقة لابن الأمازونة الذى ترتجف شفتاها فلا تستطيعان ذكر اسمه •

وتصرخ أوينون قائلة : « هيبوليت ! أيتها الآلهة العظيمة ! » فتجيبها فيدر : « أنت ذكرت اسمه » !

وحين تسمع أوينون هذا الاعتراف يجمد الدم فى عروقها • يا للشقاء البائس ! يا للاثم الذى لا ينفع فيه لطف ولا رحمة • ويا لها من أسرة ملوثة ملعونة ! فكيف تعشق فيدر هيبوليت ولد زوجها فتنتهك أقدس الحرمات •

وتشرح فيدر لأوينون كيف جنح بها قلبها فغدت ترى صورة هيبوليت فى كل ما ترى وتسمع • وكانت تقصد الى محراب الربة فينوس وتقدم لها القرابين عساها ترفع عنها غضبها ، فاذا صلواتها لا تخرج لفينوس بل تخرج لهيبوليت • وحين رأت أن غرامه استشرى فى روحها وجسدها حتى أوشك زمام أمرها أن يفلت منها • ثارت على نفسها وعليه وعلى الحب ثورة عارمة ، وأخذت تضطهد هيبوليت ومازالت بأبيه الملك ثيسيوس تلحف عليه فى نفيه من أثينا • ولكن القدر مكر بها فاذا بها تجد ثيسيوس يأتى بهيبوليت الى بلدة تريزين حيث اعتصمت من الحب • واذا بها تواجه عدوها هذا الذى أرادت أن تقصيه عنها ، فتجددت فى قلبها برحاء الحب ونزف قلبها دما • وها هى ذى تتعذب ولن يريحها من عذابها الا سلام الموت •

وما أن تتم فيدر كلامها حتى تدخل عليها خادمها بانوب بنبأ حزين وهو أن مولاها الملك ثيسيوس قد مات فى غربته

وأن ولده هيبوليت قد علم بنبأ وفاته من البحارة الراسين في ميناء المدينة • وتمضى بانوب فى سرد أخبارها فتقول : ان أثينا مبلبلة في اختيار سيدها الجديد ، وهى قد انقسمت شيعا وأحزابا ، فشيعة تنادى بالأمير ابن فيدر ملكا على أثينا ، وشيعة تنادى بهيبوليت « ابن الأجنبية » ملكا عليها ، وشيعة تريد أن ترد العرش الى أسرة بالانتى المخلوعة وتنادى بوريثتها الأميرة أريسيا ملكة على البلاد • وهى تخشى أن يدفع الغضب هيبوليت الى اثارة الشعب على فيدر وولدها •

وهنا تهيب أوينون بفيدر أن تدرك خطورة هذا الموقف الجديد • فولدها قد بات في خطر : فان ماتت غدا عبدا وان عاشت غدا ملكا • والملك الراحل قد رحل ولم يبق الا أو تحل هى محله فى تصريف الأمور ، والا سار كل أمر الى فوضى • وبموت ثيسيوس حلت عقدتها وزال ذلك الحائل المحرم الذى كان يجعل من غرامها اثما من الآثام السوداء • ان هيبوليت لم ير منها الا كل عنت واضطهاد ، ولابد أن تسعى اليه لتزيل مخاوفه ، والا انضم الى أعدائها ، بل لابد أن تضم صفوفها الى صفوفه حتى تدرأ خطر الأميرة أريسيا ، فاذا كان هيبوليت يعلم أن تريزين من نصيبه فى الميراث ، فهو يعلم أيضا أن عرش أثينا من نصيب ولدها •

وتقتنع فيدر بضرورة الدفاع عن ولدها فتأخذ بمشورة أوينون •

ونرى الأميرة أريسيا مع صفيتها أيسمين • ونعلم أن هيبوليت قد أوفد يقول انه راغب فى رؤيتها ليودعها • وتعجب أيسمين وتطرب معا حين ترى اهتمام هيبوليت بها وعطفه عليها ، فهى ما رأت فى قصر تريزين الا كل غلظة وجفاء •

وتقول أيسمين ان هذه هى النتائج الأولى لموت الملك ثيسيوس والبوادر الأولى لتفكك ملكه المغتصب • وغدا ترى أيسمين قلوب الأثينيين من حولها • وبعد غد قلوب اليونان

كلها ، ثم من بعد ذلك تسترد عرش البلاد الذى اغتصبه ثيسيوس منها ومن آلها بعد أن أبادهم جميعا ، ولم يبق منهم غيرها فسجنها فى قصر تريزين وحـرم عليهـا الزواج حتى تنقرض أسرتها جملة ٠

ان تريزين قد آلت الى هيبوليت بموت أبيه ، وقد توج ملكا عليها ٠ وفيدر فى هذا القصر ترتعد جزعا على مصـير ولدها ، وأريسيا توشك أن يفك أسارها ، وهى تطمع فى أن ترى من هيبوليت رحمة أكثر مما رأت من آبيه ، ولكن القلق يساور أريسيا ، فهى تعلم أن هيبوليت فتى عازف عن الحب يكره المرأة ويتجنب صحبتها ولا يرى فيها شيئا يستحق أن يعير الرجل التفاتا ٠ وهى تضطرب لاهتمامه بها ٠

ولكن أيسمين تقول ان هذا المستكبر المتعالى انما يضمر الحب لأريسيا وان كان لا يبديه ٠ فما وقعت عينـه عليهـا الا واختلج فؤاده ٠ واذا لم يكن له لسـان العاشـق فان له عينيه ، وهو لا يفصح عما بقلبه لأنه يعتقد أن اسم العاشق لا يليق بالفتيـان والشـجعان الذين يطلبون أمجـاد الطعن والنزال ٠ وتسعد أريسيا حين تسمع هذا الكلام أيما سعادة ، فهى تحمل فى قرارة نفسها لهيبوليت الشجاع أعظم الاعجاب رغم ما تراه من اسـتعلائه ونفرته وبرود طبـاعه ٠ وهى تضطرب اذ تعلم أنه اختارها من بين النسـاء جميعا لتـكون سيدة فؤاده ، وهو الذى لم يخضع قط لسلطان الغرام ٠

ويقبل هيبوليت على أريسيا قائلا ان أباه العظيم ثيسيوس قد لقى حتفه فى غربته ، وهو يرجو أن تكون الأميرة أريسيا قد حملت له بعض الاكبار رغم اسـاءته اليها ٠ فلقـد كان ثيسيوس أشجع الشجعان فى عصره وكانت فضائله الشماء على كل لسان ، فموته كارثة على أثينا وعلى اليونان ٠ وهو ، هيبوليت ، قد جاء ليطلقها من أسارها بعد مضى آسرها من هذه الحياة ، وهو لا يرفع عنها قيد الأسر وحده ٠ ولكنـه يحررها من كل ما فرضه عليها أبوه من أغلال ٠ فهى اذن حرة تستطيع أن تحب من تشاء وأن تتزوج ممن تشاء !

وتشكره أريسيا على هذا الصنيع فيتم هيبوليت كلامه قائلا : ان الرأى منقسم فى آثينا على من يجب أن يكون خليفة ثيسيوس على عرشها : فهناك من يشايعه وهناك من يشايعها وهناك من يشايع ابن الملكة • ولكن هيبوليت يعلم أن سبيله الى العرش صعب ومحفوف بالاضطراب • فهو ابن أجنبيـة واليونان تعيره بأمه الأجنبية • فالأمر اذن بينها وبين ولد فيدر • وهو يعلم أنها صاحبة الحق الشرعى فى عرش آثينا، فاباؤها قد حملوا فيها صولجان الملك آبا عن جد • واذا كان أبوه ثيسيوس قد استولى على عرشـهم فما ذلك الا لينقذ البلاد • أما وقد قضى ثيسـيوس فهيبـوليت يرد الشىء الى صاحبته • وهو الآن سيد تريزين غير منازع وله فيها عضـد كبير • وأتيكا كلها ملك لأريسـيا وهى تنـاصرها ، وليس يناصر ابن فيـدر الا كـريت وأهلوها فهى بنتهم وأبـوها مينوس وأمها باسيفا كانا على عرشها يجلسان • فلو شـاءت أريسيا مضى هيبوليت ليجمع من حولها القلوب• قلوب أشياعه وقلوب أشياعها ، ويعد لها العدد لتسترد حقها فى العرش •

وتعجب أريسيا أشد العجب لهذا الذى سمعت ، ولا تدرى أتصدق أذنيها أم تكذبهما • انها كانت تسمع بكرم هيبوليت ونبله ولكن الخبر تجاوز الخبر • ان كل ما كانت تطمع فيه هو ألا يحمل هيبوليت لها البغض فى فؤاده ، فاذا بها تراه ينزل عن حقوقه من أجلها •

وعندئذ تفيض أشجان هيبوليت فيقول ان البغض لم يعرف سبيله الى قلبه أبدا ، فجمالها الفـذ قد صقل نفسـه المجبولة على الغلظة ورقق حاشـيته وهـذب طباعه النافرة وما دام قد بدأ الكلام فليتمه • انه يحبها من أعماق فؤاده ، وقلبه الذى كان يسـتكبر على الحب ويتحـدى شرعة آبناء الفناء قد وضع السلاح أمام شوكة جمالهـا • فان كانت قد رأت منه غلظة فى الماضى فما ذلك الا أنه كان يقاتل قلبه حتى لا يقع فى أسرها • ولكم تجنبها وازور عنها لا بغضا لها ولكن طلبا للنجاة من حبهـا • وكان ينزوى فى الأدغال فيطارده

خيالها ٠ فان حضرت فر منها وان غابت عنه وجد صورتها ماثلة أمامه لا تريم ٠

ويأتى المؤدب ثيرامين معلنا أن الملكة فيدر تطلب لقاء هيبوليت وأنها فى طريقها اليه ٠ ويعجب هيبوليت لهذه الزيارة فهو لا يعرف ماذا تبغى الملكة منه ، وهى التى لم تعرف طريقا للاساءة اليه الا وسلكته أثناء حياة ابيه ٠ فهى التى أرادت نفيه من البلاد ، وهى التى كانت تطارده بكل ألوان العنت والاضطهاد ولكنه رغم ذلك يرثى لحالها فقد فقدت زوجها منذ حين ولعلها تسعى اليه لتخفف عما بها من حزن على فقد ثيسيوس ، فالمشاركة تطيب جراح المحزونين ٠

وتنصرف أريسيا بعد أن تودع هيبوليت وتطلب اليه أن ينطلق ليجمع قلوب اليونان من حولها ٠ وينصرف ثيرامين ليعد لرحيل هيبوليت العدة ، وليتركه هنيهة فى خلوة مع فيدر ٠

وتدخل فيدر وأونيون على هيبوليت ، تقول فيدر بصوت باك انه قد جاءها أن هيبوليت يعد العدة للرحيل وهى قد جاءت ترجوه أن يبقى الى جوارها ٠ فولدها الغلام قد فقد أباه ولم يعد له من يحميه من أعدائه الكثيرين الذين يتحينون الفرص للمكر به ٠ ولكنها تعلم أن هيبوليت يبغضها لكثرة ما رأى من اساءتها اليه وهى تطلب اليه أن يكبح جماح غضبه عليها ، فهى نادمة على كل ما بدر منها ، والا يصب مقته لها على ولدها الذى لم يجن شيئا ٠

ويعزيها هيبوليت قائلا ان قلبه لا يتسع لهذه المشاعر الخسيسة ، فهو لا يبغضها وهو يعلم أن كل اساءاتها اليه انما كانت تنتظر من زوجة الأب التى تريد أن تدافع عن ولدها ٠

ولكن فيدر تفصح له عن حقيقة أمرها فكل ما كابده هيبوليت من عنتها انما كان لاخفاء حقيقة عواطفها نحوه ٠ فهى حين أرادت نفيه من البلاد انما أرادت أن تقصيه عن

بصرها . فقد كانت تتعذب فى هواه ولم تجد سبيلا لمجاهدة هواها الا القسوة على نفسها وعلى من تحب . انها كانت تحب ثيسيوس حقا ، وهى ترى فى هيبوليت صورة صادقة لأبيه بجميع شمائله الغراء مضافا اليها الشباب الطرير وكبرياء الفتوة . ورغم أنها كانت تضطهده فى الظاهر فقد كانت ترسل له العون خفية حتى ينتصر فى جميع مغامراته وأيامه . وهى التى هدته للخروج من اللبرنت قصر التيه الذى يضل فيه كل من دخله ، ولولاها لما عرف كيف السبيل الى النجاة منه .

نعم، ان فيدر تعشق هيبوليت، وقد كانت تطارده فى حياة أبيه وتظهر له كل ألوان الغلظة وترجو أن تباعد بينها وبينه البحور السبعة لتتقى شر هذا الهوى الآثم الذى فتك بها فتكا وكتمته فى أعماقها فذبلت روحها وذبل جسدها بهذا الداء الدفين .

ويعجب هيبوليت لهذا الذى يسمع ، ويصيح قائلا : « ما هذا الذى أسمع ! أنسيت يا سيدتى أن ثيسيوس أبى وأن أبى زوجك » ؟

أما فيدر فهى خجلى يكاد يقتلها الخجل ، فهى قد فضحت هواها لهيبوليت فى لحظة ضعف ، وهى تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها ابتلاعا . وهى تضرع الى هيبوليت أن يجهز عليها بسيفه لينقذها من هذا الوحش الضارى الذى ينهشها نهشا وهى تنزع سيفه بيدها وهى تعرى له صدرها وتناشده أن يطعنها مكان القلب حتى تنجو من علتها .

كل ذلك وهيبوليت واجم كالمشدوه يتمتم : « ماذا تفعلين يا سيدتى ! أيتها الآلهة العادلة ! انى أسمع خطو قادم : احذرى أن يراك شاهد . هيا ادخلى والتمسى النجاة من فضيحة محققة » !

أما القادم فهو المؤدب ثيرامين الذى يجد الأمير هيبوليت شاحب الوجه ينطق وجهه بالألم العميق ويسمعه يقول :

« الفرار يا ثيرامين الفرار ! ان دهشتى بغير حدود ! وانى لغدوت أجزع من نفسى كلما نظرت اليها . ان فيدر ... كلا ! أيتها الآلهة العظيمة ! فليبق هذا السر الفظيع مكتوما فى جوف النسيان العميق » !

ولا يضيف هيبوليت شيئا الى ما قال ، أما ثيرامين فقد جاء يقول ان السفينة قد أعدت للابحار وهى رهن مشيئته . ولكنه جاء أيضا ليعلن مولاه الأمير أن آثينا قد اختارت ملكها ، وأن زعماءها قد استفتوا جميع قبائلها ، فاجتمعت كلمتهم على اختيار أخيه الغلام ملكا . ان ابن فيدر قد أعلن ملكا على آثينا ، وزمام الدولة قد آل الى أمه الوصية عليه .

وينظر هيبوليت الى السماء ويقول معترضا على هذه النقائض الساخرة : « أيتها السماء ! يا من تعرفين ظاهرها وباطنها ! أهذه فضيلتها التى تكافئين » !

ويضيف ثيرامين كالمتشبث بأمل بعيند : « ومع ذلك فهناك شائعات خافتة تقول بأن الملك لا يزال على قيد الحياة ، ويزعم البعض أن ثيسيوس ظهر فى أبير .. » .

وفى جناح فيدر من القصر تلتقى فيدر وأونيون . وفيدر مضطربة بعد أن فضحها لسانها فاعترفت لهيبوليت بغرامها وبعد أن رأت فتوره القاتل . وتنصحها أونيون بعد هذا الذى حدث أن تنصرف عن حب رجل لا يحفل بها ، وأن تلتمس السلوان فى حكم الدولة وتصريف أمورها . فتجيبها فيدر قائلة : « وكيف أحكم وأسيطر عليها اذا كان عقلى الهزيل لم يعد يسيطر على نفسى » . فلترحل فيدر اذن لعلها تنسى هذا الغرام الشقى ، ولكن فيدر لا تستطيع أن تفارق هيبوليت لحظة . لقد سعت لنفيه حتى تتجنبه فى الماضى ، أما الآن وقد وقف على سرها وافتضح أمرها له فالهرب لا يجدى ، ولعل المستقبل يضمر لها بعض الأمل .

ان هيبوليت قد سمع بالحب من شفتيها لأول مرة ولعل هذا سر وجومه وصمته . واذا كان هيبوليت محصنا لا يغزو

الحب قلبه ، فلتبحث فيدر عن نقطة ضعف فيه تستطيع أن تغزوه منها فلعل صولة السلطان وأبهة الملك تخطفان لبه • فلتمض أوينون اذن الى هذا الفتى الطموح ولتجعل تاج المملكة يبرق أمام عينيه فليجلس هيبوليت على العرش فهى فيه زاهدة ، وكل ما تطمع فيه أن تبقى الى جواره ، وسوف يعلم هيبوليت ولدها فن الحكم وسلوك الملوك •

وتمضى أوينون الى هيبوليت لتحمل اليه رسالة فيدر ولكنها لا تلبث أن تعود شاحبة الوجه زائغة النظرات فى اضطراب شديد ، وتهيب بفيدر قائلة : « يجب يا سيدتى أن تخمدى جذوة هذا الحب البائس فى قلبك ، وأن تذكرى فضائلك الماضية : ان الملك الذى ظنه الناس قد مات سيتجلى أمام عينيك • ان ثيسيوس قد عاد وهو الآن فى القصر » •

ويسقط فى يد فيدر حين تعلم أن زوجها لا يزال حيا يرزق ويعضها الندم على ضعفها الذى جعلها تفضح حبها الآثم بلسانها • وتنحى باللائمة على أوينون التى زينت لها هذا السبيل ، فهى قد كانت تؤثر الموت وتعد نفسها له إعدادا وتستسلم لأحزانها السوداء فى طلب الموت حتى توارى التراب ويوارى معها سرها الدفين • ولولا أوينون التى زينت لها أن تفصح عن هواها لهيبوليت لما كانت الآن فى هذا المأزق الفظيع •

وكيف تواجه فيدر زوجها ثيسيوس بعد كل هذا الذى كان ؟ وعما قريب يظهر أمامها ثيسيوس ومعه ولده هيبوليت فأين المفر ؟ ولو أنها كتمت أمرها فهل يسكت هيبوليت على ما كان ؟ أما تراه يفضى لأبيه بسرها الشقى ؟ انتقاما منها وسخرية بها •• لم يعد أمامها الا طريق واحد وهو أن تلتمس الموت •

ولكن أوينون تثنيها عن عزمها قائلة ان موتها سوف يكون انتصارا تاما لهذا الوحش هيبوليت الذى غدت فيدر تبغضه وتخشاه فى وقت واحد • ولئن طلبت فيدر الموت

فسوف تؤكد بموتها كل ما يقوله عنها هيبوليت ، والموتى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولسوف تترك فيدر لذريتها اسما ملوثا بالعار يلطخهم الى أبد الآبدين ٠

هناك اذن طريق آخر غير طريق الموت وهو أن تبادر فيدر الى اتهام هيبوليت بأنه اغتنم فرصة غياب أبيه فراودها عن نفسها ، ولا تنتظر حتى يتقدم هيبوليت لاتهامها ٠ انها قد نزعت منه سيفه وهذا هو دليلها على أنه دنا منها وأراد أن يغتصبها ٠ بل ان أحزانها الماضية التى عرف بها كل من فى القصر ولم يقف لها أحد على سبب هى دليلها على صدق دعواها ٠

وتأبى فيدر أولا أن تلطخ هيبوليت البرىء بكل هذه الأوحال ، ولكن أوينون تصر وتحلف قائلة انها ستتكفل بكل شىء وهى لا تطلب الى فيدر الا الصمت ، ولن تطلب الى ثيسيوس الا نفى هيبوليت ٠ وأخيرا تستسلم فيدر لنصح صديقتها أوينون ٠

ويقبل ثيسيوس على فيدر بعد غيبة طويلة متهللا تهلل المشوق يريد معانقتها فتصده فيدر عنها فى حزن قائلة : « ارجع يا ثيسيوس ولا تلوث طهارة حبك الجميل فأنا لا أستحق منك هذا العناق الحلو ٠ لقد أهدر شرفك ٠ والقدر الحاقد لم يرحم زوجتك أثناء غيبتك » ٠ لم يبق أمام فيدر الا أن تحتجب عن زوجها فتنصرف من حضرته ٠

وينظر ثيسيوس عاجبا الى ولده هيبوليت ومؤدبه ثيرامين اللذين كانا فى معيته ، ويسأل عن سر هذا الاستقبال الغريب الذى استقبلته به زوجته ٠ فيجيبه هيبوليت قائلا : « العلم عند فيدر فهى وحدها تستطيع أن تكشف عن هذا السر ٠ أما عن شخصه فهو يرجو أن يأذن له أبوه فى أن يمتنع عن رؤيتها وأن يمضى عن كل مكان تقيم فيه الملكة فيدر ، نعم لابد من الرحيل ، فقد استهوته مناعم القصور وألهته عن واجبات الفتى الباحث عن أمجاد الحرب والطعان

ومقاتلة البشر فى كل مكان . واذا كان صيت ثيسيوس قد ذاع فى العالمين فهو يحب أن يثبت بحسامه أنه ولد ثيسيوس .

ويعجب ثيسيوس لما يراه فى القصر من وجوم واضطراب ، انه ترك كل شىء فى أمان فاذا به بعد عودته يرى أفراد أسرته يتفرقون ، وكل يطلب أن يمضى فى طريق وكل يأبى أن يعانقه . لقد كابد ثيسيوس أهوالا شدادا أثناء غيبته فى بلاد أبير ، فقد خرج مع صديقه الأوحد بيريتوس الى أبير ، وكان بيريتوس عاشقا لزوجة ملك أبير فتستر ثيسيوس على غرامه الآثم . وفاجأهما الملك فنكل بالعاشق شر تنكيل وقذف به الى الوحوش لتاكله ، وسجن ثيسيوس فى مغاور تحت الأرض تجاور عالم الموتى . وأخيرا استطاع ثيسيوس أن يفر من سجنه ويعود الى بلاده . فاذا به يجد كل شىء فى قصره قد تبدل ، ويسمع من فيدر أن شرفه قد خدش . لابد أن يقف ثيسيوس على حقيقة ما جرى . وأن يعرف الجانى ويأخذه بما جنى .

وتقصد أوينون الى ثيسيوس وتزعم له أن ولده الغادر هيبوليت أراد أثناء غيبته اغتصاب زوجته فيدر ، وأن فيدر تلزم الصمت وتنتحب فى وحدتها حرصا على شعور زوجها ، ولقد حاولت قبل الآن أن تقضى على حياتها بنفسها لولا أن أوينون نزعت السيف من يدها .

ويثور ثيسيوس ثورة عمياء . وحين يمثل هيبوليت بين يديه يتأمل صفحة وجهه البرىء فيعجب كيف يكمن وراء هذه البراءة وحش كاسر ، ويرى هيبوليت أباه متجهما فيسأله عن سر تجهمه فينفجر ثيسيوس فيه واصفا اياه بأبشع الصفات منددا باجترائه على حرمة فيدر قائلا : « اغرب عن وجهى ولا تعد : اخرج من بلادى التى دنستها ولئن رأتك عين فى ربوع اليونان فدمك مهدر » .

ويرتج على هيبوليت حين يسمع هذا الاتهام الفظيع وهذا الحكم الصادر فيه ولا يعرف كيف يدافع عن نفسه .

انه يعرف سر فيدر ولكن رجولته لن تسمح له بافشائه مهما كلفه ذلك • ولكن الموقف عصيب والاتهام فظيع • ويدافع هيبوليت عن نفسه قائلا لأبيه ان العفة كانت دائما مثله الأعلى ، وهو ما يعرفه أبوه وتعرفه اليونان كلها ، حتى لقد كان اسمه عنوانا للعفة فى كل مكان • فكيف يعقل أن من كان فى مثل عفته يخامره مثل هذا الحب الآثم لزوجة أبيه • ان الرذيلة كالفضيلة تتملك نفس الانسان درجة درجة وأبوه يعرف أن ماضيه ناصع وليس فيه ما يشوب فكيف يعقل أن يتحول هيبوليت فجأة من فتى طاهر الى وحش كاسر •

نعم ، ان هيبوليت يحب ، ولكنه لا يحب فيدر بل يحب الأميرة آريسيا التى استولت على جنانه وملكت فؤاده ، ولكم حاول هيبوليت أن يقاوم هذا الحب وأن يتجنب أريسيا ولكن الحب قهره فى النهاية وهو يرجو أن يأذن له أبوه فى الزواج منها •

ولكن ثيسيوس يحسب أن ولده هيبوليت يداوره ويخادعه بهذا الكلام لينفى عن نفسه الشبهات ، يمضى فى غضبه السابق ويلعن ولده ويأمره بالخروج من البلاد وينفيه فيما وراء أعمدة هرقل « جبل طارق » حيث تخوم العالم •

وحين ينصرف هيبوليت يناجى ثيسيوس نبتون رب البحر أن يستجيب لصلاته فيحطم بأمواجه المتلاطمة سفينة هيبوليت التى يبحر فيها الى أعمدة هرقل ، ان ثيسيوس لن يلوث يديه بدم ولده فهذه آشنع جريمة فى الوجود ، ولكن رب البحر قد وعده بهذا القصاص •

وتعرف فيدر بما جرى بين ثيسيوس وهيبوليت فتقبل على ثيسيوس متشفعة للفتى المظلوم راجية آباه آلا يلوث يديه بدم ولده • ولكن ثيسيوس الغاضب يجيبها قائلا ان ولده قد أضاف الى جريمة الحب الآثم جريمة الكذب ، فهو يزعم مخادعا أنه يحب أريسيا حبا مدمرا ملك عليه عقله

وحواسه ، ليبرىء نفسه من عدوانه على فيدر • كلا • ان ثيسيوس لن يلوث يديه بدم ولده فالرب نبثون اله البحر سيتكفل بقصاصه •

وحين تسمع فيدر بحب هيبوليت للأميرة أريسيا تتأجج الغيرة العمياء فى صدرها وتقصد الى أوينون فى اضطراب عظيم • ولا تفكر فى شىء الا الانتقام • ان نفى هيبوليت لا يكفى ، فسوف يمضى هيبوليت الى منفاه وأريسيا تملأ فكره وجوانحه • لابد من موت أريسيا • لقد فتك ثيسيوس باخوتها لكثرة جرائمهم ولابد أن يفتك بها أيضا فجريمتها قد تجاوزت كل جرائمهم •

ولكن فيدر لا تلبث أن تفيق من هذيان المحموم ويخزها ضميرها فتتندم على ذلك • انها تنجرف فى الرذيلة درجة درجة وهى الآن قد بلغت القرار • فبعد الحب الآثم والكذب الفظيع لم يبق الا أن تدفع فيدر زوجها الى هذه الجريمة النكراء كلا كلا • ان هناك سبيلا آخر غير هذا السبيل المقيت وهو أن تقضى فيدر على نفسها وتلحق بآلها فى عالم الظلمات •

وتحاول أوينون أن تهدىء من روعها وأن تثنيها عن عزمها قائلة ان فيدر ليست أول من اتقدت فى قلبه جذوة الغرام الآثم وأن آلهة الأوليمب ذاتها قد أحلت ما حرم عليها • فتغلظ فيدر لصاحبتها الكلام منددة بالمنافقين فى معية الملوك الذين يدفعون سادتهم الى دمارهم بتزيين الرذيلة لهم وتمهيد سبيلهم اليها • لقد تحقق لها الآن أن أوينون هى سبب دمارها ، فلولاها لتجنبت هيبوليت وكتمت هواه فى قلبها ولولاها لما ظن ثيسيوس بولده الظنون وهى الآن تريد أن تشجعها وهى فى لحظة جنون على سفك دم الأميرة البريئة •

وينطلق هيبوليت الى أريسيا ليقول وداعا ، فتناشده أريسيا أن يفضى لأبيه بحقيقة فيدر ، فأبوه يحبه وهو سيأخذ الجانية بالعقاب ان عرف الحقيقة ، ومن الظلم أن يمضى

هيبوليت عن حبيبته أريسيا الى الأبد فيهدم سعادته وسعادتها حماية لامرأة خاطئة مثل فيدر ·

ولكن هيبوليت الكريم يأبى أن يبوح بشيء لثيسيوس حتى لا يفجعه في آخر ما بقي له هو وزوجته · ويستحلف هيبوليت أريسيا أن تكتم السر مهما حدث من أمور ، فهى وحدها التى تعرفه من شفتيه ، ولتترك كل شيء لعدالة السماء · أما هو فانه ماض الى منفاه وهو يضرع لأريسيا أن تفر من أسرها وتتبعه ، ولسوف يعتصمان فى بلاد صديقة كل من فيها يمتشق الحسام راضيا ليثأر لهما · ان لهما أصدقاء فى أرجوس وفى أسبرطة وفى كل مكان ، وهو لن يترك فيدر تنصب ولدها ملكا على حطامها بعد أن تقصيهما عن البلاد ·

ويتواعد الحبيبان على اللقاء خارج أبواب تريزين حيث يتزوجان فى المعبد القائم هنالك ثم يرحلان الى المنفى ·

وتلمح أريسيا الملك ثيسيوس قادما الى جناحها فتوحى لهيبوليت بالفرار قبل أن يدركه الملك · ويدخل ثيسيوس عليها فيجدها شاحبة الوجه ترتجف · ويسألها عما جاء بهيبوليت الى جناحها فتقول انه جاءها مودعا · ان قلب ثيسيوس يحدثه بأن فى الأمر سرا وهو قد جاء الى أريسيا لعله يكتشف الحقيقة · وتعترف أريسيا لثيسيوس بما بينها وبين هيبوليت من عهود الحب قائلة انه لم يفعل ما يستوجب كل هذا الغضب من أبيه · فيجيبها ثيسيوس متهكما ان هيبوليت لا شك قد أقسم على حبها الى الأبد ، ولكن من الخير أن تعلم أنه فتى متقلب لا يوثق فى عهوده ·

وتبكى أريسيا وتوشك أن تفضى لثيسيوس بحقيقة حب فيدر لهيبوليت ، ولكنها تذكر عهدها لحبيبها فتمسك عن الكلام · ولكنها تمضى فى تحذير ثيسيوس من عدالة السماء · ان دموعها تشهد ببراءة هيبوليت مما نسب اليه ·

وتشتد شكوك ثيسيوس فهو فى قرارة نفسه الحزينة

لا يصدق أن ولده العف أقدم فعلا على هذه الفعلة الشنعاء ، ان أريسيا تخفى عنه سرا • وقد همت بالكلام مرتين ولكنها عادت فلاذت بالصمت • لابد أن فى الأمر شيئا • لابد أن يناقش أوينون فى الأمر من جديد •

ويعود ثيسيوس الى جناحه • وتأتيه الخادمة بانوب وهى فى حزن شديد • ان أوينون قد انتحرت غرقا ، والملكة فى خدرها معتكفة فى اضطراب عظيم وقد ارتسم اليأس على وجهها كأنها عقدت العزم على أمر رهيب ، فعيناها زائغتان وكلامها كالهذيان وخدها فى صفرة الأموات • فليت الملك يخف لنجدتها •

وقبل أن يدرك ثيسيوس فيدر يقتحم ثيرامين حجرته صائحا ان هيبوليت قد قتل ، فقد خرج فى عجلته الى منفاه ، وما أن تجاوز أبواب المدينة وانطلق بحذاء الساحل حتى ارتفعت أمواج البحر كأنها الطود الشامخ وقذفت على الشاطىء وحشا ضاريا لم تقع العين على مثله قط • ولم يفر هيبوليت أمامه فرار الجبان بل نازله بسيفه ورمحه حتى أثخنه بالجراح ، ولكن الوحش الهائج هجم على جياد العربة وفمه يبصق لهبا ففزعت الجياد وهوت من فوق الصخور فتحطمت العربة وذهبت الجياد تعدو فى جنون كأن بها مسا وتجر هيبوليت المسكين وتطأ جسده بحوافرها حتى فاضت روحه • وقد أدرك ثيرامين هيبوليت قبل ان يجود بالرمق الأخير فناجاه هيبوليت قائلا : « بريئة روحى هذه التى تقبضها السماء • وبعد موتى ليس غيرك يا صديقى الوفى من يكلأ أريسيا الحزينة برعايته • فان عرف أبى الحقيقة فى يوم من الأيام وطلب أن يطيب روح ولده المظلوم ، فقل له أن يترفق بأسيرته ، وقل له أن يرد لها •• » •

وتقبل فيدر على زوجها ثيسيوس وفى عينيها وميض غريب ، فتجده محزونا كسير القلب يوشك أن يتهافت من فرط كمده على ولده • ويتطلع اليها ثيسيوس قائلا : « لقد انتصرت يا سيدتى ، فقد مات هيبوليت ، اليك بضحيتك ،

فاطربى بها • وسواء آكان بريئا أم مذنبا فقد مضى الأمر بينكما ولم تبق لى الا الأحزان » •

وتتقدم اليه فيدر وهى تتحامل على نفسها تحاملا كأن بها داء عضالا وتقول استمع الى يا ثيسيوس • لقد كان ولدك بريئا ، فرد لاسمه شرفه ، ولم تبق أمامى الا دقائق معدودات •• انما أنا التى راودته عن نفسه فقد أعمانى الحب الآثم له •• أما أوينون اللعينة فقد دبرت كل شىء ، وقد التمست الموت اتقاء لغضبى •• ولقد سكت على ما فعلت فحق على التكفير عن هذا الذنب العظيم •• وانى لماضية فى طريقها ••• فقد جرعت سما جاءت به ميديا الى أثينا •• وهو الآن يسرى فى عروقى ويكويها كيا ••

وتسقط فيدر جثة هامدة •

ويقف ثيسيوس الحزين متأملا أشلاء أسرته ويقول : كل مذنب كفر بالموت عن جريمته ، فكيف أكفر عن جنايتى على ولدى البرىء ؟ لم يبق الا أن أتخذ من حبيبته أريسيا بنتا لى ، وأن أنسى جرائم أسرتها الشنيعة فأرد لها كل مالها احتراما لذكراه الطاهرة •

بريتانيكوس

للشاعر المسرحي جان راسين

نيرون ! امبراطور روما ! اسم تقشعر لذكراه الأبدان!

روى عنه التاريخ أنه أحرق روما ، عاصمة ملكه ، ثم جلس في شرفة قصره يمتع البصر بمرأى اللهيب يأكل الدور ومن فيها ويعزف على قيثارته ، وفي اليوم التالي اتهم خصومه في السياسة والدين بهذه الجريمة النكراء ونكل بهم تنكيلا . ولم يكن احراق روما جريمته الوحيدة ، فحياة نيرون حافلة بأبشع الجرائم .

فقد ارتقى نيرون ، ولد الامبراطور كلوديوس العرش على أجداث وأجداث ، ولم يكن الوريث الشرعي فمهدت له أمه آجربينا السبيل الى اغتصاب العرش من أخيه بريتانيكوس لتحكم باسمه روما وتكون ملكتها غير المتوجة .

ثم قتل نيرون أخاه بريتانيكوس ليزيله من وجوده جملة .

ثم قتل نيرون أمه لينفرد وحده بالسلطان لا شريك له .

ثم قتل نيرون مؤدبه الشاعر العظيم سنيكا لأنه عارضه فيما اقترفه من جرائم نكراء .

وغير هذا كثير . فنيرون اسم تقشعر لذكره الأبدان !

وهذه مأساة تصور كيف فتك نيرون بأخيه بريتانيكوس ٠ وأشخاص هذه المأساة هم : الامبراطور نيرون قيصر روما الحاكم بأمره في الامبراطورية الرومانية ، وهو ولد أجربينا من زوجها الأول دومتيوس أينوباربوس الذى توفى عنها وعن ولده نيرون ، فتزوجت هذه الأرملة الجميلة الواسعة الحيلة من قيصر روما السابق الامبراطور كلوديوس ٠ ولا زالت أجربينا بكلوديوس قيصر حتى جعلته يتبنى ولدها نيرون ابن أينوباربوس تبنيا رسميا ويجعل من نيرون ولى عهده الشرعى وخليفته فى حكم البلاد ٠

ثم بريتانيكوس بن كلوديوس قيصر من زوجته مسالينا ، وهو الذى كان ينبغى أن يجلس على عرش روما بعد وفاة أبيه الامبراطور كلوديوس ، لولا أن كلوديوس قد تبنى الفتى نيرون وهو ليس من صلبه وجعله باغراء زوجه أجربينا ومكرها وريثه الشرعى أمام الأشهاد ٠ وغير نيرون وبريتانيكوس وأجربينا هناك من أشخاص المأساة العذراء الطاهرة الأميرة جونيا حبيبة الأمير بريتانيكوس التى أخذت منه العهد وأعطته على الزواج ، ثم بوروس مؤدب نيرون ، ونرسيس مؤدب بريتانيكوس ، والبينا صديقة أجربينا الوفية ثم جماعة من الحرس ٠ وغير هؤلاء ممن نسمع عنهم كثيرا ولا نراهم الامبراطور أوكتافيا زوجة نيرون والشاعر سنيكا مؤدبه ٠

أما المكان فهو قصر نيرون بروما ٠

وفى حجرة من حجرات القصر نجد أجربينا وفى معيتها صديقتها الوفية ألبينا : وتشكو أجربينا الى ألبينا ما آلت اليه حال ولدها الامبراطور نيرون ٠ فهو قد غدا شكاكا يرتاب فى كل شيء ٠ وهو متعجل يريد أن ينفرد بالسلطة ، وهو قد صار يجهر بعدائه لبريتانيكوس زاعما أنه خطر عليه وعلى الدولة ، بل قد صار يضيق بأمه أجربينا ويقصيها

عن بلاطه ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠ وبعد أن كانت أجربينا هي الكل في الكل تدبر شئون روما بما ترى وتشتهي وتحرك رجالات الدولة كأنهم قطع الشطرنج بين يديها باتت بلا حول ولا قوة كل ذلك لأن نيرون يريد أن ينفرد بالسلطة ، فهو كما تقول أجربينا « قد سئم حمل الناس على حبه ، فهو يريد حملهم على مخافته » ٠

وتعجب ألبينا لما يبدو من جحود نيرون ، فأمه أجربينا هي التي أجلسته على عرش روما بعد أن حرمت بريتانيكوس ابن كلوديوس من حقه الشرعي بما أوتيت من دهاء ، وهي التي جاءت بخير مؤدبين في عصره هما الشاعر سنيكا والسياسي بوروس ، الأول ليلقنه آداب الأولين والثاني ليلقنه أساليب الحكم ٠ كل ذلك ليسير نيرون سيرة القياصرة الأمجاد ٠ بل ان ألبينا تستبعد أن يكون نيرون جاحدا كل هذا الجحود فهو يحكم روما منذ ثلاث سنوات ، والرومان لا يرون فيه الا فضائل تذكرهم بفضائل أغسطوس العظيم ٠

ولكن قلب أجربينا يحدثها بأن نيرون انما يبدأ حياته كما ختم أوغسطوس حياته ، محبا لشعبه راضيا مرضيا يعم في عهده الخير والبركات ، وهي تخشى أن يختم نيرون حياته كما بدأ أوغسطوس حياته ، فيخوض في بحار من الدماء ويتنفس في جو من الغدر والدسائس ٠ فهو قد أتى أمرا ادا ٠ انه يعلم بحب بريتانيكوس لجونيا ويعلم بحب جونيا لبريتانيكوس ، وهو يعلم أنهما يعدان العدة للزواج ، فاذا به يختطف هذه العذراء البريئة من قصرها أثناء الليل ويغلق عليها أبواب قصره ٠ فأين فضيلة نيرون هذه التي تتحدث عنها ألبينا ؟ ان أجربينا لا تفهم لم اختطف نيرون جونيا ؟ أهو عاشق لها مستهام بحبها ؟ أم هو يبغي النكاية ببريتانيكوس ؟ ثم ما موقف أوكتافيا المسكينة زوجة نيرون الوفية التي اختارتها له أجربينا بنفسها لتجلس الى جواره على عرش روما ؟ أم ترى نيرون لا يبغي الا الانتقام من هذين المحبين لعلمه أن أمه أجربينا تبارك زواجهما وتمهد له ؟

ان أجربينا الداهية قد رتبت كل شيء في البلاط حتى تمسك هي بزمام الموقف على الدوام · فهي التي حالت دون زواج خيلاونوالس أخو جونيا وسليل أغسطوس قيصر من أوكتافيا فدفعت هذا الفتى الى الانتحار · وهي التي زفت أوكتافيا الى نيرون لتثبت بذلك حقه في العرش بعد أن أقصت بريتانيكوس من طريقه · وهي الآن ترى أن نيرون متربع على أريكة الملك بيده كل المعابد ويحرمها من كل سلطان فهي لا تجد مناصا من الانضمام الى بريتانيكوس حتى يشتد ساعده فيعتدل ميزان القوى في روما من بعد اختلال، ولا ترجح كفة ولدها على كفتها ·

ان نيرون حقا لا يزال يبدى لأمه أجربينا من مظاهر الاحترام ما ينبغي على الولد لأمه · ولكن أجربينا بغير حاجة الى هذا الاحترام الصورى ، وهي تطلب منه مزيدا من الثقة · لقد كانت من قبل تحكم روما وباشارة من يدها يجتمع مجلس الشيوخ وينفض · أما الآن فوا آسفاه لقد غبر سلطانها وأفل نجمها · انها لن تنسى يوم تتويج نيرون حين جاءه الملوك والسفراء من كل حدب وصوب ليعترفوا به ملكا على الدنيا ، وتأهبت أجربينا لتجلس الى جواره على العرش ، فرمقها نيرون بنظرة تفيض بالمقت والاحتقار وأزاحها من الطريق · انه اليوم سكران بمجده ، ولم يعد يستمع الى مشورة من أحد الا سنيكا وبوروس · بل انها لم تعد تستطيع أن تلقاه على انفراد : وهو لم يعد يستقبلها الا في حضور البلاط ، فان تكلم معها فكلامه مملى عليه ، وان صمت فصمته مدروس ·

وتسعى أجربينا الى نيرون لتجادله فيما كان من خطفه جونيا خطيبة بريتانيكوس · وتطلب الى بوروس أن يقودها الى الامبراطور ، ولكن بوروس يعتذر بأن نيرون معتكف لا يقابل أحدا · وهنا تثور أجربينا وتتهم بوروس بالتآمر مع سنيكا لابعادها عن القصر والحيلولة بينها وبين الاتصال

بولدها • انهـــا بنت امبراطـور وزوج امبراطـور وأم امبراطور وأخت امبراطور فمحال عليها أن تقبل أن يعترض طريقها خادمان من رعيتهـا • وهى تتهم بوروس وسـنيكا بأنهما يرهبان نيرون ويعاملانه معاملة القاصر ليحكما باسمه روما ، وهى تصـفهما بالجحود ، فهى وليـة نعمتهما التى اختارتهما ليؤدبا نيرون غلاما ، فاذا بهما يقيمان من حوله سياجا ليستأثرا بالسلطة •

ولكن بوروس يجيبها بقوله ان نيرون ملكا لم يعد ابن أجربينا بل سيد الدنيا ، وهـو وديعـة بين يديه يحفظهـا للامبراطورية الرومانية • أما أجربينا فليس لها الا الاحترام الواجب لوالدة قيصر لا أكثر ولا أقل •

وتســأل أجربينا بوروس غاضبة : فيم كان اختطاف نيرون الأميرة الملكية جونيا ، أخت الأمير سيلانوس وخطيبة بريتانيكوس ، وأية جريمة ارتكبت هذه الفتاة البريئة حتى يسجنها نيرون فى قصره !

فيجيبها بوروس قائلا ان الأميرة جونيا لم ترتكب جرما ، وهى فى القصر معززة مكرمة • ولكن قيصر يستضيفها فى قصره مخافة أن يتزوجها بريتانيكوس فيتحول بزواجها من تابع مخلص الى طامع فى عرش البلاد • ونيرون قيصر هــو ولى الأمر فى البلاد ولن تزف أميرة من دم قيصرى الا الى من يرضى به قيصر زوجا لها •

وتهدد أجربينا وتتوعد قائلة انها اختارت بريتانيكوس زوجا للأميرة جونيا ، فاذا كان نيرون يحــول دون زواجهما فهو بهذا لا يغض من سلطان أمه وحــدها ولكنــه يغض من سلطانه هو ، فكل ما يمس أمه يمسه هو ، وهو يخطىء أعظم الخطأ ان ظن أن أجربينا بغير حول أو قوة فى روما ، فهى لا تزال عند الكثيرين صاحبة الكلمة العليا •

ويدرك بوروس من هذا الكلام أن أجربينا تهـدد بأن تظاهر بريتانيـكوس والأميرة جونيـا عـلى ولدها نيرون ،

فيستنكر منها هـذا القول ، ولا تعبأ أجربينـا بتنديده بل تمضى الى مستشارها بالاس لترسم معه ما يتطلبه الموقف من خطط • وهى تدعو بريتانيكوس الى لقائهما لتتدارس معـه هـذا الآمر فهى قادرة عـلى آن تعينه فى هـذه المحنة التى ألمت به •

أما بريتانيـكوس فيرتاب فى آمرها لكثرة ما رآى من غدرها به ، فهو يعلم أنهـا كانت وراء حـرمانه من عرش البلاد ، وهو لهذا يلجأ الى مؤدبه نرسيس ليطلب اليه المشورة فى أمره • وهو يشكو لنرسيس كل ما نزل وينزل به ، قائلا ان نيرون الطاغية يحيطه بشبكة محكمة الحلقات منالجواسيس هم أصدقاؤه المأجورون الذين يتظاهرون له بالود والاخلاص ليكاشفهم بكل ما يجرى فى دخيلة نفسه • ثم ينقلون أسراره أولا بأول الى سيدهم نيرون • فهم عيـون نيرون وهم آذانه التى يرى بها كل ما يدور فى قصر بريتانيكوس ، ويسـمع بهـا همسات فؤاده • فلم يعد لبريتانيكوس من صديق وفى أمين الا مؤدبه نرسيس هـذا الذى كان عبـدا عنـد أبيـه كلوديوس قيصر فأعتقه آبوه لما رآه من غزير علمه وعظيم وفائه وجعـل منـه مؤدبا لبريتانيكوس • نعم • نرسيس وحده هو موضـع سر بريتانيكوس ، ولن يقرأ صفحة روح بريتانيكوس الا نرسيس الأمين •

لهذا يسأل بريتانيـكوس نرسيس آن ينطلق فى روما ليعجم عود الأصـدقاء ويلمس بنفسـه ما أحدثه اختطاف خبيبته الأميرة جونيا من أثر فى نفوس الناس ، وما حركه فيها من سخط على نيرون المستبد ، وليقف بنفسه على مدى استعداد الناس للوقوف الى جـواره فى محنته حتى يسترد الأميرة من سجانها ، وليطلع بنفسه على حال الأميرة جونيا ، ان كانت الحراسة مشددة عليهـا أم كان انقـاذها من أسر نيرون أمرا ميسورا • أما بريتانيكوس فهـو ماض للقـاء أجربينا عند مستشارها بالاس ليتدبر معهما الأمر لعله يجد فيهما بعض العون •

ولكن بريتانيكوس المسكين الطيب القلب لم يكن يعلم أن مؤدبه نرسيس هو أيضا من عيون نيرون وآذانه ، بل انه رقيبه الأكبر على ما يجرى بقصر بريتانيكوس وما يدور بخلده ٠

وهكذا يعرف نيرون بما كان من لقاء بين أمه أجريبينا وأخيه بريتانيكوس بالاجتراء عليه ، وأن أمه تؤلب عليه أعداءه لتقوى بهم وتطالب بمزيد من السلطان فيأمر نيرون بنفى بالاس من البـــلاد ٠ حتى يقصـــيه عن أجريبينـــا وبريتانيكوس فتعيش روما فى سلام له وحده ٠

ولكن هذه الاجراءات التى اتخذها نيرون لم تكن لتحل عقدته ، فقد تعلق قلب نيرون بالأميرة جونيـا وغدا بحبهـا مستهاما ، فلم يعد الأمر عنده حرمان بريتانيكوس من الزواج بالأميرة جونيا ، فهذا عند نيرون أيسر الامور ، وانما غدت مشكلته الـكبرى كيف يحظى بحب جونيـا ويجعلهـا تبادله الهوى ٠ نعم ، لسوف يطارحها غرامه الذى بلبـل خاطره وأسهده الليل ، ولسوف يبثها زفرات العاشق المكلوم ، فان لم يجد فى قلبها صدى لهواه فلسوف يلجأ معها الى التهـديد والوعيد حتى ترضخ لارادته وتستجيب ٠ ان كل من عرفهن نيرون من نساء البلاط مجردات من العفة والفضيلة مقبلات على الجاه وخسيس الشهوات ، وجونيا وحدها مثال الطهـر والأنفة تستعصى فضيلتها على كل سـلطان ولو كان سلطان قيصر ، لابد اذن أن ينالها مهما كلفه ذلك من مكابد ٠

ويصـارح نيرون نرسيس ، موضع سره ، بكل هـذه الهواجس التى تؤرقه ، وكأنه يناجى نفسه الباطنة ، والحق أن نرسيس لم يكن الا نفس نيرون الباطنة التى يقرأ فيهـا مكنونات قلبه وتزين له كل ما يعربد به قلبه من شهوات ٠

وقد كان القدماء يقولون ان فتى جميل المحيا يعشـق جمال وجهه فأخذ يذهب كل يوم الى شط غدير ليتأمل جماله فى صفحة الماء الصافى كأنه مرآة من بلور ، ويقضى عامة

نهاره مفتونا بجماله لا ينصرف بصره عن صفحة الغدير ، فغضبت عليه الآلهة وأحبت أن تعاقبه على عشق الذات ، فأحالته الى زهرة النرجس التى تنبت على شطوط الغدران ، وترنو بكأسها الى الماء كأنها تتفرس فى المرآة طول اليوم مفتونة بجمالها • وهذا هو نرسيس ، أى النرجس ، الذى اتخذ منه نيرون مرآة لنفسه •

وهكذا يزين نرسيس لنيرون أن يسترسل فى أحلامه وشهواته ، متملقا نيرون قائلا ان بريق مجده سيخلب بصر الأميرة جونيا ، فهو تاج الملوك ودرة العصر التى تستهوى أكرم الحسان •

ولكن نيرون رغم ذلك يرى العقبات الكثيرة التى تقف فى سبيله الى الأميرة جونيا • فهناك زوجته أوكتافيا وأمه أجربينا وهناك مؤدباه سنيكا وبوريوس بل وهناك روما كلها التى ستغضب لقيصرتها أوكتافيا • لقد سئم نيرون الحياة مع زوجته أوكتافيا التى فرضت عليه فرضا كأنها جزء من واجبات الملك وأعبائه الثقيلة ــ ولقد كان يتمنى أن يتخلص منها بالطلاق لولا خوفه من قوة الرأى العام • بل ان الامبراطورية نفسها كانت تنتظر منها أن تأتيه بوريث لعرش القياصرة ، وقد مرت الآن أربع سنوات على زواجهما فلم تأته أوكتافيا بوريث فلابد أن الآلهة نفسها لا تبارك هذا الزواج •

ويزين نرسيس لنيرون أن يطلق أوكتافيا لا ارضاء لقلبه فقط ولكن خدمة للامبراطورية كذلك • ويذهب يفصل له تاريخ أسلافه الذين طلقوا زوجاتهم خدمة للامبراطورية ، ويذهب نرسيس يؤلب نيرون على أمه أجربينا التى فرضت عليه هذا الزواج فرضا ، قائلا ان أمه الغضوب لم يعد لها حول ولا سلطان منذ أن نفى نيرون مستشارها الخطير بالاس فجعلها بذلك قصيصة الجناح •

وفى القصر تسعى الأميرة جونيا الى نيرون لتستفسر عن

سبب أسرها فى القصر ولتستوضح جريمتهـا ، فيكاشـفها نيرون بغرامه ، ويلومها على استجابتها لغرام بريتانيكوس ، قائلا ان أميرة ملكية مثلها لا يمكن أن تختار لنفسها زوجـا الا من اختاره لها سيد البلاد ، والا ألصقت العار بالعرش ، فتجيبه الأميرة جونيا قائلة انها ما فعلت شيئا الا وفقا لارادة أمه أجربينـا ولارادة الامبراطـور الراحـل كلوديوس أبو بريتانيكوس الذى اختارها قبع وفاته لتكون زوجة لولده ، وهى تعلم أن بريتانيكوس يحمل لها أصـدق الحب ، وهى تبادله حبا بحب ، فهى لا ترى غبارا فى زواجهما ، ولا سيما لأنها تعرف أن نيرون يحترم دائما ارادة أمه ، ثم ان نيرون لن يجد فى دولته كلها من هو أشرف محتدا من بريتانيكوس وأولى بها منه ، وهى سليلة القياصرة ولن يكون كفئا لهـا الا سليل القياصرة ٠

وتؤخذ جونيا حين يتقدم اليها نيرون قائلا ان الزوج الذى اختاره لها قيصر ليس أقل من قيصر نفسه ٠ نعم ان نيرون قيصر نفسه مدله بحبها وهو يطلب اليها أن ترضى به زوجا ، بل ان روما كلها تتحدث بلسـانه ، وأوكتافيـا لم تنجب لنا وريثا للعرش ، ولهذا فطلاقها واجب ٠ فلتتدبر اذن جونيا الأمر وهو يرجو أن يستجيب قلبها لنداء قلبـه ولنداء روما ٠

وحين تسمع جونيا هذا الكلام تجيب نيرون فى حـزم قائلة انها لا تستحق منه هذا التكريم ولا هذا التجريح معا ، أما بريق الملك فهى فيه زاهدة ، ولا سيما اذا جاء على أنقاض صاحبته الشرعية أوكتافيا ، وأما حبها لبريتانيكوس فثابت لا يزعزعه ترغيب ولا ترهيب ، ولا سـيما بعـد أن جرد بريتانيكوس من كل حقـوقه الطبيعية فى العـرش وهى لن تتخلى عن بريتانيكوس بعد أن غبرت عنه أبهة الملك والسلطان ولم يبق له فى الحياة الا حبها واخلاصها ٠ فليحفظ نيرون امبراطوريته لنفسـه وليترك لهـا ولبريتانيـكوس حبهما الهادىء السعيد ٠

وتفرح جونيا حين تسمع نيرون الماكر يقول انه سيأذن لها بلقاء بريتانيكوس ولكنها لا تلبث أن تحزن حين تسمعه يقول انه ينتظر منها أن ترد بريتانيكوس بنفسها دون تدخل منه ، فان لم تفعل فانه سيأمر بنفيه من البلاد وتتحمل هى وزر نفيه • ونيرون لا يحب أن يحس بريتانيكوس بأن قيصر ينافسه على حب الأميرة جونيا ، فعليها اذن أن تبدى له من الصد ما يصرفه عنها • ولسوف يراقبها من وراء ستار فان بدا منها ما يشجع بريتانيكوس كان فى ذلك هلاكه •

وترجو الأميرة جونيا أن يعفيها نيرون من هـذا المركب الصعب ولكنه يصر على هذا اللقاء الذى دبره بين الحبيبين •

ويتم اللقاء • ويهـرع بريتانيكوس الى جونيا يبثهـا لواعج أشواقه ولكن جونيا تتمالك نفسها وتكظم دموعهـا التى توشك أن تنهمر على خديها انهمارا ، وتصطنع الفتور اصطناعا متجنبة نظراته • ويستفسر بريتانيكوس منها عن سر جفائها فتجيبه قائلة أنهما فى قصر قيصر حيث للحيطان عيون وآذان •

ولكن بريتانيكوس الجسور الذى لم يعهد فى حبيبتـه جونيا هذا الخوف والاشفاق يطمئنهـا الى أنه قد وجـد فى أجربينا أم نيرون حليفا ، ويعلن بأعلى صوته أن روما كلها ساخطة على قيصرها مستاءة من مسلكه • فتعود جونيـا الى أقوال عجيبة تنسبها اليه ، فهو لا يقصد شيئا مما يقول ، فهو قد أعلن أمامها ألف مرة أن روما ملتفة حـول امبراطورها وفية له • فالألم اذن وحده هـو الذى يدفعه الى مثل هـذا الكلام •

ويذهل بريتانيـكوس لغرابة ما يسمع ويظن بجونيـا الظنون وينصرف عنها كاسف البال وهو يحسب أن نيرون قد استهواها بالمجد والأرجوان •

وبعد أن ينصرف بريتانيكوس تنفجر جونيا بالبكاء • ويقبل عليها نيرون ، فتصرفه عنها فى غلظة • انها أطاعته

ولكنها لا تحب أن تسمع منه كلمة واحـدة بعد هـذا الذى كان • فليتركها وحيدة لدموعها •

أما نيرون فقد وقف عـلى سر هائل ، وهـو أن غرام بريتانيكوس والأميرة جونيا غرام مستقر فى حبة القلب ، ولا يجدى معه الا أنجع دواء •

ويعود بوروس نيرون ليحـذره مما يجـرى حـوله من أشياء ، فهـو له نعم الناصـح الأمين • ان نفى بالاس ، مستشـار أجربينا وعضـدها الأكبر ، قد أغضب أجربينـا وهى الآن تؤلب على نيرون جند الرومان وتذكرهم بحكامهم الأوائل الذين كانوا يسلكون سبيل الشرف • ونيرون يستهين بقوة أمه من ناحية ويعتمد على صبر شعبه أكثر مما ينبغى • وهو يعطى أجربينا سلاحا ماضيا تشهره فى وجهه وهـذا السلاح هو هذا الحب الذى تملكه للأميرة جونيـا ، وجعله يتنكر لزوجته الفاضلة أوكتافيا التي لم تخطىء فى شىء ولم تذنب فى شىء بل كانت له نعم الزوج الوفى •• وكيف ينتظر نيرون أن يختطف من رجل آخر خطيبته دون أن تثور عليـه ثائرة شعبه ؟ كلا • ان نيرون قد غلا واشـتط ولابد له أن يعتصم بالروية والتفكير ، فيقلع عن هذا الغرام الشاذ الذى لن يعود عليه الا بالمتاعب والمكاره •

ويسـتمع نيرون الى هـــذا التحـذير ولكنـه لا يجـد ما يجيب به •

غير أن للحب عـلى القلوب سـلطانا لا يرد •• فليحدثه بوروس بما شـاء عن أمور الدولة أما شـئون القلب فهـو لا يأذن لأحد أن يجادله فيها •

أما أجربينا الغاضبة لنفى بالاس فهى تهدد وتتوعد ، وحين تلتقى ببوروس تبلغه أنها لن تتردد فى اثارة الجيش عـلى نيرون ، ولو اقتضى الأمر أن تعترف أمام قـواده بكل

ما ارتكبته من جرائم في سبيل اقصاء بريتانيكوس ابن الامبراطور كلوديوس ووريثه الشرعي عن عرش آبائه لتجلس عليه نيرون ولو دفعت حياتها ثمنا لذلك • فهي التي دبرت اغتيال أعوان بريتانيكوس ونفي أنصاره ودست السم لمريديه ، وهي التي استقدمت من المنفى بوروس وسنيكا ليكونا عونا لها على اقصاء سلالة كلوديوس واجلاس نيرون على سرير الملك ، كل هذا فعلته أجربينا لتحكم روما مستترة وراء ولدها نيرون ، فاذا بنيرون يركلها ويستبد وحده بالسلطة ، بل اذا بروما يحكمها بوروس وسنيكا متخذين من نيرون ستارا • وهما الآن يعلمانه هجران زوجته التي اختارها هي له بعد أن علماه احتقار أمه •

وتهدىء ألبينا من ثائرة أجربينا وتنصحها أن تكظم غضبها حتى لا تسوء العواقب ، وألا تحاول التدخل للحيلولة بين نيرون وجونيا • ولكن أجربينا تعلم أن في زواج نيرون من جونيا القضاء المبرم على كل أمل في السلطان • فجونيا ليست بالفتاة الساذجة الضعيفة الباهتة الشخصية كأوكتافيا، ولئن ارتقت عرش روما لم تعد لأجربينا فيها كلمة •

وتحاول أجربينا أن تتقرب من بريتانيكوس ، وتبدي له أنها على أتم الاستعداد لمؤازرته لو أنه عرف كيف يجمع حوله أعضاء السناتو ، مجلس شيوخ روما • ولكن بريتانيكوس يأبى أن يتعاون مع هذه المرأة الطموح الضارية التي تآمرت عليه في الماضي حتى جردته من كل شيء ، ويقول لها متهكما انه بفضلها لم يعد له في روما أصدقاء يستطيع أن يعتمد عليهم •

وتلتقي الأميرة جونيا ببريتانيكوس في قصر نيرون فتهيب به أن يلوذ بالفرار من غضب نيرون • ويتجدد الألم في صدر بريتانيكوس ، فهو لم ينس بعد فتورها الجارح ساعة لقائه ، وتمجيدها العجيب لنيرون ولمكانته في قلوب شعبه ، من كل ما تركه حائرا تنهش نفسه الشكوك وتعذبه البرحاء • ويجيبها بريتانيكوس ساخرا انها انما تطلب اليه

الفرار ليخلو لها الجو فتنعم بصحبة صديقها الجديد نيرون الذى خلب لبها مجده الامبراطورى وجعلها ترضى بأن تنعم على حساب أخته أوكتافيا .

وحين تضيق جونيا بهذا التقريع تصارح بريتانيكوس بحقيقة الأمر ، وهى أن كل كلمة فاهت بها كانت لانقاذه من غضب نيرون الذى كان يسترق السمع وراء أستاره . ويأخذ الندم بريتانيكوس كل مأخذ فيجثو عند قدميها طالبا اليها الصفح عما ساوره من شكوك فى حبها لها مجددا لها عهد الوفاء .

ويفاجئهما نيرون فى هذا الموقف العاطفى المثير ، فتثور ثائرته ويتهدد بريتانيكوس بأنه وان يكن أميرا من دم ملكى الا أنه سيخلى بينه وبين الرومان ليقتصوا منه ويؤدبوه تأديبا . ويجيبه بريتانيكوس قائلا ان الرومان يعرفون نيرون على حقيقته وان كانوا لا يتكلمون . أما نيرون فينصح أخاه بريتانيكوس أن يحذو حذو الرومان ــ فيصمت اتقاء لغضبه ، ويصيح فيه قائلا : « سواء على أن تكون رعيتى سعيدة أم شقية ما دامت تهابنى » وهو « وان لم يعرف بعد السبيل الى قلب جونيا فهو على الأقل يعرف السبيل للتنكيل بمن ينافسه » . ويشتد هياج نيرون فيصيح بحرس القصر : أن اقبضوا على بريتانيكوس واسجنوه فى جناح أخته القيصرة أوكتافيا .

ويقتاد الحرس بريتانيكوس وهو يقول هازئا من نيرون : « أهكذا يتنافس نيرون على قلب امرأة ! » .

ويدخل بوروس على نيرون فيجده يرغى ويزبد . انها هى - انها أمه أجريبينا التى تكيد له ، وعليها وحدها تقع تبعة غرامه الفاشل ، فهى التى دبرت زواج بريتانيكوس من جونيا وهى التى تذكى فى قلبيهما نار الغرام .

ويهيب نيرون ببوروس قائلا : « اذا كانت أمى لاتزال فى القصر يا بوروس فانى أريد احتجازها فيه وآمر بأن

يستبدل حرسى بحرسها ». وحين يحتج بوروس قائلا : انه لا يصح له أن يقبض على أمه ، أو على الأقل لا يجوز له أن يعتقلها قبل أن يستمع الى دفاعها ؛ يشتد هياج نيرون ويوشك أن يتهم بوروس بالتواطؤ مع خصومه ٠

●

ويكون بين نيرون وأمه مشهد عاصف ٠ فهى تذكره بكل ما فعلته من أجله حتى يرتقى العرش ، وهو يتهمها بالتآمر مع بالاس والجيش لعزله وتنصيب بريتانيكوس مكانه ، وهو ان كان قد نفى مستشارها الدساس وأخاه الطامع فى العرش وأمه المتآمرة عليه ، فهو ما فعل كل ذلك الا دفاعا عن نفسه ٠

وتنكر أجربينا بأبلغ لسان أنها كانت تعمل على تنصيب بريتانيكوس قيصرا على روما ٠ فلو قد عملت على ذلك لسارت الى حتفها بنفسها ٠ فأتباع بريتانيكوس لا شك يعرفون بكل ما ارتكبت من جرائم فى سبيل ولدها نيرون ولسوف تعلو أصواتهم باتهامها ان قيض لهم أن تعلو كلمتهم فى البلاد ٠ فليعدل نيرون اذن عن كل هذه الترهات وليسلك السبيل الوحيد السوى أمامه ، وهو أن يطلق سراحها وأن يفرج عن بريتانيكوس وأن يترك جونيا وشأنها تختار من تشاء زوجا لها وأن يلغى أمره بنفى بالاس وأن يأذن لها بزيارته فى أى وقت تشاء ٠

ويستمع نيرون الماكر الى مطالبها أو شروطها فى هدوء متظاهرا بالاقتناع ٠ ويقول مبتهجا انه فاعل كل ما قد أشارت به بعد أن يصفو له قلب أمه ، ويعدها نيرون بنسيان كل اساءة ، فهو سيعفو عن بالاس ، وهو سيتصافى مع بريتانيكوس ، وهو سيجعل من أمه حكما بينه وبين أخيه تقضى فيما بينهما من خلاف حول جونيا ٠ أما حرس القصر فهو يأمرهم بأن يصدعوا بكل أمر يتلقونه من أمه ٠ ثم يعانق نيرون أمه ويحل على القصر السلام

وحين ينفرد بوروس بنيرون يعرب له عن ابتهاجه بما

رآه من آيات التصافى ، ولكن نيرون الغادر يزجره قائلا : انه لم يكن يحسبه على هـذه البـلاهة البالغة • أن أجربينا الساذجة تتوهم أنها انتصرت انتصارا مبينا ، ولكنها تتعجل النصر فنيرون حين يقبل خصما انما يقبله ليصرعه •

ويبهت بورروس لما يسمع من كلام شنيع، ويجمجم قائلا :
« ماذا تقول يا مولاى » !

ولـكن نيرون يعرف تماما ما يقـول • لابد من تدمير بريتانيكوس بأى ثمن ، فنيرون لن يهدأ له بال ما دام عـلى قيد الحيـاة • ولن يتخلص نيرون من مكائد أجربينـا التى لا تنتهى الا اذا حطم آخر أمل لها فى طلب السلطان • وقبل أن ينقضى اليوم ، يقول نيرون « ستنطوى مخاوفه » : وهو يرسم هذه الخطة « بوحى من مجده ومن حبه ومن أمنه ومن حياته » !

ولا يصـدق بورروس ما سـمعته أذناه ، كلا ان مولاه نيرون لا يمكن أن يكون صاحب هذه الخطة الجهنمية التى يبسطها له دون أن يختلج لها جسده أو يضطرب قلبـه كيف يسفك هذا الرجل دم أخيه ؟ ويناشد بورروس نيرون أن يعدل عن هذه الأفكار الشنيعة التى سوف تجعله يخوض فى بحـر من الدماء ، وينتقـل من جريمـة الى جريمـة • ان قتـل بريتانيكوس سوف يثير حمية أصحابه فيثورون له ، ولـكل ثأر ثأروا لدم لا يغسـله الا الدم • ان اسم نيرون سـيكون بقعة حمراء تلوث صفحات التاريخ، وأيا كان الأمر فبورروس يعلم أن بريتانيكوس برىء من كل تآمر ، وهو يقسم لنيرون على ذلك ، ويطلب معاقبة من دسوا له عند الامبراطور •

ويسمع بورروس من نيرون ما يطمئن له قلبه ، ان نيرون قد عدل عن خطته •

ويقبل بريتانيكوس على جونيا متهلل الوجه مستبشرا ، فهو ما كان يظن أن آخاه سيصفو له بعد هذا الغضب الشديد •

●

انه ينتظره في جناحه ليعانقه ويقبله ويدفن معه شكوك الماضي ومخاوف الحاضر ٠

وتسمع جونيا هذا الكلام فلا تطرب له ٠ ان قلبها يحدثها بأن نيرون يضمر لبريتانيكوس كيدا عظيما ، فهو قد أقسم أمامها على الفتك به وازالته من سبيله وسبيلها ، وهى لا تفهم لهذا التحول سببا ٠ أما بريتانيكوس فهو غارق فى أحلام السعادة ٠ فما دامت جونيا تحبه فهو لا يعبأ بشيء في الوجود ٠ وغدا يسير كل شيء على خير ما يرام ٠ ان جونيا تشك فى كل من حولها ٠ تشك فى الامبراطور وتشك فى أجربينا وتشك فى بوروس ٠ بل هى تشك فى نرسيس الذى اتخذ منه بريتانيكوس صديقا وفيا ، انها لم تعد ترى غير الغدر والمكر في عيون هذا البلاط الفاسق ٠ وهى لا تستطيع أن تضبط عواطفها فتجرى على خدها شئونها التى يكفكفها بريتانيكوس فتسيل من جديد ٠

وتأتى أجربينا لتستعجل بريتانيكوس فنيرون فى انتظاره مشوق الى رؤيته حريص على مصافاته ٠ وهى قد تركته على أسعد حال يلهج بعبارات الود كأنه طفل كبير ٠

وينطلق بريتانيكوس الى جناح نيرون فلا يخرج منه ٠ لقد أعد نيرون لكل شيء عدته والى جواره وقف نرسيس الزنيم وقد دس السم في كأس من النبيذ قطرة منها تصرع أقوى الرجال ، وقدم الكأس المسمومة الى بريتانيكوس فسقط بريتانيكوس جثة هامدة ٠

ويسرع بوروس الى أجربينا وجونيا ليبلغهما النبأ المشئوم وهو فى ارتياع عظيم انه رأى نيرون يستقبل أخاه هاشا باشا ويعانقه فى حرارة ثم يدعوه ليشرب نخب صداقتهما الأبدية ، ثم يمضى الى أريكته يتمدد عليها ليشاهد مصرع أخيه بوجه جامد ونظرات هادئة ٠ وحين سقط بريتانيكوس نظر نيرون الى من حوله من رجال البلاط الذين

ألفوا من قبل هذه المشاهد وقال : انها علته القديمة التى كان يشكو منها منذ طفولته قد عاودته ·

وفيما يتحدث بوروس تسرع جونيا الى حبيبها وهى تأمل أن تجد فيه رمقا من حياة · ويدخل نيرون ونرسيس على بوروس وأجربينا · تولول أجربينا قائلة ان نيرون قتل أخاه · ولكن نيرون ينكر التهمة فى هدوء ويعنف أمه على شكوكها ·

ويعلن نرسيس فى شماتة أن كل هذا الاضطراب لا مبرر له ، فقد كان بريتانيكوس يطمع لا فى يد جونيا وحدها ولكن فى عرش قيصر · يشتد هياج أجربينا وتصرخ قائلة ان نيرون اليوم قد قتل أخاه وهو غدا سيقتل أمه ، فهو ملعون بكل لسان ، وستحفر جرائمه فى ذاكرة البشر الى آخر الزمن · ولسوف تقتص منه عدالة السماء فتنهشه زبانية الانتقام وتسفح دمه النجس كما سفح الدم الزكى · هذه لعنة أم على ولدها ·

وينصرف نيرون ومعه نرسيس ، بعد أن يرمق أمه بنظرة حقد قاتلة يتخلع لها قلبها ·

ولا تلبث ألبينا أن تقتحم الحجرة وهى تندب وتولول : لقد ماتت جونيا ! لقد ماتت جونيا ! لقد انتحرت جونيا الى جوار جثمان بريتانيكوس لتلحق بحبيبها ·

لقد انتحرت جونيا لتفلت من قبضة الطاغية بعد أن أوسعت نرسيس طعنا بخنجرها حتى أجهزت عليه · وحين رأى نيرون حطام شهواته ودسائسه أصابه ذهول شديد فاعتزل الناس ولزم الصمت الطويل كأن زبانية الندم تنهش قلبه نهشا ·

وتصلى أجربينا الى السماء راجية أن يطهر الندم قلب نيرون ويفتح عينيه على سبيل الرشاد · أما بوروس فيقول : بل فلنصل الى السماء لتجعل هذه آخر جرائمه !

وليم شكسبير

هذه مأساة اختلط فيها الجحود البشع الذى ينحط بالانسان الى درك أسفل من درك الحيوان والوفاء الذى يرتفع بالإنسان الى سموات صافية لا تسكنها الا الملائكة النورانية التى لم تلوثها شوائب الشر ولم تداخلها ظلال المادة ·

وبطل هذه المأساة ملك شيخ من ملوك بريطانيا فى الزمان الغابر اجتمع له من طيبة القلب وسذاجة العقل ما جلب عليه وعلى غيره أفظع الكوارث ، وهذا هو الملك لير الذى كان يعيش فى قصره عيشة آمنة هانئة بين بناته الثلاث جونريل الكبرى وريجان الوسطى وكورديليا الصغرى، وبين رجال بلاطه من دوقات بريطانيا ورجالاتها فى ذلك الزمان القديم ، وأهمهم دوق أولبانى زوج ابنته جونريل ، ودوق كورنوول زوج بنته ريجان ، وضيفان عزيزان نزلا فى بلاطه على الرحب والسعة ، هما ملك فرنسا ودوق بورجونيا ، وقد جاء كل منهما متوددا يطلب يد الأميرة كورديليا بنت الملك لير الصغرى ويرجو أن يظفر بهذه العذراء الطاهرة زوجا له · ومن حول الملك لير رجال حاشيته النبلاء منهم والأخساء ، وعلى رأسهم ايرل كنت وايرل جلوستر ، ومع هذا الأخير ولداه الشابان : ابنه ادجار ، وابن له غير شرعى هو أدموند ·

ويسير كل شيء في بلاط الملك لير على خير ما يرام حتى تزين للملك لير سذاجته ذات يوم أن ينزل عن عرشه لبناته الثلاث وأزواجهن وأن يقسم بينهن مملكته . فهو قد حكم بريطانيا السنين الطوال في حزم وهدوء وهو الآن شيخ مسن يحسن به أن يستريح بعد كل مالاقاه من عناء الملك ، ومن الخير أن يقسم دولته بين ورثته في أيام حياته من أن يعرض دولته للنزاع والشقاق بعد وفاته .

وهكذا يجمع الملك لير بناته الثلاث وأزواجهن وعامة رجال البلاط في غرفة العرش ليعلن عليهم ما استقرت عليه مشيئته ، ويبسط أمامه خريطة بريطانيا قائلا ان حكم البلاد بحاجة الى عزم الشباب وفتوته ، وانه لهذا الأمر قد قرر أن يخلع أعباء الملك عن كاهله الذى أضنته الشيخوخة ، وأن يقسم المملكة بين بناته الثلاث حتى يجنب المملكة كل شقاق بعد وفاته . وهو لا يريد أن يحتفظ لنفسه بشيء الا لقب الملك وحرسا قوامه مائة من الفرسان ، أما السلطة فهو يخلعها كما يخلع تركته الواسعة على بناته وأزواجهن ، يخلعها على جونريل وزوجها دوق أولباني ، وعلى ريجان وزوجها دوق كورنوول ، وعلى كورديليا ومن يقع عليه الاختيار ليكون زوجا لها ، سواء أكان ذلك ملك فرنسا أم دوق بورجونيا . ويعلن الملك لير أنه لن يحتفظ لنفسه بقصر أو بلاط بل سيقيم في بلاط كل بنت من بناته شهرا على التداول ، ينعم بهدوء الشيخوخة في رعاية بناته المحبات لأبيهن الشيخ .

وقبل أن يقسم الملك لير مملكته عليهن لا يطلب اليهن الا شيئا واحدا ، فهو يريد أن يعرف مقدار ما تحمل كل منهن من الحب له حتى يختصها بجانب من مملكته يتكافأ مع حبها .

وتبدأ جونريل بالحديث ، فهي كبراهن ، قائلة انها تحب أباها حبا يتجاوز حبها لنور العين وتؤثره على الحياة والحرية والمجد وكل ما في الدنيا من نعم . بل انها لا تجد من الألفاظ ما تستطيع أن تعبر به عن حبها له .

ويطرب الملك لير حين سمع هذا الكلام ويخلع على جونريل وزوجها دوق أولباني الأراضي والضياع وغنى الغابات التي تجرى من تحتها الأنهار ، ويرسم حدود ما خلع على خريطة بريطانيا حتى يعرف كل نصيب جونريل من دولة أبيها .

يلتفت الملك لير الى ابنته الوسطى ريجان مستفسرا ، فتجيبه ريجان بأن كل ما قالته أختها الكبرى في وصف حبها له يقصر عما تكنه هي له من حب ووفاء ، فكل ما يمكن أن ينغص حياته ينغص حياتها ، وهي لن تذوق للسعادة طعما الا أن يعيش هو سعيدا ، بل انها لتجد في حبها لأبيها المصدر الأوحد لسعادتها .

ويسر الملك لير بما أغدقته عليه ابنته ريجان من عبارات الحب والاخلاص ، ويخلع عليها من ملكه ما يتناسب وهذا الحب المستفيض .

ثم يلتفت الى كورديليا صغرى بناته وأحبهن اليه ، منتظرا منها أن تعبر له عن مكنون فؤادها . ولكن كورديليا الحائرة تنظر الى أختيها نظرها الى منافقتين معسولتي اللسان ، ولا تجد ما تقوله بعد كل ما سمعت من كلام سهل يسير ، فالحب عندها لا يقاس بالألفاظ ، وهو جوهر مكنون في القلب ان جرى على اللسان صار بخسا رخيصا . وتجيبه كورديليا أخيرا : « شقية أنا يا أبت ، فأنا لا أستطيع أن أزفر من فمي ما يكنه فؤادي : انما أحب جلالتك بما يقضي على به الواجب . لا أكثر ولا أقل » .

ويغضب الملك لير ويصيح فيها مهتاجا أن تصلح من مقالها ، فلا تجد كورديليا المسكينة ما تقوله الا أن تضيف : « أنت أنجبتني وأنشأتني وأحببتني ، واني لأرد لك كل ما اضطلعت به من واجب الآباء نحو البنين بما ينبغي من واجب على البنين نحو الآباء ، فأطيعك وأحبك وأجلك . ولست أفهم لم تزوجت أختاى ان كانتا تختصانك بكل ما في قلبيهما من الحب . أما أنا فحين أتزوج فسوف أعطي زوجي

الذى أعاهده نصف ما فى قلبى من حب ونصف ما أملك من رعاية ونصف ما أدين به من واجب · أجل · أنا لن أتزوج كما تزوجت أختاى فأخص أبى بكل حبى » ·

ويثور لير الأحمق ثورة شديدة ويصخب ويلعن ويتهم كورديليا بالجحود ويتبرأ منها ، فهى لم تعد ابنته وهو لم يعد أباها ، وليس لها فى ذمته حقوق · ويحرم الملك لير ابنته المسكينة كورديليا من كل ميراث ، ويوزع نصيبها على أختيها ويأمرها أن تغرب عن وجهه · وعبثا يحاول ايرل كنت أن يهدىء من روعه ، فهو قد غدا يبغض هذه البنت العاقة التى اختصها بكل حبه فاذا بها تتنكر له · وحين يلحف ايرل كنت على الملك لير فى أن يترفق بابنته التى لا ذنب لها الا صراحتها وأمانتها يشتد غضب الملك فيأمر بنفيه من البلاد ويحرم عليه أن تطأ قدماه أرض بريطانيا ·

ويدعو الملك لير العاشقين المتنافسين اللذين نزلا ببلاطه لخطبة ابنته كوزديليا ، وهما ملك فرنسا ودوق بورجونيا · ويعلنهما أنه قد جرد ابنته من كل شىء حتى البائنة ، فمن رضى بها زوجا له على حالها هذه ، فهى له فى التو واللحظة يأخذها وينصرف بها الى بلاده الى غير عودة · وحين يسمع دوق بورجونيا هذا الكلام يتنصل مما جاء من أجله ، قائلا لكورديليا انه ينسحب آسفا فمن فقدت الأب فقد وجب أن تفقد الزوج كذلك · أما ملك فرنسا فيتقدم منها قائلا : « أى كورديليا ! يا أجمل من فى الوجود ! آنت آغنى النساء بهذا الفقر الذى ابتليت به ، وصفوتهن بهذا التخلى ، وأحبهن رغم هذا الازدراء ! » ان كورديليا درة يتيمة لا يعرف قدرها أمير شره يزن مهرها وضياعها أكثر مما يزن فضائلها · ولسوف يتزوجها هو ويجعل منها ملكة فرنسا ويعوضها عما فقدته أضعافا ·

وهكذا ينصرف ملك فرنسا مع كورديليا غاضبا بعد أن انصرف السيد النبيل ايرل كنت الذى نفاه لير الغاضب لدفاعه عن كورديليا الأمينة ·

هذه الأمور تدور فى قصر الملك لير ٠

وفى قلعة دوق جلوستر ، نجد ابنه غير الشرعى أدموند يعد العدة للايقاع بأخيه أدجار ، وهو ابن جلوستر الشرعى، ليصبح وريث الدوق العجوز مكان ادجار ، بل يعد العدة للايقاع بأبيه ليؤول اليه لقب جلوستر حين تواتيه الظروف٠

ان جميع الناس يعاملونه معاملة ابن السفاح ، وهو قد سئم هذه المعاملة ولسوف يضع لها حدا ٠ ولماذا يختص الناس أخاه ادجار بالاحترام من دونه وهو لا يقل عنه نبلا أو شرفا أو ذكاء أو معرفة بفنون الفروسية ؟ انه ليبغض ادجار من أعماق قلبه ، ولو استطاع أن يدمره تدميرا لما تردد في ذلك ٠

ويزيف أدموند خطابا موجها اليه بخط ادجار يقول فيه انه لابد من القضاء على أبيهما العجوز أيرل جلوستر حتى تؤول اليهما أمواله فيعيشان فى بحبوحة وينفقان عن سعة ٠ وحين يدخل عليه أبوه يفتعل الماكر أدموند اخفاء هذا الخطاب ليثير فضول أبيه ثم يسلمه اليه على مضض مصطنع ازاء الحاحه ٠ وهكذا يستقر فى روع دوق جلوستر العجوز أن ولده ادجار يتآمر عليه للفتك به ، فيتملكه هياج شديد ويصب عليه اللعنات ويأمر ابنه غير الشرعى أدموند أن يقبض عليه بأى ثمن ، فلما يلتقى أدموند بأخيه أدجار يحذره من غضب أبيه الذى لا يدرك أدجار له سببا الا أن يكون واشيا من الوشاة قد دس عليه أمرا لا علم له به ٠ وينصح أدموند اللئيم أخاه الطيب ادجار أن يختفى قليلا عن العيون الى أن يهدأ غضب جلوستر العجوز ، بل وينصحه أن يسير دائما مدججا بالسلاح ، فهو يخشى أن يغتاله مغتال أوفده أبوه الناقم عليه ٠

أما النبيل المنفى ايرل كنت ، فقد حسب الجميع أنه قد رحل الى منفاه فى ألمانيا، ولكن كنت الوفى لا يبرح بريطانيا،

بل لا يبرح خدمة مولاه الملك لير ، فهو يعلم أن هـذا الملك الشيخ الطيب القلب الى حد الحماقة محوط بذئاب ، وهـو عازم على أن يبقى الى جواره للدفاع عنه مهما كلفه ذلك من عنت • ولذا فهو يستخفى في زى فلاح من عامة الشـعب ، ويعود الى الملك لير ، ويعرض عليه خدماته ويبدى من الوفاء له ما يجعل الملك لير يستبقيه في معيته •

وحقيقة الأمر أن ايرل كنت يعلم أن أمور مولاه لا تسير على ما يرام • فهو يقيم مع ابنتـه جونريل وزوجهـا دوق أولبـاني مع مائة من فرسانه ، ولـكن جونريل لا تلبث أن تضيق بأبيها وبفرسانه المائة ، فتعامل رجاله أسوأ معاملة ، وتبدى له من الاهمال ألوانا ، بل وتجعله يحس بتأففها منه وتوشـك أن تغلظ له القول اغلاظا ، وهى تزعم أن أباها الملك لير لا يريد أن ينسى أنه ملك البلاد ، وهي تتهمه بأنه يسيء معاملة رجالها فى قصرها ، وتتهم فرسـانه بأنهم قد أحالوا قصرها العظيم مسرحا لعربدتهم كأنه حانة أو ماخور ، وأنهم على اشتباك دائم بحرس القصر من فرسـانها • وهى لا تفهم فيتم تتكبـد هي وزوجها نفقات هـؤلاء الفرسـان المائة بل هي لا تفهم فيم حاجة الملك الشيخ لير الى كل هؤلاء الفرسان : وتقول ان حرس قصرها كفيل بحراسته • بل هى تذهب الى أكثر من هذا فتزعم أن وجـود كل هـذا العـدد الضخم من الفرسان مصدر خطر على دولتها ، وأن احتفاظ الملك الشيخ بهم تهديد دائم لها ولزوجهـا • فلابد اذن أن ينزل الملك لير عن خمسين من فرسانه ، فهى لن تطعم منهـم الا خمسين ولن تؤوى الا خمسين •

وتخرج جونريل من التأفف الى المصارحة ، انها لم تعد تحتمل رجاله السلطاء الميالين الى الشجار ، بل انها لم تحتمل دفاعه عنهم كأنه يوافق على مسلكهم • بل هي لم تعد تحتمل أباها الشيخ نفسه وهو يأمر وينهى فى قصرها كأنه صاحب الكلمة فيه ، وهو قد ضرب خادمها الخاص سيوارد ، فليتـه يعرف حدوده ويرعى وقاره وينسى أنه كان ملك البلاد -

فان لم يسرح خمسين من رجاله المعربدين الصاخبين تكفلت هى بتسريحهم بما لديها من قوة ، وان لم يعلم الباقين الأدب وحسن السلوك ضربت هى على أيديهم بما لديها من بأس ٠

ويفجع الملك لير حين يسمع كل هذا الكلام السليط ، ويثور ، ويلعن ٠ ان ابنته الجاحدة جونريل تضيق به وبرجاله ولما يمض شهر على اقامته معها انه لن يقيم مع هذه الحية الرقطاء يوما واحدا بعد ذلك لسوف يمضى على الفور الى أختها ريجان ، فهى لا شك ستكرم وفادته ٠ ويراه دوق أولبانى الطيب زوج جونريل على هذه الحال من الهياج الشديد فيحاول أن يهدىء روعه فلا تفلح مع لير تهدئته ، بل يذهب يضرب رأسه بقبضته ويصب اللعنات على ابنته الجاحدة ضارعا الى السماء أن تجدب رحمها وتجفف ضرعها، حتى تمحى ذكراها من الوجود ، بل هو يصلى أن ترزقها السماء من صلبها نسلا كالأفاعى ينهشها ويذيقها صاب العقوق ٠

وحين يعلم الدوق الطيب أولبانى بما فعلته جونريل مع أبيها يؤنبها على غلظتها وعلى تشككها فى فرسانه المائة ويحاول أن يردها عما رأته من طرد خمسين من رجال الملك لير فلا تستمع جونريل الى وصاياه ٠

وقبل أن يجهز الملك لير نفسه للرحيل الى ابنته الثانية ريجان يوفد كنت الأمين الذى استخفى فى زى خادم بمعيته الى قصر ايرل جلوستر ثم الى قصر كورنوول حيث ابنته ريجان ، وقد زوده برسائل يشرح فيها لجلوستر ولابنته الوسطى كيف أساءت جونريل معاملته ، ويعلن فيها أنه قادم على عجل ، فينطلق ايرل كنت بالرسائل ٠ ولكن كنت الأمين لم يكن بالرسول الوحيد الى ريجان وزوجها ، فقد أوفدت جونريل نفسها الى أختها رسولا من عندها هو خادمها الخاص أوزوالد لتحرض أختها على أبيها الهرم المخرف الذى يحتاج الى من يحجر عليه أكثر مما يحتاج الى من يعنى به ٠ ويلتقى الرسولان ببلاط كورنوول ، وتعلم ريجان وزوجها بشكوى

الملك الشيخ ولكن ما أن يطلعا على رسالة جونريل حتى يفتر ترحيبهما برسول الملك ، بل ويبديا له الغلظة فى الكلام ، ثم يفزعا الى جيادهما يسرعا الى قصر جلوستر يتبعهما رجالهما والرسولان ٠

●

وفى قصر جلوستر تجرى مأساة شبيهة بمأساة لير مع بنته جونريل ، هى مأساة ايرل جلوستر نفسه مع ابنه غير الشرعى أدموند ٠ فقد سمم أدموند الآبار لأخيه ادجار عند أبيهما الايرل ، زاعما أنه يتآمر للفتك به حتى جعل الايرل العجوز يأمر بالقبض عليه ٠ وفى قاعات القصر يلتقى أدموند بادجار ليلا فيعود الى تحذيره ويغريه بالهرب اتقاء غضب أبيه ٠ ولكن قبلما يفر ادجار يقترب الأب من القاعة ، فيوحى ادموند الى ادجار أن يمتشق حسامه ويتظاهر بالدفاع عن نفسه لأنه سيهاجمه ، فيطيعه ادجار الطيب دون أن يفطن الى المراد من حيلته ٠ وحين تدنو خطوات أبيهما يوحى أدموند الى ادجار بالفرار ، ويخلو أدموند الى نفسه لحظة فيجرح نفسه بسيفه ، وما أن يدخل الأب ايرل جلوستر حتى يصرخ أدموند اللئيم قائلا : امسكوه ! امسكوه ! ويعرض جرحه على أبيه زاعما أنه تلقى الطعنة من ادجار الذى جاء مرة أخرى يجادله فى وجوب الفتك بأبيهما ، فلما أبى جرد عليه سيفه ثم فر حين سمع وقع الأقدام ٠ فيعلن ايرل جلوستر أنه قد أهدر دم ولده الخائن ادجار وأنه سيكافىء من يقتله ٠

ويصل دوق كورنول وزوجته ريجان وسط هذا الاضطراب ويسمعان جلوستر العجوز يتمدح بوفاء ابنه غير الشرعى أدموند ، الذى أنقذه من كيد أخيه العاق ادجار ، يمجد بسالته ، فيسمح دوق كورنول ويجعل ابن الزنا فارسا من فرسانه ٠

ثم يعلو الهرج خارج القصر ، فقد استوقف إيرل كنت رسول لير أوزوالد رسول جونريل بباب القصر وتحرش به

لكثرة ما أساء هذا التابع الوضيع الى الملك الشيخ ، وبعد ما تحرش به اعتدى عليه ، فاذا بالجبان لا يقرع السيف بالسيف بل يستغيث طالبا النجدة • ويمثل الرجلان فى حضرة دوق كورنويل حين يسمع قصة التحرش ويأمر بوضع قدمى كنت فى الأصفاد رغم علمه بأنه رسول الملك لير ، ثم يأوى كورنول وريجان الى جناحهما فى القصر •

ويأسف جلوستر لهذا الذى حدث فهو صاحب الدار ، ولكن دوق كورنويل يتصرف كأنه صاحب الأمر فى داره • وجلوستر من حاشية الملك لير ورجاله الأوفياء ، وهو يعلم أن وضع رسول الملك فى الأصفاد لا شك سوف يغضب الملك، وهو يرجو أن يتوسط لدى دوق كورنول حتى يفك هذه الأصفاد اكراما للملك الشيخ •

ويصل الملك لير الى قصر جلوستر فى الصباح ، فماذا يرى؟ يرى رسوله كنت وقد غلل بالأصفاد • ولا يصدق الملك الشيخ أولا أن كورنويل وريجان قد عاملا رسوله هذه المعاملة المهينة ، ولكن حين يتحقق من ذلك يأخذ منه الهياج كل مأخذ • ويطلب الملك لير مقابلة ابنته ريجان وزوجها ليأمرهما بفك أصفاد رسوله ، ولكن جلوستر يعود قائلا انهما يعتذران عن لقائه لأنهما متعبان • ويزداد هياج الملك الشيخ ، فالملوك لم يتعودوا أن يعتذر الناس عن لقائهم ، وينادى بالويل والثبور - لابد من فك أصفاد رسوله فورا • وازاء الحافه وهياجه يعود جلوستر بدوق كورنويل وريجان اللذين يأمران بفك الأصفاد •

ويسر الملك لير لما يجده عند ريجان من بشاشة مصطنعة ويفتح لها قلبه ، فيشكو لها ما لقيه من سوء المعاملة فى بلاط أختها جونريل • ولكن ريجان تدافع عن مسلك جونريل قائلة ان أختها لا شك تعرف واجبها ، فيغضب لير ويصب على جونريل اللعنات • فتقرعه ريجان قائلة انه رجل مسن وأن الشيخوخة قد أوشكت أن تذهب بحلمه فهو بحاجة الى من

يرشده الى الصواب ، وتنصحه أن يعود الى أختهـا جونريل هذه التي يسيء اليها كل هذه الاساءة • فان رضي بتخفيض عدد فرسانه الى خمسين فارسا أمكنه أن يقيم معها شهرا بعد انقضاء شهره مع جونريل •• ويرفض لير العودة الى بلاط أولباني رفضا باتا ويحز في نفسه دفاع ريجان عن أختهـا العاقة •

وتصل جونريل الى قصر جلوستر ، ويستاء لير من حسن استقبال ريجان لها • وتكرر ريجان عليه ما قالته عن وجوب عـودته الى جونريل وتسريح نصف رجاله ، بل ان ريجـان وجونريل تتفقان على أن الملك لير ليس بحاجة الى حرس خاص اطلاقا ، ففي كل بلاط يقصده ما يكفي من الحرس والخدم والحشم ، وريجان لن تقبل استضافته الا اذا اكتفى بخمسة وعشرين فارسا ، ففي كثرة فرسانه خطر على أمن الدولة • ويثور الملك الشيخ ويصف ريجان بالعقوق قائلا انه يؤثر العودة الى جونريل بين خمسين من رجاله على الاقامة معهـا بين خمسة وعشرين • ولكن جونريل تقول انها لا ترى أنه بحاجة الى فارس واحـد ، فان أراد أن ينزل في بلاطهـا بمفرده فالبلاط يتسع له أما رجاله فلا •

ويجن جنـون الملك الشـيخ • انه لن يبقى مع هاتين الحيتين السامتين لحظة واحدة • وينطلق الملك لير خارجا من قصر جلوستر وهو في هياج عظيم ولا يصحبه الا كنت • ويأمر أن يأتوه بجواده رغم ما يراه من جو ينـذر بعاصفة هائلة •

●

وينطلق الملك لير في الـرحاب والفلـوات وهو يرغي ويزبد كالمجنون على صهوة جواده ، ويقعقع الـرعد وتلمع أرجاء السماء بالصواعق والبروق وتتفتح ميازيب السماء وتزمجر الرياح الصرصر العاتية ، فلا يخافها الملك الشيخ بل يستزيدها ويصلي للسماء أن تدمر الأرض بطوفان يغرق الحرث والنسل ، فهو قد رأى من وحشية الانسان ما يجعـل

الطبيعة الضارية تبدو كالأم الرءوم · لقد أصابته لوثة أودت بعقله ·

وفى هذه العاصفة الهوجاء يلتقى كنت بسيد على سفر فيحمله رسالة شفوية الى كورديليا التى أقامت فى ميناء دوفر بعد زواجها من ملك فرنسا ، وفى هذه الرسالة ينبىء كنت كورديليا بما آلت اليه حال الملك لير ، ولا يبين كنت عن حقيقة شخصه ولكنه يعطى خاتمه للسيد المسافر حتى تتعرف كورديليا على مرسل الرسالة وتطمئن الى الرسول ·

أما ملك فرنسا فقد عاد الى بلاده ليجهز جيشا يغزو به بريطانيا ويسترد نصيب كورديليا من المملكة بقوة السلاح ، وقد كانت له قدم ثابتة وأعوان كثيرون فى دوفر وغيرها من موانىء الجنوب ·

ويقود كنت الملك لير فى هذا الجو العاصف المطير الى كوخ يقيه شر الطبيعة · وهناك يلتقيان بمعتصم آخر هو الفتى ادجار ولد جلوستر الذى أهدر أبوه دمه بدسيسة من أخيه أدموند ، وقد استخفى ادجار الفار من غضب أبيه واصطنع الجنون حتى لا يشك أحد فى هويته ، وأطلق على نفسه اسم توم المسكين ·

وفى جلوستر يتألم ايرل جلوستر لمحنة الملك لير ولما رآه من عقوق بنتيه ، فجلوستر يحب هذا الملك المنكوب ويخلص له الوفاء · وجلوستر يعلم سرا خطيرا لا يعلمه أحد فى القصر فقد جاءته رسالة خاصة تنبئه بأن الشقاق قد استشرى بين رجالات بريطانيا ونبلائها وأن ملك فرنسا قد نزل بجنوده فى ميناء دوفر وهو يعد العدة لغزو البلاد · وهو يجمع من حوله نبلاء بريطانيا ، وعما قريب تأتى ساعة الانتقام لهذا الملك الشيخ · كل هذا يقوله ايرل جلوستر المخدوع لولده أدموند الذى غدا موضع ثقته ، بل هو يدله على المكان الذى خبأ فيه الرسالة الخطيرة ، وهو يخرج من قصره متحديا العاصفة الهوجاء باحثا عن الملك لير ليمد له

المساعدة وليطلعه على ما عنده من أنباء يطمئن بها قلبه ، وليطلب اليه الرحيل الى دوفر حيث يجد الأمان فى بلاط ابنته كورديليا فهو يعلم أن ريجان وجونريل تعدان العدة للفتك به اتقاء لخطره ·

وما أن ينصرف ايرل جلوستر حتى ينطلق أدموند الى دوق كورنول وريجان وجونريل ويطلعهم على الرسالة التى أخفاها أبوه فيتحقق لهم ولاؤه لأعدائهم ، ويجرد دون كورنول ايرل جلوستر من لقبه وينصب ابنه أدموند مكانه سيدا على جلوستر ويخلع عليه كل أملاك أبيه ويتخذ منه قائدا لجيشه ثم يوفد الى دوق أولباني رسولا بنزول جيش فرنسا أرض بريطانيا حتى يعد العدة لملاقاته ·

وحين يعود جلوستر الأب يقبض عليه رجال كورنويل وريجان ويكبلونه بالأغلال ، ويعذبونه تعذيبا أليما ، ثم يفقأ دوق كورنويل عينيه واحدة بعد أخرى ، ولا يستطيع خدم جلوستر العجوز أن يحتملوا بشاعة هذا المنظر فيتناول أحدهم سيفا وينقض به على دوق كورنويل ويطعنه طعنة قاتلة فيموت بعد حين متأثرا بجراحه · وفى هذه الأثناء تجهز ريجان على هذا الخادم الثائر بيدها ، وتأمر الخدم أن يقذفوا بجلوستر الضرير خارج القصر ليشق طريقه الى دوفر ·

ويخرج جلوستر الضرير فى الفلوات المحيطة بقصره يقوده شيخ هرم ، وقد أدرك جلوستر حقيقة ابنه المجرم أدموند كما أدرك براءة ولده ادجار مما نسب اليه ولكن بعد فوات الأوان ، ويسلم الشيخ الهرم جلوستر الضرير الى ولده ادجار الذى يتمزق قلبه أسى لمحنة أبيه · ولكن رغم ذلك لا يبين عن شخصيته لأبيه ، بل يمضى فى استخفائه مصطنعا البله والجنون باسم توم المسكين ويطلب جلوستر من توم المسكين أن يقوده فى السبيل الى دوفر ليلحق بمولاه.

الملك لير فى بلاط كورديليا • فيقود ادجار أباه حتى يبلغ به مشارف المدينة •

أما دوق أولبـانى الطيب القلب فيسأم فعال زوجتـه الخسيسة جونريل • وحين يأتيـه نبـأ جلوستر وما حل به ويعلم ما آلت اليه حال الملك لير الذى ذهب عقله ونقل عـلى محفة الى دوفر محافظة على حياته يأسف لكل هذه الأحـداث الفاجعة • بل هو يعلم أن زوجتـه جونريل تتعلق بالفتى النذل أدموند هـذا الذى طارد أخاه وخان أباه حتى يؤول اليه اللقب والضياع الواسعة •

ولكن أولبانى ذلك يعلم أن أمامه مهمة تقدم عـلى كل شيء آخر ، وهى ملاقاة جيش ملك فرنسا وطرده من دوفر ومن البلاد • ان دوق كورنويل قد قضى نحبه متأثرا بجراحه ولم يبق الا أن يضطلع وحده بقيادة جيش بريطانيا والسير به الى دوفر • انه يمقت زوجته جونريل ويحتقرها منذ آن استبان له أنها شيطان مريد • وهو يمقت أختها ريجان أرملة كورنويل ويحتقرها منذ أن تأكد له أنها نمرة كاسرة • وبعد أن ينتصر على ملك فرنسا سوف يعيـد كل أمر الى مجـراه ويضع كل شيء فى نصابه ، فيرد للملك الشيخ كرامته ويرد لجلوستر المسكين حقوقه وان كان لا يستطيع أن يرد له بصره وينصف ادجارالهارب من أخيه الدنيء ويأمر بعودة ايرل كنت من منفاه فى ألمانيا ، وينتقم من كل جان شر انتقام • ولكن عليه أن ينتصر أولا •

أما الملك لير فهـو فى دوفر قريب من معسـكر ابنتـه كورديليا ولكنه يرفض أن يلقاها ، فالخجل يملأ قلبه والندم يحز ضميره وعقله الذى ذهب أكثره يشتعل كلمـا فكر فى اساءته اليها • ولكن كورديليا الوفية تلح فى طلبه لتعنى به ولتطيب نفسه ويجيئونها بأبيها الشيخ فى معسكر الفرنسيين وهو فى رعاية ايرل كنت الذى تتعرف عليه كورديليا رغم تخفيه • ولا يتعرف لير على ابنته كورديليا فقـد غشيت ، عقله سحابة قاتمة • وتقبل عليه كورديليا فى حدب وبر

قائلة : « أى آبت العزيز ان فى شفتى شفاءك ، فدع قبلتى هــذه تطيب جــراحك البليغة التى أصــابت بهــا كرامتك أختاى ! » ٠

ويحسب لير أن هذا الملاك الحانى عليــه روح طاهرة تحوم فى الفضاء ويجثو الى جــوارها كمــا يجثــو العابد ، ولا يزال يتصفح وجهها حتى تنقشع الغمامة الســوداء من عقله درجة درجة ويدرك آخر الأمر أنها كورديليا ابنته ٠

أما جلوستر الضرير فيطلب الى ولده ادجار الذى يقوده أن يمضى به الى صخرة عالية شاهقة تطل على شاطىء البحر فى دوفر ٠ فهو قد اقترف اثما عظيما ولا نجاة له من وخز ضميره الا الانتحار ٠ نعم لابد أن يكفر عما جناه فى حق ابنه ادجار المسكين ٠ لابد أن يقفز من فوق صــخرة دوفر الشاهقة فيبتلعه اليم ويرتاح بالموت من عذاب الضمير ٠

ويعلم ادجار أنه لا نجاة لأبيه الضرير من كل هذا الألم المبرح الذى يوشك أن يودى بعقله الا أن يخدعه فيهيىء له أنه قد عاقب نفسه بما يشتهى ، وبهذا يرتد اليه سكونه ٠ وهكذا يقود ادجار جلوستر الضرير الى صخرة بعيــدة عن الشاطىء ويتركه يثب من فوقها ، فيسقط على الأرض مصاباً برضوض ولكنه لا يصاب بسوء ٠ وبعد أن يفيق جلوستر الضرير يصور له ادجار أنه طلب الموت ولكن الموت عز عليه لأن أجله لم يحن بعد ويثبت قلبه وسط شدائد الحياة قائلا : « ينبغى على الانسان أن يصبر على يوم رحيله صبره على يوم مجيئه فى هذه الحياة » ٠

وتدنو جيوش بريطانيا من دوفر ٠ ويضم دوق أولبانى وجونريل صفوفهما مع صفوف أدموند وريجان ٠ ويقود لير وقد شفى جيش الفرنسيين الذى يظاهر كورديليا فقد كان زوجها ملك فرنسا غائبا فى بلاده لأمر مهم وأقام مقامه ، مارشال فرنسا واسمه لافار ٠ وتكون معركة ضروس بين

الجانبين تنتهي بهزيمة الملك لير وجيش الفرنسيين ، ويقع الملك لير وابنته كورديليا في أسر الوغد أدموند • وبدلا من أن يسلم أدموند الأسيرين الى دوق أولباني يزج بهما في السجن ويوفد اليهما رجلا من رجاله ليجهز عليهما سرا •

ويطالب دوق أولباني بتسليم لير وكورديليا اليه ، فهو صاحب الأمر في بريطانيا وجيشها ، ولكن أدموند يأبى تسلمهما في صلف شديد زاعما أنه شريك أولباني في كسب الحرب وصنوه في حكم البلاد • وتؤازر ريجان أدموند في دعواه قائلة انه يمثل شخصها ويقود قواتها بتفويض منها ، فحقوقه وحقوقها سواء • بل انها تتخلى له عن كل ما لها وقواتها وسلطانها ليكون زوجا لها من بعد كورنويل الراحل •

ويغضب أولباني فهو لن يقر زواج أميرة ملكية من ابن سفاح مهما كان بارعا في فنون القتال • وتغضب زوجته جونريل لأنها تعشق أدموند ولن تأذن لامرأة أن تشاركها فيه • ويقول أولباني ساخرا من زوجته انه يحرم هذا الزواج دفاعا عن حقوق زوجته جونريل • ويعلن أولباني أنه يقبض على أدموند بتهمة الخيانة ، فهو يعلم بما بينه وبين زوجته من صلة • ثم يتحداه للمبارزة ويقذف على الأرض قفازه ، فيجيبه أدموند بأنه يقبل التحدى ويقذف قفازه على الأرض أيضا •

وينفخ النافخ في النفير معلنا بدء المبارزة ، وعند النفير الثالث يتقدم ادجار أخو أدموند كامل العدة مدججا بالسلاح ، ويعلن على الملأ أن مبارزة أخيه الخائن أدموند حق له أولا منددا بكل ما ارتكبه أدموند من آثام •

وبعد نزال عنيف يخر أدموند صريعا • وقبل أن تفيض روحه يطلب الى أخيه ادجار أن يصفح عنه ، ويتصافى الأخوان في لحظة الموت الرهيبة •

أما جونريل فتنطلق وفي عينيها وميض فقد عزمت على شيء رهيب • ويأتي بعد حين سيد صائحا : النجدة • • النجدة!

وفى يده خنجر يقطر دما . ويعلن السيد أن جونريل قد دست السم لأختها ريجان فقتلها ثم طعنت صدرها بالخنجر طعنة نجلاء ، وفاضت روحها . وينظر دوق آولباني الى السماء العادلة قائلا : « ان هذا القضاء السماوى الذى يجعلنا نرتجف لا يحرك فى قلوبنا الأسى » .

ويعرف دوق أولباني وادجار من أدموند قبل وفاته بما بيته من كيد للملك لير ولكورديليا ، ويبادر ادجار الى السجن لانقاذهما ولكنه يجد أن السهم قد نفذ فى كورديليا ، وبعد حين قليل يدخل ادجار وكنت ومعهما الملك لير حاملا جثة ابنته كورديليا ، وهو يصيح صياحا يقطع نياط القلب ! « لن تعودى ! لن تعودى ! أبدا ! أبدا ! أبدا ! أبدا ! » . لقد شنقها الجلاد الأثيم ليزعم سيده أمام الناس أن أميرة البلاد قد انتحرت . ويريح الملك الشيخ جثمان كورديليا على الأرض ، وما يزال يتفجع الى جوارها حتى يتفطر قلبه ويسقط جثة هامدة .

ولا يبقى على مسرح الحياة الفاجع الا دوق أولباني الطيب القلب ومن حوله كنت الوفى وادجار الأمين يدبران شئون المملكة وينقذان ما تبقى فيها من خير تحت هذه الأنقاض .

عطيــــل

وليم شــكسبير

نحن الآن فى نهاية القرون الوسطى أو فى بداية عصر النهضة الأوربية يوم كانت مدن ايطاليا وأســاطيلها تملك ناصية البحر الأبيض المتوسط ، وتملك معها ناصية التجارة بين الشرق والغرب • ومن هذه المدن الغنية بالفنون والعلوم والخيرات كانت مدينة البندقية تتألق بينها كالنجم الساطع• ولا تزال البندقية تتألق حتى بعد أن ظهرت فى الأفق دولة الترك العثمانيين ، واجتاحت جحافلها الأراضى والأمصــار وغدت أكبر قوة عسكرية تنازع مدن ايطاليا الســيادة من البحر المتوسط وتبعث بأســاطيلها الى جــزيرة قبرص والى جزيرة رودس تنتزعها انتزاعا من يد البندقية •

أما امرة البحار هذه التى استتبت فى يد البندقية زمنا فقد كان الفضل فيها لقــائد مغــربى عظيم وبطل مغــوار تمرس فى فن القتال ألا وهو القائد عطيل ، أمير أسطول البندقية • ولكن هذا القائد الفذ الذى عرف كيف يسوس الرجال ويكبح الصديق والعدو على السواء لم يعرف كيف يسوس نفسه ، وأسلم قياده إلى أفاك دنىء من أهل البندقية عرف مكمن العلة منه وهو الخبرة ونفذ اليه فانتهى عطيل الى كارثة أليمة تأسى لها القلوب وتتمعظ بها النفوس • وهــذا هو خطبه العظيم •

نحن فى شارع من شوارع البندقية فى ذلك الزمان حيث نلتقى برجلين أحدهما يدعى روديريجو والآخر يدعى أياجو . أما روديريجو فهو فتى من فتيان تلك المدينة السراة الذين يبعثرون المال فى سبيل الغوانى ، فى عقله سفه ولكن فى قلبه حبا جارفا لفتاة طاهرة من بنات الأشراف فى البندقية تدعى ديدمونة يتحدث الناس بجمالها وذكائها وبراءتها . وأما أياجو فهو حامل العلم فى جيش القائد عطيل ، وهو رجل طموح ذكى لبق الحديث تأكل مطامعه قلبه أكلا ، أسود النفس ليس لخسته من قرار كأنه شيطان مريد .

ويعنف الفتى روديريجو حامل العلم أياجو لأنه لم يطلعه على ما كان من زواج قائده المغربى عطيل من هذه الفتاة ديدمونة التى علق بها قلبه ، رغم كل ما كان يصله به من مال وعطايا ليقرب ما بينهما .

وينكر أياجو أنه كان على علم بشىء مما جرى ، فقد اختفى عطيل واختفت معه ديدمونة على غير علم من ذويها ، ولعلهما الآن قد أتما مراسم الزواج خلسة . ويصارح أياجو الفتى روديريجو بمبلغ حقده على قائده عطيل . فقد كان أياجو يطمع أن يعينه نائبا له أو قائمقامه كما كانوا يقولون فى لغة الجيش يومئذ . ولكم توسط له كبار القوم فى البندقية ، ووقفوا بين يدى عطيل عارية رؤوسهم ، ولكنه لم يلق الى وساطتهم بالا ، بل عين ضابطا آخر يدعى مايكل كاسيو قائمقام له ، وهو رجل من فلورنسا يزعم أياجو أنه لا يفقه من أمور الحرب شيئا ، ولا يعرف كيف ينظم كتيبة فى ميدان القتال ، فهو الى جواره صفر لا أكثر ولا أقل ، وهو الى جانب ذلك أينما سار تبعته عشيقة أمينة تدعى بيانكا ، فهو من جميع الوجوه لا يصلح أن يكون قائمقام عطيل العظيم . ولكن أياجو يصبر على هذا المكروه ويتبع مولاه عطيل ويصانعه حتى تحين له الفرصة فينتقم منه شر انتقام ، ويقتص من ظلمه لشخصه ولشخص روديريجو جميعا .

ان روديريجو وأياجو يقفان تحت شرفة النبيل برابانتيو ، والد ديدمونة ، وهو عضو فى مجلس شيوخ البندقية · وهو لا يعلم شيئا عما جرى لابنته فمن الخير فى رأى أياجو أن يوقظ روديريجو هذا الأب المسكين من نومه ويطلعه على ما جرى ويطلق روديريجو عقيرته بالصياح قائلا : « تنبه يا برابانتيو ! تنبه يا سنيور برابانتيو » ويصيح أياجو قائلا : « استيقظ ·· اللصوص ! اللصوص ألق بالك الى دارك ، الى ابنتك ! الى حقائبك ! اللصوص ! اللصوص ! » ·

ويستيقظ برابانتيو على هذا الصياح ، ويطل من النافذة ، وحين يتبين روديريجو ينهره ويأمره أن ينصرف ، فهو قد رفض روديريجو حين تقدم لخطبة ابنته ديدمونة ، وهو يحسبه قد جاء ثملا ليعكر عليه صفوه ، ولكن روديريجو وأياجو يقولان له ان المغربى الأسود قد فر مع ابنته ، ولعله الآن قد تزوج منها ، فان كان السيد برابانتيو يشك فى قولهما فليبحث عن ابنته فى داره فلن يجد لها أثرا ·

ويندفع برابانتيو الى داخل الدار ويأمر الخدم باشعال المشاعل والشموع ويجرى البحث عن ديدمونة فى كل مكان فلا يجد لها أحد أثرا · ويأخذ الهياج من برابانتيو كل مأخذ فيلعن البنات المارقات ، ويتجسم فى عقله خاطر واحد وهو أن ديدمونة التى كانت مثالا للعذراء البريئة لا يمكن أن تهرب مع المغربى الأسود الا تحت سيطرة السحر · نعم لابد أن يكون عطيل قد استولى على عقلها بالسحر والرقى · ويخرج برابانتيو فى الليل ومعه أتباعه مدججين بالسلاح باحثين عن عطيل وديدمونة ·

ويلحق أياجو بعطيل فى شارع آخر من شوارع المدينة ومن حولهما الأتباع يحملون المشاعل · وهنا يتكشف طبع أياجو الذى يتنفس النميمة والايقاع كما يتنفس الهواء · فيشى أياجو بروديريجو الذى أيقظ النبيل برابانتيو ، ويصطنع الحرص على مصلحة عطيل فيقول ان برابانتيو

صاحب نفوذ فى البندقية وهو لا شك قادر على أن يحمل واليها على اصدار أمر بطلاق ديدمونة من عطيل ٠

ولكن عطيل مطمئن الى مكانته فى البندقية فالكل يعلم بما أسداه اليها من خدمات جليلة ، والكل يعلم بشرف منبته فى بلاد المغرب فهو سليل الملوك بها ولن يجسر برابانتيو على الزعم بأنه ليس كفئا لابنته ٠

ويقبل كاسيو ، قائمقام عطيل ، ليبلغه أن الدوق ، والى المدينة يطلب حضوره على الفور لأمر عاجل ، وهو يرجح أن الأمر يتصل بالحرب ، فقد تواترت الأنباء من قبرص بخطورة الحالة هنالك ٠

وفيما هم يتحدثون ، يلمح أياجو برابانتيو قادما بين رجاله ، فيشير على عطيل بأن يتوارى اتقاء غضب حميه ، ولكن عطيل يأبى الا أن يواجه كل موقف مهما كان صعبا ، ويهين برابانتيو عطيل بجارح الكلام معيرا اياه بسواد بشرته متهما اياه بأنه قد استولى على ابنته البريئة العذراء بقوة السحر وحده ، فهى التى ردت زهرة شباب البندقية وأوسعهم ثراء خائبين حين سعوا طالبين يدها ، قائلا : انه لن يخلى سبيله حتى يثبت للدوق خيانته ويسترد منه ابنته ٠ولولا حكمة عطيل وهدوءه لسالت الدماء غزارا فى شوارع البندقية فقد جرد كل سيفه وتأهب للفتك بغريمه ، فقد رضى عطيل بأن يحكم الدوق بينهما ٠

ويسعى الجمع الى قصر الدوق والى المدينة ، فاذا بالدوق مجتمع بمجلس الشيوخ يتداولون فى أمور الحرب مع الترك ، فقد اتفقت الأنباء على أن الترك قد أرسلوا أسطولهم الى قبرص بعد خدعة حربية لجأوا اليها ليوهموا العدو بأن أسطولهم قاصد الى جزيرة رودس ٠

وأخيرا يأتى الخبر اليقين من السنيور مونتانو حاكم قبرص مؤيدا أن هذه الجزيرة هى هدف الأتراك ٠ ويبلغ الدوق عطيل بأنه يوفده على الفور الى قبرص لحمايتها من غزو العثمانيين ٠

ولكن برابانتيو يقطع على الدوق وعلى الشيوخ مداولاتهم الحربية هذه ويعرض ظلامته ويتهم عطيل بأنه استولى على ابنته بقوة السحر ، فيعده الدوق انصافه ان استطاع أن يثبت أقواله • ويعترف عطيل بأنه أخذ ابنة النبيل برابانتيو وأنه تزوج منها ، ولكنه ينكر أنه استخدم فى سبيل ذلك السحر أو أى وسيلة غير مشروعة ويقول انها انما أحبته لصفاته ولبطولته الفذة ، فكثيرا ما كان ينزل عند أبيها ضيفا ، فيروى على الأسرة أيامه ومواقعه ويصور ما مر به من أخطار وكيف نجا من الموت ألف مرة ومرة ، وكانت العذراء ديدمونة تستمع اليه فى شغف بالغ ، وفتنت بشجاعته وصلابته فى القتال فعلق به قلبها ، حتى لقد أوحت اليه ذات مرة رغم حيائها الشديد ، أنه لو جاءها رجل يخطبها له مثل صفاته لما ردته خائبا • وأحس هو أنه يهيم بها كما تهيم به فعرض عليها الزواج فرضيت به زوجا • وهذا هو كل ما استخدمه عطيل من سحر ليأسر به قلب ديدمونة • فان كان الدوق وشيوخ المدينة لا يصدقون روايته فليسألوا ديدمونة نفسها •

وحين يستمع الدوق وشيوخ المدينة لرواية عطيل لا يرون بأسا فيما جرى ، بل ان الدوق نفسه يقول إن ابنته نفسها لو سمعت قصص البطولة هذه التى رواها عطيل لفعلت ما فعلته ديدمونة ولكن برابانتيو يصر على سؤال ابنته ، وحين تحضر ابنته تعلن أمام الحاضرين أنها اختارت زوجها المحبوب عطيل مولى لها من بعد أبيها بمحض ارادتها وبوحى قلبها وقد وجبت عليها الآن طاعته كما كانت طاعة أبيها من قبل واجبة •

ويسلم الأب أمره لله كارها والمرارة تملأ نفسه • ويطلب عطيل الى الدوق أن تتكفل دولة البندقية بالسهر على زوجته ديدمونة حين يخرج هو الى قبرص للقتال • ويرى الدوق أن تقيم ديدمونة فى دار أبيها ، ولكن برابانتيو يرفض أن يؤوى ابنته العاقة ، ويرفض عطيل وديدمونة هذا

الرأى كذلك ، وأخيرا تقترح ديدمونة أن يؤذن لها فى أن ترافق زوجها الى قبرص • فيسمح لها الدوق بذلك ، ويترك عطيل زوجته وديعة بين يدى « أياجو الأمين » حامل علمه وموضع ثقته ليسهر عليها ويحرسها فى رحلتها ، وينصرف هو الى رجاله وعتاده وسفائنه يجهزها للرحيل •

ويختلى الفتى روديريجو بأياجو فاذا به قانط من أمره يفكر فى الانتحار غرقا فقد ضاع كل أمل له فى أن يحظى بديدمونة • ولكن أياجو يمنيه عذب الأمانى قائلا : « ان الصبر مفتاح الفرج • فبعد قليل تسأم ديدمونة عشرة زوجها الأسود هذا وحين تنقضى نزوتها سوف تلتفت اليه ، وبعد قليل يسأم عطيل عشرة زوجته فيلتفت الى غيرها من النساء فليس الا الصبر مفتاح الفرج ، ولكن لابد أن يملأ روديريجو كيسه بالذهب ، فبغير الذهب لن ينال من وصالها شيئا • نعم بالصبر والذهب كل شىء سيجرى بما يروم • فيجيب العاشق الساذج قائلا انه سوف يبيع كل ما امتلك من أرض ليحظى بديدمونة •

وهكذا يبحر الجميع الى قبرص ، وفى قلب كل منهم حب كبير وحلم كبير ما خلا أياجو الذى انطوت نفسه الشريرة على بغض أسود ، أما حلمه فصغير ، وهو كيف يحطم كاسيو قائمقام عطيل ويحتل مكانه ؟ وهذا ما يقض مضجعه ، وهو يدبر لذلك مكيدة لا تنبت الا فى عقل شيطان مريد •

وفى قبرص يجتمع الناس على شاطىء الجزيرة ليستقبلوا ديدمونة أولا ثم عطيل من بعدها وتدوى المدافع بالتحية حين تبدو فى الأفق سفينة ديدمونة • وترسو السفينة وتنزل منها زوجة القائد عطيل وفى معيتها أياجو حامل علمه وأميليا زوجة أياجو وهى وصيفة ديدمونة والفتى العاشق روديريجو ونفر من الأتباع فتجد فى انتظارها كاسيو قائمقام عطيل ويقبلها كاسيو قبلة الأخ المرحب بأخته فينظر اليهما أياجو نظرة ماكرة • ويعلق على طباع النساء تعليقا يثير الظنون قائلا لزوجته أميليا : « أنتن معشر النساء كالدمى خارج

الدار ، وفى حجرات الاستقبال كالأجراس حادة الأصوات ، وفى المطبخ كالقطط المتوحشة ، تبسئن للغير فى براءة القديسات ، فان أساء اليكن أحد فأنتن كالشياطين ، عابثات فى تدبير المنزل عاهرات فى الفراش » ·

وتعنفه زوجته أميليا على هذه السلاطة الجارحة فلا يرعوى ، بل يذهب فى التعريض بالنساء الجميلات منهن والدميمات والحمقاوات ، وتلومه ديدمونة على سوء ظنه بالنساء كما يؤنبه كاسيو على اسرافه فى نقد المرأة ·

ويخلو أياجو بالفتى العاشق روديريجو فيجدد له أمله فى أن يتخذ من ديدمونة خليلة له ، قائلا ان ديدمونة امرأة ذات نزوات ، وما المغربى الأسود الا نزوة من نزواتها · فهى قد اندفعت اليه دون ترو ، وحين تزهد فى عشرته سوف تندفع شهواتها الى غيره من الرجال ·

بل ان أياجو يرى أن تحول ديدمونة قد بدأ فعلا ، فهو يقرأ فى نظراتها الى كاسيو وفى نظرات كاسيو اليها ما ينم عن معان آثمة · وهو يعتقد أن بينهما مايثير الريب والظنون، ويسمع روديريجو لقوله بين مصدق ومكذب ، ولكن أياجو لا يزال به حتى ينعش فى قلبه الآمال ·

وما أن ينصرف هذا العاشق الولهان ويخلو أياجو الى نفسه حتى يتبين مكره وتتكشف خسته · · فهو يعتقد حقا أن كاسيو يحب ديدمونة ، وهو يستبعد أن ديدمونة تبادله حبا بحب · ولو لم يكن بين كاسيو وديدمونة غرام أو شىء مما يلوث العرض ، فقد وجب عليه أن يزعم هذا زعما · فهو يعلم أن عطيل زوج وفى يحب زوجته حبا يبلغ مبلغ العبادة وهو يعلم أن عطيل رجل شريف يرتفع تفكيره على الدسائس والدنايا وأنه يثق فيه ثقة عمياء ويلقبه دائما بأياجو الأمين وهو يصدق كل كلمة يقولها له حامل علمه الأمين لأنه رجل طيب القلب فى نفسه براءة من براءة الأطفال ، وانه لمنتقم منه شر انتقام بأن يثير شكوكه فى طهارة ديدمونة · بل ان أياجو نفسه يشتهى ديدمونة وهو لا يرى بأسا من أن يحظى

بها ، ثم انه مشتبه فى أن عطيل نفسه كان على صلة آثمة بزوجته أميليا قبل زواجه من ديدمونة . بهذا يكيل أياجو لعطيل صاعا بصاع وينتقم لشرفه بتلويث شرف عطيل . فان خاب مسعاه فلا أقل من أن يثير شكوك عطيل فى سلوك زوجته ويملأ نفسه بالسموم حتى يفقد الوعى ويحطم أقرب المقربين اليه . لسوف يوحى الى عطيل أن كاسيو يشاطره فراش ديدمونة فيحطم عطيل كاسيو تحطيما، وبهذا يستطيع أياجو أن يخلفه فى منصبه . نعم ، ان تفكير أياجو مسموم ، فهو يظن أن عطيل ذا الدم الحامى كان يعاشر بيانكا صاحبة كاسيو ، كما كان يعاشر زوجته أميليا قبل أن يتزوج من ديدمونة ، فهو ليس وحده الذى يلبس القرون ولكن كاسيو كذلك يلبس القرون .

وهكذا يسترسل أياجو فى خواطره المختلطة فلا يتبين من كل هذه الأفكار المسمومة الا شيئا واحدا هو أن شهوة الانتقام قد امتلكت عليه حواسه جميعا فملأت رأسه المريض بأحط النوازع وأخس التخيلات .

وتكون بين عطيل وأسطول الترك مواقع ، ويطرد عطيل الترك عن جزيرة قبرص ، وحين يتم له النصر يبعث رسولا فى الشوارع يزف البشرى الى الأهلين ويعلن فيهم أن القائد عطيل قد جعل من هذا اليوم ومن هذه الليلة عيدا يحتفل به الناس فيشربون ويطربون حتى ينقضى طرف كبير من الليل .

وفى قاعة القلعة التى يقيم فيها عطيل وديدمونة والحاشية يقام حفل يشرب فيه الضباط لسمرهم ويأويان الى جناحهما فى القلعة . ويستدرج أياجو كاسيو الى الافراط فى الشرب ، ويتردد كاسيو طويلا قبل أن يسترسل فى الشراب ، فهو يعلم أنه لا يحتمل الخمر كما يحتملها غيره، ولكن « أياجو الأمين » يستحلفه بحق الصداقة أن يشترك فى احتفال المحتفلين ، وما قصد من هذا الاستحلاف الا أن تلعب الخمر بعقل كاسيو فيدفعه الى ما يستفزه ويكون لأياجو ما يريد ، فتثقل الخمر على كاسيو ويهذى فى كلامه بما

يتعجب له الضباط ، ولا سيما مونتانو حاكم الجـزيرة من قبل عطيل ، وينصرف كاسيو الى مخدعه فيجد آياجو فرصة سانحة للافتراء عليه والتشهير به ، ويزعم أمام الضباط أن كاسيو أصـدق صـديق له فى الوجـود ، وأنه رجل كامل الصـفات لا يعيبـه الا شىء واحـد ، وهـو ادمان الشراب والافراط فيه كل ليلة ، ولولا هذه الرذيلة فيه لما كان له فى جيش البندقية كله صنو أو نظير ٠

ويرسل أياجو الفتى روديريجو وراء كاسيو ليعرض به ويستفزه حتى يخرج عن طوره ، وما هى الا لحظة حتى يسمع المحتفلون صوت روديريجو مستغيثا يطلب النجدة ثم يعـود اليهـم روديريجو وفى أعقـابه كاسيو يطارده ٠ ويضرب كاسيو الفتى روديريجو ويتوسـط بينهما الحـاكم مونتانو فيتطور الأمر ويستل كل سيفه ويطعن كاسيو مونتانو طعنة قاتلة ولكن أياجو الماكر يأمر الفتى الساذج أن ينطلق الى خارج القلعة صائحا مناديا بحـدوث فتنة فيها ، وأن يقرع الناقوس كأنما أحاق بالجـزيرة خطر مطبق ٠ ويسـتيقظ عطيل ويقتحم القاعة مستفسرا عن هذا الصخب العظيـم ، فلا يسكت الجمع الا بعد أن يذكرهم آياجو المنافق بما يجب عليهم من احترام لقائدهم ويقص أياجو الماكر على عطيـل تفاصيل ما حدث ، فيقف موقف المدافع عن كاسيو الذى لم تكن له جريرة الا أنه أفرط فى الشراب ٠ وهو لا يشك أن الفتى الهارب قد أساء الى صديقه كاسيو اساءة بالغة أخرجته عن طوره ٠

ويغضب عطيل غضبا عارما لما رأى ويسـمع ، ويعزل كاسيو من منصبه قائلا انه رغم حبه لكاسيو لا يقبل أن يكون قائمقامه ونائبه وخليفته فى جميع مسئولياته ٠ أما مونتانو الجريح فيحمل على محفة بأمر من عطيل ليسهر عليه طبيبه الخاص ٠ وهـكذا تهدأ العاصـفة وينصرف الجميع ما خلا أياجو وكاسيو ٠

آياجو : هل جرحت يا سيدى ؟

كاسيو : نعم ، بما لا ينفع فيه طب ولا تضميد ·

أياجو : معاذ الله !

كاسيو : نعم ، سمعتى ! سمعتى ! لقد فقدت سمعتى ! فقدت جوهرى الخالد ! ولم يبق منه الا جثة الحيوان ! سمعتى أياجو ، سمعتى !

ان كاسيو لا يذكر شيئا مما حدث ، كل شىء مختلط فى عقله · انه يذكر أن شجارا حدث ولكنه لم يعد يذكر فيم كان الشجار · ان السكر استبد بعقله ثم استبد بقلبه الغضب ، وبينهما ضاع كل شىء · الخمر ، الويل من الخمر · لقد فقد منصبه · لقد فقد سمعته · لقد فقد كل ما يعتز به فى الحياة ·

ويهون أياجو على كاسيو قائلا ان قليلا من الخمر لا يؤذى ، ثم ان ما ضاع يمكن أن يسترد ، فعطيل نفسه كان فى لحظة من الغضب حين عزله من منصبه · والكل يعلم ما يكنه عطيل لزوجته من حب وتقديس · والكل يعلم مدى سلطان ديدمونة على عطيل ، والكل يعرف رقة قلب هذه السيدة الكريمة وعظيم حنانها · فليذهب اذن كاسيو اليها ويعترف أمامها بحقيقة ما حدث ، وهى لا شك ستتوسط له عند سيدهما عطيل فيرده الى منصبه · أما القنوط فلا موضع له · هذه مشورة خالصة لكاسيو من صديقه أياجو ·

وهكذا ينصرف كاسيو على أمل · أما عدوه اللدود أياجو فهو يبيت شيئا آخر · لسوف تفتح ديدمونة قلبها الرحيم لمظلمة كاسيو ، ولسوف تتشفع له عند زوجها فى حرارة واخلاص · أما أياجو فسوف يتخذ من دفاعها عن كاسيو سببا لاثارة الشك فى قلب عطيل ·

ويرجو كاسيو الى أياجو أن تهيىء زوجته أميليا لقاء بينه وبين ديدمونة ليشرح لها الأمر · ويعلم كاسيو من أميليا أن مولاتها لم تنتظر لقاءه لتدافع عنه أمام عطيل ·

ولكن عطيل لا يفتأ يكرر أن حبه لكاسيو شيء وواجباته نحو اقرار النظام في الجيش وفي الجزيرة شيء آخر ٠

وتهييء أميليا لقاء بين كاسيو وديدمونة على خلوة كما رسم أياجو حتى لا يقطع المغربي عليهما حبل الحديث ٠ ويجد كاسيو أن ديدمونة ليست بحاجة الى اقناع ، فهي تعطف عليه وتؤمن بوجوب اعادته الى منصبه ، ولكنها تستمهله حتى يهدأ غضب عطيل عليه ٠ ويقبل على الثلاثة من بعيد ٠ فيهم كاسيو بالانصراف وتستبقيه ديدمونة ليسمع بأذنيه شهادتها فيه أمام زوجها ، ولكنه يصر على الانصراف ، فهو مرتبك يملؤه الخجل من مولاه ٠

وتطلب ديدمونة الى عطيل أن يصفح عن قائم مقامه كاسيو وأن يرده الى منصبه ، وتنوه بولائه الشديد له وبصفاء نفسه واخلاصه ، وترجو أن يحدد عطيل له موعدا قريبا ٠ ولكن عطيل كثير المشاغل كثير الواجبات ، فهو يرجيء ٠ وتلحف عليه ديدمونة وتذكره بما كان بينه وبين كاسيو من ود قديم ، حين كان عطيل يخطب ودها وكاسيو يصاحبه نيشد أزره وليدافع عنه في غيبته ، وفي حضوره ٠ ويضيق عطيل بالحافها فيقول : « كفى ٠ كفى فليأت اذن متى شاء ، فلن أبخل عليك بشيء يرضيك » ٠ وتغضب ديدمونة لهذا الرضا الكاره وتنصرف عنه متأففة تتبعها أميليا ٠

ويبقى عطيل وحده بين براثن آياجو ٠ ويحاوره كما يحاور قط ماكر فأرا قليل الحيلة ٠ فآياجو أذكى من أن يتهم كاسيو صراحة ٠ وانما براعته براعة في الايحاء ٠ فهو يشعل الفتيل ثم يترك النار ترعى وحدها ٠ انه ما كان يعلم أن السيد كاسيو كان يعرف ديدمونة قبل أن يتزوجها عطيل ٠ ثم ينصرف بالحديث الى شيء آخر ، ولكن هواجس عطيل ترده الى الموضوع ٠ ماذا يقصد أياجو بهذا السؤال ؟ لا شيء لا شيء ٠ ان أياجو لم يقصد الا أن يتحقق ٠٠ نعم كان كاسيو يعرفها ٠ وهل في هذا ضير ؟ أليس كاسيو رجلا أمينا ؟ « أمين يا مولاي ؟ ٠٠٠ نعم ، هو أمين على قدر

علمى » • ثم صمت • كل كلمة تقال بتنغيم خاص • لا شك أن أياجو يكتم عنه سرا • ولكن أياجو أحذق أن يتهم جهرا • انه لا يقول كلمة واحدة يمكن أن يؤاخذ عليها • وكيف يقول ، وهو لا يزال يتحسس طريقه فى مداخل قلب عطيل • بل هو يوشك أن يقسم على اعتقاده فى أمانة كاسيو • ولكنه يعلم أيضا أن أطهر قلب فى الوجود يحاصره الرجس من وقت لآخر ، وأن العصمة ليست من نصيب البشر • انه لا يتكلم عن كاسيو بالذات ، ولكنه يتكلم عن الرجال بوجه عام • ويهيب به عطيل هائجا أن يفصح ، ففى السكوت على ما يعلم خيانة لمولاه • ولكن أياجو ليس لديه ما يقوله أكثر من أن السمعة الطيبة هى أثمن جوهرة يملكها رجل أو ... امرأة • ولو أن رجلا سرق منه ماله آساءه ذلك كثيرا ، فالمال يدور فى ألف يد ، أما من يسرق منه سمعته فهو يسرق منه شيئا يفتقر به من أضاعه ولا يغتنى به من آخذه •

ويحس عطيل من باطن الحديث أن أياجو انما يتحدث عن علاقة آثمة بين كاسيو وديدمونة • وينتابه الهياج ولكن أياجو يهيب به قائلا : « الحذار من الغيرة يا مولاى ! انها وحش أخضر العينين يعبث بالفريسة التى يقتات عليها ليعذبها » • ويعود الى عطيل هدوءه فهو لا يشك فى ديدمونة الجميلة • وكيف يشك فيها وهى التى تخيرته من بين الرجال، كلا ، انه لا يرتاب حتى يرى بعينيه موضعا للارتياب • وهنا يعود أياجو الى بذر شكوكه فى نفس عطيل قائلا : « اسهر على زوجك ، وراقب خطوات كاسيو فى يقظة • واجعل من عينيك شيئا وسطا ، فلا تشعلهما الغيرة ووجههما على غفلة واستئمان ! » ان أياجو يعرف عن نساء البندقية أكثر مما يعرف عطيل ، « فهن يعرضن على عين السماء ما يخفن أن يبدين لأزواجهن من ألاعيب ، وضمائرهن لا ترتاح على تجنب المعصية بل ترتاح على سترها » • وبعد ، أفلم تخدع ديدمونة أباها يوم فرت مع زوجها ؟ ان هذا مصداق لقوله • ولكن أياجو رغم ذلك لا يظن أن فى الأمر شرا • انما هى

الحيطة · الحيطة · كل ما يدرى به هو الحيطة · الحيطة من كل النساء ·

وهكذا يبلغ أياجو وطره من عطيل ، فتسرى الغيرة العمياء بقلبه سريان السم ، فلا يلمح شيئا أو يسمع شيئا الا ويتوهم أن فيه الدليل على اثم زوجته المسكينة الطاهرة ·

وتدخل عليه ديدمونة بعد أن ينصرف أياجو فتجده زائغ النظرات شاحب الوجه يقطر جبينه عرقا ويتمتم بكلام يشبه الهذيان · وتتقدم لتمسح جبينه بمنديلها الحريرى ، ثم تنصرف بعطيل الى حيث ينتظرهما الأضياف من نبلاء الجزيرة · ويسقط المنديل من يدها فتلتقطه أميليا وتتبين فيه ذلك المنديل الذى أهداه عطيل الى ديدمونة ليلة أن تكاشفا الهوى وتعاهدا على الزواج · وتذكر أميليا زوجها أياجو الذى طالما ألحف عليها أن تسرق هذا المنديل من مولاتها ، دون أن تفهم لطلبه معنى أو تكشف عن غرضه فى ذلك ·

ويعود أياجو فيجد زوجته وفى يدها المنديل فينزعه من يدها فى عنف كأنه قد وجد ضالة يبحث عنها منذ سنوات ويهمس أياجو قائلا : الويل لك يا عطيل لن تذوق طعم النوم بعد اليوم ، ولو جرعت كل ما فى الدنيا من رحيق يجلب النعاس الى العيون · لسوف يجد المنديل طريقه الى منزل كاسيو ·

وحين يلتقى عطيل وأياجو يجد أياجو عطيل فى هياج شديد · ان قلبه يحترق كأن فيه جمرة تتقد · انه يبحث عن الدليل · الدليل · أياجو أيها اللعين · الى بالدليل والا قتلتك ·

ولكن أياجو لا يملك دليلا · نعم ، بل هو يرى بصيصا · انه رأى منديل ديدمونة فى يد كاسيو يمسح به عرقه ، وقد عرفه لأنه منقوط بثمار التوت ، ويصرخ عطيل قائلا ان انتقامه سوف يكون رهيبا · ان هذا المنديل كان هديته الى هذه الخائنة · لقد أعطته ساحرة مصرية الى أمه ليحفظ

لها حب زوجها ، وعندما حانت منيتها أعطتـه اياه ليـكون هديته الى زوجته . وها هى ذى الخائنة قد أعطته لعشيقها الأثيم .

وما أن يلتقى عطيل بديدمونة حتى يسألها عن المنديل. انها تسأله عما فعل بقضية كاسيو ، وهو يسألها عن المنديل وتعجب ديدمونة لالحافه وغلظته ، وينكسر قلبها ألما . انها تعلم أن المنديل قد ضاع ولكنها لا تفهم سر هياجه الفظيع ، انهـا تعلم أن المنديل قد ضاع ولكنها لا تعلم أن كاسيو قد وجده فى داره مصادفة فأهداه لعشيقته بيانكا دون أن يفطن الى أمره . ويرى عطيل المنـديل فى يد بيـانكا فيتحقق من مقالة أياجو . بل ان أياجو الزنيم يجعل عطيل يسترق السمع لحوار داعر بينه وبين كاسيو حول بيانكا ، بعـد أن أوهم عطيل أنه يحدث كاسيو عن ديدمونة .

وتستقر فى نفس عطيل فكرة واحدة رهيبة . لابد من قتل ديدمونة . لسوف يدس لها السم . كلا لسوف يطبق على عنقها بأصابعه ويخنقها خنقا . وفى أعجاز الليل يقترب عطيل من فراش ديدمونة ، ويتأمل صـفحة وجهها الطاهرة على ضوء شمعة موقدة فتأخذه رعشة . كأنه مقبل على ذنب عظيم ، ويوشك أن يعدل عما جاء من أجله . ويناجى عطيل نفسه قائلا : « انها السبب يا روحى! انها السبب! خطيئتها هى السبب ولن أتفوه باسمها أمامك أيتها النجوم الطاهرة ! ولكنى لن أسفح لها دما أو أخدش جسـدها الناصع هـذا الذى تجاوز الثلوج بياضا وشابه مرمر الهياكل فى نعومته . ولكن لا مفر من موتهـا . والا غدرت بغيرى من الرجال . انطفىء أيها النور انطفىء أيها النور » .

وتسـتيقظ ديدمونة من نومهـا فتدرك أنه قد جاء ليطفىء نور روحها . وتقسم له على طهارتها ، ولكن عطيل الذى تقمصـته روح شريرة يمضى فيمـا جاء من أجله ، فيقبض على عنقها ولا يتركها الا جثة هامدة .

وتقبل أميليا على أنين مولاتها ، وحين تبصر الفاجعة تولول : الغياث ! الغياث ! ويتجمهر من فى القلعة فيرون عطيل واقفا • على جدث وهو يجمجم : ما سلكت الا سبيل الشرف • لقد كانت خائنة • لقد أهدت منديله الى عشيقها وهو الآن فى حوزة عاهرة •

وحين تقص عليه أميليا حكاية منديل مولاتها الذى وجدته مصادفة فاغتصبه منها أياجو اللعين تميد الأرض تحت قدميه ويدرك هول جنايته ، ويبادر الى سيفه ويغمده فى صدره فيسقط صريعا على جدث ديدمونة •

أما أياجو فيساق الى حاكم قبرص الجديد كاسيو ليجرى فيه عدالة الأرض ريثما تأخذه الزبانية لتجرى فيه عدالة السماء •

أنطونيوس وكليوباترا

وليم شكسبير

نحن فى الاسكندرية أيام مجدها الغابر حين كانت عاصمة البلاد ، وعلى عرش مصر تجلس امرأة راجحة العقل ناضجة الجسد ، بيمناها صولجان الحكم ثابت لا يرتجف ، ولكن بيسراها صولجان الحب الذى خلدها بين العاشقات ٠ جاءها قيصر العظيم ، يوليوس ، مطاردا أعداءه الرومان الذين احتموا فى مصر ، ونزل شواطئها ، وبعد أن نكل قيصر بأعدائه قفل راجعا الى روما ليلقى حتفه بخناجر المتآمرين ٠ وبعد مصرع قيصر اجتمع رجاله الثلاثة ، أوكتافيوس وأنطونيوس ولبيدوس ، وقسموا ملكه العريض فيما بينهم٠ فكانت روما من نصيب أوكتافيوس ، وكانت صقلية من نصيب لبيدوس ، أما مصر وسوريا فكانتا من نصيب بطل الأبطال فى عصره وخير من حمل السيف وصعد المنابر ، مارك أنطونيوس ٠ وهكذا حكمت الامبراطورية الرومانية الحكومة الثلاثية ، وقام صرحها على ثلاثة أعمدة كما كانوا يقولون ، وكان أنطونيوس هو العمود الثالث ٠

وجاء مارك أنطونيوس الى مصر ليكبلها بالأصفاد ، فكبلته مصر بالأصفاد ٠ ولم تكن أصفاد مصر كأصفاد الرومان من حديد غليظ بل كانت أصفادا ناعمة من خيوط ذهبية غزلتها الصبابة ونسجتها الأحلام ٠ واستقبلته

كليوبترا فى سوريا بميناء صيدا وهى فى سفينتها الجميلة التى ألهبت خيال الشعراء · وازينت لهذا البربرى المتغطرس الوسيم القادم من الشمال وملأت جو البحر والبر بنفح الطيب وغالى العطور ، وجلست على آريكتها فى كبرياء الملك وفى عزة الجمال وعلى شفتيها ابتسامة هازئة كأن لسان حالها يقول : سوف نرى بعد قليل : أتملك روما مصر أم تملك مصر روما · أما السيف فيصدأ فى قرابه ، وأما سهم الهوى الذهبى فهو لا يصدأ ولا يبلى ·

●

وفى الاسكندرية قصر كليوبترا · وفى قصر كليوبترا يذهل أنطونيوس عن روما ، بل يذهل أنطونيوس عن نفسه ويذهل عن زوجته فولفيا المقيمة فى روما ولا يلبث هذا الجندى الشامخ الذى كانت عيناه الجميلتان تبرقان فى حومة الوغى كأنه مارس رب الحرب أن يصبح أسير كليوبترا ، يتمرغ عند قدميها كالعبد الذليل ، وينسى روما ولا يقيم لها وزنا ·

وتمشى الشائعات بأن مارك أنطونيوس قد غدا ألعوبة فى يد ملكة مصر الجميلة ألهته عن واجباته نحو وطنه · وتبلغ الشائعات روما ، فيغضب أوكتافيوس ويرغى ويزبد · وتثور فولفيا وترغى وتزبد ، وتجرد حملة على لوشيوس أخى أنطونيوس لعلها تستدرج أنطونيوس من أحضان كليوبترا الى ايطاليا · ثم لا تلبث أن تتحالف مع لوشيوس وتقود الجيوش على أوكتافيوس قيصر روما استفزازا له وايقاعا بينه وبين زوجها أنطونيوس لعله يعده من العصاة المدبرين لهذه الفتنة فيستدعيه الى روما ، ولكن جيش فولفيا ينهزم ويفر من ايطاليا جملة · أما فى الاسكندرية فجنود الرومان يتندرون بما آلت اليه حال قائدهم المغوار ويضمرون العداء لهذه « الفاجرة » التى سلبتهم كل مجد وصولة ، وحتى أصدقاء أنطونيوس الأوفياء قد بدأ بعضهم يلغطون بلاذع النقد أو رقيق العتاب ·

وفى حجرة من حجرات القصر يدخل أنطونيوس وكليوبترا تحف بهما حاشية عظيمة من الأتباع الأوفياء والأتباع الناقمين • فمع أنطونيوس أنيوباربوس المخلص وفيلو وديمتريوس الساخطان ، ومع كليوبترا وصيفتاها الوفيتان شرميان وايراس • وتسترسل كليوبترا فى أحاديث الغرام فتسأل حبيبها ذلك السؤال الذى لا يسأم منه العشاق: « اذا كان ما بك حقا هو الحب فقل لى كم تحبنى ؟ » • فيجيبها العاشق الولهان : ما أفقر الحب الذى يقاس ويحصى » !

ويأتى الخادم معلنا مجىء رسول يحمل أنباء من روما• ويضيق أنطونيوس برسول روما ، ولكن كليوبترا تعنفه قائلة فى تهكم :

كليوبترا : بل استمع الى الأنباء يا أنطونيوس : لعل فولفيا غاضبة • أو من يدرى ؟ لعل قيصر الذى لم يخضر بعد شاربه قد أرسل اليك أمره العظيم لتأتمر به : افعل هذا أو افعل ذاك • افتح هذه المملكة أو حرر تلك • هيا أنجز ما أمرناك به والا حقت عليك لعنتنا •

• • • أين الاعلان الذى أرسلته فولفيا لتمثل أمامها ؟ أم أقول أرسله قيصر ؟ أم أقول أرسله قيصر وفولفيا معا ؟ الينا بالرسل • انى واثقة من أن وجهك تعروه حمرة الخجل كما أنى واثقة من أنى ملكة مصر • وهذا الدم فى وجنتيك آية الخضوع لقيصر • أم ترى هذا لون خديك المألوف كلما عنفتك فولفيا ذات اللسان السليط ؟ الينا بالرسل •

فيجيبها أنطونيوس قائلا :

أنطونيوس : ألا فلتذب روما فى نهر التيبر وليتهافت صرح الامبراطورية الشامخ كما تتهافت الأقباء العظيمة ، ههنا مكانى : فالممالك تراب ، وروث هذه الأرض يطعم الانسان والبهائم على حد سواء • ان مجد الحياة فيما نفعله الآن (يعانقها) فحين يتعانق عاشقان متحابان مثلنا فلن

يجد العالم لنا نظيرا ، وانى أشهد الأرض علی غرامنا ولو دفعت حياتى ثمنا لذلك ·

ولكن كليوبترا تلح عليه متهكمة أن يستمع الى السفراء ، فينصرف الى حجرة الديوان ، فيعلم من الرسول نبأ الحرب التى كانت بين زوجته فولفيا وأخيه لوشيوس ، ثم بينهما وأكتافيوس قيصر · ويعلم منه أن القائد لابيينوس قد سار بجيشه من بارثيا بفارس فاستولى على الفرات وسوريا واليونان ، كل ذلك وأنطونيوس لاه فى صبابته لا يفيق من خمر الاسكندرية التى يشربها فى صبوح وفى غبوق· ويثوب أنطونيوس الى رشده ازاء هذه الأحداث الجسام ويهتف قائلا : « هذه الأغلال المصرية الشداد لابد أن أحطمها ، والا خسرت نفسى بالصبابة الحمقاء » ·

ثم يأتى رسول آخر من بلدة سسيون ببلاد اليونان ويبلغ أنطونيوس أن زوجته فولفيا قد ماتت ، ويسلمه خطابا ، قائلا : « انها توفيت فى سسيون : هذه الرسالة تنبئك بمدة مرضها وبغير ذلك من أمور أشد خطرا ، مما يهمك أن تعرفه » ·

وينتاب أنطونيوس حزن شديد ويقول : « اتركونى وحيدا !! » وحين يخلو الى نفسه يندب زوجته قائلا :

أنطونيوس : ها قد مضت عنا روح عظيمة ! وهذا ما اشتهت نفسى : ولكن ما أكثر ما نستهين بالشىء فننبذه · ثم نتمنى أن نسترده حين يضيع ، وكل نعيم قائم يغض منه الزمن الدوار حتى يصير الى جحيم · أنا أندب فضائلها لأنها رحلت عنا ، واليد التى قبرتها لتحب أن تردها الى الحياة · حتم على أن أخرج من حبائل هذه الملكة الساحرة ، فاستنامتى الى الملذات لا ريب تنبت آلاف الرزايا فوق ما عرفت من الشرور ·

ويلتفت أنطونيوس الى تابعه الوفى اينوباربوس ويقول : لابد من الرحيل · فيذكره اينوباربوس بأن رحيله

سوف يقتل كليوبترا ، فيجيبه أنطونيوس قائلا : « ان مكرها لا يسبر له غور » • ولكن أينوباربوس يقول :

اينوباربوس : يؤسفني يا سيدى أن أقول ان هذا غير صحيح • فعواطفهـا مركب لم يدخـل في مزجه الا أصفى عناصر الحب الخالص • فزفراتها وعبراتها ليست بالرياح والمياه ، بل زعازع عاتية وعواصف لا تعرف مثلها أرصـاد الجو ولم يرد مثلها في التقاويم ، وهذا لا يمكن أن يكـون دهاء فيها • فلو كان هـذا دهاء لكانت في منزلة جوبتر ، كبير الأرباب ، تعرف كيف تمطرنا بالدموع كمـا يمطرنا بالغيث •

أنطونيوس : ليتنى لم أرها أبدا •

أينوباربوس : اذن لفاتك أن ترى تحفة عجبا ••

ولـكن أنطونيـوس الذى يعلم بتأزم الأمور في بلاده يصمم عـلى الرحيـل ، ان أصـدقاءه في روما يلحـون في عودته • فقد تحدى سكستوس بومبى ، ولد بومبى الكبير ، سلطان أكتافيوس قيصر ، وبومبى يملك ناصـية البحار ، ولـو تـرك بغـير رادع لـزلزل سـلطان قيصر واسـتأثر بالامبراطورية • بل ان الشـعب الـرومانى القلب قد بدأ يلتف حول بومبى الثائر ، لا حبا في بومبى بل وفاء لذكرى أبيه الكبير • وأنطونيوس يعلم أن مكانه بجانب أوكتافيوس شريكه في حكم البلاد ، وهو يأمر تابعه الوفى أينوباربوس أن يبلغ كل مرؤوس في جيشه بمشيئته وهى الرحيل من مصر على جناح السرعة •

وتعلم كليوبترا بما اسـتقر عليـه عزم أنطونيوس ، فتضطرب اضطرابا عظيما وتبحث عن وسيلة تستبقيه بها • وتنصحها وصيفتها الساذجة شرميان قائلة : « أطيعيه في كل شيء ولا تعارضيه في شيء » • فتجيبها كليوبترا بقولها : « هذه تعاليم المغفلين ، اذا اتبعتها فقدته » وتبعث خادمهـا الكساس صائحة : « ابحث عن مكانه »، وعمن معه ، وعمـا

يفعل . لا تقل انى أوفدتك . فان وجدته حزينا فقل انى ارقص ، وان وجدته مرحا فقل انى مرضت فجأة . هيا عجل : وعد دون ابطاء » .

وقبل أن تتم كليوبترا كلامها يدخل عليها أنطونيوس ليبلغها بقرار رحيله ، وما أن يبدأ كلامه قائلا : « يؤسفنى أن أعرب لك عن عزمى .. » . حتى تقاطعه كليوبترا قائلة وهى تصطنع الاعياء : « العون يا شرميان الحبيبة فانى أتهافت . ما أطول هذا العذاب » !

فليمض عنها أنطونيوس ، فليس لها عليه سلطان . ولكن كان ينبغى عليها أن تتوقع منه هذه الخيانة ، وهو الذى خان زوجته فولفيا . لكم أعطاها العهد وغلظ اليمين . فليعد الغادر اذن الى فولفيا . انه يقول ان فولفيا قد ماتت، وهذا دليل جديد على غدره . فهى لا تراه يذرف عليها دمعة أو يزفر زفرة : وحين تموت لن يحزن عليها أكثر مما حزن على فولفيا . ويحاول أنطونيوس أن يهدىء من روعها قائلا ان الحرب الأهلية تجتاح بلاده ، ولابد من رحيله حتى لا يستفحل شر بومبى . انه يترك قلبه فى مصر ولسوف يعود اليها بعد حين قليل ، ويناشدها أنطونيوس أن تهدأ قائلا : « أقسم بالنار التى تذكى طمى النيل انى ماض عن هذا المكان وأنا جندى كليوبترا وخادمها ، أعقد السلم وأشعل الحرب كما تملى مشيئتها » . ويضيف قائلا : « هيا بنا ، هيا . نحن ملتقيان مفترقان : فأنت المقيمة هنا راحلة بالقلب معى ، وأنا الراحل عنك مقيم بالشوق الى جوارك» .

وهكذا يعود أنطونيوس برجاله الى روما .

أما فى روما فأوكتافيوس مجتمع بشريكه لبيدوس يندد ببطل الاسكندرية الذى « يصطاد السمك ويشرب الخمر ويفنى مصابيح الليل فى القصف والسمر ، وليس فيه من الرجولة أكثر مما فى كليوبترا ، كما أن زوجة بطليموس ليست بأكثر أنوثة منه . » ولكن لبيدوس يهدىء من غضبه

قائلا ان هذه الرذائل تبدو فى أنطونيوس أوضح مما تبدو فى سواه ، لأنها كنجوم السماء يجعلها سواد الليل أشد وهجا » • أما أكتافيوس فهو عاجب مما آل اليه أنطونيوس رمز الجندية وزهرة المقاتلين • فليعربد أنطونيوس ما شاء أن يعربد ، ولكن اذا دقت طبول الحرب فواجبه أن يخف الى مكانه فى الصفوف • انه يذكر معارك أنطونيوس السالفة ، وكيف كان يكابد فى جلد لا يعرفه أهل البداوة وهو ربيب الترف والنعم • لقد شرب بول الخيل وماء الوحل وأكل الميتة واقتات على قشر الأشجار • كل هذا تحمله أنطونيوس فى شجاعة الجندى حين مشت المجاعة فى جيشه وهو يقاتل عند جبال الألب • ترى ماذا ألم به فبدله من حال الى حال • ان الرسل تتواتر بأسوأ الأنباء عن تقدم بومبى ورجاله ، فليت أنطونيوس يعود على رأس جيشه قبل فوات الأوان •

وفى مصر تستفسر كليوبترا الولهى بحب أنطونيوس من حاشيتها عن حال حبيبها وتقول :

كليوبترا : أى شرميان ! ترى أين يكون أنطونيوس الآن ؟ أهو واقف أم جالس أهو يمشى أم تراه على صهوة جواده؟ ياله من جواد سعيد ذلك الذى يحمل ثقل أنطونيوس! كن شجاعا يا جواد ، واعلم أنك تحمل سيد البرية ، شبيه أطلس حامل القبة الزهراء ، وسيف البشرية ودرعها الواقى • انه يتحدث الآن ، أو لعله يهمهم قائلا : « أين حية النيل العريق ؟ » فقد كان يلقبنى بهذا الاسم • وهأنذا أطعم نفسى بهذا السم المستطاب !

انها قد أرسلت اليه عشرين رسولا منذ رحيله ، ولكنها تطلب مزيدا من الورق والمداد قائلة : « لسوف أرسل اليه كل يوم سلامى مع رسول جديد ، ولو أخليت مصر من قطانها » •

أما أنطونيوس فهو يرسل مع التابع اليكساس تذكارا الى مولاته قائلا وهو يودعه : « أى صديقى الكريم ، قل ان

الرومانى المقيم على العهد يرسل الى مصر العظيمة هذه الدرة اليتيمة ، وانى سوف أعوضها عن هذا الحاضر السقيم فأطرح تحت قدميها الممالك وأرصع بها عرشها الباذخ • قل : لسوف يناديها الشرق بأسره قائلا : يا مولاتى » !

●

وفى ايطاليا نجد بومبى بداره بمدينة مسينا مع قائدين من قواده هما : منيقراط وميناس يرسمان خطط الحرب • ويتعجل بومبى النصر تعجل الواثق منه ، ويقول فى ذلك : « ان الشعب يحبنى ، والبحر تحت أمرتى ، وسطوتى فى نمو مطرد كأنها الهلال في السماء والأمل المتفائل يقول انها ستكتمل • ان مارك أنطونيوس يغشى المآدب ولن يحارب خارج ديار مصر ، وأوكتافيوس قيصر يجمع المال ويفقد القلوب ، أما لبيدوس فهو يتملق الرجلين جميعا ويتملقه الرجلان جميعا ولكنه لا يحمل لهما حبا ولا يحملان له حبا » •

وحين يأتيه النبأ بأن أنطونيوس فى طريقه الى روما ليقاتله يجزع قليلا فهو يعلم أن به من صفات الجندية ضعف ما بزميليه » ، ولكنه يعد عودة أنطونيوس تحية له ترفع من قدره • ويرجو أن تفرق الشحناء بين أعدائه الثلاثة فيخرج هو مكللا بالنصر •

وفى روما ينتظر لبيدوس واينوباربوس مجىء أنطونيوس وأوكتافيوس • ويعلم الرجلان أن اجتماع الرجلين سيكون عاصفا • ويحاول لبيدوس أن يكون عاملا مهدئا بينهما • ويقبل الرجلان ومعهما ماسيناس وأجريبا صديقا أكتافيوس فيناشدهما لبيدوس أن يكظم كل منهما عواطفه متجنبا غليظ القول ، وأن يقدم المسائل العامة على الخلاف الشخصى •

ويرحب أوكتافيوس بأنطونيوس ترحيبا فاترا ، فيشكره أنطونيوس · وبعد أن يأخذ كل مكانه يدخل أنطونيوس في الموضوع قائلا : « جاءني أنك تستاء لأشياء لا تسوء ، وان ساءت فهي لا تعنيك » · وهذا الذي لا يعنيه هو بقاؤه في مصر · فيجيبه أوكتافيــوس بأن بقاءه في مصر يعنيــه اذا كانت نتيجتــه مؤامرات زوجتــه الراحلة فولفيــا وأخيــه لوشيوس · فيقول أنطونيوس بجفاف انه ســبق أن شرح له في رســائله أنه لا يد له فيما كان من عصيان اعتبره هــو عصيانا عليه بمثل ما هو عصيان على أوكتافيوس قيصر · وحقيقــة الأمر أن فولفيــا كانت امرأة طموحا ميــالة الى الشــحان بطبعهــا ، وحقيقة الأمر أنها أرادت بتمردها أن تستدرجه من مصر الى روما · كل هذه أمور يأسف لهــا وقد انتهت وأوكتافيــوس يعرفهــا حق المعرفة ، فان كان يبغي الشجار فليبحث عن سبب آخر ·

ويعود أوكتافيوس الى لوم أنطونيوس لطرده رسوله من حضرته في الاسكندرية مشيعا بالشتائم والسباب · فيجيبه أنطونيوس بأن رسوله اقتحم طريقه اليه قبــل أن يؤذن له في الدخول · ثم انه كان مرهقا بعد استقباله ثلاثة ملــوك لا يملك النشاط الكافي لاستقبال جديد ·

كل هذا فسره لرسول أوكتافيوس في الصــباح وهــو بمثابة الاعتذار الكافي ، « فاستبعد اذن حكاية هذا الرسول واذا كان لابد أن نتشاحن فلنتجادل في غير هذا الموضوع» ·

فيقول أوكتافيوس ان أنطونيوس حنث بعهده وهو أن يزوده بالعــدة والــرجال حين يحتــاج اليهمــا · ويحتج أنطونيوس عــلى هــذه الغلطة في التعبير قائلا انه لم يحنث بعهده في شيء ، والدليل على وفائه أنه قد حضر برجاله · ولئن كان قد تأخر في المجيء فهو كان أسير حب مسموم ، وهو يعتذر عن تأخره ، فان لم يقبل أوكتافيوس عذره بما لا يخدش كرامته فجيوش أنطونيوس لن تتحرك الا وكرامته مصونة ·

ويعد لبيدوس ومايسيناس أن فى كلام أنطونيوس ترضية كافية لأوكتافيوس قيصر رغم ما شابه من كبرياء واستعلاء • ويتدخل أجريبا مقترحا أن يدعم القائدان هذا التصافى برباط وثيق لا تنفصم عراه ، وهو أن يتزوج أنطونيوس وقد ترمل بموت فولفيا من أوكتافيا أخت أوكتافيوس • فيقول أوكتافيوس هازئا ان كليوبترا لو سمعت هذا الحديث لأنبته عليه تأنيبا • فيجيب أنطونيوس قائلا : « أنا يا قيصر لست متزوجا من كليوبترا •• فما رأى قيصر ؟ » سأحتفظ برأيى حتى أسمع رأى أنطونيوس فيما سمعه من كلام » •

وهنا يسأل أنطونيوس : قيصر؟ « سأحتفظ برأيى حتى أسمع رأى أنطونيوس وماذا يملك آجريبا من سلطة لتحقيق هذا الرأى لو أنى أجبت : القول ما قلت يا أجريبا ؟» وحين يطمئن أوكتافيوس قيصر الى قبول أنطونيوس يقول : » انه يملك سلطة قيصر وما له من سلطان على أوكتافيا » •

وهكذا تنتهى معركة الكبرياء بين هذين القائدين الشامخين وينصرفان لاعداد مراسم الزواج ووضع خطة القضاء على بومبى •

وحين يختلى مايسيناس وأجريبا باينوباربوس يسألانه فى لهفة عن كل هذه الأساطير التى تجرى على الألسنة بجمال كليوباترا وبذخ الاسكندرية ، فيصف لهما كيف أسرت كليوباترا قلب أنطونيوس أول يوم رآها فى زورقها على نهر صيدا :

أينوباربوس : ••• كان الشراع الذى جلست فيه يبرق على وجه المياه كأنه العرش الوضاء • كان رأسه من ذهب مطروق ، أما القلوع فكانت من أرجوان ، وقد ضمخها العطر حتى لقد تيمت بحبها النسمات • والمجاديف كانت من فضة تضرب صفحة الماء على ايقاع الناى فيسرع الموج فى ايقاعه كأنما يلهث بحبها • وأما شخصها فقد كان يقصر عن وصفه كل بيان : كانت ترقد تحت خيمتها الموشاة بخيوط

الذهب ، فبدت أجمل من فينوس ربة الجمال التي أبدعها الخيال ففاق بها ما تبدع الطبيعة . وعلى جانبيها وقف غلمان تفيض بالبشر وجوههم الحسناء ، فبدا كل منهم وكأنه كيوبيد يبتسم ، وكانوا حاملين المراوح لها شتى الألوان ، فلا تدرى ان كانت نسماتها ترطب خديها الناعمين أم تذكى فيهما نار الجمرات ، فتلهب حيث ترطب وترطب حيث تلهب .. وتجلت وصيفاتها كالنرياد ، حور الماء ، وتلا بلا عدد ، ومثلن أمامها فبدين كالاطار يزين أجمل صورة . ووقفت حورية فاتنة عند السكان تديره . ونشرت الشراع أيد ناعمة فى مثل الزهرة الملساء ، تعرف كيف تؤدى عملها فى خفة مهارة ، فما لمسته حتى انتشر وتضوع من الزوق عطر خفى عجيب فأيقظ الحس فى الضفاف المجاورة ، وخرج من المدينة أهلوها ليروا هذا المشهد العجيب ، فبقى أنطونيوس وحده جالسا على عرشه فى سوق المدينة يناجى الهواء ..

ويستمع مايسيناس وأجريبا الى وصف هذا الجمال الفريد . ويصيح أجريبا قائلا : « يا لهذه المصرية من امرأة نادرة ! » ويتمتم الشاعر مايسيناس آسفا أو كالآسف : « والآن لابد لأنطونيوس أن يهجرها الى الأبد » . أما أينوباربوس الذى رأى بعينه كل شىء فيقول مكذبا :

أينوباربوس : هذا محال . إنه لن يهجرها ، فهى امرأة لا تبلى نضارتها السنون ، ولا ينفد لها فن فيعافها العشاق . ان سواها من النساء يتخمن حيث يشبعن ، أما هى فيسغب لها الجسد كلما أطعمته بلا حدود . وأخس الفعال تزدان فيها وكأنها الفضائل الغراء ، حتى ان الكهنة الأتقياء ليباركونها فى عهارتها .

.. وفى قصر أوكتافيوس قيصر تتم مراسم الزواج ويعاهد أوكتافيا على أن يسلك الطريق القويم فتجيبه بأنها ستصلى من أجله فى غيبته عنها . وتنصرف أوكتافيا فيجد أنطونيوس نفسه منفردا يعرافه المصرى ، فيسأله قائلا : « خبرنى

يا عـراف • أينا سيسطع نجمـه أكثر من الآخر • أنا أم قيصر ؟ فيجيبه العراف : قيصر » • ولهذا فلا تبق الى جواره يا أنطونيوس • ان روحك ، وهي ملاكك الحارس ، روح نبيلة باسلة شماء لا تبارى ، أما روح قيصر فليست على شيء من هذا • ولكن هـذا المـلاك الحـارس الذى يحفظك انما ينكمش جزعا كلما اقتربت من قيصر ، فباعد بينك وبينه ما أمكنك ذلك • • ان أنت باريته فى أية رياضة فثق بأنك المغلوب • ان حظه من السماء ، وهو بهذا الحظ يتفوق عليك رغـم أنك تفضله • وضياؤك يخبـو حين يسـطع هـو الى جوارك » •

ويعلم أنطونيوس علم اليقين أن العراف صادق فى كل ما قال • وهو يعلم أن زواجه من أوكتافيـا مجـرد زواج سياسى أوحى به الموقف ، وأن مقامه فى روما لن يطـول ، فمصر قبلته وفيها نعيمه •

ويخرج أوكتافيوس وأنطونيوس ولبيدوس على رأس جنودهم الى جبل مسينا لملاقاة بومبى ، وقد أعدوا عرضـا وسطا حقنا للدماء ، وهو أن يحكم بومبى صقلية وسردينيا مقابل اخلائه كل ما عداهما وتطهيره البحر من القرصان • ويعلم بومبى أن الشركاء الثلاثة يفوقونه فى قوة البر رغم سطوته فى البحر ، فقبل هـذا العرض ويتم الصلح ويقرر الأربعة أن يقيم كل منهم مأدبة تجرى فيهـا الراح أنهـارا احتفالا بهذا الصلح ، ويبدأ بومبى الولائم على ظهر سفينته ، وتبدو على الجميع السعادة الا ميناس صاحب بومبى الذى يعتقد أن بومبى قد فرط بما يجعل نجمه يأفل الى الأبد بعد كل ما أحرز من انتصار •

وعلى ظهر سفينة بومبى يتصـارع الأقطاب الأربعـة الكئوس ويتبادلون الانخاب حتى يثملوا ويعلو مزاحهـم ، ويذهب أنطونيوس يملأ خيالهم المخمور بغـريب الأحاديث عن تماسيح النيـل وأفاعى مصر وأهرامهـا ، وفيما هـم

يستمعون اليه مشدوهين يقترب ميناس الذى جانب الكأس من بومبى ويسر فى أذنه أن يأذن له يقطع الحبل الذى يربط السفينة بالشاطىء وأن ينقض على أعمدة الدنيا الثلاثة مع رجاله فيحطمها تحطيما ، وهكذا يصبح بومبى وحده لا شريك له فى هذا الملك العريض · ولكن بومبى يعنفه قائلا : « كان ينبغى أن تفعل ذلك دون أن تحدثنى فيه ، فمثل هذا يعد نذالة منى ولكنه يعد ولاء منك · ألا فلتعلم أن شرف بومبى لا يستهدى مصلحته ولكنه يهتدى شرفه · فلتندم اذن على أن لسانك وشى بجريمتك · ولو أنها تمت بغير علمى لاستحسنتها بعد أن تتم، أما الآن فانى أستنكرها · فاعدل عن ذلك واشترك فى الشراب » ·

ويعود بومبى الى الجماعة ، ويعلو الصخب ويدور الرقص مع الأقداح حتى ينبههم أوكتافيوس المقل الذى لا يغيب عن وعيه أبدا بضرورة الكف والانصراف ·

وبعد أن يفرغ أنطونيوس من مهمته فى روما يصحب أوكتافيا ويمضى على رأس جيشه الى أثينا ليطهر اليونان من جنود الثائر لابينوس · وكان أنطونيوس قد بعث بقائده فنتديوس ليسترد سوريا من الفرس الغزاة فيستردها فنتديوس ولكنه يأبى أن يتعقبهم عبر ميديا وبابل خشية أن يعلو نجمه بين المقاتلين ، « فمن يبز قائده فى الحروب يصبح قائد قائده » وهذا ما يخشاه فنتديوس ، انه يخشى أن تسوء أمجاد أنطونيوس · ·

ولكن الأمور لا تجرى فى روما بحسب ما تركها أنطونيوس · فقد اضطرمت نار الفتنة من جديد فانقض أوكتافيوس بمعونة لبيدوس على بومبى وجرداه مما أعطياه اياه فى معاهدة الصلح ، وبعد أن فتك أوكتافيوس ببومبى تنكر لشريكه لبيدوس وألقى عليه القبض متهما اياه

بالاستبداد الأحمق واستغلال النفوذ ، واستولى على كل نصيبه في الامبراطورية • بل ذهب أوكتافيوس الى أكثر من ذلك فهو قد هاجم أنطونيوس علنا أمام الرومان وبخسه قدره في النصر •

وحين تبلغ كل هذه الوقائع أنطونيوس وهو في أثينا يزمجر ويهدر كالليث الغضوب • وأوكتافيا المسكينة حائرة بينه وبين أخيها أوكتافيوس ، تكذب هذا في أخيها وتعرض أن تسعى بينهما بالخير ويرضى أنطونيوس بعودتها الى روما قائلا : انه سيجيش الجيوش استعدادا لملاقاة أوكتافيوس الذى ثبت غدره وانه لساحقه سحقا مبينا • وهكذا تنطلق أوكتافيا الى روما ويعود أنطونيوس الى الاسكندرية •

ويأتى النبأ الى أوكتافيوس قيصر بأنهم قد توجوا كليوبترا أمام الملأ في سوق الاسكندرية ومعها أنطونيوس على عرشين من الذهب وأن أنطونيوس قد أعطى كليوبترا الولاية على مصر وتوجها ملكة مطلقة على سوريا السفلى وقبرص وليديا فيذيع أوكتافيوس هذا النبأ بين الرومان ويعد العدة لقتال أنطونيوس •

وحين تصل أوكتافيا بلاط أخيها لا يضيع أوكتافيوس وقتا لابلاغها بأن زوجها ليس في أثينا كما تتوهم بل هو يتمرغ عند قدمى صاحبته المصرية • فتصيح أوكتافيا المسكينة : يا لشقائى ! يا لشقائى !

وينتقل أوكتافيوس بجيشه في سرعة مذهلة ويرسل الى أنطونيوس رسله قائلا انه قادم بالبحر وانه يطلب أن ينازله بحرا •

ويقبل أنطونيوس هذا التحدى رغم ضعف قوته البحرية ورغم أن كل قوته مركزه في البر • وتعلن كليوبترا أنها ستشترك مع « الامبراطور » أنطونيوس في هذه المعركة

فهي معركة بلادها بمثل ماهي معركته . ويحاول أنيوباربوس أن يثنيها عن عزمها قائلا ان روما تشهد بمولاه وتروى أن غاها فوتينوس ووصيفاتها يديرون هـذه الحرب . ولـكن كليوبترا لا تتزعزع .

سيكون القتال بحرا وستخرج هي اليه بوصفها رئيس المملكة . ان أسـطولها من سـتين سـفينة لا يملك قيصر خيرا منها .

ويحـاول كانيديوس قائد جيش أنطونيوس أن يثني مولاه عن عزمه . ان سفن مصر ثقيلة ناقصة العدة وسفن قيصر خفيفة كاملة من كل وجه . ان الهزيمة فى آكتيـوم ستشيع الاضطراب في الجيش وهـو من المشـاة . ولـكن أنطونيوس لا يلقى بالا الى ما يقال .

وتقع الكارثة . ويلتحم الأسطولان فى معركة أكتيوم . وتتعادل الكفتان . وينتاب كليوبترا شبه جنون فتفر من المعركة فتتبعها سفن الأسطول المصرى . وحين يرى أنطونيوس سفينة الانطونياد تفر بكليوبترا من المعركة « يفر هو أيضا فى أوج الوطيس وراء صاحبته كأنه ذكر البط » . وبفرار أنطونيوس يتحطم أسطوله ويتحطم معـه شرف الجنـدى . ويتخلى عنه أكثر قواده بفيالقهم ، فيفر سكادوس الى اليونان . ويقرر كانيديوس الانضمام الى أوكتافيوس قيصر ، ولا يبقى الى جـوار أنطـونيوس الا أنيـوباربوس وقلة قليلة من الأوفياء .

أما أنطونيـوس فيدرك هول ما فعل ، ولا يعرف كيف يخفى وجهه من فرط احساسه بالعار ويجمع جنده ويعلن أنه واهبهم كنوزه فلينفضوا عمن انفض عن نفسه ، وهو سيمضى فى طريق لا يحتاج فيه معه الى صحبة أحد . وهل بعد اليأس الا الموت ؟ ولـكن جنـوده المخلصين يأبون الفـرار . انهم سيموتون مع قائدهم .

وتسعى كليوبترا الى أنطونيوس جاسرة الرأس خجلى ،

فيقول : « واها لى ! يا مصر أين المنتهى ؟ تأملى كيف أحجب عن بصرك عارى فانتبذ هذا المكان استرجع فيه ذكرى حياتى المحطمة وشرفى الذى غير ». وتقول كليوبترا : «..أى مولاى ! أى مولاى ! انى أطلب عفوك عن فرار سفائنى ، فما كنت أحسب أنك ستتبعنى » . فيجيبها أنطونيوس : «بل كنت تعلمين يا مصر حق العلم أن قلبى مشدود اليك بحبال شداد ، أتبعك أينما مضيت .. » وتنهمر دموع كليوبترا فيكفكف أنطونيوس دموعها قائلا : « لا تذرفى عبرة على ما كان فدمعة من دموعك تعدل كل ما أضعناه وكل ما غنم قيصر . هات قبلة منك ترد الى ما فقدت » .

ويوفد أنطونيوس ، هذا الذى كان يرسل الملوك رسلا ، مؤدب أولاده الى أوكتافيوس قيصر بعروضه وعروض كليوبترا وهى أن يتركه يعيش فى مصر أو فى أثينا كرجل عادى . أما كليوبترا فهى تطلب أن يبقى عرش مصر لذريتها . فيجيب أوكتافيوس . أما الملكة فلها ما تطلب أن ان طردت هذا الرومانى العاصى من ديار مصر أو أجهزت عليه وأما أنطونيوس فلن يسمع له التماسا .

وحين يأتى جواب قيصر : « الأمان لكليوبترا ان هى سلمت أنطونيوس » يثور أنطونيوس ثورة العاشق الغيور الذى يرى فى أوكتافيوس منافسا له على حب كليوبترا ، ويرسل اليه متحديا أن ينازله نزال رجل لرجل وسيف لسيف ، ولكن أوكتافيوس الذى أصبح سيد الدنيا يسخر طبعا من هذا العرض . ويوفد تابعه تيدياس الى كليوبترا ليغريها بالانضمام اليه بمعسول الوعود الكاذبة فتتظاهر كليوبترا بالاستجابة والخضوع . ان قيصر يعرض أن يكون درعها الواقى وسيفها البتار ، وهو يعلم أنها لا تحب أنطونيوس حقا فهو قد غلبها على أمرها نعم ، نعم . ان كل ما يقوله قيصر صحيح . هكذا تجيب كليوبترا .

ويسمع أينوباربوس هذا الكلام فيتمتم : « أى مولاى ، لقد غدوت كالسفينة التى تسربت من قاعها المياه ، ولابد

أن يتركك لتغرق وحدك • فحبيبة فؤادك قد هجرتك » •
ان عقله قد بدأ يثور على وفائه ، ولكن وفاءه قوى متين •

ويرى أنطونيوس الرسول تيدياس يقبل كليوبترا باسم قيصر ، فيستولى عليه هياج أعمى ويأمر بجلد الرسول ، وينهال عليها بأفظع السباب ، فهى عنده بغى تبيع نفسها لكل سيد جديد • وكليوبترا عليه صابرة حتى يعود اليه هدوء فتؤنبه فى رفق على شكوكه • ان حبها له جمرة فى قلبها لن يطفئها الا الموت •

ويتجدد الأمل فى نفس أنطونيوس فيعد العدة للمعركة الفاصلة الأخيرة • لقد جمع أشتات جيشه والتف حوله من بقى من قواده • والليلة عيد ميلاد كليوبترا ولن تعرف كليوبترا الكآبة فى عيد ميلادها • لتكن فى القصر وليمة من ولائم الاسكندرية تماما كولائم العهد الغابر • لا يزال هناك أمل • فى الصباح سيخرج بين ألف من رجاله ويقاتل معهم قتال الليوث • سيقاتل فى ضراوة • انه كالأسد العجوز الجريح ، والويل لمن تصدى لأسد عجوز جريح • هذا فى الصباح • أما الليلة فهى قصف وسمر •

وفى الصباح تلبس كليوبترا حبيبها درعه وعدة القتال ويتوادعان • ويخرج أنطونيوس الى رجاله فيجدهم أصلب ما يكون عزما • ويفتقد أينوباربوس فلا يجده ، ويعلم أنه هجره ومضى الى معسكر قيصر فيأمر تابعه أيروس أن يبعث اليه بمتاعه وأن يكتب اليه مودعا برقيق الكلام ويتمتم قائلا : واها لى ! ان محنتى قد أفسدت أوفياء الرجال » •

أما أينوباربوس الوفى فما أن يبلغ معسكر قيصر حتى يعضه الندم القاتل • وحين يجيئه الرسول بمتاعه تظلم الدنيا فى عينيه ويقول : « أى أنطونيوس ، لقد كافأت خيانتى بالذهب • فبماذا كنت تكافىء وفائى ؟ » ويهب أينوباربوس متاعه للرسول ، وينتحى مكانا قصيا ، وهناك يموت كمدا •

ويلتحم الجيشان ويقاتل أنطونيوس بين رجاله قتـال الجبـابرة وتحـدث المعجـزة ، فاذا بجيش قيصر يرتد الى معسكره ممزقا مدحورا ؟ واذا جيش أنطونيوس يسيطر على الموقف والأسطول يحمي ظهره • ولكن الأسطول لا يلبث أن يتمرد وينضم الى أسطول أوكتافيوس قيصر ، فتـدور عـلى أنطونيوس الدائرة ويفقد كل ما كسبه ، ثم يفقد كل شيء • وفى هيـاجه يلقى أنطـونيوس تبعة تمرد أسـطوله عـلى كليوبترا ، فيصيح : « لقد ضاع كل شيء • ان هذه المصرية السافلة قد خانتني ولقد استسلم أسـطولى للعدو • أيتهـا البغي التي تقلبت بين أحضان ثلاثة : ما باعنى لهذا الغلام الغرير الاك ، وليس يمقت قلبي سواك » •

●

وهكذا تنتهي صفحة مجد من أمجاد الـوغى ولم يبق لأنطونيوس الا حسامه يجهز به عـلى نفسـه فينجو من عار الأسر • وتسعى كليوبترا الى أنطونيوس لتعرف ما ألم به ، فتراه فى هياج شديد ، وتعلم أن هياجه لا يفيد معه كلام • فتعكف في محرابها مع وصيفتيها وترسل اليه الأغا مرديان ليقول انها قتلت نفسها لعل حزنه يقوده اليها •

ويأتيه مرديان قائلا : ان مولاته قد أدت ضريبة الموت، وكان آخر ما فاهت به شفتاها اسم أنطونيوس •

وتظلم الدنيا فى وجه أنطونيوس ويقول لعبده المعتق أيروس : « أى أيروس انزع الدرع عنى ، لقد انقضى يومنا الطويل وفرغنا من أثقاله ، وينبغي الآن أن نخلد الى النوم! ». لسوف يتبع مولاته التى عرفت سبيل الشرف فقالت لقيصر المنتصر : « ما قهـرتني وانما قهـرت نفسى » • ويطلب أنطونيوس الى أيروس أن يطعنه بسيفه فيرجو أيروس مولاه أن يعفيه من هذا الواجب الـكريه • ويذكره أنطونيـوس بقسمه يوم أعتقه أن يجهز عليه حين تأزف ساعة منيته • فيقول أيروس : اذن أدر عنى هذا المحيا النبيل الذي يفيض

بجلالة الآلهة ... » ، فيدير أنطونيوس وجهه . ولكن أيروس الوفى لا يقتل أنطونيوس بل يقتل نفسه .

وحين يرى أنطونيوس أن أيروس الباسل قد سبقه الى طريق الشرف يناجيه قائلا : « أى أيروس ، يا من علمت مولاك كيف يموت ، هأنذا أنتفع بعلمك » .

ثم يخر ساقطا على سيفه يهوى متخبطا فى دمائه .

وقبل أن يلفظ أنطونيوس الروح يأتيه من يقول ان كليوبترا لم تمت وانما ادعت الموت اشفاقا من غضبه ، فيطلب أن يحملوه اليها ليسلم الروح بين يديها . ويحمل الجند أنطونيوس الى كليوبترا فاذا هى متحصنة فى مقصورتها حتى لا تقع فى أسر قيصر ، وقد اعدت عدتها للساعة الرهيبة . وتهمس كليوبترا فى أذن حبيبها قائلة : « فما دام للنصل حد وللسم فعل وللأفعى ناب ، فلن يجعل منى قيصر الظافر الجوهرة التى تزين موكبه الملكى . انى فى خصن حصين : ولن تنتصر على زوجتك أوكتافيا ذات البصر الخفيض والفكر الهادىء اذ تتطلع الى بنظراتها الوديعة » .

وتفيض روح أنطونيوس . فتصرخ النسوة « وافجيعتاه! وافجيعتاه !» أما كليوبترا فتقول : «لقد هوى تاج العالم.. ولم يبق شىء جليل تحت القمر العابر السيار » .

ويأتيها ضابط من ضباط قيصر النبلاء فيسر اليها بما أضمره لها قيصر . انه ينوى أن يسوقها فى عجلته الحربية حين يعود الى روما فى موكب النصر ليعرضها بين غنائم حربه وشارات نصره على رعاع الرومان ، فتعلم كليوبترا أن هذه خاتمة المطاف .

ويأتون بالسلة وفيها الحيات بين أوراق التين . وتجلس كليوبترا على عرشها ، وتحمل اليها وصيفتاها شرميان وايراس عباءة الملك والتاج وأنفس الجواهر فتقول كليوبترا :

- كليوبترا : الى بعباءتى ، ضعوا تاجى على رأسى ، فقد هزتنى للخلد الأشواق لن تبل شفتى بعد اليوم خمر عناقيدك يا مصر · أرينى مهارتك يا آيراس الكريمة أرينى مهارتك · هيا عجلى · يخيل الى أن أنطونيوس يدعونى : انى أراه ينهض من بين الموتى ليحيى فعلتى النبيلة ·· أى زوجاه ، انى قادمة اليك يا زوجاه ، لسوف أثبت بشجاعتى انى زوج أنطونيوس هأنذا من نار وهواء · أما بقية عناصرى فانى أهبها للحياة السفلى · هل فرغتما ؟ تعالى اذن يا شرميان ، وأنت يا ايراس تعالى ، وخذا ما بقى فى شفتى من دفء الحياة · الوداع يا شرميان الكريمة ، الوداع الى الأبد يا أيراس !

وتقبل كليوبترا وصيفتيها ، فاذا ايراس تسقط جثة هامدة ، فقد سبقت مولاتها الى ضم الأفعى · وتمسك كليوبترا ثعبانا وتضمه الى صدرها وهى تقول :

كليوبترا : تعال يا رسول الموت الشقى وبنابك الفتاك حل فورا عقدة الحياة هذه التى لا يحل لها وثاق · اذن غضبك أيها المخلوق الشقى الغبى وأجهز على بسمك الزعاف · ليتك كنت تستطيع الكلام ! اذن لسمعتك تصف قيصر العظيم بأنه حمار لا يدرى من أمور السياسة شيئا !

شرميان : يا كوكب الشرق !

كليوبترا : صمتا ، آلا ترين على صدرى رضيعى يرضع ثدى أمه النائمة ؟

شرميان : ويلاه ، يا ويلاه !

كليوبترا : حلو كالبلسم ، رقيق كالنسيم، ناعم كأنفاس الهواء ، لبيك يا أنطونيوس !

وتموت كليوبترا ولم يفارقها النور الذى كان يسطع فى جبينها · وتحذو حذوها شرميان فتلحق بمولاتها ·

ويدخل قيصر مع رجاله فيدرك آن ملكة مصر مكرت به

وضيعت عليه نصره ولكن قيصر رغم هذا يقف خاشع الرأس أمام جلال الموت ويقول : « ما أنبل هذا الضعف ! ٠٠ انهـا تبدو كالنائمة وقد تبرجت تبرجا لا مزيد عليه ، وكأنهـا تصدت لأنطونيوس جديد ! ٠٠ لسـوف توارى الى جـوار حبيبها ، ولن تعرف الدنيا قبرا ضم آشهر منهما زوجا ٠٠ لسوف يشترك جيشنا فى هذا الجناز الحزين ، ثم يمضى من بعد ذلك آلى روما ٠ هيا يا دولا بيلا ، اجعل شريف المراسم تجلل هذا الحداد العظيم » ٠

ماكبث

وليم شكسبير

تدور حوادث هذه المأساة الخالدة في اسكتلندا في الزمان الغابر نحو سنة ١٠٠٠ ميلادية ، وأشخاصها هم دنكان ملك اسكتلندا وولداه مالكوم ودنالبين ثم قائدان مظفران في جيش الملك هما ماكبث وبانكو ثم لفيف من أشراف اسكتلندا وقادتها أهمهم ماكدف ولينوكس وروس وأنجوس والقائد سيوارد على رأس جيش انجلترا . أما النساء فهن الليدي ماكبث والليدي ماكدف وثلاث ساحرات مكرهن عظيم .

والقائدان المظفران ماكبث وبانكو عائدان الى مليكهما بعد اخماد ثورة عاتية في بعض أنحاء المملكة . فقد ثار النبيل ماكدونالد وشق عصا الطاعة على مليكه وقاد عليه المشاة والفرسان من أبناء الجزر الغربية ، وثار ملك النرويج كذلك وشق عصا الطاعة على دنكان ملك اسكتلندا ، فبعث اليهما الملك دنكان بقائده الشجاع ماكبث وأعوانه لتأديبهما فأبلى ماكبث أحسن البلاء .

وتأتي أنباء النصر الى بلاط الملك دنكان ، ولكن تأتي أيضا أنباء حزينة وهي أن ايرل كودور وهو شريف من أنبل نبلاء البلاد قد انضم الى ملك النرويج الثائر وقاتل تحت رايته لولا أن ماكبث زوج بلونا الهة الحرب ، قد خف اليه

وهزمه فى النزال · فلم يبق أمام ملك النرويج الا أن يبعث فى طلب الصلح وحين يبلغ نبأ خيانة كودور مسامع الملك دنكان يثور الملك ثورة عنيفة ويأمر باعدام هذا الخائن الذى خرج على وطنه ومليكه · وخلع لقبه ، وهو ايرل كودور أو سيدها ، على القائد المظفر المخلص للعرش والبلاد ماكبث جزاء له على حسن بلائه ·

ولكن البشر تفكر وتدبر والقدر يكيد ويمكر · فماكبث فى طريقه الى بلاط الملك وفى صحبته القائد بانكو رفيقه فى الجلاد · وفيما هم يجتازان الفلوات المفروشة بالأعشاب الشيطانية ، يتقدمهما قرع الطبول ، تعترض طريقهما ثلاث ساحرات اجتمعن وذهبن يجمجمن بلغة السحر ويرقصن فى حلقة ويدرن تسع لفات ·

ويذهل ماكبث وصاحبه بانكو حين يريان هؤلاء النسوة العجائز العجاف اللواتى التحين باللحى وما هن برجال ، وبرزت عظامهن من جلدهن وشذبت ثيابهن عن كل ما يعرف الناس فلا يدريان ان كان ما يريان إنسا من الانس أم رسلا من الجحيم · ويهيب ماكبث بالساحرات قائلا :

ماكبث : تكلمن يا هؤلاء ان كان لكن لسان ! من أنتن ؟

الساحرة الأولى : عاش ماكبث ، ايرل جلاميس !

الساحرة الثانية : عاش ماكبث ، ايرل كودور !

الساحرة الثالثة : عاش ماكبث ، ملكا بعد اليوم !

ويجفل ماكبث حين يسمع هذا الكلام العجيب الذى لا يدرى أيطرب له أم ترتعد له فرائصه · ويستوقف بانكو الساحرات يسألهن نبوءة من مثل ما تنبآن به لصاحبه ماكبث ان كان القدر يخبىء له غيبا · فاذا بالساحرات يهتفن الواحدة بعد الأخرى :

الساحرة الأولى : عاش بانكو !

الساحرة الثانية : عاش بانكو !

الساحرة الثالثة : عاش بانكو !

الساحرة الأولى : أقل من ماكبث وأعظم !

الساحرة الثانية : لا يعرف غبطته ، وهو مع ذلك أشد غبطة

الساحرة الثالثة : لسوف تنجب الملوك ، وان لم تكن ملكاً !
عاش ماكبث وعاش بانكو !

وتنصرف الساحرات بعد أن يلقين هذه الأحاجى على مسمع القائدين الكبيرين ، بل يتلاشين فى الهواء • أو يبتلعهن بطن الأرض ولا يتركن وراءهن أثرا ، فللأرض فقاقيع كما أن للماء فقاقيع ، وهن من فقاقيع الأرض كما يقول بانكو •

ويقف ماكبث حائرا مضطربا ، انه يعلم أنه بموت النبيل سينيل قد آل اليه لقب ايرل جلاميس • ولكنه لا يفهم كيف يؤول اليه لقب ايرل كودور وحامل اللقب حى يرزق • أما عرش الملوك فهو يتجاوز النهى • ففى البلاد ملك عظيم هو مولاه دنكان الذى أخلص ماكبث له الولاء ، ولدنكان سبط ملكى هما الأمير مالكوم والأمير دونالبين ، والعرش حق لهما يورث •

وفيما هما يتجادلان فى أمر هذه الطلاسم يبلغهما النبيلان روس وأنجوس رسولين من عند الملك ، وقد أوفدهما دنكان لاستقبال ماكبث المظفر وتحيته قبل وصوله الى قوريس ، مقر البلاط • ويشيد روس بأمجاد ماكبث فى ساحة القتال وبغبطة الملك التى لا تحد بجنود ، ويزف اليه البشرى التى حمله اياها الملك ، وهى أنه قد خلع عليه لقب ايرل كودور •

ويحسب ماكبث وقد تملكه العجب أن روس يخلع عليه رياش غيره ، فهو يعلم أن ايرل كودور لايزال حيا يرزق ولقبه له مادام حيا ، ولكن روس يشرح له الأمر وهو أن ايرل كودور متهم بالخيانة العظمى وأن الملك دنكان قد جرده من

لقبه وأمر باعدامه . وهنا يشتد اضطراب ماكبث ويناجى نفسه : «سيد جلاميس وسيد كودور، وما بقى كان أعظم!» ثم يميل على صاحبه بانكو قائلا : « ألا تأمل أن يغدو بنوك ملوكا ، وقد وعدنك بذلك من وعدننى بهذا اللقب ؟ » فيجيبه بانكو قائلا : « لو آمنت بهذا لدفعك ذلك الى طلب التاج مع لقب كودور .. ولكن هذه غرائب فكثيرا ما تنبئنا قوى الظلام بالحقائق لتقودنا الى دمارنا ، وهى تغوينا بالسفاسف الصادقة لتخوننا فى خطير الأمور » .

وهكذا يقف ماكبث حائرا فقد أسقط فى يده بين هذه المعميات والنوازع المتلاطمة ، فهو لا يدرى ان كان ما سمع خيرا أم شرا ولا يجد الهدى الى الطريق السوى . ان القدر قد صدق الوعد فبدت لماكبث تباشير المجد العظيم ، ولكنه رغم ذلك ، وبعلة ذلك ، قد غدا يستسلم لرؤى فظيعة من هولها تشيب الرؤوس . رؤى فيها الدماء والجريمة والخيانة . ويتحسس ماكبث أضلاعه التى يدق تحتها قلبه دقا عنيفا كأنه يريد أن ينخلع من صدره ، ويتوه هنيهة فى بحران ، ويهنس معنفا نفسه على خواطره الاجرامية : « ان أراد القدر أن يجعل منى ملكا فلعله يتوجنى دون أن أحرك ساكنا » ! ويضيف مناجيا نفسه : « فليكن ما يكون » ! ثم ينطلق مع صاحبه بانكو فى طريقهما الى فوريس حيث القصر الملكى .

وفى القصر الملكى يجلس دنكان ومن حوله نبلاؤه وحاشيته ويستقبل نبأ اعدام ايرل كودور ، فيعلم أن هذا الخارج الخائن قد مات ميتة الشجعان ، ولقى حتفه رافع الرأس غير مبال بمصيره الأسيف .

وحين يمثل ماكبث ودنكان فى حضرته يرحب بهما أيما ترحيب ، ويعانق بانكو مكافأة له على حسن بلائه ، ولكنه يختص ماكبث بكريم الثناء والاكبار ، ويعلن على رجال البلاط أنه قد تخير ولده مالكوم ليكون ولى عهد المملكة الذى يؤول اليه العرش من بعده وأنه خلع عليه

لقب أمير كامبرلاند تشريفا لمقــامه ، ولــكن الملك دنكان لا يكرم ولده وحده ، وهو احتفاء بهذه المناسبة قد قرر أن يشرف قائده المخلص الباســل ماكبث فيزوره فى قلعتـــه بانفرنيس •

ويقلب ماكبث الأمر على جميع وجوهه • انه غدا يرى فى مالكوم ، أمير كمبرلاند وولى عهد البلد حجر عثرة جديد فى طريقــه الى العرش • ثم ان القدر ذا الأفاعيل العجيبة يسوق الملك دنكان الى قلعته فى أنفرنيس ، فكأنما هو يسعى الى حتفه بظلفه ، ويل لك من الساحرات يا ماكبث، ان بينك وبين التاج بحارا من الدماء •

وفى قلعة أنفرنيس تذرع ليدى ماكبث أرض غرفتها جيئة وذهوبا وهى تتلو رسالة زوجهــا اليها وفى عينيهــا بريق غريب • هــو يقــول « ان الســاحرات قابلننى يوم انتصارى ، وقد استيقنت بالدليل القاطع أن علمهن يفوق علم البشر » كل شىء من وعدهن تحقق ، ولم يبق الا شىء واحد هو الذى يتوج كل شىء : الملك •

لسوف ينال ماكبث كل ما وعدته به الأقدار • ولــكن الليدى ماكبث تعلم أن هناك حائلا واحدا دون بلوغ زوجها ما يتمناه قلبه وقلبها ، وذلك هــو ماكبث نفســه أو نفس ماكبث المنطوية على الخير ، وهى تقول فى ذلك : « لســوف تنال كل ما وعدت به • ومع ذلك فانى أخشى سجية نفسك ، فهى تفيض بلبان الرحمة فترتد عن أقصر طريق• انك تطلب المجد وقلبك لا يخلو من الطموح ، ولكنه خال من الشر الذى ينبغى أن يصاحب الطموح : آنت تطلب الغــاية الســامية بالوسيلة السامية ، ولا ترضى بختل أو خداع ، ولكنك مع ذلك تطلب الفوز الآثم » •

نعم • وهذا هو ماكبث فى كلمات •

ويدخل على ليدى ماكبث رســول يعلن قدوم الملك فى المساء لينزل ضيفا على آل ماكبث• ويلتهب خيال ليدى ماكبث

حين تسمع هـذا النبأ ، وتراودها أفظع الأفكار • وما أن ينصرف الرسول حتى تصيح قائلة : « ان الغراب الأسحم نفسه ينعب نعيبا غليظا وهو يعلن قدوم دنكان الى حتفه تحت أسوار قلعتى • أنجدينى أيتها الشياطين التى تذكى فى النفس خواطر الجريمة • جردينى من أنوثتى فورا ، واملئينى من قمة رأسى الى أخمص القدم بالقسوة الضارية التى لا تعدلها قسوة ، اجعلى الدم يتكاثف فى عروقى ، وسدى سبيل الندم فى شعاب القلب ، حتى لا تثنينى وخزات الضمير عن غايتى الشريرة أو تحول دون وقوع الواقعة ، تعالى الى ثديى ، أيتها الشياطين الفاتكة ، أينما سعيت فى عناصرك الخفية لتذكى الشر فى جنبات الطبيعة ، وضعى السم مكان اللبان فى ضرع الأمومة ! وأنت أيها الليل الأسحم ، تعال وتحجب بأصفق الأكفان من دخان الجحيم حتى لا يرى خنجرى البتار الجرح الذى يمزقه ، أو تطل السماء من ستار الظلام صائحة : ارجعى ! ارجعى » !

ويقبل عليها ماكبث وهى فى هذا الهياج الشديد ، فتعلم منه أن الملك دنكان لن يطول مقامه فى أنفرنيس ، فهو سيصل فى المساء ويرحل فى الغد ، فتقول ان شمس الغد لن تطلع أبدا على دنكان • ويروعها فى زوجها اضطرابه العظيم ، فهو شاحب الوجه تنم طلعته عما يدور فى رأسه من أفكار مظلمة فتهدىء من روعه • لابد أن يلبس ماكبث قناع المنافقين حتى لا يفتضح أمره ، فيتظاهر بالغبطة ويفتعل السرور ، أو كما تقول ليدى ماكبث لزوجها : « فلتبد كالزهرة البريئة ، ولتكن كالأفعى الكامنة تحتها » - فهذا هو سبيله الوحيد لقضاء مآربه •

ويقبل الملك فترحب به ليدى ماكبث بمعسول الكلام ، ويغمرها بعبارات التكريم ، أما ماكبث فهو منزو يقلب أفكاره السوداء ويتدبر عواقب اغتياله الملك • ان دنكان يقيه منه درعان أنه مليكه وبعض رحمه فهو يدين له بالولاء والوفاء ، وهو ضيفه المقيم فى حمايته فكيف يغتاله وهو

الذى ينبغى أن يــرد عنــه عداه • ثم ان دنكان ملك وديع فاضل ان أرادت يد أن تمس قداسته بسوء ارتدت الى نحر صاحبها • كلا • ان ماكبث لن يقوى على اغتيال ، ومن الخير أن يعدل عن هذه الفكرة الشنعاء •

وحين ترى منه ليدى ماكبث هذا التردد تعنفه تعنيفــا شديدا وتشحذ عزيمته بقولها انهــا لو أقسمت عــلى قتــل رضيعها لنزعت ضرعها من فمه الصغير الضاحك فى وجهها وهشمت بقبضتها رأسه تهشيما •

انها قد أعدت خطة بارعة لاغتيال الملك دنكان • فحين يأوى الملك الى فراشه ، فانها ستثمل حارسيه بكئوس الراح حتى يفقدا الوعى • وبعد أن ينفذ ماكبث الى مخدع الملك ويجهز عليه بخناجر حارسيه المخمورين يلطخ بدمه ثيابهما ، وبهذا تنصرف اليهما الأنظار ويحسب الجميع أنهما قاتلا الملك •

●

وفى تلك الليلة الليلاء تزمزم الريح وتضطرب عناصر الطبيعة وتحتجب نجوم السماء وينعب البوم بشر مستطير • ان الملك قد أوى الى فراشه عند منتصف الليل • وكل ما فى القلعة ساكن ، ولكنه السكون الخانق الرهيب فكأنما تمشى فى جنبات القلعة روح خانقة تقبض الأنفاس • ويضطرب بانكو فى القاعة ويخامره احساس قوى بأن جريمة فاجعــة توشك أن ترتكب ، ويسأل ولده فليانس أن يناوله سيفه ، ويقبع على انتظار شىء مجهول •

ويقبــل عليهما ماكبث وهــو فى ذهــول أو ما يشــبه الذهــول • ويحــدثه بانكو بما رآه فى الأحــلام من آثار الساحرات ، ولكن ماكبث يحب أن يرجىء الحديث ويعــد بانكو بغامض الوعود ان هو قف الى جانبه ثم يتمنى لبانكو النوم الهنىء ، فينصرف بانكو وولده فليانس الى مخدعهما •

وحين ينفرد ماكبث بنفسه تشتد وساوسه ويذهب يحلق فى الفضاء كأنه يبصر خنجرا سابحا فى الهواء مقبضه متجه اليه ، فيبادر اليه ليقبض عليه فاذا به يقبض على فراغ • ان رأسه محموم تتصاعد فيه الأبخرة وتملؤه بالأضغاث والأوهام فيخيل اليه أنه يسمع عواء ذئب بعيد• ويسمع ماكبث رنين أجراس فيعلم أن هذه هى الاشارةالمتفق عليها فينطلق لأداء مهمته •

أما ليدى ماكبث فقد قامت بنصيبها فى هذا الأمر فأثملت الحارسين ودست لهما المخدر فى الشراب امعانا فى الاحتياط ، بل لقد أوشكت آن تدب الى مخدع الملك وتجهز عليه بيدها لولا أن هيئة الملك النائم بدت فى عينها كهيئة أبيها • وهى الآن فى القاعة تنتظر عودة زوجها •

ويعود ماكبث وقد فرغ من مهمته • ولكنه يعود فى اضطراب عظيم • ويخيل اليه أنه يسمع صوتا يهتف : «لن تنام بعد اليوم يا ماكبث ! لقد قتل ماكبث النوم » • نعم : «لن تنام بعد اليوم يا ماكبث» ، هذا هو الصوت الذى ترددت أصداؤه من جميع جنبات القلعة ، لن تنام بعد اليوم يا ماكبث !

وتهدىء ليدى ماكبث من روعه وتذكره آن يغسل آثار الدماء التى اصطبغت بها كفاه •

لقد نسى ماكبث فى اضطرابه أن يضع الخناجر الى جوار الحارسين النائمين وأن يلطخ بالدم ثيابهما •

ان ماكبث يخاف أن يعود أو آن يقترب من مكان الجريمة • ولكن ليدى ماكبث لا تخاف • فهى تأخذ منه الخناجر وتنطلق بها لتتم الخطة الموضوعة ثم تعود وقد اصطبغت راحتاها بالدماء • ويمضى ماكبث وزوجه الى غرفتهما حتى لا يؤخذا على غرة وهما فى كامل الثياب فتحوم حولهما الشكوك •

ويطرق الباب طارق ملح ليوقظ النائمين واذا به القائد ماكدف ومعه النبيل لينوكس • وقد جاء بأمر من مولاه الملك دنكان ليوقظه قبل أن تظهر تباشير الفجر تأهبا للرحيل • ويلتمس ماكدف مخدع مولاه ولكنه سرعان مايعود صائحا : « يا للشناعة ! يا للشناعة ! يا للشناعة ! سفاح أثيم سفك دم الملك وأهرق سره الالهى• لقد استيقظ ماكبث فاستيقظ يا مالكوم ! استيقظ يا دونالبين ! وأنت يا بانكو استيقظ ! دقوا الأجراس ، وانفخوا فى الأبواق ! أيقظوا كل من فى القلعة » •

وينطلق ماكبث ولينوكس الى مخدع الملك حيث الحارسان المخموران نائمان • ان الأمر جلى • انما قتل الملك حارساه وتصطنع ليدى ماكبث الاغماء ويصطنع ماكبث الانفعال الشديد وينهال على الحارسين طعنا وتمزيقا حتى يجهز عليهما وبهذا يمحو الدليل الوحيد الذى كان يمكن ان يشهد عليه وعلى زوجه •

ولكن ماكبث يخطىء فى هذا الحسبان فولى العهد مالكوم وأخوه دونالبين قد أحسا هما نائمين فى جناح الملك بشىء مما كان يجرى • انهما الآن فى كمين ، وكلمة صدق واحدة توجه الأنظار الى رب البيت كفيلة بأن يكون فيها القضاء المبرم عليهما •

وهكذا يلزم مالكوم ودونالبين الصمت العميق حتى ينجوا من قبضة ماكبث • لابد اذن من الفرار • ويتواصى الأخوان سرا أن يفر أحدهما الى انجلترا والآخر الى أيرلندا تأكيدا للأمان ، ويختفيان فى اعجاز الليل عن الأبصار •

وبانكو ؟ انه مشتبه ، بل هو على يقين ، ولكنه لا ينبس بكلمة •

أما وقد فر ولدا الملك ، فلم يبق الا أن يؤول العرش الى ماكبث ، ايرل كودور ، أقوى الأقوياء وثالث رجل فى المملكة • وهكذا توج ماكبث «فى سكون» ملكا على اسكتلندا

وتوجت ليدى ماكبث ملكة عليها بين همس الهامسين ورهبة الراهبين ٠

ويقيم ماكبث ملكه من القصر الملكى فى فوريس حاضرة ملك دنكان العظيم ٠ أما بانكو فهو يخفى من الناس ما يعلم ولكنه لا يحجب علمه عن نفسه الهاجسة ، وهو يناجى نفسه قائلا : « ان نبوءة الساحرات قد صدقت كلها على ماكبث ، قد اشترى ملكه بالخيانة ٠ ولكن ألم تعده الساحرات أيضا بأن الملك سينتقل الى سلالته ؟ فلينتظر اذن فلعل فى المستقبل أملا له ولبنيه » ٠

أما ماكبث فهو مثله يتوجس ويترقب ٠ فاذا كانت نبوءة الساحرات قد صدقت عليه ، فماذا يمنع أن تصدق نبوءتها عن بانكو وبنيه ؟ وهل من سبيل الى تغيير مجرى القدر ؟ نعم ٠ جريمة أخرى ٠ لابد من ازالة بانكو وولده فليانس من الوجود ، ففيهما يكمن الخطر على عرش ماكبث بل وعلى حياته ٠ وهل خان ماكبث ملكه ولوث نفسه بالدماء جسدا وروحا من أجل بانكو وبنيه ؟ كلا ٠ ان عقله المسموم لن يهدأ ما بقيا على قيد الحياة ٠

وهكذا يدبر ماكبث لبانكو وفليانس كمينا عند مدخل القصر ٠ فهما منطلقان بعد العصر على ظهور الخيل ولن يعودا الا فى المساء ليشهدا المأدبة العظيمة التى يقيمها ماكبث فى تلك الليلة ٠ ويعهد ماكبث بهذه المهمة لثلاثة من القتلة السفاحين لهم فى بانكو غرض قديم وفى جنح الليل يعود بانكو وفليانس حاملا مشعلا ، وبغيتهما وليمة الملك ماكبث ٠ وما أن يقتربا من القصر حتى ينقض عليهما القتلة فيصرعوا بانكو بخناجرهم ولكن فليانس يتمكن من الفرار ٠

ويجلس الضيوف النبلاء من حول المائدة فى انتظار بانكو ٠ أما ماكبث فهو قلق ينتظر شيئا آخر ، ينتظر كلمة تقول ان بانكو لن يعود ٠ وبالباب يقف القتلة فيخرج اليهم ماكبث ومنهم يعلم بموت بانكو وبفرار فليانس ، فلا يدرى

أيطرب أم يحزن ، ويعود الى أضيافه متكلفا البشر متحدثا بأمجاد بانكو هذا الغائب الذى سيطول غيابه ٠

ويدخل شبح بانكو ويجلس فى مكان ماكبث ٠ وينتاب ماكبث هياج شديد ويهذى هذيانا يلفت أنظار الحاضرين٠ انهم يرون مقعد الملك فارغا ينتظره ، والملك يرى بانكو قد حل فيه ثم ينصرف الشبح ويهدأ روع ماكبث ويعتذر للحاضرين عما انتابه من وعكة غريبة ويطلب الى ضيوفه أن يشربوا نخب بانكو صديقه الصدوق ، وما آن يدنو من مقعده حتى يعود شبح بانكو يخايله من مقعده الملكى فيمعن فى هذيانه الذى لا يفهم منه أحد شيئا ٠ انه يراه ! انه يراه ! ان يده بريئة من دمه ! وحين يستفسر النبلاء عن الخطب تصرفهم الملكة قائلة ان جلالة الملك ماكبث محموم ومن الخير أن يترك لينقه من وعكته ٠

●

وتشتد العلة على ماكبث ، فيرى فى فرار فليانس نذيرا بقرب تحقق نبوءة الساحرات ٠ ويشك فى كل من حوله من نبلاء البلاد فيدس فى كل بيت خادما يتجسس له على سادته٠ وينطلق الى الفلوات باحثا عن الساحرات الثلاث ليسألهن عن المصير ٠ وحين يبلغ ماكبث كهف الساحرات يكرمن وفادة هذا البطل العظيم الذى غدا وحشا ضاريا يسبح فى برك من الدماء ، ويقرأن له الغيب على خير ما يبتغى فيطمئن قلبه ٠ ويستحضرن له شبحا ينذره وسط قصف الرعود قائلا : « أى ماكبث ! الحذار من ماكدف ! » ثم يستحضرن له شبحا ثانيا يقول : « خض فى الدماء ! كن باسلا ! كن حازما ! واضحك مستهزئا من قوةالبشر ، فلن يمس ماكبث بسوء رجل ولدته امرأة » ! ثم يستحضرن له شبحا ثالثا يقول : « ولن يقهر ماكبث حتى تنتقل غابة بيرنام العظيمة الى تل دنسنين العالى لتحاربه » ! ٠

ويستفسر ماكبث عن مآل العرش وهل لبنى بانكو فيه نصيب ٠ وترده الساحرات عن سؤاله فيلحف فيه ٠ وعندئذ يستحضرن أمامه موكبا فيه ثمانية ملوك ، يظهر كل منهم

بعد صاحبه · ويعلم ماكبث أن المستقبل لبنى بانكو فيلعن اليوم الذى شاهد فيه هذه الرؤيا ·

ولكن يعود ماكبث الى قصره وقد عادت الى قلبه السكينة · انه رجل لا يقهر ، هكذا قالت الأشباح · ألم تقل ان ماكبث لن يقهره رجل ولدته امرأة ؟ ألم تقل ان هزيمته لن تكون الا اذا تحركت الغابات وارتقت التلال وهو أمر محال ؟ فليتآمر من يريد أن يتآمر ، فهو فى أمان بعد أن يفتك بالقائد ماكدف الذى حذرته منه الأشباح ·

ويوفد ماكبث الى بيت ماكدف نفرا من الجناة ليجهزوا عليه وعلى آله ولكن ماكدف الذى كان يتوجس خيفة من ماكبث الغاضب عليه يفر الى انجلترا حيث يحتمى بملكها وبمولاه مالكوم سيد اسكتلندا الشرعى · وحين لا يجد الجناة بغيتهم المنشودة يفتكون بليدى ماكدف وصغارها فتكا شنيعا ·

وفى انجلترا يلتقى ماكدف بمالكوم ، فيعلم منه أن ادوارد ملك انجلترا يجهزه بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل تحت امرة القائد سيوارد ليسترد به عرش آبائه ويضع حدا لحكم الطاغية ماكبث ·

●

ويتحصن ماكبث فى قصر دنسينين الذى ينتقل اليه برجاله وبلاطه كما تنتقل اليه ليدى ماكبث · ويعلم ماكبث أن الخطر عليه من الخارج يستفحل يوما بعد يوم ، فدولته توشك أن تجتاحها فتنة لكثرة ما يتهامس المتهامسون عن جرائم الطاغية ماكبث وانقسام النبلاء عليه سرا ان لم تكن جهرا · ولكنه رغم ذلك يقبض على أعنة الأمور بيد من حديد وهو مطمئن البال الى قوته التى لا تقهر ·

ولكن يقض مضجعه ما آلت اليه حال زوجه الملكة ، أو ليدى ماكبث ، فهى تنهض كل ليلة من فراشها وتجوس فى منامها جنبات القصر حاملة شمعدانا وعيناها مفتوحتان وتتوقف بين الحين والحين لتفرك يديها كأنها تغسلهما لتزيل عنهما الدماء ، وتحدث نفسها بصوت مسموع · ويعودها

طبيب ليكشف علتها فيراها على هذا الحال الأسيف ويسمعها تقول وهي تغسل يديها « اختفى أيتها البقعة اللعينة ! قلت اختفى ! واحدة ، اثنتين · لقد جاء وقت الانجاز · ان الجحيم معتم ، ويحك ! أتخاف وأنت جندى ! » ثم تعود الى يديها وتقول : لا تزال فيهما رائحة الدماء · واها ! واها ! واها ! فلن تعطر هذه اليد الصغيرة كل الطيوب العربية » · ثم تعود الى زوجها وتقول «اغسل يديك والبس رداء النوم· دع عنك هذا الشحوب · أعود فأقول لك ان بانكو فى قبره ولن ينهض من بين الأموات » · ثم تمضى الى فراشها ·

ويدرك الطبيب أن ما بها علة ليس لها من شفاء ·

ويقترب جيش مالكوم وعلى رأسه سيوارد وماكدف ويعسكر قرب دنسنين عند غابة بيرنام · ويكثر الاشتباك بينهم وبين رجال ماكبث ويفر من رجاله كثيرون ولكن ماكبث لا يعبأ بشيء مما يحدث فهو يعلم أنه لن يقهره رجل ولدته امرأة كما قالت الأشباح ولن ينهزم الا اذا تحركت الغابات·

ولكن ماكبث لا يعلم أن مالكوم قد أمر جنوده أن يجتثوا الأغصان من غابة بيرنام وأن يحمل كل منهم غصنا يستخفى وراءه تضليلا للعدو عن عددهم ·

وتكون هذه بداية النهاية ، فتتواتر على ماكبث الخطوب· ويأتيه من يقول ان جيش مالكوم على الأبواب ، فيطلب دروعه وسلاحه ويتأهب للقتال ، وفيما هو يعد عدته يسمع صياح النسوة فى القصر ويأتيه من يقول ان ليدى ماكبث قد ماتت ، فتغلبه الأشجان ويرثيها قائلا :

« كان ينبغى أن تموت بعد اليوم · فلو فعلت لأمهلتنا لنقول : ماتت الملكة ! هكذا يزحف الغد ثم الغد ثم الغد بهذا الخطو الوئيد من يوم الى يوم حتى آخر مقطع فى سجل الزمن · وكل أمس مضى أنار للحمقى طريقهم الى تراب الموت · انطفئى ، أيتها الشمعة الهزيلة ، انطفئى ، فما الحياة الا ظل يمشى ، وممثل يختال على المسرح ويتألم

وهو يؤدى دوره ، ثم لا يعود يسمعه أحد • انها قصة يرويها أبله ، كلها صخب وهياج ، ولكن مالها مغزى » •

وهكذا تنتقل غابة بيرنام الى دنسنين وترتقى التل العالى لتحاصر القصر فيسقط القصر كما جاء فى النبوءة •

ولكن من كان مثل ما كبث لا يفر ولو بقى وحده فى النزال • ويأتيه الفتى سيوارد بن سيوارد قائد الجيش ويتحداه فيصرعه ماكبث ، وبعد سيوارد الابن يأتى القائد ماكدف وينازل الطاغية • ان ماكدف يأبى أن يلتحم جيش بجيش حقنا لدماء الجنود المساكين ، وهو يهيب بماكبث أن يخرج لمبارزته • ويلتحم الرجلان • وينذر ماكبث غريمه بمقالة الأشباح انه لم يقدر لرجل ولدته امرأة أن يقهره • ولكن ماكدف يجيبه وهو يثخنه بالجراح : حق ما قالته الأشباح فانتظر منيتك !

فماكدف لم تلده أمه وانما شقت بطنها لاخراجه حين تعسرت ولادته •

ويخر ماكبث مجندلا بسيف ماكدف كما جاء فى النبوءة ، ويحز ماكدف رأسه ويحملها الى مالكوم الذى جلس على عرش أبيه •

روميو وجولييت

وليم شكسبير

ايطاليا أيام عهد الاقطاع : عهد الأشراف والنبــلاء فى العصور الوسطى ، كل مدينة زاهرة فيها دولة مستقلة ذات سـيادة ولى عليهــا دوق أو أمير · وفيرونا مدينــة زاهرة تحكمها الأسر الزاهرة فى كنف أميرها الرشيد · ولــكن بين هذه الأسر أسرتين منأكرم آل فيرونا محتدا وأوسعهم جاها قد استحكم بينهما عداء تقليدى موروث آبا عن جد ، فجعلا من هذه المدينة الآمنة مسرحا للضغائن والأحقــاد ، وجعلا من شوارعها ونواديها مسرحا للمبارزات الدامية والاشتباكات المسلحة حتى ضج أهل المدينة وضاق أميرها ذرعا باختلال النظام وتحدى القوانين ·

هاتان هما أسرة كابيوليت وأسرة مونتاجيو · فلا يذكر اسم مونتاجيو أمام آل كابيوليت حتى ينتفضوا غضبا وتمتد أيديهم الى مقابض السيوف ، ولا يذكر اسم كابيوليت أمام آل مونتاجيو حتى ينتابهم هياج دموى كأنهم الثيرانالهائجة ·

ولكن يشاء القدر أن تنبت وسط هذه الأحقاد القديمة المتأججة براعم الحب فى قلبين يافعين طاهرين ، هما قلب الفتى روميو ولد مانتاجيو الشيخ عميد أسرته · ، وقلب الفتاة جولييت بنت كابيوليت العجوز عميد أسرته ، ويأبى

الشباب الغض البرىء أن تخضع شريعة الحب لشريعة الحقد الأعمى ، وتندلع جذوة الحب فى قلوب الأبناء وتندلع جذوة الحقد فى قلوب الآباء ، فتآكل جذوة الحقد جذوة الحب ، وتسير أشباح الضغينة البلهاء على أجداث العاشقين • ولكن هول الفجيعة يطهر القلوب الحاقدة ويصفى النفوس من السخائم السوداء ، فلا يسدل الستار الا وقد تصافح الأبوان الحزينان فى مأتم الحب وتعاهدا على تخليد هذا الغرام الفاجع الذى جرت سيرته بين الناس مجرى الأمثال •

●

وفى مجتمع النبلاء والأشراف لا تقف الضغائن والحزازات بين السادة بل تنتقل الى الخدم والأتباع والأصدقاء • لهذا نرى الخادمين سمسون وجريجورى التابعين لآل كابيوليت يذرعان ميدانا من ميادين فيرونا مدججين بالسلاح وهما يختالان عجبا ويضمران التحرش بخدم آل مانتاجيو المقبلين فى الطريق ، بل ويضمران الايقاع بخادمات آل مانتاجيو كأنهن سبايا تستباح •

ويعترض طريقهما الخادمان أبراهام وبلثازار وهما من أتباع مونتاجيو يحملان ما يحمله خدم كابوليت من بغض ورغبة فى الثأر • وسرعان ما يشتبك الطرفان ، فيجرد كل حسامه ، فسمسون يهين جريجورى باشارة من أصبعه ، وجريجورى لا يسكت على اهانة • وفيما هما ملتحمان يقبل عليهما الفتى النبيل بنفوليو صديق روميو الصدوق ، ويجرد عليهما سيفه ويأمرهما بالكف عن القتال ، بل ويجردهما من السلاح ، فالنبيل بنفوليو رغم ولائه لصديقه روميو فتى عاقل لا يحب أن تكون فيرونا مرتعا لهذه المشاحنات الصبيانية •

ويقبل عليهم الفتى تيبالت ابن أخ السيدة كابيوليت وابن خال بنتها جولييت • ولكن الفتى تيبالت على العكس من بنفوليو فتى غضوب دموى الطباع يتحسس سلاحه فى كل مناسبة • ويعز على تيبالت الغضوب أن يرى بنفوليو وقد

شرع سيفه بين الخادمين المتخاصمين ، ويحسب أنه يريد شرا ، فيزجره زجرا عنيفا ويتحداه أن يبارزه ، وهكذا يقتتل النبيلان تيبالت وبنفوليو بعد أن كان الامر قاصرا على الخدم • وسرعان ما ينضم الى كل جماعة من اقرباته وأنصاره ويشتركون في العراك فاذا بميدان فيرونا غدا كأنه ميدان قتال • ولا يلبث كابيوليت الشيخ أن يجد طريقه الى الميدان ، وحين يلمح مونتاجيو العجوز قادما يزأر قائلا : « الىبسيفي ! الى بسيفي ! » ويوشك كابيوليت ومونتاجيو أن يلتحما لولا أن الأمير أسكال ، أمير فيرونا ، يبلغ الميدان مع حاشيته ويجد جمعا من المواطنين يتصايحون في اشمئزاز من سلوك هاتين الأسرتين اللتين تعربدان بالخصومة في أرجاء المدينة ، ويفرق الأميرين المتخاصمين في غضب شديد مزمجرا : « أى كابيوليت العجوز ، وأنت يا مونتاجيو ، هذه ثالث مرة تزعجان فيها شوارعنا الهادئة ، وتجعلان المواطنين الأصلاء في فيرونا يتخلون عن جمال وقارهم وتشرع أيديهم الهرمة السيوف القديمة التى أصدأها السلام ليفرقوا جموعكم التى أتلفها الحقد • انى لمنذركم اذا عدتم الى تعكير أمن شوارعنا مرة أخرى أن أجعل من حياتكم ثمنا لأمن المدينة • ويأمر الأمير كل رعيته بالانصراف ما خلا كابيوليت ومونتاجيو فهو يأمرهما باللحاق به في قصره ليقضى بينهما •

وحين ينصرف الأمير يستفسر مونتاجيو عما جدد هذا العراك فيشرح له بنفوليو كل ما جرى • وتستفسر زوجة الليدى مونتاجيو عن ولدها روميو ، وهى سعيدة بأنه لم يشترك في العراك ، فيجيبها بنفوليو بأن روميو قد استبد به الحزن فانطلق في الفجر قبلما تطل ذكاء من نافذة الشرق الذهبية وخرج الى الأحراش يلتمس العزلة ، وحين رآه بنفوليو على هذه الحالة هم بالسعى اليه ولكن روميو فر منه وتوارى بين كثيف الأشجار •

ويضيف مونتاجيو أن روميو طالما رآه الناس في تلك

الأدغال كاسف البـال يصـعد الزفرات ويروى العشب فى الفجر بعبرات من ندى الفجر ، فما أن تبزغ الشـمس حتى يتسلل الى مخدعه كأنه جفلان من نورها الوضاء ، وهنـاك ينطوى على نفسه ويذبل كأنه البرعم اليانع تنخـره دودة قاتلة ، قبل أن تتفتح أوراقه ويهب جمـاله الى الشـمس • ولكن روميو لا يفصح عما به من داء ، ولو قد عرف داءه لما بخل عليه بالدواء •

وفيما هم يتحدثون يقبل عليهم روميو من بعيد فينصرف مونتاجيو وزوجته ليتركا بنفوليو وحده مع ابن عمه وصديقه الصدوق روميو ، هما يرجوان أن يبـوح روميو لبنفوليـو بسر أحزانه •

●

وبعـد مداورات يعرف بنفوليو من روميو أنه عاشـق متيم بأجمل الجميلات فى فيرونا وهى العـذراء روزالين ، وأنه شقى بحبها لأن روزالين لا تسـتجيب لنجـوى فؤاده ، وسهم كيوبيد لا ينفذ الى قلبها ، وهى لا تلقى الى الغرام بالا كأنها ربة العفاف ديانا تصون عذارتها من العشاق والأزواج أجمعين ، فهى قد أقسـمت أن تعيش عـذراء وأن تمـوت عذراء ، فينطوى كل هذا الجمال فى التراب ولا يبقى عـلى وجه الأرض منه أثر ولا ثمر • وهذا هو سر شقائه ومصدر عذابه ، ولكنه رغم ذلك سعيد بهذا الشقاء يستعذب العذاب ، فجحيم الحب جنة المحبين •

ويهون بنفوليو عليه الأمر قائلا ان شقاءه بيـده ، فما عليـه الا أن ينصرف عن روزالين الحسـناء الى غـيرها من الحسان ، وما عليه الا أن يبحث عن حب جديد ينسى به حبه القديم ، ولسوف يجد من بين بنات فيرونا من هى أجمل من روزالين • فيسخر منه روميو قائلا ان فيرونا كلها ليس فيها فتاة تضارع روزالين جمالا أو تضاهيها بهاء •

ويقبل عليهما خادم بيده ورقة بهـا أسـماء وأسماء ، ويسألهما الخادم أن يعيناه عـلى قراءة هـذه الأسـماء فهو

لا يحسن القراءة فيعرف روميو أن السيد كابيوليت قد اعتزم أن يقيم في داره حفلا تنكريا فى ذلك المساء بعينه ، وقد أوفد خادمه ليحمل الدعوة الى من دعاهم من أشراف المدينة . ويقرأ روميو اسم حبيبته روزالين بين المدعوين ، فيضطرب قلبه عند قراءة اسمها . ويستحث بنفوليو روميو أن يحضر هذا الحفل الذى سيضم أجمل من فى فيرونا من الحسان ، وأن يفتح عينيه على ما فىالدنيا من جمال ولسوف يجد هذه البجعة الجميلة التى خلبت لبه غرابا آسحم بين الجميلات . ان كل شيء موات ، فالحفل حفل تنكرى ، وهو وان كان من آل مونتاجيو الا أنه يستطيع أن يلبس كغيره قناعا فلا يعرف أحد هويته ،، وهكذا يندس فى بيت عدوه كابيوليت ، ويطرب فيه ويمرح وينسى هموم الصبابة ويقبل روميو هذا التحدى قائلا انه ذاهب الى الحفل ليبهج القلب بأنوار محبوبته .

ويتردد على آل كابيوليت سيد من نبلاء فيرونا كريم المحتد هو الكونت باديس ، وهو عاشق لجولييت بنت كابيوليت وقد جاء يطلب يدها من أبيها ، ويرجو أن يظفر منه بجواب يطمئن قلبه . ولكن الشيخ كابيوليت يرجئه قائلا ان جولييت كالبرعم الناضر الذى لم تتفتح بعد أكمامه لأفراح الشباب أو لمعانى الزواج . فهى لم تبلغ بعد أربعة عشر ربيعا ، ولابد من الانتظار عامين حتى تنضج للزواج . ويلحف الكونت باديس فى طلبه قائلا ان بنات يصغرنها فى العمر قد ذقن طعم السعادة التى لا تعرفها الا الأمهات . فيجيبه كابيوليت بقوله ان الردى قد طوى كل بنيه وبناته، فلم يبق له من أمل فى الحياة الا سعادة جولييت . وهو لن يختار لها زوجا لا ترضاه لنفسها ، فليخطب الكونت باديس ودها وليظفر بقلبها ، فان رضيت به زوجا رضى هو به أيضا ، ان كابيوليت سيقيم الليلة حفلا راقصا يدعو كل أحبائه ، وسوف يشهد الحفل صفوة فتيان فيرونا وأجمل فتياتها . فليجرب الكونت باديس حظه مع ابنته فى المساء ، فلعله يظفر بقلبها .

وفي حجـرة بدار كابيوليت تخلو الليـدى كابيوليت بابنتها جولييت ، وبمربيتها لتفاتح جولييت فى أمر هـذا الزواج ، وتعلن عليها أن الكونت باديس وهـو أنبل فتيان فيرونا وأوسمهم جميعا قد تقدم لخطبتها ، الكلمة الآن لها ، فهى ستراه بعد قليل فى الحفل ، فان راق فى عينيها، فهو لها . وتفيض الليدى كابيوليت ومربيتها فى وصف شمائل الكونت باديس ، فتقول جولييت انها ستعد نفسها اعـدادا لحبـه مادامت هذه مشيئة والديها .

ويهبط المساء ، ويتوافد المدعوون الى دار كابيوليت . ويندس بينهم روميو وقد استخفى وراء قناعه . وهـو فى صحبة ابن عمه بنفوليو وصديقه الوفى مركوشيو ، وهو من أقرباء أمير فيرونا ، ويقف كابيوليت بين أضيافه مرحبا بهم مستحثا اياهم على الرقص والمرح ، فيرقصون ويمرحون . أما روميو فهو لا يرقص ولا يمرح لأن قلبه الحزين ثقيـل بحب روزالين ، بل يتصفح وجوه الشباب والحسان لعل عينه تقع على محبوبته .

ولكن بصره لا يلبث أن يقع على جولييت وهى تراقص فتى من فتيان فيرونا . وتتلاقى العيون وكأنما تلاقى قطبا المغناطيس ويرفع كل قناعه لحظة ثم يسدله فى لمح البصر ، ويسأل روميو : « من تكون هذه السيدة التى تتلألأ فى يد ذلك الفارس كأنها الدرة اليتيمة ؟ ان الضياء الذى يتفجر من وجهها لا يدانيه ضياء المشاعل . انها جـوهرة غاليـة تتدلى من أذن حبشى ، وجمالها كنز يصان ولا ينفق وبهاؤها نورانى ليس للأرض فيه نصيب » .

ويسمع الفتى الغضوب تيبالت صوت روميـو فيميزه وينتابه حنق شديد ويأمر الخادم أن يأتيـه بسيفه فهـو لن يأذن لخسيس من آل مونتاجيو أن يفسد عليهم روعة الحفل ، فلا شك أن روميو ما جاء الا ليسخر من أفراح آل كابيوليت . ولكن الشيخ كابيوليت ينهره نهرا شديدا وينهاه عن المساس بروميو مادام فى ضيافته .

ويدنو روميو من جولييت حتى يخلو بها فى طرف من أطراف القاعة ويتناول يدها ويناجيها قائلا : « ان كنت قد دنست بيدى الخسيسة هذه هيكلك المقدس ، فلتكن خطيئتى أن تمحو شفتاى آثار غلطتى بقبلة رقيقة ، كما يقبل عابدان مذنبان أسدال الهيكل المقدس » • وتطرب جولييت لسماع نجواه • ويقبلها روميو فتنتشى روحها ، فلا يتركها الا وقد أصماها سهم الحب ، أما هو فيمشى فى بحران كأنه عرف الحب لأول مرة •

ويسأل روميو مربية جولييت العجوز : من تكون هذه السيدة وحين يعلم أنها ابنة كابيوليت رب الدار ، وعدو أسرته اللدود ، يتمتم قائلا : اذن فقد وضعت حياتى رهينة بين يدى عدوى ، وحين تعرف جولييت من مربيتها أن هذا الفتى هو روميو بن مونتاجيو الملعون بكل لسان فى آل كابيوليت يأخذها الهول ، وتدرك أن القدر يخبىء لها أهوالا شدادا •

●

وينفض الحفل وينصرف الجميع ، ما خلا روميو الذى يبقى تحت جنح الظلام لا يريم ، كأن فؤاده بدار كابيوليت وهو لا يريد أن يترك فؤاده • ويترك رفيقه بنفوليو ومركوشيو ، ويتسلق أسوار الحديقة فيهبط بين الأشجار، ويسعى فى الحديقة حتى يبلغ شرفة جولييت وهو يجمجم قائلا : « انما يسخر من جراح الحب من لم يخدش قلبه الهوى » •

وتطل جولييت من شرفتها فهى مثله مؤرقة ساهدة ، فيخيل اليه أن ضياءها يجلو ظلمات الليل كما تجلو الشمس الحلك • ان روزالين كالقمر الشاحب الى جانب هذه الشمس الساطعة •

ويسمع روميو جولييت تناجى نفسها كما يناجى هو نفسه ، وتتنهد قائلة : لو لم يكن اسمه مونتاجيو لوهبته

نفسى • فيعلم أنها تبادله الهوى • ويضرع روميو اليها ألا تعاقبه على شىء لا يد له فيه • انه يحبها من أعمق أعماقه وحبه يقوده اليها كالربان الشديد المراس ، ولو كانت جولييت فى أقصى الشطآن لعبر اليها البحار الخضر يخوض اليها اللج ويقتحم الزوابع • وحين يصارحها روميو بكل هذا الحب العميق المستفيض ، تصارح جولييت روميو بحبها المتقد متخذة من ظلمة الليل ستارا يحجب حمرة الخجل التى تتأجج فى وجنتيها ، ان الحب قد علمها الطيش، وهى ترجو ألا يحسب روميو ذلك الحديث دليلا على خفتها ونزقها • فان كان يقصد مقصدا شريفا فهي له تعاهده على الوفاء حتى الموت ، وان كان يقصد سوءا فليمض عنها وليتركها لأحزانها وينصرف روميو قبل أن يدركه الفجر حتى لا ينفضح أمرهما • انها ستوفد اليه رسولا فى الغد لتعرف ما استقر عليه رأيه ، ولتعرف متى وأين تقام مراسم الزفاف •

وهكذا يفترق العاشقان بعد أن تبادلا عهد الهوى • ولا يذوق روميو طعم النوم بل ينطلق مع الصباح الباكر الى صومعة راهب هو الراهب لورانس كاهن الأسرة ، الذى جعل روميو منه موضع سره ومرشده فى كل شئونه الروحية • ويعجب الراهب لورانس لهذه الزيارة الباكرة ، ويحسب أن روميو قد جاءه ليحدثه فى أمر غرامه بروزالين ، فاذا بروميو يحدثه فى أمر غرامه بجولييت ، فيزداد عجب الراهب لورانس لقصة هذا الفتى المتقلب ، ولكنه لا يلبث أن يتيقن من أن روميو قد اهتدى أخيرا الى الحب الصحيح ، فهو يلحف عليه فى اتمام الزواج • والراهب لورانس حائر مبلبل الفكر لا يعرف ما العمل ، وكيف يزوج ولد مونتاجيو من ابنة كابيوليت عدوه اللدود ولكن الراهب لورانس يرضى أخيرا بأن يجمع بين النقيضين وهو يرجو مخلصا أن يكون فى هذا الزواج نهاية البغضاء بين الأسرتين •

كل ذلك وبنفوليو ومركوشيو يبحثان عن روميو الذى

اختفى فجأة منــذ الليلة الماضية ، ولم يعــد الى داره وهما يحسبان أنه انطلق كعادته الى الأدغال ليبكي هواه الضائع لروزالين • وهما يعلمان أن تيبالت الغضوب قد بعث الى دار مونتاجيو برسالة يتحدى فيها روميو ليبارزه ، وهما يشفقان على روميو من هذه المبارزة ، فتيبالت من أبرع من حمــل السيف في المدينة ، وروميو من أبرع من حمل السيف في المدينة كذلك ، ولكن حب روزالين أضناه وجعله أقرب الى الشاعر الحالم منه الى النبيل المقاتل •

وأخيرا يلحق بهما روميو ولكنه لا يطلعهما على دخيلة أمره بل يعابثهما بمرح الحديث فيعجبان لحاله • ولا تلبث مربية جولييت أن تقبل عليهم وتستأذن روميو في الانفراد بها ، فينبئها روميو بأنه سينتظر جولييت عصرا في صومعة الراهب لورانس حيث يتم زواجهما ، ويمنحها بدرة من المال فتسهب في وصف حب جولييت اياه • وتذكر لها أن خاطبا جاءها هو الكونت باديس ولكنها ترفض أن تلقاه •

وتعود المربية الى سيدتها جولييت بالنبأ السعيد فتجدها متلهفة تعد الدقائق والثواني وتتعجل من فمها الكلمات •

وفي العصر تمضي جولييت الى صومعة الراهب لورانس حيث تجد حبيبها روميو في انتظارها ، ويمضي بهما الراهب لورانس الى الكنيسة حيث يجرى مراسم الزواج وهو يصلى الى السماء أن تلطف بالجميع ، فقلبه يحدثه أن هذه الأفراح العاجلة لن تثمر الا الأتراح •

وبعد أن ينتهي كل شيء يلتقى روميو ببنفوليو ومركوشيو في ميدان المدينة ، فيجد تيبالت معهما يغلظ لهما القــول محاولا استفزازهما • وحين يصل روميو يجد فيه تيبالت ضالته المنشودة فيستفزه بموجع الكلام ، ويصمه بالنذالة ، ويتحداه للمبارزة ، ولكن روميو يجيبه في رفق قائلا : ان الغضب يعميه فهو يتحدث بما لا يعرف ، وحقيقة الأمر أنه لا يبغضه بل يحمل له الود • فلينصرف تيبالت اذن الى حال سـبيله • ولسوف يعــرف تيبالت فيما بعد أن بينهما من

الأواصر ما يحمله على حبه ، بل ما يجعل روميو يعتز بأسرة كابيوليت ويكن لها الوفاء .

ويعجب بنفوليو ومركوشيو لسماع هذا الكلام، ويحسب مركوشيو أن روميو قد فقد رجولته ومشى الحب فيه بالطراوة فجعله يتقبل من الاهانات مالا تحتمله النفس الكريمة . ويأخذ منه الغضب كل مأخذ فيتصدى لتيبالت انقاذا لشرف صديقه روميو ، ويجرد كل حسامه ، ويقتتل الرجلان قتالا مريرا . ولكن روميو يهيب بهما أن يكفا عن القتال ويتوسطهما ليفرق بينهما فيفضى تدخله الى الكارثة ، فهو يشل حركة صديقه ، فيغتنم تيبالت هذه الفرصة ويكيل لمركوشيو طعنة نجلاء تصيبه فى مقتل فيسقط متخبطا فى دمائه يلعن الأسرتين معا ، ثم تفيض روحه بعد قليل .

وهنا تثور ثائرة روميو ، حين يرى صديقه مركوشيو قريب الأمير ، يسقط صريعا وهو يدافع عنه ، ويجرد روميو سيفه وينازل تيبالت ، فلا تمر دقائق الا ويخر تيبالت مجندلا بسيف روميو . ويهيب بنفوليو بروميو أن يفر ويختفى اتقاء غضب الأمير الذى سبق أن فرض حكم الاعدام على كل من يزعج أمن فيرونا من الأسرتين بهذه المبارزات والمصادمات فى الطرقات العامة .

ولا يلبث الأمير أن يبلغ الميدان فى حاشيته ، ويتجمهر مونتاجيو وكابيوليت ورجالهما . ويروى بنفوليو على الأمير كل ما حدث بحذافيره . ويطالب آل كابيوليت بموت روميو جزاء له على الفتك بتيبالت ، ويدافع آل مونتاجيو بأن روميو لم يفعل الا أن نفذ قضاء الأمير فى تيبالت الذى كان بدأ الشجار وصرع مركوشيو . ويزن الأمير الأمر فلا يرى مفرا من نفى روميو من المدينة ويهدر دمه اذا رآه أحد فى فيرونا ويفرض على الأسرتين دية ثقيلة جزاء لهما على قتل مركوشيو بسبب ما بينهما من ضغائن .

وتعلم جولييت بكل ما حدث من مربيتها العجوز فتندب ابن خالها تيبالت وتبكى موته بدموع غزار ، ولكن فجيعتها

فجيعتان ، فزوجها الحبيب روميو قد صدر الأمر بنفيه من المدينة مدى الحياة ، وهو حكم اشق عليه وعليها من الحكم بالإعدام • وتوفد جولييت مربيتها الى روميو لتسأله أن يأتي اليها تحت جنح الظلام ليودعها قبل خروجه من المدينة وتحملها اليه خاتما يذكرها به في منفاه •

أما روميو فيعرف بقضاء الأمر فيه من الراهب لورانس حين يقصد الى صومعته ليطلعه على ما جرى • وما أن يعرف بأمر نفيه حتى يبلغ منه اليأس كل مأخذ ويستل سيفه ويهم بالانتحار ؟ لولا أن الراهب لورانس يحول بينه وبين الموت - ان النفي سيفرق بينه وبين زوجته الى الأبد ، والموت أحب اليه من هذا القضاء العسير • وحين تأتيه المربية بخاتم جولييت يعرف منها أن دموع جولييت لا تجف ، ويعلم أن حزنها على نفيه أفظع من حزنها على موت ابن خالها • ويرتب الراهب لورانس امر اخفاء روميو حتى يودع زوجته ثم ينطلق الى منفاه في مدينة مانتوا المجاورة ، حيث يدبر له من يوافيه بالأنباء •

وحين يتقدم الليل يدلف روميو الى حديقة آل كابيوليت ويجد طريقه الى شرفة مخدع جولييت المطل على الحديقة ، فيتسلق الى الشرفة سلما من حبال أعدته له المربية العجوز • ويقضي الليل في أحضان زوجته حتى يتبلج نور الفجر ويشقشق الطير في الحديقة ، فتحسبها جولييت بلبل الليل الصداح ، ولكن « روميو يعلم أنه القبرة بشير الصباح ، فيودع جولييت وقلبه يتمزق وينطلق ثقيل الفؤاد الى منفاه في مانتوا » •

ثم تشتد الأمور تعقدا ، فان كابيوليت وسط كل هذه الأحداث الفاجعة يتعجل زواج جولييت من الكونت باديس دون أن يعلم شيئا مما جرى بينها وبين روميو • وبعد أن كان يعلق الأمر بارادتها يقول للعاشق الملحف انها لن تعصى له أمرا • بل ان كابيوليت يحدد يوم الزفاف بالخميس

التالى ويأمر جميع من بالدار أن يعدوا العدة لعرس هادىء حزين لا جلبة فيه ولا طرب حدادا على وفاة تيبالت .

وتدعو الليدى كابيوليت ابنتها جولييت لتنبئها بما استقر عليه قرار أبيها فتجدها كالثكلى لا تجف لها عبرة ولا تنقطع لها زفرة . وتخالها تبكى موت تيبالت فتعزيها بقولها ان أبحارا من الدموع لم تعد ميتا الى شاطىء الحياة ، وان آل كابيوليت سوف يثأرون من روميو القاتل مهما كلفهم ذلك من مشاق .

وتزف الليدى كابيوليت البشرى الى جولييت أن أباها الساهر على سعادتها قد حدد يوم الخميس ليزفها فى كنيسة القديس بطرس الى الكونت باديس . وتضطرب جولييت وتثور قائلة انها لا ترى لهذه العجلة وجها ، ولا ترى كيف تقبل باديس زوجا وهو لم يقم نحوها بما ينبغى على الخطاب أن يفعلوه مع عرائسهم ليكسب رضاها وليستوثق من حبها له . كلا . انه لأحب اليها أن تزف الى عدوها اللدود روميو من ان تزف الى الكونت باديس .

ويقبل أبوها فيكون مشهد عاصف . ويرى كابيوليت زوجته غضبى ويفهم منها أن جولييت ترفض هذا الزواج فيثور ويتهم ابنته بالجحود والغطرسة ، وقد كان ينتظر منها أن تكون أكثر طاعة واعترافا بالجميل وتحاول جولييت أن تشرح لأبيها أنها تعرف آلاءه عليها ، ولكنه يجيبها فى غلظة قائلا : اشكرى أو اكفرى كما تشائين ولكن أعدى نفسك للزفاف يوم الخميس فى كنيسة القديس بطرس ، والا جررتك بيدى الى ذلك المكان .

وتجثو جولييت على ركبتيها ضارعة الى أبيها أن يستمع الى مقالها لحظة أو لحظتين ، ولكن أباها يصرخ فى وجهها وقد استولى عليه غضب أعمى أن تصدع بأمره دون مناقشة، فان عصت أمره فلسوف يتبرأ منها ويقذف بها الى عرض الطريق حيث تتسول أو تجوع أو تموت ، وهو لن يعدل عن قراره هذا . ويل للآباء من البنات . لقد كانت شغله الشاغل

طول هذه السنين ، كل ذلك ليعدها لهذا اليوم العظيم • وحين يأتيها يفتى من خير من أنجبت فيرونا نبالة محتد ورفعة خلق لا يسمع منها الا هذا الكلام الفارغ : « لن أتزوجه » ، « لست أحبه » ، « مازلت صغيرة » ، « أطلب عفوك » • كلا • كلا • كل شيء يعد ليوم الخميس •

ويلتقي الكونت باديس بجولييت فى صومعة الراهب لورانس ، أما الكونت باديس فقد جاء ليبلغ الراهب بموعد الزفاف حتى يعد عدته لاتمام المراسم • واما جولييت فقد جاءت فى أمر أخطر من ذلك بكثير • انها متزوجة من روميو دون علم أهلها وأبوها يريد أن يفرض عليها زواجا ثانيا ، وهو أمر محال •• انها جاءت تبحث عن مخرج من هذه المحنة •

وتتظاهر جولييت أنها قد جاءت الى الراهب لورانس لتعترف كما تجرى بذلك تقاليد الدين ، وترجو الى باديس أن يتركها وحيدة مع هذا الكاهن •

وتنفرد جولييت بالأب لورانس ، فاذا به لا يقل عنها اضطرابا ، فهو الذى عقد قرانها على روميو ، وهو يعلم أن زواجها من باديس أمر محال •

وتبرق فى خاطر الراهب لورانس فكرة رهيبة ، ان جولييت يائسة لا ترى مخرجا من هذه المحنة الا الموت ، والراهب لورانس قد توافر طول حياته على الاشتغال بالكيمياء سعيا وراء ألوان من آكسير يجدد الحياة ويجدد الشباب ويحيل بخس المعادن الى ذهب نضار ، وقد استقطر فى أنابيقه فعلا سائلا سحريا شاربه يفقد كل مظاهر الحياة الى أجل قصير ثم يستيقظ من موته وكأنه استيقظ من النوم •

نعم • هناك مخرج ، وهو أن تتجرع جولييت قارورة من هذا السائل السحرى قبيل زفافها فيخال أهلها أنها ماتت ، ويشيعونها الى قبرها ، ويكون الراهب لورانس قد أوفد راهبا من رهبانه الى مانتوا برسالة الى روميو يطلعه فيها

على كل ما جرى ويستقدمه لينقذ زوجته حين تفيق من غيبوبتها ويهرب بها من مدينة فيرونا • ان جولييت اليائسة على استعداد للمجازفة •

وهكذا يزود الراهب لورانس جولييت بقنينة من شرابه السحرى ، ثم يوفد الراهب جون الى مانتوا بالرسالة الى روميو •

وفى عشية الزفاف تخلو جولييت الى نفسها فى مخدعها وتنظر الى ما حولها من أشياء وكأنها تودع عالم الأحياء • وتنظر الى القنينة ثم يعروها اضطراب شديد ترى ماذا يحدث لو أخفق هذا الشراب ؟ أو ليس جائزا أن الراهب الماكر قد دس لها السم فيه ليتخلص منها فلا يفتضح أمره ؟ ترى ماذا يحدث لو جاء روميو الى قبرها قبل أن تستيقظ ورآها فى النعش مسجاة ، وتستبد بها الهواجس • وتستخرج خنجرا وتضعه الى جوارها استعدادا لكل احتمال • ثم لا تلبث أن تهدأ نفسها ، فهى تعلم علم اليقين أن الراهب لورانس ناسك مؤمن قوى الايمان •

وتتجرع جولييت الشراب السحرى وتتمدد على فراشها •

وفى الصباح تدخل عليها مربيتها العجوز لتوقظها فتجدها جثة هامدة • وتصيح المربية : الغياث ! الغياث ! وتخف على نواحها الليدى كابيوليت وحين يقع بصرها على جثمان جولييت تنفجر بالبكاء والنشيج • أما كابيوليت فيعقد الأسى لسانه ويقف كالتمثال الشاحب بغير حراك • ويكتمل عقد المفجوعين حين يصل العريس الكونت باديس ليصحب عروسه الى الكنيسة •

وهكذا يتحول العرس الى مأتم ، ويخرج القوم فى مشهد رهيب يتقدمهم الراهب لورانس الى القبو الكبير حيث يدفن آل كابيوليت موتاهم • وهناك يريحون جثمان جولييت المسجى فى قبر من رخام ويغطونه بلوح من المرمر الغالى ويقفلون راجعين •

ولكن الانسان يدبر والقدر يقـدر • فالراهب جـون الذى أوفده الراهب لورانس يعجز عن بلوغ روميو وأداء الرسالة • فقد مر فى طريقه بدار راهب موبوءة بالطاعون فأغلقت السلطات عليه باب الدار حتى يأمن الناس الوباء • وهكذا يعود الراهب جون بالرسالة الى الراهب لورانس •

وحين يعلم الراهب لورانس بذلك يبادر الى القبر ومعه الأدوات اللازمة ليرفع بها لوح المرمر الجسيم الذى غطى به القبر مخافة أن تستيقظ جولييت لتجد نفسـها حبيسة مع الأموات •

أما روميو فيأتيه من فيرونا من يبلغه بمـوت جولييت فينطلق لتوه الى صيدلى يبتاع منه سما زعافا ثم يمضى فى طريقه الى فيرونا حتى يبلغ مقبرة آل كابيوليت وحين يدخل روميو القبو يلتقى هناك بالكونت باديس الذى جاء لينثر الزهر على قبر عروسه • وحين تقع عين باديس على روميو يتبينه فيجن جنونه فهو يحسب أن ولد مونتاجيو المنفى سافك دم تيبالت انما جاء ليدنس قبر جولييت بنت عدوه • ويحاول روميو الحزين عبثا أن يهدىء من ثائرة باديس الذى يجرد سيفه، وحين لا يجد روميو مناصا يدافع عن نفسه بحسامه• ويسقط باديس صريعا ، وتكون آخر كلماته : « ان أخذتك بى رحمة فافتح القبر وضعنى الى جوار جولييت » • ويعده روميو بذلك فيسلم الروح •

ويدنو روميـو من القبر ويتصـفح وجه جولييت البهى ويناجيها قائلا : « أى حبيبتاه ! أى زوجاه ، ان الموت الذى رشف رحيق أنفاسك قد عجز سلطانه عن اغتيال جمالك • انك لم تقهرى بعد فشارة جمالك ما لبثت قرمزا فى شفتيك وفى خديك ، وراية الموت الشاحبة لم تنشر بعد هنالك » •

وبعد أن يودعهـا بعبارات تمزق نياط القلـوب يرفع قارورة السـم قائلا : « هأنذا أشرب نخبك يا حبيبتى » ثم يميل عليها ويقبلها ثم يسقط صريعا •

وتستيقظ جولييت من نومها السحرى وحين تبصر جدث زوجها الحبيب تدرك كل ما حدث . وهل بقى لها شىء فى الحياة ؟ وتبادر جولييت الى قارورة السم فتجد أن روميو قد أفرغها حتى الثمالة ، وتسمع وقع أقدام قريبة فتسرع الى خنجر روميو وتطعن به نفسها طعنة قاتلة فتسقط على جسده جثة هامدة .

وهكذا يسدل الستار على شهداء الغرام. ولكنه لا يسدل قبل أن يجتمع آل كابيوليت وآل مونتاجيو وأمير المدينة ليشهدوا هذا المشهد الفاجع بعد أن جاءهم نبؤه . ويستمع الجميع الى الراهب لورانس وهو يقص عليهم قصة العاشقين اللذين أراد أن يزفهما فى الأرض فزفهما القدر فى السماء .

وكأنما النفوس لا تطهرها الا الفجائع ، فاذا بالعدوين يتصافيان ويتصافحان ويتناول مونتاجو يد كابيوليت قائلا : تمثال من الذهب الخالص سأقيمه لجولييت الوفية ، يبقى ما بقيت فيرونا رمزا للوفاء فيجيبه كابيوليت : وفى قبر من الذهب الخالص سينام روميو بجوار حبيبته .

وهكذا يحل على فيرونا سلام حزين .

وليم شكسبير

اتفق النقاد على أن أعظم مسرحيات شكسبير أربع هى : « هاملت » و « ماكبث » و « الملك لير » و « عطيل » وكلها من المآسى . كذلك اتفقوا على أن أعظم هذه المآسى الأربع هى مأساة « هاملت » .

وماذا نقول عن شكسبير ؟ وهل يعرف العلم الفرد ؟ ولكن شكسبير رغم صيته الذى طبق الآفاق لا يزال مجهول الشخصية بقدر ما هو معروف الآثار . فنحن لا نعرف عن سيرته شيئا ثابتا مذكورا الا أنه ولد فى بلدة ستراتفورد أون آفون بانجلترا فى أبريل من عام ١٥٦٤ ، وتوفى فى ابريل من عام ١٦١٦ ، وبهذا يكون قد عمر اثنتين وخمسين سنة، ترك لنا فيها سبعا وثلاثين مسرحية بعضها تراجيديات وبعضها كوميديات ، وطائفة من القصائد الغنائية والقصصية الجميلة .

والمعتقد أن أباه « جون شكسبير » ، كان تاجرا متوسط الحال فى ستراتفورد اون آفون يدبغ الجلود أو يصنع القفازات ويتاجر فى الجلود والصوف . ويعتقد أن ابنه وليم شكسبير التحق فى حداثته بمدرسة البلدة ، ويقال ان أباه أخرجه منها حين حل به الاعسار . وفى عام ١٥٨٢

تزوج شكسبير من امرأة تدعى آن هاثاواى من قرية مجاورة. وأنجبت له آن بنتا اسمها سوزانا ثم توءمين ، غلام يدعى هامنت وبنت تدعى جوديت . أما الغلام فقد مات فى صباه وأما البنتان فعمرتا وتزوجتا وعاشتا شأن أمهما بعد وفاة أبيهما .

غير هذا ظنون فى ظنون . فلا يعرف أحد على وجه التحديد متى نزح شكسبير عن بلدته الى لندن . فرأى يقول انه فر من ستراتفورد بعد أن سرق صيدا من ضيعة نبيل من نبلاء المنطقة اسمه السير توماس لوسى ، وكانت عقوبة هذه الجريمة يومئذ الشنق ، وقصد الى لندن حيث قادته الظروف الى العمل فى المسرح . ورأى يقول ان أباه ألحقه فى صباه بدكان قصاب ليتعلم المهنة ولكنه فر الى لندن ليشتغل فى المسارح . ورأى يقول انه اشتغل مدرسا فى الريف ردحا من الزمن . ولكن مهما يكن من رأى فالفكرة السائدة هى أن شكسبير نزح الى لندن عام ١٥٨٥ ، أو نحوه ، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، وهناك اتصل بالمسرح فى ظروف مختلفة . قيل انه بدأ سائسا يحرس خيل النظارة حتى يخرجوا من المسرح ، وقيل انه اشتغل ملقنا أو ممثلا للأدوار الثانوية ، ثم بدأ يكتب الكوميديات والتراجيديات حتى استقر اسمه ولمع نجمه . وأول ما نسمع بشكسبير ككاتب مسرحى عام ١٥٩٢ فى تعريض لاذع به كتبه الناقد المعروف « جرين » يصفه فيه « بمحدث » المسرح الذى يهز خشبته بعباراته الطنانة وضجته الجوفاء !

وقد أثرى شكسبير من الكتابة للمسرح والتمثيل فيه والاشتراك فى تمويله ولا سيما بعد انشاء مسرح الجلوب بلندن سنة ١٥٩٩ ، ويعتقد أن دخله من ذلك كله بلغ متوسطه مائة وخمسين جنيها سنويا ، وهى تتجاوز فى قيمتها عشرة أمثالها بعملة اليوم . وقد اشترى دارا كبيرة فى مسقط رأسه ومعها مائة وسبعة أفدنة وكان يقرض المال هناك ويستثمر ويدخل فى المنازعات والقضايا ، ولكن

مقامه الأول كان فى لندن التى ظل بها حتى عام ١٦١٢ حيث يقال انه اعتزل حياة المسرح واعتكف فى قريتــه الى يــوم وفاته ٠

كذلك يقال ان شكسبير كان يضيق بحكم الملكة اليصابات ويناصر ايرل اسيكس الذى دبر مؤامرته المشهورة الفاشلة عام ١٦٠١ لخلع الملكة مشتركا مع اللورد ساوثهامبتون ، الذى كان راعى شكسبير منذ شبابه ، فقد كانت العادة فى تلك الأيام أن يكون لكل شاعر راع من النبلاء أو لكل نبيل شاعر من الشعراء ٠ وقد وجد شكسبير من الحظوة فعلا فى عهد جيمس الأول أكثر مما كان يجد أيام الملكة اليصابات التى توفيت عام ١٦٠٤ ٠

ومع ذلك فكل هذه تكهنات يتــكهن بهــا العلماء الذين توفروا على دراسة أدب شكسبير وسيرته ، فنحن لا نعرف عن هــذا الــكاتب العظيم شيئا عــلى وجه التحقيق ، بل ان من العلماء من يذهب الى التشــكيك فى وجــوده جملة وينسب اعماله الى غــيره من رجال عصره ، فمن قائل ان مخلف كل هذا التراث العجيب هو اللورد باكون ، ومن قائل انه ايرل اسيكس ، ومن قائل انه الشاعر كريستوفر مارلو نفسه الذى اختفى من الحياة العامة ليعود الى الكتابة تحت اسم مستعار هو اسم شكسبير ٠ وهناك مذاهب عدة فى شخص شــكسبير بعضها أقرب الى الهذر منها الى الأفكار العلمية ، ولكن انما يهمنا من كل ذلك مدى الغموض الذى يكتنف حيــاة أعظم شاعر من شعراء المسرح فى انجلترا ، ولعله أعظم شاعر من شعراء المسرح فى جميع البلاد وفى كل العصور ٠

أما هاملت هذه التى نعرضــها فقــد كتبت نحــو عام ١٦٠٠ ، ووضعت فيها آلاف الكتب والأبحاث ، وهى تعــد قمة ما وصل اليه شكسبير من التراجيــديا ٠ فمن قائل انها تعبر عن حلقة سوداء فى حياة شكسبير الزوجية ، ومن قائل انها ليست الا قصة أوريست المشهورة فى أدب اليونان وقد

انتقلت الى شعوب الشمال ، ومن قائل انهـا لغز من الألغاز تحار فيه العقول •

فتى قتل عمه أباه وتزوج من أمه فانتقم الفتى لأبيه • فما اللغز فى ذلك ؟ اللغز فى شـخصية هاملت نفسـه الذى يخاطب الأشباح والأرواح فلا نعلم أيراها حقا أم يستمع الى خياله الهاجس ، ويعزم فيكون آية فى العزم ثم ينهار فيعدل عن القتل لأتفه الأسباب ، ويتظاهر بالجنـون فلا نعلم أين ينتهى التظاهر وأين يبدأ الجنون • أم تراه يحمل لأمه حبا آثما خفيا لا يدرك كنهه يصفونه بأنه مركب أوديب، فيعيش على وجه الأرض وكأنه يعيش فى أطبـاق الجحيم • هـذا ما ستفصح عنه المأساة ذاتها ، فلندخل بين شكسبير والقراء •

نحن الآن فى قصر الملك كلوديوس ، ملك الدنماركة ، بعاصمة ملكة واسمها السينور فى ذلك العهد السحيق ، عهد النبلاء والفرسـان ، والديدبان الضـابط برناردو واقف شاكى السلاح على افريز الشرفة يحرس القصر فى منتصف الليل ، ويأتى اثنان من الفتيان هما هوارشيو صديق الأمير هاملت ، ولى عهد البـلاد ، وزميله فى الدراسـة بجامعـة ويتنبرج ، ومارسيلوس وهو ضابط من ضباط القصر درس أيضا مع الأمير • وقد عاد هوارشيو من ويتنبرج الى السينور ليقوم بواجب العزاء نحو صـديقه الحميم الأمير هاملت فى موت أبيه الملك هاملت الكبير الذى قضى نحبه منذ شهر أو يزيد قليلا •

ويعرف هـوارشيو من برناردو ومارسيلوس انهما قد رأيا فى الليلة السابقة بعد منتصف الليل شـيئا عجيبـا • ففيما هما قائمان بحراسة القصر اذا بشبح يظهر على الشرفة مهيب المظهر يخطو فى جلال ، من رآه قال انه صـورة الملك الراحل هاملت الكبير • وفيما هم يتحـدثون فى ذلك تدق الساعة الواحدة ويدخل عليهم ذلك الشبح ، فيتجه ثلاثتهم اليه فى اضطراب عظيم ، ثم يتشجع هوراشيو ويتقدم منـه

سائلا اياه عمن يكون • ولكن الشبح يزور عنه وينصرف من حيث جاء •

ويعلم الثلاثة أن الغيب يخبىء للبلاد غوامض الأمور • فهذا شبح الملك الراحل يتجول فى هزيع الليل ، وهذا أخوه كلوديوس ملك البلاد الجديد يعد العدة منذ ارتقى العرش للحرب ويسخر رعاياه الليل والنهار فى صب المدافع ويشترى السلاح من كل سوق أجنبية ويعبىء كل ما تصل اليه يده من سفن •

أما هوراشيو فيعلم أن هناك ثأرا قديما بين النرويج والدنماركة ، فملك الدنماركة الراحل قد تحدى ملك النرويج فورتنبراس الى المبارزة وقتله واستولى على نصف ملكه حسب قوانين الفروسية وتقاليدها وهوراشيو يعلم أن فورتنبراس الفتى الغضوب قد بدأ يجهز فى النرويج جيشا ليثأر لأبيه القتيل ، فلا شك أن الحرب على الأبواب، ولا شك أن لكل هذه الخوارق معنى يعرفه القدر •

ويعودالشبح بعد حين باسطا ذرأعيه فيهتف به هوراشيو قائلا :

هوراشيو : لسوف أعترض طريقه ، ولو أجهز على • قف أيها الطيف ، ان كان لك صوت أو كنت تسمع كلاما فخاطبنى • أن كان هناك صالح أعمله يريح فؤادك وتكرم به نفسى فحدثنى فيه ولو كنت تعرف ما يكنه القدر لبلادك من شرور أن نعلم بها فنتقيها ونسلم منها فتكلم •

وهنا يصيح الديك مؤذنا باقتراب الفجر ، فينصرف الشبح ، وينصرف هوراشيو ومارسيلوس لابلاغ الأمير هاملت بنبأ هذا الشبح العجيب •

وفى بلاط الملك كلوديوس نرى رجال الحاشية وقد اجتمعوا ومن بينهم رئيس الديوان ، بولنيوس العجوز، الذى اختلطت فيه حنكة التجارب بحماقة الشيخوخة ، وولده

لايرتيس الذى جاء يستأذن الملك كلوديوس فى العودة الى فرنسا ليتم فيها علومه ، فيأذن الملك له فى الرحيل ٠

وقبل أن يرحل لايرتيس يحذر أخته الجميلة أوفيليا من الاصغاء الى هاملت أو الاستماع الى نجواه ، فهاملت مدله بحب أوفيليا ، وهو يعرب لها عما يكنه لها من غرام ، فتستجيب أوفيليا لنداء هواه ٠ ولكن لايرتيس يخشى مغبة هذا الغرام ، فهاملت أمير البلاد وولى عهدها ، فهو اذن ملك لدولته وأمته ، وهو لا يملك أن يتزوج من أراد ومتى أراد لأن دمه الملكى يحول دون ذلك ، وشرعة الملوك ألا يتزوجوا من يحبون بل أن يحبوا من يتزوجون ٠ ولذا فان لايرتيس قبل رحيله يحذر أوفيليا من عواقب هذا الغرام ، وينهى الوزير بولونيوس ابنته أوفيليا عن استقبال الأمير هاملت والاستماع الى نجواه ، ويوصيها بأن ترفض كل ما يقدمه لها من هدايا المحبين حرصا على شرفها وسمعتها ٠٠ فتمتثل أوفيليا لأمره ٠

وفى وسط هذا الجمع يقف الأمير هاملت جزينا الى جوار عمه الملك كلوديوس وأمه الملكة جرترود ٠ ويعاتب كلوديوس هاملت على اسرافه فى الحزن اسرافا لا يتفق مع الطبيعة ولا مع المنطق ٠ ولا مع العقل الرشيد ٠ انه الآن ولى عهد المملكة وكلوديوس يؤثر له أن يبقى فى بلاط السينور فلا يعود الى جامعته فى ويتنبرج ، وأن ينفض عنه هذه الأحزان التى تمشى فى نفسه بالرخاوة وتسمم عليه الحياة ٠ وتشترك جرترود مع كلوديوس فى هذا الرجاء ٠ أما البقاء فى السينور فهو رجاء يرضخ له هاملت على مضض ، وأما العزاء والسلوان ، فهيهات له أن يسلو أو أن يتعزى عن موت أبيه ٠

نعم ، ان سحابة ثقيلة سوداء قد غدت تخيم على عقله وأصبحت الحياة عنده جحيما لا يطاق ٠ فليت الأمر وقف عند موت أبيه ، اذن لتعلم الصبر ونشد النسيان ، ولكن عمه كلوديوس قد تزوج من أمه جرترود ، ولما تجف الدموع على

الملك الراحل أو تنقضى أيام الحداد ، فاذا أضاحى الميت وقرابينه تصبح ذبائح العرس وأطايب الزفاف • وهكذا ارتقى كلوديوس عرش أخيه ، أو قل اغتصبه اغتصابا •

وما أن يخلو هاملت الى نفسه حتى يستبد به الحزن وتتجمع في رأسه الأبخرة السوداء فيفكر فى الانتحار • ويصرخ قائلا :

هاملت : ليت هذا الجسد الصلد يذوب فيستحيل الى قطر الندى ! ليت الحى القيوم لم يحرم بناموسه قتل النفس! يا الهى ! يا الهى ! ما أضنى هذه الحياة فى عينى ، وما أشدها ابتذالا وتفاهة ، وما أبخسها جزاء ! تبا لها ثم تبا ! انها لحديقة مسمومة الأعشاب نبتها من بذرتها ، فليس فيها الا كل ما هو كث فى الطبيعة غليظ •

انه يذكر كيف خرجت أمه تنوح على أبيه الراحل وترسل دمعها مدرارا • ولم ينقض على موته شهر حتى تزوجت من عمه هذا الخائن الغاصب • فياله من زواج اثم هو والبغاء سواء •

ولكن ماذا يستطيع هاملت أن يفعل وكلوديوس هو سيد البلاد ؟ انه يعلم شيئا واحدا ، وهو ان القدر يخبىء المكاره للبغاة • وحتى يحين ذلك الحين عليه أن يتمطر اسى دون أن ينطق بكلمة •

ويقبل هوراشيو ومارسيلوس على هاملت ويخبرانه بما كان من أمر شبح أبيه • فاذا ما انتصف الليل قصد ثلاثتهم الى شرفة القصر حيث ينتظرون الشبح • وما ان تدق الساعة الواحدة حتى يتجلى لهم الشبح ، فيضطرب هاملت أيما اضطراب ويستعيذ بملائكة الرحمة أن تلطف به من هذه الرؤيا • فالذى يراه هو شبح أبيه متشحا بزيه ، مدججا بسلاحه ، وهو لا يدرى ان كان ما ترى عيناه روحا طاهرة جاءت لتناجيه أم شيطانا خبيثا ملعونا جاء اليه ليجره الى دماره •

ويومىء الشبح لهاملت أن يتبعه الى أقصى المكان ، فيمضى هاملت وراءه كالمسحور • ويخشى عليه هوراشيو ومارسيلوس من فتنة الشبح فيمسكان به ، ولكن هاملت يتخلص من قبضتهما وهو فى هياج شديد ، ويندفع وراء طيف أبيه •

وحين يختلى الشبح بهاملت يقص عليه قصة موته الفاجع• انهم اذاعوا فى البلاد أن الملك هاملت الكبير كان ينام ذات يوم كعادته بعد الظهيرة في حديقة قصره فعضه ثعبان قتله لوهلته - أما الحقيقة فهى أن الثعبان الذى قتله لم يكن سوى أخوه كلوديوس ، الذى سعى اليه وهو فى نومه وسكب فى أذنه قطرات من السم الزعاف جمد بها الدم فى عروقه فقضى نحبه • نعم ان كلوديوس الخئون قتله غيلة ولم تأخذه به رحمة ، قتله قبل أن يتطهر من ذنوبه وخطاياه • ومن أجل هذا كتب عليه أن يعس آناء الليل الى آجل مسمى ، وأن يتلظى آناء النهار فى جاحم النار الآكلة حتى يتطهر من ذنوبه • أما كلوديوس الخائن فقد أغوى زوجته جرترود بمعسول الكلام حتى رضيت به زوجا ، وهكذا سلب أخوه زوجه وعرشه بعد أن سلبه الحياة •

ولم يبق الا أن ينتقم الأمير هاملت من عمه الغاصب ان كانت بقلبه ذرة من الحب لأبيه والوفاء لذكراه • ولن يهدأ الشبح فى قبره حتى ينال الجانى قصاصه ولكن الشبح يحذر هاملت من أن يمس أمه بسوء ، فقتل الأمهات يلوث العقل والقلب ، ومن الخير أن يترك هاملت أمه لنقمة السماء ولعذاب الضمير •

وهكذا يترك الشبح هاملت بعد أن أطلعه على السر الرهيب • ويلحق هوراشيو ومارسيلوس بهاملت فيجدانه فيما يشبه الهذيان مهددا متوعدا وحين يهم هاملت بابلاغهما ما جرى بينه وبين الشبح يعود الشبح ويأمر ثلاثتهم أن يقسموا بسيف هاملت ألا يبوحوا بشىء مما تجلى لهم فى

تلك الليلة الليلاء ، فيقسمون على ذلك ، وبهذا ينصرف الشبح الى مستقر له ·

أما هاملت فيوطن العزم على اتباع خطة يبلغ بها هدفه ، وهي أن يتظاهر بالجنون حتى يصرف أنظار كلوديوس عما يدبره له من أمور · وهو يطلب الى هوراشيو ومارسيلوس أن يلزما الصمت التام مهما رأيا من غرابة مسلكه أو من شططه فى الكلام ·

٥

ويظهر هاملت من غرابة الأطوار ما يلفت نظر كل من فى البلاط ، وعلى رأسهم الملك والملكة ، ويحسبون ان به مسا من الجنون أما كلوديوس فهو لا يقنع بقول جرترود أن ما صار اليه هاملت من ضيق أسود بالحياة مرده الى موت أبيه والى زواجهما الباكر ، وهو لهذا يدعو الى بلاطه اثنين من الفتيان من رفاق هاملت هما روزنكرانتز وجيلدنسترن ، ليسريا عنه فى الظاهر وليراقبا أحواله ويستكنها علته فى حقيقة الأمر ·

أما العجوز بولونيوس فله رأى في اضطراب عقل الأمير ، وهو يقول ان جنون هاملت من غرامه بأوفيليا ، فهى الآن تصده عنها ، فلا يزيده الصد إلا الحاحا فى حبها ، كما تشهد بذلك رسائل غرامه التى يقرأ بولونيوس على الملك والملكة واحدة منها ، وكما يشهد بذلك مسلكه معها ، فهو قد اقتحم عليها ذات يوم غرفتها شاحب الوجه مهوش الشعر مفكوك الصدر مضطرب الهيئة وأمسك بمعصمها وظل يقرأ صفحة وجهها كأنه يلتمس فيها شيئا ، فاذا ما فرغ من ذلك أخلى سبيلها وانصرف عنها كالسائر فى المنام · ان مولاه الأمير هاملت قد غدا يلقاه فى أبهاء القصر فلا يعرفه · وكل هذه أدلة على أن الصبابة قد أودت بعقله · والرأى عنده أن يرتب بين هاملت وأوفيليا لقاء ، ويختفى الجميع وراء ستار ليستمعوا الى ما يدور بينهما من حديث ·

وحين يلقى هاملت رفيقيه روزنكرانتز وجيلدنسترن يكشف للتو واللحظة أنهما قد قدما بدعوة من كلوديوس للتجسس عليه • وهما قد جاءا بفرقة من فرق التمثيل لتسلية البلاط ولازاحة الكآبة عن نفس الأمير • ويجد هاملت فى قدوم المثلين فرصة تعينه على تدبير شىء أضمره ، وهذا الشىء هو أن يعرض المثلون أمام عمه وأمه وبلاط القصر تمثيلية تسمى « قتل جوانزاجو » موضوعها شبيه بما جرى فى بلاط السينور ، ففيها أخ يقتل أخاه ليستولى على عرشه وعلى زوجه • وبغية هاملت من ذلك أن يرى وقع هذه التمثيلية على كلوديوس وجرترود ، فلسوف يصيبهما الذعر حين يريا جريمتهما تمثل تحت بصرهما ، فيمنضح أمرهما لكل من فى البلاط ، وبهذا يجد هاملت الدليل المادى على جريمة هذين الشقيين ، دون حاجة الى استحضار ارواح الموتى لتتهم الأحياء •• ويتفق هاملت مع المثلين على ان يضيف الى هذه التمثيلية بضعة أبيات من انشائه يحشرونها فى الرواية حشرا ، ليقرب مغزاها الى الأذهان •

●

ويجتمع كلوديوس وجرترود وبولونيوس العجوز وقد أعدوا أوفيليا لتستقبل هاملت • تستدرجه للكلام عن سبب كآبته واضطراب أقواله وأفعاله • وما أن يقترب هاملت حتى يتوارى الجميع وراء ستار ما خلا أوفيليا التى تتظاهر بالقراءة كما نصحها أبوها • ويدخل هاملت الغرفة ويخال نفسه وحيدا فيسترسل فى أفكاره السوداء وتعاوده خواطر الانتحار فيقول مخاطبا نفسه :

هاملت : أنطلب الحياة ؟ أم نطلب الموت ؟ هذه هى المسألة • ترى أى السبيلين أنبل قصدا ؟ أن نحتمل ضربات القدر الغاشم وسهامه ، أو أن نشرع السلاح على الرزايا الحاشدة ، وبالصراع نضع لها حدا ؟ الموت ، والنوم لا أكثر وبالنوم نقضى على الضنى ونحسم آلاف الخطوب وهى ميراثنا من الطبيعة فى وجودنا الجسدى • انه التمام ، وانه لتمام

نصبوا اليه بجميع جوارحنا · تموت · ننام ـ أجل ، ننام ، وربما زارتنا الآحلام · نعم هذه هى المشكلة ·

ويسترسل هاملت فى أفكاره المظلمة هذه حتى تقطعها عليه تحية أوفيليا · ويكون لقاء غريب · فأوفيليا تريد أن ترد اليه ما أخذت منه من تذكار الغـرام ، وهـو ينكر أنه أهداها شيئا · ويعنف هاملت فى حديثه معها · فلقد أحبها فى يوم من الأيام، ولكن ذلك كان قبل أن يفهم حقيقةالمرأة · كلهن ضعيفات · كلهن ناقصات عقل ودين · وكلما أفرط جمال المرأة أفرطت فى الخسة والخيـانة · انه تعلم هـذا الدرس من أمه التى تزوجت من عمه ولما تجف دموعها عليه وليس أمام أوفيليا الا طريق واحد ، هو الطريق الى الدير · نعـم ، الدير · لا شىء الا الدير · فلو قد تزوجت لأنجبت الخطاة · انه يلعن اليـوم الذى ولدته فيه أمه ، وليس امام أوفيليا الا الدير ·

وتستمع له أوفيليا فى ألم عميق · وما تخلو لنفسها حتى تتحسر على هذا العقل الشاهق الذى انهار · لقد كانت لهاملت آداب النبيل وسيف الفارس ولسان العالم الحكيم · لقد كان معقـد أمل المملكة وزهرة شـبابها ومرآة المدنيـة فيها · ولكن كل ذلك قد مضى وانقضى ·

أما كلوديوس الذى أنصت مع جرترود وبولونيوس لكل كلمة فاه بها هاملت فقد أدرك أن جنون هاملت لم ينبع من حبه لأوفيليا ، بل من عقدة أخرى أعمق وأشد فتكا ·

وهكذا استقر رأيه على اقصائه عن البلاد الى انجلترا فى صحبة رفيقيه روزنكرانتز وجيلدنسترن ما تأخر عـلى على ملكها من جزية لبـلاده ، زاعما أن الرحلة ستخفف عن الأمير كربه ·

وفى ذات المسـاء يجتمع البـلاط فى القصر لمشـاهدة التمثيلية التى تقدمها الفرقة · واذا بهاملت على غير عادته، يطفح بهجة ومرحا ، ولكنها بهجة مسمومة ومرح مرير فهو

يقول لعمه ان الرواية التي ستعرض بعد دقائق اسمها « فخ الفئران » ، ويقول لأمه ان مقدمة الرواية أقصر من حب امرأة » • وهو يتابع الممثلين أثناء الأداء ويعلق على أقوالهم في فكاهة لاذعة كل ذلك وكلوديوس وجرترود يزداد اضطرابهما ، فما أن يبلغ الممثلون مشهد القتل ، ويسعى القاتل الى الملك النائم في الحديقة فيصب السم في أذنه ، حتى ينهض كلوديوس مرتجفا ، ومن بعده جرترود وبوليونيوس وينصرف الجميع من القاعة ، فلا يبقى بها الا هاملت وصديقه الوفي هوراشيو • لقد بلغ هاملت مآربه ورمى بسهم أصمى الملك ، فهو مغتبط بهذا أشد الاغتباط •

ويأتي روزنكرانتز وجيلدنسترن ليبلغا هاملت أن الملك حانق حنقا لا مزيد عليه ، وأن الملكة حزينة أشد الحزن وهي ترغب في مثول هاملت في حضرتها •

أما الملك فيعود بعد حين ليرتب أمر سفر هاملت الى انجلترا مع روزنكرانتز وجيلدنسترن • انه يدرك الآن أن هاملت لم يعد خطرا على نفسه فحسب ، بل غدا خطرا على العرش ومن عليه أيضا ، ولابد من نفيه من البلاد فورا •

ولكن كل هذه الأحداث العاصفة بقصر السينور تلهب ضمير كلوديوس فيتعذب عذابا أليما • ان قتل الأخ ليس وزرا هينا يفارقه الآثم ثم ينساه ، بل جرم فظيع يحمل همه القلب بالليل وبالنهار وكلوديوس مؤرق في ليله مصطنع الهدوء وخلو البال في نهاره ، ولكنه لم يعد يحتمل ، وها هو ذا يجثو على ركبتيه مستغفرا • مبتهلا الى الله أن يصفح عنه ولكم حاول أن يبتهل من قبل ولكن بشاعة جرمه كانت تقتل في فؤاده الصلوات •

ويراه هاملت على هذه الحالة من التهجد والخشوع ، فيدنو منه ليقتله ، مغتنما هذه الفرصة الكبرى • ولكنه لا يلبث أن يعدل عن قتله • فلئن قتل هاملت عمه وهو متوجه الى الله لصعدت روحه الى السماء • ان هذا ليس

انتقاما من قاتل أبيه بل أجرا وثوابا لهـذا السـفاح الذى فتك بأبيه وهو ملطخ بذنوبه ، فأرسل روحه الى قاع الجحيم تتصلى بناره الآكلة . كلا . لن يقتل هاملت كلوديوس الا وهو ملوث بالآثام ، فى حمأة السكر أو فى فراش بغائه مع أمه الزانية .

هكذا يمضى هاملت عن هذا الملك الذى يستغفر فلا تغفر له السماء ، يمضى الى غرفة أمه التى أرسلت فى طلبه . ويكون بولونيوس فى حضرتهـا يرجـوها أن تعنف ولدها وتبين له ما ينتظره من شرود ان هـو دأب على فعاله . وما أن يدنو هاملت حتى يختفى بولونيوس وراء ستار .

ولا ينتظر هاملت أمه حتى تعنفه ، بل يندفع هـو الى تعنيفها ، ويتطاول عليها بقارس الكلام ، فتقول جرترود : « أنسيتنى يا هاملت ؟ » فيجيبها هاملت قائلا : « لا ، لا انت الملكة ، أنت زوجة أخى زوجك . أنت أمى بالرغم عنى » . تخشى الملكة شر ولدها حين يقول انه لن يأذن لها بحركة حتى يقيم أمامها مرآة ترى فيها نفسها ، وتحسب أنه قد جاء للفتك بها . ويسمع بولونيوس ما بينهما من لجاج فيستغيث طالبـا النجدة . ويحسب هاملت أن هذا المختفى وراء الستار هـو طلبته وغايته . وقنيصته كلوديوس ، فيجرد سيفه ويطعن به الستار صائحا : « فأر فأر » ، فيسقط بولونيوس مجندلا يتخبط فى دمائه . ويعود هاملت الى أمه يعيرها بقتل أبيه ، ويذكرها بعظمته وبشمائله التى لا تحصى ، فيدرك أنها لم تكن تعلم أن أباه مات قتيلا . أنه كلوديوس وحـده الذى رتب كل شىء وانها لنادمة على كل ما كان .

وهنـا يظهر الشـبح من جـديد فيراه هاملت ولا تراه جرترود . ويقول الشبح أنه جاء ليذكر هاملت بواجبه الذى ضيعه التسويف وليشحذ عزيمته التى فلها التردد . وتحسب جرترود . انه فى غيبـوبة من الجنـون يخاطب الفضـاء الفـارغ . فيجيبهـا هاملت قائلا انهـا لا ترى ما يرى لأن روحها قد سودتها الخطيئة .

وتسأل جرترود ولدها : ماذا يكون العمل • أما هو فلا يرى لها أملا الا فى التوبة ، ولا ينصرف عنها حتى تعده بأن تهجر فراش عمه الفاسق ، وأن تكتم عن كلوديوس كل ما عرفت وسمعت حرصا على حياتها • وهكذا يترك هاملت أمه ليتهيأ للرحيل الى انجلترا تنفيذا لمشيئة الملك • أما الانتقام فله اليه عودة وفى أجل قريب •

●●●

ويبحر هاملت الى انجلترا بأمر الملك وفى معيته رفيقاه ، ومعهما رسالة مختومة الى ملك انجلترا يرجوه فيها كلوديوس أن يفتك بهاملت فور وصوله •

وفى بلاط السينور تتعاقب الأحداث والمآسى بعد موت الوزير العجوز بولونيوس فابنته أوفيليا يختل ميزان عقلها من هول الصدمة بعد أن قتل حبيبها أباها ، وتذهب تتجول فى القصر تهذى بجميل الأغانى التى تندب فيها أباها الراحل وتنشد شعرا غير مفهوم عن لقاء العشاق وعن فراقهم • ثم ينتهى بها الأمر أن تنتحر غرقا •

وأما أخوها لايرتيس فيعود من باريس اذ بلغه نبأ قتل أبيه وهو فى هياج شديد • ويستثير الرعاع ويطالب بالثأر ، بل ينادى بعزل كلوديوس والجلوس على عرشه • فلما يعرف أن هاملت هو قاتل أبيه يرتد الى ولائه للملك •

ولكن غيبة هاملت لا تطول • فحين تقلع به السفينة تراوده الشكوك فى حقيقة بعثته الى انجلترا ، فيسرق من روزنكرانتز وجيلدنسترن الرسالة المختومة ويفضها ، ومنها يعلم أنها صك اعدامه ، فيحتفظ بها لنفسه ، ويكتب سواها موصيا ملك انجلترا خيرا برفيقيه ويبصم الرسالة الجديدة بخاتم أبيه ويضعها مكان الرسالة الأولى •

وكأنما القدر يرسم له الطريق تهاجم سفينته جماعة من القرصان ويقع وحده فى أسرهم • ويرده القرصان الى شاطىء بلاده بعد أن يجردوه من كل ثمين •

وهكذا يعود هاملت الى بلاط السينور ويروى على الملك مغامرته الغريبة فيخفى منها طرفا هو قصة الرسالة ويذكر طرفا هو ما لقيه على أيدى القرصان ٠

●

وتكون عودة هاملت بداية النهاية ٠ فحين يعلم كلوديوس بعودته يدبر خطة جديدة للقضاء عليه ، ويجد فى لايرتيس الحاقد على الأمير لقتل أبيه وانتحار أخته خير أداة ينفذ بها خطته ٠

ان لايرتيس قد تعلم فن السيف والمبارزة فى بلاد السيف والمبارزة ، وهى فرنسا ، وقد جرت بحنكته الألسنة - والرأى عند كلوديوس أن ينظم بين لايرتيس وهاملت مبارزة فى القصر تشرب فيهما الأنخاب احتفاء بعودة الأمير تحية له ٠ ولكنه يتفق مع لايرتيس على أن يزوده سيفا مسموم الطرف ان طعن به هاملت صرعه فى الحال ٠ وماذا يكون الأمر لو أن لايرتيس عجز عن اصابة هاملت؟ ان الملك مستعد كذلك بكأسه المسمومة يسقىٰ بها الأمير أثناء المبارزة حين يحل به التعب ٠

ويكون اليوم المشهود ٠ ويجتمع كل من فى البلاط الى خوان يتصدره كلوديوس وجرترود ٠ وقبل أن تبدأ المبارزة يطلب هاملت الى لايرتيس الصفح عنه لقتل أبيه معتذرا بنوبات جنونه ٠

وتبدأ المبارزة ٠ ولا ينال لايرتيس من هاملت شيئا أما هاملت فيصيب لايرتيس ثلاث اصابات ثم يحل به التعب ويتصبب عرقا ٠ ويناوله كلوديوس الكأس المسمومة ليرتوى ، ولكنه يضعها جانبا ويؤثر المضى فى المبارزة ٠ وتتناول جرترود كأس ولدها وتشرب منها نخب تفوقه فيسرى السم فى جسدها ٠ ويصيب لايرتيس هاملت بسيفه المسموم اصابة واحدة ولكنها كافية ، ويلتحم الرجلان ، وفى

هذا الالتحام يتبادلان السيوف ، ويطعن هاملت لايرتيس بالسيف المسموم ·

وتسقط جرترود جثة هامدة بعد أن تعلن أن الكأس التى شربت منها كانت مسمومة · ويسقط لايرتيس جثة هامدة بعد أن يعترف لهاملت بأن سيفه كان مسموما بتدبير من كلوديوس ، وبعد أن يتصافى الرجلان وهما على شفا الموت · ويجمع هاملت كل ما تبقى فيه من قوة وينقض على الملك الخائن ويطعنه بسيفه المسموم ·

وهكذا يسقط البيت الملكى فى السينور · ولا يبقى الا هوراشيو الذى يبادر الى الكأس المسمومة لعل فيها صبابة تجمعه بمولاه الأمير رفيق صباه وشبابه · ولكن هاملت يستحلفه قبل موته أن يكابد الحياة من بعده ليروى مأساته ولينصف الموتى من الأحياء ·

وكأنما القدر لا يرتاح الا اذا دارت عجلته دورة كاملة · اذ نرى الفتى فورتنبراس ، ولد فورتنبراس الكبير ملك النرويج الذى صرعه هاملت الأب ، وقد عاد برجاله من بعض فتوحاته فى بولندا مظفرا ، وبلغ السينور ليجد أن الأمير هاملت قد أوصى له بالعرش من بعده قبيل وفاته ، وهكذا يسترد الولد ما فقده أبوه ·

ويأمر فورتنبراس بأن يحمل جنود أربعة جثمان الأمير الصريع شأن الأبطال فى ذلك الزمان ، وأن يشيع الى مثواه الأخير فى أبهة الملك ، فهو صاحب العرش الأصيل ، ولو قد ارتقاه لكان ملكا والملوك قليل ·

تاجر البندقية

وليم شكسبير

نحن فى البندقية أيام أن كانت البندقية عروس البحر الأبيض المتوسط تلتقى فيها تجارة الشرق بتجارة الغــرب وتخرج منها الجوارى الى البحار السبعة وتعود محملة بأفخر البضائع • وفى البندقيــة نلتقى بأنطونيــو مع صــديقيه سالارينو وسالانيو ، وأنطونيو تاجر من أوسع تجار البندقية جاها وأكثرهم سفنا وأطيبهم قلبا وأشرفهم محتدا وأنبلهم خلقا ومقصدا • وهو يملك أسطولا من السفن يمخر البحار ويعــود بالخيرات والبركات • ومع ذلك فأنطونيو حــزين النفس منقبض الصدر ، ولكنه لا يعرف لكآبته سببا •

ويقول صاحبه سالارينو انه قلق على سفنه وتجــارته فيجيبه أنطونيو انه هادىء البال من هــذه الناحية فهــو لم يتعود أن يضع كل تجارته فى سفينة واحدة أو أن يضع كل آماله فى مكان واحد • وأسطوله متفرق فى كل البحــار • فيقول سالارينو انه لا ريب الحب نفذ سهمه فى قلبه ، ولكن أنطونيو يؤكد أنه ليس بالعاشق •

وتقبل على أنطونيو جماعة أخرى من الأصدقاء هم النبيل باسانيوولورنزو وجراتيانو ، وهم من صفوة أهل البندقيــة أما باسانيو فهو شاب وسيم المحيا مقبل عــلى الحيــاة ، يمت

لأنطونيــو بالقــرابة ، وأما لورنزو وجــراتيانو فهما من أصفياء باسانيو • وبعد أن تتواعد الجماعة على اللقاء في المساء للعشاء ، ينصرف الجميع الا أنطونيو وباسانيو •

ويستفسر أنطونيو من بسانيو عن قصة غرامه التي وعد بأن يطلعه عليها فيعلم منه أنه يحب آنسة من مدينة بلمونت المجاورة ، اسمها بورشيا ، جمالها عجيب وحكمتها باهــرة وفضائلها نادرة بين النساء ، أما ثراؤها فواســع وغزير ، فقد ورثت عن أبيها القصور والكنوز ، وبسانيو يحب أن يتقدم لخطبتها ، ولكنه لا يعرف السبيل الى ذلك • وأنطونيو يعرف بسوء حالته المالية التي أوقعــه فيها اسرافه وحبــه للبذخ • وهو لا يستطيع أن يتقدم الى خطبة هــذه الآنســة الكريمة الا اذا تحرر من ديونه الكثيرة • أنطونيــو أكبر دائنيه ، فقد طوق عنقه بأفضاله وأسره بمودته ، فبسانيو في حيرة من أمره لا يجد سواه ملاذا ومعينا •

وما أن يعرف أنطونيو بمقصد صديقه بســانيو حتى يجدد له عهد الاخاء قائلا : ان شخصه وماله وكل ما يتصل به تحت تصرفه ، وما عليه الا أن يطلب ما يشاء • ان بسانيو يقول انه بحاجة الى ثلاثة آلاف دينار ليجهز بهــا رحلته إلى بلمونت وأنطونيو لا يملك كل هذا القدر من المال نقــدا فجميع سفنه لا تزال في عرض البحار ولكن بسانيو يستطيع أن يلتمس من يقرضــه هــذا المبلغ في البندقيــة بضمانة أنطونيو ، باسمه أو باسم أنطونيو ، فلينطلق لفوره وليبحث عن المال وليعلم أن صديقه أنطونيو يقف الى جواره عــلى طول الطريق •

وفي بلمونت نرى بورشيــا في دارها مــع وصيفتها نريسا ، وهما تتحدثان عن بسانيو النبيل الوسيم الذي وقع من قلب بورشيا أحسن موقع منذ رأته في العام الســابق ، وذهبت تنسج حوله أجمــل الأحلام • ولــكن هيهات لهــذه الأحلام أن تتحقق ، فان أباها ، قد علق زواجها على الحظ ، فقد أعد قبل وفاته ثلاثة صناديق أحدها من الذهب والثاني

من الفضة والثالث من الرصاص ، ووضع فى صندوق منهـا صورة ابنته بورشيا واشترط على كل من يتقـدم لخطبـة ابنته أن يختار صندوقا من الصناديق الثـلاثة وأوصى بأن تكون بورشيا من نصيب من يختار الصندوق الذى وضـعت به صورتها ٠

وبورشيا تعـرف أن أباها كان مثلا للفضـائل الغراء وأنه كان على حكمة واسعة ، وهى لهـذا تقبل حـكمه فيها باستسـلام ، وان كان استسـلامها لا يخلو من الحـزن ، والخطاب يأتونها كل يوم من أقصى البلاد ، وكل يوم تخشى أن تزف الى رجل لا تحبه تفرضه عليها الصدفة العمياء ٠

واليوم جاءها رهط من الخطاب كلهم من أنبل النبلاء ، وكلهم قد سمع بجمالها وفضائلها فسعى اليها من اطـراف الدنيا ، ولكنها لم تجد فيهم واحدا يسعدها أن تكون زوجة له ٠ فهذا أمير من نابولى لا حديث له الا عن فرسـه وكيف يركب حدوتها كأن أمه قد زنت فيه بحداد ٠ وهذا الكونت بالاتين العبوس الذى لا يبتسم أبدا مهما سـمع من فكاهات وهذا السيد الفرنسى مسيو ليبون الذى لا يسمع طيرا يغرد الا ويبدأ فى الرقص ، وهو مولع بالنزال حتى ليبرر خياله ٠ وهذا البارون الانجليزى فالكونبريدج الذى لا تجد بورشيا ما تقوله له ، فهو لا يعرف اللاتينية ولا الفرنسية ولا الايطالية ولا عيب فيه الا أنه يجلس كالخشب المسندة ، ولا لوم عليه الا فساد ذوقه فهو يبدو كأنه اشترى صداره من ايطاليـا وبنطلونه من فرنسا وقبعته من ألمانيا ، وأتى بآداب السلوك من كل مكان زاره وهذا السيد الألمانى قريب دوق سكسونيا كأنه الاسـفنجة المعبـأة بالشراب ، وبورشيا تعـرف كيف تتخلص منه ، فهى ستضع كأسا من نبيذ الراين على الصندوق الخالى من صورتها فينجذب اليه بقوة مغناطيسية ٠

ولكن المقادير تنجى بورشيا من هذه النخبة من الخطاب، فليس بينهم واحد رضى بأن يتم زواجه على هذه الصورة وان يجازف هذه المجازفة ٠ ثم ينزل دارها خاطب سادس هـو

أمير مراكش الذى ذرع البحر وقطع البر لينال يدها ، وهو يرجو بورشيا ألا تضيق ببشرته السمراء وهى حلة ألبسته اياها شمس بلاده المحرقة ، ويهيب بها أن تأتيه بأى منافس من البيض ، ولو كان من بلاد شمسها ذابلة لا يذوب منهـا جليد . فهو يتحداه أن يطعن نفسه لترى بعينيها أيهما دمه أشد حمرة • فتجيبـه بورشـيا فى لباقة أن مشيئة أبيها لا تترك لها مجالا للاختيار ، ولو كانت لهـا يد فى اختيـار زوجها لما قل اعتبار أمير المغرب الباسل فى قلبها عن اعتبار أشجع الشجعان • ولكنها ستتزوج من يسوقه الحظ الى اختيار الصندوق الصحيح •

•

وتبين له بورشيا أنه لا مفر من المجـازفة ، وتشترط عليه اما أن يمسك عن المجازفة جملة ويمضى الى حال سبيله ، واما أن يقسم قبل أن يقدم على الاختيار عـلى أنه فى حالة فشله لا يتقدم الى امرأة أخرى طوال حيـاته طالبا الزواج منها ، وأن ينصرف لفوره عائدا الى بلاده ، وأن يكتم سر الصندوق الذى اختاره فلا يبوح بما اختار لأى انسان ، فهذه وصية أبيها وهذه شروطه •

ويقبل أمير المغرب أن يجرب حظه فتقتاده الى المعبد حيث يحلف اليمين •

وفى البندقية يمضى الفتى بسانيو الى شايلوك ، وهـو مراب يهودى شهير ملىء بالذهب والفضة ، ويطلب منه ثلاثة آلاف دينار لمدة ثلاثة أشـهر بضمان أنطونيـو فلا يجيبـه شايلوك أول الأمر بلا أو نعم ، ولكن يذهب يقول ان أنطونيو رجل ملىء ، وهو يعرف من البورصة أن لأنطونيو سفينة فى طريقها الى طرابلس وأخرى الى جزر الهند وثالثة الى المكسيك ورابعة الى انجلترا • فهو قد أحسن صنعا بتوزيع ثروته .. ولكن السفن مجرد أخشاب لا قيمة لها حتى تعود الى الميناء ، فهناك العواصف ، وهناك القرصان وهناك قطاع الطرق • كل هذه أخطار ينبغى ألا تغيب عن الخاطر •• ومع ذلك فهو

يقول ان أنطونيو رجل مليء ، وانه يكتفي بضمانه ، ولكنه رغم ذلك يستأذنه في التحدث معه ٠

ويأتي أنطونيـو ٠ وما أن يراه شـايلوك حتى تفيض نفسه بالحقد والسخيمة ، فقد كان يبغضـه بغضا لا مزيد عليه ، ويذهب يحدث نفسه قائلا : « انى لأمقته ٠ أمقتـه لأنه مسيحى ، ولكن أعظم مقتى له لأنه يقرض المال قرضا حسنا فيخفض ذلك سعر الربا بيننا في البندقية ٠ ولو أنى استطعت الايقاع به لشفيت منه غليلى القديم ٠ انه يمقت شعبنا المقدس ، وهو يهزأ منى ومن صفقاتى ومن كسـبى الحلال الذى يسميه الفائدة ، حيث تكثر جمهرة التجـار ٠ ألا فلتحل اللعنة على قومى ان أنا غفرت له اساءته لى » ؟

ويقـول أنطونيـو : « يا شايلوك : أنا لا اقرض ولا أقترض بالربا ولا آخـذ أكثر مما أعطيت ولا أعطى اكثر مما أخذت ، ولكنى سأكسر هذه السنة لأفى بحاجة صـديقى الملحة » ٠

فيجيبه شايلوك قائلا : « أيها السيد أنطونيو ، كم من مرة أهنتنى فى البورصة لما أقرض من مال وما آخذ من ربا ، ومع ذلك فقد احتملت اهانتك بنفس صـابرة ، فاحتمال المكاره هـو السـجية التى تفرد بها أبنـاء قومى ٠ لقبتنى بالكافر وسميتنى كلبا ومصاص دماء وبصقت على معطفى اليهودى ، وما من ذنب جنيته الا أنى كنت استثمر مالى ٠٠ ماذا أقول ؟ ألا ينبغى أن أقول : وهـل عنـد الكلب مال ؟ وكيف يملك كلب ثلاثة آلاف دينار ؟ أم ترانى أنحنى حتى الأرض وأقول فى ذلة العبيد ٠٠ أى سيدى الكريم ٠٠ أنت بصقت على يوم الأربعاء الماضى ، وفى يوم كذا أهنتنى وفى يوم كذا لقبتنى بالـكلب ، ومن أجـل كل هـذه الأفضـال سأقرضك كل هذا المال الذى تطلب ؟ »

ويغضب أنطونيو ويجيب أنه سيلقبه بالكلب ويبصـق

في وجهه مرة أخرى اذا اقتضى الأمر · فليعلم أنه لا يقرض هذا المال لصديق ولكن يقرضه لعدو ، وله أن يقتص منــه بنفس مطمئنة ان هو عجز عن الوفاء ·

وهنا يقــول شايلو انه انما أراد بكلامه أن يصفو له قلب أنطونيو ، وهو يرجو أن يكــون صــديقه وأن يتناسى كل ما بدر منــه من اهانات له · وأنه معطيه ما يطلب من مال دون أن يأخذ درهما واحدا من الربا ·

ويشكره أنطونيو عــلى هذا الكرم ، فيقــول شايلوك : هيا بنا اذن الى موثق العقود لنوقع على الصك ، ولنشترط في روح الدعابة أنك ان لم تف بالدين المحــدد في التاريخ المحدد حق لى أن أستوفى دينى باقتطاع رطل من لحمك فى أى مكان من جسدك يروق لى ·

ويعترض بسانيو قائلا انه لن يقبل أن يوقع أنطونيو مثل هذا الصك · ولــكن أنطونيــو يقبــل الشرط قائلا : « لا تخش شيئا يا صديقى فانى أنتظر عودة بضائع قيمتها ثلاثة أضعاف هذا الصك قبل انقضــاء شــهرين ، أى قبل حلول أجله بشهر » · أما شايلوك فيقول لبسانيو ان رطلا من لحم رجل أقل نفعا من رطل من لحم الضأن أو الماعز أو العجول · فليطمئن بالا لأن هذا النوع من السداد لا يفيــد صاحب الحق فيه · وهكذا يمضى أنطونيو وشايلوك لاتمام هذه الصفقة ·

وفى هذه الأثناء تعد الأقدار لشــايلوك ضربة قاصمة تأتيه من حيث لا يقــدر · فابنتــه الجميلة عاشــقة للفتى لورنزو والفتي لورنزو عاشق لها ، وقد تعاهدا سرا عــلى الزواج · ولكن كيف تتزوج جيســكا اليهــودية من أرنزو المسيحى ؟ انهما يتفقان على أن تهرب جسيكا من بيت أبيها شــايلوك مع لورنزو الى بلدة أخــرى حيث تعتنق جســيكا المسيحية ويتزوجان ·

وتأتى الفرصة السانحة عندما يخرج شايلوك فى المساء

للعشاء فى حفل تنكرى أقامه بسانيو • وتستخفى جسـيكا فى زى غلام وتخرج خلسة الى موعدها مع لورنزو وقد حملت معها صندوقا كدست فيه كل ما وصلت اليه يدها من ذهب أبيها وجواهره • وفى الموعد المحدد تلتقى بلورنزو وتعطيه الصندوق ثم تمضى معه الى الحفل وهى تتقدمه فى الظلام حاملة أمامه المشعل فى موكب الكرنفال ، فلا يميزها أحـد حتى أبوها

●

وقبل أن ينتهى الحفل يستقل بسانيو وجراتيانو زورقا يمخر بهما البحر من البندقيـة قاصـدا مدينة بلمـونت • ويكتشف شايلوك عند عودته الى داره اختفاء ابنته ، بما خف حمله وغلا ثمنه من متاعه ، فيخرج الى الشـوارع هائجـا كالمجنون ، يصرخ صراخا يفتت الأكباد : « بنتى ! دنانيرى، بنتى هربت مع مسيحى !

أين العدل ! أين القانون ! دنانيرى ، ابنتى ! » ويعود على أحجاره الكريمة مرددا : « سرقتها بنتى ! أين العدل ! ابحثوا عن البنت ، تجدوا معها الجواهر والدنانير » • ومن وراء شايلوك تجمهر كل صبية البندقية يرددون ساخرين : « جواهرى ! بنتى ! دنانيرى ! »

ويقول سـالانيو لسـالارينو ـ ان هذا نذير شؤم لأن غضب شايلوك الآن قد بلغ حدا لا سبيل الى كبحه ، والويل لأنطونيو ان هو تأخر يوما واحدا عن الوفاء بدينه ، فهـو قد سمع بعاصفة هبت فى بحر المانش وحطمت فيه سـفينة فانصرف فكره الى أنطونيو وسفنه • ولكنه رأى أنطونيـو الطيب كالقديس يودع بسانيو ويعـانقه عنـد سـفره الى بلمونت راجيا اياه ألا يزعزع مقامه فى بلمونت بالتفـكير فى اليهودى شايلوك وفى دينه ، وألا يعود الى البندقية حتى يتم زفافه الى بورشيا •

وفى دار بورشيا ببلمونت يتقدم أمير المغرب للامتحان

العسير فيقف قبالة الصناديق الثلاثة ، ويقرأ النقش على الصندوق الذهبى فيجده يقول : « من اختارنى ظفر بما يتمناه الكثيرون» . أما النقش على الصندوق الفضى فيقول: « من اختارنى ظفر بما يستحقه » وأما النقش على الصندوق الرصاصى فيقول : « من اختارنى فليعط كل ما عنده وليجازف بكل شىء » . ويقف أمير المغرب حائرا بين هذه الصناديق الثلاثة ، يفكر فى نقوشها ويتمعن فى معانيها ، ولكنه لا يلبث أن يستقر رأيه على شىء ، فينصرف عن الصندوق الرصاصى لأنه ينذر ويتوعد ، وينصرف عن الصندوق الفضى الذى يعد من يختاره بما يستحقه ، هو يعرف أنه بنسبه وبجاهه وبشجاعته يستحق آن ينال يد بورشيا الجميلة ، ولكن هل يعرف الصندوق ذلك ؟ ان أمير المغرب يختار الصندوق الذهبى لأنه يعد بتحقيق المنى التى يحلم بها الكثيرون .. وهل هذه المنى الا بورشيا الجميلة التى يحج خيرة فتيان الدنيا الى بلمونت طالبين يدها ؟ ثم الذهب! نعم الذهب ! الذهب محقق الأحلام محقق الأمانى .

ويطلب أمير المغرب من بورشيا مفتاح الصندوق فتعطيه اياه ، ويفتح الأمير الصندوق متلهفا ، فماذا يجد فيه ؟ يجد جمجمة فى عينيها الفارغة ورقة تقول :

« ليس كل ما يلمع ذهبا !
لكم سمعت هذا القول يقال .
وكم من رجل باع حياته
ليحظى بمرآى من الخارج ،
والقبور المنقوشة بماء الذهب
تضم الرفات والديدان .
فلو كانت حكمتك بقدر شجاعتك
ولو كان فى جسدك الفتى عقل شيخ ناضج

لما وجدت هذا الجواب مدونا على هذا الطرس :
فوداعا ! ان حبك حب فاتر » !
وهكذا ينصرف أمير المغرب كاسف البال يغالب حزنه ٠

ومن بعد أمير المغرب يتقدم فارس أندلسى هو أمير أراجون لخطبة بورشيا ، وهو فتى معتد بنفسه عظيم الخيلاء ٠ ويعرف بشروط الامتحان فيرضى بها ٠ وبعد أن يؤدى القسم ، يتقدم الى الصناديق الثلاثة ويتمعنها جيدا ويتدبر ما تقوله نقوشها ، فيصدف عن الصندوق الذهبى لأن الذهب لا يجتذب الا الرعاع وهم أكثر الناس ، أما هو فمن الصفوة التى لا تشارك العامة أمانيها المبتذلة ٠ ويسحره الصندوق الفضى ، فيقف أمامه مبهورا ٠ انه يعد من يختاره بما يستحق ، وهو لا يطلب الا ما يستحق ٠ وهل يستحق أمير أراجون ، وهو أعظم فارس وأنبل نبيل وأشعر شاعر وأكرم كريم وزينة كل بلاط الا أجمل عروس فى الوجود ؟ نعم ، انه يستحق يد بورشيا ، وهذا ما يعده به النقش الفضى ٠

ويطلب أمير أراجوان المفتاح من بورشيا فتعطيه اياه ٠ ويفتح الصندوق الفضى فيجد فيه رأس أبله ٠ ورقة تقول :

من الناس من يعانقون الأطياف ٠
ومن عانق الأطياف كانت سعادته طيفا ٠
وأنا أعلم أن بين الأحياء حمقى ٠
طلاؤهم من ماء الفضة ، وهذا طلائى
فتزوج من شئت من النساء
فرأس الأبله على كتفيك دائما ٠
هيا انصرف ٠ وعجل بالانصراف ٠

وهكذا يخرج أمير أراجون فى حاشيته ويعود الى وطنه كاسف البال !!!

وما أن يمضى الأمير حتى يصل بسانيو فى كوكبة من أصدقائه وأتباعه ، وينزل ضيفا على بورشيا التى تفرح بمقدمه فرحا عظيما .

وفى البندقية تتواتر الأنباء فى الريالتو وهو بورصة المدينة بغرق سفن أنطونيو النبيل . وشايلوك الهائج لايزال على هياجه يرغى ويزبد ويندد بالأفاق المسيحى الذى فر بابنته ودنانيره وجواهره ، ويتوعد أنطونيو بأن يفى بالصك الذى اقترب أجل استحقاقه قائلا : « لكم لقبنى بالمرابى . لكم أقرض الناس بدون مقابل عمذ باحسانه المسيحى فليفكر الآن فى الوفاء بالصك » . وحين يقول سالرينو : « واذا عجز عن السداد فانى واثق من أنك لن تقتطع من لحمه ، فماذا ينفعك « ينفعنى فى اصطياد السمك . فان لم يشبع لحمه أحدا ، فهو على الأقل يشبع شهوتى للانتقام . انه بالغ فى اهانتى وضيع على نصف مليون جنيه ، وكان يطرب لخسائرى ويسخر من أرباحى ويعرض بقومى ، ويفسد على صفقاتى ويصرف عنى أصدقائى ويؤلب على أعدائى . وماذا كان دافعه الى كل ذلك ؟ انى يهودى . أليست لليهودى عينان ؟ أليست لليهودى يدان ؟ أليس لليهودى أعضاء وأوصال وحواس ونوازع وعواطف ؟ ألا يأكل اليهودى نفس الطعام ؟ ألا يؤذيه نفس السلاح ؟ ألا تعتريه نفس الأمراض ويبرئه نفس الدواء . ألا يكويه الحر الذى يكوى المسيحى ويقرسه برد الشتاء الذى يقرس المسيحى ألا تدمى أجسادنا ان وخزتنا ونضحك ان دغدغتنا : فان دسستم لنا السم الا نموت وان أسأتم الينا ألا ننتقم ؟

ان كنا نشبهكم فى كل شىء ، فنحن نشبهكم فى الانتقام كذلك ، ان أساء يهودى الى مسيحى فكيف يخفف المسيحى عن كربه ؟ بالانتقام . وان أساء مسيحى الى يهودى فكيف يشفى اليهودى غليله ؟ بالانتقام كذلك ، لن أطبق الا الشريعة السافلة التى علمتمونيها » ..

ويفد على شايلوك مراب من أبناء جلدته يدعى طوبال فينصرف سالانيو وسالارينو · يفد طوبال ليقول انه لم يعثر لجسيكا بنت شايلوك على أثر فى ميناء جنوا ، فينوح شايلوك على ما أنفق من مال فى البحث عنها · فبعض ماله قد ضاع وبعضه الآخر يضيع فى البحث عما ضاع · ويستمطر اللعنات على ابنته ويتمنى لو رآها ميتة عند قدميه والجواهر تزين جثمانها · ولكن الفرح يشيع فى نفس شايلوك حين يسمع من طوبال آن سفينة أنطونيو القادمة من طرابلس قد ابتلعها اليم ويصرخ : « شكرا لله ! شكرا لله » ان دائنى أنطونيو فى الريالتو يقولون انه لا مفر من اشهار افلاسه · ان كل مراكبه قد عصفت بها العواصف · فورا فورا · الى رجال الضبط · الى القضاء · فبعد أسبوعين اما الوفاء واما الانتقام ·

اما فى بلمونت فبسانيو يطلب يد بورشيا وصديقه جراتيانو يطلب يد وصيفتها نريسا · ويرجو بسانيو ان يعجل باجتياز هذا الامتحان العسير الذى فرضه ابوها عليها ، اذ لابد من عودته الى البندقية على جناح السرعة فهو قلق على صديقه الوفى أنطونيو الذى رهن حياته ليهيىء له السعادة · وتستمهله بورشيا المحبة له ، فهى تخشى ان يسىء اختيار الصندوق فينصرف عنها الى غير رجعة · فليبق اذن بسانيو الى جوارها أطول فترة ممكنة ، فان قدرت المقادير أن يتولى عنها ، فهى فى صحبته قد ذاقت طعم النعيم الذى لا يعرفه الا المحبون ·

ولكن بسانيو المعذب بين حبيبته وصديقه يصر على الاسراع فى الاختيار ، فتقوده بورشيا الى الصناديق بعد أن يؤدى القسم · وكأنما للحب عين نافذة تفتق الحجب ، فما أن يقرأ بسانيو النقش على كل صندوق حتى يعرض عن الذهب والفضة ، ويتقدم الى الصندوق المصنوع من رصاص قائلا انه يختار هذا الصندوق الذى لا يعد صاحبه بشىء ، فهو يحتقر بهرج الذهب والفضة وكل ما يؤلب الانسان على

أخيه الانسان • وما آن يفتح الصندوق حتى يجد فيه صورة بورشيا الجميلة ترنو اليه فى حنان • أما بورشيا نفسها فقد أوشكت أن ترقص طربا بعد أن كانت معلقة الآنفاس • ويقرأ بسانيو العبارات التالية مدونة على الطرس فى الصندوق :

« يا من لا تختار بالمظاهر
حظك موفق واختيارك صحيح !
وما دام هذا حظك ونصيبك
فاقنع به ولا تسع الى غيره •
فان رضيت به
وجعلت من حظك أسس سعادتك
فالتفت الى حيث تنتظرك سيدة فؤادك
وأثبت حقك فيها بقبلة العاشق » !

وهذا ما يفعله بسانيو ، فهو يثبت حقه فى بورشيا بقبلة العاشق • فتعطيه بورشيا خاتما ذهبيا وهى تقول : « كنت حتى الآن سيدة هذا البيت الجميل ومولاة على خدمى وسلطانة على نفسى ، أما الآن فالبيت بيتك والخدم خدمك وأنا ملك لك يا مولاى • كل هذا أعطيك اياه مع هذا الخاتم الذى ان تخليت عنه أو أضعته أو وهبته للغير كان ذلك نذيرا بزوال حبك لى » • ويقسم بسانيو على المحافظة على الخاتم بكل عهود الهوى • وتحذو تريسا حذو سيدتها فتعطى جراثيانو خاتما تستحلفه ألا يفرط فيه مادام باقيا على حبها •

وفى هذه الأثناء يصل لورنزو ومعه زوجته جسيكا بعد أن ظلا مختفيين حينا من الزمن ، ومعهما سالريو ورسول من البندقية فترحب بها بورشيا أيما ترحيب • ويسلم الرسول لبسانيو الرسالة فيفضها ، وما أن يقرأها حتى يعرو وجهه شحوب من شحوب الأموات • وتسأله بورشيا عن الخطب ،

فتعلم منه أن الرسالة من أنطونيو وأنها تقول ان العواصف قد عصفت بكل سفنه ، فعجز عن الوفاء بدينه وأن اليهودى شايلوك يطالب برطل من لحمه قرب القلب ، فهو فى شجنه يقول وداعا لبسانيو وللحياة ، فهو يعلم أن نهايته اقتربت وهو يرجو أن يرى صديقه بسانيو قبل موته ان كان بسانيو لا يزال مقيما على حبه • أما ما بينهما من دين فليعده بسانيو لغوا ملغيا ، فما بعد موته حساب •

وتسأل بورشيا عن الدين فتعلم أنه ثلاثة آلاف دينـار فتقول : « ادفعوا له ستة آلاف وألغوا الصـك • ضـاعفوا السـتة آلاف ثم أضربوا هـذا الحاصـل فى ثلاثة أمثاله ولا تسقط شعرة واحدة من رأس صديق على هذا الوصف الذى تصفون بسبب بسانيو • فخـذنى أولا الى الكنيسـة واجعل منى قرينتك ، ثم ارحل الى البندقية لتكون الى جوار صديقك » •

وهكذا يعود بسانيو الى البندقية بمال لينقذ صـديقه أنطونيو فيجد شايلوك ينبه السجان أن يشدد الحراسة على سجينه ويزأر قائلا : « لا تحدثونى عن الرحمة ! الرحمة ! هذا هو الأحمق الذى كان يقرض المال دون فائدة • شـدد عليه الحراسة يا سجان » • ويحاول أنطونيو أن يتفاهم معه، ولكن شايلوك يصم أذنيه قائلا : « سأنفذ صكى • لا تجادل فى صكى • لقد أقسمت يمينا أن أنفذ صكى • لقد سميتنى بالكلب دون سبب ، وما دمت كلبا فاحذر أنيابى • ان الدوق سيعطينى حقى • • » • ثم ينصرف شايلوك ، فيقول سالارينو لأنطونيو : « أنا اثق من أن الدوق لن ينفذ الصك • » فيجيبه أنطونيو قائلا : « ان الدوق لا يستطيع تعطيل القانون ، فلو أن الضمانات التى يتمتع بها الأجانب بيننا فى البندقيـة أهدرت لنقض ذلك من عـدالة الدولة ، وتجـارة المدينـة وأرباحها تأتيها من كل الأمم » •

وبعد رحيل بسانيو عن بلمونت تدعو بورشيا لورنزو وزوجته جسيكا قائلة انها تترك بين أيديهم دارها ومتاعها

أمانة يحافظان عليها فهي ماضية مع وصيفتها تريسا الى دير قريب ، فقد نذرت الى الله أن تتعبد فيه ريثما يعود زوجها • ثم توفد خادمتها بالثازار الى مدينة بادوا برسالة الى ابن عم لها يدعى الدكتور بيلاريو ، وهو فقيه من فقهاء القانون ، وفي الرسالة تطلب بورشيا أن يبعث اليها الدكتور بيلاريو برداء رجال القانون وبما يراه من ملاحظات في قضية شايلوك وأنطونيو •

وفي البندقية ينعقد عقد المحكمة برئاسة الدوق ويمثل الجميع أمامه ، أنطونيو وبسانيو وجراتيانو وساليريو ثم شايلوك • ويهيب الدوق بشايلوك أن يعدل عن مطلبه باسم الرحمة وباسم الضمير ، ولكن شايلوك يقف كالصخرة لا يلين • انه يطالب بحقه في رطل من لحم أنطونيو كما يقول الصك بالحرف الواحد ، وليست هناك قوة على وجه الأرض تجعله يعدل عما يطلب، ويقول : «لقد أبلغت سموك بمطلبي ، وقد أقسمت بيوم السبت المقدس • أن أحصل على حقي المنصوص عليه في الصك • فان أبيته على فلتعصف العواصف اذن بميثاق مدينتكم وبحريتها » • انه يفضل رطلا من لحم أنطونيو على ثلاثة آلاف دينار • ولا تسأل سائل عن السبب ، فما عنده سبب الا ان هذا مزاجه • وليس هناك ما يحمله على ابداء الأسباب ، فهو يكتفي بأن يقول انه حاقد عليه وهو لا يطلب الا حقه •

ويعرض عليه بسانيو ستة آلاف دينار وهي ضعف ماله فيجيبه : « لو أن كل دينار من هذه الآلاف الستة كان ستة دنانير لما قبلتها • أنا أطلب تنفيذ صكي » ويقول الدوق : « وأى أمل لك في رحمة السماء اذا لم ترحم على الأرض » • فيجيبه شايلوك قائلا : « وأى خطأ ارتكبته حتى أخشى الحساب ؟ ان بينكم عديدا من العبيد الذين اشتريتموهم بالمال وسخرتموهم في أفظع الأعمال وأخسها كأنهم حميركم أو بغالكم أو كلابكم ، لا لشيء الا لأنكم اشتريتموهم بالمال • تراني أقول لكم : أطلقوهم أحرارا ،

زوجوهم من بناتكم ؟ وكيف يتصببون عرقا تحت أحمـالهم الثقيلة • هيا اجعلوا فراشهم وثيرا كفراشـكم واطعموهم من زادكم الشهى الذى به تطعمون ؟ ستجيبوننى : ان هؤلاء العبيد ملك لنا ، وهكذا أجيبكم أنا : ان رطل اللحم الذى أطلب اقتطاعه منـه قد كلفنى غاليـا ، وهـو ملك لى ، وساحصل عليه • فان ابيتم على ذلك فسحقا لقـانونكم ، وقوانين البندقيـة حبر عـلى ورق • أنا أطلب العـداله • اجبنى : هل أظفر بها » ؟

فيقول الدوق انه سيرفع الجلسة ما لم يحضر الفقيـه الذى ينتظر وصـوله لنظر هـذه القضية وهـو الدكتـور بيلاريو •

وهنا يأتى رسول يقول ان محاميا شابا ومعـه كاتبـه يستأذنان الدوق فى دخـول المحكمة فهما موفدان من قبـل الدكتور بيلاريو ، فيأذن لهما الدوق فى الدخول •

وتدخل بورشـيا مرتدية رداء رجال القـانون ، وقد استخفت تماما بحيث لم يعرف أحد هويتهـا ، ومن ورائهـا نريسا فى زى كاتب محام • وتسلم بورشيا الدوق رسـالة من الدكتور بيلاريو يعتذر فيها بمرضه عن الحضور ويقول انه فوض الفقيه الشاب بالثازار ، وهو من ألمع فقهاء روما ، فى نظر القضية مكانه • فيرحب الدوق بالفقيه الجديد •

ويخرج شايلوك سكينا ويذهب يشحذها أمام الناس فى انتظار اللهفان • وتسأل بورشيا آنطونيو قائلة :

بورشيا : أتعترف بالصك ؟

آنطونيو : نعم •

بورشيا : لا اكراه فى الرحمة •

شايلوك : وماذا يجبرنى عليها ؟ آجبنى :

بورشيا : الرحمة لا اجبار فيها ، فهى تهمى كما يهمى الغيث من السماء فتروى ما تحتها . وبركتهـا بركتـان ، فبورك من أعطاها وبورك من أخـذها . وهى فى اقوى قوتها عند أقوى الأقوياء ، وهى أجمل فى الملك المتوج من تاجه . فصولجان الملك يعرض قوة سلطانه الدنيوى ، وهو دلالة هيبته وجلالته ، ولكن الرحمة فوق هـذا الصـولجان القوى . فعرشـها فى قلوب الملوك ، وهى من صـفات الله نفسه . وحين تكسر الرحمة شوكة العـدالة يبـدو سلطان الأرض أقرب ما يكون لسلطان الله . فاذكر هذا اذن أيهـا اليهـودى وأنت تطالب بالعـدالة ، انه ليس بيننا واحـد سيدركه الخلاص فى السماء اذا جرت علينا عدالة السماء . نصلى لتدركنا رحمة الله ، وهذه الصلاة تعلمنا جميعـا أن نكون من الراحمين .

ويسمع شايلوك هذا الكلام فلا يجد ما يقوله الا قوله :

« على رأسى فلتسقط أفعالى ! أنا أطالب بالقانون ، أطالب بتنفيذ الصك » .

ويقدم بسانيو نفسه فدية ليموت بدلا من أنطونيو ولكن شايلوك يأبى متمسكا بنصوص الصك . ويضرع بسـانيو الى الفقيه أن يوقف أعمال القانون ، ولكن بورشيا تقول : « هذا محال . فليس فى البندقية سلطة تملك تغيير قانون مقرر فان فعلنـا ذلك عد سـابقة وارتكبت بعـدنا أخطاء عديدة تقوض دعائم الدولة أسوة بما فعلنا » .

وهنا يصيح شايلوك متهللا : يا أحكم القضاة ! يا أحكم القضاة !

وتعود بورشيا فتعرض عليه ثلاثة أمثال حقه نقدا ، ولكن شايلوك يأبى فى عناد . وهنا تقـول : اذن لابد مما ليس منه بد . وتأمر أنطونيو الزاهد فى الحياة أن يعرى صدره استعدادا للوفاء بدينه من لحمه . ويتهلل شـايلوك ويصيح : « يا أنبل القضاة ! يا أعدل القضـاة » ! وتأمر

بورشيا شايلوك أن يتقدم حاملا سكينه لاستيفاء دينه ·
وقبل أن يبدأ شايلوك في اغماد السكين تستوقفه بورشيا قائلة : ان الصك يقول رطلا من اللحم بجوار القلب ، فهل هناك ميزان يوزن به لحم المدين فيصيح شايلوك بأنه قد جاء معه بميزان لهذا الغرض ·

وتطلب بورشيا احضار طبيب يضمد جراح أنطونيو لئلا ينزف حتى الموت ، ولكن شايلوك يصيح معترضا : « ليس في الصك شيء من هذا ·· أنا لا أجد شيئا من هذا في الصك » ·

ويسلم أنطونيو على بسانيو مودعا ، ويرجوه ألا يشقى لأنه انتهى هذه النهاية الأسيفة بسببه · ويزمجر شايلوك قائلا انهم يضيعون وقته في العبث الذى يسمونه الوداع · فتقول بورشيا : تقدم اذن وخذ حقك : رطل من لحمه في موضع الصدر · ويتقدم شايلوك فرحان جذلا ، ويهم باغماد نصله في صدر أنطونيو ·

ولكن بورشيا تستوقفه مرة ثانية قائلة : « ان هناك مسألة أخرى : فهذا الصك لا يعطيك الحق في قطرة واحدة من الدم · ونص الكلام واضح : رطل من اللحم فخذ اذن رطل اللحم الذى يحق لك بموجب الصك ، ولكن اذا أرقت قطرة واحدة من هذا الدم المسيحى ، فكل آراضيك وأموالك مصادرة لدولة البندقية بموجب قوانينها » ·

ويقف شايلوك ذاهلا ·

« ويصيح جراتيانو ساخرا من شايلوك : « يا أحكم القضاة ! يا أعدل القضاة » !

وتخاطب بورشيا شايلوك الذاهل : « لقد طلبت العدالة ، وسيكون لك منها أكثر مما طلبت » · ويتقدم بسانيو بالمال يعرضه من جديد على شايلوك ليأخذه وينصرف · ولكن بورشيا تتدخل قائلة : ان اليهودى قد رفض المال وأصر على حقه عينا ، فلن يأخذ الا حقه عينا ·

وتخاطب شايلوك قائلة : هيا ، استعد لقطع اللحم واياك أن تريق قطرة واحدة من الدم • ولا تقطع الا رطلا واحدا فان زدت عليه أو نقصت عنه ولو بمقدار خردلة كان جـزاؤك الموت ومصادرة أملاكك •

ويتصبب العرق من جبين شايلوك ويقول : أعطـونى مالى الأصلى ودعونى أنصرف ويهم بسانيو باعطائه المـال ولكن بورشيا تمنعه قائلة : « انه رفضه أمام المحكمة ولن يأخذ الا ما يقول به الصك » •

ويقـول شـايلوك انه متنازل عن ماله ماض الى حال سبيله • ولكن بورشيا تعود فتقول : ان فى البندقية قانونا يقـول انه اذا ثبت عـلى أجنبى أنه أراد قتل مـواطن من مواطنيها ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، فان للمجنى عليه الحق فى نصف أملاكه ، أما نصفها الآخر فيؤول للدولة، وتبقى حياة الجانى رهينة فى يد الدوق وحده يتصرف فيها كما يشاء ، وهو وحده يملك حق العفو عنه •

ويقـول الدوق أنه يعفـو عن شايلوك قبل أن يلتمس شايلوك العفو ليريه الفرق بين روحه وروحهم •

ويصرخ شايلوك قائلا : ان أخذتم أموالى قتلتمونى ، فهى عماد حياتى •

وهنا يقول أنطونيو انه متنازل عن نصيبه فى نصـف أمواله للدولة ليستثمر شايلوك النصف الباقى أثناء حياته، وهو يعلق هذا على شرطين ــ أن يسلم شايلوك ــ تركته عند وفاته لابنته جسيكا وزوجها لورنزو ، وأن يعتنق المسيحية•• ويضيف الدوق الى هذا قوله : فان لم يفعل ذلك سحبت قرار العفو الذى أصدرته عن حياته •

تسأل بورشيا شايلوك قائلة : «راض أنت بهذا القرار» فيجيبها شايلوك وهو محطم القوى : « نعم ، أنا راض » •

وهكذا تنتهى هذه المحاكمة العجيبة ، ويتقدم أنطونيو

وبسانيو وجراتيانو الى بورشيا ونريسا ليعربوا عن عميق شكرهم ، وليعرضوا عليهما أتعاب المحاماة • ولكن بورشيا تأبى أن تتقاضى درهما واحدا ثم تقول عند الخاف بسانيو : ان كان لابد وأن أتقاضى شيئا ، فأعطنى خاتمك هذا للذكرى وتطلب نريسا أيضا من جراتيانو اتمه للذكرى • ويتردد الرجلان طويلا ، فقد أقسم كل أمام زوجته أن يحافظ على خاتمها ما بقى حيا • فتهزأ بورشيا من بسانيو قائلة ان سخاءه فى لسانه لا فى قلبه • ثم تتركه وتنصرف • فينظر اليه أنطونيو نظرة العاتب ، فيعدو بسانيو وجراتيانو خلف بورشيا ونريسا ويعطى كل منهما خاتمه •

ويعود بسانيو وجراتيانو الى بلمونت ليقيما الأفراح الملاح ومعهما أنطونيو ، فيجدا بورشيا ونريسا فى انتظارهما • وفى وسط البهجة تلاحظ بورشيا ان بسانيو قد خلع خاتمها من أصبعه • ويشرح جراتيانو أنهما أعطيا الخاتمين للمحامى الذى أنقذ حياة أنطونيو ولكاتبه • وتتهم كل منهما زوجها أنه فرط فى خاتمها لامرأة من نساء البندقية • ويكون عتاب عابث وخصام مفتعل • وبعد أن تشبع كل زوجها تقريعا وتأنيبا ، تكشف بورشيا عن حقيقة ما فعلته حين نابت عن الدكتور بيلارتو فى نظر القضية • وترد بورشيا الخاتم الى بسانيو وترد نريسا الخاتم الى جراتيانو ، على أن تكون هذه « آخر مرة » يفرطان فيها فى هذا الرمز الجميل الذى يعبر عن كل معانى الزوجية •

أما هدية بورشيا لأنطونيو فهى من نوع آخر ، فهى تزف اليه البشرى بأن ثلاثة من سفنه الضائعة قد عادت الى البندقية سالمة تحمل خيرات الأرض • وأما هديتها للورنزو وجسيكا فهى وصية شايلوك المسجلة لهما بكل ما يملك حين يفارق الحياة ••

فاوست

للشاعر الألمانى جوته

اذا سأل سائل ما هى أعظم عشرة كتب فى عالم الأدب منذ فجر الانسانية الى اليوم لكانت « فاوست » للشاعر الألمانى العظيم جوته بلا جدال احدى هذه الروائع العشر .

ولقد استغرق انشاء هذه الدراما نحو ستين عاما . وليس المقصود بهذا القول أن جوته تفرغ لفاوست وحدها من المؤلفات شعرا ونثرا . وانما المقصود به أن جوته بدأ ينظم الجزء الأول من «فاوست» فى عام ١٧٧٠ ، وظل يقبل على النظم بين الحين والحين كلما واتاه الالهام فلم يفرغ من هذا الجزء الأول الا عام ١٨٠٦ أما الجزء الثانى الذى نشر عام ١٨٣٢ فقد كان يشتمل على مشاهد ، نظمت فى أعوام مختلفة أقدم ما فيها يرجع الى محصول عام ١٧٧٢ .

أما جوته نفسه فأشهر من أن يعرف ، وأهم ما كتب من قصص بالنثر «آلام فرتر» و «فلهلم مايستر»، وأهم ما كتب من دراما بالشعر أو من شعر درامى بتعبير أدق هو «فاوست» ثم « جوتز ذو اليد الحديدية » و « محمد » و « أجمونت » . أما باعه فى النقد فطويل . وما من دارس للأدب الا وقرأ محادثاته مع أكرمان أو ذكرياته التى سماها : « الشعر والحقيقة » .

وقد عاش جوته حتى طعن فى السن ، فهو قد ولد فى ٢٨ أغسطس ١٧٤٩ ومات فى ٢٢ مارس ١٨٣٢ أى أنه توفى عن ثلاث وثمانين سنة • وفى أثناء حياته المديدة هذه تقلد أرفع المناصب فكان وزيرا فى فايمار ، وظل مصدرا يشع الفكر والحكمة والعلم على معاصريه لا فى ألمانيا وحدها ولكن فى كل بقعة من بقاع العالم المتمدن •

ولم يكن جوته رغم خصوبته فى الشعر الغنائى والدرامى شاعرا غنائيا أو دراميا فى المقام الأول ، بل كان شاعرا فلسفيا من أعظم طراز لا يقل عن دانتى ، ويعلو على شكسبير فى هذا النوع من أنواع الانشاء الذى يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب ، وان لم يرق الى مقام شكسبير فى الاحساس المسرحى أو فى فهمه للشخصية الانسانية • ومن آثاره التى لا تنسى فكرته عن وحدة الانسانية وفكرته عن الأدب العالمى وفكرته عن الانسان بين الله والطبيعة ، وهذه الفكرة الأخيرة هى موضوع « فاوست » •

وقد عاصر جوته الثورة الفرنسية ورأى مبادئها تسرى فى بلاد أوربا المختلفة سريان النار فى الهشيم فتزلزل الاقطاع حيثما سرت ، وعاصر نابوليون ورأى جيوشه تجتاح الممالك والامارات وتطيح بالعروش وتوشك أن توحد أوربا كلها تحت تاج « الامبراطور » • وكان جوته لا يزال فى الثلاثين من عمره حين نشبت الثورة الفرنسية فلا غرابة أن اتسم أدبه فى صدر حياته بالثورة الجامحة سواء فى السياسة أو فى الدين أو فى الأخلاق أو فى أساليب التعبير الفنى • ثم ما لبث تمرده أن هدأ درجة درجة حتى بلغ التوازن المطلق والصفاء الذى ليس بعده صفاء • ولكنه لم يفقد اعجابه العظيم بنابوليون الذى كان يعده أشبه شىء برسول العناية الالهية لاقرار مبادىء الثورة الفرنسية فى كل مكان ، رغم أن هذا الفاتح الجبار لم يرحم بلاد جوته من التخريب والتدمير وجعل من رجالات ألمانيا قطعا من قطع الشطرنج •

وقد أجمع سائر النقاد على أن جوته قد بلغ قمة توازنه

وخصوبته وصفائه فى « فاوست » هـذه التى لا نعرف أين نضعها بين أنواع الأدب المختلفة · فهى ليست بالدراما رغم أن كل تعبير فيها بالحوار المنظوم · ولعل أصدق وصف لها هو أنها ملحمة كتبت بالحوار ، لا الحـوار الذى يمـكن أن يمثل عـلى المسرح ولـكن الحـوار الذى يدعـو الى التأمل والتفكير ·

هى اذن ملحمة تصور صراع الانسـان مع قوى الخير والشر فى هذا الوجود سواء أكانت خارج النفس أم داخلها · فقصة فاوست هى قصة الانسان الذى تضيق نفسه الرحيبة الخلاقة بكل ما فى الأرض من علم محـدود وقوة محـدودة ومتعة محدودة وتطلب نفسه الانطلاق من هذا العالم المحدود واقتحام ذلك العالم المغلق الرهيب الذى حرمته السماء على البشر سعيا وراء المعرفة التى تتجاوز العقل والحـرية التى تتجاز القيـود المتعة التى لا يقف فى سـبيلها شىء والقـوة المطلقة التى تجعل الانسان الها فى الـكون من دون الله · ولكى يحقق الانسان كل ذلك نراه يحالف الشيطان فيدين له كل شىء فى الطبيعة الى أن يأتى اليوم الموعود فيلقى الانسان مصرعه وتتدهور روحه الى قاع الجحيم حيث لن ينجيه شىء الا اللطف الالهى ·

وهذه القصة الفذة ليست من نسـج خيال جـوته فهى بعض تراث العصور الوسطى · وقد تناولهـا قبـل جـوته كثيرون كما تناولها بعده كثيرون ، فلم يصل أحد منهم الى ما وصل اليـه هـذا الشاعر الفيلسـوف الذى صور محنة الانسان أحسن تصوير ·

١

وتبدأ هذه الملحمة التى سماها جوته « تراجيديا » أو مأساة بمنظر فى السماء حيث تتجـادل المـلائكة البررة فى أمر الانسان ولا سيما الملاك روفائيل والملاك جبريل والملاك

ميخائيل ثم ذلك الملاك الزنيم الذى كان فى دهر من الدهور زين الملأ الأعلى ثم عصى واستكبر فلعنه الله فى كل كتاب . ألا وهو ابليس ، واسمه هنا مفيستوفوليس .

أما الملائكة البررة فهى تسبح بحمد الله وبآلائه قائلة ان كل شىء يجرى على خير ما يرام فى حضرة الملكوت .

فرفائيل يهلل لأن « الشمس تنشر ضوءها وهى تسبح باسم ربها الحبيب » . فالكون متماسك بقوة الحب الالهى ولا يزال لكل شىء جماله كأنه فى اليوم الأول . كذلك يتحدث جبريل عن دورة الكوكب الأرضى يتعاقب عليه الليل والنهار فى سلام ، ولقد تضطرب فيه بعض الأشياء ولكن هذا القلق يضيع فى تيار المعركة الأبدية ، وكل شىء سائر الى ساحة الرحمن حيث خاتمة المطاف . وميخائيل ينعى الزعازع النكباء التى تزأر على البحار والصواعق الفاتكة التى تأكل المدن بمارج من نار : « أما هنا فأصفياؤك الوادعون يا رب يعبدون ضياءك الصافى » .

أما مفيستوفوليس فهو وحده غير راض عن هذا التسبيح الدائم حول عرش الله ، فهو يفكر فى الأرض أكثر مما يفكر فى السماء . وعنده أن حال الأرض على أسوأ ما يكون، فعلى الأرض « كل شىء يسير من سيىء الى أسوأ » والبشر فى عذاب أليم وابن آدم هذا « الاله الصغير العائش فى الأرض لا يزال على شذوذه يوم الخليقة فما أكثر ما يستخدم تلك الشعلة الالهية ، ألا وهى العقل ، ليضاعف شروره » .

ولكن كيف يشكو مفيستوفوليس كل هذه الشكوى من أهل الأرض وفيهم رجل التقى والورع ، الدكتور فاوست ؟

ان مفيستوفوليس يعرف هذا الرجل حق المعرفة وله فيه رأى خاص . انه يعلم أن فاوست رجل تحلق روحه دائما فى سموات العلم والخيال .. وتعيش بين الكتب والأفلاك، فهو يدرس ويدرس لعله يستطيع أن يهتك ستار المجهول .

وينفذ الى ما وراء الطبيعة وقد اضطربت نفسه بالشكوك وتزعزع ايمانه لكثرة ما وقف عليه من أسرار الطبيعة ·

وهناك تحدث مساجلة فى السماء فهناك رأى قائل بأن فاوست لا يزال رجل خير وفضيلة وأنه مستمسك بايمانه رغم هذا القلق الذى يساور نفسه من حين الى حين · أما مفيستوفوليس فيقول ان بين فاوست والهاوية قيد شعرة وأنه مستطيع أن ينتزعه انتزاعا من بين الأبرار ·

ويكون رهان فى السماء ويشترط مفيستوفوليس أن تطلق يده فى فاوست فيجاب الى ما يطلب · ولسوف يثبت للجميع أن بين الايمان الأعظم والكفر الأعظم خيط دقيق لا تكاد تتبينه العيون وأن الفضيلة العظمى والخطيئة العظمى شقيقتا وتوءمان ما أيسر أن تختلط سماتهما فى مداركنا وفى وجداننا !

ثم ننتقل من السماء الى الأرض فاذا بنا مع فاوست ، فى مكتبه وبين صحائفه وأوراقه ، واذا بنا نراه فى هذه الليلة العصيبة شديد القلق يقلب أموره على كل وجه ويسترسل فى التأمل والتفكير · لقد سئم فاوست الدراسة ، اذ وجدها شيئا عقيما لا يؤدى الى شىء له قيمة حقيقية · لقد طلب « الحقيقة » فى كل مكان وفى كل علم وفن فما اهتدى اليها · ألم يدرس الفلسفة والفلك والفقه والطب ؟ بل ألم يدرس اللاهوت لعله يهتدى به الى الأسرار الالهية ؟ فماذا كانت النتيجة ؟ لا شىء · لقد اهتدى الى علم كثير حقا ولكنه لم يهتد الا الى القشور · أما باطن الحقيقة ، أما الروح التى تسرى فى أشياء هذا الكون بالحركة والنماء والجمال والنشاط وكل ما هو من نفس الله فلا يزال سرا مستغلقا عليه لا سبيل الى ادراكه ·

فى البدء كانت الكلمة · فى البدء كان الروح · ولكن ماذا تكون الكلمة وماذا يكون الروح · لقد بحث طويلا عن الكلمة وعن الروح القدس الذى كان يرفرف فى الوجود قبل الخليقة فلم يفهم شيئا ولم يهتد الى شىء ·

ولماذا لا يقال فى البدء كانت القـوة وفى البـدء كان العقل ؟ انه لا يرى حوله فى مظاهر الوجود الا ما يدل عـلى هذه الحقيقة •

ويجد مفيستوفوليس فرصته الذهبية فى هذه اللحظة التى تبلبل فيها عقل فاوست وساورته الشكوك المـدمرة ، فيتخذ زى عالم من العلماء المتنقلين بين الجامعات ويدخـل على فاوست فى مكتبه ليعلمه الانجيل الجديد الذى يعوده الى الكفر والخطيئة •

من تكون أيها الرجل ؟ هكذا يسأل فاوست زائره •

فيقول مفيستوفوليس : « أنا جزء من هذه القوة التى تريد الشر دائما وتفعل الخير دائما » •

فاوست : وما معنى هذا اللغز ؟

مفيستوفوليس : أنا روح السلب الدائم وبالعدل والحق انقض كل شيء • فكل ما هو موجود خليق بأن يحطم ، ولقد كان أولى ألا يوجد شيء • وعنصرى هـو كل ما تسـمونه الخطيئة والدمار ، وباختصار كل ما تسمونه الشر •

ويعرف فاوست من حديث زائره أنه رسول من الجحيم ويأنس الى حديثه الطلى ، فيأذن له أن يتردد عليه كلما احب • ان فاوست يائس حزين وقد صار الى انسان سوداوى المزاج لا يجد للحياة طعما ولا يذوق لذة واحدة من لذات الحيـاة لأن نفسه منقسمة وعقله مبلبل يتصـفح كل ما يراه حـوله فيعجز عن ادراك الحكمة فى أى شيء مما يراه •

ولكن مفيستوفوليس يناشده أن ينفض عنه هذا الحزن وهذا اليأس قائلا ان الحياة مليئة بالبهجة والملذات • وليس أمام فاوست الا قرار يسير ان اتخذه نعم بأطايب الحياة • ان مفيستوفوليس على أتم استعداد لأن يكون النديم الوفى الذى يرشده الى كل ما فى الحياة من متعة وجمال • بل هو راض بأن يكون خادما لفاوست ، بل عبـدا رهن اشـارته لو أنه

اختار هـذا السبيل • كل ذلك يفعله مفيستوفوليس مرض لفاوست بشرط واحد •

مفيستوفوليس : أحب أن أكون خادما لك «على الأرض»، أطيعك طاعة دائمة عمياء وألبى كل اشارة لك مهما كانت تافهة ، ولكن حين تكون فى العالم الآخـر يجب أن تعاملنى بالمثل •

فاوست : ان العالم الآخر لا يقلقنى أمره ••

وهـكذا يتعـاهد فاوست ومفيستوفوليس عـلى ذلك ويتعاقدان ويحرران صكا يشهدان به ، ويوقع فاوست عـلى هذا الصك بدمه ، وبهذا تنطوى صفحة حياته الناصعة وتبدأ صفحة جديدة من حياته ينصرف فيها عن العلم ويقبل عـلى السحر ويجنح فيهـا من الفضيلة الى الرذيلة ويخـوض فى الآثام درجة درجة حتى يغرق فى لججها •

ان الجو خانق فى مكتب فاوست ولذا فان مفيستوفوليس ينصحه بالخروج من هذا الجو المشبع بالكتب وما فيهـا من ترهات ، لابد ان يخـرج فاوست الى الحيـاة لينعم بجمـال الحياة • أما والحياة قصيرة فان مفيستوفوليس يختصر بقوة سحره المكان ليطول الزمان ، أو يزيد الحركة ليتسع بذلك الزمان والمكان معا • ان عنده عباءة سـحرية يحمل عليهـا فاوست كذلك البساط السحرى الذى يطير كالغمام ويحمـل الموعودين من أقصى الأرض فى طرفة عين •

ويقـــود مفيستوفوليس فاوست الى حان يـدعى حان أورباخ بمدينة ليبزج فيه جماعة من الشباب الصاخب المرح يغنون ويمزحون ويغنى مفيستوفوليس أغنية مضحكة تدعو الى التحرر من كل القيود فيلتف الجميع من حوله فى اعجاب شديد ويدخل على نفس فاوست السرور • ويتعـالى هتـاف الشباب بحياة الحرية وبحيـاة الخمر • ويدعونه الى شرب الأنخاب ، ولكن مفيستوفوليس يعتـذر لهـم فى أدب بأن خمرهم رديئة ويعرض عليهم أن يأتيهم على الفور بخمر من

نـوع تشتهيه قلوبهـم ، فمنهم من يطلب نبيذ الدير المعتق ومنهم من يطلب الشـمبانيا ومنهم من يطلب النبيـذ الحلو وعندئذ يطلب اليهم مفيستوفوليس أن يشخصوا بأبصارهم الى وجهه ويذهب يتلو الرقى ويشير بيديه اشـارة السـاحر حتى يأتى كلا منهم بما طلب ، وهم فى ذهول شديد يصدقون ولا يصدقون ويتصايحون قائلين ان هذا من عمل السـحر وهم يعجبون لهذا الوهم الذى شاكل الحقيقة فكأنه الحقيقة ·

وبعـد ذلك يمضى مفيستوفوليس بفـاوست الى مطبخ الساحرات فيتعلم فاوست من فنونهن شيئا كثيرا · وتعرض الساحرات على فاوست بعض ألعابهن فيضيق بها أولا لأنهـا من مألوف الألاعيب يأتينه بالخمر من الهواء ويجعلن الكؤوس تتراقص فلا يجد فاوست فى هـذا شيئا جـديدا : ولكنهن يأسرن قلبه بمرآة سحرية يرى فيها فتاة ذات بهاء فتان لم ير فى حياته أجمل منها ولم يحسب قط أن عـلى الأرض جمالا كهذا الجمال فيعلق بها قلبه ويشتهيها جسده ويتمنى لو كان هذا الخيال الذى يراه فى المرآة حقيقة يطاردها حتى يبلغها ويتملكها ولو كانت فى أطراف الأرض ·

أما وقد أبرم فاوست مع مفيستوفوليس ذلك الميثـاق المشهور فهـل يسع مفيستوفوليس الا أن يجيبـه الى طلبه ؟ نعم يا فاوست : لسوف تذوق طعم السـعادة الـكاملة حين تستولى على مرجريت جسما وروحا ، فقـد كان اسم هـذه الفتاة الجميلة مرجريت ·

وفى المسـاء يقتـاد مفيستوفوليس فاوست الى حجـرة مرجريت فاذا هى صغيرة ومرتبة فى أحسن ذوق · ويختبئان فلا تبصرهما مرجريت حين تدخل غرفتها وفى يدها سراج وتشرع فى نزع ثيابها وهى تغنى أغنيـة جميلة عن الحب ووفاء المحبين ، وما أن تفتح دولابها حتى تجـد هـدية من فاست هى ثوب من أفتن الثياب وقرط وسلسلة من الذهب نفيسة وهى ذات الجمال العـاطل من الحلى فكيف لا تطرب نفسها لما رأت وكيف لا تتمنى أن تكون هذه الأشياء أشياءها؟ ·

ولكنها تحسب أن هذه وديعة مودعة عند عمتها ، وتعجب لكل هذا ، فهى لا تفهم كيف وجدت هذه النفائس طريقهـا الى دولابها المغلق ٠

ويلتقى فاوست بمرجريت فى الحديقة فتفتن به كمـا فتن بها ويطارحها هواه فتستجيب له هـذه البنت البريئـة وتصيح قائلة : « يا الهى ان مثل هذا الرجل يعرف كل شىء ويفكر فى كل شىء ٠ انى لأقف خجلى بين يديه وما أن يقول شيئا حتى أقول نعم لكل ما يقـول ٠ وما أن الا بنت فقيرة جاهلة ولست أفهم أية محاسن يجدها قلبه فى شخصى » !

وتستسلم مرجريت لحبيبها وتحمل منه سفاحا ٠

وهنا تبدأ المآسى تترى ٠

يثور أخوها الجندى فالنتين وينازل فاوست ، ولـكن فاوست لا يقهر فى نزال لأن مفيستوفوليس يقف دائما الى جواره ويطعن فاوست فالنتين طعنة قاتلة فيخر الفتى صريعا أمام داره بين عويل أخته ونواح عمته مارتا التى كانت تيسر للعاشقين اللقاء ٠ وقبل أن تفيض روح فالنتين يلعن المرأتين جميعا ويعنف أخته قائلا :

بالأمس كنت لرجل واحد ٠ غدا تكونين لعشرة رجال ٠ وبعد غد تكونين للمدينة كلها ٠ أما فاوست وصاحبه فقـد فرا فى غفلة من الناس ٠

وقصدت مرجريت الى الكاتدرائية ، لتطلب الغفران ، ولتلتمس العـزاء ، وكانت تقف بين الحشـد الحاشـد من المصلين ، ولكن روح الشر كانت تمشى فى أعقابها حتى فى ذلك المكان المقدس ٠

بأى حق تدخلين هذا المكان المقدس يا مرجريت ؟ أتصلين من أجل نفسك التى زالت عنها طهارتها ، أم من أجل أخيك الذى جندله عارك أم من أجل أمك التى ماتت كمدا لما كان من فواجع وشقاء ؟ لا نفع فى صلاة فلم يعـد هنـاك مكان

للغفران • وهذا الجنين الذى يتحرك فى آحشائك يامرجريت: انه نذير لشؤم عظيم تخبئه لك الأيام القادمات • ملعـونة أنت يا مرجريت •

هـذا ما قالتـه روح الشر التى تتعقب الخطاة لتمـلأ نفوسهم ظلمة ويأسا من رحمة الرحمن •

وصرخت مرجريت قائلة : « آين الفـرار من هـــذه الخواطر التى تحاصرنى آينما توجهت » ؟

ثم سقطت مغشيا عليها •

وفاوست ؟ أين هو الآن ؟ لقد انتقل مع صاحبه الزنيم الى جبال الهارتز وهما الآن بين جمع غفير من الناس اختلط فيهم الحابل بالنابل والشريف بالصعلوك فالليلة ليلة مايـو حين يقام عيد الربيع ويرقص الكل فى المهرجان • وفيما كان فاوست يراقص الحسان كف فجآة عن الرقص فقد خيل اليه أنه رأى فتاة جميلة شاحبة الوجه تقف فى عزلة ليلة العيد ، ثم تنسحب فى شجن عظيم وقدماها ترسفان فى آغلال من حديد • وخيل اليه أنها تشبه مرجريت •

وخيل الى فاوست أيضا آنها كانت تشخص اليه بنظرات جامدة من نظرات الموتى ، وحول عنقها شريط أحمر هو من حد السكين •

وكان مفيستو يرى ما يراه فاوست ، آما السكين فهـو سكين الجلاد ، لأن مرجريت قتلت طفلها من فاوست فقبض عليها وحكم عليها بالاعدام • ولم تكن مرجريت قد أعدمت بل كانت لا تزال بين جدران السجن تنتظر ميتتهـا • أما ما رآه فاوست ومفيستو فقـد كان مشـهدا عـلى المسرح ، يعرض على اللاهين فى المهرجان • ولكنه كان فى واقع الأمر رؤيا لبقية أحداث هذه المأساة يراها كل من كان له دور فى تأليفها أو اخراجها •

لابد من انقاذ هذه التاعســة يا مفيستو هـكذا يصيح

فاوست ، ولكن مفيستو فوليس يغضب لهـذا القول . لقـد تحرك الضمير فى هذا الخاطىء الأثيم ، وهو الآن يريد أو يفسد كل ما بنـاه مفيستو منـذ أن نزل الى الأرض ليعجم عود هذا القديس الشيطانى .

ان فاوست يريد أن يسترد انسانيته .. ويل لكم معشر البشر أو ويل لنا منـكم نحن الشياطين . انكم تجـاهدون لتتحرروا من هذه الحماقات التى تربطكم بالحياة وأن تحلقوا معنا فى سـماء السـلب المطلق الذى لا مكان فيـه للخـير ولا لفكرة الخير ، ذلك النفى الأكبر الذى ينقض على الوجود كله وينبغى أن يحطم الكون والخليقة . ولكن ما أن تطيروا معنا طبقة أو طبقتين فوق الحب والرحمة والأخلاق والوفاء والضمير وكل هذه السخافات التى تميز بها جنسكم الوضيع حتى يعود اليكم ضعفكم وتطلبون الرجوع الى عالمكم السقيم .

هذا ما يقوله مفيسـتو لفاوست الذى استبد به وخـز الضمير وانتابته سورة من الغضب فذهب يكيـل اللعنـات لمفيستوفوليس : ان فاوست لعائد الى مرجريت لينقذها من السجن ومن الاعدام .

ويجد فاوست سبيله الى داخل السجن فيسمع مرجريت تغنى هذه الأغنية الحزينة :

انه أبى الشقى الذى ذبحنى
انها أمى البغى التى التهمتنى
وأختى الصغيرة الحبيبة
هى التى جمعت عظامى
فى مكان رطيب جميل
حيث صرت الى طائر صغير
يطير ، ويطير ، ويطير .

ولعلها فى لحظة اليأس لم تكن تتحدث عن أبيها وأمها فى الحياة ولكن عن أبيهـا الذى فى السموات وعن أمهـا الطبيعة الضاربة .

هيا بنا نهرب يا مرجريت . لقد جئت لانقاذك . من هذا الذى يريد أن ينقذنى؟ انه الحبيب فاوست. وافرحتاه ! لقد جئت لتفك أغلالى ؟ ها قد انفكت أغلالى . لقد زالت عنى الغصة وتلاشت كل أحزانى .

لقد جئت لتخلصنى . ها قد تم خلاصى .

وتظل مرجريت تهذى على هذا النحو بنجوى الحب والذكريات وفاوست يستحثها لتتبعه قبل أن ينجلى الليل أو يتنبه الحراس ، فلا تتحرك . انها ترى طفلها الذى ألقت به فى النهر وتناشد فاوست أن يبادر لانقاذه قبل أن يختفى تحت الأمواج ! النجاة ؟ أية نجاة هذه التى يسعى اليها فاوست ؟ ان غدا آخر يوم من أيام حياتها .

فاوست : يجب أن تعيشى !

مرجريت : يا عدالة الله ! لقد أسلمت نفسى لك يا عدالة الله !

مفيستوفوليس « مخاطبا فاوست » : هيا بنا ! هيا بنا ! والا تركتك هنا معها !

مرجريت ، أنا ملكك يا أبتاه ! فأنقذنى ! تعالى من حولى أيتها الملائكة واحرسينى بجموعك القدسية ! أى هنرى ... انك تشقينى .

مفيستوفوليس : لقد تمت دينونتها !

صوت من عل : لقد تم خلاصها !

مفيستوفوليس « مخاطبا فاوست » : تعال الى ! «يختفى مع فاوست » .

صوت من الأعماق ينخفض : أى هنرى ! أى هنرى .

وكانت هذه نهاية مأساة مرجريت المسكينة . قال صوت انها هالكة لأن آثامها لا تغسلها مياه البحر . وقال

صوت انها هالكة لأنها أعرضت عن باب الحياة وطرقت باب الموت بيديها . ولكن صوتا أجمل من هذا الصوت ومن ذاك قال : بل لقد تم خلاصها لأنها أسلمت نفسها لعدالة الله !

- ٢ -

بعد هذا ننتقل الى القصر الامبراطورى حيث نجد جلالة الامبراطور فى قاعة العرش مع وزرائه وقواده ورئيس ديوانه ومع هؤلاء جميعا مفيستوفوليس الذى يقوم بينهم مقام الناصح بالمنكر .

ان الأمور فى الدولة لا تسير على ما يرام فالامبراطور رجل متلاف يبدد ما فى الخزانة على ملذاته وشهواته ووزير ماليته يجيبه الى كل ما يطلب مما آدى الى ارتباك مالية الدولة . والشعب البائع المحروم يرى كل ذلك فيغضب وتنتشر روح الفتنة بين أبنائه ويترامى نبؤها الى القصر الامبراطورى .

ويتقدم مفيستو فوليس اليهم بالنصيحة : ان رجال الدولة يريدون اصلاح ميزانية الدولة ، فهم اذن يبحثون عن المال ، عن الذهب والفضة . والى هذا الحد ليس هناك اشكال ، فالذهب متوفر والفضة متوفرة ، ولكن المشكلة هى فى سبيل الحصول عليهما . ان بطن الأرض زاخر بالكنوز . فبنو الانسان منذ فجر التاريخ يخفون كنوزهم فى بطن الأرض كما أن بطن الأرض زاخر بأنفس المعادن . لم يبق اذن الا استخراج هذه النفائس والكنوز . والأرض من قديم الزمن ملك للامبراطور ، فكل ما يحتويه بطن الأرض اذن ملك الامبراطور . هل هناك مشكلة ؟ ليست هناك مشكلة .

فليسخر الامبراطور اذن جميع أفراد شعبه فى التنقيب عن هذه الكنوز .

أما وزير المالية فهو يستطيع أن يطبع من أوراق النقد ما يشاء ، بغير حساب ، لأن غطاء النقـد موجود من الذهب والفضة وأنفس المعـادن والأحجـار فى بطن الأرض بغـير حساب • وبهذا يستطيع الامبراطور أن يمضى فى الاستمتاع بملذاته وبهذا تنفرج كربة الشعب ويزول الفقر من البلاد •

وهذه أحدث نظرية فى الاقتصاد يشرحها مفيستوفوليس للامبراطور ورجاله • ولكن لكى توضع هذه النظرية موضع التنفيذ لابد من رجل علامة يعرف جميع دقائق هذه النظرية • وهل هناك غير فاوست ؟

ويعين الامبراطـور فاوست حارسا عـلى خزائن الدولة حاملا لمفاتيحها ويطلق يده فى كل شىء • ويوقع الامبراطور مرسوم اصدار العملة الجديدة وهو بين أحضان عشيقاته •

وهكذا • فبعـد أن دخـل مفيستوفوليس قلب فاوست فأفسده وجعله يحطم أجمل شىء فى حيـاته الفردية وهـو مرجريت ، دخل فى قلب الدولة فأفسده وجعل من فاوست أداته لتحطيم كل شىء فى الحياة العامة •

لقد جعـل مفيستوفوليس الامبراطور بقـوة السـحر يتوهم أنه يملك مال قارون وهـو لا يملك فى واقع الأمر الا شيئا زائفا وهمى القيمة •

وتمادى الامبراطور فى لهوه وعربدته حتى تجاوز كل الحدود • انه قد عرف أجمل الجميـلات ومتع النفس بكل شىء فى الحياة • وهو الآن يطلب أن يرى ذلك الجمال الفذ الذى أجمع النـاس مـنذ أقدم العصور عـلى أنه شىء فريد فى الوجود ليس هناك ما يضـاهيه فى أى زمن من الأزمان ولا فى أى قطر من الأقطار ، آلا وهو جمال هيلانة طروادة • نعم ان الامبراطور يطلب الى فاوست كبير وزرائه أن يأتيه بهيلانة طروادة !

ويفزع فاوست الى مفيستو ليعينه عـلى ذلك بما لديه من قوة خارقة للطبيعة فيزوده مفيسـتو بمفتـاح سـحرى

ويرشده الى قائمة فى مكان سحيق عميق يجد فاوست فيه أطياف الموتى جميعا منذ آدم الى ذلك اليوم ، فبهذا المفتاح السحرى يستطيع فاوست آن يقود طيف هيلانة طروادة الى عالم الأحياء ·

ويقيم الامبراطور حفلا في بلاطه ليعرض فيه فاوست هيلانة وعاشقها باريس بطل طروادة الذى اختطفها من زوجها مينلاوس وينجح فاوست فى استحضار هيلانة وباريس ولكن سرعان ما تتبخر هيلانة فى الفضاء حين يتعلق بها فاوست ليحول بينها وبين باريس ·

وبعد أن يعلم مفيستو فاوست علم السيمياء الذى به يخلق الأطياف ينتقل به الى ما هو أفظع من ذلك · لقد وعده بكل ما فى العالم من ملذات وقد بر بوعده ووعده بثراء لا حدود له فبر بوعده · ولم يبق أمام فاوست الا شىء واحد وهو أن يتشبه بذات الله فيجرب أن يخلق الخلائق ·

وهكذا علم مفيستوفوليس فاوست العلم المحرم فجعله ينشىء معملا من معامل الكيمياء فيه من الأنابيق ومن البواتق والأنابيب والأحماض والمساحيق كل ما يحتاج اليه العالم وكل ما ورد فى الطبيعة من عناصر ومواد ·· مضافا اليه شىء هو قوة مفيستو وعلمه الأسود ·

ويوفق فاوست الى خلق انسان صناعى فى معمله ·

ويكون هذا أكبر آثامه ·

والآن وقد كان له كل ما أراد تحين ساعة القصاص · وينتصف الليل ، ويجلس فاوست فى انتظار النهاية المحققة لقد انتهت مدة العقد المبرم بينه وبين مفيستوفوليس · لقد وعده مفيستو أن يتبعه كالخادم المطيع الذى لا يعصى لسيده أمرا مادام حيا يسعى على وجه الأرض · والآن اذ تجىء الساعة ويأتيه الحمام لم يبق الا أن يفى بعهده ويتبع مفيستو

فى العالم الآخر يقوده أينما يزيد ولسوف يقود مفيستو روحه بين عرصات الجحيم وأبهائه وطبقاته ·

ويسقط فاوست صريعا ·

وحين يحمل الى مثواه الأخير تجتمع حول قبره ثلة من الزبانية لتحمل روحه الى الجحيم ولتنهشه نهشا ·

ولكن سرعان ما تهبط من السماء كوكبة من الملائكة لتحيطه بسياج من الحب والغفران · وتنثر الملائكة على قبره الورود وتجعلها تتضوع بأطيب العطور · وترتعد الزبانية أمام الملائكة ·

وهكذا تصعد روح فاوست ، درجة درجة فى طريقها الى الفردوس فى الأعالى ، وتلتقى فى هذه الطريق بالخطاة التائبين ، وتلتقى بروح مرجريت التائبة تسبح مرفرفة نحو السدرة العليا ·

وحين يسأل مفيستوفوليس عن السر الخطير الذى جعل الملائكة تنتزع فاوست من قبضة الشياطين ، يجاب بأن للحب يدا شافية تشفى جميع الذنوب ، وهذا الحب بعضه على الأرض وكله فى السماء فطوبى للمحبين ·

بيت اللعبة

للكاتب النرويجى هنريك ابسن

أسرة صغيرة تعيش فى بلدة من بلاد النرويج ، قوامها رجل محترم يدعى تورفالد هيلمر وزوجته الجميلة الشابة نورا هيلمر التى تعيش بين زوجها وأطفالها الثلاثة فى سعادة تامة . ولكنها رغم مرور ثمانى سنوات على زواجها لا تزال كالطفلة الغريرة اللاهية التى لا تعرف من أمور الدنيا شيئا ، يدللها زوجها كأنها دمية وتدلل أطفالها كأنهم دمى . ويتردد على الأسرة صديق واحد مسن هو الدكتور رانك ، فلا يكاد يمر يوم الا وتراه فى بيت هيلمر يجلس مع رب الدار وربته حول المدفأة يتجاذبون أطراف الحديث . وغير هؤلاء تلتقى بالمربية العجوز آنا التى تسهر على أطفال نورا كما كانت تسهر على نورا نفسها وهى صغيرة ، ثم خادمة فى دار هيلمر ثم سيدة تدعى مسز كرستين ليند ، كانت من زميلات نورا هيلمر فى المدرسة وباعدت بينهما الحياة زمنا طويلا ، ولكن كرستين ليند عادت أخيرا الى بلدتها لتجد فيها الاستقرار ولكن أهم من تلتقى به رجل يدعى كرجستاد ، يعمل صرافا فى البنك الذى كان تورفالد هيلمر مديرا له ، ودخل حياة آل هيلمر ، فكاد أن ينزل بها كارثة دامية ، ولكن القدر شاء أن تحول الكارثة الدامية الى كارثة من نوع جديد ، كارثة يحار أمامها العقل والضمير ، ولا نعرف ان كان فيها خلاص آل هيلمر أم فيها شقاؤهم .

واليوم يستعد آل هيلمر للاحتفال بعيد الميلاد ، وفى دارهم البسيطة الجميلة تضع نورا هيلمر شجرة عيد الميلاد وبجوارها سلة فيها الكثير من الهدايا ومن الأشرطة الفضية والكور الملونة التى يزين بها القوم شجرة عيد الميلاد • وتعلق نورا الهدايا التى اشترتها لزوجها وأطفالها وخدمها على الشجرة ، وتطلب الى خادمتها هيلين آن تخفى الشجرة وما عليها من هدايا حتى يأتى المساء فتزعم أمام اطفالها أن سانتا كلوز هو الذى جاءهم بهدايا العيد •

ويدخل هيلمر على زوجته فيجدها تغنى وهى تزين الشجرة وترتب الهدايا الكثيرة • فيقبل عليها حانيا معاتبا لأن نورا أسرفت فى الانفاق على هدايا العيد ، وهو يلقبها بطيره الغرد وبسنجابه الصغير ، فهذه كانت أسماء التدليل التى يغدقها عليها ويناديها بها دون انقطاع وتقول نورا انه لا محل لاحتجاج زوجها الحبيب تورفالد لأنه الآن ميسور الحال ، وهذا أول عيد من أعياد الميلاد يجوز لهما فيه أن ينفقا بسخاء • فبعد أيام قليلة يصبح تورفالد العزيز مديرا للبنك الذى يعمل فيه ابتداء من أول السنة الجديدة ويرتفع مرتبه •

ولكن هيلمر يرى أن طيره الغرد وسنجابه الصغير لا يقدر عواقب الأمور • فنورا تقول انها لا ترى بأسا من اقتراض خمسين جنيها للانفاق على أسبوع الأعياد ، ولكن ماذا يحدث لو خرج تورفالد هيلمر الى الشارع وسقط على رأسه حجر فأرداه قتيلا ؟ ومن أين لنورا بالمال لرد هذا الدين ؟ انها تقول ان هذه أفكار بشعة لا يجوز التفكير فيها، ولو حدث أن مات زوجها الحبيب تورفالد فستكون ديونها آخر مصدر لهمومها وأحزانها ، ولكنها مخطئة لآنها يجب أن تفكر فى حقوق الدائنين • انها تعلم رأيه فى الموضوع ، لا ديون ولا اقتراض ، فحياة الأسرة تخلو من الجمال ومن الحرية اذا اعتمدت الأسرة على الديون والاقتراض •

ويشيع الحزن فى وجه نورا فيقبل عليها تورفالد قائلا ان طيره الغرد لا يجب أن يكــون أبدا كسير الجنــاح ، وان سنجابه الصغير لا يجب أن يكون أبدا غاضــبا او حزينــا • ويعطيها من محفظته جنيهين كاملين • وهو يسألها عما تريد هدية فى العيد • فتتردد نورا قليلا ثم تقول لزوجها العزيز لو أراد ارضاءها أعطاها المال بدلا من أن يعطيها الهــديه ، وهى ستشترى ما تحب حين يأتى الوقت المناسب • ويتذمر تورفالد من هذا الطلب فنورا تنفق بغير حساب ، وهى قد ورثت عن أبيها المتلاف هذه الخصال الذميمة ، فكل درهم يذوب فى كفها • ولكن تورفالد هيلمر لا يلبث أن يســلم بالأمر الواقع • انه لا جدوى من مناقشتها ، فالاسراف يجرى فى دمها بالوراثة ، وهو راض بطيره الغرد على حاله ، بل هو لا يريد من سنجابه الصغير أن يغير شيئا من طباعه •

ويطوق هيلمر نورا بذراعه قائلا ان أيام فقرهما قد انتهت • ولكم أحزنه فى الماضى أن تسهر نورا الليالى لتعد هدايا العيد وتعد ثياب الأطفال ، ولكنها لن تحتاج الى ذلك بعد الآن • ويهم بشرح مشروعاته الجديدة بعد أن أصبحت وظيفته مؤمنة وارتفع دخله ، ولكن الجرس يدق فيتوارى هيلمر فى مكتبه قائلا انه لا يريد أن يقابل أحدا حتى يفرغ من أوراق البنك الكثيرة •

وتدخل سيدة على نورا • فلا تتبين نورا شخصيتها أولا ولكنها لا تلبث أن تتعرف عليها • فهى مسز كرستين ليند التى كانت منذ عشر سنوات طويلة من أقرب صاحباتها اليها فى المدرسة ، وهى لم ترها من عشر سنوات • ان كرستين قد تغيرت كثيرا ، فهى الآن ناحلة شاحبة • لقد تركت البلدة منذ ســنوات وتزوجت فى بلدة مجــاورة وها هى ذى الآن تعود بعد أن ترملت • ونورا آسفة لأنها لا شك قد شــقيت كثيرا بموت زوجها • ولكن كرستين تجيبها فى هدوء انها لم تشق لموت زوجها • انه تركها بلا أطفال ، ولم يترك لهــا

شيئا تذكره به حتى الأحزان • انها وحيدة فى هــذا العالم تعيش بغير هدف أو غاية • وهى قد تعودت ان تعمل وهى قد جاءت الى البلدة لتبحث عن عمل ، وهى ترجو أن يساعدها تورفالد هيلمر في الحصول عــلى وظيفة فى البنك بعــد أن أصبح مديرا له •

وتعد نورا كريستين خيرا قائلة ان زوجها قد غدا رجلا ذا نفوذ ، وأحسن ما فى الأمر آن دخله قد ازداد ، فهى الآن تستطيع أن تعيش عيشة منعمة وأن تنفق عن سعة • ان أيام الضنك انتهت • انها حقا امرأة مسرفة ولكن من الخطأ أن تحسب كرستين أن السنوات الثمانى التى قضتها نورا مــع زوجها كانت كلها شهدا ولبنا • فهى عــلى العكس من ذلك كانت سنوات كفاح •

ان زوجها تورفالد ترك مكتب المحامى الذى كان يعمل فيه سنة زواجهما ، لأنه وجد آن المستقبل مغلق أمامه ، وكان لابد أن يزيد دخله فأرهق نفسه فى العمل أثناء العام الأول ارهاقا شنيعا حتى أصابه السل ولزم الفراش وساءت صحته فلم يعد له شفاء الا أن يرحل عن النرويج ليستجم شهورا فى شمس الجنوب الدافئة بأمر الأطباء • وقد سهرت هى الليالى تطرز وتشتغل بأشغال الابرة والكروشيه وتنسخ القضــايا وتزاول شتى الأعمال القاسية لتعود عــلى الأسرة بشىء من المال • وحين رأت صحة زوجها تتدهور وعلمت من الأطباء أنه لن ينقذ حياته الا شمس الجنوب حصلت منأبيها على مبلغ جسيم هو مائتان وخمسون جنيها • وهكذا اســتطاعت أن تقضى مع تورفالد ووليــدها الأول ايفــار أجازة ممتعة فى ايطاليا بجزيرة كابرى • ان أباها المسكين كان عــلى فراش الموت قبيل سفرها وهى لم تستطع آن تسهر عليه لأنها كانت تنتظر مولودها ايفار ، وكان لابد من رحيلها الى ايطاليا مع زوجها العليل • وقد عادت بعد أن شفى زوجها شفاء تاما ولكن أباها المسكين كان قد استراح فى قبره • وهكذا ترى كرستين أن أيام نورا الماضية لم تكن خاليــة من الأحــزان

ولكن كل شيء قد صار درجة درجة الى أحسن حال وهي الآن في اتم سعادة مع زوجها الموفق وأطفالها الثلاثة الأصحاء لا ينقصهم شيء في الحياة · ويرنو لهم الغد بعين باسمة ·

أما كرستين فقد كانت لها قصة أخرى فقد حطمت حياتها في سبيل ذويها · كانت أمها طريحة الفراش ، وكان أخواها الصغيران بغير عائل · وجاءها رجل لا تحبه هو مستر ليند يعرض عليها الزواج فرضيت به زوجا لتعين اسرتها · وكان مستر ليند رجلا ميسور الحال عندما تزوجته ولكن احواله المالية تدهورت وحين مات منذ ثلاث سنوات لم يترك لها شيئا · فتقلبت من عمل الى آخر تصل الليل بالنهار لتكسب الكفاف للجميع · أما الآن فقد ماتت أمها وبلغ اخواها سن العمل والتحق كل منهما بوظيفة يكسب منها قوته فليس هناك من يعتمد عليها · انها لا تشعر بالفرح كما تقول نورا ، لأنها كانت في الماضي تحس بأنها تعمل في سبيل هدف · أما الآن فهي تعيش بغير هدف ، وليس هناك من هو بحاجة اليها وهي لهذا قد عادت الى بلدتها لتبحث عن عمل منتظم تشغل به نفسها · انها حقا متعبة كما تقول نورا وهي حقا بحاجة الى الراحة والاستشفاء · ولكن نورا تنسى ان كرستين ليس لها أب يعطيها مائتين وخمسين جنيها لتستشفى بها · ان نورا لا تعرف شيئا عن قسوة الحياة ، واذا كانت قد شقيت عاما أو عامين فهي لا تعرف معنى الكد المتواصل أو الهموم التي لا تنقطع ·

ولكن نورا تجيبها قائلة ان كريستين ليست وحدها التي كابدت في سبيل الغير وعرفت الآلام · ان كل من حول نورا يعتقد أنها دمية جميلة لا تحمل هما ولا تلقى بالا لشيء · ولكن لو عرفت كريستين الحقيقة لغيرت رايها · والحقيقة أن نورا هي التي أنقذت زوجها تورفالد من الموت المحقق · أنقذته وحدها ، ودون معونة من أبيها كما زعمت أمام تورفالد وأمام الجميع · الحقيقة أن أباها لم يعطها درهما واحدا ، ولما رأت زوجها يشرف على الموت اقترضت المبلغ

اللازم للرحلة دون علمه ، وهى منذ ذلك اليوم تسدد أقساط الدين بانتظام · تدخر من ميزانية الأسرة ومن ثمن ثيابها سرا ، لتفى بالأقساط ، كل ذلك وزوجها يحسب أنها امرأة مسرفة متلاف · وهى لم تف بعد بكل الدين فلا يزال عليها منه جزء كبير ·

هـذا هو السر الذى تحتفظ به نورا ولا تطلع عليه أحدا ، وهى تنهى كريستين عن الافضاء به لزوجها ·

وتذهل كريستين لمسلك نورا ، وتعتقد انها اتت امرا معيبا ، فما يصح لزوجة أن تقترض مالا دون اذن زوجها ، وتقول ان هذا طيش من نورا عظيم · ولكن نورا تقول وهل طيش أن تنقذ امرأة زوجها من الموت ؟ لكم حاولت أن تقنع تورفالد أن يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه أبى أن يقترض درهما واحدا ، وكان يؤثر أن يتعرض للموت بالسل على الاقتراض ، ولكم جربت أن تقنعه أن يسافر الى الجنوب مرضاة لها فكل العرائس يقضين شهر العسل فى الخارج لقد جربت معه الدموع والالحاف ولكنه رفض رفضا باتا وغضب حين ذكرت أمامه فكرة الاقتراض · فلما رأت السل يفتك به فتكا وضاقت حيلتها ، كذبت عليه وزعمت أن أباها أعطاها ذلك المبلغ الجسيم · وهى الى اليوم تسدد الأقساط مما تدخره · وهى لا تدخر كثيرا من ميزانية البيت لأنها تعلم أن تورفالد بحاجة الى الطعام المغذى ، كما أن أطفالها يجب أن يظهروا بالمظهر اللائق بهم · فأكثر ما ادخرته كان من ثمن ثيابها ومما تكسبه من أعمال النسخ المضنية التى كانت تقوم بها ليلا دون علم من زوجها · وهى لا تعرف بالضبط كم دفعت وكم بقى من دينها فعقلها لا يفهم الحسابات وفوائد الديون · وكم مرة بلغ بها اليأس مبلغا فذهبت تستسلم للأحلام الصبيانية فتحلم بسيد عجوز يعجب بها اعجابا صامتا ، ويموت هذا السيد وحين يفتح الناس وصيته يجدون أنه أوصى بكل ما يملك « للسيدة الجميلة مسز نورا هيلمر » ·

ويدق الجرس ويدخل كروجستاد طالبا لقاء هيلمر ·

وتضطرب المرأتان لرؤيته ، أما كريستين فترتجف وتتجنب لقاءه وأما نورا فتستفسر منه فى لهفة عما جاء من أجله ، وحين تعلم منه أنه ما جاء الا فى شأن من شئون البنك يعود اليها اطمئنانها ، وتقوده الى حجرة زوجها • وحين تنفرد كريستين بنورا تسألها عن هذا الزائر من يكون فتعلم منها أنه المحامى كروجستاد فتقول نورا انها تبينته رغم أنه تغير كثيرا ، فقد كانت تعرفه منذ سنوات عديدة • وتقول نورا انه تزوج زواجا تعيسا وهو الآن أرمل ويعول عدة أطفال •

ويدخل عليها الدكتور رانك صديق الأسرة ، وتقع عينيه على بقايا الحلوى الموضوعة على المائدة فيعنف نورا على عصيانها أمر الطبيب ، فهو قد نهاها عن أكل الحلوى • وبعد قليل يدخل هيلمر بعد أن تخلص من زائره كروجستاد . فتعرفه نورا على مسز كريستين ليند وتوصيه أن يجد لها عملا فى البنك ، وحين يعرف أن مسز ليند ملمة بامساك الدفاتر يعدها بتوظيفها فى البنك • وتنصرف كريستين ليند مغتبطة لتبحث عن غرفة مفروشة تقيم فيها •• على أن تعود فى المساء • وكذلك ينصرف الدكتور رانك ومعه هيلمر وتنصرف نورا لملاعبة أطفالها •

ولكن كروجستاد لا يلبث أن يعود • وتحاول نورا التخلص منه قائلة : ان زوجها خارج الدار ، فيجيب أنه جاء هذه المرة ليحدثها لا ليحدث زوجها • وتقود نورا أطفالها الى غرفة أخرى، وحين تعود تذكر كروجستاد أنه جاء قبل موعد القسط ، وعليه أن ينتظر حتى أول الشهر • ولكن كروجستاد يجيب أنه لم يأت فى طلب القسط ولكن جاء فى أمر آخر • انه رأى مسزليند عندها وهو يعرفها معرفة قديمة، وهو يريد أن يسأل ان كانت مسز ليند ستعين فى وظيفة بالبنك • وتغضب نورا هيلمر لدخول كروجستاد فيما لا يعنيه وتذكره بأنه مجرد موظف صغير فى البنك وليس له أن يخوض فى شئون مديره • ومع ذلك فان كان يهمه أن يعرف فليعرف أن مسز ليند ستعين فى البنك وأنها هى التى أوصت بتعيينها •

وهنا يقول كروجستاد أنه جاء يطلب منها أن تستخدم نفوذها عند مستر هيلمر لتؤدى له خدمة ، وهى أن يبقيه فى وظيفته الصغيرة بالبنك · انه يعلم أن مسز ليند وراء طرده من البنك ، لما بينهما من أشياء قديمة ، وأنهـا استخدمت صداقتها بمسز هيلمر لفصله من عمله · وهو لا يطلب منها الا أن تتوسط له عند زوجها ليبقيه فى وظيفته ·

وترفض مسز هيلمر أن تحدث زوجها فى شىء من هذا القبيل فهذه أمور البنك وهى لا دخل لهـا بهـا · فيقـول كروجستاد انه مستعد أن يدافع عن وظيفته الصغيرة دفاعه عن حياته نفسها · ان كل الناس تعرف أنه ارتكب غلطة منذ سنوات عديدة · ومع أن الأمر لم يصل الى القضاء فان هذا كان بداية حياته التعيسة ، فقد أوصدت فى وجهه أبواب الرزق، فاشتغل بالربا ، وهذا ما فعله معهـا ومع غـيرها ليعيش · ولكن هذه الوظيفة التى حصل عليها فى البنك كانت بداية حياته الشريفة · فهو الآن رب أسرة ، وهو يريد من أجـل أولاده أن يكون موضع احترام الناس ، ولن يسمح لأحد أن يرده الى الحمأة التى خرج منها ، ولو كان مستر هيلمر نفسه أو مسز هيلمر نفسها ·

وتؤكد له مسز هيلمر أن مسز ليند لا يد لها فى فصله من عمله وأنها شخصيا تجهل كل شىء عن هـذا الموضوع ، وأنها لا تملك أن تساعده فى شىء ·

وهنا يستأسد كروجستاد قائلا : انه سيرغمها على ذلك · انه سيطلع زوجها على القرض الذى اقترضته منه دون علمه · فتقول غاضبة · هذه نذالة · افعل ما بدا لك · وسيعرف زوجى مدى نذالتك ولن ينفعك هذا فى استرداد وظيفتك ·

ولكن كروجسـتاد كان يخبىء لهـا ضربة كبرى · ان مسز هيلمر بعـد ثمانيـة أعوام قد نسيت بعض الـوقائع الصغيرة فى عملية القرض ، ولو أعلن هو هذه الوقائع لقضى ذلك عليها وعلى زوجها · انها نسيت أنه لم يعطها القرض

الا بعد أن تعهدت بأن يوقع أبوها على ضمان السداد ، وأنها أعادت اليه وثيقة الضمان بعد أسبوع وعليها توقيع أبيها ، ولكن التاريخ المثبت يقول ٢ أكتوبر وأبوها قد توفى فى ٢٩ سبتمبر ، فعليها اذن أن تفسر للمحكمة كيف وقع ابوها ضمانا ماليا بعد ثلاثة أيام من وفاته وأن تعترف باسم المزور ·

وتضطرب مسز هيلمر وتقول انها هى التى وقعت امضاء أبيها دون أن ترى فى ذلك حرجا ، فهى تعلم أنها لو كانت طلبت منه التوقيع لما تردد · ولكنه كان على فراش الموت · ولم يكن من المعقول أبدا أن تبلغه بخطورة حالة زوجها وهو فى هذه الحالة الخطرة · ان دوافعها كانت نبيلة وهى لا تخشى شيئا ، فليفعل مستر كروجستاد ما يشاء فتهديده لا يخيفها ·

ويذكرها كروجستاد بأن القانون لا دخل له بالعواطف النبيلة والعواطف الخسيسة وانما هو يتعرض للوقائع ، وهذه فى نظره واقعة تزوير · وعلى المزور أن يدفع ثمن جريمته ، فكروجستاد لن ينزل وحده الى الحضيض ·

وينحنى كروجستاد وينصرف ، تاركا نورا هيلمر فى دوامة من الأفكار المضطربة ·

ويعود تورفالد هيلمر الى داره فيجد زوجته مرتبكة · وتنفى نورا أن زائرا زارها فى غيابه · فيقول هيلمر عاجبا انه أبصر وهو قادم كروجستاد خارجا من باب الحديقة · انه يفهم الآن · لقد جاء كروجستاد راجيا نورا أن تتوسط لديه ليعيده الى خدمة البنك ولكن هيلمر يربأ بزوجته أن تكون قد وعدت بشىء من هذا القبيل · ثم انها كذبت حين أخفت عنه أمر الزيارة · ان طيره الغرد لا يجب أن يدنس صوته الصداح بالأكاذيب، أو بالدفاع عن الموظفين سيئى السمعة · يجب أن تعده نورا بألا تثير موضوع كروجستاد فى أى وقت من الأوقات · انها لا تعلم أن هذا الرجل كان مزورا ، فقد زور منذ سنوات امضاء رجل آخر

ليحصل على المال • ان هيلمر شـخصيا يعتقد أن الظـروف السيئة دفعت كروجستاد الى هـذه الجريمة • وقد كان من الممكن له أن يسترد شرفه ويعود الى الحياة المستقيمة لو أنه اعترف أمام القضاء بجريمته ودفع الثمن • ولكن كروجستاد لجأ الى حيلة أنقذته من السجن • وهو يعيش فى عالم من الأكاذيب • ويلبس قناع النظافة أمام أولاده وأسرته • نعم، انه يفسد أطفاله لأن جو أسرته موبوء بالأكاذيب ، وأطفاله ينشأون فى جـو من النفاق • لهـذا فهو ينتظر من نـورا ألا تدافع عن كروجستاد أبدا ، ولابد أن تعاهده على ذلك •• انه يحس بالغثيان كلما وجد نفسـه فى صـحبة شرير من هؤلاء الأشرار •

وينصرف هيلمر الى مكتبه بعـد أن يطوق طيره الغرد وسنجابه الصغير بذراعه ويقبله قبلة الراضى عن نفسه وعن المحاضرة التى ألقاها عن الأخلاق •

وتقف نورا ذاهلة • ويندفع اليها أطفالها يتلاعبون • فتنظر اليهم مرتاعة وتهمهم : محال •• محال •• ليس هذا صحيحا •• ألوث أطفالى ! أسمم أسرتى !

فى المساء تعود مسز كرستين ليند لزيارة مسز هيلمر لتسـاعدها فى اصـلاح ثوبهـا الذى ستلبسـه فى حفلة الكريسـماس التى يقيمها الجيران آل ستنبورج ، فمسـتر هيلمر يريد أن تبهر نورا الضيوف بثوبها الايطالى ورقصها النابوليتـانى حين تظهر بينهم فى زى صـياد من نابـولى وتعرض عليهم رقصة التارنتيلا التى تعلمتها فى جـزيرة كابرى •

ويدور حديثهما حول الدكتور رانك ، فتلاحظ كريستين أنه كان منقبض الصدر ، فتعلم من نورا أن الدكتور رانك مصاب بداء وراثى عضال يتلف نخاعه الشوكى اتلافا ، وأنه ورث هذا الداء عن أبيـه الذى قضى حيـاته سـاعيا وراء الملذات ، فتفهم كريستين أن الدكتور رانك مصاب بالسفلس الوراثى وتنصح نورا أن تنهى علاقتها بصديق الأسرة هذا

الأعزب العجوز الثرى ، خشية أن يستغل هذه الصداقة • وتظن كريستين أولا أن الدكتور رانك هو مصدر المال الذى اقترضته نورا ، فتنفى لها نورا ذلك وتهم باطلاعها على الحقيقة ، ولكن هيلمر يقبل عليها فتأخذ الثوب وتتوارى فى حجرة أخرى •

وتعود نورا الى موضوع كروجستاد وترجو زوجها أن يبقيه فى وظيفته فيستاء هيلمر ويرفض بشدة ، فتلحف نورا فى الرجاء قائلة انها تطلب ذلك حماية لزوجها لا لكروجستاد فهى تعلم أن كروجستاد قد يلطخ سمعته بالوحل فى الصحف المحلية القذرة التى يكتب لها كما فعل بأبيها من قبل • ولكن هيلمر يقول ان الأمر قد خرج من يده فهو قد اتخذ قرار الفصل وعين مسز ليند مكانه وهو لا يقبل أن يقال ان مدير البنك يخضع لتأثير زوجته ثم انه يمقت كروجستاد مقتا خاصا فقد كانا معا فى المدرسة وكروجستاد يدأب على مخاطبته مخاطبة الند للند فى البنك ويحرجه أمام مرءوسيه • أما حكاية التشهير فى الصحف فهو لا يقيم لها وزنا لأنه فوق مستوى الشبهات •

وينادى هيلمر الخادمة هيلينا ويعطيها خطابا ويأمرها بأن تضعه فى صندوق البريد • ولما تنصرف الخادمة تعرف نورا من زوجها أن ذلك الخطاب انما كان خطاب فصل كروجستاد وتناشد زوجها أن يخرج لاسترداد الخطاب فيسكتها هيلمر قائلا انه يغفر لها هذا الانزعاج الشديد فهو يعلم أن انزعاجها من خوفها عليه ، ولكنها تنسى أنه رجل شجاع لا يخشى شيئا ، وأن عنده من الرجولة ما يجعله يحمل وحده كل لوم •

ويدلل هيلمر طائره الغرد وسنجابه الصغير قليلا ثم ينصرف الى مكتبه وأوراقه • وتقف نورا وحدها مرتاعة • انها تعرف زوجها جيدا • انه رجل شجاع متفان فى حبها • ولو أظهر كروجستاد الوثيقة المزورة حمل تورفالد عنها مسئولية التزوير • لا • لا • لن يكون هذا • لابد أن هناك طريقة للخلاص من هذا المأزق •• ولو بالانتحار •

وفيما هي حائرة بين أفكارها السوداء يقبل عليها الدكتور رانك · انه يريد أن يفضي لها بشيء · انه يعلم الآن أنه رجل محكوم عليه بالاعدام · ان المرض الخبيث المستشرى في نخاعه الشوكي هو السفلس ، وهو يعلم أن النهاية قادمة لا ريب فيها ، وحين يحس بالنهاية تقترب سينزوى وحده في مكان لا يعرفه انسان حتى يواجه منيته وحده · ولكنه سيرسل لها بطاقته وعليها صليب أسود · فتفهم بذلك أن النهاية حانت · ان أمامه فحصا طبيا واحدا، وبعد هذا الفحص سيعرف متى يدب في جسده الانحلال الأخير · انه لا يأسف على موته ولكنه يأسف على أنه يدفع ثمن ملذات جناها غيره · انه لا يريد أن يشهد صديقه تورفالد نهايته البشعة ·

وتحاول نورا أن تطرد عنه هذه الأفكار السوداء قائلة انها ترجو منه معروفا ويجيب الدكتور رانك أنه يضحي بحياته من أجلها لو طلبت منه ذلك · انه عازم على أن تعرف نورا كل شيء قبل أن ينصرف ولا يعود · انه يحبها حبا بغير حدود انه يعبدها ·

وتنهره نورا قائلة : كفى ! كفى ! ألست خجلا من نفسك يا دكتور رانك ؟ ثم تبتسم وتقول : لن تمضى عنا بغير عودة ، فتورفالد وأنا لا نستغنى عنك ·

ويمضى الدكتور رانك الى مكتب صديقه تورفالد ، وتأتى الخادمة قائلة ان كروجستاد جاء من الباب الخلفي وهو لا يريد أن ينصرف قبل أن يراها · ويدخل كروجستاد ويدور الحديث بينهما بصوت خفيض · انها لم تستطع منع زوجها من ارسال خطاب الفصل · ويقول كروجستاد ان في جيبه خطابا لزوجها يبلغه فيه بكل شيء ، في أخف لغة ممكنة · وتعرض عليه نورا مالا ليعدل عن ارسال الخطاب ، فيرفض · انه لا يقبل مالا : ولو كان كنوز الدنيا · ان كل ما يطلبه هو وظيفته ، ورد اعتباره بترقيته ، وهذا في يد هيلمر · ان نيلز كروجستاد يعرف تورفالد هيلمر حق

المعرفة ، يعرف أنه يخشى الفضيحة ويفعل أى شىء لتجنبها ، ولو كان فعلا سافلا • ان نورا هيلمر تعرف زوجها حق المعرفة ، تعرف أنه لن يقدم على عمل خسيس مهما كانت النتائج ، ولن يظفر كروجستاد منه بشىء • انها ستغرق نفسها فى البحيرة اذا أرسل كروجستاد الخطاب • ولكن كروجستاد لا يلتفت لكلامها قائلا ان من الخير لها أن تعدل عن هذه الأفكار لأن موتها نفسه لن يخرج سمعتها من قبضته • ثم ينصرف ، وفى طريقه الى الخارج تراه نورا يضع الخطاب فى صندوق الخطابات الخاص بزوجها ، فتفلت منها صرخة ارتياع مكبوتة •

وتدخل عليها كريستين ليند حاملة الثوب بعدما أصلحته • وتصارح نورا كريستين بحقيقة أمرها مع كروجستاد • ترى ما العمل ! ترى ما العمل ! ان زوجها وحده يحفظ مفتاح الصندوق • لا ترى مخرجا ، وقد حزمت أمرها على شىء ان كريستين وحدها تعرف حقيقة الوثيقة المزورة • فاذا اضطر الأمر نورا الى الغياب عن دارها واراد أحد أن يتحمل المسئولية عنها وجب أن تشهد كريستين بالحقيقة • انها وحدها المسئولة عن كل شىء •

وتحاول كريستين أن تهدىء من روعها أنها ستقنع كروجستاد باسترداد خطابه غير مفضوض قبل أن يطلع هيلمر عليه • ان نورا لا تعلم أن كروجستاد كان فى يوم من الأيام يتمنى أن يفعل أى شىء مرضاة لكريستين •

ويأتى هيلمر باحثا عن بلبله الصداح لابد أن تتدرب نورا على رقصة الترانتلا استعدادا لحفلة الغد • انه خارج لاستحضار بريده وسيعود بعد دقيقة • وتستوقفه نورا وتضرع اليه أن ينسى البريد وكل شىء حتى ينتهى الحفل • ويعجب هيلمر ولكنه يرضخ • ويجلس الى البيانو فيبدأ التدريب ، وترقص نورا رقصة التارانتلا رقصا هستيريا سريعا • وحين يراها هيلمر على هذه الحال يوقف الرقص ويصطحب طيره الغرد الى حجرة الطعام •

أما كريستين ليند فقد مضت الى بيت كروجستاد فعلمت أنه غادر البلدة ولن يعود الا فى اليــوم التالى ، فتركت له رسالة تطلب مجيئه لمقابلتها عند آل هيلمر حال عودته ٠

ويصــل كروجستاد فيجد كريستين فى انتظاره ، بينما الحفل دائر والموسيقى صــاخبة فى بيت الجيران ٠ ويسمعهم كروجستاد فى خشونة عما تريده كريستين انها تعرف آن كل علاقة بينهما انقطعت منذ سنوات ٠

فتقول : انه أساء فهمها ٠ فيقول : ان مسلكها لم يكن فيه شيء معقد : امرأة بلا قلب هجرت رجلا يحبها حين جاءها آخر أكثر مالا ٠٠ نعم ، هى فعلت ذلك ، ولكنها على الرغم منها ، فعلته وهى تتعذب لأن ســعادتها الحقيقية كانت مع نيلز كروجستاد ، ولكن كان لابد آن تقطع صلتها به ، بل ان تبترها بترا ٠ انه لا يفهم مسئولية الانسان عن أم مريضة واخوة صــغار كان لابد أن تقتــل كل حب يحمله لها حتى لا يطاردها ٠ انها ضحت بحبها وسعادتها من أجل الغير ٠

ويسمع كروجستاد كلام كريستين فيرق قلبه لها ويقول : « وانا حين فقدتك ساخت الأرض من تحت قدمى ٠ انظرى الى ترى رجلا غريقا يتشبث بحطام صغير ٠٠ » ٠ وتقول لعل الفرج قريب ٠ فيجيبها : لا آمل ٠ انها آخذت منه حتى هذا الحطام الصغير حين حلت محله فى البنك ٠ انه يصدقها حين تقول انها كانت تجهل ما جرى ، ولكن أهى على استعداد لرد وظيفته اليه ؟ وتجيبه كريستين أنها لو عرفت آن فى ذلك نفعا له لعملته ولكنها تعلم أن هيلمر لن يرده الى البنك ٠٠ ولكنها تحب أن يعرف آنها مثله غريق يتعلق بحطام صغير ٠٠ انها وحيدة فى العالم فزوجها مات وأولادها يعملــون ٠٠ وحياتها فارغة ، وهى التى تعودت العمل تحب أن تعمل من أجل شخص تعنى به ، انها بحاجة اليه وهو بحاجة اليها ٠٠ وأولاده بحاجة الى آم وهى تحب أن تكون آما لأولاده ٠٠ فان كان ما يزال يحبهــا فليتزوجا وينقــذا ما بقى من حطام حياتهما ٠٠

ولا يصدق كروجستاد ما يسمعه ·· انه ما يزال يحبها، ولكن هل تعرف عنه كريستين كل شيء · نعـم ، تعرف كل شيء ·· ولكنه قال ان في وسعه أن يصبح معها رجلا اخـر نقيا فاضلا ، وهي تصدقه وتثق في سلامه جوهره ··

وتعاتبه كريستين على مسلكه مع آل هيلمر فيبدى ندمه ويتمنى لو استطاع اصلاح ما فات فتقول كريستين ان خطابه ما يزال في صـندوق مسـتر هيلمـر ·· ويحسب كروجستاد أن كريستين انما تساومه على نفسـها لانقـاذ صديقتها · فتجيبه قائلة انه مخطىء فمن ضحى بسعادته مرة من اجل الغير لا يعود لمثلهـا ويقـول كروجستاد انه ماض ليسترد الخطاب من هيلمر قبل أن يقرأه معتذرا بأنه مجرد رده على فصله من الخدمة وهو يفضل ان يسحبه ·· ولـكن كريستين تقول انها حقـا طلبت لقاءه أولا لتنصـحه بذلك ولكنها بعد ترو عدلت عن رأيهـا ، وهي ترى أن من الخير لهيلمر ولنورا أن يقف الزوج على هذا السر الشقي فيصـلا الى تفاهم في الأمر وتنتهي حلقات هذا الخداع ·

ويمضي كروجستاد عندما يحس بنـورا قادمة من بيت الجيران ومعها زوجها ، ومن بعده تمضي كريستين · ويدخل هيلمر ووجهه يتفجر بالسرور فقد كانت نورا درة الحفـل وبهجته وكان بها جد فخور ·· ان رقصة التارانتلا أشـعلت النار في دمه ··· وتنهره نورا وتقول انها متعبة وتحب أن تنام ·· ويدق الباب ويدخل الدكتور رانك وهو في حاله من المرح غير طبيعية وبعد أن يمزح قليلا يقول لنورا ان أبحاثه الطبية قد انتهت الى النتيجة الحاسـمة التي كان ينتظـرها وينصرف الدكتور رانك وهو في حالة من الصفاء الغريب ·

ويمضي هيلمر الى صـندوق بريده ويعـود برسائله ، ويعجب اذ يجد بطاقة من الدكتور رانك عليها مجرد رسـم صليب أسود ، ويقول منقبضا : « يا لها من فكرة سوداء ·· كأنما هو ينعى نفسه ·· » · وتقص عليـه في اقتضـاب

ما قاله لها الدكتور رانك ،، فيمضى هيلمر فى رثائه حتى توقفه نورا قائلة : « والآن اقرأ بقية الخطابات » ·

ويمضى هيلمر الى مكتبه وتقف نورا زائغة العينين · هذه هى اللحظة ·· لقد عزمت على الانتحـار · وتفـكر فى أطفالها ويتصدع قلبها وتشهق فى تفجع وتفكر فى زوجهـا الذى قبلته قبلة الوداع وهو لا يعرف أنها قبلة الوداع ·

ولكنه سيعرف عما قريب لن تسمع بعد الآن نجواه لها : « يا طيرى الغرد ! يا سنجابى الصغير ! اننى أتوق للمـوت فداء لك » · وتلف شـيئا على كتفيهـا وتخترق القاعة فى طريقها للبحيرة · ولكن هيلمر يخرج من مكتبه لاهثا وهـو ينتفض غضبا ويعترض طريقها وفى يده الخطاب ويصيح : « أصحيح هذا الذى أقرأ ؟ أجيبى ؟ » فتجيبه : « نعم صحيح ·· لقد أحببتك أكثر من أى شىء فى الحياة · دعنى امضى ·· لن تستطيع انقاذى يا تورفالد » · فيصرخ : « يا للشقية ! ماذا فعلت أيتها الشقية ؟ » فتقول نورا : « دعنى أمضى · فلن تدفع ثمن خطئى · لن تحمـل الوزر عنى » · ويجيبها بخشـونة : « لا مجال لهـذه التمثيليات » · ويغلق الباب ، ويطلب تفسيرا وهو هائج يصيح : « أتفهمين ماذا فعلت ؟ أجيبى ، أتفهمين ماذا فعلت » ·

وتنظر نورا نظرة ثابتة باردة وتجيب : « نعم · الآن بدأت أفهم تماما » ·

ويذرع هيلمر أرض الغرفة جيئة وذهوبا وهو يزأر : بعد ثمانى سنوات كاملة ماذا أجد ·· كذابة ·· منافقة هذه التى كانت محور سعادتى ومصدر فخرى ·· بل أكثر من ذلك ·· مجرمة يا للعار ! يا للعار ! يا لها من يقظة أليمة ! ولكن كان ينبغى أن يتوقع شىء من هـذا ، فقد كان أبوها مجردا من الأخلاق ، مجردا من الدين ، مجردا من الاحساس بالواجب · دمرت كل سعادته وحطمت كل مستقبله ووضعته فى قبضة أفاق · انه لن يستطيع أن يرفض له طلبا ·

وتجيبه نورا فى هدوء : عندما أخرج من حياتك ستسترد حريتك ، فيعود هيلمر الى صياحه : وماذا ينفعه ان تخرج من حياته ؟ انه يستطيع اذاعة الفضيحة فى كل مكان حتى ولو خرجت من حياته ، وليس ببعيد ان يتهم هو بالاشتراك فى هذا التزوير ، بل الأرجح ان الناس سيظنون أنه دفعها اليه دفعا . يا للشناعة ! ولكن لابد من حل . لابد من اسكاته بأى ثمن . أما هو وهى فيجب ان يبدو كل شىء بينهما عاديا أمام الناس ، أمام الناس فقط . لابد أن تبقى تحت سقف بيته ، ولكنه لن يسمح لها بتربية الأطفال فهو لا يثق فى أخلاقها .

وتدخل الخادمة حاملة خطابا موجها من كروجستاد الى نورا . ويخطفه هيلمر من يد الخادمة صائحا : انه منه .. لن أعطيه لك . سأقرؤه بنفسى .

ويفض الخطاب بيد ترتعش وهو يتوقع أن يجد فيه ضربة أنكى من الأولى ولكنه لا يلبث أن يصيح طربا : « لقد نجوت ! لقد نجوت يا نورا » . فقد وجد هى الخطاب الوثيقة المزورة وقد أعادها اليه كروجستاد مع كلمة اعتذار . ويصيح فى فرح صبيانى : قبل كل شىء اخر يجب تمزيقها . يجب احراقها . ويمزق هيلمر الوثيقة والخطابين تمزيقا عصبيا ويقذف بالأوراق فى المدفأة ويرقب احترافها فى جذل . ثم يلتفت الى نورا ويقول : مسكينة أنت يانورا ! لابد انها كانت محنة عصيبة لك . ولكن الحمد لله كل شىء انتهى . ولننس هذا الكابوس المريع .

ولكن نورا تظل شاخصة اليه ببرود قاتل ، فيمضى هيلمر فى قوله : أنت معذورة . أنت لا تصدقين ان كل شىء انتهى . نعم فهمت الآن . أنت لا تصدقين أنى صفحت عنك . أقسم لك أنى صفحت عنك ، فأنا أعلم أن حبك لى هو الذى دفعك الى هذا .

فتجيبه نورا قائلة : « هذا صحيح .. وأنا أشكرك على صفحك عنى » . وتتأهب للخروج . لقد أفاقت على الحقيقة

المرة · انها ظلت ثمانى سنوات تعيش مع رجل غريب عنها · لقد كانت تحسب أنها تحبه وكانت تحسب أنه يحبها ولكنهما كانا يعيشـان فى وهم عظيم · ان تورفالد هيلمر لا يحب الا نفسه · يا لحماقتهـا ! لقـد توهمت أنه فارسـها الذى سـيضحى بنفسه لينقذها من العـار ويتحمل تبعة الوثيقة المزورة ! لقد قررت أن تنتحر لتجنبه هذه التضحية ! ولكنها صحت الآن من حلمها ، وعرفت أن تورفالد هيلمر لا يفـكر الا فى تورفالد هيلمر ، انها عاشت ثمانى سنوات مع رجل لم تفهمه ولم يفهمها ، بل وأنجبت ثلاثة أطفال من رجل غريب! أما هى فقد عاشت كالدمية لا تعرف شيئا من حقائق الحياة · ان أباها عاملها معاملة الدميـة · فلم تتعلم منـه شيئا عن الحياة · ان تورفالد عاملها معاملة الدمية ولم تخرج منـه بشىء غير كلامه المنغم فى زهو : « يا طيرى الغرد ! يا سنجابى الصغير » !

حتى أطفاله الثلاثة لم تعد تحس نحوهم بما ينبغى من شعور الأمومة · انها ستتركهم له لينشئهم على مكارم الأخلاق هذه التى يجيد الحديث عنها · ·

أما هى ، فهى ماضية رغم أنالليل قد انتصف ولا تعرف مكانا تأوى اليه الا غرفة صديقتها كريستين · انها لم تتعود أن تنام فى منزل رجل لا تعرفه ·

وتضع نورا معطفها على كتفيها وتخرج من دار هيلمر دون أن تلتفت مرة واحدة الى الوراء ·

الأشـــباح

للكاتب النرويجى هنريك ابسن

فى قـــرية من قـــرى النرويج تقيم ســـيدة تدعى مسز آلفنج ، وهى أرملة مات عنها زوجهـــا الكابتن آلفنج منـــذ سنوات طويلة ، فهى تعيش فى دارها الريفيـــة بمفردها ، لا يؤنس وحشتها الا خادمة شابة تدعى رجينا أنجشتراند ، ثم أهل الجيرة وهم قلائل ، فى ذلك الريف الوعر المطل على الخلجان الصخرية أو الفيورد، التى تكثر فى ساحل النرويج الغربى • ولكن هذه الوحشـــة المـــديدة التى كابدتها مسز آلفنج قد انتهت الى أنس وبهجـــة منـــذ أيام حين عاد ولدها الوحيد ، الشـــاب الفنان أوزوالد ، من باريس حيث كان يدرس الرسم ، عاد ليقيم مع أمه اقامة دائمة بعد أن غاب عنها السنين الطوال •

واليوم يوم غائم ومطير كأكثر الأيام فى تلك البقاع • وفى دار مسز آلفنج حجرة تطل على حديقة الدار ، وعنـــد باب الحديقة يقف أنجشتراند أبو الخادم الشابة ، وهو نجار أعرج مشوه القدم يزك فى سيره وقد لبس حذاء أحد نعليه من خشب ليصلح من مشيته •

ويحاول أنجشتراند دخول الدار ولـــكن ابنته رجينـــا ترده عن ذلك فى غلظة ، فهى تخشى أن يتلف البلل العـــالق

بثيابه أثاث الحجرة ، وهى تخشى أن يوقظ وقع نعله الخشبى الشاب أوزوالد الذى ينام نوما عميقا رغم ان الظهر قد حل ، ولكن النجار أنجشتراند انما جاء ليقول لابنته رجينا ان أعمال النجارة التى تكفل بها فى مدرسة القرية سوف تنتهى بعد الظهر ، وانه لراحل على أول سفينة الى المدينة القريبة ، وهو لا يريد أن يعود الى المدينة وحده بل يريد أن تصحبه ابنته رجينا اليها • فهو بحاجة الى ابنته ، عليها أن تترك خدمة مسز آلفنج وأن ترحل معه •

ولكن لرجينا رأيا آخر ، فهى تحتقر أباها ولا تجد فى سلوكه أو فى حياته ما يغريها بأن تلازمه • وهو عربيد وضيع لا خلاق له ، أما هى فقد أنبتتها مسز آلفنج نباتا حسنا وهذبتها أحسن تهذيب كأنها ابنتها • فان كان النجار أنجشتراند يحسب أنها راحلة معه ، فهو واهم فى حسبانه • أما حقوق الأب هذه التى يقتضيها منها ، فهى لا تعترف بها ، فأنجشتراند ما عاملها فى يوم من الأيام كما ينبغى أن يعامل الأب ابنته بل على العكس من ذلك لكم تبرأ منها وفى أكثر من مناسبة سبها أقذع السباب وكان لا يفتأ يقول لها انها ابنة الزنا ويسب أمها قائلا انها بغى ساقطة ، ومازال بها يحقرها ويعذبها حتى ماتت كمدا •

ويلحف أنجشتراند على ابنته أن ترحل معه ، ويحاول أن يغريها بكل ما يملك من قدرة على الاستعطاف وقدرة على الاغواء • فهو الآن وحيد بغير معين فى الحياة منذ أن ترمل وهو بحاجة الى امرأة تسهر عليه وهو قد ادخر مالا كثيرا قارب الخمسين جنيها من أعمال النجارة التى كان يقوم بها فى الملجأ ، وهو يقصد أن يستثمر هذا المال فى انشاء مطعم للبحارة ، لا مطعم حقير لصغار البحارة وصعاليكهم المعربدين كما تحسب ابنته رجينا ، ولكن مطعم فخم فاخر للقبطانات وللضباط البحريين • ورجينا تستطيع أن تعينه على ادارة المطعم هذا • ولقد تجد بين رواده ضابطا تروق فى عينه فيتزوجها ، فان كان البحارة كما تقول رجينا قوم يحبون اللهو ولا يقبلون على

الزواج ، فسوف تجد رجينا أيضا فى اللهو جزاء سخيا • وهو يذكرها بأمها التى كانت تقل عنها جمالا وهى مع ذلك قد وجدت من بينهم بحارا انجليزيا يعطيها سبعين جنيها •

وتثور رجينا حين تسمع كلام هـذا الأب السافل الذى يحرض ابنته على الفسق ، وتطرده شر طردة وتوشـك أن تنهال عليه ضربا • فينصرف انجشتراند وهو يقول ان له اليها عودة • فهى ابنته كما تشهد بذلك سجلات القرية ، وللآباء فى بناتهم حقوق • والقس ماندرز آت بعد قليل من المدينة ليفتتح الملجأ الذى أنشـأته سـيدتها مسز آلفنج فى اليوم التالى ، وقد لجأ اليـه أنجشتراند ، فهـو خير من يعلم البنات العاصيات كيف تكون طاعة الآباء •

وما أن ينصرف النجـار أنجشتراند حتى يصـل القس ماندرز • وتعلن رجينا مجيئه لسيدتها مسز آلفنج ، فتقبل عليه سيدة الدار هاشة باشة وهى فى أسعد حال • فالقس ماندرز صديق قديم لآل آلفنج وهو قد بر بوعده وجاء بعد غيبة طويلة ليدشن ملجأ الأيتام الذى أنشأته مسز آلفنج عند افتتاحه فى الغد • ولكن غبطة مسز آلفنج قد اكتملت لأن وحيدها السيد الشـاب آلفنج قد عاد اليهـا من بلاد الغربة ليقيم معها طول الشتاء •

ويبرز القس ماندرز ما كان يحمله من وثائق وأوراق رسمية استصدرها من السلطات ليأخذ « ملجأ الفنج للأيتام » وضعه الرسمى ، ومن هذه الأوراق عقد نقل ملكية الأرض من الأملاك العامة الى ملكية الملجأ • وتطلب اليه مسز آلفنج أن يستبقى لديه كل هذه الأوراق والوثائق فهى قد اختارته قيما على الملجأ ، وله أن يصرف أموره كما يرى ، وهى قد أودعت فى البنك مالا ينفق القس ماندرز من فوائده على الملجأ •

وعلى الجملة فكل شىء يسير سيره الطبيعى الا أمرا واحدا يؤرق القس ماندرز ولا يعرف كيف يبت فيـه بقـرار فهو لا يعرف ان كان ينبغى أن يؤمن على الملجأ أم لا يؤمن • اما التأمين فواجب ، وكل الناس تؤمن على ما تملك ، ولكنـه

يخشى بوصفه من رجال الدين أن يرى المحافظون من علية القوم فى التأمين على الملجأ شكا فى أن الله سيكلؤه برعايته • ولا تفهم مسز آلفنج هذا المنطق ، فهى امرأة متحررة واسعة الافق • ولكن القس ماندرز يقيم وزنا كبيرا لرأى المحافظين فى تصرفاته ، ولا سيما أصحاب النفوذ منهم ، وأخيرا ترضخ مسز آلفنج لرأى القس ماندرز ، فهى التى فوضته ليصرف أمور الملجأ حسبما يرى ، ولكنها تبين له أنه لو حدث للملجأ حادث فهى لن تصلح فيه شيئا •

وبعد أن يفرغ القس ماندرز من تسوية أمور الملجأ مع منشئته مسز آلفنج ، يفاتحها فى أمر الفتاة رجينا ، قائلا ان أباها أنجشتراند بحاجة اليها ، فهو رجل ضال ومن الخير أن تعود اليه ابنته وتنظم له حياته لعله يستقيم • وتأبى مسز آلفنج أن تنظر فى هذا الرأى فهى قد أعدت رجينا لحياة أنظف وأشرف من حياة أنجشتراند وهى قد رتبت لها عملا فى ملجأ الأيتام لتعنى بالصغار بدلا من أن تعنى بهذا الرجل السكير الفاسد الخلق • وتأبى رجينا نفسها أن تنظر فى نصيحة القس ماندرز وتتحدث عن أبيها فى زراية شديدة ، وينبه القس ماندرز مسز آلفنج والفتاة رجينا الى ما يقوله الدين فى طاعة الوالدين ، ويؤنبهما على قسوتهما فى الحكم على هذا الرجل الضال أنجشتراند ، فهو ليس غولا كما تصورانه بل رجل ضعيف لم يمت فيه الضمير ، وهو كثيرا ما يتردد عليه ويعترف أمامه بضعفه وأخطائه ويطلب منه المعونة لينهض من كبوته • فهو اذن رجل أجدر بالرثاء منه بالاحتقار •

ويقبل الشاب أوزوالد آلفنج بعد أن صحا من نومه على مسز آلفنج والقس ماندرز ، ويرحب به القس ماندرز ترحيبا ، ولكنه يكتشف بعد دقائق أن له آراء فى الحياة شاذة أقرب الى البوهيمية منها الى معتقدات الناس المحترمين •

ان أوزوالد آلفنج ، قد عاش غريبا عن داره منذ أن كان فى السابعة من عمره ، وهو الآن فى السابعة والعشرين ،

وقد أخطأت أمه خطأ جسيما حين أرسلته بعيدا عن دار والديه لينشأ فى مدارس الغربة ثم ليتعلم الفنــون فى باريس • فماذا أصاب أوزوالد من كل ذلك انه حقا قد اصاب نجاحا ملحوظا كرسام • تعرض لوحاته ويشتريها الناس ويتحدث النقاد في الصحف عن معارضه ، ولكن أصاب أيضا حيــاة مضطربة لا استقرار فيها • فهو الآن يعيش بلا دار ولا أسرة ومن كان فى سنه فقد وجب أن يتزوج وأن يحيا حياة هادئة منتظمة بين زوجه وأولاده • فالخطأ اذن خطأ مسز آلفنج التى عرضت ولدها لهذه الحياة المضطربة ، والخطأ اذن خطأ الشاب أوزوالد الذى استمرأ حياة الفوضى التى يحياها الفنانون فى باريس ، وقد كان ينبغى عليه أن يعود الى داره ويعيش عيشة محترمة بين أهل القرية •

ويغضب أوزوالد ، فهو لا يرى فى حيــاة الفنانين كل هــذه البوهيمية والفسق والاضطراب الذى يزعمــه القس ماندرز • هو يعلم من اختباره فى باريس أن حياة الفنانين لا تقل هدوءا وانتظاما وشرفا عن حيـــاة هــؤلاء المحترمين الذين يتحدث عنهم القس ماندرز • وأن الكثيرين منهم حقا لا يجدون المال الكافى للــزواج ، فالزواج كثير النفقات • ولكنهم رغم ذلك يعيشون مع صاحباتهم عيشة منتظمة كأنهم أزواج من أفضل طراز ، ومنهم من ينجبون البنين والبنــات ويعيشون مع أولادهم أو مع أمهات أولادهم فى استقرار تام، ليس من داع اطلاقا أن يصفهم القس ماندرز بالخسة وانعدام الشرف وأوزوالد يعرف حقا بوجود الخسة وانعدام الشرف فى دوائر الفنانين ، وهو يعلم القس ماندرز شيئا جديدا لم يكن يعلمه فالخسة والفجور يدخلان حياة الفنانين مع أولئك الأزواج المثاليين والآباء المثاليين الذين يتحدث عنهم القس ماندرز ، حين يرتادون معــارض الفن ليشــتروا الصــور ويخالطون الفنانين فىأحيائهم الفقيرة وفى دورهم الوضيعة، ومنهم يتعلم الفنانون أشياء من حياة الليل ماكانوا يعرفونها ويصاحبونهم الى أماكن للفجور ما كانوا يحلمون بوجودها •

هذه الحقيقة التي ينبغى أن يعرفها القس ماندرز بدلا من التجنى على الفنانين المساكين • وها هى ذى أمه تقره على كل كلمة تفوه بها ، فهى امرأة متحررة العقل منصفة التفكير أما أزوالد فهو متعب من هذه المناقشة الفارغة وهو يقول انه يخرج للرياضة والمشى لعل ما به من صداع يزول قبل الغداء •

وحين يختلى القس ماندرز بمسز ألفنج يعنفها أشد التعنيف على ما آلت اليه حال ابنها • فهى المسئولة عن اعتناقه هذه الآراء المنحرفة بتنشئته بعيدا عن جو الأسرة ، بل أفظع من ذلك ، انها الآن تقر ولدها على هذه المبادىء الهدامة التى يهذى بها •

والقس ماندرز لا يحدثها الآن بوصفه صديق الأسرة الذى حمل أكرم الود لزوجها الراحل الكابتن ألفنج ، ولكنه يحدثها بوصفه قسيسا وبوصفه راعى الكنيسة التى تنتمى اليها ، فهو يعلم أن هذا الانحراف ليس بالشىء الجديد على مسز ألفنج وهو يذكرها بحياتها الماضية السيئة التى أوشكت أن تنتهى بكارثة أيام حياة زوجها المرحوم ، لولا انه مد اليها يده المنقذة التى انتشلتها من وهدة محققة كادت أن تتردى فيها • ان غدا هو يوم الذكرى العاشرة لوفاة زوجها المرحوم الطيب الذكر • وغدا يزيح القس ماندرز الستار عن اللوحة التذكارية التى أقامتها مسز ألفنج فى ملجأ الأيتام تخليدا لذكرى زوجها الذى سيعرف بفضله كل أيتام المنطقة • وغدا سيقف ماندرز فى الحفل خطيبا يعدد مناقب الفقيد الكريم • ولكنه اليوم يحدث مسز ألفنج فى خلوة ويذكرها بذنوبها الماضية لعله يوقظ ضميرها الماضى •

أن مسز ألفنج قد نسيت أنها هربت من زوجها ولما يمض على زواجهما عام واحد ، وأنها جاءت القس ماندرز يوم ذاك تقول انها يائسة تعيسة وتطلب اليه أن يؤويها • فهى امرأة ثائرة متمردة على أقدس الروابط منذ شبابها • ولو صح ما قالته وجرت به الشائعات عن سوء مسلك زوجها

المرحوم الكابتن آلفنج فى شبابه لوجب عليها أن تحمل آلامها فى تجمل واصطبار . فالله لم يخلق البشر لينشدوا السعادة وانما خلقهم ليؤدوا الواجب ، وما طلب السعادة الا عبارة أخرى عن روح التمرد والجموح التى تنهى عنها الأخلاق الفاضلة . ثم انها لم تكتف بتعريض سمعتها لقالة السوء ، بل أوشكت أن تعرض اسمه للخطر أيضا . وهى حقا لا تجد غبارا فى أن تلجأ الى قسها وصديق أسرتها ، ولكنها تنسى أنها كانت فتاة تفيض بالشباب والجمال وأنه لولا لطف الله الذى أعانه وقوى من عزيمته وثبت ايمانه فى قلبه لاسترسل معها فى أهوائها وربما اندفع معها فى سبيل الخطيئة ولو بالفكر والاشتهاء . فالله يحمد ماندرز على أنه جعل منه أداة عنايته لهديها الى الطريق القويم فهو الذى ردها الى زوجها وأعادها الى حياة الواجب والطاعة فارتدت وارتدعت وحلت على دارها النعم والبركات ، ففئ زوجها من مسلكه الشائن وغدا لها نعم الزوج الصالح، وتفتح قلبه للاحسان فغمر المنطقة بأفضاله وارتفع بها الى مستوى فضله وصلاحه فجعلها تشاركه فى كل ما يقدم عليه من وجوه البر .

ثم ان مسز آلفنج لم تقصر فى واجب الزوج فحسب حين تمردت على زوجها بل قصرت فى واجب الأم كذلك، فخطيئتها اذن خطيئتان لا خطيئة واحدة .

فهى بعلة هذا الجموح الذى ملك عليها حياتها لم تجد عبئا فى الحياة الا ونبذته عن عاتقها ، حتى عبء الأمومة الذى تقبله غيرها من النساء الصالحات كانت مسز آلفنج له كارهة . وكما ضاقت بزوجها فهجرته وضاقت كذلك بولدها أوزوالد فتخلت عنه وهو بعد فى السابعة من عمره وأسلمته الى الغرباء لينشأ بينهم ، وهى قد تابت حقا واعترفت بخطيئتها نحو زوجها فهى اليوم تقيم له شاهدا تذكاريا لتحيى ذكراه العاطرة ، وفى هذا خير اعتراف بهذه الخطيئة ، ولم يبق الا أن تندم مسز آلفنج على ما اقترفت من جناية على ولدها ، وأن تبدأ صفحة جديدة فى حياتها فتحاول أن تهدى

ولدها الضال الى طريق الصلاح قبل أن ينتهى الى هلاك مبين .

وتسمع مسز آلفنج كل هذا الكلام الموجع فى صمت أليم ، وحين يفرغ القس ماندرز كل ما فى جعبته تشخص اليه لحظة ثم تجيبه فى هدوء عميق وهى تغالب عواطفها المضطربة وتكبت ما كان يعتمل فى صدرها من عذاب فظيع .

ان القس ماندرز لم يتكرم بزيارة آل آلفنج مرة واحدة منذ أن ردها الى زوجها رغم ما كان بينه وبين الأسرة من ود قديم ، ورغم ما كان يقضى به واجب القس من رعاية الرعية . وهى تعلم أنه افتعل هذه القطيعة حرصا على سمعته حتى لا يقال انه يتردد على أسرة فيها زوجة هجرت زوجها وتمردت فى يوم من الأيام ، بل هى تعلم انه ما زارها هذه المرة بعد كل هذه السنوات الا لأنها جعلته القيم على ملجأ الأيتام . وهى تلومه الآن على هذه القطيعة أو تعاتبه على التعريض بها ، ولكنها تقول انه يحكم بما لا يعلم ويطلق القول دون أن يطلع على الحقيقة .

فلو قد تفضل بالتردد على آل آلفنج لعلم أن زوجها المرحوم الكابتن آلفنج مات فاجرا كما عاش فاجرا . فان أراد أن يتحقق من قولها ففى امكانه أن يسأل الطبيب الذى عالجه حين حضرته الوفاة ، فمنه يعلم أن الكابتن آلفنج مات بالسفلس .

أما قصة هذا الزوج الصالح الذى ارتد عن غيه وغدا مثلا لمكارم الأخلاق فكانت أسطورة بنتها هى فى عالمها الشقى الذى كانت تعيش فيه مع هذا الزوج الخليع . فهى التى جاهدت ما وسعها ذلك لاخفاء حقيقة زوجها عن الناس . فبعد أن رزقت منه بأوزوالد لم تر بدا من أن تفعل ذلك حرصا على اسم ولدها حتى لا ينشأ وهو يجر عار أبيه فى أذياله .

فان أراد القس ماندرز أن يعرف المزيد عن صديقه الصالح الكابتن آلفنج فاليه بالمزيد . انه لم يكتف بضبواته

السافلة خارج المنزل مع كل مومس وفاجرة بل أوغل فى غيه فجعل من داره مسرحا لفجوره • وقد سمعته ذات مرة من حيث تقف الآن ويغازل خادمتها الأولى ، وهى تحاول الفكاك من ساعديه وتقول فى همس : « دعنى وشأنى يا مستر آلفنج ! دعنى وشأنى ! » ثم علمت بعدئذ أنه استطاع افسادها • بل علمت ما هو أمر من هذا وأدهى • علمت أنها حملت منه •

لكم شقيت وتعذبت وهى تحاول أن تستبقيه فى الدار دعنى وشأنى ! » ثم علمت بعدئذ أنه استطاع افسادها • بل فكانت تشاطره الشراب وتستمع الى بذىء كلامه وتصبر على فحشه حتى لا يطوف بالحانات ويعربد فى الطرقات • كل هذا فعلته من أجل ولدها أوزوالد • فلما بلغ أوزوالد السابعة من عمره وبدأ يفهم بعض ما يجرى حوله من شاذ الأمور لم يكن لها بد من أن تقصيه عن هذا الجو الموبوء حتى ينشأ صحيح العقل والقلب ، ورضيت بأن تبعد فلذة كبدها باختيارها سنوات طويلة فلم تطأ قدمه هذه الدار اللعينة سنوات طويلة ما بقى أبوه حيا •

أما هى فقد انصرفت الى تنمية ثروة الأسرة والتى لولاها لضيعها زوجها العربيد ، وأخذت تنفق فى وجوه البر والاحسان باسم زوجها الذى ما كان يفيق من سكره ، فينال زوجها الذكر العاطر وتصلى هى فى جحيم مقيم •

وها هى ذى قد جللت كل هذا بملجأ الأيتام الذى شيدته حتى تخرس كل لسان يمكن أن ينال اسم آلفنج بسوء ، فهى تعلم أن الحقيقة لا تخفى على الدوام ، وهى تريد أن تحجب كل هذه الأسرار العفنة وراء بر عظيم يجعل كل لسان يلهج بالثناء عليه • ولكنها حين أنفقت كل هذه الاموال الطائلة فى بناء الملجأ انما قصدت أيضا الى شىء آخر ، وهو ألا يرث ولدها أوزوالد من مال أبيه مليما واحدا ، فكل ما أنفق على الملجأ من مال آلفنج ، وما أرصد له من مال هو كل ماله • نعم ، انها لا تحب لولدها أن يرث عن أبيه شيئا ، وانه لوارث عنها كل شىء •

وحين يسمع القس ماندرز هذه القصة المفجعة يذهل أيما ذهول ويندم أشد الندم على ما بدر منه من غلظة وقول موجع ، ويحار فيما ينبغي أن يفعله حين يأتي الغد بعد أن أطلع على هذه المأساة التي لا يعلم بها أحد • ففي الغد سوف يقف في الناس خطيبا بعد أن يزيح الستار عن النصب التذكاري ويعدد مناقب هذا الراحل الفاجر • ويطلب القس ماندرز من مسز آلفنج أن تعفيه من هذه المهمة البغيضة ، ولكنها تلح عليه أن يمضي في هذه المهزلة الى آخرها • فهي قد قررت أن يكون هذا آخر عمل تقوم به من أجل زوجها وما أن ينفض الحفل حتى يخرج الكابتن ، آلفنج نهائيا من حياتها ولا يبقى لذكراه وجود في دارها حيث تقيم هي وولدها الحبيب العائد اليها في نعيم دائم حتى نهاية العمر•

وفيما هي تحدث القس ماندرز على هذا النحو تسمع صوت جلبة في الحجرة المجاورة وكرسي يسقط على الأرض ويأتيها صوت خادمتها رجينا وهي تصرخ في همس واضح : « يا أوزوالد ! أأنت مجنون ؟ دعني وشأني » !

فتهب مسز آلفنج مذعورة وتصيح : « واها لي ! واها لي » !

ويقول القس ماندرز مستفسرا :

« ما الخبر ؟ ماذا جرى يا مسز آلفنج ؟ » •

فتجيبه بصوت مختنق :

« الأشباح ! انهما في الحجرة المجاورة ، كما كانا ، في الماضي » •

ويقول القس ماندرز :

« ماذا تقولين ؟ أتقصدين أن رجينا •• ؟ » •

فتجيبه مسز آلفنج :

« نعم • نعم • هيا بنا اياك أن تنطق بكلمة » !

ويدرك القس ماندرز أن رجينا هى الثمرة المحرمة التى خلفها الكابتن آلفنج من معاشرته للخادمة الأولى ، وتوشك مسز آلفنج أن تتهافت ، ولكنه يسندها بذراعه ويسير بهـا الى حجرة الطعام ٠

ان المأساة القديمة تتجدد ، بل وتتخذ صورة أفظع من صورتها الأولى ، فها هو ذا آلفنج الابن يطارد الخادم رجينـا كما كان آلفنج الأب يطارد أمها الخادم جوانا ، ولكن رجينا ليست غريبة عن الدار فهى أخت أوزوالد من أبيه ٠

وتتفق مسز آلفنج والقس ماندرز على ضرورة اقصاء رجينا بأى ثمن ٠

انهما لا يستطيعان ارسالها الى النجار أنجشتراند فهـو ليس أباها الحقيقى ٠ وان كانت السجلات الرسمية تقـول انه أبوها وتروى مسز آلفنج على القس ماندرز قصة الخادم جوانا أم رجينا ، وكيف تخلصت منها باعطائها مبلغا طائلا من المال يبلغ سبعين جنيها لقاء رحيلها ببنتها عن الدار ولقاء سكوتها ، وقد أغرت جوانا النجار أنجشتراند بما حصـلت عليه من مال وقصت عليه قصة من نسج الخيـال عن أجنبى جاء الى القرية في يخت وغرر بها ثم تركها مع طفلتها بغير معين الا ما تركه لها من مال ، ورضى أنجشتراند أن يتزوجها طمعا فى مالها وزعم أمام القس ماندرز الذى زوجهما أن جوانا قد زلت معه قبل الزواج وأنه يريد أن يصلح بهـذا الزواج ما أفسد ٠

وهكذا تتفق مسز آلفنج والقس ماندرز على التخلص من رجينا بايجاد زوج لها على غرار ما حدث لأمها ٠

ويأتى أنجشتراند راجيـا أن يؤذن له فى اصطحـاب ابنته ، فيثور القس ماندرز فى وجهه قائلا ان أكاذيبه قد جعلتـه يزور فى سـجلات الكنيسة ويثبت أن رجينـا بنت أنجشتراند ، أما الآن وقد عرف الحقيقة فهو يأمر أنجشتراند أن ينصرف الى غير رجعة ، فهو لن يستقبل بعد اليوم كذابا مدلسا مثله ٠

ولكن أنجشتراند الماكر المنافق يطلب الى القس أن يصفح عنه ، ويصور نفسه فى صورة المنقذ الشريف الذى ضحى بنفسه ليستر سوأة جوانا الساقطة ، زاعما أنه لم يبغ شيئا الا كتم فضيحة تلك المرأة المسكينة التى زلت مع أجنبى عابر وجاءته دامعة العين تطلب العون فان كان قد أذنب فهو يطلب الصفح عن ذنبه ، وهو الآن قد جاء ليرجو القس ماندرز أن يمضى معه الى ملجأ الأيتام حيث أتم أنجشتراند عمله ليصليا معا صلاة الشكر لله وليبارك القس ما صنعه من أعمال النجارة ·

ويرق قلب القس ماندرز لهذا اللئيم المنافق ويعده بأن يحقق له رجاءه · بل ويطلب اليه أن يصفح عنه لسوء ظنه به فان ما أبداه من شهامة فى ستر الخاطئة المسكينة هو المثل الأعلى للأخلاق الدينية ·

وهنا يعرض أنجشتراند مشروعه الذى جاء يرجو أن تعينه عليه رجينا ، فيصور الماخور الذى اعتزم أن ينشئه للبحارة تصويره لحرم مقدس سيعصمهم من مفاسد الدنيا وغواياتها ويهيىء لهم مكانا للمتعة النظيفة واللهو البرىء كلما رست سفنهم على الشاطىء ، وهو لا أمل له الآن الا أن تأذن له مسز آلفنج فى اصطحاب رجينا لتعاونه على القيام بهذا المشروع الجليل ·

ويعده القس ماندرز خيرا فينصرف أنجشتراند وماندرز الى الملجأ ليقيما الصلاة ·

وما أن تخلو مسز آلفنج الى نفسها حتى يأتيها ولدها أوزوالد وقد أفرط فى الشراب ، وهو يطلب مزيدا · وتعنفه أمه فى رفق على ذلك ، فيصارحها بأنه ما عاد اليها الا لأنه بحاجة الى رعاية دائمة ، فهو مريض ، وعلته ثقيلة ، وهو لم يعد يستطيع أن يرسم أو يزاول أى عمل من الأعمال · وقد خشى أن يكتب اليها بأمر علته فيحزنها · أما المرض الذى يشكو منه فهو الانهيار العقلى ، وهو لم يعد يستطيع أن يركز تفكيره فى شىء من الأشياء وترتجف أمه وهى تسمعه

يقول ان داءه ليس منه شفاء ، وأن الأطباء قد يئسوا من علاجه ، وكان منهم طبيب حاذق فحصه حين جاءته الأزمة الأولى ، فثقلت رأسه وشلت « قواه العقلية ونهشه صداع ممزق وسأله ذلك الطبيب جملة أسئلة غريبة عن نفسه وأسرته وصحته ، أسئلة لم ير بينها وبين مرضه سببا ، ثم انتهى الطبيب بقوله انه مصاب بالسفلس الوراثي وعلق على ذلك بقوله ان خطايا الآباء تتسلسل فى الأبناء • ولكن أوزوالد لم يصدقه ، فقد كان يعبد ذكرى أبيه ويتمثله فى حياته المثل الأعلى لكل فضيلة ، بحسب ما لقنته أمه فى كل خطاب أرسلته اليه وذهب يجادل الطبيب فى كل هذا بل وأطلعه على خطابات أمه ، فأخذت الحيرة من الطبيب كل مأخذ وبدأ يشك فى علمه وطبه وانصرف وهو يقول : مادام الأمر كذلك فلابد أنك أصبت هذا الداء من عشرة النساء •

ويطلب أوزوالد مزيدا من الشراب ويلحف فى ذلك فتجيبه أمه الى ما يطلب • وتحاول أن تهون عليه الأمر قائلة ان الأطباء كثيرا ما يخطئون • ولكن أوزوالد الذى لا يعرف حقيقة حاله ومآله يسترسل فى كآبة لا حد لها • وبعد أن تضع رجينا زجاجة الشمبانيا والأقداح وتنصرف يقول أوزالد لأمه انه لم يعد له سوى أمل واحد فى هذه الحياة ، وهو أن تأذن له أمه فى الزواج من رجينا ، فهى وحدها القادرة على أن تعينه فى محنته • فان أذنت أمه بزواجهما عاد برجينا الى باريس ، وهناك ينتظر معها النهاية المحتومة التى قال الأطباء انها آتية لا ريب فيها • نعم ان رجينا وحدها هى القادرة على انقاذه وفيها وحدها خلاصه من هذه المخاوف التى تنهش عقله نهشا • أما أمه فهى لا تملك له نفعا لأن ما به من علة لا تنفع فيها الأمهات •

بل هو يصر على أن تجالسهما رجينا وأن تشاركهما الشراب فهو قد قرر أن يتخذ منها زوجا له ، وقد اتفقا على ذلك فيما بينهما ولم يبق الا أن ترضى أمه بالأمر الواقع •

وتضطرب مسز آلفنج اضطرابا عظيما وتحار فيما ينبغى أن تفعله لتحول دون عقد هذا الزواج الآثم • وتقرر أن تصارحهما بالحقيقة • وقبل أن يهيأ لها ان تفضى اليهما بشىء ، تسمع جلبة خارج البيت ومن النافذة يرى الجميع حريقا هائلا يلتهم الملجأ فتلبس مسز آلفنج شالها ، وتلبس رجينا شالها وينطلق الثلاثة على عجل الى الملجأ المحترق •

●

ولا يعود الجميع الا والملجأ قد بات أنقاضا من رماد ، ولا يبقى من وميض الحريق الا ألسنة تشتعل فى البدرون • ولا يعلم أحد حقيقة ما حدث على وجه التحديد ، الا أن الحريق شب بعد أن انطلق أنجشتراند والقس مأندرز الى الملجأ للصلاة ولاشاعة البركة فى المكان •

ويفتعل أنجشتراند الماكر ألما ممزقا • فلولاه كما يقول لما خرج القس ماندرز الى الملجأ للصلاة فألقى ذبالة الشمعة التى كان يحملها على نشارة الخشب قبل أن تنطفىء الذبالة ، وكان الحريق •

اما القس ماندرز فهو لا يذكر شيئا مما كان • بل لا يذكر أنه أطفأ ذبالة الشمعة بأصابعه كما يقول أنجشتراند، فليس من عادته استخدام أصابعه عند اطفاء الشموع • بل انه لا يذكر أنه كان يحمل شمعة اطلاقا رغم ما يؤكده أنجشتراند • ولكن أنجشتراند يقول انه رآه بعينه يفعل كل ذلك ، وهو ينبه الى ما ستقوله الصحف فى هذا الشأن • انها لن ترحم القس ماندرز على ما فعل ، وكيف ترحم الصحف رجلا يضرم النار فى ملجأ للأيتام !

ولا تكترث مسز آلفنج لما حدث ، بل لعلها تشعر بالراحة لاحتراق الملجأ ، وتقول فى ذلك ان مثل هذا الملجأ ما كان يرجى من ورائه خير على كل حال • ولم يعد يهمها أيضا كيف ينصرف القس ماندرز فى مخلفات هذا البناء المحترق • انه يقترح نقل ملكية الأرض الفضاء الى الكنيسة،

أما المال المرصد للملجأ فهو لا يعلم كيف يستثمره فيما ينفع الناس ٠

ولكن الماكر أنجشتراند يعرف كيف يستثمر هذا المال المرصد فيما ينفع الناس وهو يطلب أن يكون له فيه نصيب ليعزز به دار ايواء البحارة هذه التى اعتزم أن ينشئها ، بل لسوف يسمى هذه المنشأة « دار آلفنج لايواء البحارة » ، ولسوف يجعل منها شيئا جديدا بأن تحمل اسم المرخوم الكابتن آلفنج ٠ ان انجشتراند رجل وهو يستطيع الآن أن يتحمل مسئولية الحريق أمام المحققين ، وهو لن يتخلى الآن عن القس ماندرز الذى أسدى اليه معروفا ومعروفا ٠٠ ٠

ويتحرج القس ماندرز بادىء الأمر من هذا العرض ، ولكن انجشتراند الماكر يسترسل فى قوله انه فاعل ذلك شاء القس أم لم يشأ ، فيرق له قلب القس ماندرز ويصافحه مصافحة الصديق للصديق ، ويعده بنصيب فى مال الملجأ ٠ وينصرف الرجلان ٠ هذا قاصد كنيسته فى المدينة القريبة وذاك قاصد حانته أو ماخوره الذى أقامه لاستقبال البحارة أو « دار آلفنج لايواء البحارة » ٠

وحين يسمع أوزوالد ما كان من حديث يتحول فى انقباض كئيب ان دار آلفنج لايواء البحارة سوف تحترق كما احترق ملجأ الأيتام ٠ ان كل ما تركه أبوه آيل الى الاحتراق ولن يبقى منه أثر على وجه الأرض ٠ وها هو ذا نفسه يحترق ويسير الى دمار قريب ٠ انه يطلب أن تبقى رجينا الى جواره دائما ، لتعينه حين يحين الحين ٠

وتواجه مسز آلفنج مشكلتها القديمة ٠ لابد من افهام أوزوالد بحقيقة أمره وأمر رجينا ٠ انها لا تفهم تماما ماذا يعنى ولدها بقوله : ان رجينا وحدها هى التى تستطيع أن تعينه حين يحين الحين ٠ انها أمه ، وهى قادرة على السهر عليه حتى يبرأ من علته ٠ انها تحسب أن وخز الضمير يؤرقه وأن أكثر ما بنفسه من هواجس ووساوس آت من اعتقاده بأنه جلب على نفسه هذا الداء الوبيل الذى يفتت

به · ولكنه سوف يطمئن باله حين يعرف أن ما به من داء قد ورثه عن أبيه ، ولا يد له فيه · نعم ، لسوف تطلعه على الحقيقة كلها ·

وتجلس مسز آلفنج الى جوار ولدها ، وتجلس معهما رجينا لتقف على كل الأمور · وتروى الأم لولدها طرفا من سيرة أبيه يعلم منه أن أباه المسكين لم يكن يجد السعادة فى حياته الزوجية فطلب سعادته مع غيرها من النساء ، ومات بهذا الداء عينه الذى لازمه سنوات وورثه عنه أوزوالد · بل أكثر من هذا ان لرجينا فى دار آلفنج مثل ما لأوزوالد نفسه من حقوق ، فهى بنت أبيه من احدى مغامراته ·

وحين تسمع رجينا هذا الكلام تنهض وتعلن أنها راحلة عن هذا البيت الشقى ، انها الآن تفهم حقيقة أمها · واذا كان أوزوالد قد ورث هذا الذى ورث عن أبيه ، فهى لا شك قد ورثت عن أمها شيئا · لسوف تبيع نفسها كما باعت أمها نفسها فان ساءت حالها فهى تعلم أين ختام مطافها : فى « دار آلفنج لايواء البحارة » · ومهما يكن من شىء ، فمادام القس ماندرز قد اطلع على كل شىء فهى ماضية اليه لتأخذ نصيبها من مال أبيها ، فهى أحق به من ذلك البحار اللعين · انها ابنة السيد وقد نشأتها سيدتها نشأة الخادمة · ولكنها لن تبقى الى جوار المرضى والمعلولين دقيقة واحدة بعد ذلك ·

أما أوزوالد فلا يهتز كثيرا حين يقف على حقيقة أمره · فهو لم يعرف أباه حتى يحزن : ثم ما جدوى التفكير فيما مضى اذا كان ينتظر الكارثة من لحظة الى أخرى ؟ انه كان يود لو بقيت رجينا الى جواره لتعينه حين يدخل المرحلة الأخيرة ولكن مادام رجينا قد ولت فلم يبق الا أن ينتظر العون من أمه ·

قال الأطباء حين تحل الأزمة سينطفىء عقله جملة ويصبح كالأبله المعتوه ، ويرتد الى ما يشبه الطفولة ، ويبقى فى طفولته بقية أيام الحياة · لهذا أعد أوزوالد لكل شىء عدته · أعد مسحوق المورفين ، وهو يرجو أن تسقيه أمه اياه حين تحل بعقله الكارثة ·

وتهلع أمه حين تسمع هذا الكلام ، وتحاول أن تنتزع من يده علبة المورفين ، ولكنه يردها الى جيبه ولا يزال بأمه يستعطفها أن تسدى اليه هذا الصنيع الذى أرادت رجينا أن تسديه اليه حين ينطفىء نور عقله ولا يكف عن استعطافه حتى تعده بذلك ولكنها تذهب تسرى عنه قائلة ان هذه اللحظة لن تجىء . وتناجيه بنجوى الأمل المتفائل ، ثم تشير الى الفجر الوليد الذى شقشق ورمى نوره فى الآفاق رغم الضباب . ثم تشير الى الشمس البازغة التى تشتت قطعان الضباب وتزهو بضيائها الساطع فى العالمين .

وفيما هى تحدثه حديث الأمل البسام تأخذه رعشة ويتصبب عرقا ثم يشخص اليها فى نظرات فارغة من كل معنى ويهتف قائلا : الى بالشمس يا آماه ! الشمس ! أعطنى الشمس .

وتجفل الأم مرتاعة ثم تدرك أن الكارثة قد حلت . وتمد يدها الى جيب ولدها ، وتستخرج منه علبة المورفين . ثم تقف وقفة المشلول وتهذى قائلة : لا أستطيع! لا أستطيع! لا مفر ! لا مفر ! لا أستطيع !

للكاتب النرويجى هنريك ابسن

هذه الواقعية .. هذه الواقعية التي نقرأ عنها كل يوم ونحـاول أن نحيط بمعناها وأن نلم بحـدودها قد وضـع أساسها الكاتب النرويجى العظيم هنريك ابسن ، فلا غرابة اذن أن يسمى فى كل مكان أبا المسرح الواقعى ، ولا غرابة اذن أن يسمى كذلك أبا المسرح الحديث ، فقد تتلمذ عليـه برنارد شو كما تأثر به أوجين أونيل ، وعلى الجملة ما من كاتب للمسرح فى أواخر القرن التاسـع عشر وفى القرن العشرين الا وكانت لابسن أفضال على فنه ، ولو كان من غير أتباعه فى فن الانشاء المسرحى .

ذلك لأن ابسن يعد فاصلا فى تاريخ المسرح بين عهـد وعهد ، ونقطة تحول فى قواعد الانشاء المسرحى وتقاليده . فقد ولد ابسن فى قرية من قرى النرويج عام ١٨٢٠ وتوفى عام ١٩٠٦ فاهتزت مسـارح أوربا بأكملهـا لكل ما كتب وانقسم الرأى العام على فنه نحو نصف قرن لأنه ثار عـلى فنية الانشاء المسرحى التى كانت شائعة يومئذ كما ثار على الموضوعات المسرحية التى رسخت رسوخ التقاليد فى عصره، فمجده أناس ولعنه آخرون وكثرت فى وصفه النعوت فمن قائل انه نبى ومن قائل انه أفاق ومن قائل انه كاتب اباحى ومن قائل انه مهيج للجماهير ومن قائل انه رمزى ومن قائل

انه واقعي . وحقيقة الحال آن ابسن كان مجرد فنان عملاق يعرف أصول فنه ويضع اعتبارات الفن فوق أى اعتبار آخر .

أما مثار كل هذا الجدل حول فن ابسن فقد نشأ من جرأة موضوعاته التى استمدها من حياة المجتمع المحيط به ، مجتمع الطبقة المتوسطة ، فتناول أفكارها الأساسية عن الزواج أو النجاح أو الفضيلة أو الديمقراطية وعالجها فى صراحة تامة وفى بساطة تامة جعلت دعاة الفضائل البورجوازية المزيفين يرتعدون فرقا ويرغون ويزبدون .

وقد أثبت ابسن للعالم أن فى أبناء الطبقة المتوسطة وفى حياة الطبقة المتوسطة كل ما يطلبه المسرح من مادة خام لحياة الأبطال والأنذال ، وأن الكاتب المسرحى ليس بحاجة الى سير الملوك وتراجم الأشراف وحكايات الفرسان والنبلاء ليجد معانى البطولة والنذالة . وبهذا يكون ابسن قد هبط بالمسرح من تقاليده الرومانسية التى توارثها الكاتب منذ عهد شكسبير وأرسى تقاليده الواقعية التى تجعل من الفن تعبيرا عن حياة الرجل العادى وعن المشاكل الاجتماعية . وفى عصر ابسن لم تكن يقظة البروليتاريا قد اكتملت بعد ، ولذا فقد كان طبيعيا أن يلتمس ابسن رجاله العاديين بين أبناء الطبقة السائدة فى أيامه ، وهى الطبقة المتوسطة .

ولكننا نتساءل أحيانا بعد أن نقرأ بعض مسرحياته مثل « بيت الدمية » (١٨٧٩) و « الأشباح » (١٨٨١) و « هيدا جابلر » (١٨٩٠) و « عدو الشعب » (١٨٨٢) : الى أى حد يمكن أن نصف البطل مهما تواضع منبته رجلا من الرجال العاديين ؟ ولكن فلنترك الدكتور ستوكمان ، بطل « عدو الشعب » يجيبنا بنفسه على هذا السؤال العسير !

●

ففى دار الدكتور توماس ستوكمان نلتقى بجميع شخصيات هذه الدراما . الواحد بعد الآخر . نلتقى بمسز ستوكمان وهى زوجة الدكتور ستوكمان وربة البيت الطيبة البسيطة الكريمة التى تعنى ببيتها أكثر مما تعنى بالعالم

الخـارجى • ونلتقى بأولادها الثـلاثة : الفتاة بترا وهى مدرسة فىمدرسةالقرية تشارك أباها الكثير منخلقه ومناليته والغلامين ايليف ومورتون وهما تلميذان يختلفانالى المدرسة أحدهما متفتح العقل والآخر متفتح الجسم • ونلتقى ببيتر ستوكمان عمدة البلدة ورئيس البوليس فيها وأهم من هذا وذاك فهو رئيس « لجنة الحمامات » بها • وما بيتر ستوكمان هذا الا أخو الدكتور توماس ستوكمان بطل هـذه الدراما وهما فى الخلق وفى التفكير وفى كل شىء طـرفا نقيض • كذلك نلتقى فى دار الدكتـور سـتوكمان برجـل يدعى هوفستاد وهو رئيس تحرير جريدة « رسول الشعب » التى تصدر فى البلدة وصاحبه بيلنج وهو نائب رئيس التحرير وبثالث من أسرة هذه الجريدة هو الطابع أسلاكسن ، وهو ليس مجرد طابع للجريدة بل الممول لها كذلك ، فهو رجـل ملىء محترم صاحب نفوذ فى البلدة فهـو رئيس « اتحـاد أصحاب المساكن» ورئيس «جمعية منعالمسكرات»• وغير هؤلاء نلتقى بعجوز يدعى كيل صاحب المدابغ الثرى الذى يخفى ماله ويدعى الفقر دائما أبدا ، وهـو أبو مسز سـتوكمان بالتبنى ، ثم نلتقى بقبطان من أهل البلدة يدعى هورستر ، وهو رجل قليل الكلام ولعله خشن المظهر ولكنه طيب القلب جبل على الشهامة الصامتة والتضحية فى غير ضجيج •

ورب البيت ؟ ان الدكتور ستوكمان رب البيت يشـغل وظيفة الطبيب أو مفتش الصحة فى حمامات البلدية ولكن مواهبه فى الواقع أكبر من وظيفته ، فهو رجل مثالى صلب يؤمن بأن خير المجموع مقدم على خير الأفراد ، وهـو يكافح بصلابة فى سبيل خير المجموع فيهدم بيته وأسرته فى هـذا الجهاد • وقد عينه أخوه العمدة طبيبا لحمامات البلدة فأنقذه من شظف العيش الذى كان يعيش فيه زمنا أيام اقامته فى الشمال بعد أن نزح من بلدته ، وهو سعيد حقا بعودته الى مسقط رأسه ، هذه البلدة الساحلية فى جنـوب النرويج ، وهو شاكر لأخيه عمدة البلدة صنيعه ولكنه رغم ذلك يحس فى قرارة نفسه أنه مستحق لهذه المكافأة ، فهو الذى كشـف

بأبحاثه لأهل البلدة أن بلدتهم مركز للمياه المعدنية ، وأنها تصلح لذلك أن تكون مركزا للاستشفاء وللاصطياف • وحين كشف لهم الدكتور ستوكمان عن هذا الكنز الخبيء في بلدتهم بادر أهل البلدة وعلى رأسهم العمدة بيتر ستوكمان الى بناء الحمامات فانتعشت البلدة بعد فقر لكثرة من أمها من المستشفين والمصطافين وأصابها الرخاء وازدهرت حال أصحاب المساكن فيها ولا سيما في موسم السياحة • وقد عرف أهل البلدة للدكتور ستوكمان هذا الفضل فأكبروه وأجلوه وأحبوه وكانت له بينهم سيرة عاطرة ، فما كان يمشي في شارع أو يمر على دكان الا وكان الناس يبشون له ويرفعون قبعاتهم تحية له •

وقد أوصى الدكتور ستوكمان أبناء بلدته أن يمدوا المجارى بطريقة خاصة وعمق معين ، ولكنهم لم يستمعوا لكلامه ولم يأخذوا بمشروعه ، وقد ترك ذلك في نفسه بعض المرارة ، ولكن ما جدوى المرارة ؟ ان كل شيء يسير الآن في البلدة على أحسن حال ، النفوس راضية والكل سعيد والأرباح تترى وأول السعداء بهذا البلد السعيد هم المستشفون •

الى أن يأتي يوم يتبدل فيه كل شيء من حال الى حال •

ففى ذلك اليوم يزور العمدة بيتر ستوكمان أخاه الطبيب فلا يجده في داره ، ولكن يجد زوجته مسز ستوكمان تقوم بواجب الضيافة نحو الصحفى هوفستاد وزميله بيلنج ، وتطعمهما من خير البيت ، فهما فى انتظار الدكتور ستوكمان الذى غدا كاتبا من كتاب « رسول الشعب » ينشر فيها المقالات الطبية كلما عن له أن يوجه أنظار الناس أو يلفت نظر السلطات الى شيء يمس الصحة العامة ، وقد وعدهما بمقال لعدد الغد ، وهما يستمرئان هذه الضيافة حتى لقد أصبحا بمثابة ضيفين دائمين على مائدة الدكتور ستوكمان ، وهذا ما يثير الامتعاض فى نفس بيتر ستوكمان ، فهو رجل متقشف يلوم زوجة أخيه على اسرافها واسراف زوجها فى

الضيافة ، ثم ان بيتر ستوكمان لا يحمل من الود شيئا كثيرا لجريدة « رسول الشعب » أو لأصحابها ، فهي جريدة حرة تكثر من نقد السلطات وتثير المشاكل في المدينة بما تفعله من اثارة للجماهير وتشدق بقوة الشعب وحقوقه وحرياته ٠

ويعلم بيتر ستوكمان من الصحفي هوفستاد أن لديه مقالا بقلم الدكتور ستوكمان عن الحمامات يمتدح فيه حمامات المدينة ويوصي فيه المرضى بالاستشفاء بالحمامات ، كما يعلم منه أنه قد احتجز هذا المقال طوال شهور الشتاء ، حتى تأتي مناسبته في فصل الربيع حين يبدأ كل مصطاف التفكير في اختيار مضيفه ٠ وها قد جاء الأوان لنشر هذا المقال ٠ ويسر بيتر ستوكمان لهذا النبأ فهو يسر لكل ما فيه تنشيط لحركة الاصطياف ، ولكنه لا يخفى استياءه من أن بعض الناس يتوهمون أن أخاه الدكتور ستوكمان هو العبقري الفذ الذي أنعم على البلدة بحماماتها وبما ترفل فيه من رخاء ، وكيف لا يستاء بيتر ستوكمان وهو يرى أن أخاه رجل نظري حالم لا يفقه في الحياة العملية شيئا ، واذا كان أخوه أول من فكر في انشاء الحمامات ، فانه هو الذي الذي عمل على تنفيذ الفكرة ٠ فالبلدة اذن مدينة لرجل العمل أكثر مما هي مدينة لرجل الفكر ٠

وبعد حين يقبل الدكتور ستوكمان فيفاتحه أخوه في نشر مقاله الذي يمتدح فيه حمامات البلدة ، ولكنه يرى منه ترددا شديدا ٠ فالدكتور ستوكمان وهو صاحب المقال يرى ارجاء النشر ، فقد جاءت لديه أشياء لا يحب أن يخوض في ذكرها حتى يتحقق منها ٠ نعم انه مشتبه في شيء خطير ، وليس بد من ارجاء نشر المقال ٠

ويغضب العمدة لأنه يستشعر أن في الجو عاصفة وأن أخاه يخفي عنه شيئا ٠ انه ممثل السلطة في المدينة وهو لا يحب في أحد أن يعمل من وراء ظهره ، بل ينتظر في كل شيء أن يأخذ مجراه الرسمي ، فمن كان له رأي أو اقتراح فليتقدم به الى الجهات المسئولة ولا يفاجيء به السلطات

بنشره فى الصحف ، ولا سيما اذا كان صاحب الرأى موظفا فى البلدية كالدكتور ستوكمان ، وهـو يوجز رايه لأخيـه قائلا :

بيتر ستوكمان : ان فيك ميلا فطريا لركوب رأسـك على كل حال ، وهذا مالا يجوز السماح به فى مجتمع يسوده النظام • فالفرد ينبغي عليه أن يقبل الخضوع للجماعة ، أو بتعبير أدق الخضوع للسلطات التى تتكفل بخير الجماعة •

وينصرف بيتر ستوكمان بعد أن يحذر أخاه من التورط فى أى عمل أو تصريح يغضب السلطات • وتقبل الآنسة بترا بنت الدكتور ستوكمان وتسلم أباها خطابا فيأخذه منها فى لهفة ، فلقد كان عـلى أحر من الجمر فى انتظار هـذا الخطاب • وما أن يفضه ويقرأه حتى يعرف أن جميع مخاوفه قد تحققت • فمنذ أن ظهرت بعض حالات التيفود فى الموسم السابق والدكتور ستوكمان يجرى أبحاثه وتحاليله لعله يصل الى مصدر هذه العدوى الغريبة عـلى هـذا البلد • وجـرته أبحاثه آلى فحص مياه الحمامات فاشتبه فى ان ماءها موبوء بمكروب هذا المرض نظرا للخطأ الذى ارتكبته البلدية فى مد مجارى المدينة بين مدبغـة الجلود بقاذوراتهـا وعفنهـا وحمامات المدينة مخالفة بذلك توصياته •

لهذا يشرق وجه الدكتور ستوكمان لأنه اكتشف اكتشافا خطيرا ووضع يده على مصدر الوباء ، فهو يعلم أن الحالات الفردية التى ظهرت فى الموسم السـالف ليست الا مقـدمة لانتشار هذا المرض فى صـورة وبائيـة حين يأتى الصيف ويكثر العفن والتحلل • ولسوف ينقذ الدكتـور ستوكمان نزلاء المدينة المستشفين والمصطافين بهذا الاكتشاف وينقذ سمعة بلدته ومستقبلها • لسـوف يطلب الى أخيـه العمدة ورئيس لجنة الحمـامات تغيير نظام المجـارى وبهذا ينتهى الاشكال •

ان الدكتور ستوكمان عالم يدقق فى كل أمر وهو لهذا لم يبح بكلمة واحدة لأحد عن اشتباهه قبل ان يتثبت منه -

وقد كانت أجهزة معمله قاصرة فاضطر الى ارسال النماذج والعينات الى معمل جامعة من الجامعات لفحصها ، والآن وقد جاء الرد بالايجاب فهو يستطيع أن ينبه السلطات حتى تتدارك الموقف • وانه لواثق أن أخاه العمدة بيتر ستوكمان سيأمر على الفور باصلاح المجارى •

وحين يعرف الصحفيان بهذا النبأ يهتزان له ويقنعان الدكتور ستوكمان بأن هذا الأمر يخص الأهالى بقدر مايخص السلطات • نعم لابد من اذاعة الخبر على صفحات « رسول الشعب » حتى يتنبه الرأى العام ويحتاط كل لنفسه الى أن يتم اجراء الاصلاحات اللازمة • فان أبى الدكتور ستوكمان اذاعة الخبر فهو مقصر فى واجبه نحو أبناء بلدته معرض اياهم للمكاره • ثم ان بيتر لابد أن تنطلق الى جدها لأمها ، وهو العجوز كيل صاحب المدابغ ، لتعرفه حقيقة ما تُفعله مدابغه بماء المدينة • ويحمد الجميع الله على أن الدكتور ستوكمان قد توصل الى هذا الكشف قبل فوات الأوان وانتشار الوباء • أما القبطان هورستر فهو يشاركهم هذا الفرح ويشرب معهم نخب ستوكمان متمنيا له ألا يعود عليه هذا الكشف بغير الخير والحظ الحسن ، ثم تنصرف الجماعة كل لشأنه •

ويرسل الدكتور ستوكمان تقريره فى الموضوع الى أخيه العمدة • وما أن يقرأه بيتر ستوكمان حتى يمتعض أشد الامتعاض ويرد اليه التقرير ، ثم يزوره ليجادله فى أمره • انه يعلم من الخبراء أن اصلاح المجارى يتطلب انفاق عشرين ألف جنيه ، وهذا مبلغ طائل • وأهم من هذا أن اصلاح المجارى سوف يستغرق سنتين • وهو يطلب الى أخيه ألايكتب هذا الخبر حتى تنظر لجنة المجارى فى الأمر ، ولعلها تستطيع تدبير المال اللازم أو بعضه ، فان وجدت الى ذلك سبيلا فهى فاعلة ما فى وسعها • هذا كل ما يعد به بيتر ستوكمان • أما حكاية الصحة العامة فوقايتها من شأن سلطات المدينة لا من شأن الدكتور ستوكمان • ولذا فهو يأمره بوصفه موظفا فى البلدية أن يتكتم الخبر وينذره بالفصل

ان هو أذاع عنه شيئا ، فلو قد ذاع الخبر وعرف به المستشفون والمصطافون لانصرفوا عن المدينة الى غيرها من المدن ، وبهذا يكون الدكتور ستوكمان قد أضر ببلدته وجر عليها الخراب، فهو اذن عدو الشعب ·

ان بيتر ستوكمان لا يعد بشيء وهذا رأيه الرسمي :

بيتر ستوكمان : ان امداد الحمامات بالماء على صورته الحالية حقيقة مقررة ، وبالتالى فلابد من قبوله · ولكن يحتمل ألا تكون لجنة الحمامات على غير استعداد اذا صادف ذلك قبولا لديها ، لأن تبحث الى أى حد يمكن ادخال بعض الاصلاحات في حدود المصروفات المعقولة ·

وهكذا تبدأ معركة بين البيروقراطية الحكومية وبين الايمان بالصالح العام وتتحدد هذه المعركة فى الصراع بين الأخوين ، العمدة ممثل السلطة القوامة على مصالح الناس والطبيب الانسانى الذى يضع قسم أبقراط فوق كل اعتبار آخر ويؤمن بأن وقاية الصحة العامة هى رسالة الطبيب ·

ويحرض هوفستاد وبيلنج الدكتور ستوكمان على نشر التقرير المرفوض ويحملان حملة شديدة على غطرسة السلطات وبطء الروتين الحكومى · فهما يعتقدان أن للصحافة الحرة رسالة هى تنوير الرأى العام وأن على الصحافة الحرة أمانة مقدسة هى الدفاع عن الشعب · وهما يعدان الدكتور ستوكمان بالوقوف الى جانبه الى آخر الطريق · بل ان الطابع أسلاكسن وهو رئيس اتحاد أصحاب المساكن يذهب فى تأييده الى أبعد من هذا فهو يضمن للدكتور ستوكمان أن أصحاب المساكن سوف يظاهرونه على طول الخط وهم « الأغلبية الساحقة » ، من سكان المدينة · ان الدكتور ستوكمان صديق الشعب الذى سينقذه من الوباء وسوف يجمع أهل المدينة على الاشادة بفضله ، بل لسوف يحتشدون فى اجتماع عام ويخلعون عليه لقب « صديق الشعب » ·

وتقف بترا الى جانب أبيها لأنه يؤدى واجبه ، ولا نسمع صوتا يرتفع محذرا هو صوت الزوجة الطيبة مسز ستوكمان:

مسز ستوكمان : ولكن القوة فى جانب أخيك يا حبيبى توماس ..

الدكتور ستوكمان : وأنا فى جانبى الحق .

مسز ستوكمان : وما جدوى أن يكون الحق فى جانبك اذا لم تؤيده القوة ؟

بترا : ما هذا الكلام يا أماه !

الدكتور ستوكمان : أتظنين أن الحق لا يجدى فى بلد حر ؟ هــذه سخافة منك يا كاترين . ثم أليست الصــحافة الحرة المستقلة فى جانبى تشــق الطــريق أمامى والأغلبية الساحقة تظاهرنى ؟ هذه قوة تكفينى على ما أعتقد ..

مسز ستوكمان : نعــم ، اغزهم فى معســكرهم وسترى النتيجة . ستفصل من عملك .

الدكتور ســتوكمان : عــلى كل حال ســأكون قد أديت واجبى نحو الجمهور ونحو المجتمع ، هذا الذى يقول أخى انى عدوه !

مسز ستوكمان : ولكنــك تنسى واجبك نحــو أسرتك يا توماس ! نحو بيتك ! أتسمى هذا أداء لواجبك نحو من تعــول !

ان الدكتور ستوكمان يعرف كل ذلك ويقدره ولكنــه يضع رسالته الانسانية فوق كل اعتبار .

وفى دار جريدة « رسول الشــعب » تعــد العدة لطبع التقرير فى عدد اليوم التالى ، ويتــولى اســلاكسن تصحيح التجارب . ولكن العمدة بيتر ستوكمان وقد بلغه أن الأمر قد انتشر وامتد الى الصحافة ، يزور الجريدة بنفسه ليوقف الطبع قبل أن يستفحل أمره .

ويضطرب كل من فى الجريدة لزيارة العمدة ، ويحاول كل أن يتنصل من المسئولية . ان العمدة ليس له من السلطان ما يستطيع به أن يتدخل فى عمل « الصحافة الحرة » .

ولكنه يستخدم سلاحا آخر : ان اصلاح المجارى اذا تم فستقوم به البلدية ، والبلدية اذا قامت بالاصلاح فمعنى هذا جباية ضريبة جديدة من أصحاب الأملاك لأن المساهمين فى شركة الحمامات مثقلون بالضرائب •

بل أبشع من هذا وأنكى : لو أن « رسول الشعب » نشرت أى شىء يشكك فى صحية الحمامات فسوف تقطع سيل المستشفين والمصطافين سنوات عديدة ، ولن تكون شركة الحمامات وحدها هى الخاسرة ، فسوف تنزل الخسارة بالأغلبية الساحقة من أهل المدينة الذين يؤجرون منازلهم فى موسم الاصطياف للمصطافين •

كل هذا من أجل ماذا ؟ ان أخاه الدكتور ستوكمان رجل مخرف يتوهم أشياء لا وجود لها فى مياه المدينة • ان الدكتور ستوكمان رجل متمرد بطبعه يجد لذة فى تحدى السلطات ليكتسب بطولة رخيصة ان بيتر ستوكمان يعرف أخاه توماس ستوكمان أكثر مما يعرفه أى انسان آخر فى المدينة •

●

وهكذا يتراجع هوفستاد وبيلنج وأسلاكسن تراجعا مشينا • ان الحديث عن الضرائب وحده كاف ليجعل رئيس « اتحاد أصحاب المساكن » يتحسس جيبه ويفكر فى سخط « الأغلبية الساحقة » على هذه الجباية الجديدة • والصحافة الحرة ؟ ان الصحافة الحرة تستمد قوتها من الرأى العام فهى مسئولة أمام الرأى العام • فاذا كان فى دعوة الدكتور ستوكمان أو غيره ما يسخط له الرأى العام فهى لا تستطيع أن تواجه الرأى العام بهذه الأفكار الشاذة ، التى يقول العمدة انها ضرب من الأوهام ، ولا شك أنها ضرب من الأوهام ، لأن العمدة يقول ذلك ، ان « رسول الشعب » لن تنشر حرفا واحدا من تقرير الدكتور ستوكمان بل ، على العكس من ذلك ، ستنشر كلمة موجزة بقلم العمدة تفيد أن كل شىء فى الحمامات على خير وجه ممكن • كذلك لن تؤيد

« الأغلبية الساحقة » الدكتور ستوكمان في شيء مما يقول : هكذا يعلن آسلاكسن رئيس اتحاد أصحاب المساكن .

ويأتي الدكتور ستوكمان ومعه زوجه مسز ستوكمان ، أما الدكتور ستوكمان فقد جاءه ليشرف على طبع تقريره ، أما مسز ستوكمان فقد جاءت لتثنيه عن عزمه ولتقرع هوفستاد على استغلاله سذاجة زوجها وتحريضه اياه على ما فيه شره .

ويفاجأ الدكتور ستوكمان ومسز ستوكمان بالموقف الجديد ...

وحين يرى الدكتور ستوكمان هذه النذالة يتعذب عذابا فظيعا . ولكن ايمانه بمبدئه لا يتزعزع .

ان آسلاكسن يرفض آن يطبع التقرير في صورة كراسة على نفقة الدكتور ستوكمان ويقول ان الدكتور ستوكمان لن يجد في البلدة كلها طابعا واحدا يقبل آن يطبع له تقريره . اذن فسيخطب الدكتور ستوكمان في كل قاعة في المدينة محذرا الناس من الوباء القادم مع الموسم القادم ولكن بيتر ستوكمان يعده بأنه لن يجد قاعة واحدة في المدينة تأذن له أن يخاطب فيها الجماهير .

وحين تشهد مسز ستوكمان هذه الخيانة تأخذها الرحمة بزوجها المضطهد هذا الذي انفض الجميع من حوله حتى محرضوه ، وتأخذها النخوة فتصيح قائلة : انها ستثبت الى جوار زوجها ومعها أبناؤها حتى آخر رمق في الحياة .

لسوف يقف الدكتور ستوكمان في مفترق كل طريق وينذر الناس بما يستهدفون له من خطر .

ولكن الدكتور ستوكمان يجد رجلا واحدا في المدينة يقبل أن ينعقد في قاعة بيته الكبير اجتماع يخاطب فيه الدكتور ستوكمان أهل المدينة . وذلك الرجل هو القبطان هورستر .

ويشهد هذا الاجتماع جمع غفير وعلى رأسهم العمدة. وهو مستاء وبيلنج وأسلاكسن وآل ستوكمان . وحين يصعد الدكتور ستوكمان الى المنصة يقترح أحد الحاضرين أن يختار المجتمعون واحدا منهم ليرأس الاجتماع حفظا للنظام. فيختار أسلاكسن بقوة الصياح المرتب . وحين يهم الدكتور ستوكمان بالقاء كلمته ينهض أخوه العمدة ويقول ان لديه اقتراحا نصه : « ان من رأيه أنه ليس من الحاضرين مواطن واحد يرى اذاعة المعلومات غير الموثوق بصحتها والمبالغ فيها عن الحالة الصحية فى الحمامات وفى المدينة أمرا مرغوبا فيه » . فيوافق الحاضرون على هذا الاقتراح الا قلة مبعثرة تقف في صف الدكتور ستوكمان ، ولا سيما بعد أن يشير العمدة الى امكان فرض ضرائب جديدة لاجراء اصلاحات لا ضرورة لها ..

وهكذا يمنع الدكتور ستوكمان من القاء بيانه بقوة الرأى العام الموجه وبقوة « الأغلبية الساحقة » . ولكنه لا يلبث أن يستأذن أسلاكسن رئيس الاجتماع فى القاء كلمة لا تمس موضوع الحمامات ، فيؤذن له .

ويحدث الدكتور ستوكمان الحاضرين فى اكتشاف جديد اكتشفه أعظم وأخطر من اكتشافه الطبى . ويستمع الحاضرون اليه فى اهتمام : ان الدكتور ستوكمان كان يعتقد أن الذين سمموا ينابيع الحياة الخلقية فى المدينة هم ولاة الأمر منها أو ما يسمونه السلطات وقد ظل على اعتقاده هذا حتى استيقظ على الواقع منذ ساعات حين اكتشف أن مصدر الخطر الأكبر على الحرية الحقيقة هى « الأغلبية الساحقة » .

●

وترتفع الجلبة والهياج . وتحدث مجادلة بين هوفستاد الغادر والدكتور ستوكمان فيدافع هوفستاد عن الجماهير . ويشتط الدكتور ستوكمان فى حملته على الجماهير ، ان الجماهير عنده عدوة كل حقيقة جديدة وكل فكر خالق حتى

ولو كان فى هذه الحقيقة أو فى هذا التفكير خير الجماهير ذاتها . وانما يقوم بكل اصلاح العبقرى الفرد أو العبقرى الذى تميز فى صفاته بالفطرة عن المجموع ، وما تاريخ الانسانية عند الدكتور ستوكمان الا كفاح نفر من الأبطال فى كل مجال من مجالات الرقى . أما سواد الناس فهم رعاع كالقطيع يتبعون كل مضلل يتملقهم ويحرق القرابين لما يؤمنون به من خرافات ومعتقدات سفيهة . ويزداد الدكتور ستوكمان شططا فيحدث الحاضرين عن الكلاب والدجاج ومختلف أنواع الحيوان ، وكيف تختلف فصائلها فاذا بعضها مؤصل يتفوق على سواه فى صفاته .

ويشتد استياء الناس ويعلو الاحتجاج من كل جانب ولا يجد أسلاكسن وسيلة لاسكات الحاضرين الا أن يتقدم باقتراح نصه : « يعلن الحاضرون فى هذا الاجتماع أن الدكتور توماس ستوكمان طبيب الحمامات عدو للشعب » .

ويقابل اقتراح أسلاكسن بعاصفة من التصفيق . وتؤخذ الأصوات فاذا الجميع يؤيدون الاقتراح ما خلا رجل مخمور كان يترنح فى القاعة . وبهذا ينفض الاجتماع ، وينصرف الناس ساخطين ، وان كان بينهم من امتلأ أسفا على الدكتور ستوكمان هذا الذى أحبه أهل المدينة وأجلوه الى عهد قريب . أما كثرتهم فتنصرف حانقة ثائرة ومنهم نفر يقصد الى دار الدكتور ستوكمان ليقذف نوافذه بالحجارة .

ولم يكن كل أهل المدينة بالبلهاء الذين لا يدركون حقيقة الموقف ، بل كانت منهم طائفة لا بأس بها تعطف على الدكتور ستوكمان وتقدر حقيقة الخطر المحدق بالمدينة ولكن من ذا الذى يجرؤ على مواجهة الرأى العام المعبأ ؟ ان الدكتور ستوكمان قد تسلم خطابا باعفائه من وظيفته ، وقد أوضح له أخوه أن السلطات لن تأذن له بفتح عيادة فى المدينة . بعد كل ما كان . وهذه بترا تتسلم من ناظرة مدرستها الطيبة المتحررة خطابا بالاستغناء عن خدماتها . بل ان الغلامين مورتن وايليف يعودان من المدرسة ممزقى الثياب

بعد أن تشاجرا مع تلاميذالمدرسة فأمرهما الناظر بالانقطاع عن المدرسة حتى تعود السكينة الى النفوس · ثم هذا الدكتور ستوكمان يتلقى من صاحب البيت الطيب انذارا بالاخلاء بعد أن قررت المدينة أن الدكتور ستوكمان عدو الشعب ، وأخيرا فان العجوز كيل ، وهو صاحب المدابغ التى تلوث مياه الحمامات، يغضبه أن يجعل زوج ابنته الدكتور ستوكمان من مدابغه هدفا لحملته فيعدل وصيته ويحرم آل توماس ستوكمان من الميراث ·

وكيف يعيش آل ستوكمان بعد ذلك فى هذه المدينة ؟ لابد لهم من النزوح عنها الى مكان آخر · ان رحمة الله بآل توماس ستوكمان أن صديقا واحدا من أصدقائهم الكثيرين قد ثبت الى جانبهم في محنتهم ، وهذا هو القبطان هورستر ربان السفينة التى تقلع بانتظام الى الدنيا الجديدة · وهورستر قد وعدهم بنقلهم في رحلته القادمة الى أمريكا حيث يبدأون حياة جديدة · ولكن هورستر لن يستطيع أن أن يفى بوعده لأن صاحب السفينة الذى يستخدمه قبطانا لها قد استغنى عن خدماته جزاء له على وفائه للدكتور ستوكمان·

●

ويأتى العمدة بيتر ستوكمان ليساوم أخاه فى أمر جديد · ان مصلحة الجميع أن ينزح الدكتور ستوكمان عن البلدة فترة من الزمن لأن الرأى العام ثائر عليه وعازم على أن يسد فى وجهه جميع الأبواب ·

ولكن اذا تدبر الدكتور ستوكمان الأمر وجد أن فى امكانه أن يكتب تقريرا آخر يعدل فيه عن آرائه السابقة ويعلن أن أبحاثه الجديدة دلته على نقاوة مياه الحمامات ، فان فى استطاعة العمدة عندئذ أن يتوسط لدى لجنة الحمامات لترده الى وظيفته · أما الرأى العام فهو شيء سريع التحول ، وبيتر ستوكمان يضمن لأخيه أن كل شيء سيعود الى مجراه ·

نعم ، ان السلطات رغم كل هذا الاضطهاد الذى أنزلته بعدو الشعب تعلم علم اليقين أن « الحقيقة » كالشرارة اذا

انطلقت فليس هناك ما يخمدها ، وأن الخواطر المبلبلة لن يعود اليها السكون الا بكلمة طيبة يلقيها الدكتور ستوكمان المفترى عليه ٠

وها هى أسهم شركة الحمامات تتدهور فى السوق تدهورا شديدا رغم التأكيدات الرسمية بأن كل شيء على ما يرام ، وها هو ذا العجوز النحيل الماكر كيل يغتنم هذه الفرصة فيشترى أكثرها بثمن بخس ٠

ويأبى الدكتور ستوكمان أن يستجيب لطلب أخيه العمدة ، فيشهر العمدة فى وجهه سلاحا قذرا : انه سيذيع فى الناس أن الدكتور ستوكمان انما اختلق كل هذه الأكاذيب حول مياه الحمامات بالتواطؤ مع أبى زوجته العجوز الماكر كيل لتتدهور أسهم الشركة وبهذا يستولى عليها كيل بأبخس ثمن ٠ بل ان هوفستاد يخف الى الدكتور ستوكمان حين يأتيه هذا النبأ يعرض عليه باسم الصحافة الحرة أن يروج نظريته فى فساد الحمامات مقابل نصيب فى الأرباح ٠٠

وهنا يتيقن الدكتور ستوكمان أن العفن الذى يسمم مياه الحمامات لا يقاس بالعفن الذى يسمم قلوب أهل المدينة ٠ ٠٠ نعم لا أمل الا فى الجيل الجديد ٠

وتبرق فى خاطره فكرة هائلة ٠ ان رسالته لم تعد تنقية المياه بل تنقية النفوس من كل هذا العفن الأخلاقى ، مصدر كل عفن فى المدينة ٠

لن يرحل الدكتور ستوكمان عن المدينة لأن المدينة هى ميدان المعركة ، وهو لا يفر من المعركة ٠

لسوف ينشىء مدرسة فى البيت الكبير الذى يملكه القبطان هورستر ، مدرسة من نوع جديد يغرس منها تعاليمه وايمانه بالمثل العليا فى نفوس النشء ، تعاونه فى ذلك ابنته بترا ٠ ان الجيل الحالى موبوء ولا أمل فى اصلاحه ٠٠ نعم لا أمل الا فى الجيل الجديد ٠

ومن أين للدكتـور ستوكمان بالتلاميـذ ؟ ان المدينـة ليست فيها أسرة واحدة تقبل آن تسلمه ولدها ٠

ولكن الدكتـور سـتوكمان يعلم أن لكل شيء بداية ، ولسوف يبدأ بولديه ، مورتن وايليف فهما أول تلميذين فى هذه المدرسة الجـديدة ٠ كلا ٠ انه بحـاجة الى اثنى عشر تلميذا يقف بينهم كذلك « المعلم » القديم ويلتفون حـوله التفاف الحواريين بالمعلم ٠

وهكذا يرسل الدكتور ستوكمان ولديه ليطوفا بأحياء الفقراء ويجمعا له من أزقة المدينـة طائفـة من الأطفـال الحفاة الجياع ٠٠ ليبدآ بهم المدرسة الجديدة ٠

سيرانو دى برجراك

للكاتب الفرنسى أدمون روستان

نحن الآن في عام ١٦٤٠ وقد اجتمعنا فى فندق بباريس يدعى هوتيل بورجونيا حيث خصص ملعب التنس لعرض الروايات التمثيلية كما جرت العادة فى ذلك العصر • وقد زينت قاعة الملعب ووضعت فيها المقاعد للنظارة وعلى خشبة المسرح نفسها صفت بعض المقاعد على الجانبين لكبار القوم، وظهرت بعض الاعلانات هنا وهناك تقول ان فرقة التمثيل ستعرض مسرحية اسمها « كلوديس » •

ويتوافد النظارة زرافات ووحدانا ، فمنهم الفرسان ومنهم جنود الحرس الملكى ومنهم المواطنون العاديون تصحبهم زوجاتهم أو بناتهم ومنهم الأشراف من أدواق ودوقات وبارونات ومركيزات وتدور البنت الجميلة بائعة المرطبات بين الحضور منادية عما معها من عصير ونبيذ وبرتقال وسط هذا الجمع اللاغط ، ولا يخلو الجمع من سكران ومن نشال ومن حارس يطارد بائعة المرطبات طالبا منها قبلة • ويأتى من يضىء المصابيح والشموع فى القاعة لأن الظلام قد بدأ ينتشر فيها فيشجع النشال وغلمانه على العمل •

ونرى فى احدى المقاصير رجال الأكاديمية الفرنسية وهنا وهناك جماعة من النقاد والمثقفين والشعراء المجددين

الذين كانوا يلتفون حول داع من دعاة الشعر فى ذلك الزمان يدعى راجنو ، وهو صاحب مخبز لصنع الفطائر والحلوى يجتمع شعراء المدرسة الجديدة فى مخبزه فيطعمهم من جوع ·

ويبحث راجنو عن صديقه الشاعر رب السيف والقلم سيرانو دى برجراك فلا يجده بين الحضـــور ، فيعجب لذلك أشد العجب لأنه يعلم أن سيرانو يبغض الممثل الأول البدين مونفلبرى وأنه عازم على منعه من الظهور على خشبة المسرح بأى ثمن حماية منه لفن التمثيل ·

وبين النظارة فتى وســيم جميــل المحيــا هو البارون كريستيان دى نوفيليت ، وهو فى صحبة شاعر يدعى لنيير ، وقد جاء هذا البارون الوسيم الى فندق بورجونيــا ليشـــهد المسرحيـــة فاذا به يمتع البصر فى مـــرأى الفتـــاة الجميلة روكسانا بنت عم ســيرانودى برجراك التى جلست ومعهــا وصيفتها فى مقصورة بين طائفة من النبلاء يحيط بها كهل من أصحاب المقام الرفيع فى الدولة هـــو الكونت دى جيش زير النساء المعروف الذى يســتمد سـلطانه من الكاردينال ريشيليو عم زوجته · ولقد فتن الكونت دى جيش بجمـــال روكسانا الجميلة فذهب يتودد اليها راجيا أن يتخذ منهـــا عشيقة له بعد أن يزوجها الى فيكونت شاب من اتباعه هـــو الفيكونت دى فالفير · ولم تكن روكسانا الجميلة تبادل دى جيش شيئا من شعوره ، ولكنها كانت تقبل دعواته الكثيرة خوفا من بطشه · وهى الآن تظهر فى المقصورة بين الكونت دى جيش والشاب فالفير وتبدى لهما من الأدب ما تقضى به اللياقة أما قلبها وبصرها فقد اتجها صوب القاعة حيث جلس الفتى الوسيم البارون كرستــيان دى نوفيليت ، فما أحب قلبها الا هذا الفتى الوسيم وما خطف بصرها الا هذا الفتى الوسيم وهى الآن تراقبه من مقصورتها وهو الآن يرقبها من مكانه فى القاعة شاخص البصر كالمسحور أو كالسابح فى بحران · انه الحب من أول نظرة فما رأى أحدهما الآخـــر قبل الليلة ·

ويعلم الفتى كريستيان بأمر فالفير وما يرتبه له الكونت العجوز المتصابى فتأكل الغيرة قلبه ويوشك آن يتحدى فالفير للمبارزة ولكن شيئا ما يصرفه عن عزمه هذا • فهو يهم باستخراج قفازه من جيبه ليقذف به فى وجه فالفير ، كما كانت تقضى بذلك أصول الدعوة الى المبارزة ، فما أن يدس يده فى جيبه حتى يجد يد النشال تعبث فيه ، فيقبض عليه بقبضة من فولاذ ولا يخلى سبيله حتى يقف منه على سر خطير وهو أن حياة صاحبه لنيير قد غدت فى خطر ، فهناك مكيدة لقتله عقابا له على ما نظمه من أشعار يهجو فيها نبيلا من النبلاء ، وهناك مائة رجل قد نصبوا له كمينا عند باب نيل بباريس وسيقضون عليه الليلة عند عودته الى داره •

وفيما هو حائر بين حماية صديقه ومبارزة غريمه يرتفع الستار ويبدأ التمثيل • وما أن يظهر الممثل مونفلرى على خشبة المسرح حتى يدوى فى القاعة صوت راعد هو صوت سيرانو دى برجراك وهو يسب ويصخب ويأمر مونفلري بالكف عن التمثيل وبالانصراف متوعدا اياه بعقاب أليم ان هو لم يصدع بالأمر •

ويسود القاعة صمت عميق ثم اضطراب شديد • وهنا يقف سيرانو دى برجراك على مقعد وقد عقد ذراعيه على صدره ويزمجر مرة أخرى فى الممثل مونفلرى أن يترك توا خشبة المسرح والا ••

هذا هو سيرانو دى برجراك فتى جسكونيا المشهور أشجع الشجعان الذى ذاع صيته بما اجتمع له من سحر البيان ومن بأس الحسام • كان يقرض الشعر وكأنه غلالة من نور البدر فى الليلة القمراء ، وكان يشهر السيف على أعدائه فيثخنهم بالجراح ولا يتركهم الا أشلاء ممزقة • وقد اشتهر فتيان جسكونيا بين جميع فتيان فرنسا فى ذلك العصر الغابر بأنهم ضخام الأجسام لهم قلوب كالليوث يمزجون اللهو بالخمر والخمر بالشعر والشعر بالضرب والطعان لا تفوتهم فرصة لاظهار فتوتهم وصبابتهم وكلفهم بالنزال• وقد التف

فتيان جسكونيا الشجعان حول فخر جسكونيا وفتى الفتيان ، الجندى الشاعر سيرانو دى برجراك واجتمعوا جميعا فى خدمة النبيل الكريم البآرون دى كاستيل جالو فهم سواعده فى الحرب وهم سواعده فى السلام ٠

ولكن سيرانو دى برجراك لم يكن رغم آمجاده الكثيرة بغير نقائص ٠ فقد كانت هيئته تدعو الى السخرية ،منحته الحياة من دمامة الوجه بقدر ما منحته من سخاء القلب : كان أنفه كبيرا مفرطا فى الكبر يبرز فوق شاربه الغضنفرى ولحيته الكثة كأنه البرج النائى فوق الأشجار وعلى رأسه استقرت قبعته وعليها ثلاث رياش كأنها عرف الديك المتباهى ، وقد تدلى سيفه الطويل تحت معطفه الفضفاض فبدا بكل هذا مزيجا من المهرج ومن البطل المهيب ٠ وكانت أنف سيران مصدر ازعاج دائم له ولغيره ٠ فما أن ينظر اليه ناظر حتى يحسبه يحدق فى أنفه فان انصرف عنه ببصره حسبه يتجنب النظر الى أنفه ٠ فان عرض أحد بأنفه جرد سيفه ودعاه للمبارزة ٠

ولا غرابة اذن أن يتحرج فتيان جسكونيا من الاشارة الى أنف فتاهم ٠ ولا غرابة أن تكون آنف سيرانو سببا فى مواقف دامية ٠

فحين يقف سيرانو على مقعده وسط القاعة ويأمر الممثل مونفلیری بمغادرة المسرح يأخذ العجب النظارة فى أول الأمر ثم يفيقون من دهشتهم ، ويتعالى صياحهم بين معجب بسيرانو ومستنكر لتدخله ٠ ويطلب النظارة الى مونفليرى أن يمضى فى تمثيل دوره ٠

فيطلب مونفليرى الى الجمهور أن يحميه من سيرانو ٠ ولكن سيرانو يصيح فى النظارة صيحة راعدة تسكتهم جميعا قائلا بأنه يتحداهم فرادى أو مجتمعين الى القتال ، وما أن تستقر يده على مقبض سيفه حتى يلوذ مونفليرى بالفرار تشيعه صيحات الجمهور الضاحك الهازىء : « أيها الجبان

عد ، أيها الجبان ! » ، وينقلب سخط النظارة الى اعجاب بسيرانو هذا الذى عوضهم عن مسرحية « كلوديس » بمسرحية أخرى أكثر حيوية وأدعى الى السرور · ويتم سرور النظارة حين يعطى سيرانو مدير المسرح كيسا مليئا بالمال ليرد للنظارة ما دفعوا لمشاهدة مسرحية «كلوديس» ·

كل هذا والنبلاء بين جالس على المسرح وجالس فى مقصورته مغتاظون من هذا الرجل السليط الذى أفسد عليهم سهرة المساء · وأخيرا يقول الكونت دى جيش فى تأفف : « أليس بينكم من يتدخل ؟ » وهنا ينهض فالفير مجيبا أنه سيضعه عند حده ·

ويتقدم فالفير نحو سيرانو ويتفحصه بنظرة فيها استعلاء ويقول :

فالفير : أرى أن لك أنفا أكبر من المألوف !

سيرانو (فى جد) : نعم ، أكبر من المألوف ·

فالفير : أنت توافقنى ·

سيرانو (فى برود) أهذا كل ما لديك ؟

فالفير (يشيح عنه هازا كتفيه) طبعا ··

سيرانو : كلا يا سيدى الشاب ! انك غر ساذج ، كان فى امكانك أن تقول أشياء لا حصر لها ، فبالله لماذا تضيع فرصتك ؟ مثلا : قل فى تحد : يا سيدى ! لو أن أنفك هذا كان فى وجهى لجدعته فورا · أو قل فى رفق الصديق ! كيف تشرب من تحت هذا الأنف المهول ؟ يجمل بك أن تصنع لك كأسا على قياسك · أو قل قول الواصف : أنفك هذه صخرة ، أو جلمود أو رأس ناتىء فى البحر · لا ، لا ، بل هو شبه جزيرة ، أو قل متسائلا ؟ ماهذا الجراب فى وجهك، أهو جراب الموسى أم هو حافظة نقود ؟ أو قل فى حنان أيلغ من حبك للطير انك بنيت له هذا العش ليحط عليه كلما جاء ليزقزق لك ويعود ؟ أو قل فى وقاحة : يا سيدى ، كلما

دخنت حسب الجيران أن فى مدخنتك حريقـا • أو قل محذرا : انك توشك أن تتهافت تحت هذا العبء الرازح ••

وهكذا يمضى سيرانو فى استفزازه لفالفير ، وما أن يفرغ من تهكمه به وتهكمه بنفسه حتى يتحداه للمبارزة ، ويشهد الحاضرين على أنه سيرتجل قصيدة عصماء ويردف كل قافية بطعنة ولا يجهز على غريمه الا فى آخر بيت من قصيدته • فيجرد كل منهما سيفه وتكون أعجب مبارزة فى التاريخ كل حركة فيها موقعة على أنغام القريض• ولا يفرغ سيرانو من شعره حتى يسدد الطعنة النجلاء الى صدر فالفير فيخر فالفير متخبطا فى دمائه تحمله سواعد أصدقائه ، بين تهليل المعجبين بسيرانو دى برجراك •

ولكن بين الحضور امرأة كانت تتبع هذه المبارزة باهتمام يتجاوز كل اهتمام • وهذه هى روكسانا الجميلة بنت عم سيرانو التى نجت بموت فالفير من زواج لا تريده • وترسل روكسانا وصيفتها الى سيرانو قائلة انها تود لقاءه فى صبيحة الغد لأمر مهم فيتواعدا على اللقاء فى دكان راجنو صانع الحلوى فى شارع سانت أونوريه •

لم تبق أمام سيرانو الا مهمة بسيطة وخطيرة معا • انه يعلم بالكمين الذى نصب عند باب نيل لاغتيال الشاعر السكير لنيير ، وهو عازم على انقاذه من الموت • ان هناك مائة رجل يختبئون فى الظلام للفتك بلنيير المسكين ، ولكن سيرانو يباهى أمام الجميع أنه سيقابلهم وحده دون حاجة الى معونة ، وأنه سيصرعهم ويشتتهم بمفرده • وهكذا ينطلق سيرانو من فندق بورجونيا يتبعه فتيان جسكونيا ونفر من الممثلين والنظارة ليشهدوا هذه المعركة العجيبة بين رجل واحد ومائة رجل : تلك المعركة التى ستتحدث بها باريس كلها لسنوات وسنوات •

وفى صبيحة اليوم التالى ينتظر سيرانو ابنة عمه الجميلة روكسانا فى دكان راجنو •

ان قلبــه يخفق فى اضطراب عظيم وأن عقله فى حيرة عظيمة ، فهو لا يعلم لهذا اللقاء سببا ، وهو لا يدرى أيطرب لهذا اللقاء أم يرتجف له ، شأن كل عاشق وجل • نعــم • ان سيرانو يحب ابنة عمه روكسانا حبــا امتلك روحه وقلبــه وحشاشته ، ولكم نظم فى هواها عذب القريض ، ولكنه يكتم عنها هواه ، فهى لا تعلم شيئا عما يفترس فؤاده من عذاب الغرام • ان سـيرانو قد يكـون رقيق النفس ولكنــه دميم الخلقة ، فكيف يتقدم الى أجمل من فى الوجود طارحا عنــد قدميها قلبه معربا عن هواه • انه لا يجرؤ •• انه لا يجرؤ •

ولكن ترى ماذا تبغى روكسانا من هذا اللقاء ؟ ها هى ذى تقبل عليه وتحييه وتنزع عنها قناعها وتتبسط معه فى الحديث فقد جاءت تشكره على انقاذه اياها من براثن فالفير وترجو أن تنقذها المقادير من براثن الكونت العجوز دى جيش الذى يتقرب اليها وهى لا تملك معه الا الرد الحسن والرفض اللين خشية أن يبطش بها وبذويها فهو واسع السلطان •

ولكن روكسانا لم تسع الى هذا اللقاء لتشـكر سيرانو فحسب ولكن لتفضى له بسر خطير •

انها متيمة بحب الفتى النبيل الوسـيم كريستيان دى نوفيليت ، وهى قد جاءت الى ابن عمهــا المغوار ترجوه أن يرعاه وأن يحميه من أعدائه • ان كريستيان نورماندى من الشـمال وليس جسـكونيا ، ولكنهــا قد سعت الى نقله الى الحرس الجسكونى القائم عـلى خدمة البارون دى كاسـتيل جالو ، ليكون فى رعاية سيرانو فينهاه عن المبارزات ويرد عنه الأخطار •

ويستمع سيرانو الى كل هذا الحديث وقلبه يتمزق ألما• ولا يزال يجالد نفســه حتى ينتصر عليهــا ويعد روكسانا خيرا : انه يحبها من أعمق أعماقه ، يحبها حب شاعر تتمثل له روكسانا فى كل ما حوله من آلاء الوجود • وهــل يقاس الحب الا بالتضحية ؟ انها لا تعلم شيئا عما يكنه لها من غرام ،

ولسوف يكتم عنها سيرانو غرامه ويكابد الحب مبتسما كأنه الخلى الذى لا يعيش الا ليومه · وروكسانا لا تطلب الى سيرانو شيئا كثيرا · انها تطلب أن يكتب اليها كريستيان رسالة يحدثها فيها عن نفسه وعن حاله وآماله ·

وهكذا تنصرف روكسانا وقد تركت محبوبها أمانة فى عنق عاشقها المعمود سيرانو دى برجراك ·

وما أن يقبل على فتيان جسكونيا المجتمعين فى دكان راجنو ذلك الفتى النورماندى حتى يتحرشوا به بين عابث وساخر · فهم لا يرون الشجاعة فى أهل الشمال ، وهم يحذرونه من ذكر أى شىء يشير الى أنف زعيمهم سيرانو · ويضيق كريستيان دى نوفيليت بسلاطة فتيان جسكونيا وكثرة تفاخرهم فلا يستفز صغارهم بل يستفز بطلهم سيرانو نفسه بين دهشة الحاضرين · وفيما يقص سيرانو على رجاله أمجاده فى مبارزة الأمس يقاطعه كريستيان فى تهكم وتحد كأنه يريد أن يخرجه عن طوره ·

سيرانو : ·· وتراكبت أطباق الظلام ، ولم يكن فى هذه الشوارع الخلفية مصباح واحد ·· أجل كان الظلام كثيفا ·· يالله ! ما كنت ترى أبعد ··

كريستيان : من أنفك ! (صمت · يقف الجميع ببطء ناظرين الى سيرانو فيما يشبه الجزع · ويكف سيرانو عن الكلام دهشا · بعد برهة) ·

سيرانو : من يكون هذا الرجل ؟

ضابط (فى صوت خفيض) : ضابط جديد ·· وصل هذا الصباح ·

كاستيل جالو (فى صوت خفيض) : اسمه كريستيان دى نوفيل ··

سيرانو (فجأة بلا حراك) : آه ·· فهمت ·· (يضبط شعوره) كما كنت أقول : أظلمت الدنيا فما كنت ترى أبعد

من عينيك ٠٠ وتقدمت وأنا أفكر فى هذا الشاعر الذى من أجله ـ أقاتل فقد كان ينظم قصيدة بذيئة كلما امتلأ ٠٠

كريستيان : أنفه ٠٠

سيرانو (يكاد يختنق) : رأسه بالأفكار البذيئة ٠ فمن أجله كنت أتحدى أقوياء الرجال من كل ذى خطـر يجعلنى أقاتل رغم ٠٠

وهكذا يمضى كريســتيان فى استفزاز سيرانو ، حتى يضيق به سيرانو ذرعا ، فهو يريد آن يبطش به ولكنه يعلم أنه لا يستطيع المساس بهذا الفتى الوسيم الذى علق به قلب روكسانا حتى لقد جاءت تطلب اليه وقايته من كل سوء ٠ ويأخذ سيرانو هياج شديد فيطرد كل من بالغرفة الا الفتى كريستيان ٠

وما أن ينفرد ســيرانو بكريستيان حتى يطلعه عــلى حقيقة الأمر ثم يعانقه عناق الصديق ٠ ان روكسانا تحبــه وتنتظر منه الرسائل ٠ وحين يعلم كريستيان بذلك يوشك أن يرقص طربا ، فهو أيضا صريع هــواها منــذ آن وقعت عليها عيناه فى الليلة السابقة ٠

ولكن ترى ما العمل ؟ ان كريستيان جندى جسور القلب جســور الســيف يعرف كيف يغلظ القول للرجال ويحفظ مكانته بين الفتيان ولكنه خجول أمام النساء عيى فى أسواق الغرام ، لا يقف بين يدى حسناء حتى ينعقد لسانه ويرتج عليه ٠ انه على نقيض سيرانو تماما ، فسيرانو مسخ شــائه ولكنه شاعر مفطور ، لا يعوزه كلام ولا يقصر عن معنى نبيل أو عبارة ساحرة ٠ انه روح شاهقة فى بدن خسيس ٠ أما كريستيان الوسيم فهو جسد جميل تنقصه القريحة والمعانى واللفظ النبيل ٠

ويجد الرجلان أن كلا منهما يكمل الآخر ، فيتفقان على تمثيل كوميديا عجيبة ليس فيهــا الا بطل واحــد له وجــه كريستيان الجميل وروح سيرانو الشاعرة ٠

ويخفي سيرانو عن صديقه حقيقة لواعجه وهو يتحدث عن هذه الملهاةالتي هي في حقيقةالأمر مأساة مستورة لا تراها العيون • لسوف يبث سيرانو صفية فؤاده روكسانا أشواقه ويترنم بجمالها في أعذب القريض على لسان كريستيان وهكذا يخفي جراح قلبه المكلوم عن أنظار المتطفلين • ولن تعلم روكسانا عن ذلك شيئا حتى لا يفجعها في أحلامها الجميلة •

وهكذا يكتب سيرانو الرسائل العاطرة الفياضة بأرق معاني الغزل فيوقعها كريستيان ويبعث بها الى روكسانا ، فتسحر روكسانا بسحر البيان بعد أن سحرت بجمال الفتوة • وبعد رسائل المحبين لابد من تلاق ، وهكذا يقف كريستيان تحت نافذة محبوبته المضيئة وقفة روميو تحت شرفة جولييت، فتكون أعجب مناجاة جاءت في معجم العشاق ، يقف سيرانو المسكين في الظلام بين الأشجار كالبلبل الصداح يلهم كريستيان بأعذب الأشعار ، فالوحي من سيرانو والصوت من كريستيان ، وتطرب روكسانا لهذه النجوى التي تسمع في هدوء الليل فتخرج الى عاشقها في شرفتها ويزين لسيرانو شيطانه أن يكف عن هذه التمثيلية وأن يتقدم بشخصه الى روكسانا • فيتخلى عن كريستيان بين الحين والحين فيتلعثم وتضطرب أقواله ويبدو عليه لروكسانا وهي عاجبة من أمر فتاها ، ولكن سيرانو لا يلبث أن يخف لنجدة كريستيان فينتشر سحر الخيال من جديد على شرفة الغرام وحين تقبل روكسانا كريستيان يقبل سيرانو حكم القضاء عليه وهو كاسف البال •

ويأتي راهب يقطع عليهم هذا الموقف الفريد ، فهو موفد برسالة من عند الكونت دي جيش الذي يقول ان طبول الحرب تدق عند أراس وانه يتأهب للخروج مع رجاله لمقاتلة الاسبان هناك ، ومن رجاله سيرانو وكريستيان • وليس للكونت الا ضراعة واحدة وهي أن يحظى برضاها في هذه الليلة الأخيرة ، وانه لقادم في اثر هذا الراهب الرسول•

وما أن تفض روكسانا الرسالة وتقف على ما فيها حتى تدرك أن الوقت قد حان ولا بد من حسم الأمور فسوف يمضى حبيبها مع فتيان جسكونيا وراء قائدهم الأعلى الكونت دى جيش الى حومة القتال فتزعم للراهب الساذج ان فى الرسالة أمرا استصدره الكونت دى جيش من الكاردينال ريشيليو بأن يعقد الراهب عقد زواجها من البارون كريستيان دى نوفيليت دون ابطاء ·

وتنطلى الحيلة على الراهب الساذج فيدخل دار روكسانا حيث يجرى مراسيم زواجها من كريستيان فى حين يبقى سيرانو فى الحديقة ليحول دون دخول دى جيش الدار عند قدومه حتى تنتهى مراسيم الزواج ·

وهكذا يفترق الزوجان ، كريستيان وروكسانا فى ليلة الزفاف بأمر من الكونت دى جيش · ويمضى كريستيان وسيرانو بين فتيان جسكونيا الى أراس حيث يعسكرون طويلا تحت امرة كاستيل جالو وقائدهم الأعلى الكونت دى جيش· ويكون بينهم وبين الاسبان حرب مريرة سجال · واذا بهم بعد أن كانوا يحاصرون الاسبان قد أصبحوا محاصرين · وتنفد مؤونتهم من الطعام والنبيذ فاذا بطونهم خاوية أياما وأياما ·

وفيما هم فى هذا البؤس الشديد تظهر أمام المعسكر عربة ملكية مطهمة بالجياد قد اخترقت صفوف الأعداء · وتخرج من هذه العربة روكسانا التى قررت أن تلقى الموت أو تنعم بالحياة الى جوار زوجها ، فهى لم تعد تطيق أشجان الفراق وكيف تطيق عن زوجها بعدا وقد ألهب سيرانو خيالها وأجج عواطفها برسائله المتصلة التى كان يرسل منها كل يوم باسم زوجها رسالة على غير علمه · وأية امرأة فى العالم تستطيع أن تقاوم كل هذا الشعور الفياض الذى يتغلغل فى الروح وفى الجسد كأنه الشهد المسموم ·

وهنا تكون الطامة الكبرى · ان رسائل سيرانو قد بدلت من نفس روكسانا وها هى ذي تعترف لزوجها أنها لم تعد

تحبه لجمال جسده بل لجمال روحه ، بل انها تحتقر جمال الجسد ولا تقيم وزنا الا لجمال الروح ٠

ولو أن كريستيان كان فى دمامة سيرانو لحفظت حبها له من أجل شعره الخالد ، فوارحمتاه لسيرانو وهو يسمع هذا الاعتراف ، وارحمتاه لهذا الزوج الجميل !

ويأمرها دى جيش أن تعود من حيث أتت فما للنساء مكان فى معسكرات لجنود والاسبان متأهبون للانقضاض على الفرنسيين كالوحوش الكاسرة ٠

ويعلو قصف المدافع وتنتشر رائحة البارود وترتفع الصرخات من كل جانب وفى غمضة عين تجد روكسانا نفسها وحيدة فى الخيمة ، فقد خرج الجميع الى النزال وقد اتخذوا من منديلها راية يقاتلون تحتها بعد أن ربطه سيرانو فى رمح وغرس الرمح بين الاستحكامات ٠

فهل رأيت معركة كل من فيها يطلب الموت وليس فيها من يطلب الحياة ؟ هذه معركة أراس تحت راية الحب ٠

ان الزوج فيها بائس يقذف بنفسه فى المعمعان لأن زوجه الجميلة لم تعد تحبه لذاته بل لرياشه الجميلة المستعارة التى يحلق فيها على جناح الشعر والعاشق فيها يائس لأن المنهل العذب قد غدا قريبا من شقيه ، وهو على ذلك أبعد من السراب وأمنع من الحرم المصون ٠ وفتيان جسكونيا يائسون بلا خبز ولا نبيذ فهم يؤثرون الموت على هذه الحياة الخاوية ٠

وتحت راية الحب يسقط كريستيان صريعا برصاص الاسبان ، فيحمل فتيان جسكونيا جثمانه الى روكسانا الملتاعة ٠ لقد ذهب كريستيان وذهب معه سره ، ولم يبق له من أثر الا رسائله الجميلة ، وكأن آخر هذه الرسائل رسالة الوداع التى أخفاها فى صداره ، وتحت راية اليأس يتجلى البارود ويلمع السلاح الأبيض فيجرد سيرانو دى برجراك

ومن حوله فتيان جسكونيا سيوفهم وينقضون فى مثل النقع انقضاض الليوث ٠

وهكذا تنتهى حكاية كريستيان الجميل فكيف اذن تنتهى حكاية الشاعر سيرانو ؟

خمسة عشر عاما تمر بعد هذه الأحداث فلا تبلى ذكراها ولا تجفف نضرة الجمال ٠ ان روكسانا قد انزوت فى الدير بعد موت زوجها وعاشت فى عزلة عن الحياة خمسة عشر عاما ، ولم يعد يصلها بالأحياء الا ابن عمها الشاعر العاشق الوفى سيرانو دى برجراك ٠

انه يعودها فى الدير يوم السبت من كل أسبوع ويجلس الى جوارها ويقص عليها أنباء المدينة كأنه يعد لها يوميات شفوية توضح لها معالم ذلك الزمان الطويل الذى لا أول له ولا آخر ، فيدخل على قلبها الحزين بعض السرور ٠ وهى تستمع اليه فى سعادة حزينة ومن حولها أطياف الماضى ، بل من حولها طيف واحد هو طيف زوجها كريستيان ، وعلى حجرها ثوب تحليه بوشى الابرة فلا تفرغ من الوشى أبدا ٠

أما سيرانو فقد ساءت حاله وقست عليه العزلة واشتد فقره وغدا يزداد كل يوم عنفا فينظم الهجاء فى كل من يقابله حتى كثر أعداؤه ولم يجد له مكانا فى المجتمع فاعتزل الناس ، وغدا لشعره موضوع واحد هو « المزيفون » : الأبطال المزيفون والنبلاء المزيفون والفنانون المزيفون ٠ ولم يعد يذوق للسعادة طعما الا يوم يعود روكسانا ليثرثر بين يديها ثرثرة الطفل البرىء بيومياته عن الحياة والأحياء ٠

حتى يكون آخر يوم وهو نهاية المطاف فنحن فى يوم من أيام السبت فى أكتوبر من عام ١٦٥٥ والشمس قد مالت نحو الأصيل ، وروكسانا جالسة فى حديقة الدير تنتظر سيرانو فلا يحضر فى موعده ٠ وتعجب ــ روكسانا ــ لتأخره فهو ما تأخر يوما عن موعده ــ ولكن سيرانو لا يلبث أن يبدو أمامها شاحب الوجه فى شحوب الموتى ٠ وتمضى روكسانا

بابرتها فى وشيها دون أن ترفع اليه بصرها · ويعتذر لهـا بأن زائرا طارئا عوقه فى الطريق قائلا انه على موعد معـه قبل الغروب · ولم يكن هذا الزائر غير « الموت » فقد تآمر بسيرانو نفر من أعـدائه الجبنـاء الذين لم يستطيعوا أن يواجهوا سيفه فسلطوا عليه أجيرا ألقى عـلى رأسه جـذع شجرة من سطح بيت فشج رأسه ، وهو الآن معصوب الرأس · تتخفى عصابته تحت قبعته الكبيرة · وهو الآن يغالب الموت متكلفا الهدوء والابتسام ·

ويذهب سيرانو يلغو بتلاوة يومياته الشفوية ·

ويصيبه اغماء خفيف ولكنه لا يلبث أن يسترد رشده قائلا ان جرحه القديم الذى أصابه فى رأسه قد بدأ يوجعه · وتذكر روكسانا أيضا جرحهـا القـديم الذى أصابها فى آراس ، وتخرج من صدرها آخر خطاب لكريستيان وقد غدا ورقة بالية خضبها الدم والدموع · ويمسك سيرانو بالخطاب ويذهب يقرؤه فى غـير تعثر كأنه يحفظه عن ظهـر قلب ، ويرخى المساء سدوله فينتشر فى الحديقة الظلام · ولـكن سيرانو يمضى فى تلاوته رغم الظلام ·

وتحملق روكسانا فى سيرانو عاجبة وقد دب فى قلبهـا شعور غريب · انها تدرك الآن أن سيرانو هـو كاتب هـذه الرسائل وتواجهه بهذه الحقيقة فينكر ويمعن فى الانكار · ليس هناك الا زوجهـا · أما هو فما أحبهـا قط · ولـكن روكسانا تفهم كل شىء ·

وما جدوى كل هذا ·· وقد فات الأوان · ؟

أجل ! لقد فات الأوان ، فالليل الذى هبط فى الحديقة هبط كذلك فى روحه وانتشر ·

ان الموت يقترب من سيرانو دى برجراك وهل يمـوت فتى جاسكونيا كما يموت سائر الرجال ؟

كلا . ان الحمى تأخـذه فيستولى عـلى عقله الهذيان . ويخيل اليه أن الموت قد تجسد أمامه فى صورة عدو يريد أن ينازله فيجرد سيرانو سيفه ويذهب يلوح به ويطعن فى الهواء كأنه يبارز شبحا خفيا، حتى تغيض من جسده الروح فيسقط جثة هامدة عند قدمى روكسانا التى وهبها عصـارة القلب وأسمى ما فى الحياة .

زوج مثـــالى

للكاتب الأيرلندى أوسكار وايلد

تجـرى وقائع هـذه الكوميديا فى لنـدن بين أبنـاء الأرستقراطيـة الانجليزية فى النصف الثـانى من القـرن التاسع عشر وأبطالها هم السير روبرت تشيلترن وزوجتـه الليدى تشيلترن وأخته الآنسة مابل تشيلترن ، ومن حولهم من خدم وحشم ، من ناحية ، واللورد جورنج الشاب وأبوه العجوز الايرل كافرشام من ناحية أخرى • ولكن محور هذه الكوميديا الذى يدور حوله كل شيء وتوشك أن تتحول به الملهاة الى مأساة ، أمرأة تدعى مسز تشيفلى ، دخلت حياة آل تشيلترن أربعا وعشرين سـاعة فانقلبت حياتهم رأسا عـلى عقب ، ثم خرجت منها فعاد كل شيء الى مجـراه وانقشـعت الغمامة السوداء التى خيمت عليهم وأنذرت بسـوء المصير ، فعاش الجميع فى التبات والنبات •

•

أما الزوج المثالى فهو السير روبرت تشيلترن نفسـه ، الذى كان وكيل وزارة خارجية بريطانيـا العظمى قبـل أن تغرب الشمس عن أملاكها • وهو رجـل ممتاز لا يخلو من الكبرياء فى الأربعين من عمره بلغ بجده المتواصل واستقامته التى لا يشوبها غبـار هـذا المنصب الخطير فى هـذه السن الباكرة • وأما زوجته الفاضلة الليدى تشيلترن فقد كانت فى السـابعة والعشرين من عمرها جمالهـا وقور كجمـال

اليونان ، وأما أخته مابل تشيلترن ، فقد كانت فى مقتبل الشباب حول العشرين تفيض بالصحة والنضارة كانها وردة عاطرة . وكانت نموذجا حيا للجمال الانجليزى • وكان اللورد جورنج أخلص صديق للسير روبرت تشيلترن ، وكان شابا وسيما فى الرابعة والثلاثين ، شديد العناية بهندامه • وكان نموذجا كاملا لشباب الأرستقراطية الذى لا يعمل شيئا فى الحياة ، بل يقضى عمره كالفراشة ينتقل بين الزهور ويختلف الى الحفلات والصالونات والمعارض وحلبات السباق ، ويتحاشى أباه العجوز الايرل كافرشا الذى لا يمل تعنيفه على بطالته واسرافه وتبديده العمر فيما لا ينفع • لم يبق الا السيدة الغريبة مسز تشيفلى لتكمل صورة هذا المجتمع الراقى الذى نحسبه لأول وهلة مجتمعا نظيفا ناعم البال لا يعرف مشاكل الحياة ، ثم نكتشف أنه مجتمع يخفى وراء بريق أنواره الباهرة وحديثه الطلق وأناقته البالغة من قاذورات الحياة شيئا كثيرا ، ومن عذاب الذنوب ما يضنى القلوب • ومسز تشيفلى هذه سيدة فى نحو الثلاثين من عمرها ، آية فى الرشاقة ، تتبرج فى اسراف وتبرق على صدرها وفى ثوبها ماسات ساطعة تخطف الأبصار ، فهى تحفة فى نظر كل من يراها ، وان كانت لا تستطيع أن تخفى شحوب وجهها أو رقة شفتيها بما وضعت من أحمر الخدود وأحمر الشفاه •

ونلتقى بهذا الجمع كله ذات مساء فى دار تشيلترن بميدان جروفنور ، حيث أقام آل تشيلترن حفلا ساهرا دعوا اليه علية القوم فى لندن • ووقفت الليدى تشيلترن تستقبل ضيوفها ومنهم الفيكونت دى نانجاك وهو ملحق فى سفارة فرنسا مصاب بداء الأنجلوفيليا ، فهو يحب انجلترا أكثر مما يحبها الانجليز ، ثم مسز مارتشمونت ، والليدى بازيلدون ، وبعد قليل تدخل الليدى ماركبى وفى صحبتها سيدة انجليزية لم يرها الناس فى مجتمعات لندن منذ سنوات ، فقد كانت تقيم سنوات متصلة فى فيينا ، حتى

اكتسبت مظهر الغرباء عن بلادها . وهذه السيدة هى مسز تشيفلى .

وما أن يدخل اللورد كافرشام العجوز حتى يسأل عن ابنه العاطل ، اللورد جورنج ، ان كان قد وصل . فتحتج الآنسة مابل تشيلترن بأن اللورد جورنج ليس عاطلا مطلقا، فهو يخرج كل صباح للرياضة على حصانه ، ويذهب الى دار الأوبرا ثلاث مرات أسبوعيا ، ويغير ملابسه خمس مرات يوميا ، ويتعشى كل ليلة فى الخارج طول الموسم الاجتماعى. فمثل هذه الحياة الحافلة لا يمكن أن توصف بالكسل .

وتقول الليدى ماركبى انها جاءتهم بضيفة جديدة وصلت لتوها من الخارج ، وهى مسز تشيفلى ، فيقول صاحب الدار ، السير روبرت تشيلترن ، انه سمع بهذا الاسم من قبل . فيعلم أن مسز تشيفلى جاءت من فيينا ، وانها سيدة من صفوة نساء المجتمع هنالك ، أينما ذهبت تتجمع فضائح الطبقة الراقية حول أصدقائها. وتقدمه اليها الليدى ماركبى فينحنى السير روبرت ويقول : « كل الناس يتوقون الى معرفة مسز تشيفلى . فملحقونا فى فيينا لا يكتبون لنا الا عنها . وتقول الليدى تشيلترن انها تعرف مسز تشيفلى من قبل . فتتظاهر مسز تشيفلى بالتجاهل وتجيب أنها لا تذكر أين كان لقاؤهما . فتقول الليدى تشيلترن انهما كانتا معا فى المدرسة . ولا يخلو لقاء السيدتين من بعض الجفاف فقد كان فى ذكريات المدرسة ما تحب مسز تشيفلى أن تمحوه من ذاكرتها . ويسألها اللورد جورنج ان كانت ستقيم فى لندن زمنا ، فتجيب مسز تشيفلى بأن ذلك يتوقف على الطقس وعلى الطاهى وعلى السير روبرت تشيلترن . ويظن السير روبرت أنها تشير الى التوتر السياسى فى أوربا وخوف الناس من نشوب الحرب ، فتضحك مسز تشيفلى وتومىء اليه .

وتنتحى به مكانا قصيا لتفسر له قولها ان بقاءها فى انجلترا يتوقف عليه ويسألها فى دهشة : «وكيف كان ذلك» ؟

فتجيبه قائلة : « انها تريد آن تحدثه عن مشروع سياسى ومالى خطير ، هو مشروع شركة قنال الأرجنتين ، ويقــول الســير روبرت فى رقة ان هذا موضوع عملى ممل بالنسبة لسيدة مثل مسز تشيفلى ، فتقــول انها تحب الموضوعات العملية المملة وان كانت لا تحب الناس العمليين المملين • وفوق هذا فهى تعرف أن السير روبرت تشيلترن مهتم بمشروعات القنــوات الدولية » ، منذ آن كان سكرتيرا للورد رادلى أيام آن اشترت الحكومة البريطانية أسهم قناة السويس •

فيجيبها السير روبرت قائلا : « هــذا صحيح • ولــكن قناة السويس كانت مشروعا عظيما رائعا ، فهى قد فتحت طريقنــا الى الهنــد ، فهى ذات قيمة امبراطورية وكان من الضرورى أن نسيطر عليها • أما مشروع قناة الأرجنتين هذه فلا يتعدى أن يكون عمليــة مألوفة من عمليــات النصب فى البورصــة » • فتقــول مسز تشــيفلى : « بل من عمليــات ــ المضاربة ــ يا سير روبرت ، المضاربة الرائعة الجريئة » •

ويقول السير روبرت : « صدقينى يا مسز تشيفلى ، انها نصب فى نصب • فلنسم الأشياء بأسمائها ، فهــذا يســهل الأمور • فقد جمعنــا عنه كل المعلــومات اللازمة فى وزارة الخارجية • وفى الواقع أنا أوفدت لجنــة خاصــة لدراســة الموضوع بصفة سرية ، وتقرير اللجنة يقول ان العمل لم يبدأ فيه شىء يذكر ، أما الأموال التى جمعت له فلا يبدو أن أحدا يعرف عن مصيرها شيئا • انه مشروع من طراز مشروع قناة بنما ، وفرص نجــاحه لا تقاس فى شىء بفرص نجاح هــذا المشروع الفاشــل • فأرجو يا مسز تشــيفلى آلا تكــونى قد استثمرت فيه مالا » •

فتجيب مسز تشيفلى أنها استثمرت فيه أموالا طائلة • ويسألها السير روبرت عمن نصحها هــذه النصيحة الحمقــاء فتقول : « صــديقك القــديم •• وصــديقى •• البارون آرنهايم » • فيصمت السير روبرت قليلا ثم يقول مقطبــا : « نعم • أذكر أني سمعت وقت وفاته بأنه كان متورطا فى

المشروع كله » • فتقول مسز تشيفلى : « انه كان آخر مغامرة خيالية من مغامراته » ، ثم تتذكر أيامها الجميلة فى فيينا مع عشيقها الراحل البارون أرنهايم وتضيف : « أو على الأصح، انصافاً له ، انه كان المغامرة قبل الأخيرة » •

ويضيق السير روبرت تشيلترن بالحديث ويفكر فى تغيير موضوعه فينهض ويقول مبتسما ان مسز تشيفلى لم تر اللوحات الفنية التى تزين داره • ولكنها تشير اليه بمروحتها أن يعود الى مكانه بجوارها • فيقول السير روبرت : « ليس لدى ما أنصحك به يا مسز تشيفلى الا أن تهتمى بأشياء أقل خطورة من هذا • ان نجاح المشروع طبعا يتوقف على موقف انجلترا منه ، وسأقدم تقرير اللجنة الى مجلس العموم غدا ليلا » •

فتقول مسز تشيفلى : «يجب ألا تفعل هذا يا سير روبرت اذا كنت حريصا علىٰ مصلحتك ، فضلا عن مصلحتى»• فينظر اليها السير روبرت عاجبا ويستفهم «مصلحتى ؟ ماذا تقصدين يا مسز تشيفلى » ؟ ويعود الى مكانه بجانبها • وتقول مسز تشيفلى انها ستكلمه بمنتهى الصراحة • انها تريد منه أن يسحب التقرير الذى ينوى رفعه الى مجلس العموم بحجة أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أن اللجنة كانت متحيزة أو تبنى على بيانات خاطئة أو أية حجة من هذا القبيل • وهى تريد منه أن يعلن فى المجلس أن الحكومة تنوى اعادة النظر فى الموضوع وأن لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن القنال ، لو تم حفرها ، ستكون ذات أهمية دولية عظيمة » •

فيقول السير روبرت عابسا ان مسز تشيفلى لا شك هاذلة فى هذا الطلب ، ولكنها تؤكد له أنها جادة كل الجد ، وأنها ستدفع له ثمنا سخيا ان فعل ما تطلبه منه !

فيقول السير روبرت عابسا ان مسز تشيفلى لا شك هازلة تقصد بهذا الكلا • فتجيبه فى عدم مبالاة : « ان هذا مؤسف للغاية فقد قطعت كل هذا الطريق من فيينا لتفهمنى تماما••

أنت يا سير روبرت رجل يفهم الدنيا ، ولك ثمنك فيما أعتقد . ان لكل انسان ثمنه فى أيامنا هذه . ولكن المزعج أن أكثر الناس ثمنهم عال بصورة مزعجة . أنا أعرف مثلا أن ثمنى عال جدا ، وأرجو أن تكون معقولا فى شروطك معى » .

ويتملك الغضب السير روبرت تشيلترن ، فينهض ويقول : « اسمحى لى أن أرسل فى طلب عربتك . ان اقامتك فى الخارج امتدت يا مسز تشيفلى حتى لقد نسيت أنك تحدثين جنتلمانا انجليزيا » .

فتمسه مسز تشيفلى بمروحتها لتستوقفه وهى تقول فى هدوء : « بل أنا أعرف أنى أحدث رجلا وضع أساس ثروته ببيع سر من أسرار الوزارة الى مضارب فى البورصة » . نعم ، انها تعرف سر ثراء السير روبرت تشيلترن وسر نجاحه فى الحياة العامة ، وهى تحتفظ بالخطاب الذى كان قد أرسله الى البارون أرنهايم أيام أن كان سكرتيرا للورد رادلى، لينصح فيه البارون أن يشترى أسهما من أسهم قناة السويس ، وهو خطاب كتب قبل أن تعلن الحكومة البريطانية شراءها لأسهمها بثلاثة أيام .

ويعض السير روبرت شفته أولا وهو يسمع هذا الكلام، ثم يحاول أن ينكر ، وحين يعلم أن الخطاب فى حوزتها ، يحاول أن يهون من خطر فعلته، فتقول مسز تشيفلى فى تحد: « انها نصب فى نصب . فلنسم الأشياء بأسمائها ، فهذا يسهل الأمور كثيرا . أنا الآن سأبيعك هذا الخطاب والثمن الذى أطلبه فيه هو تأييدك الرسمى لمشروع قناة الأرجنتين . أنت جمعت ثروتك من قناة ، فساعدنى وساعد أصحابى أن يجمعوا ثروتهم من قناة أخرى » !

ويتمتم السير روبرت : هذه سفالة .. هذه سفالة .. فتقول مسز تشيفلى : بل انها لعبة الحياة ، وعلينا أن نلعبها عاجلا أو آجلا . ويقول السير روبرت ان ما تطلبه مستحيل .

فتقول ان رفضه معناه تحطيم حياته كلهـا ماضيه وحاضره ومستقبله • فان هي خرجت من داره دون أن تستخلص منه وعدا بتأييد المشروع في مجلس العموم ليلة الغد ، فستقصد لفورها الى دور الصحف وتعطيها خطابه وقصة هذا الخطاب • وستكون هذه نهاية السير روبرت تشيلترن هذا السياسي الذي ارتسم في أذهان الناس على أنه المثل الأعلى للنزاهة والنقاء • انها ستخرجه من الحياة العامة منكس الرأس ليقضي بقيـة حياته بين أشباح العار • ان الصـحفيين المنافقين لا يقلون عنـه أو عنها فسادا ، ولكنهم سـباقون الى نشر الفضـائح والتسبيح بمكارم الأخلاق • ولم يبق الا أن يستمع السـير روبرت تشيلترن الى صوت العقل ويلقي البيان المطلوب غدا مساء ، وسـتكون هي في انتظاره في شرفة السـيدات في مجلس العموم لتعطيه خطابه بمجرد انتهائه من القاء البيان •

ويعرض عليها السير روبرت ما تشاء من مال ، ولكنها لا تتزحزح عن موقفها : البيـان مقـابل الخطاب ، وتقـول هازئة : « حتى أنت يا سير روبرت لا تملك ما يكفي لشراء ماضـيك • ليس في الدنيـا انسـان يملك ما يكفي لشراء ماضيه » • ويستمهلها ليتدبر الأمر ، ولكنها تقول : « لا • لابد من الاتفاق الآن » • انها ستتصل تلغرافيا بأصحابها في فيينا هذه الليلة بالذات ، ولابد لها من أن تعرف الجواب •

وبعد صراع نفسي عنيف يقول السير روبرت تشيلترن انه سينفذ ما تطلب فيسحب التقرير ، ويرتب سؤالا عن هذا الموضوع في مجلس العموم •

وقبـل أن تنصرف مسز تشـيفلي تلتقي في الصـالون بالليدي تشيلترن التي تستفسر عن سبب رغبتها في لقـاء زوجها السير روبرت • فتجيب مسز تشيفلي بأنها أرادت أن تحدثه عن مشروع قناة الأرجنتين ، وأنها وجدته رجلا معقولا للغـاية ، وقد استطاعت في عشر دقائق أن تقنعه بتأييـد المشروع ، وقد وعد بأن يلقي بيان التأييـد في جلسـة الغد بمجلس العموم •

وتعجب الليدى تشيلترن وتقول انها لابد قد أساءت فهم زوجها فهو لا يمكن أن يؤيد مثل هذا المشروع • ولكن مسز تشيفلى تؤكد لها أن الأمر كما تقول ثم تنصرف بعد أن تودع اللورد جورنج معاتبة اياه على اهماله لها قائلة انهـا تنتظر منه زيارة •

وتلمح الآنســة مابل تشـيلترن حليــة تبرق من تحت وسادة الأريكة وتلتقطها فاذا هى بروش من الماس، وتعرضها على اللورد جورنج فيتأملها جيدا ثم يقول وهو يفكر ، « ترى من صاحبة البروش » ؟ ثم يضعه فى جيبه وهو يرجو مابل تشيلترن ألا تذكر لأحد أنه يحتفظ بالبروش وأن تبلغه حالما يطلب أحد استرداده • وحين تبدى دهشتها لهذا الطلب يقول: الحقيقة أنى أهديت هذا البروش لشخص ما منذ سنوات •

ويعود اللورد جورنج ومابل تشيلترن فيجدانها وحيدة بعد انصراف كل الضيوف • ويسأل اللورد جورنج عن سر زيارة مسز تشيفلى فتجيبه أنها جاءت لتجذب زوجها الى مشروع من مشروعات النصب اسمه مشروع قناة الأرجنتين ، ولكنها بداهة امرأة غبية تخطىء فهم الرجال ولا تميز الشريف من الفاسد • فيوافقها اللورد جـورنج قائلا ان هــذه الغبــاوة لا يقدر عليها غالبا الا الأذكياء ثم يستأذن وينصرف •

وحين تنفرد الليدى جيرترود تشيلترن بزوجها الســير روبرت تشيلترن تسأله لفورها هذا السؤال : « ان هذا ليس صحيحا يا روبرت؟ انك لن تؤيد مضاربة مشروع الأرجنتين؟» فيجفل لحظة ثم يقول : « من أنبأك أنى اعتزمت تأييده » ؟ فتجيب أنها سمعت ذلك من تلك المرأة ، وهى تحذره منها ، فهى تعرفها حق المعرفة ، فقد كانت معها فى مدرسة واحــدة حيث اشتهرت بالكذب وخراب الذمة وافساد كل من لها سلطان عليه ، وكانت تسرق من التلميذات أشياءهن فطردوها من المدرسة فى حادث سرقة •

فيقول السير روبرت ان هذه أشياء حدثت من زمن بعيد ومن الخير نسيانها ، فلعل مسز تشيفلى قد تغيرت منــذ ذلك

الوقت ، وليس من الانصاف الحكم على انسان بماضيه وحده فتجيبه الليدى جرترود بصوت حزين : « ان ماضى الانسان هو حاضره ، وهذه هى الطريقة الوحيدة للحكم على الناس» . ويقول السير روبرت ان هذه قسوة ، فتقول الليدى جرترود بل هى عين الحق ، وتعود الى استيضاحه عما قالته المرأة من أنه سيؤيد مشروعها فى البرلمان وقد سمعته يقول عنه انه أبشع مشروع من مشروعات النصب مر عليه فى حياته السياسية . فيجيبها قائلا انه أخطأ التقدير ، وكل انسان معرض للخطأ . وتذكره بما سبق أن قال عن تقرير اللجنة فيقول ان لديه من الأسباب الآن ما يحمله على الاعتقاد بأن اللجنة لم تحسن دراسة المشروع . ثم يضيف : « ومع ذلك يا جرترود ، ان الحياة العامة والحياة الخاصة شيئان مختلفان ، كل منهما يخضع لقانون مختلف وهما لا يلتقيان فتجيبه الليدى تشيلترن : « بل يجب أن يمثل كلاهما الانسان فى أسمى صفاته . وأنا لا أرى أى فرق بينهما » . ويقول السير روبرت : « فى هذه الحالة بالذات أنا غيرت رايى لأسباب تمس السياسة العملية . هذا كل ما هنالك » .وتكاد الليدى تشيلترن أن تصعق لهذه الاجابة وتسأله ان كان قد أطلعها على الحقيقة كلها ، فهى لا تصدق أن زوجها وهو المثل الأعلى فى التمسك بكل ما هو نبيل فى الحياة يسلك هذا السلوك . فتكون اجابته : « اسمعى يا جرترود . ان الحقيقة شىء معقد غاية التعقيد ، والسياسة عملية معقدة غاية التعقيد ، فهى دوائر داخل دوائر . وقد يكون على الانسان التزامات معينة للناس لا مناص من الوفاء بها . وفى الحياة السياسية لابد عاجلا أو آجلا من مقابلة الناس فى منتصف الطريق . كل الناس تفعل هذا » .

ان الليدى تشيلترن لم تسمع زوجها يتحدث على هذا النحو أبدا . لابد أنه تغير . انها قد تصدق هذا فى غيره من الناس ، أما هو فلا . انها تحبه بل تعبده لأنها وجدت فيه مثلها الأعلى . انه يقتل حبها له لو أنه لوث شرفه بما يشين . انها تعرف أن فى حياة بعض الرجال أسرارا مشينة

تلاحقهم بالعار طول حياتهم أما هو فهو النقاء نفسه • فان كان فى حياته سر من هذه الأسرار المشينة فليصارحها به الآن حتى يفترقا •

ويجد السير روبرت تشيلترن نفسه امام موقف عصيب، فيقول : « ليس فى حياتى يا جرتوور مالا استطيع اطلاعك عليه » • انه يحب زوجته حبا أقرب الى العبادة • انها الملاك الذى يحرسه فى ليله ونهاره ، وبغيرها تصبح حياته خرابا مطلقا • انه يقبل كل شيء الا الانفصال عنها •

وتطمئن الليدى جرترود تشيلترن ، ويعود الى نفسها الهدوء وتقول : هيا اكتب الآن وعلى الفور خطابا لمسز تشيفلى تقول فيه انك لا تستطيع تأييد هذا المشروع السافل • ويجب ألا ينسى أن يستعمل كلمة « السافل » لتعرف هذه السيدة السافلة رأيه فى مشروعها • وبعد تردد لا يجد السير روبرت تشيلترن مناصا من الرضوخ ، فيحرر رسالة بهذا المعنى ، ويعرضها على زوجته فتقر صيغتها ، ويبعث بها مع خادمه ماسون الى فندق كلاريدج حيث تقيم مسز تشيفلى •

وتقبله زوجته قائلة : من أجل هذا أحبك ، لأنك أنبل النبلاء وأنقى الأنقياء • فيتمتم قائلا : لا تكفى عن حبى يا جرترود ! لا تكفى عن حبى يا جرترود ! وحين تأوى الليدى تشيلترن الى مخدعها ، يبقى السير روبرت تشيلترن وحده فى الصالون ويتطلع الى المستقبل فلا يرى فيه بارقة أمل فيدفن وجهه فى راحتيه •

وفى صباح اليوم التالى يزور اللورد جورنج السير روبرت تشيلترن فيجده فى أسوأ حالة نفسية ممكنة ، ويقف منه على الحقيقة كلها • انه كان فى مقتبل شبابه ، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، سكرتيرا للورد رادلى كان شابا فقيرا طموحا ، وتعرف على البارون أرنهايم صديق اللورد رادلى وتعلم من البارون سرا خطيرا فى الحياة وهو أن

للمعلومات السرية فائدة كبرى اذا عــرف الانســان كيف يستغلها ، وأنها مصدر كل الثروات الكبيرة فى عصرنا هذا وذات يوم مرت بين يديه وثيقة سرية عرف منها أن الحكومة البريطانية قررت شراء أســهم قناة الســويس • فذهب الى البارون أرنهايم بما يعرف ، فضارب البارون بالأسهم وربح من ذلك ثلاثة أرباع مليون جنيــه وأعطاه منهــا مائة الف جنيه • وكان هذا بداية التحول فى حيــاته •• فاشــتغل بالسياسة ، ودخل البرلمان ولمع فيه حتى عين وكيلا لوزارة الخارجية وهو لم يبلغ الأربعين من عمره • وهــو لم يكرر هذه الغلطة فقد حالفه الحظ ونجح فى كل ما استثمره من مال عن طريق الشرف فتضاعفت ثروته فى ســنوات قليلة وتبرع للأعمال الخيرية اراحة لضميره بضعف ما كسبه من فعلته الدنيئة الأولى • والآن قد جاء وقت السداد •

انه لا يســتطيع أن يفضى لزوجتــــه بشىء من هــــذا والا احتقرته ويستأذن اللورد جورنج أن يتــولى هــو ذلك فيمنعه السير روبرت ، انه كالغريق يبحث عن قشة •• انه أرسل بالشفرة تلغرافا الى السفارة البريطانية فى فيينــا لتزوده بالمعلومات عن مسز تشيفلى ، فلعل فى حياتها نقطة ضعف يســتطيع أن يســتغلها فيردها عن التشــهير به فى الصحف •

وحين يلومه اللورد جورنج على ضعفه ويتحدث باحتقار عن المبادىء التى لقنهــا البــارون أرنهــايم لســير روبرت تشيلترن ، يجيبه السير روبرت قائلا انه رغــم ندمه عــلى ما كان لا يقسو فى الحكم على البارون لأنه فتح طريقه الى المجد ، فبهذا المال أحرز سلطة واسعة وتحرر من أسر الفاقة ، ولولاه لظل الى الآن موظفا من صــغار الموظفين • ان حلــم حياته كان السلطة ، ولا سلطة بغير المال • ولكنه يدرك الآن أن حياته كلها قد انتهت ما لم تحدث معجزة • ويعده اللورد جورنج بأن يعينه ان وجد سبيلا الى ذلك ، فقــد كانت له صلة قديمة بمسز تشيفلى ، وأوشك أن يتزوجهــا لولا أنه اكتشف فى الوقت المناسب بعض خصائصها ففسخ الخطبة •

ويلتقى اللورد جورنج بالليدى تشيلترن بعد عودتها من اجتماع عام ، وتصف له مبتهجة كيف قوبل اسم زوجها بعاصفة من التصفيق كلما ذكر اسمه الخطباء • ويحوم اللورد جورنج حول موضوع مسز تشيفلى ، وأخيرا تفهم الليدى تشيلترن مراده ، فتنبئه مبتهجة أن زوجها قد نفض يده من مشروعها القذر وأنه كتب اليها بذلك • ويحاول اللورد جورنج أن يفهمها أن ظروف الحياة تلزم الناس أحيانا بالسير فى الأوحال ليصلوا الى القمم ، وأن وراء كل نجاح قصة لا يسر لها رجال الأخلاق • انه لا يتكلم عن حالة معينة بالذات ولكنه يتكلم عن الحياة بوجه عام • وربما كان روبرت كغيره ممن أخطأوا فى شبابهم ليدركوا المجد ، لعله مثلا كتب خطابا فى الماضى البعيد أو استسلم لضعف الغواية أو •• وهنا تقاطعه الليدى تشيلترن قائلة ان زوجها لا يمكن أن يرتكب أية حماقة من هذه الحماقات التى يشير اليها • فيجيبها اللورد جورنج قائلا : « ان كل ما يعرفه أن الحياة لا تفهم الا بقلب سخى ولا تعاش الا بقلب سخى ، فمفتاح الحياة ليس الفلسفة الألمانية ولكن الحب •• » • ثم يضيف فى لهجة حادة أنها ان وجدت نفسها فى أى مأزق من أى نوع كان وأرادت معونته ، فلتأت اليه واثقة ثقة عمياء من أنه سيفعل كل ما فى وسعه لمساعدتها •

وينصرف اللورد جورنج وتعجب الليدى تشيلترن لكلامه هذا فهى ما رأت اللورد جورنج الا هازلا فى حديثه وهو يكلمها الآن فى جد غريب • وبعد حين قليل تأتى تشيفلى فتنزعج الليدى تشيلترن لهذه الزيارة البغيضة • وتعلم منها أنها جاءت لتسأل عن حليتها التى فقدتها ليلة الأمس وهى البروش الماسى ، فهى لا تعرف ان كان قد سقط منها فى حفلة الأمس أم فى دار الأوبرا ، فتسأل ربة الدار خدمها عنه ، فلا يعرف عنه أحد شيئا • وتعامل الليدى تشيلترن مسز تشيفلى معاملة جافة قائلة فى صراحة موجعة انها لم تكن تحب أن تراها فى دارها ليلة الأمس • فهى تعرف أنها

كانت معوجة السلوك فى الماضى ، وفى مذهبها آن من اعوج سلوكه مرة لم يستقم بعد ذلك فتسألها مسز تشيفلى متهكمة ان كانت تطبق نفس القاعدة على جميع الناس · فتجيب الليدى تشيلترن : « نعم على جميع الناس بلا استثناء » · وتقول مسز تشيفلى اذن فلتطبقن هذه القاعدة على زوجك ، ان مسز تشيفلى لا ترى فرقا بينها وبين السير روبرت فكلاهما من فصيلة واحدة ، وتغضب الليدى تشيلترن حين تسمع هذا الكلام ، وتأمرها بالخروج من دارها لأنها تدنسها فتقول مسز تشيفلى ان دارها هذه التى تتحدث عن طهارتها مشتراة بمال جمع من النصب والاحتيال · وأن أساس ثروة زوجها كان الاتجار فى أسرار مجلس الوزراء ·

ويلوح بباب الصالون السير روبرت تشيلترن نفسه وقد سمع كل ما دار بينهما من حديث ، ويرى وجه زوجته شاحبا كوجوه الموتى ، ويبصر مسز تشيفلى تشير اليه بالبنان وهى تقو ل: سليه ان كان يجرؤ الانكار · فيقول السير روبرت: «هيا انصرفى · انصرفى فورا· لقد فعلت أسوأ ما عندك»· فتجيبه : « ليس هذا أسوأ ما عندى · أنا لم أفرغ بعد منكما · انى أمهلكما الى ظهر الغد ، فاذا لم تنفذا ما أمرتكما به عرف العالم كله حقيقة روبرت تشيلترن ، ثم تنحنى فى أدب مسرف لليدى تشيلترن وتنصرف ·

ويواجه الزوج زوجته · ويعترف لها بكل شىء · ويحاول أن يهدىء من ثائرتها فتصرخ فيه : « اليك عنى ·· لا تمسنى ·· انك بنيت حياتك على الغش ·· على خراب الذمة » · يحاول السير روبرت أن يستعطفها · لتستمع اليه ولكنها فجعت فى أعز ما لديها هذا الرجل الذى أحبته حب العبادة لأنها رأت فيه المثل الكامل للنبل والأمانة والنقاء ·· ماذا بقى منه · لا شىء · لا شىء ! ويقول السير روبرت يائسا : هذا خطؤك ·· هذا خطأ كل النساء · ان المرأة تقيم زوجها كالصنم على قاعدة وتعبد فيه كمالا ليس من صفات البشر · ان البشر ، رجالا ونساء ، أقدامهم من صلصال ،

وضعفهم من ضعف الأرض التى يقفون عليها · ان من كان كاملا ليس بحاجة الى الحب ·· ليس بحاجة الى العطف · ان الحب الحقيقى يغفر كل الذنوب الا الخلو من الحب · ان اللحظة التى كان يخشاها قد جاءت · لقد كان يخشى ان يفقد حبها · انه رضى لها أن تحطم حياته ليلة الأمس حين أطاعها وكتب الرسالة الى مسز تشيفلى · وقد كان فى امكانها أن تنقذ مستقبله وتدفن ماضيه · كل ذلك فعله من أجلها · ان مسز تشيفلى وهى عدوته عرضت عليه أن يبدأ حياة جديدة كلها أمن واستقرار أما الآن فماذا بقى أمامه ؟ العار والفضيحة حتى الموت والانزواء فى ركن مهمل لا يخرج منه أبدا الى الضياء · أما زوجته التى يحبها حبا جنونيا فتقدمه قربانا على مذبح مبادئها · انها ··

ويخرج السير روبرت لا يلوى على شىء · وتسرع الليدى تشيلترن لتلحق به ولكنه يغلق الباب فى وجهها ·

وفى الليل ترى اللورد جورنج فى داره نحو الساعة العاشرة والنصف ينتظر · انه ينتظر الليدى جرترود تشيلترن التى بعثت اليه برسالة تقول فيها : « أنا بحاجة اليك · أنا أثق فيك · أنا قادمة لزيارتك · جرترود » · انه يعرف أن الليدى تشيلترن مبلبلة الخاطر وهى لا شك تستغيث به بهذه العبارات العصبية لينصحها بما ينبغى أن تفعل · وفيما هو ينتظر يزوره أبوه اللورد كافرشام فى هذه الساعة الغريبة ليذكره أنه بلغ الرابعة والثلاثين ولم يتزوج ، وليعيره كعادته بأنه عاطل لا نفع له فى الحياة وليبلغه بقراره النهائى وهو أنه يمهله أربعا وعشرين ساعة ليختار لنفسه زوجة من بين كل هؤلاء الآنسات اللواتى يعرفهن ·

ويختفى اللورد جورنج ليوصى خادمه بابلاغ كل زائر كائنا من كان بأنه غائب عن داره · انه ينتظر سيدة قد تصل فى أى وقت ، فليدخلها الخادم وليرجوها أن تنتظره حتى يفرغ من أبيه ثم يعود اللورد جورنج الى أبيه ويستمع الى

بقية حديثه فى تململ شديد، وأخيرا ينجح فى صرفه بلباقة• ويصحبه حتى باب الدار •

واذا بالسير روبرت تشيلترن قادم لزيارته • ولا يجد اللورد جورنج مناصا من استقباله بعد أن التقى به على عتبة البيت ، فيدخل به وهو فى ارتباك شديد لأنه ينتظر الليدى تشيلترن وهو يخشى أن يظن السير روبرت به الظنون اذا عرف بوجود الليدى تشيلترن تحت سقفه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل •

ولا تأتى الليدى تشيلترن ولكن تأتى مسز تشيفلى على غير موعد فيدخلها الخادم فى الغرفة المجاورة وهو يحس انها السيدة المنتظرة • وتذهب مسز تشيفلى تتصفح بريد اللورد جورنج فى فضول شديد لعلها تجد ما يستحق الوقوف عليه فلا تجد الا الفواتير وبطاقات الدعوة ولكنها تلمح أخيرا خطاب جرترود تشيلترن فتقرأه وتظن أنها وقفت على شىء ثمين وتحاول أن تسرقه ولكن الخادم يفاجئها فتعدل •

فى الغرفة المجاورة يحدث السير روبرت اللورد جورنج عن أشجانه • ان الليدى تشيلترن قد أطلعت على الحقيقه كلها • ان سفارة فيينا قد أجابت بأن مسز تشيفلى سيدة من خيرة سيدات المجتمع فى ذلك البلد ، فهو الآن لا يستطيع أن يقبض عليها بتهمة التجسس • ان حياته تنهار من حوله وبيته ، وما آهم عنده من حياته ينهار كذلك •

ويهدىء اللورد جورنج من روعه قائلا ان الليدى تشيلترن تحبه حبا صادقا وهى لا شك ستغفر له • ويقول السير روبرت انه فى طريقه الى مجلس العموم ليدلى ببيانه • ويهم بأن يروى على اللورد جورنج ما اعتزم ان يقول ، ولكنه يسمع حركة وكرسيا يسقط فى الغرفة المجاورة ويسأل اللورد جورنج ان كان هناك أحد فى الغرفة المجاورة يستطيع أن يسمع حديثهما فيؤكد له جورنج وهو مضطرب أن الغرفة خالية تماما • لكن الشك يستبد بالسير روبرت فيندفع الى الباب الفاصل ويفتحه رغم احتجاج اللورد

جورنج . وحين يقع بصره على مسز تشيفلى يثـور فى وجه جورنج ويتهمه بالتواطؤ مع خليلته مسز تشيفلى ، ويخرج غاضبا فى طريقه الى البرلمان .

وتدخل مسز تشيفلى على اللورد جورنج فيذهل لوجودها، ويقول : « أجئت لتبيعى لى خطاب السير روبرت تشيلترن ؟» فتجيب أنها جاءت لتعطيــه الخطاب بشرط فيقـول : وكـم تطلبين فيه ؟ فتجيب : يا لحماقتك من حماقة انجليزية ! ان الانجليز يحسبون أن دفتر الشـيكات يحـل كل المشاكل . والحقيقة أن مسز تشيفلى حين رآته فى الحفل استيقظ حبها له ، وهى الآن على استعداد لرد الخطاب له ان هو رضى بأن يتزوجها . انها سئمت الحيـاة فى الخـارج وهى تريد آن تستقر فى لندن . وتذكره بخطبتهما السابقة فيقول ان هذه صفحة طواها محاميه لما دفع لها ما طلبت من مال لفسخ الخطبة بعد ان ضبطها اللورد جـورنج فى وضـع مريب من لورد مورتليكك العجوز . فتؤكد له أنها كانت تحبه حقا وأنهـا لا تزال تحبه . انها الآن غنية وهو الآن فقير . وهى تعلم أنه كان يحبها حبا صـادقا ، فهنـاك اذن آمل فى آن ينجح زواجهما . ويقول اللورد جورنج انه كان ليغفر لهـا كل شىء الا قسوتها الوحشية مع الليـدى تشيلترن ، فما كان ينبغى أن تزورها هذا الصباح لتطلعها على قصة زوجهـا ، ولكن زارتها لتسأل عن البروش الماسى الذى ضاع منها وهى لم تقل ما قالت الا دفاعا عن نفسها بعد آن أوسعتها الليدى تشيلترن اهانة وتجريحا .

ويسألها اللورد جورنج عن البروش الماسى ان كان فى صورة حية وكانت به ياقوتة حمراء فتجيب بالايجاب ، وهنا تلمع عيناه فرحا ، ويخرج البروش فتتعرف عليه . وتطلب من اللورد جورنج أن يساعدها فيثبته حول عنقها ، ولـكن اللورد جورنج يثبته حول ذراعها ، فتقول انها لم تكن تعلم أنه صنع ليلبس سوارا كذلك فيقـول : طبعـا طبعا لأنك سرقته من ابنة عمى ، الليدى بركشاير ، فقد أهديته لها منذ

عشر سنوات . وقد عرفتـه حين رأيتـه في الليلة الماضية وانتظرت أن يظهر اللص ويطالب به بنفسه .

وتقول مسز تشيفلى أنها ستنكر انها تعرف عنه شيئا ، وتحاول أن تنزع البروش من ذراعها لتتخلص منه ولكنهـا لا تستطيع ، فقد كان فيه لولب خفى لا تعرف مكانه .

ويهدد اللورد جورنج مسز تشيفلى بابلاغ البـوليس ، فيشحب لونها وتكاد أن تنهار . انها تحتمل أى شيء الا هذا. ويطلب اللورد جورنج منها خطاب السير روبرت تشيلترن فتسلمه اياه ، وبعد أن يحرقه يتنهد تنهد المستـريح ويخلى سبيلها .

وفى صباح اليوم التالى نرى السير روبرت تشيلترن فى داره ساهما كأنه رجل فى انتظار جلاده . وتقرأ عليه صحف الصباح فاذا هى تمجد بيانه العظيم الذى فضح فيه البرلمان البريطانى أكبر عملية من عمليات النصب ظهرت فى بورصة أوربا ، وهى شركة قنـال الأرجنتين . وما من صـحيفة الا وتنوه بنزاهته النادرة وماضيه الناصع ومستقبله العظيم فى مدارج السياسة .

ولكن الشحوب لا يزول عنه حتى يأتيه اللورد جـورنج يروى عليه قصة الخطاب الذى أحرقه ويطلب اليه ان يادن له بالزواج من أخته الآنسة مايل تشيلترن التى رضيت به زوجا .

وبعـد قليل يأتى الايرل كافرشـام برسالة من رئيس الوزراء يعـرض عـلى السير روبرت تشيلترن مقعـدا فى الوزارة .

ويعتذر السير روبرت عن قبول المنصب ، فقد بقى فى حياته شيء واحد لم يصف بعد : هو غضب زوجته عليه . انه سيعتزل السياسة وينزوى فى ركن مهمل من الريف حتى تغفر له زوجته . ولكن الليـدى تشيلترن تقبله قائلة انهـا قد

غفرت له زلته ، وأنها تعلم الآن أن انزواء رجل مثله عاش للسلطة وللخدمة العامة هو بمثابة حكم عليه بالاعدام ، وأنه وحده كفيل بقتل حبه لها ٠

وهكذا يحمل السير روبرت حافظة أوراقه ويمضى الى ١٠ داونتج ستريت ٠

قيصر وكليوبترة

لجورج برناردشو

ألف الكتاب والشعراء آن يتناولوا فى آدبهم قصة غرام أنطونيوس وكليوباترة ، ذلك الغرام الذى حدثتنا به صحائف التاريخ فى أطناب كأنها تحدثنا عن معركة فاصلة هائلة بين مصر وروما فى العالم القديم أو عن حرب ضروس سجال مسرحها القلوب قبل أن يكون مسرحها ميادين القتال ٠ وذهب الكتاب والشعراء مذاهب شتى فى تفسير هذه القصة الغنية بالمعانى رغم أن أكثر وقائعها ثابت ومعروف كما ذهبوا مذاهب شتى فى رسم شخصيات آبطالها ذلك لأن الخيال رمى بغلالته السحرية على قصة هذا الغرام الفاجع الخالد فحجب حقائقها عن عيون المؤرخين وكتاب السير والشعراء ٠

وما حقائق هذه القصة ؟ لا آكثر من آن بطل روما العظيم مارك أنطونيوس فتن بجمال كليوبترة ملكة مصر وأحبها حبا ملك عليه قلبه وجنانه فترك واجبات القائد ومسئوليات الحاكم ونسى ولاءه لوطنه روما وآقام عند قدمى كليوبترة عبدا معمودا يتمرغ فى الشهوات ، حتى جرد عليه نده وصنوه أوكتافيوس من روما حملة ليؤدبه ، وبعد حرب ضروس قيل ان الخيانة لعبت فيها دورا فتمزقت قوات البطل العاشق وفل سيفه ولكن سيف أنطونيوس المفلول فى الحرب

كان مشحوذا فى صدره ، فقد كان من عادة الأبطال فى ذلك الزمان أن يفروا من عار الأسر بشرف الانتحار وحين سقط انطونيــوس صريعــا تبعتــه حبيبته كليــوبترة فضمت الى صدرها حية رقطاء ، وماتت مســمومة وهى جالســة عــلى عرشها فى حلة الملك ، قيل حزنا على حبيبها ، وقيل خشية أن يأسرها الرومان ويعرضوها على رعاع القوم فى شوارع روما كما ألفوا أن يفعلوا بمن يسبون فى الحرب • وأيا كان السر فى مصرع كليوبترة ، فقد ادت للحب فريضته وأدت للوطن فريضته فللعشاق فيها نصيب وللمجــاهدين فيهــا نصيب •

كذلك حار الناس فى تحليل شــخصية كليوبترة أثنــاء حياتها الصاخبة ، فمنهم من قال انها مجرد امرأة شهوانيــة ساقطة ــ خائنة ــ تعاشر كل من بيده السلطان ، وقد عرفت يوليوس قيصر قبل أن تعرف مارك أنطونيوس ، فلما هــوى انطونيوس سعت الى اكتافيوس لتوقعه فى حبائلها ولما يئست من الايقاع به ورأت السبيل الوحيد المفتوح أمامها هو سبيل العار حيث تساق فى عجلته الحربية بين رعاع روما وضعت حدا لحياتها • ومنهم من تصور فيها كشكسبير مثــلا أعــلى للأنوثة العاشقة ، مفترسة كالنمرة رقيقة كمياه الغدير وفية حتى الموت ، شماء كالملوك لا تنقصها ارادة ولا مكر ، وهــذا هو شكسبير • ومنهم من رأى فيها مثلا أعلى للوطنية المصرية ، تلعب بالقادة والملوك والأباطرة من أجل مصر ، وتفنى من أجل مصر ، وتخون من أجل مصر ، وتموت من أجل مصر ، وهذا هو شوقى •

●●

أما برناردشو فقد انصرف عن كل ذلك الى شىء جديد لم يسبقه اليه أحــد • انصرف عن قصة غرام أنطونيــوس وكليوبترة الى قصة أخرى ليس فيها غرام ، وهذه هى قصــة قيصر وكليوبترة التى كتبها للمسرح عام ١٨٩٨ •

وفي هذه « المسرحية » كما يسميها صاحبها يصور لنا برناردشو يوليوس قيصر عند قدومه الى مصر عام ٤٨ق٠م٠ بعد أن دانت له أوربا كلها وغدا سيد العالم ، وان لم يكن بعد سيد بلده ، فقد كان بومبى سيد روما وكان لابد لقيصر أن يزيله من طريقه حتى ينفرد بالسلطان ٠ ونشبت بين بومبى وقيصر حرب أهلية انتصر فيها بومبى اولا وفر قيصر الى بلاد اليونان حيث تعقبه بومبى ليدمره تدميرا ٠ ولكن المعجزة حدثت فى معركة فرساليا المشهورة حيث سحق يوليوس قيصر بفئة قليلة عالية المعنويات جيش بومبى الجرار القائم على السلب والنهب ، وبانتصار قيصر على بومبى انتصرت روما الجديدة على روما القديمة وأمكن للرومان أن يقيموا امبراطورية ثابتة الأركان فى ظل «السلام الرومانى» لا تصان بحد السيف ولكن بالقانون والشرائع والادارة . والطرق شاسعة الأطراف تمتد من المشرق واليونان الى اسبانيا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا التى خالها الناس فى العالم القديم عند حافة العالم ٠

وبعد معركة فرساليا فر بومبى الى مصر وقيصر فى أعقابه ، وما أن وطىء بومبى أرض مصر حتى اغتاله ضابط من بنى وطنه يدعى لوسيوس وحز رأسه ليقدمها هدية لقيصر ٠

وحين قدم قيصر الى مصر كان فى العقد السادس من عمره ، يخفى صلعه تحت اكليل الغار المشهور ، ويشكو من الروماتزم ٠ أما كليوبترة فكانت صبية فى السادسة عشرة من عمرها متوقدة الذكاء حادة الطباع آية فى الجمال ولكنها مع ذلك كانت صبية لها عقل طفلة كبيرة لم تحنكها تجارب الحياة ، تضربها مربيتها العجوز المتفانية فى خدمتها فترهب مربيتها ولا تعصى لها أمرا ٠

وكما كانت روما مسرحا للدسائس والحروب الأهلية ، كذلك كانت مصر مسرحا للدسائس والحروب الأهلية ، فقد كان فى مصر عرشان ، عرش كليوبترة وعرش أخيها الغلام

حوله بطانة زعيمها بوثينوس الوصى عليه ، وتستتر وراءه لحكم البلاد ٠

وحين يلغ قيصر شواطىء مصر بجيشه الصغير الذى لم يتجاوز أربعة آلاف محارب وجد الصبية الصغيرة كليوبترة فى ذعر منه شديد تجاوز ذعرها من مربيتها وقد ثبت فى روعها أن الرومان ذئاب تأكل البشر وأن قيصر أكبر ذئب من هذه الذئاب ٠ أما قيصر الذى هبط شواطىء مصر فكان قيصر الداهية الذى يشترى الناس بالكلام المعسول وبالذهب، قيصر الهادىء الذى تمرس فى سياسة الرجال وفى استخدامهم ٠ وقد تتلمذت على قيصر الطفلة الكبيرة أو هذه « القطة الصغيرة » ، كما كان قيصر يسميها حتى تعلمت منه فن الحكم واستراتيجية السياسة ، وغدت ملكة ترتب الأمور لحماية عرشها من أخيها بطليموس مستعينة بقيصر على ذلك ثم ترتب الأمور لتغرى قيصر بالجلاء عن مصر وترك مقاليد البلاد فى يدها ٠ وهنا يقف التاريخ حائرا فى أمر كليوبترة لا يعرف أين تبدأ مطامعها الشخصية وأين يبدأ عملها فى سبيل البلاد ٠

أما حركة المقاومة الوطنية فقد تجمعت حول بوثينوس الوصى على بطليموس الصغير وقائد جيشه الجرار أخيلاس ٠ لذلك لم يستطع قيصر أن يحتل من البلاد الا القصر الملكى فى الاسكندرية الواقع أمام الفنار وما حوله من شاطىء صغير ليحفظ لنفسه خط الرجعة ٠ وهنا أيضا يقف التاريخ حائرا فى حركة بوثينوس التى اختلط فيها الكفاح الوطنى بالكفاح من أجل السلطة ٠

●

وتبتسم آلهة مصر ساخرة من هذا الوافد الجديد الذى يسمونه قيصر ، فكم من وافد جاء ومضى والوادى المقدس لم يفقد شيئا من قداسته ٠ ويظهر كبير الآلهة رع رب الشمس

فى زى المألوف فرأسه رأس صقر ويلقى على النظارة الانجليز فى القرن العشرين درسا بصوت جليل رهيب :
« صمتا .. أنا لا أسألكم ان تعبدونى ولكنى أمركم بالصمت. فليصمت منكم الرجال ولتكف نساؤكم عن السعال . فقد جئت لأعود بكم الى الوراء ألفى عام وأتخطى بكم قبور ستين جيلا . فيا أيها الخلف البائس ، لا تحسبوا أنكم مبدأ الخليقة . فغيركم من الحمقى قد رأى الشمس قبلكم تشرق ثم تغرب ورأى القمر يتنقل بين أبراجه العديدة وكما كانوا كذلك تكونون ، وان لم تبلغوا شيئا من مجدهم القديم ، فالأهرام التى بناها شعبى لا تزال قائمة حتى اليوم ، بينما تتناثر فى الرياح أكداس التراب التى تشقون بها وتسمونها امبراطوريات تتناثر وما زلتم تكدسون أجداث الموتى من بنيكم ليزداد بها التراب .

« اصغوا الى أذن ، يا من تتعلمون تعليما الزاميا ! اعلموا أنه كما أن هناك انجلترا قديمة وانجلترا جديدة ! وأنتم تقفون بينهما حائرين ، كذلك كانت هناك أيام كنت أعبد ، روما قديمة وروما جديدة ، ووقف الناس بينهما حائرين . وكانت روما القديمة فقيرة وصغيرة وجشعة ومفترسة وشريرة فى كثير من أعمالها ، لكن لان تفكيرها كان صغيرا ولأن عملها كان بسيطا ، فقد كانت تتقن تفكيرها وتؤدى عملها . وعطفت عليها الآلهة وأعانتها وقوتها وحمتها ، لأن الآلهة صبورة مع التافهين ثم طمعت روما القديمة فى رضا الآلهة كما يطمع الشحاذ اذا امتطى جوادا ، وقالت : « أنظرى أيتها الآلهة ! ليس فى تفاهتنا ثراء و لامجد : انما طريق الثراء والمجد هو نهب الفقراء وذبح الضعفاء » . وهكذا نهب أهل روما فقراءهم حتى صاروا أساتذة ضالعين فى هذا الفن ، وعرفوا القوانين التى تلبس النهب ثوب الأمانة والاستقامة . وحين عصروا فقراءهم حتى غدوا جلدا على عظم ، نهبوا فقراء البلاد الأخرى ، وضموا تلك البلاد الى روما حتى خرجت من ذلك روما جديدة ، ثرية وشامخة . وأنا رع ، ضحكت من كل ذلك ، لأن عقول

الرومان ظلت في حجمها السابق بينما ترامت أملاكهم الى أطراف الأرض ٠

هذه هي روما القديمة التي كان يمثلها بومبي ، وضاقت الآلهة ببومبي وسئمت حروبه ، وكرهت كبرياءه فقد كان يتحدث كأنه اله ، فابتسمت لصديقه يوليوس قيصر ، لأن بومبي كان يمشي بالسيف في طريق الموت اما الالهة فهي تمشي في طريق الحياة ٠ ويستأنف رع خطابه قائلا :

« وكان قيصر هذا محدثا بارعا وسياسيا كان يشترى الناس بالكلام وبالذهب ، كما تشترون أنتم الان تماما ، وحين لم يقنع الناس بالكلام وبالذهب وطالبوا بامجاد الحرب كذلك ، التفت قيصر وهو في منتصف العمر الى هذه الصناعة ، وحين غدا قاتلا وغازيا ، انحنى أمامه من كانوا يناهضونه وهو يسعى لخيرهم فهذه جبلتكم يا أبناء الفناء » ٠

وكان قيصر رمزا لروما الجديدة ٠

ونشب الصراع بين بومبي وقيصر ٠ وبعد أن فر بومبي من فرساليا الى مصر وفي أعقابه قيصر ، صاح المصريون : « انظروا ان هناك روما وروما ! روما بومبي وروما قيصر! فلأيهما نتظاهر بالولاء » ؟ في حيرتهم سألوا جنديا رومانيا يقيم بينهم قائلين ٠ « انظر ! في بلادك كلب يأكل كلبا ، والكلبان قادمان ليأكلانا ، فمباذا تنصحنا » ؟ فأجاب الجندي : « تدبروا سريعا أي الكلبين أكبر من أخيه ، واقتلوا أصغرهما تنالوا الحظوة عند الآخر » ٠ قال المصريون : « رأيك سديد ، ولكن اذا قتلنا رجلا بغير ما يحكم الشرع أقمنا انفسنا مكان الآلهة ، وهذا مالا نجسر على فعله ٠ أما وأنت روماني ، فقد ألفت هذا النوع من القتل لأن فيك خصالا امبراطورية ٠ فهلا قتلت الكلب الأصغر من أجلنا » ؟

هكذا يقتل سبتميوس لوسيوس صديقه وولى نعمته

بومبى حين تطأ قدماه شاطىء مصر ويتقاضى على خيانته هذه جزاءه من المصريين ذهبا ونفوذا •

هذا هو الدرس الذى يلقيه رع على جمهور من النظارة الانجليز قبل أن تبدأ المسرحية حتى لا يغتروا كما اغتر من قبلهم الرومان •

يصل قيصر الى بلدة على الحدود المصرية السورية حيث تقيم كليوبترة مع مربيتها وبلاطها ورجالها ، ذلك لأن أخاها الصغير بطليموس ورجاله يحتلون القصر الملكى فى الاسكندرية عاصمة مصر يومئذ •

وتخرج كليوبترة الصغيرة لمناجاة تمثال لأبى الهول اقيم هنالك الى جوار قصرها فالأيام عصيبة تتقارع فيها السيوف والعدو الرومانى على الأبواب أو لعله اقتحم الأبواب ، والليلة قمراء ، وأبو الهول صامت فوق الرمال تقدم له كليوبترة القرابين لعله يوحى اليه بشىء • ولكن كليوبترة ليست وحدها فى المناجاة ، فهناك رجل عجوز يقف خاشعا عند قدمى أبى الهول وقد سحرته أسرار مصر القديمة ولعله جاء ليحل لغز أبى الهول • انه يوليوس قيصر الذى يناجى أبا الهول قائلا : « يا أبا الهول ! انما نحن غريبان عن هذه الحياة ، ولكن كلا منا ليس غريبا على صاحبه ••• ان سبيلى اليك هو سبيل القدر ، فما أنت الا رمز لعبقريتى فبعضى حيوان وبعضى امرأة وبعضى اله وما بى من الرجال كثير أو قليل • فهل قرأت لغزك يا أبا الهول » ؟

وتحس كليوبترة الصغيرة بوجوده ، ويعرفها ولا تعرفه • فتذهب تحذره من قيصر ومن الرومان ، فقيصر كما سمعت أبوه نمر وأمه بركان والرومان كما تعلم برابرة يأكلون البشر • ولهذا فهى تختبىء حتى لا يعثر عليها قيصر • ولكن « السيد العجوز » كما تسميه يهدىء روعها ، ويذكرها أن ملكة مصر ينبغى أن تستقبل قيصر وهى جالسة على عرشها فى مهابة وشجاعة •

وتسمع كليوبترة بمعر الجند القادمين فتسرع الى قصرها لتحتمى به ولتحمى « السيد العجوز » • وفى غرفة العرش يلاحظ « السيد العجوز » أن مربية كليوبترة ، واسمها فتاتيتا، تغلظ لها القول وتأمرها وتنهاها بل وتوشك أن تضربها كأنها لا تزال طفلة فى السادسة • فيعلم « السيد العجوز » كليوبترة أن تكون سيدة قصرها ، فيجلسها على عرشها ويأمر فتاتيتا أن تركع أمام مولاتها مهددا بحز عنقها، فتصدع المربية بالأمر وهى ترتعد فرقا ، فتتشجع كليوبترة وتنهال ضربا على عبيدها لتتأكد من استرداد سيادتها بين خدمها • ويأتونها بعباءة الملك وبالتاج لتستقبل بهما قيصر فتلبسهما بين مصدقة ومكذبة ، تقوى شجاعتها حينا وتخور قواها حينا •

وتعلو أبواق الرومان ويقتحم الجند أبواب القصر ثم يقتحمون غرفة العرش ، واذا بهم يهتفون للسيد العجوز قائلين : « السلام على قيصر » ، فتحملق كليوبترة فى السيد العجوز ثم تدرك حقيقة الموقف فتتنفس الصعداء وترتمى فى أحضانه •

وفى الاسكندرية ندخل القصر الملكى فاذا بطليموس الصغير يجلس على عرشه ومن حوله رجال بلاطه وأهمهم بوثينوس الوصى على بطليموس • وهو فى الخمسين وتيودوتوس العجوز مؤدبه وأخيلاس قائد جيشه وهو فى الخامسة والثلاثين •

ومن عرشه يعلن الصبى ما لقنه اياه بوثينوس من أن أخته الخائنة كليوبترة تحتمى فى الأجنبى يوليوس قيصر ليثبت عرشها الزائف « وأنه لن يسمح لأجنبى أن يغتصب منه عرش مصر » • ويعلن أخيلاس أن قوة قيصر تافهة لا تتجاوز ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة •

وفيما هم يتداولون يدخل عليهم يوليوس قيصر يتقدمه ياوره روفيو وفى معيته سكرتيره برتيانوس وهو رجل بريطانى استخدمه قيصر منذ أن غزا بريطانيا • ويتضح

أن الرومان قد استولوا على القصر الملكى والشاطىء الذى يشرف عليه القصر ، وأنهم يحاصرون الملك وأتباعه .

ولا يضيع قيصر وقتا فيصل الى بيت القصيد : انه يطلب جزية ، وهو لا ينتظر المشاورات والمداولات فقد أمر جنوده أن يقوموا بجمع الضرائب المتأخرة من الاهالى ، ثم انه يعرض وساطة لحل الخلاف القائم على عرش مصر بين بطليموس وكليوبترة ، وها هى ذى كليوبترة قد جاءت معه من سوريا . وتواجه كليوبترة أخاها وزوجها بطليموس الغلام فى شجاعة تامة ، فقد تبدلت حالها منذ أن علمها قيصر أن الملكة لا تعرف بخوفها ولكن تعرف « بكبريائها وشجاعتها وجلالها وجمالها » . أما قيصر فيرى أن اشكال العرش لا اشكال فيه ، فلما كانت كليوبترة ليست مجرد اخت بطليموس ولكن زوجته كذلك ، فمن الطبيعى أن يجلسا على عرش مصر معا بوصفه ملك مصر وبوصفها ملكة مصر .

ولكن هذا الحل لا يرضى بوثينوس فيصيح فى قيصر قائلا : « ان المال الذى تطلب هو ثمن حريتنا فخذ مالك واتركنا نسوى أمورنا بأنفسنا » . ويؤيده فى ذلك رجال البلاط فيهتفون : « نعم ، نعم ، مصر للمصريين » . ويشتط روفيو الرومانى فينبه البلاط الى أن مصر تابعة لروما منذ أن نزلها القائد جابنيوس منذ سنوات وأجلس فيها بطليموس الصغير نفسه ، فيهزأ أخيلاس قائد الجيش بقوة قيصر ويتوعدهم بالطرد من البلاد بما وراءه من جند كثير، ويأمرهم بمغادرة مصر بلا جزية قبل أن يفتك بهم ، ويهتف رجال البلاط ثائرين ويتجمهرون من حول قيصر صائحين : « انصرف . انصرف . مصر للمصريين » . ويهم بوثينوس وأخيلاس بالقاء القبض على قيصر وكليوبترة وهنا يتدفق عسكر الرومان من كل ردهة رابطوا فيها الى قاعة العرش . فيدرك بلاط بطليموس أن القصر قد سقط فى يد قيصر ورجاله وأنهم أسرى قيصر ، أو « ضيوفه » كما يقول قيصر نفسه .

وتطلب كليوبترة الى قيصر أن يحز أعناقهم ولا سيما عنق أخيها فيجيبها أخوها بأنه سيحز عنقها حين يكبر ويشتد عوده ولا تدرى كليوبترة فى هذه المهاترة الصبيانية أتخرج لأخيها لسانها أم تحتفظ بوقارها كملكة . أما قيصر الذى لم يفقد من هدوئه شيئا ، فهو يقول لرجال البلاط ان فى وسعهم الانصراف اذا شاءوا ، فهم فى أمان أعظم خارج القصر حيث أصدقاؤهم منهم فى داخله .

ويحتج الوصى بوثينوس على العدالة الرومانية المزعومة، ويحتج المربى ثيودوتوس على الجحود الرومانى ، فقيصر وهو مدين بحياته للمصريين لا يحترم حقوقهم . فلولا المصريون الذين اشتروا ذمة لوسيوس لاغتيال بومبى لتعرض قيصر لخطر وبيل . بل ان ثيودوتوس يدعو لوسيوس للشهادة حتى يعرف أن المصريين ليسوا من أعدائه بل من أصدقائه فيعود قافلا الى بلادهم وهو يحمل لهم وفاء الصديق .

وحين يستمع قيصر من لوسيوس قصة اغتياله لبومبى أمام زوجه وعياله يصطنع الغضب على هذا القاتل الغادر ويذرف على بومبى دموع التماسيح ويقول : «ألم يكن بومبى زوج ابنتى وصديق الأيام الخوالى وسيد روما عشرين عاما كاملة والقائد المظفر ثلاثين عاما متصلة ؟ أو لم أشاركه أمجاده كرومانى ؟ وهل كنا الا أدوات فى يد القدر الذى ساقنا لنقاتل فى سبيل ملك العالمين ؟ آأنا يوليوس قيصر أم ذئب حتى تقذفوا الى برأس هذا الجندى القديم الذى وخطه المشيب ، هذا الفاتح المتوج بالغار ، هذا الرومانى الجبار ، وقد حزته ضربة من أفاق خائن بلا ضمير ثم تطلبون منى أن أعترف بهذا الصنيع « مخاطبا لوسيوس سيتيموس » هيا ، أغرب عن وجهى ! انك تجعلنى أقشعر اشمئزازا » !

ولكن لوسيوس لا يخونه لسانه ، فهو يذكر قيصر فى وقاحة بجرائمه النكراء فى حرب الغال « فرنسا » أيام فصمت بأمره آلاف الرءوس الغالية عن أبدانها وقطعت آلاف الأيدى ، وخنق قائد الغالبين الباسل فرسنتوريكس غدرا فى

أقباء الكابيتول بروما . كل ذلك باسم الحزم و « القوة الحكيمة » وباسم « حماية الدولة » وباسم « الواجب السياسى » .

وهنا يصطنع قيصر الأسف على تسرعه فى الحكم على لوسيوس ويقول معتذرا : « أطلب عفوك يا لوسيوس : فكيف يعنف قاتل فرسنتوريكس قاتل بومبى ؟ امض فأنت حر كالآخرين . أو ابق معى ان شئت فسأجد لك مكانا فى خدمتى » . ولكن لوسيوس ينصرف مع الآخرين لأنه يعتقد أن نجم قيصر يأفل فى روما الجمهورية .

ولا يبقى فى القصر الملكى الا كليوبترة ومعها قيصر ورجاله . ويأتى النبأ بأن الجماهير فى المدينة هائجة تقتل جنود الرومان ، وأن القصر يوشك أن يحاصر . فيأمر رجاله بأن يحرقوا مراكب قيصر الراسية فى الميناء الغربى ، وأن يحتشدوا على الشاطىء خلف القصر بجوار زوارقهم استعدادا للانسحاب من الميناء الشرقية والاعتصام بالفنار . وهنا يعود بوثينوس ليسلم قيصر انذار المصريين الذين احتل جيشهم الاسكندرية وقوته مائة مصرى لكل رومانى ، ولم يبق الا أن يستسلم قيصر . ولكن قيصر لا يستسلم بل يأمر بأسره .

ايتدخل المربى ثيودوتوس صائحا مستنجدا فقد أضرم المصريون النار فى سفن الرومان قبل أن يحرقها الرومان أنفسهم وفى غمرة المقاومة امتدت النيران الى مكتبة الاسكندرية المشهورة ، وها هى ذى توشك أن تلتهمها . ويناشد ثيودوتوس بوثينوس وقيصر أن يتعاون الجند على اطفاء النار .

أما ثيودوتوس فيقول انه أسير لا حول له ولا قوة ، وأما قيصر فيسخر منه .

ثيودوتوس : هذا كل ما هنالك ! أترضى يا قيصر أن أن يعرف الخلف عنك أنك جندى همجى أجهل من أن يعرف قيمة الكتب ؟

قيصر : اسمع يا ثيودوتوس • آنا نفسى مؤلف ولـكن خـذها عنى أنه خـير للمصريين أن يحيـوا حياتهـم من آن يبددوها فى الأحلام بمعونة الكتب •

ويصرف قيصر ثيودوتوس الى حيث جاء « لينقذ ذاكرة البشرية » أى مكتبة الاسكندرية • بل ويخلى سبيل بوثينوس كذلك فقيصر ثعلب ماكر يتظاهر بالرحمـة والتسـامح ، ولكنه يقول لياوره روفيو ان كل أسير مصرى يكلف الرومان جنديين ليحرساه !

وفيما يستعد قيصر للابحار برجاله الى الفنار وهم فى خوف شديد من قوة المصريين يبصرون شيئا عجبا • يبصرون الجيش المصرى ، وقد حمل كل جندى سطلا . قد انصرف عن القتال الى غرف الماء من الميناء لاطفاء الحريق فى مكتبـة الاسكندرية •

ويفهم الياور روفيو عندئذ أن هذا الثعلب الماكر ما أخلى سبيل بوثينوس وثيودوتوس ألا ليشغل الجيش المصرى عنه حتى يبلغ الفنار ، وقد بلغه ، وكليوبترة ترقبه من نوافذ القصر الملكى راجية له أن يعود •

●●●

ويأتى الى القصر الملكى نبيل من نبلاء الاسكندرية محب لكليوبترة يدعى أبولودور ومعـه طائفة منتقاة من أفخـر الأبسطة لأن الملكة كليوبترة تريد آن تقـدم منها الى قيصر هدية حيث يعسكر فى الفنار • ويأبى رجال الحاميـة التى تركها قيصر لتدافع عن القصر وعن كليوبترة آن تأذن للملكة بمغادرة القصر والابحار الى الفنار فقد كانت هذه أوامر قيصر المشددة •

ان كليوبترة تعيش وحدها مع مربيتها ووصيفاتها فى القصر الملكى بعيدة عن قيصر الذى اتخذت منه درعها الواقى من بطش أخيهـا بطليموس ورجاله ، وهى تعلـم آن جيش أخيلاس لو حطم الاستحكامات ونفذ فى القصر لقضى عليها •

وتحتال كليوبترة للخروج من القصر بحيلة ماكرة ، فهى تجعل وصيفاتها يلففنها فى بساط فاخر من أبسطة أبولودور بعد أن تأمر أبولودور أن يحمل هذا البساط هدية منها الى قيصر فى الفنار ٠ وهكذا يبحر آبو لودور فى زورق صغير الى الفنار ٠

وما أن يبسط البساط وتخرج كليوبترة من طياته حتى يمتعض امتعاضا شديدا ، ولكنه يخفى امتعاضه ويؤنبها برفق على هذه المجازفة ٠ ان الوقت ينذر بالأخطار ، وهو يرى الجيش المصرى يخترق متاريس الشاطىء شيئا فشيئا ولو تم استيلاؤه على بقية الشاطىء لعزل قيصر ورجاله فى الفنار ٠ ان رجاله فى القصر الملكى بحاجة الى قيادته فهو مسئول عن كل جندى منهم وأنه لعائد الى القصر لفوره سابحا الى سفن من رودس تحمله ورجاله الى الشاطىء قبل أن يفوت الأوان ٠

ترى ماذا يفعل بكليوبترة وهى لا تعرف العوم ؟ انها لا تريد أن تبقى وحدها فى الفنار مع برتيانوس الذى سيتخلف حتى يعود قيصر لانقاذه ان قدر له ذلك ٠

وهكذا يقذف قيصر بنفسه فى الماء ومعه رجاله وأبو لودور ، ويسبح بهم الى سفن رودس حاملا كليوبترة على ظهره وتحملهم السفن الى الشاطىء فى الوقت المناسب ، وهكذا نعود من جديد الى القصر الملكى ٠

●●●

ويستقر الموقف العسكرى على هذا الوضع ستة شهور ، فالجيش المصرى مسيطر على المدينة وقيصر ورجاله مسيطرون على القصر الملكى حيث تقيم كليوبترة ووصيفتها فتاتاتيتا الوفية التى تشبه نمرة روضتها مولاتها ، ومعها الوصيفتان شرميان وايراس وبقية الأتباع ٠ حصار طويل لا ينجح ولا يفك ٠

وذات يوم يستأذن بوثينوس فى لقــاء كليوبترة فتأذن له ، ان معه مشروعا خطيرا ، ولكنه ما أن يتحدث الى كليوبترة حتى يدرك أنها لم تعد تلك البنت الساذجة التى كان يعرفها فى الماضى • انها لم تعد سعيدة كما كانت سعادة الخلى الذى لا يلقى بالا الى شىء • انها تتحدث عن واجبات الملك ، وعن عمة الملك ، وعن سياسة الرعية ، ستة أشهر عاشرت فيهــا كليوبترة قيصر فنضج فيها عقلها بمقدار عشر ســنوات • وها هى ذى تقول انها ستكون أهلا لحكم مصر بعد أن يرحل قيصر عنها ، وتعود الى هذا الموضوع جملة مرات •

ويحدثها بوثينوس عن المقاومة ، فتسخر منه كليوبترة • ان قيصر قد شل الحصار بفيلقين ، وقريبا يصله المدد حين يخف متريدات الى نجــدته • ان بوثينوس لا يفهم حقيقــة الموقف أما هى فتفهمه • عما قريب ينتهى كل شىء ، ويرحل قيصر الى روما ويتركها تصرف وحدها شئون البلاد نائبــة عنه • وهنا يصيح بوثينوس قائلا : « فلتنزل لعنة آلهة مصر جميعا على رأسها ! لقد باعت بلادها للرومانى لتشتريها منه بالقبلات » • ان قيصر نفسه قد غدا ألعوبة فى يدها ، وهى تستخدمه لتنفرد بحــكم البــلاد ، والأبله المفتون بجمالهــا لا يعلم أنه قد غدا مخلب قط تســتخدمه لاقصــاء أخيهــا بطليموس • نعم ، ان كليوبترة تعلمت من هــذا الرومانى فنون الحكم وبزته فيها ، وهى الآن تسخره لمآربها •

ويفضح بوثينوس خطتها أمام قيصر انها تعدالأيام حتى يرحل قيصر الى روما فعندئذ تنفرد بالسلطان وتسحق حزب بطليموس ولن يكون المصريون وحدهم من الخاسرين •

وتثور كليوبترة حين تســمع هــذا الاتهام ، ويضطرب قيصر ولكنــه يخفى اضطرابه • انه لا يريد ان يكون اداة لأحد وهو الذى يستخدم الجميع أدوات له • ان قيصر عــلى استعداد لتسوية كل الأمور بما يطمئن أنصار بطليموس •

وينتحى قيصر ببوثينوس مكانا قصيا ليجادله فى هذه الأمور • وحين تختلى كليوبترة بمربيتها فتاتاتيتا تقول ان

بوثينوس لا ينبغي أن يخرج من القصر حيا ، وهكذا تنصرف فتاتاتيتا ٠

ويعود قيصر الى كليوبترة فيجد أن المائدة قد مدت وعليها من الأطايب ما أطنب في وصفه المؤرخون ٠ وفيما هم يأكلون ويشربون ويسمرون ويحلمون بكشف منابع النيل ترتفع صرخة مفجعة من بعيد ثم يسمع صوت جسم يسقط من حالق ويرتطم بالأرض ٠

ويسأل قيصر منزعجا عما جرى ، فتجيبه كليوبترة قائلة لعل جنوده قد قتلوا شخصا ما ٠ ويرتفع اليهم لغط جمع يتجمهر على الشاطىء ثم يعلو اللغط فيصير صخبا وضجيجا ٠ واذا بفتاتاتيتا تعود وهى فى اعياء شديد وتتجه نحو المحراب خلف ستار ــ وتجثو وتستغرق فى صلاة طويلة ٠ ويرتاب قيصر وروفيو فيما يجرى وتنكر كليوبترة أنها على علم بشىء ٠ وأخيرا يدخل لوسيوس ويعلن انه بوثينوس قد لقى حتفه بنصل متهما قيصر باغتياله ٠ ويتحول بصر قيصر الى كليوبترة فتنهض غاضبة وتصيح : « نعم ، لقد قتل بأمر من ملكة مصر ٠ فما أنا بقيصر الحالم الذى يأذن لكل عبد أن يهينه » ٠ ان بوثينوس قد جاءها ليتآمر على الفتك بقيصر ، فلما وجد منها اعراضا وشى بها عند قيصر ، وقد لقى منها جزاءه العادل ٠

ان كل من بالقاعة يجد أنها على حق فيما فعلت الا قيصر فهو يعلم أن قتل بوثينوس سيدلع ثورة فىالمدينة ٠ ويصرخ قيصر فى كليوبترة قائلا : فلتدافع ملكة مصر الآن عن نفسها مادامت قد تخلت عن قيصر ٠

ولكن قيصر يعود اليه هدوءه حين يعلم من لوسيوس أن جيش متريدات على الأبواب ٠

وينهض قيصر لمواجهة الموقف ٠ أما روفيو فيدرك كل ما حدث ويمر فى طريقه الى الخارج بالمحراب وراء الستار ٠ ويرتفع صوت الأبواق فى الخارج ٠ وتنادى كليوبترة

مربيتها صائحة : « فتاتاتيتا ! فتاتاتيتا » ! وحين لا يأتيها جواب تزيح ستار المحراب فترى مربيتها مذبوحة فى بركة من الدماء ٠

●●●

وهكذا انتهت أيام قيصر فى مصر ، وهو الآن يستعد للرحيل الى روما حيث تنتظره خناجر الجمهوريين أعداء القيصرية ٠ لقد غرق بطليموس ورجاله فى المعركة فلم يبق على عرش مصر الا كليوبترة ٠

ولكن قيصر لم يتركها مطلقة السلطان فى بلادها كما كانت تحلم ، بل ترك معها حاكما رومانيا هو ياوره روفيو ٠ لقد أدرك قيصر أن كليوبترة تعلمت عليه من فنون السياسة والحكم مالا ينبغى أن تعلم ٠

الانسان والسوبرمان

لجورج برناردشو

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، اهتزت أوربا لكتابات رجلين من أعظم رجال ذلك القرن هما العالم الانجليزى داروين صاحب نظرية التطور والفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه الذى توج سلسلة مؤلفاته المثيرة بكتابه « ارادة القوة » وبسط فكرته عن امكان ظهور مخلوق جديد على وجه الأرض هو الذى يسمى بالألمانية «الأوبرمان» وبالانجليزية « السوبرمان » وهو ما نسميه فى العربية « الانسان الكامل » أو « الانسان الأعلى » .

ولم تهتز أوربا لعلم داروين أو لفكر نيتشه وحدهما ، فقد كانت تلك الفترة من أخصب فترات التاريخ فى العلم والفكر ، ففيها بلور ماركس فلسفته الماركسية ، وفيها أيضا تبلور الفكر الفوضوى وانتشر ، وفيها ظهرت الفلسفات الاشتراكية الديمقراطية المختلفة وفى نهايتها ظهرت نظرية النسبية التى وضعها العلامة أينشتين فى أوائل القرن العشرين .

ولكن المحور الذى دار عليه الفكر الانسانى فى النصف الثانى من القرن ، التاسع عشر هو فكرة « التقدم » . وهى فكرة متفائلة تقوم على نظرية داروين فى تطور الأحياء من كائنات بسيطة ومتخلفة الى كائنات معقدة وراقية بلغت أعلى

مراحلها فى الوجود الانسانى ، مما فتح الباب أمام المفكرين من أصحاب الأحلام الكبيرة فى العلم والسياسة والاقتصاد الخ أو يستبشروا خيرا بمستقبل الانسان ويتصوروا ان الانسانيه فى رقى مطرد ، وأن سبيلها الى هذا الرقى المطرد هو «العلم» والسيطرة على الطبيعة • ففى عصر سخر البخار والكهرباء وعرف مبادىء العلوم الذرية واكتشف قوانين الوراثة واكتشف الميكروبات واخترع التليفون والتلغراف والفوتوغرافيا والفونوغراف وجعل الصناعة الآلية تحل محل الصناعة اليدوية بفضل سيطرته على الميكانيكا والديناميكا الخ •• سكر الناس بقوة العلم كما نسكر نحن اليوم بمعارفنا الذرية وبقذائفنا عابرة الأفلاك ، وكثر حديثهم عن السوبرمان أو الانسان الأعلى ، انسان الغد ، كيف يكون ومتى يظهر وماذا يفعل عند ظهوره ، وكيف يسود الطبيعة •

وفى ١٩١٠ ــ ١٩١٣ وضع الكاتب الساخر برنارد شو الكوميديا المشهورة « الانسان والسوبرمان » • ليشرح بها للناس رأيه فى الانسان الأعلى ويسخر بها من خرافاتهم • انهم يتحدثون عن الانسان « سيد الطبيعة » ، وهو يرى أن الانسان كان وسيكون دائما أبدا «أداة الطبيعة» • والانسان الأعلى فى نظره لن يكون ذلك الانسان الخارق الذكاء الذى نقرأ عنه فى قصص جول فيرن وهربرت جورج ويلز انه يخترع ما لم تره عين وما لم تسمع عنه أذن من اختراعات ، ولكنه سيكون الفيلسوف صاحب العقل المتأمل الذى تخلقه الطبيعة لتفهم به نفسها وتكشف به عن حقيقتها • وهو ليس فيلسوفا تائها فى بحار المجردات بل فيلسوف من طراز جديد خبر الحياة وذاق مرارتها فعرف حقيقتها وعرف مكانه منها •

الانسان الأعلى عند برناردشو هو باختصار : دون جوان! دون جوان العاشق الذى امتلأت بصباباته صحائف التاريخ وصحائف القصص وخدور العذارى ومخادع الزوجات ، فعرف المرأة على حقيقتها وعرف الرجل على حقيقته وأصاب

الحكمة كأنه سليمان الجديد ، ونصب نفسه مصلحا للانسانية يهتك عنها قناع النفاق ويبشر بانجيل ثورى جديد ٠

ولكن دون جوان برنارد شو يختلف عن دون جوان الذى جرت بذكره الأساطير ٠ فالأول انجليزى يعيش فى عصر الملكة فكتوريا والثانى اسبانى انطوى مع أمجاد الماضى البعيد٠ والأول اسمه جون تانر والثانى اسمه دون جوان دى تنوريو ٠

فنحن فى بيت من بيوت لندن الأنيقة حول سنة ١٩٠٠ وصاحب البيت سيد من أولئك السادة المسنين الذين يعدهم المجتمع الانجليزى المحافظ عمودا من أعمدته ، وهو السيد روبك رامسدن ٠ ولكن روبك رامسدن رغم أنه محافظ وفى الستين كان فى شبابه متحررا يؤمن بحرية التجارة وبنظرية التطور وهما أول امارات التقدمية فى ذلك الزمان٠ ورغم أن مرور نصف قرن تقريبا جعل معتقداته التقدمية معتقدات محافظة ، الا أنه مازال على اعتقاده بأن أفكاره فى مقدمة الأفكار التقدمية ٠

ويزوره شاب وسيم وهو أوكتافيوس روبنسون ليحدثه فى المصيبة الكبيرة التى حلت بموت عميد أسرته مستر هوايتفيلد ، الذى كفله وكفل أخته فيولّيت روبنسون ، ورباهما أحسن تربية وسبغ عليهما من حبه شيئا كثيرا فلم يفرق بينهما وبين بنتيه اللتين أنجبهما من صلبه ، وهما آن ورودا ٠ وقد كان الفقيد العزيز مستر هوايتفيلد صديقا حميما للسيد روبك رامسدن ٠ وهو الآن يعزى الشاب أوكتافيوس عن موته بأصدق كلمات العزاء ٠ والشاب أوكتافيوس يقول ان حزنه شديد لأن موت مستر هوايتفيلد المفاجىء لم يترك له فرصة التعبير عن وفائه له واعترافه بجميله بالقول أو بالعمل ٠ فيهدئه السيد روبك رامسدن بقوله ان روح الفقيد التى تحلق وترفرف على الأحياء

لا شك تعرف مدى اخلاصه العميق · ولكم سمع الفقيد فى أيام حياته أنه سعيد بأن أوكتافيوس ليس ابنه ، وانه ليسعده أن يأتى يوم يتزوج فيه أوكتافيوس من ابنته آن · ومستر روبك رامسدن يعرف أن آن بنت مطيعة تنفذ كل رغبات أبيها وأمها · وهو يسمعها دائما تقول « هذه ارادة أبى » · أو « أمى لا تريد هذا » · فلعل فى هذا بعض العزاء لأوكتافيوس الشاب ·

أما أوكتافيوس فهو غارق فى حب آن الى أذنيه · وهو قد ربى معها تحت سقف واحد ويعرف جميع خلالها وصفاتها ، فهى عنده المثل الأعلى للمرأة ، وهو يعيش بنظرة من عينها ، ويموت بنظرة من عينها · ولكن حبه لها حب شاعر ، فأوكتافيوس شاعر فنان ولا أمل له فى الحياة الا أن يكتب مسرحية عظيمة تكون آن بطلتها · وهو لا يحبها كما يحب الرجل المرأة من لحم ودم ، بل يقدسها كأنها ملاك من نور صاف لم تدنسه أدران الأرض · وهو لن يرضى بأن تتزوجه آن تنفيذا لمشيئة أبيها ، بل لابد أن تكون هى راضية به · ومهما كان رأيها فيه فهو لن يعدل عن حبها ولن يفاتح غيرها فى الزواج ·

ويقبل على دار مستر روبك رامسدن الشاب جون تانر صديق أكتافيوس منذ أيام الدراسة وموضع ثقة المرحوم مستر هوايتفيلد · ويغضب رامسدن لهذه الزيارة فهو يمقت هذا الشاب مقتا لا مزيد عليه لأنه شاب صاحب آراء خطرة هدامة يسميها آراء تقدمية ، وقد أصدر أخيرا كتابا بعنوان « دليل الثائر » بقلم جون تانر « ع · هـ أ · ك » · أى عضو هيئة الأثرياء الكسالى ، وهو فى هذا الكتاب يدعو لفلسفة جديدة يراها مستر رامسدن مجرد كوم من العفن والقاذورات · وهو يعجب كيف كان يسمح المرحوم ، مستر هوايتفيلد لهذا الشاب أن يتردد على بيته وأن يخالط ابنته آن فيعرض أفكارها وربما أخلاقها للتلف · ولكن مستر هوايتفيلد مات ، وأغلب الظن أنه ترك وصية يقيمه فيها

وصيا على بنتيه آن ورودا ، ومستر رامسدن سيضع حدا لتردد الشاب جون على آن ، وهو على كل حال يناشد أكتافيوس أن يساعده على ذلك حماية لآن .

وقبل أن يتمكن رامسدن من التخلص من جون تانر يعلم أنه جاء في صحبة مسز هوايتفيلد زوجة المرحوم ، والآنسة آن بنته ، والآنسة فيوليت روبنسون أخت الفتى أوكتافيوس أو « تافى » كما كانوا يلقبونه ، وقد صعدوا جميعا الى الطابق الأعلى حيث تقيم العانس العجوز الآنسة رامسدن أخت السيد العجوز رامسدن .

ولا يلبث جون تانر أن يدخل على رامسدن وتافى وهو فى اهتياج شديد يلوح بورقة فى يده ويصيح انه وقع فى فخ ولابد أن يخرج منه ، فالورقة صورة من وصية المرحوم هوايتفلد تقول انه عين وصيين لرعاية ابنتيه آن ورودا ، وهما رويك رامسدن وجون تانر . ويغضب رامسدن غضبا شديدا ، فهو لا يتصور أن يشترك مع هذا الشاب المخرب الوقح فى أى عمل من الأعمال . انه يتنحى عن الوصاية فهو لا يفهم كيف يسيء المرحوم الثقة به فيجعل له شريكا فى الوصاية على بنتيه . فيقول جون تانر ان المرحوم لا شك تأثر بمقاله : « فلتسقط حكومة الشيب » . التى أثبت فيها بالدليل القاطع أن انجلترا لن تسلم أبدا الا اذا اجتمع فى حكمها مكر الشيوخ وحيوية الشبان . وهو نفسه آسف على أن المرحوم أدخله فى هذا المأزق ، وهو أول من يريد الخروج منه .

ولكن كيف الخروج من هذا المأزق ؟ ان جون تانر جاء طول الطريق من متشموند الى بيت رامسدن فى ميدان بورتلاند مع آن وبقية أسرتها ، وكلما أراد أن يعتذر كانت آن تبكى وتقول : « طبعا ! أنا الآن بنت يتيمة ، فتخلوا عنى » . وتغمز من كانوا يترددون على بيت أبيها أثناء حياته ثم يهجرونه بعد موته .

ويقول رامسدن ان المرحوم هوايتفيلد لا شك لم يكن مالكا لقواه العقلية حين كتب الوصية ، والا لما عين جون تانر وصيا على ابنتيه • فيجيبه جون تانر قائلا : بل انه كان فى كامل عقله والدليل على ذلك أنه أوصى لرامسدن بألفين وخمسمائة جنيه مكافأة له على مشاق الوصاية وأوصى بخمسة آلاف جنيه لربيبه تافى ثم أوصى بدوطة لأخته فيوليت • اما جون تانر نفسه فلم يوص له المرحوم بشىء قائلا ان لديه من ماله الخاص ما يكفى لافساد أى انسان •

ويقترح تانر دعوة آن للاسترشاد برأيها ، فيعارض رامسدن قائلا انه مع احترامه لرغباتها فهى مجرد امرأة قليلة الاختبار ولا يعتد برأيها • فيجيبه جون تانر قائلا ان آن على عكس ما يظن بنت واسعة الحيلة اذا أرادت شيئا لم تطلبه بنفسها بل أوحت الى الغير أن ينصح بفعله ثم تظاهرت بأنها انما تنفذ رغبات أبيها أو أمها أو وصيها لتحمله المسئولية اذا ساءت العواقب •

وتجىء آن ، ويعلنها رامسدن بأنه لا يستطيع أن يتعاون مع جون تانر ، ويعلن تانر استعداده للتنحى ويرجوها أن تعفيه من هذا الواجب ، ولكن آن تتمسك به قائلة انه اذا كان أبوها العزيز قد اختاره فكيف تقصيه هى ؟ ويحتج رامسدن بأن تانر قد ارتكب فعلا فاضحا حين نشر كتابه « دليل الثائر » وهذا وحده يجرده من الأهلية للوصاية عليها • ويمسك الكتاب بيده ويلوح به، وتطلب آن أن تقرأه لتقف بنفسها على أفكاره الفاضحة ، ولكن رامسدن ينهاها بوصفه الوصى عليها عن قراءة القاذورات • ويقول تانر ان حقيقة الأمر أن أفكاره متقدمة على أفكار رامسدن ، وهذا هو سر عدم الانسجام بينهما • فتدافع آن عن رامسدن قائلة انه ليست فى الدنيا أفكار متقدمة على أفكاره فهو رجل عصرى يساير الزمن • وترتاح نفس رامسدن لهذا التملق • ولكن آن تتمسك فى الوقت نفسه بتانر تنفيذا لوصية أبيها •

وهكذا يقبل الرجلان هذا الوضع على مضض • وتنصرف

آن وأمها ورامسدن فينفرد جون تانر بأوكتافيوس أو تافي •
ويحذر تافي من آن فهي في رأيه تعد العدة لتلتهمه • انه يعد نفسه لأن يكون شاعرا فاذا لم يحتط للأمر فسيجد نفسه زوجا لآن لا زوجا لعرائس الشعر • ان الفنان الأصيل في رأيه لا يقع أبدا في مخالب امرأة ، أو يقبل آن تلتهمه في عرينها هذا الذى يسمونه بيت الزوجية • انه يفضل أن يترك زوجته تتضور جوعا وأن ينام أطفاله على الطوى وأن تعمل أمه وهى فى السبعين لتطعمه ، هو يفضل كل ذلك على الاشتغال بأى شيء يصرفه عن فنه • ان الفنان الأصيل يشرح النساء وهن أحياء ، وهو يمص دماءهن • وهو يخالطهن ليدرسهن ، ليهتك عن وجوههن قناع الأخلاق الزائفة التى يفرضها المجتمع عليهن ، ليتوغل فى سراديب أسرارهن •
وهن يذكين فيه ملكة الفن الخالقة وينتشلنه من دنيا العقل الباردة ، ويأتينه بالرؤى والأحلام • هذا هو ما يسمونه الالهام • والفنان يستخدم النساء أدوات راضية لالهامه •
فهن يحسبن أنهن يفترسنه وهو فى الحقيقة يفترسهن •
الفنان يسرق لبن الأم ويحيله الى مداد من مداد المطابع يلوث به المرأة التى يعرفها ويمجد به المرأة المثالية ! الفنان منذ بدء التاريخ أسوأ زوج فى الوجود ، انه منافق وغشاش وكذاب • ولكن كل هذا مستباح من أجل الفن الخالد الذى يعلم الانسان فلسفة الحياة ويجعل الانسانية تعرف نفسها •
الزواج عدو الفن • الأمومة عدوة الفن • المرأة عدوة الفن •
وأهم من هذا وذاك الحب عدو الفن • ان تافى يحب آن ، ولكن يجب عليه أن يختار بين فنه وحبه • ان كل حى من الأحياء هو ذاته يعمل لهدف تمليه عليه الطبيعة • ان المرأة أداة الطبيعة لخلق الحياة ، والفنان أداة الطبيعة لخلق حياة أسمى ، والمرأة تضحى بنفسها راضية لتقوم بوأيفتها الحيوية ، فكيف لا تضحى بالرجل فى سبيل هذه الغاية الخطيرة • انها تصطاده كالقنيصة ، انها تنصب له الشباك ، فان وقع فى الفخ الذى يسمونه الزواج التهمته كما تلتهم اللبؤة فريستها والتفت حول جسده كما تلتف الحية الاستوائية حول جسد

ضحيتها • وهى لا تفعل الا ما تمليه عليها الطبيعة التى تزين كل شيء بالحب وسعادة الحب • ان الطبيعة لا تفكر فى سعادة الرجل أو سعادة المرأة بل تفكر فى غايتها الأولى وهى تجديد الحياة • كذلك المرأة لا تفكر فى سعادتها أو فى سعادة رجلها بل فى غايتها الأولى وهى تجديد الحياة •

الحضارة محاولة الرجل أن يصبح شيئا آخر غير أداة فى يد المرآة لتحقيق وظيفتها الحيوية ، وقد بناها الرجل دون أن يستشير المرأة ، بناها من فائض نشاطه الذى لم تستهلكه المرأة فى أداء وظيفتها الحيوية •

فليهرب اذن تافى من مخـالب أن اذا أراد أن يكـون فنانا ، انه يبالغ فى تقديس المرآة • انه يقـول ان النساء محبات يحطن الرجال بالحنان ويعنين بهم • نعم هن يفعلن ذلك • ولكنهـا عنـاية الجنـدى ببندقيته وعناية الموسيقى بكمنجته •

ويعود رامسدن وآن وعليهما وجوم شديد • ان لديهما نبأ سيئا لأوكتافيوس عن أخته فيوليت ، فقـد رأتهـا مسز هوايتفيلد بالأمس فى عيادة طبيب وكانت تلبس خاتم زواج وهكذا عرفت مصادفة أنها حامل • والكل يعرف أن فيوليت أخت تافى غير متزوجة • ويصعق تافى عند سماعه هـذا النبأ ويثور صائحا : من الوغد ؟ من الوغد ؟ ولكنه يعلم أن أخته تأبى بتاتا أن تصرح باسمه •

ويدافع جون تانر ، أو دون جوان كما كانت آن تسميه ، عن فيوليت قائلا انهم جميعا سخفاء عبيد التقاليد • ان تافى كان يفضل الموت لأختـه ، كان يفضـل أن يدهمها قطار • ولكن ماذا جنت فيوليت ؟ انها استجابت لأهم وظيفة خلقتها الطبيعة من أجلها ، وهى التكاثر وتجديد الحياة ، وبدلا من أن يفرح الناس ويتهللوا لميـلاد طفل جديد ينادون بالويل والثبور ، ويصيحون : يا للعار ! يا للعار !

ويصيح رامسدن قائلا انه لا يقبل أن يدنس بيته بهذه

الأقوال السافلة . فيجيبه جون تانر قائلا : هيا اطردني . هيا اطردها ، وطهر بيتك من شخصها النجس . اقذفوا بهـا الى الشارع . ان فيوليت الآن أحوج ما تكون للرعاية انها أحوج ما تكون الى المال ، والى كلمات الحنان التى ترد لها اعتبارها . واذا لم تلق ذلك منكم فستلقاه منى .

ويتراجع رامسدن وينفى أنه قصد الى التخلى عن فيوليت أو طردها من بيته ويسابق جون تانر فى ابداء شعوره لمعاونتها فى محنتها . أما تافى فلا يكف عن التفكير فى الوغد الذى أفسد أخته وهو يصيح : لابد أن يتزوجها . لابد أن يتزوجها .

وترسل الجماعة تافى ورامسدن ليعودا بفيوليت . ويقترح رامسدن وأخته أن تسافر فيوليت الى الخارج حتى تضع مولودها منعا للفضيحة ، ولكن فيوليت تأبى فى عناد أن تغادر لندن . ويدافع جون تانر عنها ساخرا من دعاة الفضيلة ومكارم الأخلاق قائلا ان الفرق عندهم بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة هو مجرد خاتم زواج او قصاصة ورق يسمونها عقد الزواج . أما هو فيعد الامومة أسمى غاية فى الحياة وأجدرها بالاحترام سواء أتمت بخاتم أم بغير خاتم .

وتغضب فيوليت حين تسمع هذا الكلام قائلة انها احتملت من اهاناتهم ما فيه الكفاية ، ولكن اهانة مستر تانر لها لا تحتمل ، فهو لا يكتفى بالظن بأنها امرأة ساقطة بل تحمل فى الحرام ، فهى متزوجة سرا من شخص لا تستطيع أن تبوح باسمه الا فى ظروف أخرى ، وأنها لم تلبس خاتم الزواج لايهام الطبيب أو ايهام الناس بأنها متزوجة ، فهى متزوجة فعلا .

ويتنفس تافى الصعداء . ويعتذر لها تانر وهو يتصبب عرقا عن سوء كلامه بحسن مقصده فتعلق على ذلك بقولها

انها ألفت منه مثل هذه الآراء الجديدة التى لا يأخذها أحد مأخذ الجد • وهكذا تنجلى العاصفة •

ولكن هناك عاصفة أخرى تهب على دون جوان أو جون تانر ولا يستطيع اتقاءها بسهولة • فهو يحس فى قرارة نفسه أن آن تطارده ولا تطارد تافى • وهى تضيق عليه الخناق وتأمل أن يدخل المصيدة فلا يخرج منها ، وهذا هو سر تحامله الشديد عليها • وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه يحبها ولكنه يعلم أيضا أن واجبه هو الفرار منها • وقد كانا منذ الطفولة تلميذين يلعبان معا ، واستمرت الألفة بينهما طوال الصبا ، وكان يستودعها كل أسراره وكانت تستودعه كل أسرارها ، ثم اكتشف فى نهاية الأمر أنه يخبرها كل يوم بمغامرات جديدة منها الصادق ومنها الملفق، مع صاحباته من التلميذات وغير التلميذات ، أما هى فلا تقص عليه شيئا • ثم اكتشف فجأة ما هو أهم من كل ذلك • اكتشف أنهما بلغا سن الرشد ، فاذا به شاب مكتمل الفتوة واذا بها فتاة مكتملة الأنوثة ، ولا سبيل الى تبادل هذه الروايات الصبيانية عن مغامرات الصبيان • وهنا كف عن كل سرد وحين تخلو اليه آن تعنفه على أنه كسر العهد ولم يعد يأتمنها على أسراره • فيذكرها أنه الوصى عليها ويحسن أن تعامله فى شيء من الرسمية • ولكنها تذهب تستمع الى آرائه الجريئة الثائرة وهو يتحدث عن ضرورة الثورة ، ثورة الأبناء على الآباء وغير ذلك من النظريات الجديدة ، وهى مفتونة به وبسحر حديثه ، وتطلب منه المزيد رغم أنها لا تقيم وزنا لصحة آرائه ولا تحملها محمل الجد • ويشتعل دم جون تانر كلما اختلى بها ورآها تسوقه الى حبها بدلالها وطرقها اللولبية دون أن تقول كلمة صريحة واحدة •

وحين يتيقن من أنه الفريسة المرموقة يقرر الفرار • ويخرج بسيارته التي يقودها سائقه هنرى ستريكر فى رحلة

طويلة من لندن الى الجزائر ، مدعيا أنه قاصد الى نيست فى جنوب فرنسا • وتطارده آن فتقنع بقية افراد الأسرة باللحاق به • وتتعقبه فى الطريق فتعلم أن سيارته عبرت جبال البرانس وأنه فى طريقه الى سيرا نيفادا باسبانيا • وتكون المطاردة فى سيارة شاب أمريكى صديق الأسرة يدعى هكتور مالون ، ابن مليونير أمريكى جمع ملايينه من صناعة الأثاث بالجملة ، وعاد الى انجلترا ليشترى لابنه قصرا من تلك القصور العريقة التى يتوارثها أشراف الانجليز ، ومع القصر صاحبته التى يشترط المليونير العجوز أن تكون من صاحبات الألقاب ، فهو لن يزوج ابنه الا دوقة أو كونتيسة أو بارونة •

وفى جبل سيرا نيفادا باسبانيا ترابط عصابة كبيرة من قطاع الطرق يتزعمها يهودى اسبانى اسمه مندوزا • أما قوام العصابة فهو خليط عجيب من اللصوص الحقيقيين ومن الديمقراطيين الاشتراكيين • ويكثر الجدل بين الفوضويين والديمقراطيين الاشتراكيين بالخيانة والانتهازية ومهادنة البورجوازية ، ويتهم الاشتراكيون الفوضويين بأنهم مخربون وسفاحون ومشوشون •

ويكاد بعضهم يعتدى على البعض الآخر فيذكرهم زعيمهم اليهودى مندوزا أن نوع الاقتصاد الوحيد المتفق عليه بينهم فى جبال سيرا نيفادا ، وهو ايقاف كل سيارة تمر وتجريد السياح الأغنياء من أموالهم ، فبهذا وحده تتحقق العدالة الاجتماعية : الأغنياء يسرقون الفقراء وهم يسرقون الأغنياء !

وتقترب منهم سيارة جون تانر فيقطع رجال العصابة جدلهم ويفرشون الطريق بالمسامير لخرق اطارات السيارات وايقافها وبعد قليل تحيط العصابة بالسيارة • ويجد مندوزا فى حديث جون تانر وآرائه متعة كبرى ، فهو أول من سمعه

يقول انه يقدر عمله ويفهم فلسفته ، فهو مثله لص بل أفظع منه لصوصية لأنه يسرق الفقراء ولكن المجتمع اصطلح على اعتباره من الوجهاء •

وتنشأ بين الرجلين ألفة فيصرف مندوزا رجاله للنوم حتى الصباح • ويوقد نارا يستدفيء بها مع جون تانر تحت الظلام وتفتن تانر شخصية هذا اللص الغريب فيسأله عما قاده الى هذه المهنة الغريبة • فيعلم من مندوزا أن السبب فى كل شيء هو الحب • فقد كان مندوزا من قبل جرسونا فى مطعم بلندن ثم أحب بنتا انجليزية كانت تعمل طاهية فى المطعم اسمها لويزا ، ورفضت لويزا أن تتزوجه لا من باب التمسك الديني فقد كانت لويزا متحررة فى تفكيرها ، ولكن لأنه رسخ فى اعتقادها أن اليهود يظنون المسيحيين قذرين • وهددها بالانتحار فقدمت له الحبوب التى ينتحر بها • فلما يئس هاجر الى أمريكا وهناك تعرف على رجل مهنته مهاجمة القطارات وهنا لمعت الفكرة في ذهنه أن يؤلف عصابة لمهاجمة السيارات في جنوب أوربا • وهكذا أصبح زعيما لهذه العصابة • ورغم أن مهنته موفقة الا أنه لا يزال مقيما على حب لويزا الجميلة التى لا يغادره طيفها فى يقظة أو منام • وهو ينظم فيها الشعر ويغنى الأغانى التى تقول : « لويزا تحب مندوزا ! ومندوزا يحب لويزا ! آى لويزا ، عاشقك هو مندوزا ومندوزا هو عاشقك » !

ويضحك جون تانر لرداءة هذا الشعر وسذاجته • ويتبين أن لويزا حبيبة مندوزا ان هى الا لويزا ستريكر أخت هنرى ستريكر سائق جون تانر • يثور ستريكر ويكاد يلتحم مع مندوزا لولا أن جون تانر يهدىء من روعه •

ويطلق مندوزا عقيرته بالغناء الحنون وسط الجبال الشامخة ، جبال سيرا نيفادا مترنما بشعره الساذج ، ولكن جون تانر لا يستمع الى غنائه فهو يغط فى نوم عميق ومعه يغط سائقه هنرى ستريكر •

ويحلم جون تانر حلما عجيبا • فهو لم يعد الجنتلمان الانجليزى مستر جون تانر بل غدا دون جوان تنوريو زير النساء الاسبانى الذى مات منذ قرون وذهبت روحه الى الجحيم • ويرى دون جوان نفسه فى الجحيم وتفد عليه عجوز شمطاء فى السابعة والسبعين • ويعلم من العجوز أنها ضيف جديد لأنها تسأل عن المكان • وحين يقول دون جوان انها فى الجحيم ، تثور وتصيح فيه قائلة : كيف تجرؤ على هذا القول •• أنا سيدة من بيت كريم من أتباع الكنيسة الأوفياء • لا يمكن • انها لا تستحق أكثر من المطهر • ولكن دون جوان يؤكد لها أنها مثله فى ألعن مكان من الجحيم حيث العزلة الدائمة • وتسأله عما جناه فتعلم أنه قاتل • فتندب حظها الذى جمعها مع القتلة والسفاحين وتطعن فى عدالة السماء • لابد أن هناك سهوا أو خطأ • ويعزيها دون جوان بقوله ان أحسن الناس يقيمون فى الجحيم • ولكنها تكذبه فى عناد • انها ليست فى الجحيم فهى لا تحس ألما اطلاقا • فيعلمها دون جوان أن هذا دليل على أنها شريرة من طراز أصيل • لأن الجحيم ما جعل الا للأشرار ، والأخيار فيه يتعذبون ، ومن لا يتعذبون فيه هم الأشرار الذين يألفونه لأن نفوسهم قطع من الجحيم • أما هو فهو يضيق بالجحيم ويجد العزلة فيه قاتلة لأنه ليس حقيقة من الأشرار وهو وان كان قد قتل رجلا فانه قتله فى مبارزة دفاعا عن نفسه •

ويروى دون جوان على السيدة حكايته أنه أحب امرأة حبا عنيفا وأراد أبوها أن يدافع عن شرف ابنته فبارزه فقتل فى المبارزة • هذا كل ما هنالك • فتقول السيدة العجوز ان هذا بالضبط ما حدث لأبيها ، فقد قتل فى مبارزة دفاعا عن شرفها • ومحال أن تكون هناك عدالة فى السماء اذا كان الجحيم من نصيب المؤمنين بالشرف والواجب وغيرهما من المعانى السامية • ولكن دون جوان يؤكد لها أن أكثر سكان الجحيم من المؤمنين بالواجب والشرف والمعانى السامية • ويذكرها بما حدث على الأرض من جرائم نكراء

كلها ترتكب دفاعا عن الشرف وباسم الواجب وانتصارا للمبادىء السامية • فكم من برىء قتل وكم من حروب نشبت وكم من شناعات ارتكبت تحت لواء الفضيلة والمعانى الجميلة •

ويعرفها دون جوان أن أفظع ما فى الجحيم من عذاب هو أن كل ما فيه وهم كاذب ومظاهر خداعة ، أما الحقائق الثابتة فكلها فى الجنة • فكل من فى الجحيم يستطيع اذا أراد أن يغير عمره أو يبدو فى المظهر الخارجى الذى يروق له ، والسيدة العجوز مثلا تستطيع وهى فى السابعة والسبعين أن تبدو فى السابعة عشرة أو فى السابعة والعشرين • فكل ما فى الجحيم زيف وكل زيف خداع •

وتجرب السيدة العجوز بين مصدقة ومكذبة ، ويكفيها أن تريد أن ترتد الى شرخ الشباب ، فاذا هى غادة من أجمل الغادات كما كانت على صورتها حين كانت فى السابعة والعشرين • وما أن يراها دون جوان حتى يصيح عاجبا « دونا آنا دى أولوا » ! فاذا ملامحها ملامح آن هوايتفيلد بالضبط ولكن زيها من زى العصور الخالية • وحين يذكرها دون جوان بنفسه تصرخ فيه ثائرة « أيها الوحش ! لم قتلت أبى ! أنت تتعقبنى حتى الى هذا المكان » ؟ ويهدىء دون جوان من روعها قائلا ان أباها فى الجنة وأن فى استطاعتها رؤيته لأنه يزور الجحيم من وقت لآخر ويتجاذب معه أطراف الحديث •

وتعلم السيدة آنا أولوا أن الهوة السحيقة التى تفصل الجنة عن الجحيم ليست هوة فى الزمان والمكان ولكن هوة بين ماهو ملائكى وما هو شيطانى ، فهى حالة وطبيعة وليست شيئا يقاس فهى تعرف أنه لا فرق هناك بين حلبة مصارع الثيران والفصل الذى يلقى فيه الفيلسوف تعاليمه ، ومع ذلك فالهوة بينهما عميقة ليس من السهل عبورها وبالمثل القاعة التى تصخب بألحان الجاز الفاحشة والقاعة التى

تعزف فيها الموسيقى الكلاسيكية • الفـرق ليس فى القاعة ولا فى الرجل الجالس فى القـاعة ولـكن فى طبيعة هـذا الجالس وما يسمع من ألحان شيطانية تخاطب الحـواس أو ألحان سماوية صافية • وهذا هو الفرق بين من يعيشون فى الجحيم ومن يعيشون فى الجنة • أهـل الجحيم رغم أنهـم أرواح بلا أجسـاد يعيشـون فى حلم دائم زائف بالملذات الجسدية المتقلبة الزائفة أما أهل الجنة فيعيشون فى الحقائق الدائمة الثابتة • أهل الجحيم يبحثون عن السعادة أما أهـل الجنة فيبحثون عن الحقيقة • أهل الجحيم عبيد الحقيقة أما أهل الجنة فسادتها • وهو دون جوان الذى جرب كل الملذات يعرف هذا أكثر مما يعرفه سواه ، يعرف أن السعادة زائفة وزائلة وأن الحقيقة صادقة وباقية وهو لهذا يضيق بالجحيم ويحب أن ينتقل الى الجنة تاركا الجحيم لمن يعشقون السعادة واللذة • ان مكانه الطبيعى هـو الجنـة •• حيث لا شىء الا التأمل ، التأمل الدائم فى الحقائق الخالدة • العقل •• العقل •• حياة العقل والتأمل هذه هى الجنة التى ينشدها دون جوان بعد أن جرب كل سعادات الجسد ووجد أنها زائفة •

نعم ، العقل هو أرقى أداة خلقتها الطبيعة لتفهم بهـا نفسها ولتفهم بها حقيقتها وارادتها • بدأ الوجود بالمادة غير العضوية ثم بالعضـويات التى نسـميها الحياة ، وارتقت أشكال الحياة بقوة الحياة فكان الماموث والديناصور وكانت ألف صورة وصورة كلها ظهرت بقوة الحيـاة ، فقوة الحياة تسعى دائما أبدا لتنظم نفسها ، فى وجود أرقى ، وكان آخر اختراع اهتدت اليه قوة الحياة هـو العقـل ، العقل المتأمل بانى الحضـارات ومنظم الفوضى ومجنب الأخطاء ومحقق الغايات السامية • فحياة الفكر هى أعلى مرحلة من مراحـل الحياة •

وبعد أن يفرغ دون جوان من وصف الفردوس والجحيم كما رآهما لصـاحبته دونا آنا ، يفيق من نـومه ، فيجـد دن تانر نفسه مستلقيا على بطاح سيرا نيفادا والى جـواره

سائقه هنرى ستريكر وقاطع الطريق مندوزا ولصوصه ، وقد أدركهم الصباح العريض ، وما هى الا دقائق حتى يدركهم شىء آخر هو سيارة الفتى الأمريكى هكتور مالون وقد اجتمع فيها آن وفيوليت وتافى وبقية أفراد الأسرة وسرعان ما يلحق بهم المليونير الأمريكى العجوز مالون ٠

●●●

وحين تقع عين جون تانر على آن يعلم أنه أوشك أن يقع كالقنيصة فى حبائل صائدته ويحدث نفسه قائلا : « انها قوة الحياة » ! انه كان يبشر بأن المرأة أداة فى يد قوة الحياة تدفعها دفعا الى اقتناص الرجل لتجدد بها الحياة على وجه الأرض ٠ وجون تانر الذى يعلم ذلك كان يرغب فى أن ينجو من براثن المرأة حتى يخصص نفسه لصورة اعلى من صور الحياة وهى حياة الفكر أو ما يسميه هو بحياة الجنة أو حياة النعيم ٠

وحين تقع عين الفتى الأمريكى على أبيه الذى جاء معهم الى اسبانيا باحثا عن مشروع يستثمر فيه بعض ماله يبدو عليه الامتعاض الشديد ، فابوه مستغرق فى الحديث مع فيوليت التى تحاول أن تقنعه بالموافقة على زواجها من ابنه هكتور ، وهو يجيب فى عناد آن ابنه ليس بقاصر فليتزوج بمن أحب ولكنه لن يعطيه سنتا واحدا ان لم يتزوج من صاحبة لقب بحسب ما رسم له وقرر ٠ ولكن امتعاض هكتور لأمر آخر ، فأبوه قد فتح خطابا موجها اليه من فيوليت تطنب فيه من « حبيبها » هكتور أن يلحق بها ، فاشتم الأب رائحة شىء يجرى فى الخفاء وخف اليها ليقف على الحقيقة وهكتور ثائر لا يغفر لأبيه أنه فتح خطابا من خطاباته ويقف هكتور خطيبا وقد ملأه الحماس ويعلن على الجماعة العاجبة أنه زوج فيوليت ٠ وأنه أراد أن يقنع فيوليت باعلان هذا الزواج ، ولكنها ألحت عليه فى اخفائه حتى يجد سبيلا لاكتساب موافقة أبيه ، وقد قبل هو هذا على مضض ولكن

الكيل طفح ، فاذا كان أبوه فتح خطاباته الشخصية فهو ليس أبا له وهو يتبرأ منه ، ولم يعد يهمه بعد الآن ايسخط ام يرضى وهو لا ينتوى الزواج من فيوليت فهو قد تزوجها فعلا وهو يعرف كيف يشق طريقه فى الحياة بمفرده ولن يقبل من أبيه سنتا واحدا ·

ويتهلل الجميع عندما يعرفون أن هكتور مالون الابن هو زوج فيوليت الخفى ويعانقه تافى ويصيح مع تانر فى وقت واحد قائلين ان فى استطاعته أن يعتمد عليهما ماليا وأن يطلب منهما أى مبلغ يحتاج اليه ولما يسمع أبوه الغرباء يتسابقون فى عرض مساعدتهم على ابنه هكتور يعود اليه معتذرا يطلب التصافى ويركب الأمريكى الشاب رأسه فيصافح أباه ولكنه يرفض أن يأخذ منه شيئا واحدا ، ولكن الانجليزية الحصيفة تتلقى المال نيابة عن زوجها ·

وفى وسط هذه البهجة يتقدم تافى الى آن عارضا عليها قلبه واسمه وكل حياته المستقبلة ، فتربت على خده فى رقة وتقول : لا أستطيع ، لأن أمى أشارت على بالزواج من جون تانر · وتنظر اليها أمها وهى تحملق فى دهشة فهى لم تحدثها فى أمر من هذه الأمور على الاطلاق ·

وترتعد فرائص جون تانر · وتنظر آن الى فريستها وتقول فى همس : « أنت لا تعلم يا جون أن أبى قبل أن يموت سألنى : من تريدين وصيا عليك ·· فأجبته : جون تانر » !

ويهم جون تانر بالهرب قبل أن يقع فى الفخ · فتتظاهر آن بالاغماء حتى يتكاثر من حولها الجميع ، وحين تفيق يسألونها فى لهفة ماذا بك ! ماذا بك! فتجيب آن فى هدوء :

ــ ان جون تانر طلب يدى فأجبته بالايجاب ·

●●●

وهكذا فشل الانسان فى أن يصير الى سوبرمان ·· مرة أخرى بسبب حواء !

جزيرة جون بول الأخرى

لجورج برناردشو

جون بول هو رمز بريطانيا ، وجزيرة جون بول الأخرى هى أيرلندا ، لأن جزيرته الأصلية هى انجلترا • والكاتب الايرلندى الساخر برناردشو يفضح فى هـذه الكوميـديا اللاذعة العقلية الاستعمارية الانجليزية ويشرح أساليبها فى استرقاق الشـعوب واستغلال غفلتهـا وتخلفها وطيبة قلب أبنائها وتمسكهم بفضائلهم التقليدية • ولا أعرف مسرحية صـورت النفـاق الانجليزى ومكر الثعالب الذى اشـتهر به الانجليز كما صورته هذه المسرحية • فبطلها مهندس انجليزى يحل فى ايرلندا ، ويزعم أنه أكثر آيرلندية من الأيرلنديين بأن ينتخبوه ممثلا عنهم فى البرلمان البريطانى متجـاهلين بنى وطنهم من المرشحين ، وينتهى به الأمر الى آن يسـتولى على خطيبة صديقه الأيرلندى الحميم • وينتهى به الأمر الى أن يضع يده على أرضهم كذلك • واذا كان برنارد شـو قد وصف الانجليز عـلى حقيقتهم ، فهـو قد وصف بنى قومه من الأيرلنديين على حقيقتهم أيضا ، فبين ما بينهم من انقسامات مكنت للانجليز من أن يحـكموهم وما فيهم من عقـد أجلت تحررهم زمنا ، كالتبرؤ من بلادهم عند البعض والاستغراق فى أحلام المجد عنـد بعضهم الآخر اسـتغراقا يحجب عنهم أسلوب السخرية اللاذعة فى هذه الكوميديا لفضح آسـاليب

الاستعمار الانجليزى ، فهو قد صدر لها بمقدمة ضافية تجرى مجرى المآسى فصل فيها جريمة دنشواى ليثبت أن الاستعمار لا يلجأ الى دهاء الثعلب وحده ولكن يكشف عن ناب الذئب أيضا اذا استعصت عليه الفريسة ٠

●●

فى شارع جريت جورج ستريت بحى وستمنستر فى لندن مكتب للانشاءات الهندسية يديره رجلان أحدهما انجليزى اسمه توماس برودبنت والآخر آيرلندى اسمه لورانس دويل ٠ وهما صديقان متلازمان لسنوات خلت وابنا جيل واحد بين الثلاثين والأربعين ٠ وهذا المكتب ليس مجرد مكان للعمل واستقبال الزبائن ولكن بعض حجراته خصصت لتكون مسكنا لهما ٠ فهما يسكنان معا كما يعملان معا وأهم من هذا وذاك هما يديران ويملكان معا شركة خطيرة اسمها « جمعية تعمير الأراضى » ، للانجليزى فيها نصيب الأسد وللأيرلندى فيها الباقى ٠

ونرى المهندس الانجليزى توماس برودبنت يرتب أوراقه فى مكتبه ويعد أشياءه للسفر يعاونه فى ذلك خادمه هودسون ٠ ويبدو أن برودبنت متهيب من هذه الرحلة كأنه ذاهب الى بلاد فيها ضباع كاسرة ، فهو يسأل خادمه هودسون إن كان قد رأى مسدسه ، فيجيبه هودسون أن زميله مستر دويل يستخدمه عادة كثقالة ورق على مكتبه ٠ ويأمر برودبنت الخادم أن يعد حقيبته أيضا وأن يتزود مثله بمسدس ، فهو سيصحبه فى رحلته الى أيرلندا ، ثم ينتظر ، فهو على موعد مع رجل أيرلندى يدعى تيم هافيجان قرر أن يستخدمه فى رحلته ٠

ويدخل عليه تيم هافيجان هذا فيلاطفه بالويسكى وحلو الكلام رغم رثاثة هيئته ٠ ويشرح له مهمته ٠ فبرودبنت قد قرر زيارة أيرلندا ، فهو معجب بالأيرلنديين ٠ وهو يحس بأن عليه واجبا نحوهم هو خدمتهم ٠ وأيرلندا ليست المكان الوحيد الذى يسمع منه برودبنت نداء الواجب : فهو

انجليزى وهو من أنصــار حزب الأحــرار فهو يســمع نداء الواجب من فنلندا ومن اليونان ومن أماكن كثيرة • وقد كان يحب أن يؤدى واجبه فى جنــوب افريقيــا لولا أن جنــوب افريقيا قد دمرها البوير واستعبدوها ، فهو يجد أن أيرلندا هى خير مكان يستطيع أن يؤدى فيه واجبه نحو المدنية ونحو اخوته فى الانسانية •

ان مشروعهالعمرانى هو أن يبنى فىأيرلندا جاردن سيتى جديدة ، أى مدينة من الفيلات ذات الحدائق الغناء • وهو يعلم أن أمامه صعوبتين ، فكل الأيرلنديين ســيمقتونه لأنه انجليزى وكل الأيرلنديين ســيمقتونه لأنه بروتستانتى • وقد تتعرض حياته للخطر ولكنه مستعد للمجازفة بحيــاته فى سبيل الواجب • وهو قد اختار تيم هافيجان ليساعده فى مهمته لأنه أيرلندى نموذجى اجتمعت فيه كل فضائل قومه وكل عيوبهم • فهو طائش تنقصه الحــكمة وهو يسرف فى الشراب ولكنه طيب شجاع سريع البديهة يحب الفكاهة وهو سيجعل الأيرلنديين يفهمون توماس برودبنت ويجعل توماس برودبنت يفهم الأيرلنديين وهو يعينه سكرتيرا أيرلنديا له ، وله أن يطلب ما يشاء • انه سيعطيه اثنى عشر جنيها شهريا ويقدم له فورا خمسة جنيهات تحت الحساب •

ويعود المهندس الأيرلندى لورانس دويل فيرى هذا المدعو تيم هافيجان ويستمع الى أطناب برودبنت فى مدحه ومدح شمائله الأيرلندية فيرمق دويل هافيجان بنظرة احتقار شديد تكاد تصعقه • وينصرف هافيجان وقد تواعد مع برودبنت على مقابلته فى المحطة بعد ساعات للسفر الى أيرلندا • وبعد انصرافه يهزأ دويل من برودبنت قائلا انه وقع فى حبائل نصاب فمستر هافيجان هذا • أولا ليس أيرلنديا رغم لهجته المفتعلة ورغم تعبيراته الشــعرية الجميلة كقــوله : « أزهى صباح لك يا ســيدى » • « لا قصر الله لك ظلا » • فهــذه تعبيرات تصنع فى لندن وتنسب الى الأيرلنديين • وهو ثانيا لن يصل الى محطة بادنجتون لأن الطريق الى بادنتجون محفوف بالخمارات •

ويحاول برودبنت أن يقنع دويل بأن يصاحبه الى أيرلندا • انه باسم جمعية تعمير الأراضى قد حجز على عزبة العجوز لسترانج فى بلدة روسكولن فى أيرلندا ، لأن العجوز ليسترانج لم يدفع الأقساط ولا الفوائد ، وقد آلت أملاكه الى الجمعية وبرودبنت مسافر بنفسه الى روسكولن ليدير هذه الأرض • أن لورانس دويل من بلدة روسكولن وقد تركها منذ ١٨ سنة ، أى منذ أن كان فى السابعة عشرة من عمره ليتم تعليمه ويخوض معترك الحياة ، وهو لا شك سيسر برؤية أهله وبلدته بعد هذه الغيبة الطويلة •

ويدهش برودبنت حين يسمع أن دويل لا يحس بأقل رغبة فى زيارة بلدته ورؤية أهله ، بل هو يفضل الذهاب الى القطب الجنوبى • على الذهاب الى روسكولن • ان برودبنت يسىء فهم الأيرلنديين ، فهم لا يفتأون يتغنون بأيرلندا ويعبرون عن أشواقهم اليها وهم فى بلاد الغربة • ولكن كم أيرلنديا نزح عن أيرلندا وعاد اليها ؟ ان الايرلندى يقتات بالأحلام انه يبنى صورة جميلة حالمة لبلاده ويحتفظ بها فى قلبه طول حياته ، وهو يعلم انها من نسج أوهامه ، ولكنه يأبى أن يستيقظ من أحلامه ويستعذب الحياة مع أوهامه ، ولكن لورانس دويل لا يحلم كما يحلم بنو قومه ، فهو قد تعلم عن الانجليز أن يعيش فى الواقع وحده • وهو لا ينسى أبداً أن روسكولن مقبرة للأحياء ، كل من فيها يعيش بلا أمل وكل من فيها ضيق الأفق مطموس الذكاء • ان الريف فى كل بلاد العالم فيه شىء من ذلك كما يقول برودبنت ، ولكن ليس فى الدنيا مكان يدانى أيرلندا فى هذا الحزين، فالتلال الكثيرة والضباب الثقيل وألوان السماء الساحرة والآفاق التى تفتن العين كأنها مطارف من نسج جنيات الأيام الخوالى • والأحلام •• نعم الأحلام التى تنهش الفؤاد نهشا والشوق الى شىء بعيد لا سبيل الى مناله • ان مأساة الأيرلندى فى خياله ، وعذابه من أحلامه المتصلة ، التى لا يحققها ولا يرضى بالتخلى عنها • ان القس الذى يعظه بأقدس ما فى الحياة من معان يخرج من بيته خاوى الوفاض ، أما القس الذى يلهب

خياله بسير القديسين أو يكتب له حجابا ليشفى بقرته أو تبنى له كاتدرائية فهو يغدق عليه العطايا · ان كل رجل فى أيرلندا يعذب زوجته لأنها ليست ملاكا وكل امرأة فيها تحتقر زوجها لأنه ليس بطلا · أما أيرلندا نفسها فهى فى خيال كل أيرلندا لا تبرحه يبكى صباحه والمساء على شقائها ، ولكنها فى خياله كل أيرلندى جدته العجوز التى نهنهته فى طفولته وسامرته بقصص لا تنتهى عن الحور والفرسان · ولكن ماذا يملك المرء أن يفعل لجدته العجوز أكثر من أن يحبها ، وأن ينتظر موتها فى حزن عميق · وهذا طبعا يوفر على الأيرلندى عناء الجهاد · ومع كل هذه السوداوية فى المزاج تجد المرح المعربد والعربدة المرحة ، وشباب البلاد يقضون حياتهم فى تبادل الكئوس وتبادل النكات البذيئة · فان حدثهم أحد حديث الجد فى أى موضوع سخروا منه وقالوا : انه خال من روح الفكاهة · انه لا يعرف كيف يضحك ·

ويهون برودبنت على دويل الأمر قائلا ان لايرلندا امكانات عظيمة · فالحكم الذاتى « بارشاد انجلترا » سيحقق فيها المعجزات · انه جاد فيما يقوله عن الحكم الذاتى ولكنه يؤكد أن « ارشاد انجلترا هو الشيء المهم · فنحن الانجليز يجب علينا أن نضع موهبتنا فى الحكم فى غير ضن تحت تصرف الأمم التى لم يسعدها الحظ فى الحكم الذاتى » · ان برودبنت ينصح دويل أن يصاحبه فى هذه الرحلة وأن يرى بلاده وامكاناتها بعينى الرجل الكامل النضوج ، ففكرته عنها فكرة الصبى المتأثر بانطباعات الصبا ·

ولكن هناك سببا آخر يجعل دويل يتردد فى العودة الى روسكولن · فهناك الفتاة نورا رايلى التى تنتظره فى بلدته وهو غير حريص على تجديد الماضى أو نبش الغرام القديم · وزيارته هذه ستحسم كل شيء ، وهو لا يحب أن يواجه هذه المشكلة · فقد كانت نورا رفيقة طفولته وصباه · وكان أبوه يشتغل وكيلا لأعمال أبيها ، ونشأت بينهما مودة قوية فكانا يخرجان للنزهة كل مساء عند البرج المستدير ويتأملان

الشفق الحزين أو يهيمان معا فى وادى الأحلام كلما اطل البدر من وراء الغيوم • كل ذلك حين كان دويل فى السابعة عشرة من عمره وهى بنت أربع عشرة • ولكنه رحل الى دبلين وفى رأسه فكرتان : أن يتعلم مهنة وأن يرحل عن أيرلندا الى الأبد • أما نورا فقد كانت فى أحلامه كالبطلات فى روايات بيرون لا أكثر من ذلك • ولكنها رغم مرور كل هذه السنوات الطويلة لا تزال تنتظره • وهى تكتب له من وقت لآخر تستفسر عن أحواله ، وهو يجيب على خطاباتها من وقت لآخر •

ويذهل برودبنت لهذا الوضع العجيب ويعنف دويل عن التلاعب بشعور هذه البنت المسكينة • ويؤكد له دويل أنه لم يقل لها كلمة واحدة تربطه بها رسميا • ولكنها تعيش على أطياف الماضى وتعد ما كان بينهما من عواطف الصبا رابطا كافيا يجعلها تنتظره • ونورا قديرة على أن تنتظره حتى تموت دون أن تسأله عن حقيقة شعوره نحوها أو نواياه ازاءها • هكذا كبرياء الايرلندية ورقة شعورها الذى يجفل من مواجهة الحقائق • أما هو فقد تعلم من الانجليز كيف يعيش فى الواقع وكيف ينزل عن كبريائه •

ويجد برودبنت فى هذا سحرا عظيما يلهب حماسه لأيرلندا ولا يزال بدويل حتى يقنعه بمصاحبته فى هذه الرحلة ، فلعله يرى فى نورا بعد كل هذه الغيبة ما يجعله يتمسك بها ، وهو على كل حال سيكون فى روسكولن أنفع ما يكون لجمعية تعمير الأراضى •

وهكذا يرحل المهندسان برودبنت ودويل الى أيرلندا •

وفى رسكولن نجد البلدة نائمة فى المساء يحيط بها نعاس أبدى حالم • وبين تلالها الخضراء يجلس رجل نحيل ناهز الخمسين من عمره وله وجه قديس ولكن شعره مشتعل شيبا ، وقد تدثر فى حلة سوداء تشبه حلل القساوسة • وهذا هو المستر كيجان أو الآب كيجان كما يسميه أغلب أهل

روسكولن بالرغم من تحذير الكنيسة اياهم ، ولا سيما الأب دمبسى كاهن الكنيسة فقد كان مستر كيجان نعم الراعى الصالح لقطيع روسكولن ، حتى تحدث جميع الناس عن تقواه وحبه للخير ومبادرته الى مساعدة كل من يحتاج الى مساعدة ثم ظهرت عليه أعراض شذوذ فى مسلكه وكلامه ، وانتهى أمره بأن جردته الكنيسة من ثياب الكهنوت • وجرت حوله الشائعات أنه ولى أو مجذوب له اتصال بعالم المجهول • فقيل عنه ان الشيطان خلع مرة رأسه وأداره فى كفه ثلاث مرات ثم أعاده الى مكانه ، وجرت فيه روايات أخرى كثيرة •

ويجلس كيجان فى هذه الفلوات الخضراء يرقب غروب الشمس يناجى فرس النبى الذى يتواثب أمامه من الأعشاب، ويكلمه كأنه انسان يعقل فيجيبه فرس النبى بأزيز متغير النبرة كأنه يفهم ما يقال • ويسأل كيجان فرس النبى رأيه فى أيرلندا أهى المطهر أم الجحيم ؟ فيجيبه فرس النبى : « كيك » فيفهم من ذلك أنها الجحيم ويتمتم قائلا : صدقت القول •

ويسمعه فلاح اسمه باتسى فاريل يخاطب فرس النبى ويحاوره فيستعيذ بالله ويستولى عليه رعب شديد • ويحاول كيجان تهدئته قائلا : ان فرس النبى ليس شيطانا مخيفا ، بل مجرد حشرة ، هو لا يتكلم حقا ، فكيجان يتخذ منه وسيلة للتسلية ومناجاة النفس • ولكن الفلاح يظل على خوفه ويداب على الاستنجاد بالأب كيجان ليقيه من فرس النبى • وينهره كيجان قائلا انه لم يعد قسيسا منذ أن عزلته الكنيسة فلا ينبغى أن يناديه أحد بالأب كيجان• ولكن الفلاح يجيبه : « هذا ما يقوله لنا الأب دمبسى ولكننا جميعا نعرف انك لست انسانا واذا لم نظهر لك الاحترام الواجب فقد تحل بنا المصائب » • ويعنف كيجان الفلاح باتسى لأنه يناقش حكم الكنيسة التى ارتأت أنه لا يستأمن على أرواح الناس •

ويعلم كيجان من باتسى فاديل بوصول توماس برودبنت وبقرب وصول لورانس دويل الذى اصيبت عربته بعطب فى

الطريق فأخرته عن الوصول • وتأتى نورا الى كيجان قائلة انها تريد أن تستشيره فى أمر ما ، فالناس تقول انه رجل طاف العالم وعرف الكثير عن الحياة • فيحدثها كيجان عن شبابه وطوافه الطويل قائلا انه كان فى شبابه يعجب بالقساوسة الذين يتلقون علوم الدين فى سلامنكا باسبانيا فقرر الرحيل الى سلامنكا ، وبعد أن أتم علومه بجامعتها رحل الى روما سيرا على الأقدام ، وفى روما أقام بالدير سنة ثم رحل على قدميه من روما الى باريس حيث التحق بالسوربون • ولولا أن بحر المانش يفصل انجلترا عن فرنسا لقطع المسافة من باريس الى أكسفورد ماشيا كذلك • وبعد أن قضى سنة فى أكسفورد حج الى بيت المقدس على قدميه وأخيرا عاد الى أيرلندا حيث اشتغل قسا على روسكولن حتى انجذب ، فهو اذن قد سافر كثيرا وخبر الحياة كما تقول •

وتسأله نورا ان كانت أسفاره قد غيرت رأيه فى آيرلندا أو فى حياة الريف فيجيبها قائلا انه رأى العجائب فى أسفاره ولكنه بعد عودته رأى كل هذه العجائب تنتظره فى ايرلندا • ويدرك كيجان مرادها من هذه الأسئلة فهى تنتظر لورانس دويل بعد غيبته الطويلة وتخشى أن يكون رأيه قد تبدل • فيقول مطمئنا ان الرجل كلما زادت أسفاره زاد اقتناعه بأن يتزوج بنتا من الريف •

ويعرض عليها كيجان أن يصاحبها الى البلدة لاستقبال دويل الذى تنتظر وصوله وتنكر نورا أنها تنتظره وتقول انها ماضية الى البرج المستدير ، وتنصرف وهى تفكر فى أحلام صباها أيام أن كان لورانس دويل يخرج معها للنزهة كل مساء عند البرج المستدير ويتبادلان الأحلام فوق العشب الساخن أو تحت القمر موقظ الأحلام • فان كان لورانس دويل وفيا للذكرى فليبحث عنها عند البرج المستدير •

ولكن الذى يتبعها الى البرج المستدير ليس لورانس دويل بل توماس برودبنت الذى يعلم من أسرة لورانس أنها خرجت الى البرج المستدير لتنتظر لورانس هنالك وتأخذه

الشهامة فيصر على الخروج اليهــا للعــودة بها الى دارها ، فلورانس قد تأخــر فى الطــريق ، ولا يليق أن تترك فتاة وحدها بغير فارس يحميها فى فلوات روسكولن من الليــل وأخطاره ٠

وتحسب نورا رايلى أولا أنها تخاطب لورانس ثم تتبين أنها تخاطب صديقه برودبنت وتعرف من برودبنت بقصــة تخلف لورانس ٠ ويبدو عليها الارتباك وتحــاول اخفــاء ارتباكها بتعليقاتها عن جمال الليل وجمال الطبيعة ٠ ويتأمل برودبنت نورا فى هــذا الجو الســحرى ، فيســحره جمالها ويدرك لوهلته أنه يريدها لنفسه ٠ ولا تمضى دقيقتان على هذا اللقاء حتى يكون برودبنت قد انتقل من الحديث عن جمال الطبيعة الى جمال نورا ومن سحر أيرلنــدا الى سحر نورا ٠ وتوقظ أنوثة صوتها الحلو فيه مشاعر الرغبــة ٠ وتنهره نورا قائلة انه بدأ يغازلها ٠ ويرتبك برودبنت ثم يدرك أنه كان يغازلها حقا ، ويعتذر ، ولكنــه لا يلبث أن يعود الى الحديث عن صوتها الذى يفــوق رخامة كل ما فى أيرلندا من قيثارات ٠ وينسى نفسه ويقبض على ذراعهــا فتزجره غاضبة ٠ ويؤكد لها أنه جاد فى كل كلمة قالها ٠ فالانجليزى لا يقول كلاما من هذا النوع لامرأة الا اذا كان جادا ٠ وتقرعه نورا فيشتد ارتباكه ، ويقول انه يقدر أن عمله هذا كان خيانة منه للورانس ٠ فتجيبه نورا بأن لورانس لا شأن له بالموضوع ، فهو ليس خطيبها وهى ليست خطيبته ٠ ولكن تعد عمله امتهانا لها واستهانة بفضيلتها ٠ ويؤكد لها برودبنت أن مقاصده شريفة ويعــرض عليهــا أن تكــون زوجته ٠ وتنهره نورا قائلة انه فى غــير وعيــه ٠ انه لم يقابلها الا منذ دقائق ٠ أنهم لا شك قد أعطوه من البوتشين، مشروبهم الــوطنى ، أكثر مما يحتمــل ٠ نعم لا شــك أنه سكران ٠ انها ستساعده عــلى العودة الى البلدة ، فيمســك ذراعها ٠

ويضطرب برودبنت وتتبلبل خواطره ويبدأ يشك فعلا

فى أن الخمر قد لعبت بعقله . وفى سيرهما تصطدم قدمه بحجر ويوشك أن يسقط . فيزداد اضطرابه ويؤكد لنورا أنه الحجر تحت قدمه وليس الخمر فى رأسه . ثم يرتطم بحجر ثان ، فيرسخ فى روعها أنه مخمور ، ولكنها لا تعلم أن الانجليزى حين يسرف فى العاطفة يبدو كالأيرلندى حين يسرف فى الشراب . وأخيرا تبلغ به نورا بيت كورنيليوس دويل ، والد الورانس دويل .

وفى صباح اليوم التالى يصل لورانس دويل ويجتمع ببرودبنت وينضم اليهما الأب كورنيليوس دويل ثم جماعة من فلاحى الجيرة ومزارعيها مثل مايثوهاتيجان ودوزان ثم الأب دمبسى قس روسكولن والعمة جودى ، وسرعان ما يشتبكون فى جدل سياسى على عادة الأيرلنديين ، فهذه رياضتهم المفضلة .

ويبدأ الجدل بالاحتفاء بلورانس ، فهم يرون أنه يجب أن يقيم بينهم وأن يرشح نفسه لعضوية مجلس العموم عن دائرة روسكولن . فأهل روسكولن قد فقدوا الثقة فى نائبهم الذى سقطت عضويته ، وهم لا يريدون تجديدها .

ويعتذر لورانس دويل بقوله ان معتقداته لا تناسبهم . ويصر أبوه على قبوله ترشيح نفسه لأن الدائرة مضمونة ، فيقول لورانس انه يرضى بذلك ان كانوا يرضون به وبأفكاره السياسية . ويقول بعضهم انهم لا يطلبون الا شيئا واحدا وهو أن تتركهم الدولة وشأنهم فلا تتدخل فى تنظيم أمورهم . أما لورانس فيرى عكس ذلك . ويقول لهم صراحة انه لا يؤمن بحرية التجارة ولا بحرية الصناعة ولا بالحرية التى يستغلها فريق من المجتمع لاسترقاق فريق آخر . انه كان دائما ضد الارستقراطية المتبطلة التى تعيش فى ترف على مجهود غيرها ولكنه لا يعتقد أن صغار الملاك أكثر نزاهة من الأرستقراطية فى استغلال الفلاحين الأجراء ، من أمثال باتسى فاريل أو أقل جشعا . واذا أصبح عضوا فى مجلس العموم فسيطالب بتحديد حد أدنى لأجور الفلاحين الأجراء

قدره جنيه فى الأسبوع ، فهذا ما يتكلفه البغل الذى يجر لهم المحراث على أقل تقدير ·

وتصخب الجماعة ويعلو صياحها احتجاجا على هذا الذى تسمع ويتهمون لورانس بالجنون ويبدون اشمئزازهم من نظرية تدخل الدولة · ويسأله الأب دمبسى فى قلق ان كان يريد تدخل الدولة أن يمتد الى الكنيسة أيضا ، فيجيبه بالايجاب فهو لا يؤمن بفصل الدين عن الدولة بل يؤمن بأن الكنيسة يجب أن تحميها الدولة وتعلى كلمتها وتقيها الشحاذة ، بشرط أن يكون مركز الكنيسة أيرلندا لا انجلترا· وهو يرى أن الكنيسة الكاثوليكية الأيرلندية تعتمد فى قوتها على نشر الخرافات بين الجهلاء وهو يريد لها أن تكون كنيسة قائمة على العقل والبر والتقوى ، وأن تسمو على الدنيويات وعلى طلب السلطة والجاه · وأن تتجرد من الأطماع ، حتى تبز كنيسة روما ، وما هذا فى نظره ببعيد، فروما رغم كل ما سفك للشهداء من دماء لا تزال فى قرارتها وثنية ·

ويستولى الهياج على الأب دمبسى حين يسمع هذا الكلام الغريب ويصيح فيه قائلا له : انه أشد جنونا من المجذوب بيتر كيجان الذى يهذى حول اصلاح الكنيسة ·

وهنا يحتج برودينت على هذه الأفكار الرجعية التى ينادى بها صديقه لورانس دويل ، ويدافع عن مذهب الأحرار الليبرالى · انه لا يؤمن بتدخل الدولة فى تنظيم العلاقات الاجتماعية ، وهو قد ناهض دائما فكرة المحافظين الداعية لهيمنة الدولة على كل شىء · انه يؤمن بتخفيف الضرائب الى أقصى حد مستطاع وبازالة جميع الحواجز والرسوم الجمركية التى تثقل كاهل المنتج والمستهلك معا · انه يؤمن بالمبادىء العظيمة الثلاثة التى وضعها حزب الأحرار وهى السلام والانطواء والاصلاح ·

ويستمع اليه المزارعون مبهورين لهذه الأفكار التى يجدون فيها خير معبر عن مصالحهم المباشرة قصيرة الأجل التى

لا يرون سواها وان كانوا لا يفهمون علـى وجه التحـديد ما قصـده برودبنت « بالانطـواء » فيجـد برودبنت فى استفسارهم المناسبة لكى يلقى عليهم خطبة رنانة لا يقـدر عليها الا انجليزى • الانطواء هـو عكس التمدد ومعنـاه : فلتسـقط الامبراطورية : فليحيـا انفصـال أيرلندا عن انجلترا !

« ان كل ما أستطيع أن أقوله كانجليزى هو أن وجهى يحمر خجلا من الاتحاد • انه أسود لطخة تلـوث تاريخنـا القومى ، وانى لأترقب والأمل يمـلأ صـدرى مجىء ذلك اليوم ، وهو ليس ببعيد أيها السادة ، يوم قيام سلطة شرعية فى ايرلندا مرة أخرى على مراعى كوليدج جـرين الزمردية يـوم يخفق مكان العلم البريطانى ، ذلك الـرمز البغيض للاستعمار المنهار ، علم أخضر فى خضرة هذه الجزيرة التى يرفرف عليهـا ، علم لن نطلب فى رقعتـه لانجلترا شـيئا الا جانبا بسيطا احتفاظا بذكرى حزبنا العظيم •• » •

أما الأب دمبسى والكنيسة الكاثوليكية الأيرلندية ففى استطاعتهما أن يطمئنا كل الاطمئنـان لأن مبـادىء حزب الأحرار تقوم عـلى ضمان حرية العقيدة وعـلى الفصل بين الدين والدولة • وهو لا ينسى أبدا أن المنطقـة بحـاجة الى حلبة كريكت والى مدرسة والى مستشفى •

ويؤخذ الجميع بأقوال برودبنت البراقة ويقبلون عليه مهنئين كأنهم عثروا على ضـالتهم المنشـودة • ويدعونه الى ترشيح نفسه لعضـوية مجلس العموم نيـابة عن دائـرة روسكولن ، فيتظاهر بالتمنع الكاذب ، ويقول للأيرلنديين البسطاء : «لا تنسوا يا اخوانى أنى سكسونى» • وتستعصى عليهم كلمة سكسونى فيشرحها قائلا : لا تنسوا يا اخوانى أنى انجليزى •• ومن الخير أن يمثل أيرلندا أيرلنديون فى مجلس العموم • ولكنهم يصرون على ترشيحه فيقبل •

وينصرف الجمع فى غبطة ، ولا يؤسفهم فى كل ما سمعوا الا أن لورانس دويل الذى كان معقد رجائهم قد عاد اليهم

بأفكار شاذة كتحديد الأجور وتدخل الدولة في شئون الناس. ولا يبقى الا هافيجان الذى يتخلف ليشترى خنزيرا من كورنيليوس دويل ، وبعد أن تتم الصفقة يمضى هافيجان الى حال سبيله •

وهنا تبرق فكرة فى ذهن برودبنت • انه سيحمل الخنزير بنفسه فى سيارته الى منزل هافيجان فى المدينة ، وسيراه أهل روسكولن فيأسر قلوبهم بهذه الديمقراطية الشديدة • ويحذره لورانس دويل من أنه لو فعل ذلك لأصبح أضحوكة البلد ، ولكن برودبنت يجيبه فى برود الانجليز : ان فى ضحكهم كسبا وسأكون أنا من أكثرهم ضحكا • ويأمر برودبنت الفلاح باتسى أن يمضى الى الحظيرة ويعود بالخنزير ، ويأمر خادمه هودسون الذى يبغض الأيرلنديين أن يتلطف معهم ويبش لهم ، وأن ينطلق ليجمع أكبر عدد من الأهالى لمشاهدة النائب المحترم توماس برودبنت يحمل فى سيارته خنزير هافيجان فيؤمن الجميع بتواضعه وشعبيته •

ولكن الأمور لا تجرى أول الأمر بحسب ما رسم توماس برودبنت • فحين انطلقت السيارة والخنزير فى مقاعدها الخلفية ، جفل الخنزير من الحركة والسرعة والمفرقعات التى سمعها فوثب كالمجنون من المقاعد الخلفية الى المقاعد الأمامية فاضطربت عجلة السواقة فى يد برودبنت وافلت منه زمامها • ثم قفز الخنزير الى الشارع وجرى كالمجنون أمام السيارة ولم يستطع برودبنت تفادى الأمر فصدمه ومزقه اربا وجمحت منه السيارة فدخلت فى محل لبيع الصينى ثم ارتطمت أخيرا فى جدار فتهشمت بعد أن نشرت الفزع بين المارة •

وبعد الفزع كان الضحك ، فلم تضحك روسكولن منذ عشر سنوات كما ضحكت فى ذلك اليوم الحافل بالمفاجآت • وكان كل من فى البلد يتندر بالحادث هازئا ببرودبنت •

وفى بيت كورنيليوس دويل التقت الجماعة وكانت

لا تزال تضحك ضحكا هستيريا • وقال كورنيليوس معقبا : « لقد انتهت مسألة ترشيحه • فالناس سيضحكون منه حتى يخرج من البلد » • ولكن ابنه لورانس يجيبه قائلا : « هو لن يخرج ، فهو ليس أيرلنديا ، وهو لن يفهم أنهم يضحكون منه ، وفيما هم يضحكون سيفوز هو بالمقعد » •

وقد حدث شيء مما تنبأ به لورانس دويل ، فان توم برود بنت جعل من هذه المهزلة مناسبة ليستدر عطف الناس عليه • فجعل يخطب في حماس معبرا عن « آلمه » لتعريض حياتهم للخطر ، شاكرا لهم ما أسبغوه عليه من « عطف » في « محنته » واعدا أنه سيعوض كل من أصابه أدنى ضرر بسخاء شديد • وفى مقدمتهم الفلاح باتسى الذى كسرت اصبعه فلم يتذمر بل أبدى استعداده لمزيد من البذل وهو أكبر دليل على صلابة الفلاحين الايرلنديين وحقهم فى الحياة الحرة الكريمة • حتى الخنزير المسكين الذى ذهب ضحية الحادث ذرف عليه برود بنت دموع التماسيح • ولا ينتهى برودبنت من خطبته الا والناس قد نسوا مهزلة اليوم وانصرفوا معجبين بهذا المرشح الذى يحسن الكلام المعسول !

ويلتقى برودبنت بكيجان فى بيت دويل ، ويتودد اليه ، فهو يعلم أنه وان لم يكن من رجال الكنيسة الرسميين الا أن العامة تتعلق به • وينظر كيجان الى برودبنت فى رثاء ويطمئنه على مستقبله • انه سيفوز فى الانتخابات لأنه يريد أن يفوز ولأنه يسلك كل سبيل يؤدى به الى الفوز • فيقول برود بنت ان فوزه أمر طبيعى ، فان أى انجليزى صادق لا زيف فيه يخاطب فى الناس منطقهم ويجعل شعاره القويم الاخلاص للمبدأ والتفانى فى الخدمة العامة يفوز حتما فى أى انتخابات ولو كانت فى آيرلندا • وهنا يجيبه كيجان فى هدوء قائلا : « يا سيدى فى أيام شبابى الجاهل كنت أسمى رجلا مثلك منافقا » • فيحمر وجه برود بنت ويستدرك كيجان قائلا : « لا تغضب يا سيدى ، فأنا أعرف أنك صادق وفى الانجيل آية تقول ، على ما تذكره ذاكرة

عجوز مثلى ، لا تجعل الجانب الأيمن من عقلك يعرف ما يفعله الجانب الأيسر • وقد تعلمت وأنا فى آكسفورد أن هذا هو سر قدرة الانجليزى الغريبة على الانتفاع بخير ما فى الدنيا وما فى الدين » • ويعرف برود بنت أن كيجان قد حور الآية التى تحض على الاحسان فى الخفاء « لا تجعل يدك اليمنى تعرف ما تعطيه يدك اليسرى » • ليثبت أن النفاق الانجليزى بلغ من التمام أن عقل الانجليزى نصفه يتحدث عن أسمى المبادىء ونصفه الآخر يتصرف بأحط غرائز الحيوان فى الوقت نفسه دون أدنى صعوبة ••

ويبتلع برودبنت هذه الاهانة على أنها نكتة لا لأن لورانس قال له ان كيجان يمزح ولكن لأنه وجد من المصلحة أن يتظاهر بأنه صدق كلام لورانس ، ولا سيما أن الجميع يقولون ان كيجان رجل مجذوب ، ويروون عنه أنه حضر وفاة وثنى أسود ليتشفع له ويستمطر الرحمة على روحه ، فخلع الشيطان روحه من جسده ودار بها ثلاثا ثم وضعها فى مكانها ، وهى لا تزال تدور منذ ذلك اليوم •

ويستفسر منه لورانس دويل عن أصل هذه الرواية فيقول كيجان انه سمع ذات مرات برجل أسود حضرته الوفاة ، وأن كل الناس خافت الاقتراب منه • فلما مضى اليه وجد أنه هندوسى عجوز ، وقص الرجل على كيجان قصة حياته • فوجدها قصة من أبشع قصص الشقاء الذى يمكن أن تنزله الأقدار برجل برىء وكأنها تجد لذة فى مطاردته والتنكيل به ، فلم يعرف بأى كلام يعزيه ووقفت الألفاظ على شفتيه ، ولكن الهندوسى العجوز نفسه لم يشتك مما أصابه من محن ، بل كان يقول انها قصاص حق عليه لخطايا ارتكبها فى حياة سابقة • ثم أسلم الروح دون أن يتلقى كلمة عزاء واحدة من كيجان ، وكانت عيناه هادئتين فى تسليم المؤمنين ، هدوءا لم يره فى وجه مسيحى على فراش الموت وكأنما سقطت غشاوة على عينى كيجان فعرف سر الحياة •

عرف أن هذا العالم مكان للتوبة والتعذيب ، مكان يسعد فيه الحمقى ويضطهد فيه الأبرار والحكماء ، مكان يعذب فيه الرجال النساء والنساء الرجال باسم الحب ويستعبد فيه الآباء البنين باسم التربية وطاعة الوالدين ، مكان يمزق فيه ضعاف الأجسام باسم علاجهم ويعذب فيه ضعاف الأخلاق بالسجن سنوات وسنوات باسم العدالة ، مكان يهرب فيه الناس الى الأشغال الشاقة لينجوا من بشاعات اللذة ، ولا يقوم فيه أحد بعمل صالح انتظارا لأجر على الأرض أو فى السماء • ان الدين لا يعرف الا مكانا واحدا للعذاب ، وهذا هو الجحيم • فلابد أن تكون حياتنا على هذه الأرض هى الجحيم • ولعلنا نشقى هنا عقابا لنا على خطايا ارتكبناها فى وجود سابق ••

هذا هو سر الحياة الذى تعلمه كيجان من الهندوسى العجوز •• وحين يسمع برودبنت هذا الكلام يقرظ مهارة الفكرة ولكنه لا يفهم سر هذا التشاؤم والاحساس بالشقاء ، فهو شخصيا لا يرى فى العالم شرا الا ما تخلف عن حكم المحافظين ، وهذا بالطبع يمكن اصلاحه بالحرية والحكم الذاتى والأنظمة الانجليزية ، فالمحافظون عنده كلهم من أصل أيرلندى ! وينصح برودبنت كيجان أن يتناول حبوب الفوسفور لعلاج المرارة ••

وينظر اليه كيجان فى هدوء ويقول : كلما نظرت اليك يخيل الى أن أيرلندا ليست أكثر من مطهر، ثم ينصرف•

وينفرد لورانس دويل بنورا لأول مرة منذ عودته الى أيرلندا • ويسأل كل منهما الآخر عن حاله • ثم ينفد ما فى جعبتهما من كلام ويتثاءب لورانس ، فتغالب نورا دموعها فى شجاعة فائقة • وهكذا ينهار أمل دام ثمانى عشرة سنة، وما أن يخرج لورانس الى الحديقة حتى تنهار أعصاب نورا فتتشنج تشنجا مكتوما ويخف اليها برودبنت ، ويمسح دموعها ويسرى عنها • وبعد أن تهدأ يعرض عليها الزواج من جديد بعد أن يمطرها بعبارات الحب والهيام • انه لم

يحب امرأة مثل ما أحبها • ان سحر أيرلندا كله وشعرها قد تجمعا فيها • ان الانجليزيات عنده كالنثر لا خيال فيه ، بل ان الانجليزيات عنده أشبه بالبفتيك الحي ، أما نورا فهى تفيض بالشاعرية والحنان •

ويمنعها حياؤها من أن تقبله على الفور زوجا لها ، ولكنها تقول بعد الحافه فى السؤال : ان المرأة فى أيرلندا اذا أراحت رأسها على صدر رجل كما فعلت معك ، فهى قد لا تتزوجه ، ولكنها قطعا لن تتزوج من سواه •

وما يفرغ برودبنت من فرائض الغرام ويطمئن الى أن انجلترا سوف تتزوج أيرلندا ، يعود الى الكلام فى العمليات• ان سعادته مزدوجة ، فهو سيتزوج من أجمل بنت فى أيرلندا وزوجته ستساعده على بناء مستقبله •.نعم ان نورا ستساعده فى حملته الانتخابية • ويجب عليها أن تزور زوجة دولان صاحب الخمارة ، فهو أوسع رجل نفوذا فى المدينة ولابد من كسب مودته •

وتثور نورا لأول وهلة لأن برودبنت يرضى لزوجته ان تخالط حثالة الناس لكى يظفر هو بمقعد فى البرلمان ، ولكنه يلقى عليها محاضرة فى الديمقراطية وزوال الحواجز بين الطبقات ، يذكرها أن سر تأخر أيرلندا وتقدم انجلترا هو بالذات تمسك الأيرلنديين بهذه التقاليد البالية ، وأخيرا تقتنع نورا •

ويعود كيجان ويعلم نبأ خطبة برودبنت الى نورا فيقول متهكما لبرودبنت ، انه معجب به فقد استطاع فى ٢٤ ساعة من وصوله أن يخطف أجمل بنت فى روسكولن وأن يظفر تقريبا بمقعدها فى مجلس العموم ولم يبق الا أن يستولى على روسكولن نفسها •

ولكن كيجان وهو يفكر فى هذا لم يكن يعلم أن هذا بالذات ما جاء برودبنت فى الأصل من أجله • فهو لم يأت ليخطب نورا ولم يأت ليرشح نفسه للبرلمان ولكنه جاء لينفذ

مشروعات « جمعية تعمير الأراضى » التى تملك نصف المنطقة تقريبا بحكم القوانين ، فالملاك كثير والكلام ٠٠ هافيجان ودولدن مدينون للجمعية وعاجزون عن السداد ، ولم يبق الا أن يأتى بحكم المحكمة والمحضر لتوقيع الحجز على أرضهم والاستيلاء عليها ٠

ان كيجان منزعج لما يسمع ، ولكن لا داعى للانزعاج ، فهو سيجد عملا فى مشروعاته لكل قادر على العمل من أهـل روسكولن ، أما من تجاوزوا الأربعين فهو ينصحهم بالهجرة الى أمريكا ٠ ان مستقبلا ضخما ينتظر روسكولن سيقيم فيها شركة للفنادق فتصبح بمناظرها الطبيعية الخلابة من اجمل مراكز السياحة فى العالم ٠ ولكن مستقبل روسكولن الأزهر لن ينكشف الا حين تؤول كل المنطقة الى جمعية تعمير الأراضى فالمستقبل للأكفاء ، أما هؤلاء الفلاحون البسطاء فلا يعرفون كيف يستغلون كنوز أرضهم ٠

وهنا يقول كيجان فى تهكم لاذع : نعم وستبيعون أسهم الجمعية بمنتهى الكفاءة وتقيمون الفندق بمنتهى الكفاءة ، ثم تفلس جمعيتكم بمنتهى الكفاءة ، وبعد أن تفلس الجمعية ستصفونها بمنتهى الكفاءة ثم تعيدون دراسة المشروع بمزيد من الكفاءة حتى يكون افلاسه الثانى أشد كفاءة من افلاسه الأول ، وبالتالى تكون تصفيته الثانية أشد كفاءة من تصفيته الأولى ٠ وهكذا تخربون بيوت المساهمين بمنتهى الكفاءة ، وتشترون بمالكم الخاص ذلك الفندق فتدفعون شلنات قليلة عن كل جنيه من الديون فى التصفية الأخيرة ٠

الماجور بربارا

لجورج برناردشو

الماجور « بربارا » أو « الصاغ بربارا » اسم لكوميديا من أشهر كوميديات برنارد شو ، كتبها سنة ١٩٠٥ ليصور فيها قطاعا من الحياة الانجليزية مليئا بالمتناقضات الاجتماعية والروحية ، وذلك هو ما يسمونه « جيش الخلاص » • وجيش الخلاص ليس جيشا بالمعنى المفهوم رغم أن فيه رتبا والقابا عسكرية مثل جاويش وكابتن وماجور أو صاغ وهكذا حتى رتبة جنرال • فجيش الخلاص جمعية خيرية دينية يتطوع فيها الناس «جنودا» لله ينشرون الفضائل الدينية وينتشلون الضالين ، ولا سيما الفقراء ، من وهدة الرذيلة ، ويحلون كل المشاكل الاجتماعية عن طريق البر بالمحتاجين ، له مراكز أو ملاجئ مبثوثة فى أمكنة كثيرة أبوابها مفتوحة لكل مذنب راغب فى التوبة ، من يدخلها تتخلص روحه من الخطيئة وتحنو عليه بالغذاء والكساء • لهذا اجتذب جيش الخلاص عددا لا بس به من سراة القوم الذين يؤمنون بأن البر بالفقراء خير علاج للثورات وأن أبراج المعابد أحسن مانعات للصواعق الاجتماعية •

ومن هؤلاء المؤمنين بجيش الخلاص طائفة مخلصة فى ايمانها ومثلها الآنسة بربارا أندرشافت التى تدرجت فى جيش الخلاص حتى بلغت رتبة ماجور أو صاغ وعرفت باسم

الماجور بربارا • والماجور بربارا فتاة جميلة تشيع فى نفسها نورانية الفضائل الدينية • ولكنها ليست مجرد نورانية ملائكية بل نورانية تشتعل بحماس البشر لمعتقداتهم ولمشروعاتهم ، فهى نورانية نارية •

والماجور بربارا هى بنت سيدة من علية القوم فى انجلترا ، هى الليدى بريتومارت آندرشافت ، وهى فى نحو الخمسين من عمرها تعيش فى دارها الجميلة فى لندن مع أولادها الثلاثة : ستيفن وهو شاب فى الخامسة والعشرين جاد فى كل شىء ، تعلم فى كلية هارو ثم فى جامعة كمبريدج ، قوى الشخصية ولكنه خجول يرهب أمه بحكم العادة لا بحكم الضعف • ثم سارة ، البنت الكبرى ، وهى نحيلة القوام لا تعرف الأحلام ولا يثير اهتمامها شىء ، لها خطيب اسمه تشارلز لوماكس من الشبان الوجهاء لا يختلف عن أى شاب وجيه من شبان لندن الوجهاء • ثم بربارا ، أجمل الأختين ، وهى ترتدى دائما زى جيش الخلاص ، ولها خطيب هو البروفسور أى الأستاذ أدولف كزينس ، وهو أستاذ فى اللغة اليونانية القديمة شديد الذكاء واسع الحيلة جاء الى انجلترا من استراليا ، وتعد حياته مثلا فى العصامية والكفاح •

وذات مساء تدعو الليدى بريتومارت ابنها ستيفن لحديث مهم ، وتذكره أنه لم يعد غلاما فقد أصبح رجلا يجب أن يعتمد عليه • وهى ترى أن أعباء الأسرة قد أثقلت كاهلها ، أو على الأصح أعباء تصريف أمور الأسرة ، فهى قد اضطلعت بها وحدها حتى هذه اللحظة • وهى لهذا قد دعت ولدها ستيفن لتستشيره وتجعله يشاركها هذه المسئولية • انها مرتاحة الضمير فقد وجدت لبنتها سارة خطيبا مناسبا ، فتشارلز لوماكس سيصبح مليونيرا حين يبلغ الخامسة والثلاثين ، أى بعد عشرة أعوام ، فهكذا شاءت وصية أبيه ألا تؤول اليه الثروة الا فى هذه السن ، وحتى يبلغها تخصص له ٨٠٠ جنيه سنويا ، وتشارلز طبعا لن يستطيع أن يعول سارة على هذا المبلغ ، فهى ستكون بحاجة الى اعانة قدرها

٨٠٠٠ جنيه سنويا • كذلك الأمر مع بربارا فخطيبها أدولف كزينس أستاذ للغة اليونانية والأساتذة فقراء ، فهي اذن ستكون بحاجة الى اعانة قدرها ٢٠٠٠ جنيه سنويا • وأخيرا فهناك ستيفن نفسه الذى يجب أن يفكر فى الزواج والاستقرار ، وهذا أيضا يستلزم اعانة مالية كبيرة •

أما مصدر كل هذه الاعانات ، فهو السيد الوالد المحترم ، مستر أندرو أندرشافت ، زوج الليدى بريتومارت الغائب عن المنزل • وقد كانت الليدى بريتومارت تتجنب الحديث عنه مع أولادها • أما الآن وقد ظهرت الحاجة الى كل هذه الاعانات فلم يعد بد من التفكير فيه • وهى قد دعته لزيارتها هذا المساء لتعرفه باولاده الذين لم يرهم ، منذ ان كانوا صغارا ولتعرفه بخطيبى بنتيه • ويتالم ستيفن حين يعرف من أمه برغبتها فى طلب العون منه ويقول انه لن يقبل منه بنسا واحدا • فهو رجل جمع ملايينه من الحرام ، وهو صاحب مصانع اسلحة أرندرشافت ولازار التى تربح الارباح الجنونية من امداد المتحاربين فى كل مكان بالأسلحة وفى كل يوم يخرج من مصانع أندرشافت اختراع جهنمى جديد اشد فتكا من سابقه ، والجرائد لا تكف عن الحديث عن طوربيد أندرشافت وغواصة أندرشافت ومدمرة أندرشافت الجوية ومدفع أندرشافت • ويصعق ستيفن حين يعرف من أمه أنها قد دعت أباه فعلا لزيارتهم فى ذلك المساء • وتطلعه أمه على سر خطير ، وهو أن اباه كان لقيطا • ويظن استيفن أن أمه انفصلت عن أبيه عندما اكتشفت هذا السر ، ولكن الليدى بريتومارت تقول ان أندرو اندرشافت لم يكن بالرجل الذى يخفى عنها شيئا من هذا القبيل ، فشعاره هو :

« لا يعرف الخجل » • ولكن سبب انفصالهما أنه أراد أن يحرم ولده ستيفن نفسه من ميراث أندرشافت لصالح لقيط مثله • وقد تجاوز هذا احتمال الليدى بريتومارت فقررت الانفصال عنه •

ان ستيفن لم يعد غلاما ، ويجب أن يعرف كل شىء عن

حقيقة أبيه : ان آل أندرشافت منحدرون منذ ثلاثة قرون من لقيط وجده صانع أسلحة فى ملجأ القديس أندرو أندرشافت فتبناه باسم القديس ورباه وترك له ثروته وصناعته • وقد تبنى هذا اللقيط بدوره لقيطا مثله ، وترك له اسمه وثروته صناعته • ولسبب من الأسباب ، لعله الشعور بالوفاء أو لعله عهد فى الأسرة ، استمر الحال على هذا المنوال ، وتبنى اللقيط لقيطا جيلا بعد جيل ليدير أعماله ويرتب مصانعه حتى ان صناعة المدافع انحصرت دائما فى لقيط اسمه أندرو أندرشافت • فلما عرفت الليدى بريتومارت بنية زوجها أن يتبنى لقيطا لم تر بدا من الانفصال عنه • ولكنها أخيرا قد دعته لزيارتها لتطلب منه اعانة أولاده الذين كبروا ، فمن غير المعقول أن يتمرغ هو فى الملايين وأن يعيش أولاده فى حرمان •

وفى الساعة التاسعة يصل مستر أندرو أندرشافت ، فاذا به رجل ضخم الجثة بسيط فى مظهره وديع فى أخلاقه يحسن الملاحظة والانصات والكلام ، ولكن من يتأمله جيدا يدرك أن وداعته هذه وداعة الرجل القوى الذى علمه الاختبار أن قبضته القوية تسحق الناس العاديين ما لم يترفق فى معاملتهم • وتقدم اليه الليدى بريتومارت أفراد الأسرة فيعجب أولا لأن عددهم خمسة وهو لا يذكر أن له أكثر من ثلاثة أولاد • ويقبل الأمر الواقع ، ولكنه يخطىء فلا يميز ولده ستيفن فيشد على يد تشارلز لوماكس متوسما فيه أنه ستيفن فيحدث ارتباك ولكن أدولف كزينس ينقذ الموقف بكلامه الواضح المرتب فيعرفه بأسماء الجميع ويفهمه أنه خطيب بربارا وأن تشارلز خطيب سارة •

وحين يعلم أندرشافت بأن بنته بربارا انخرطت فى جيش الخلاص ينظر الى زوجته نظرة متسائلة ، فتعتذر الليدى بريتومارت أنها لا دخل لها بهذا ، وأن بربارا راشدة تسلك السبيل الذى تختار وهى على كل بغير أب الى جوارها ينصحها بما ينبغى عمله • وهنا تقول بربارا مصححة : بل

ان لها أبا وهو دائما الى جوارها ينصحها بما ينبغى عمله ، وهو أبوها الذى فى السموات ، وأن جيش الخلاص ليس فيه يتامى • ويقول أندرشافت انه مهتم بجيش الخلاص لأن شعاره هو : « الدم والنار » يمكن أن يكون شعار أندرشافت نفسه •

وتصححه بربارا قائلة ان الدم دم المسيح والنار نار الايمان أما الدم والنار العالقان باسم أندرشافت صانع المدافع فهما شيء آخر • وتدعو بربارا أباها أن يزورها فى ملجأ وستهام ليرى الأعمال النبيلة التى يعملها جيش الخلاص، وأن يخرج معهم الى الاجتماع الكبير على رأس المؤمنين ان كان يعرف كيف يعزف على آلة موسيقية ، فيقول أندرشافت ببساطة انه كان فى صباه يشحذ فى الشوارع بعزف الترومبون • ويصعق تشارلز لوماكس لهذه الصراحة • وتدافع بربارا عن أبيها قائلة ان الله بفضل جيش الخلاص يغفر لكثير من الخطاة التائبين خطاياهم سواء سبحوا باسمه على الترومبون أو على أية آلة أخرى • ان الأستاذ أدولف كزينس يضرب الطبلة ويسير معها فى مقدمة « الاخوان » و « الأخوات » وهم يرتلون : « الى الأمام ، يا جنود المسيح » ! ويلمح تشارلز لوماكس بأن من كان فى صناعة أندرشافت لا يفكر فى دخول الملكوت • وتنهره الليدى بريتومارت على قلة ذوقه ، ولكن أندرشافت يقول مبتسما ان صدره رحب ومعنوياته عالية فى ذلك المساء لأن المدفع الجديد الذى جربته مصانعه نجح نجاحا باهرا فنسف سبعة وعشرين جنديا خشبيا بدلا من ثلاثة عشر جنديا •

ويقول تشارلز لوماكس معتذرا عنه : طبعا كلما ازدادت الحرب تدميرا اقترب يوم الغائها • ولكن أندرشافت يجيبه فى بساطه أنه يشكره على هذا الاعتذار التقليدى عن تجارة الحرب وعن أدوات الدمار ، ولكن الحقيقة هى ان الحرب كلما ازدادت تدميرا ازدادت سحرا • وهو لا يخجل من الاعتراف بهذا لأنه يفصل فصلا تاما بين الاعمال والاخلاق • وهذا سر تفوقه على غيره من منافسيه من صانعى الأسلحة •

فهم يبنون المستشفيات والكنائس وغيرها من مسكنات الضمير بأموالهم الفائضة ، أما هو فينفق كل بنس فائض على اجراء التجارب الجديدة لترقية وسائل التدمير • ويحمل أندرشافت على الأخلاق المسيحية التى تدعو للضعف والمسالمة قائلا ان مذهبه لابد أن يتسع للمدفع والطوربيد • واذاكانت هذه الأخلاقيات لا تناسب بعض الناس فهى تناسب غيرهم •

ويقول ستيفن ان أباه يقصد أن بعض الناس خيرون وبعضهم أشرار ، ولكن أندرشافت يقول ان كل الناس أشرار • أما بربارا فتقول ان الناس ليس فيهم الخير والشرير ، فكلهم أبناء الله وكلهم خطاة كل على طريقته الخاصة ، وباب الخلاص مفتوح لهم جميعا على قدم المساواة اذا اختاروا طريق التوبة • ويسأل أندرشافت ابنته بربارا ان كانت قد خلصت روح صانع مدافع ، فتجيبه أنها تحب أن تجرب ذلك معه • فيقول أندرشافت انه مستعد لزيارة ملجئها فى صباح اليوم التالى بشرط أن تزور مصانعه الحربية فى اليوم الذى يليه • وهكذا يتواعد الأب وابنته ، وكل منهما يحاول اقتناص روح الآخر • أما ستيفن فيبدى اشمئزازه من أبيه لأمه ، ولكنه يقبل أخيرا تحت ضغط الليدى بريتومارت أن يصحب الآخرين فى هذه الزيارة •

وفى صباح اليوم التالى نرى فى ملجأ وستهام الذى تديره الماجور بربارا عاملا شابا تبدو عليه مخايل المكر والمخادعة ومعه سيدة زرية الهيئة ، وكلاهما مشغول بالتهام ما قدم له من الطعام •

أما الرجل فهو مستر سنوبى برايس ، وهو عامل عاطل حاقد على المجتمع يتباهى بذكائه وأطلاعه فى الحركات العمالية • وقد عضه الجوع فذهب الى ملجأ جيش الخلاص ليأكل وفى رأسه خطة ماكرة وهى أن يزعم للماجور بربارا بأنه رجل سكير عربيد مقامر يعود كل ليلة الى بيته ثملا ويضرب أمه الطيبة الصالحة ويجرها من شعرها الأشيب ••

ولكنه رأى نور الهداية ، فجاء والنـدم يمزق قلبه يلتمس التوبة والتطوع فى جيش الخلاص • وهو بهذه القصة المؤثرة يستطيع أن يضمن ملء بطنه فى الملجأ وربما بعض الشلنات ولن يكلفه ذلك الا أن يقف فى الاجتماع الكبير و « يعترف » أمام الاخوة بذنوبه المزعومة هذه فى لهجة التائب وسيجمع له الاخوة فى القبعة ما تيسر من صدقة المحسنين •

وأما السيدة فهى مسز رمى ميتشنز ، وهى امرأة على شاكلته ، أخنى عليها الدهر فكانت تبيت على الطوى ، وأخيرا هدتها قسوة الحياة الى الذهاب الى الملجأ ، وهناك صورت نفسها فى صورة المرأة الضالة التى كانت ترتزق من عرضها ونسبت الى نفسها شناعات لم ترتكبها كل ذلك لتجد لقمة تتبلغ بها•

وتقوم على خدمة الخطأة التائبين عن الماضى بنت طيبـة من متطوعات جيش الخلاص ، اسمها جنى هيل ، فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقود جنى هيل رجلا مسنا يدعى بيتر شيرلى بادى الهزال من شدة الجوع ، ثم تقدم له ما يطعم به • ويحتج بيتر شيرلى على الحياة مدعيا انهم فصـلوه من عمله بسبب شعره الأشيب فقد حسبوه مسنا وهو لم يتجاوز السادسة والأربعين ، ولكنهم يطردون الرجال ليستخدموا الشبان •

وتهدىء جنى من روعه وتعظ جماعة الصعاليك بفائدة الصلاة • وفيما هى تصيب نفوسهم يقتحم الملجأ صـعلوك جديد ، هو بيل ووكر • ولكنه صعلوك غاضب ينادى بالويل والثبـور ويصرخ قائلا : ان الملجأ اختطف منه صـاحبته « ليخلص روحها » ، وأنه يأمرهم بردها اليه ليهشم وجهها ويؤدبها على تركها اياه • وتتدخل رمى لاسكاته فيصفعها ثم يجذب جنى من شعرها ويلكمها ، وهى تصـيح « سـامحك الله ! سامحك الله » !

وتستدعى الماجور بربارا لترى ما الخبر فتجيل نظرها فى هذه الوجوه الكثيرة فتبدأ بالتعرف عليهم واحـدا بعـد آخر • وتبدأ ببيتر شيرلى فتسأله عن خطبه فتعرف حـكاية

الاستغناء عنه للشيخوخة ، فتعزيه بقولها ان الله سيكون بجانبه مادام مستقيما لا يسكر ولا يراهن في السباق كما يقول • فيغضب شيرلى ويقول انه لا يحب الخوض في الملك والمعتقدات انما هو يطلب عملا • فتجيبه بربارا باسمة : اذا كنت لا تؤمن بالآخرة فلا تخجل من ذلك ، فوالدى كذلك لا يؤمن بالآخرة • وتعده بأن تجد عملا لرجل مجد مستقيم مثله •

ثم تلتفت الماجور بربارا الى بيل ووكر الذى ينظر الى خلقتها الممتازة ويستمع الى لهجتها الممتازة فيزيده هذا تحديا فيقول وكأنه يتحدى مجلس اللوردات نفسه : «اسمى بيل ووكر » فتقول بربارا : «أنت اذن الرجل الذى كانت جنى هيل تصلى من أجله منذ هنيهة في الداخل » • ويقول بيل ووكر انها لا شأن لها به حتى تصلى من أجله • ان لكمته جرحت شفتها وهو يعلن انه لا يهابها فتقول بربارا : « طبيعى كيف تهابنى وأنت لا تهاب الله » • وتعنفه بربارا على أن يده امتدت على بنت ضعيفة مثل جنى • ويحس بيل ووكر بوخز الضمير ولكنه يمضى في مكابرته • انه لم يأت الى ملجئهم ليشحذ ، وانما جاء ليسترد فتاته موج ابيجم • ويعرف بيل ووكر من بربارا أن « موج » انتقلت الى ملجأ آخر في كاتنج تاون ، وأنها اصطفت لنفسها صديقا آخر • ويشتد هياج بيل ويهدد بأنه سيمضى الى كاننج تاون ليؤدب وليؤدب صاحبها الجديد ، ولكن بربارا تخبره أن صاحبها الجديد هو الجاويش فيرمايل الذى كان حتى عهد قريب بطل المصارعة من الوزن الثقيل في صالات الموزيكهول ثم أقلع عن المصارعة واتجه بكليته للدين • فيتردد بيل ووكر • ولكن بربارا تشجعه على مقابلة الجاويش فيرمايل لعله يهديه الى طريق الدين • وتخرج جينى هيل فيرى بيل ووكر شفتها المجروحة وتعود بربارا الى تعنيفه فيستولى عليه وخز الضمير ، ولا سيما حين تقف جينى هيل الى جواره لتثبت له أنها لا تحمل له

ضغينة ، ولكنه مع ذلك يمضى فى غضبه المختلط بالنـدم ثم ينصرف •

وفى هذه الأثناء يأتى الأب أندرشافت فتقدمه بربارا الى شيرلى قائلة انهما على شاكلة واحـدة فكلاهما لا يؤمن بالآخرة • ويحتج أندرشافت عـلى هـذا التعريف قائلا انه متصوف • بكل ما فى الكلمة من معنى • وهنا تسأل بربارا أباها : « ما دينك » ؟ فيجيبها أندرشافت قائلا : « دينى ؟ أنا مليونير يا ابنتى الحبيبة : ها هـو دينى » • فتقـول بربارا : « اذن فأنت ومستر شيرلى لستما على شاكلة واحدة ، فمستر شيرلى رجل فقير » • فيضيف شيرلى قوله : « وفخور بأنى فقير » •

أندرشافت : ليس الفقر يا صديقى شيئا يفتخر به ؟

شيرلى (غاضبا) : من صنع لك ملايينك ؟ أنا وأمثالى ؟ ماذا جعلنا فقراء ؟ اننا نجعلكم أغنيـاء • أنا لا أرضى أن يكون لى ضميرك ولو كان لى كل دخلك •

أندرشافت : وأنا لا أرضى أن يكون لى دخلك ولو كان لى كل ضميرك •

وتحسم بربارا هذه المبارزة الكلامية بين شيرلى وأبيها فتمضى بشيرلى الى الداخل بعد أن تعـرفه بخطيبهـا ادولف كزينس ، أستاذ اللغة اليونانية الذى دخل جيش الخـلاص لا ليعبـد الله ولـكن ليعبـد بربارا • وينفرد أندرشـافت الحصـيف بالأسـتاذ أدولف كزينس ، وقد ادرك بفطنتـه ما أدركته الليـدى بريتومارت من قبـل ، وهـو أن أدولف كزينس يبدى كل هذا الاهتمام بجيش الخـلاص ويسير فى مواكبه يدق الطبل المعلق حول عنقه من أجل بربارا لا من أجل جيش الخـلاص • ويسـأل أندرشافت أدولف كزينس فجأة : « ماذا سيحدث اذا اكتشفت بربارا أمرك » ؟ ويحاول أدولف كزينس أن يتظاهر بأن اهتمامه بجيش الخـــلاص اهتمام حقيقى ، فهو مهتم بجميع العقائد : وهو يجمعها ،

والغريب أنه يجد أنه يصدقها جميعا • ويسأل أدولف كزينس أندرشافت عن عقيدته فيجيبه أنه يعتقد فى شيئين : المال والبارود • أما أدولف كزينس فيذهب يتحدث فى حماس عن جيش الخلاص وعن الفقراء وعن خدمة الفقراء وعن نشر فضائل الرجولة والدين والاحساس بالمسئولية بين السكارى والمعربدين •

ويقول أندرشافت انه أيضا يهتم بجيش الخلاص لأنه ينزع أنياب الفقراء ويمنعهم من السكر ويجعل منهم عمالا أمناء سعداء متقنين لعملهم متعلقين بذويهم مجردين من حب الذات • فالسعداء لا يثورون • والمنكزون للذات يزيدون الأرباح والمتجهون بكليتهم الى الأمور السماوية وحدها لا يفكرون فى التنظيمات النقابية أو الاشتراكية •

وانما المشكلة عند أندرشافت ليست جيش الخلاص ولكن بربارا • فهو يستطيع أن يشترى جيش الخلاص بماله • ولكن المهم أن تكون بربارا ملكا لهم لا لجيش الخلاص • فالطريق الوحيد الى قلب بربارا هو العاطفة الدينية ، وهو على استعداد لأن يقف بجوارها وبجوار أدلف كزينس لتدعيم جيش الخلاص •

وهنا يعود بيل ووكر وهو فى حالة عجيبة من الارتباك والدهشة ، وتخرج اليه بربارا وجينى والباقون ، فيروى عليهم بيل ما حدث له مع المصارع قائلا انه مضى الى كانتج تاون باحثا عن موج وصديقها ونفذ بالضبط ما اعتزم أن ينفذه ، فاتجه الى المصارع وبصق فى وجهه ، ولكن المصارع بدلا من أن يعتدى عليه ركع على جسم بيل ونظر الى السماء قائلا : « يا رب اجعلنى جديرا بأن يبصق على من أجل الانجيل » ! وحذا كل من بالقاعة حذوه فجثوا وأخذوا يصلون : « يارب اكسر روحه العنيدة ولكن لا تكسر قلبه العزيز بشىء » • ثم علت أصواتهم : « هللو يا ! هللو يا » !

وبعد أن روى بيل ووكر روايته قال : هذا جنيه هو

كل ما عندى ، وأنا أريد أن أدفعه تعويضا عن اساءتى لجينى ٠٠ لكن جينى رفضت قبوله لأنها غفرت لبيل ووكر اساءته ٠ غير أن بيل ووكر ذا الروح المعذبة والكبرياء البشرى لا يريد الحديث فى المغفرة ، ويصر على دفع التعويض ٠ وتقترح جينى وضع الجنيه فى صندوق احسان جيش الخلاص ، ويعرض أندرشافت أن يضيف عليه تسعة وتسعين جنيها لتكمل المائة ٠ ولكن بربارا ترفض أن تقبل مال أبيها الوارد من الحرام وترفض أن تقبل بنسا واحدا لا يقدم بروح التوبة وتقول لبيل ووكر : « ! ان الجيش لا يشترى ٠ نحن نطلب روحك يا بيل ، ولن نقبل أقل من ذلك » ٠

وأخيرا يسأم بيل ووكر هذا الموقف فيقذف بالجنيه على الطبق ويمضى لحال سبيله وهو يتمتم « لقد عرضت أن أدفع ، هذا كل ما عندى » ٠ ويرى العاطل الأفاق سنوبى برايس الجنيه على الطبل فيسيل لعابه ويدنو منه ويخفيه بكسكتته ثم ينصرف خلسة بالجنيه ٠

وفى هذه الأثناء تحضر مسز باينز ، رئيسة الماجور بربارا لتقابل مستر أندرشافت ، وتظن بربارا أولا أن مسز باينز انما جاءت لتهدى أباها سواء السبيل ٠ ولكنها فى الواقع جاءت لتشكو من المتاعب المالية التى يعانيها جيش الخلاص ٠ فدخر الجيش من المال أوشك أن ينفد واذا لم يأت الفرج قريبا اضطر جيش الخلاص الى اغلاق أكثر ملاجئه ٠ ولكم صلت مسز باينز لله أن يرسل المال ، وفعلا استجاب لها ، فهدى اللورد ساكسموندهام الى البر وألهم قلبه فوعد بخمسة آلاف جنيه اذا وجد جيش الخلاص محسنا آخر يتبرع بخمسة آلاف أخرى ٠

وتسأل بربارا ، ومن يكون اللورد ساكسموندهام هذا؟ أنا لا أسمع به من قبل ! فيجيبها أندرشافت انه لقب جديد رقى اليه السير هوراس بودجر أكبر مقطر للويسكى فى انجلترا ثم يبدى استعداده لدفع الآلاف الخمسة الباقية ٠

ويسقط في يد بربارا • محال أن تقبل بنسا واحدا من مال بودجر ، فهو مال دنس مثل مال أبيها • أنها تعلم ان جمع الشلنات والبنسات في القبعات أثناء الاجتماعات لا يحمى لاقامة الملاجىء ولا لنشر الدعوة الى الدين ، ولكنها توتر اى شيء على قبول مال جمع من أدوات الفتك أو من تقطير الويسكي • ان ويسكي بودجر هو العدو الأول الذى اوجد جيش الخلاص ليحاربه ، فكيف يقبل جيش الخلاص ان يكون عائله هو عدوه • ان اعلانات بودجر بالانوار والالوان تخطف أبصار لندن وتخطف عقول أبنائها ، وتغريهم يوميا بالسقوط ، وقد طلب جيش الخلاص من الحكومه ايقاف هذه الاعلانات صيانة لاخلاق الانجليز ، ولكنه خسر المعركة • فكيف تقول مسز باينز انها لا ترى مانعا من قبول هبته أو قبول هبة أندرشافت ! ان حجة مسز باينز هو أن لكل من اللورد ساكسموندهام ومستر أندرشافت روحا تستحق الانقاذ ، واذا كانا من الضالين فهذا سبب أدعى لأن يجاهد معهما جيش الخلاص • ثم ان بناء الملاجىء سينتهي حتما بانصراف الفقراء عن تعاطى الشراب والاقبال على الدين • فالواقع أن لورد ساكسموندهام انما يحارب مصالحه الخاصة يحارب ويسكى بودجر بهذه الهبة • وينتهز أندرشافت هذه الفرصة ليصور نفسه في صورة المثل الأعلى لانكار الذات ، فبماله سيدعو جيش الخلاص : المجد لله في الأعالى وعلى الأرض السلام •

واذا ساد السلام على ارض كان في ذلك خراب أندرشافت ولازار !

وتكون هذه هي النهاية بالنسبة للماجور بربارا • فتخلع بربارا شارتها وتعلقها على صدر أبيها مكافاة له على خطبته الرنانة • وقبل أن تنصرف نهائيا ترى بيل ووكر قادما للمرة الثالثة وقد أضاء وجهه بنورانيه من راى الخلاص ويشهد بيل طرفا من هذا الموقف فيفهم كل شيء وينطفىء في قلبه الايمان ويعود كما كان جاحدا • وتمده

بربارا يدها لبيل ووكر لتقول وداعا لهذا الذى رأى النور لحظة ثم عاد الى الظلام • انها لن تغفر لأبيها هذا : لقد كانت روح بيل ووكر فى يديها فجعلها أندرشافت تفلت من قبضتها •

وتخلع الماجور بربارا زى جيش الخلاص • وتغلق الانجيل وتفتح توماس بين •

●●

وكيف تنتهى هذه المهزلة العجيبة • فى اليوم التالى يستعد الجميع لزيارة المصانع الحربية لأندرشافت ولازار بحسب الاتفاق السابق • وقبل أن ينطلقوا يصف لهم أدولف كزينس الاجتماع الهستيرى الذى أعلن فيه نبأ هبة بودجر « وفاعل خير » •

فقد خشى أندرشافت أن يذاع اسمه فتهافت عليه الجمعيات الخيرية وتفلسه • سرت فى الاجتماع الكهرباء وترقرقت الدموع فى العيون وسقطت امرأة أو أكثر مغشيا عليهن من فرط التأثر بعد أن صحن : هللو يا ! هللو يا ! وآمن ١١٧ من الحاضرين وانخرطوا فى جيش الخلاص • أما أندرشافت نفسه فكان يعزف الترمبون كالمجنون ، وبعد الاجتماع اصطحب أندرشافت أدولف كزينس الى قصره الخاص ورواه بنبيذ شاربه لا يرتوى •

وتحاول الليدى بريتومارت أندرشافت أن تقنع زوجها بأن يورث المصانع الحربية لولده ستيفن ولكنه يرفض رفضا باتا قائلا ان من غير الأمانة أن يورث صناعة المدافع لولده • انه لم يخلق لهذا العمل ، ثم انه شبه يائس ، فقد أجرى البحث عن لقيط مناسب سنوات وسنوات ، وهو الآن قد استعرض كل لقطاء لندن ولكنه لم يجد بينهم واحدا يصلح لأن يخلفه •

ولكن أندرشافت الماكر يعرف أنه اقترب جدا من ضالته المنشودة ، ان أستاذ اللغة اليونانية هذا الذى خطب ابنته أدولف كزينس ، قد سخر بشخصيته وهو يعتقد انه

فى قرارته شبيه به رغم المبادىء والترهات التى يتمسك بها أو يقول انه يتمسك بها • انه أراد أن يجادله مرة فى صلاحيته لمصاهرته فكانت اجابته القاطعة ان زواجه من بربارا أمر مبتوت فيه ومفروغ منه وهو لن يقبل أن يجعل منه موضوعا للمناقشة • فليتحدث أندرشافت فى اى شىء آخر الا هذا : فليتحدث مثلا فى مدى العون المالى الذى يرضى بأن يقدمه الى ابنته • ان أدولف كزينس قال بالحرف الواحد : « أنا رجل اذا أردت شيئا حصلت عليه ولو تألبت على الأقدار » • انه أراد أن يتزوج بربارا دون أن يعلم أنها بنت أندرشافت فدخل جيش الخلاص من أجلها ، وحمل الطبلة من أجلها ، وغنى فى الشوارع : « الى الأمام يا جنود المسيح » من أجلها • وهو لن يتخلى عنها الآن وبالأخص لأنه اكتشف أنها ابنة الشيطان نفسه ! ان أدولف كزينس يفعل أى شىء ليصل الى هدفه ، هذا ما انتهى اليه أندرشافت • ولكن سجل حياة أدولف كزينس ضده • فهو أولا ليس لقيطا ، والمطلوب شخص بغير روابط انسانية على الاطلاق حتى تكون مصانع المدافع هى كل ارتباطاته الحقيقية فى الحياة • ثم ان أدولف كزينس متعلم ، وهذا ضده فهو يفضل عصاميا تعلم الحياة من كتاب الحياة • ولكن أهم من هذا كله ، من أدرى أندرشافت بأن أدولف كزينس يقبل أن تؤول اليه مصانع المدافع ؟

وتطوف الجماعة بمصانع أندرشافت ولازار ، فاذا هى مدينة كالفردوس تقع بين تلين ، كل ما فيها مرتب منظم آية فى النظافة والدقة والهدوء • وفى أطراف المدينة مساكن للعمال يتوق لمثلها السادة السراة ، فمن حدائق غناء الى حمامات سباحة الى حلقات التنس الى مكتبات عامة الى كل ما تفكر فيه أحدث التشريعات ، فأندرشافت يعلم أن اطمئنانه قائم على سعادة عماله ، فهو يسعدهم ما استطاع الى ذلك سبيلا حتى يصرف عنه سخطهم الاجتماعى ويلهيهم عنه بما بينهم من فوارق وامتيازات •

وبعد أن ينتهى طوافهم تقول الليدى بريتومارت لزوجها ان له أن يتصرف فى المصانع كما يشــاء أما المدينة نفسها فلا ، فهى حــق لأسرته مــؤكدا • أما أدولف فيختفى عن الجماعة ثم يعود اليها بعد حين • انه كان يجوس خلسة بين المصــانع ليقف عــلى دخائلها • ويلحظ آندرشــافت ذلك فيتفاءل ويبدأ هجومه •

ويدافــع أدولف كزينس دفاع المســتميت • ان كل مبادئه تتعارض مع صناعة المدافع ، فليبحث اندرشافت عن غيره • ولكن أندرشافت الماكر لا يلقى السلاح • انه يقــول فلنجعل مناقشة المبدأ أو المبادىء آخر شىء فى الموضوع • فللنظر أولا فى مؤهلاتك •• انه يرى أن الطبيعة أهلتــه لأن يخلفه لولا خلوه من الشرط الأساسى : فهو ليس لقيطا •

وهنا يطرق أدولف كيزينس قليلا ثم يقول انه يريد أن يعترف لهم بسر • فتتجه اليه الأنظار عاجبــة • نعــم انه لقيط • صحيح انه ابن شرعى لأبيه وأمه ولكنه يعــد ابن سفاح فى عرف القانون الانجليزى • فهو من استراليا وهو ابن أبيه من أخت زوجته الأولى التى توفيت • وزواج أخت الزوجة مشروع فى استراليا لكنه محرم فى انجلترا • وهو اذن مستوف لهذا الشرط الشكلى •

وهــل يقبــل أدولف كزينس أن يغير اسمه الى أندرو أندرشافت ؟ طبعا فمن كان يحمل اسما سخيفا مثل أدولف كزينس لا يمانع تغييره الى شىء آخر •

وكم يطلب ؟ هل يكفيه ألف جنيه فى السنة ؟ وهنــا يفتعــل أدولف كزينس الغضب ويقول : كيف تجــرؤ أن تعرض على هذا المرتب الحقير : أنا أشترط ألفين وخمسمائة جنيه سنويا لمدة سنتين وفى نهاية هذه المدة ، اذا فشلت فى عمــلى خرجت من الخــدمة ، أما اذا نجحت فانى أبقى مع اعطائى الخمسة آلاف جنيه الباقية • ويســأله أندرشافت عاجبا : أى خمسة آلاف باقية ؟ فيجيب آندرشافت الجديد : باعتبار أن أصل المرتب خمسة آلاف جنيه سنويا وانى انما

آخذ النصف فى حالة الفشل فقط أما فى السنة الثالثة فانى أطلب عشرة فى المائة من الأرباح ٠

ويرتاع أندرشافت حين يسمع هذه الشروط ولكنهما يتراضيان فى النهاية على النصف ٠

ولكن أدولف كزينس يعود الى تحفظاته بشأن المبدأ ٠ لابد أن ينفرد ببربارا قبل أن يعطى قراره النهائى ، فتتركهما الجماعة على انفراد انه قرر أن يقبل عرض أندرشافت ، قرر ذلك بغض النظر عن رأيها ، ولو عدلت عن قبوله زوجا ٠ ان حبه لها لن ينضب أبدا وهو يتمنى أن ترى بربارا الأمور من وجهة نظره وتجيبه بربارا قائلة : لو أنك رفضت عرض أندرشافت لعدلت عن قبولك زوجا !

بيجماليون

لجورج برناردشو

فى عام ١٩١٢ وضع برنارد شو مسرحيته المشهورة « بجماليون » بعد أن ظلت فكرتها تتردد فى ذهنه خمسة عشر عاما • وقد بناها على الأسطورة اليونانية القديمة التى جرت بأن فنانا يدعى بجماليون وفق الى صنع تمثال امرأة جميلة سماها غلاطية وعشق الفنان صنع يديه فتمنى على الآلهة أن تنفخ فيها الحياة فاستجابت الآلهة لدعائه وقيل انه ندم على ذلك •

ومسرحية « بجماليون » من أخصب مسرحيات برنارد شو ، فموضوعها متعدد النواحى وهو يحتمل أكثر من تأويل • فهو من ناحية اجتماعية يثبت أن الفوارق بين طبقات المجتمع فوارق مكتسبة أهمها استعمال اللغة وآداب السلوك • فاذا قيض لأحقر حقير أن يتعلم النطق السليم وأن يتدرب على آداب السلوك لما كان هناك فرق جوهرى بينه وبين أعظم عظيم فى المجتمع • وهو من ناحية انسانية يصور العلاقة بين العالم أو الفنان الخالق وبين صنع يديه • ان هناك علاقة أبدية بين الخالق وما خلق هى حب الأب لما أنجب من ولد وكل خالق يرى صورته فيما خلق •

ولكن المشكلة الكبرى مشكلة حدود : فكما أن الحدود مرسومة وواضحة بين السماء والأرض فان الحدود مرسومة

وواضحة بين كل عبقرى خالق وما خلق · ومن تجاوز هذه الحدود هلك ·

وانما يسعى العبقرى الخالق ليرفع أبناء الأرض الى سمائه ، وهو يقبل أن يجاورهم اذا رضوا أن يتجردوا من أدران المادة ومن أوحال الأرض ليعيشوا معه فى سمائه ·

أما سماؤه فبادرة لا دفء فيها ولا حياة ، لأنها سماء الفكر المجرد التى لا مكان فيها لعواطف الانسان ولا لمطالب الجسد ·

وهذه هى المشكلة التى تجابه الانسانية : كيف تصعد الى الذرا الصافية دون أن تتجرد من سحر الحياة ؟

والحل ؟ الحل لا يزال بعيدا ·

لأن غلاطية لم ترتق الا درجة واحدة من هذا السلم الطويل ··· ثم خافت من الصفاء المطلق فهربت الى عالمها الأول ·

(١)

نحن الآن فى كوفنت جاردن وهى حى من أحياء لندن حيث دار الأوبرا تجاور سوق الخضر وكنيسة سانت بول · وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة مساء ، وانصرف النظارة عن دار الأوبرا ، وتفتحت مزاريب السماء فانهمرت الأمطار بغزارة وهرع السابلة الى مدخل الكنيسة ليحتموا بين أعمدة المدخل من البروق والرعود ومن ماء السماء ·

وعلى درج الكنيسة وبين أعمدة مدخلها اختلطت علية القوم لابسين ثياب السهرة بأوساطهم وسفلتهم وكلهم مشغول بهذا الجو المطير الا رجلا واحدا بينهم أدار ظهره للجميع

وذهب يدون فى مذكرته أشياء فى انهماك تام • وكان هذا هو الأستاذ هنرى هجنز وهــو علامة فى الأربعين من عمره تفقه فى الفونطيقا أى علم الأصوات •

ومن بين الواقفين سيدة من الوجهاء الفقراء هى مسز ينسفورد هيل وابنة لها هى كـلارا ، كثيرة التأفف تتشبه ببنات المجتمع وابنها الشاب فريدى وهو فى العشرين من عمره ، وقد أرسلته السيدتان ليبحث لهما عن تاكسى ليعودا به الى دارهما ، فعاد اليهما مبتلا دون أن يوفق فى مسعاه •

وتعنف السيدتان فريدى لأنه فشل فى بحثه عن تاكسى وتلحان عليه فى أن ينطلق من جديد ليعيد البحث ، فينطلق المسكين وقد فتح مظلته ، ولكنه يصطدم فى طريقه ببنت من بائعات الزهور فتسقط منها سلتها وتقع منهــا بعض زهور البنفسج فى الأوحال ، ويعتــذر لها فريدى ثم يمرق كالسهم ليجدد بحثه عن تاكسى •

وتحتج بائعة الزهور على هؤلاء الوجهاء الذين أتلفــوا بعض زهورها ، ويعلو صوتها مطالبة بثمن ما تلف بعبارات بلدية شائقة وبلهجة بلدية شائقة من أعماق أحياء الفقراء بلنــدن فتخــرج الألفاظ من فمها منــكرة النبرة ممطوطة السواكن مأكولة المتحركات مجوفة النطق كأنها عواء حيوان ثائر فهى متعة للسامعين •

هذه هى أليزا دوليتل بائعــة الزهور الجميلة التى لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعا وقد وقفت بشعرها المنفوش بين أعمدة الكنيسة فى ثوبها القذر ومعطفها الذى تراكم عليــه غبار لندن •

وتحاول السيدة أن تهدىء من ثائرتهــا فتعوضها عما تلف من زهور بستة بنسات كاملة • وهنا ينضم الى الجماعة سيد آخر فى ثياب السهرة متقدم فى السن يبدو عليه أنه من العسكريين ، واسمه الكولونيل بيكرنج ، وهــو ينــدس بينهم اتقاء للبلل وتعرض عليه البنت ليزا زهورها فيردها

عنه برفق فما فى جيبه فكة • وتلحف ليزا فى العرض فيصرفها ببنس ونصف هى كل ما وجده فى جيبه من نقود صغيرة •

وهنا يتدخل رجل من الواقفين وينبه البنت آن تعطى السيد زهرة لقاء ما أخذت من مال حتى لا يظن أحد أنها شحاذة تتوسل للشحاذة ببيع الزهور • ويحذرها من الرجل الواقف خلفهم الذى يدون كل كلمة تقولها فى مذكرته فهو لا شك من رجال البوليس السرى ، والا لما اهتم بتدوين ما يقوله الناس •

وتتجه الأنظار الى الرجل المنهمك فى تدوين مذكراته فتجزع ليزا وتحاول أن تثبت للجميع أنها بنت شريفة وأنها لا تقصد سوءا من حديثها مع السيد العجوز • وتدور ثائرة الواقفين دفاعا عن البنت المسكينة التى لم ترتكب جرما حتى يلاحقها هذا الجاسوس على هذا النحو • فقد حسبوا الأستاذ هجينز مخبرا متربصا لها • ويحاول الأستاذ هيجنز أن يهدىء من ثائرتها ومن ثائرة الجمع الهائج لتدخل البوليس فيما لا يعنيه ومصادرته أرزاق الفقراء ، فيوضح لهم انه ليس من رجال البوليس ويطلع لوزا على مذكرته فلا تجد فيها كلاما مفهوما ولكن تجد فيها خطوطا وعلامات وحروفا لا سبيل الى قراءتها ، فتعجب لذلك يعجب معها الواقفون • ولكن الأستاذ هيجنز يقرأ عليهم ما كتب مقلدا نطق ليزا تقليدا لا تحريف فيه • فعلماء الأصوات قد اصطلحوا على حروف الهجاء غير ما اصطلح عليه الناس لتحديد اللهجات وتسجيل الفوارق فى النطق مهما كانت طفيفة •

ولا تهدأ ثائرة ليزا لما رأت بل يزداد اضطرابها ويزداد اضطراب الجميع فينبرى منهم من يسب الأستاذ هيجنز • فمنهم من يصر على أنه جاسوس يبالغ فى التفانى سعيا وراء الترقية ومنهم من يذهب الى أنه مجرد رجل فضولى هوايته مضايقة الناس ، كل ينطق بلهجته الخاصة والأستاذ هيجنز يستمع اليهم فى شغف واهتمام • وهذا لون من الحديث الذى جرى :

الواقف : انه ليس مخبرا . انه فضولى سخيف . نعم ، انه فضولى . ثقوا من ذلك .. انظروا الى نعليه .

كاتب المذكرات (يلتفت اليه فى لطف) : وكيف حال أهلك جميعا فى حى سلسى .

الواقف (وقد أخذه الشك) : ومن قال لك ان أهلى من حى سلسى ؟ .

كاتب المذكرات : هذا لا يهمك . انهم من حى سلسى. (متلفتا الى البنت) ماذا جاء بك الى أطراف لندن الشرقية وأنت مولودة فى حى ليسون جروف ؟

بائعة الزهور (مرتاعة) : وأى ضرر هناك فى تركى ليسون جروف ؟ انه كان حيا قذرا لا يليق بخنزير ان يعيش فيه ، وكنت أدفع ايجارا قدره أربعة شلنات وستة بنسات أسبوعيا (تبكى) أو .. أو .. أو .. أو .. !!

كاتب المذكرات : عيشى أينما أردت ولـــكن كفى عن اصدار هذه الأصوات .

ولكن ليزا تمضى فى الدفاع عن نفسها كأنها موضـــع اتهام. فهذا الرجل العجيب يعرف شيئا عن منبتها وتنقلاتها كأنه يتعقب آثارها . ويطمئنها الســيد العجوز فى حنــان أبوى فلا تطمئن بل تمضى فى التنديد بهـــذا الرجــل الذى يدخل فيما لا يعنيه . ويغتاظ أحد الواقفين فيتحداه قائلا :

ــ أتعرف من أى مكان أنا ؟

وما أن يصغى الأستاذ هيجنز اليه حتى يجيب على الفور :

ــ من هوكستون ؟

ويزداد غضب الجميع عــلى هــذا الرجل الغـــريب لأن اجابته كانت صحيحة ، ويتأكد فى روع بعضهم أنه جاسوس ماهر يتعقب الناس ويعرف كل شىء عنهم فيطالبونه بابراز التصريح الذى يخوله أن يتدخل فى شئون الناس . ويتحداه رجل آخر من الوقوف قائلا وهو يشير الى السيد العجوز :

الواقف المتهكم : نعم ، آخبره من أى مكان هو اذا أردت أن تشتغل بقراءة الغيب ·

كاتب المذكرات : انه من تشلتنهام وقد تعلم فى هارو ثم درس فى كمبردج ثم عاش فى الهند ·

السيد العجوز : بالضبط ·

وهنا يضحك الجمع ويتحول غضبه الى اعجاب بهذا الرجل الغريب الذى يعرف كل شىء عن منبت الناس ويحسبه السيد العجوز حاويا يرتزق من هذه الألعاب فى الملاهى ·

وينبه الأستاذ هيجنز الجمع المحيط به الى أن المطر قد انقطع فيمضى كل الى حال سبيله · حتى السيدة وبنتها كلارا تنصرفان قبل أن يعود اليهما فريدى بالتاكسى · ولا يبقى على درج الكنيسة الا الأستاذ هيجنز والسيد العجوز وبائعة الزهور ·

السيد : أتسمح لى أن أسألك كيف تعرف منشأ الناس؟

كاتب المذكرات : بعلم الأصوات · لا شىء غير علم الأصوات ، علم الكلام · فهذه مهنتى وهى أيضا هوايتى · ما أسعد من يستطيع الارتزاق من هوايته ! بهذا العلم تستطيع أن تميز الأيرلندى أو ابن يوركشاير بلهجته ! أنا أستطيع أن أحدد مكان أى رجل فى نطاق ستة أميال · فى نطاق ميلين بلندن ، بل وأحيانا فى نطاق شارعين ·

بائعة الزهور : كان ينبغى أن تخجل من نفسك · فأنت نذل جبان !

السيد : ولكن أتستطيع أن ترتزق من هذا العمل ؟

كاتب المذكرات : بالتأكيد · بل فيه رزق واسع · فنحن فى عصر المحدثين · فالناس يبدأون حياتهم فى كنتيش تاون بدخل سنوى قدره ثمانون جنيها ثم ينتهون بالاقامة فى بارك لين بدخل سنوى قدره مائة ألف جنيه ·· ولكن ما أن يفتحوا أفواههم حتى يفتضح منشؤهم · من هذا ترى أنى أستطيع أن أعلمهم ··

بائعة الزهور : سله أن يعنى بأموره فقط وأن يترك بنتا فقيرة مثلى وشأنها ·

كاتب المذكرات (ينفجر) : اسمعى يا امرأة : كفى فورا عن هذه الأصوات المنكرة أو ارحلى الى معبد آخر تحتمين فيه ·

بائعة الزهور (تتحداه فى ضعف) : من حقى مثلك أن أبقى هنا اذا شئت ·

كاتب المذكرات : ان امرأة تنطق بهذه الأصوات المقبضة المنكرة لا يحق لها أن تكون فى أى مكان - بل لا يحق لها أن تعيش · تذكرى أنك الانسان تشتعل فيه الروح ويسمو بالهبة الالهية هبة الكلام · تذكرى أن لغتك هى لغة شكسبير وملتون والكتاب المقدس ، ولا تجلسى هنالك تهدلين كأنك حمامة ممرورة ·

ثم يلتفت الأستاذ هيجنز الى السيد العجوز ويقول : أترى هذه المخلوقة التى تتكلم الانجليزية بلهجة الأرصفة ، تلك اللهجة التى ستبقيها فى الأوحال الى نهاية عمرها ؟ أنا مستطيع يا سيدى أن أجعل من هذه البنت دوقة فى حفلة أنيقة من حفلات السفراء · بل أستطيع أن أجد لها عملا كوصيفة لسيدة أو كبائعة فى حانوت وهو يتطلب معرفة بالانجليزية خيرا من معرفتها · هذا بعض ما أعمله مع المليونيرات المحدثين من التجارة ، ومن أرباحى التى أجنيها من هذا السبيل أنفق على أبحاثى العلمية فى علم الأصوات وأقرض الشعر على طريقة ملتون ·

السيد : وأنا أيضا أدرس اللهجات الهنديه ··

كاتب المذكرات (باهتمام) صحيح ؟ أتعرف الكولونيل بيكرنج مؤلف كتاب « السنسكريتية العامية » ؟

السيد : أنا الكولونيل بيكرنج · ومن أنت ؟

كاتب المذكرات : أنا هنرى هيجنز مؤلف كتاب « حروف الهجاء العالمية »

بيكرنج (فى حماس) : لقد جئت من الهند لأقابلك .
هيجنز : وأنا كنت سأسافر الى الهند لأقابلك .

وهكذا يتعرف الرجلان كل على صاحبه ، بعد أن سمع كل منهما بالآخر كما يسمع العلماء بالعلماء . وينصرفان معا بعد أن يمطرا بائعة الزهور ببدرة من المال لتكف عن شكايتها المستمرة . وما أن ينصرفا حتى يصل فريدى وقد وفق الى اصطياد تاكسى فلا يجد السيدة ولا ابنتها . ولكن بائعة الزهور تريحه من الحرج الذى نزل به فتستقل التاكسى وهى تلوح بما لديها من فضة كثيرة وتترك فريدى فاغرا فاه من فرط العجب .

(٢)

وفى صباح اليـوم التالى يزور الكولونيل بيكرنج دار الأستاذ هيجنز فى ومبول ستريت ليشاهد معمله . فاذا به يجد معملا مجهزا بجميع الأدوات اللازمة لعلم الأصوات : فهناك فونوغراف واسطوانات من الشمع لتسجيل الاصوات وهناك عدد كبير من الشـوك الرنانة وبيـانو وتمثال يبين مخارج الأصوات فى رأس الانسان ويعلم بيكرنج من هيجنز أنه قد استطاع أن يميز بين مائة وثلاثين صوتا من أصوات الحروف الساكنة وأن يسجلها بآلاته فيعجب لتقدم صاحبه فى علم الأصوات .

وفيما هما يتدارسان هذا الموضوع تدخل مسز بيرس وهى المدبرة فى دار الأسـتاذ هيجنز لتعلن لهما أن بائعـة الزهـور أليزا دولتيـل قد جاءت تطلب مقـابلة هيجنز . وتدخل أليزا قائلة انها فكرت مليا فيما سمعته من هيجنز فى الليلة السابقة ، وأنها قررت أن تتلقى عليه دروسـا فى الكلام حتى تتفتح أمامها أبواب المستقبل ، فهى لا تريد أن تظل بقية حياتها تبيع الزهور فى ركن الشـارع عنـد توتنام كورت رود بل تأمل أن يتاح لها فى يوم من الأيام أن

تبيع الزهور فى دكان محترم • واذا كان الحاجز الوحيد بينها وبين ذلك هو حسن اللهجة فهى قد جاءت لتتلقى دروسا تقوم بها لهجتها وهى لم تجىء راجية ولا متطفلة لانها تريد أن تدفع للاستاذ هيجنز أجره على ذلك كاملا ، بل هى على استعداد لأن تضحى بشلن كامل لقاء كل درس تتلقاه !

ويعجب هيجنز وبيكرنج لهذا العرض العجيب ويجدان فى كلامها الساذج متعة فائقة • ويجد هيجنز فى شخصية هذه الفتاة الطموح وفى قذارتها الفظيعة وفى وضاعتها الممتعة ما يسحره ويذكره بيكرنج بقوله فى الليلة السابقة انه مستطيع أن يجعل من بنت الأرصفة هذه سيدة من سيدات المجتمع يراها الناس فى حفلة من حفلات السفراء فيخالونها دوقة من الدوقات • ويتحداه أن يجرب علمه وفنه على هذه الفتاة • فيتراهن على ذلك الرجلان ، ويكون الرهان نفقات التجربة : فان نجحت تكبدها بيكرنج وان فشلت خسرها هيجنز •

وهكذا تبدأ هذه التجربة العجيبة ولكن فى جو لا يخلو من الحرج ، فالمدبرة مسز بيرس تحتج على ذلك وتتهم هيجنز بأنه خال من كل شعور انسانى • فهى مشغولة بمستقبل هذه البنت الساذجة التى تريد أن تخرج من الأوحال • ترى ماذا هو فاعل بها بعد أن تنتهى التجربة ؟ أما هيجنز فله رأى آخر • انه ينظر اليها نظرة العالم الذى يشرح الحشرات ويجرى تجاربه على الأحياء فى سبيل تقدم العلم وتقدم الانسانية • لقد جاءت أليزا دوليتل من الأوحال ، ولا بأس أن تعود الى الأوحال بعد أن تنتهى التجربة ! ويرى بيكرنج بعض ما تراه مسز بيرس فيتردد بعض الشىء ولكنه يخضع فى النهاية أمام اهتمام الأستاذ والحاح التلميذة وسحر التجربة •

وتبدأ التجربة بالحمام ، اذ لابد أن تزيل مسز بيرس عن جسد أليزا أكداس الأوساخ التى تراكمت عليه ولابد أن تحرق ثيابها حتى لا ينتقل منها القمل الى بقية المنزل

فتقذف بها فى الفرن ولا تبقى منها شيئا الا قبعتها على سبيل الذكرى ، ولابد أن تأتيها بثياب جديدة لتبدأ بهـا حياتهـا الجديدة • فهى سوف تقيم معها فى دار الأستاذ هيجنز لتكون على صلة دائمة بهـا ولتـكون تحت اشرافها الدقيق ولتتعلم منهما آداب السلوك •

وحين تدخل أليزا الحمـام لأول مرة تعلم بأنهـا رأت جسدها عاريا فى المرآة لأول مرة فاحمر وجهها خجلا وبادرت الى المرآة فغطتها بفوطة الحمام !

وفيما هى فى الحمام يأتى أبوها مستر دولتيل ، وهـو كناس عجوز ولكنه قوى البنية شديد الذكاء شـديد الاقبال على الشراب وقد جاء ليساوم هيجنز فى بقاء ابنته • ويغضب هيجنز ويهم بطرد الرجل وابنته جميعا أول الأمر ولكن هذا الكناس الشاعرى الفطرة يقنعه بلباقته وقوة حجته المستمدة من واقع الحياة أن يعطيه خمسة جنيهات « كدفعة أولى » •

دوليتل : •• حقيقـة الأمـر هى أنى قد اسـتلطفتك يا سيدى ، وان كنت تريد البنت فلن أصر عـلى عودتها الى البيت اذا كان هناك مجال للاتفاق معى • وهى بين الفتيات فتاة جميلة بديعة • ولكنها كبنت لى لا تساوى ثمن طعامها • لهذا أقول لك بصراحة : ان كل ما أطلبه هو حقوقى فيهـا كأب ، وأنت آخر من ينتظر منى آن أفرط فيها بغير مقابل ، فأنت على ما أرى من الرجال المستقيمين يا سيدى • ما قولك؟ ما قيمة خمسة جنيهات لديك ؟ وما قيمة أليزا لدى ؟

« يعود الى مقعده ويجلس جلسة القاضى » •

بيكرنج : أظن أنه ينبغى أن تعرف يا دوليتل آن نوايا مستر هيجنز شريفة تماما •

دوليتل : طبعا شريفة يا سيدى • ولو كنت أعتقد أنها غير شريفة لطلبت خمسين جنيها •

هيجنز : (مشمئزا) : أتقصـد آن تقول أيهـا الوغد العديم الشعور أنك تقبل أن تبيع بنتك بخمسين جنيها ؟

دوليتل : بوجه عا لا ، ولكنى أفعل أشياء كثيرة لأرضى سيدا مثلك ، صدقنى .

بيكرنج : أأنت مجرد من الأخلاق يا رجل ؟

دوليتل (بغير خجل) : نعم يا سيدى فهى تكلف كثيرا. ولو كنت فى مثل فقرى لتجردت منها كذلك .

ودوليتل فيلسوف على طريقته الخاصة رغم أنه كناس. فهو يرفض أن يقبل فى ابنته عشرة جنيهات مكتفيا بخمسة لأنه يعلم أن المال الكثير فى جيبه سوف يسبب له المتاعب . وهو يفتن هيجنز ببلاغته الفطرية فيعرض عليه أن يبقى مع ابنته فيجعل منه فى ستة أشهر خطيبا مفوها يستطيع ببيانه أن يدخل البرلمان ، ولكنه يعتذر بقوله انه يفضل الحانة على السياسة !

(٣)

وتمر شهور قليلة على سكان ٢٧ (أ) ويمبول ستريت. لا يحدث فيها شىء ويحدث فيها كل شىء .

فالأستاذ هيجنز لا هم له الا تدريب أليزا على النطق السليم وعلى العبارة السليمة وأليزا لا هم لها الا تعلم النطق السليم والعبارة السليمة . أما الكولونيل بيكرنج فتستوعبه هذه التجربة استيعابا فنراه ينتقل الى دار هيجنز ليقيم فيها . ويكتشف هيجنز أن للتلميذة أذنا أرهف حسا وأقدر على تمييز الفوارق بين الأصوات من أستاذنا ويعترف بأن أليزا لولا جهلها لفاقته فى فن الكلام .

وبعد أن يقوم هيجنز لسان أليزا يستبين له أن الأمر ليس على البساطة التى تصورها . فهو قد قوم لسان بائعة الزهور ولكن ترى ماذا هو فاعل بعقلها الساذج الذى لم يحو من العلم شيئا ؟

ولكنه لم يزل بعد فى المرحلة الأولى ولا تزال أمامه شهور قبل أن ينقضى الأجل المحدد للتجربة وهو ستة شهور • والحل عنده أن تتجنب أليزا فى حديثها مع الناس الكلام فى أى موضوع الا السؤال عن الصحة والتعليق على الجو •

ويصطحب هيجنز أليزا لزيارة أمه فى يوم استقبالها الأسبوعى ومعهما بيكرنج ، وهو يبتغى من ذلك اجراء التجربة الأولى على أليزا فى المجتمع الصغير قبل أن يأتى اليوم العظيم فيصطحبها الى المجتمع الكبير •

وفى دار أمه يلتقى هيجنز بآل أينسفورد هيل الذى كان قد التقى من قبل فى تلك الليلة المطيرة ليلة كوفنت جاردن• يلتقى بالأم المهذبة الرقيقة الحاشية وببنتها كلارا التى تصطنع العصرية اصطناعا وبولدها فريدى التافه الذى لا يملك مالا ولا يتقن عملا • فآل أينسفورد هيل أسرة كانت على شىء من الجاه ثم ضاع منها الجاه ولم يبق أمامها الا الاحتفاظ بالمظاهر واخفاء الفقر ما استطاعت الى ذلك سبيلا •

وتنجح التجربة الأولى وتفشل فى آن واحد •

تنجح لأن ليزا قد تبدلت حالها تماما فلا يفطن الى حقيقتها أحد • ولكن آل أينسفورد هيل فى ثيابها الفاخرة التى ابتاعها لها الكولونيل بيكرنج ويستمعون الى نطقها الجميل الذى أسبغه عليها الأستاذ هيجنز فلا يفطنون الى أنها بائعة الزهور التى التقوا بها منذ شهور على درج كنيسة سانت بول • ويفتتن الشاب فريدى بجمالها من أول وهلة فيجلس أمامها ويشخص اليها شخوص العاشق الولهان طول الوقت حتى تنصرف •

ولكن التجربة تفشل كذلك لأن أليزا تخرج عن الحدود المرسومة لها فى الحديث وهى السؤال عن صحة الناس والتعليق على الجو • فما أن تذكر السيدة أينسفورد هيل كلمة الأنفلونزا حتى تقص أليزا على الحاضرين كيف أن

عمتها ماتت بالأنفلونزا ثم تروى لهم كيف أن أباها كان يداويها بشراب الجن وكيف أن أهلها قتلوها ليسلبوها ما تملك ثم زعموا أن الأنفلونزا قضت عليها • ويذهل آل أينسفورد هيل لهذه الفتاة الجميلة الأنيقة التى تروى أفظع الأشياء فى أجمل لهجة وتستخدم بين الحين والحين ألفاظا لا يستخدمها الا سفلة الناس •

ولكن هيجنز يشرح لهم أن هذا دأب الأرستقراطية الجديدة التى تتعمد التشبه بأبناء الشعب الحقيقيين فى استعمال الألفاظ البذيئة وتفتن كلارا بهذه الروح العصرية فتحاول تقليد آليزا ، أما فريدى فهو غارق الى أذنيه فى بحر الغرام ولا يهمه من كل هذا شىء الا أن يتملى من طلعة هذه البنت الرائعة الجمال •

أما أم هيجنز فتعنف ابنها على هذا العبث الخطر فلا تجد منه الا قوله :

هيجنز : أتسمين هذا عبثا ! ان هذا أصعب عمل قمت به فى حياتى • لا تخطئى التقدير يا أماه • ولكنك لا تتصورين ما هنالك من متعة فى تشكيل حياة انسان حتى يخرج منه انسان آخر مختلف عنه تمام الاختلاف بخلق لغته خلقا جديدا • ان هذا يسد ذلك الفراغ الهائل الذى يفصل الطبقة عن الطبقة ويباعد بين الروح والروح •

نعم ان هيجنز لا يفكر الا فى حنجرة آليزا وفى موضع لسانها من حلقها أو من شفتيها كلما فاهت بكلمة •

حتى عقل آليزا يجد هيجنز السبيل الى تشكيله تشكيلا جديدا• فهو يصطحبها كل يوم الى معارض الفن والى المسارح والى دور الأوبرا لتكتمل بذلك ثقافتها •

انه يحس احساس الخالق الذى يصوغ الخليقة على شاكلته • ولكنه يغفل أهم عنصر فى الخلق ألا وهو روح الخليقة •

(٤)

ويأتى اليوم العظيم، يأتى فى الموعد المضروب. ويخرج ثلاثتهم ، هيجنز وبيكرنج وأليزا الى الحفـل العظيم حيث يلتقى علية القوم بلندن فى حديقة سفير من السفراء وتتلو الحفل العظيم مأدبة عشاء عظيمة وبعد المأدبة يقصد ثلاثتهم دار الأوبرا فلا يعودون منها الا عند منتصف الليل .

وتنجح التجربة العظيمة نجاحا عظيما . فتتحدث لندن كلها بزهرة المجتمع الجديدة الآنسة أليزا ببيت دوليتل .

وهكذا تنتهى التجربة .

ويحمد هيجنز الله على أن التجربة قد انتهت .

ولكن نهاية التجربة تكون بداية المشاكل .

فالـرجلان يجلسـان بعـد عودتهما من دار الأوبـرا ويتذاكران فى اعياء شديد انتصارات اليوم وأليزا شاخصة اليهما فى سهوم ، ثم فى غيظ شديد . انهما لا يلتفتان اليها ولا يوجهان اليها الحديث كأنها شخص لا صلة له بالموضوع بل كأنها مجرد أداة جامدة أدت الغرض منها ولم تعـد بهما حاجة اليها .

نعم لقد احتملت أليزا الـكثير . احتملت من سـلاطة لسان هذا الأستاذ المتأله ومن زجره مالا يحتمله بشر . ولولا دماثة الكولونيل بيكرنج وآدابه العالية لكانت حياتهـا فى ويمبول ستريت جحيما لا يطاق . لقـد كانت تكد الليـل والنهار بلا انقطاع . كانت تستيقظ على الأصوات وتعيش على الأصوات وتحلم بالأصوات . لقـد كانت تخـدم هـذا الأستاذ المتأله خـدمة الأم والأخت والبنت بل خـدمة أمة اشتراها فى سوق النخاسة بخمسة جنيهات . فتعد له قهوة الصباح وتشترى له حاجاته من السـوق وترتب له أوراقه وتأتيه بخفيه اللذين ما عرفت لهما موضـعا ثابتـا طـوال الشهور الستة التى أقامتها فى ومبول ستريت . وهى لا تذكر

أنها سمعت منه كلمة شكر أو كلمة تشجيع أو كلمة حنان . ولولا أن الكولونيل بيكرنج كان ينهض عند قدومها احتراما ويرفع قبعته عن رأسه كلما التقى بها ويفتح لها الباب لتتقدمه فى المسير ويناديها من حين لآخر بقوله : « يا آنسة دوليتيل » لكانت مجرد متاع أو قطعة من أثاث البيت . نعم لقد احتملت من هيجنز فوق ما يطاق . وفى سبيل ماذا ؟ أهى تحبه . نعم . لا . انها لا تفكر فى الحب . انها لا تطلب الا العطف .

كلا . ان هذا لا يطاق . وهيجنز الآن يحمد الله على أن التجربة قد انتهت . انه متعب ويريد أن ينام وهو يسألها أن تأتيه بخفيه .

وتنفجر أليزا من فرط الغيظ فتقذف بالخفين فى وجهه صائحة :

أليزا : اليك بالخفين . خذهما . خذ خفيك وانى أتمنى أن يأتياك بالنحس كل يوم من أيام حياتك .

هيجنز (ذاهلا) : ماذا جرى ! (يقترب منها) ماذا جرى ؟ انهضى (ينهضها) أليس كل شىء على ما يرام !

أليزا (لاهثة) : كل شىء على ما يرام بالنسبة لك . لقد كسبت لك الرهان . وهذا يكفيك . أما أنا فلا وزن لى على ما أعتقد .

هيجنز : أنت كسبت لى الرهان ! أنت أيتها الحشرة المدعية . أنا الذى كسب الرهان ..

نعم . الحمد لله أن التجربة قد انتهت . لسوف ترحل فى الصباح الباكر . ان هيجنز لا يفكر فى مصيرها ، فلتفكر هى اذن فى مصيرها .

لقد جاءت الى داره منذ ستة شهور بمشكلة هى مشكلة الطبقة السفلى وقد أعانها على حل هذه المشكلة .

وهى الآن تخرج من داره بمشكلة أخرى أشد تعقيدا من المشكلة الأولى. لقد انفصلت آليزا عن طبقتها الأولى انفصالا لا رجعة فيه ، فهى الآن لا تستطيع ان تقف على ناصية توتنهام كورت رود لتبيع الزهور . ان هيجنز قد جنى عليها جناية كبرى كما قالت أمه لأنه « علمها قواعد السلوك وراضها على العادات التى تمنع السيدات المهذبات من كسب قوتهن بعرق جبينهن دون أن يمنحها دخل السيدات المهذبات».

ولكن هذه ليست مشكلة آليزا الوحيدة فهى لم تتحول فى المظهر فحسب بل اهتزت فى عمق أعماقها لهذه الحياة الجديدة . فنفسها قد انصقلت وقلبها قد تفتح للحياة العليا وهى الآن تطلب حقها فى هذه الحياة العليا . هى تطلب حقها فى الحب وفى الاحترام وفى العطف وفى الود الكريم . وهى أشياء ما كان لها أن تجدها فى محيط الكناسين أو فى عالم الأرصفة .

(٥)

وفى الصباح الباكر تخرج آليزا من دار ويمبول ستريت وتقصد الى دار السيدة الفاضلة أم الأستاذ المتأله هيجنز وما أن يستيقظ هيجنز وبيكرنج ولا يجدانها حتى ينزعجا أشد الانزعاج . ان هيجنز لم يخطر بباله قط أن انتهاء التجربة معناه رحيل آليزا . لقد تعود على آليزا حتى غدت جزءا من حياته اليومية كالأكل والشرب والعمل وهو لا يتصور الحياة بغيرها .

نعم انه يحبها . ولكنه يحبها على طريقته الخاصة يحبها حب الفنان لصنع يديه ، يحبها حب بيجماليون لغلاطيه ، حب المثال للتمثال . ولكن بيجماليون الذى صارت بذكره الأساطير كانا فنانا أحمق لأنه تجاوز فى حبه الحدود التى رسمتها الحياة بين الخالق والمخلوق فنزل من سموات الفن العالية ليسوى نفسه بما صنعت يداه .

ان هيجنز يريد الى أليزا البقــاء الى جواره ، دائما ، دائما ، الى نهاية العمر ، هو لا يريد منها لا زوجا ولا عشيقة ولا خادما ولكن جزءا من حياته وقطعة من فنه وعلمه يرى نفسه فيها دائما ٠

ويتصل هيجنز بالبــوليس ليبحث له البوليس عن أليزا المختفية ويقصد مع بيكرنج دار أمه ليطلعها على ما جرى ، وهناك يجد أليزا ، ويكون بينهما حــديث عاصــف ٠ انه يعرض عليها أن تعود الى ويمبــول ستريت ولكنها تــود أن تعرف منه على أى أساس تعــود ٠ انها تحب أن تكــون الى جواره ولكنها تشترط عليه أن يقلع عن فظاظته واستهانته بشعورها ٠ فماذا يكون رد هيجنز ؟

هيجنز : ان هــذا كل ما ستنالينه منى حتى تكفى عن حماقة السفهاء ٠ ان أردت أن تكونى ســيدة فقد وجب أن تكفى عن الاحساس بأن من حولك من الرجال يهملونك اذا لم يقضوا نصف وقتهم ينتحبون فى غرامك ونصفه الآخــر فى تأديبك باللكمات ٠ واذا كنت لا تطيقين الحياة فى هــذا العــالم البارد الذى أعيش فيه ولا تحتملين عنــاءها المضنى فخير لك أن تعودى الى الأوحال ٠ عودى الى الــكد والــكدح حتى تصيرى أقرب الى الحيوان منك الى الانســان ثم أسرفى فى الشجار والشراب حتى يطبق النوم جفنيك ٠ يالها من حياة ممتعة : حياة الأوحال ! انها حياة واقعية ، حياة حارة ، حياة عنيفة تحسين بها لأنها تنفذ فى الجلد مهما كان سميكا ، وتنعمين بطعمها ورائحتها بالفطرة دون حاجة الى جهــد أو تدريب ٠ انهــــا ليست كحيــاة العلم والأدب والموســيقى الكلاسيكية والفلســفة والفن ٠ أنت ترين فى انســانا بارد الطباع خاليا من الشعور محبا لذاته ٠ اذن فامضى الى الناس الذين تأنسين اليهم ٠ تزوجى من خنزير مكتنز بالعواطف الرخيصة وبالمال الكثير ، له شــفتان سميكتان يقبلك بهما ونعــلان ســميكان يضربك بهما ٠ واذا كنت لا تقــدرين ما حصلت عليه فلتحصلى على ما تقدرين ٠

وهكذا تيأس آليزا من الوصول الى حل سوى · ان كلام هيجنز لا شك مقنع فى عالم من المجردات ، ولكن منطقه ينهار أمام منطق الحياة القوى · انه يعرض عليها أن يتبناها ولكن نفس آليزا الواضحة وأنوثتها المتفتحة لا تقنعان بهذه العلاقة المفتعلة فى دنيا من الأفكار الباردة · انها تطلب حقها فى الحياة ·

ويستقر رأى آليزا على قرار خطير ·

ان الفتى فريد أينسفورد هيل عاشق لها متيم بحبها وهو يلاحقها فى كل مكان بهواه ويسطر لها كل يوم الرسائل والرسائل يبثها نجواه ويقول انها نعيمه الأبدى ويعرض عليها الزواج ليدخل بها هذا النعيم · حقا ان الفتى فريد فتى تافه اذا قورن بهذا الخالق الشاهق هيجنز ، ولكنه على الأقل يحبها ويتمنى أن يكرس حياته لارضائها · وحقا أن الفتى فريد فتى ساذج لا يملك مالا ولا يتقن عملا ، ولكن آليزا سوف تستطيع بارادتها الفولاذية وبحدبها عليه أن تخلق منه رجلا يعتمد على نفسه ويشق طريقه فى الحياة ·

هذا هو القرار الخطير الذى اتخذته آليزا دولتيل · قررت أن تتزوج من فريد ·

ويقوم هيجنز والكولونيل بيكرنج بواجبهما نحو آليزا فيفتحان لها دكانا تبيع فيه الزهور مع زوجها · ولا تزال بفريد تعلمه أصول الصنعة حتى يتقنها ويصبح رجلا بين الرجال يعتمد على نفسه ويسوس أسرته ·

وهكذا ترد آليزا دوليتل دينها للحياة فلقد وجدت من يأخذ بيدها ويرفعها من أوحال الفقر ويجعل منها امرأة استكملت عدتها للحياة الكريمة ، فأخذت بيد غيرها ورفعته من أوحال البطالة وجعلت منه رجلا استكمل عدته للحياة الكريمة ·

عـربة التفـاح

لجورج برنارد شو

مثلت مسرحية « عربة التفاح » لأول مرة في وارســو عام ١٩٢٩ على مسرح البولسكى حيث نجحت نجاحا باهرا ثم مثلت على مسرح الدويتش تياتر في برلين • وحين كتب لها النجاح في القارة الأوربية مثلت في لندن لأول مرة في نفس العام على مسرح « كوينز تياتر » ٢٥٨ مرة في موسم واحـد •

وقد سمى برنارد شو مسرحيته « عربة التفــاح » لأن هناك تعبيرا انجليزيا يقول ان فلانا « قلب عربة تفــاح » فلان • بمعنى أنه أفسد خططه وأبطل مشروعاته والفكرة فى هذا أن عربة التفاح فى العادة تكون مرتبــة بدقة حتى لا ينفرط التفاح ويجرى على الأرض ، فاذا اختل توازنهـا وانقلبت ، وهــذا أمر يســير ، ضــاع كل مجهود بذل فى ترتيبها •

أما عربة التفــاح هنــا التى انقلبت فهى خطة مجلس وزراء بريطانيا الفاسد لتقييد ملك بريطانيا الماكر ومنعه من التدخل فى السياسة والذى قلب عربة التفاح هو الملك نفسه ، قلبها فضــيع جهود الوزراء ســدى • فهـل انتهت المسرحية بتراضى الجميع عى الوضع القديم ! كلا لأن ملك بريطانيا كانت له أيضا عربة تفــاح يرتبها ترتيبــا جميلا

وما أن فرغ من ترتيبها حتى جـــاء سفير الولايات المتحدة الأمريكية فقلب له عربته أيضا ٠

ونحن نعرف عن برنارد شو صدق النظرة فى تصـــوير الشـــخصيات وفى تحليـــل الآراء والمعتقـــدات الاجتماعيـــة والسياسية ولكننا قلما نذكر أن هذا الكاتب كان صـــاحب رأى راجح فى السياسة العملية ٠

لا نذكر مثلا أن برنارد شو عرض قبل الحرب العالميـــة الأولى على الرأى العام البريطانى رأيه القائل بوجوب عقـــد حلف بين انجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة يقضى بألا تهاجم احدى هذه الدول زميلة لها فى الحلف الا بعـــد أن تتقدم لأعضاء الحلف بشكواها وتيأس من اجابة مطالبها المشروعة ٠ وقد كتب مرارا عام ١٩١٢ يناشد حكومة بلاده أن تأخذ برأيه فلم يستمع الى كلامه أحد فكف عن النداء ٠ ومن يدرى ماذا كان يكون حال العالم لو أبرم هذا الحلف قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ٠

أما فى « عربة التفاح » التى وضعت منـــذ ثلاثين سنة فيتنبأ برنارد شو بالحالة الدولية كما نجـــدها اليـــوم تنبؤا تذهلنا دقته ، فنعجب أشد العجب لهذا المفكر الواضح التفكير الذى استطاع أن يقرأ صورة المستقبل فى معالم الحاضر ٠

(١)

فنحن الآن فى المســتقبل ، لا نعـــرف فى أى عام نحن ولكننا على كل حال بعد عام ١٩٦٢ ٠ والمكان هو غرفة فى قصر ملك وهمى هو الملك ماجنوس ملك بريطانيا ، والراجح أنه آخر ملوكها ، لأن تطورات الأحداث تشير الى ذلك ٠ وفى الديوان الملكى نرى رجلين من أمناء الملك ، أحدهما هـــو بامفيليوس ووظيفته قراءة الصحف لجـــلالته والآخـــر هـــو سمبرونيوس ووظيفته قراءة خطابات جلالته ٠

ويتحدث الرجلان حديث رجال القصر فنعلم منهما شيئا عن حب الملك ماجنوس لعشيقته أورنثيا وعن تعيين وزير جديد للتجارة هو بونرجز الذى ننتظر مجيئه بين لحظة وأخرى لأنه على موعد مع الحضرة السنية ·

وحين يصل بونرجز نعرف من مظهره ومن مخبره الشيء الكثير عن حقيقته · فهو رجل فى الخمسين من عمره متين البنية شديد الاعتداد بالنفس الى حد الكبرياء بل الى حد السلاطة ، ارتفع بجهاده فى الحياة من محيط العمال حتى أصبح وزيرا من وزراء الدولة بفضل ما أوتى من قدرة على الخطابة والتأثير فى الجماهير وبفضل ما أوتى من غلظة فى القول والسلوك وفرض للنفس على كل من حوله · وهو فخور بأنه تسلق السلم الاجتماعى من أوله ويكثر من تذكير الآخرين بمنشئه الوضيع كأنه طاووس يعرض عليهم رياشه · لهذا نراه يقتحم الغرفة لابسا بلوزة روسية من تلك البلوزات التى تزرر على الكتف لا كرمز لمنبته البروليتارى فحسب بل كرمز لمعتقداته البروليتارية كذلك · ولهذا نراه يقتحم الغرفة متحفزا كأنه مصارع أتى يطلب الملك ليصرعه ، ضجرا لأن جلالته قد تأخر عن الموعد ربع ساعة ، ونراه يجلس دون دعوة أو استئذان ·

وحين يدخل الملك ماجنوس نجده على نقيض هذا الرجل تماما ، فهو رجل فى الخامسة والأربعين من عمره هادىء الطباع مهذب اللفظ ناعم الملمس · ولكنه ماكر خبيث يستغل هدوءه فى الايقاع بغريمه ·

ويعلم هذا الملك الماكر أن مقتل كل انسان هو كبرياؤه وغروره ، وهو لذلك يتقن فن الملق فتراه لا يفتأ يطرى أحد خصومه حتى تلين قناته فيسيطر عليه وبهذا الفن وحده يستطيع الملك ماجنوس أن يجابه مجلس الوزراء ، أو قل بهذا الفن وبسعة الحيلة معا ·

وحين يدخل الملك ينهض سكرتيراه احتراما · أما

بونرجز فيدور فى مقعده دون أن ينهض · ويلحظ الملك هـــذا ·

ماجنوس : مرحبـا بك فى قصرى الصـــغير يا مستر بونرجز · تفضل واجلس ·

بونرجز : انى جالس ·

ماجنوس : صـحيح يا مستر بونرجز · أنا لم ألاحظ ذلك فاغفر لى · انه حكم العادة · أتسمح لى بالجلوس ؟

بونرجز : دعك من هــذا · هيـا اجلس ·· اجلس ·· أنت فى بيتك وأنا لست بحاجة الى هذه الشكليات ·

ماجنوس (ممتنا) : شكرا ·

ويبـــدأ الملك فى تحـذير الوزير بقوله انه كان يتتبع جهاده السياسى منذ خمس وعشرين سنة حين رشح بونرجز نفسه فى دائرة نورثامبتون : ويحس بونرجز بأهميتـه ثم يزداد انتفاخا حين يقول له ماجنوس فى وداعة ان صـوته الراعد كثيرا ما هز العرش · وهنا يحاول بونرجز أن يثبت فعلا أنه هزاز للعروش فيعلن لماجنوس فى عزم أنه قد جاء ليلقى اليه كلاما ما سمعه ملك من أحد قبله ·

ماجنوس : وأنا أكون أسـعد السـعداء بالاستماع الى ما تقول يا مستر بونرجز · لقد كنت أحسب أنى سمعت كل ما يمكن أن يقال للملك من كلام · وانى لأكون أسير فضلك اذا جئت بأمل جديد ·

بونرجز : وأنا أحذرك أن كلامى لن يسرك · فأنا رجل بسيط يا ماجنوس رجل بسيط كل البساطة ·

ماجنوس : أبدا · أؤكد لك ·

بونرجز (غاضـبا) : أنا لم أكن أتكلـم عن هيئتى الشخصية ·

ماجنوس (جادا) : ولا أنا ·. لا تخدع نفسك يا مستر

بونرجز أنت أبعد الناس عن البساطة • لقد كنت دائما فى نظرى لغزا من الألغاز •

بونرجز (عاجبا وقد انتفخ غروره انتفاخا شديدا فلم يستطع أن يخفى ابتسامة السرور) : ربما كان حقا فى شيء من الألغاز • نعم ، قد أكون لغزا !

وهكذا يعتقد بونرجز أنه قد أصبح سيد الموقف فيدخل فى الموضوع ان هناك أزمة وزارية • وسر هذه الأزمة أن الملك ماجنوس لا يريد أن يكون ملكا دستوريا ، وتعريف الملك الدستورى عند بونرجز هو أنه « بصمجى » أو كما يقول البلجيكيون « ختم المطاط » • ولا يثور ماجنوس عند سماع هذا الكلام بل يقول فى هدوء :

ماجنوس : نعم • هذا وصف صادق لنا فى أكثر الأحيان ، لى ولك •

بونرجز : (تهان كرامته) : ماذا تقصد بقولك لى ولك؟

ماجنوس : انهم يأتوننا بأوراق فنوقع عليها أما أنت فلا تجد الوقت الكافى لقراءتها لحسن حظك • أما أنا فينتظر منى أن أقرأ كل شيء • وأنا لا أوافق دائما على ما أقرأ ، ولكنى ملزم بالتوقيع ، فلا مناص من ذلك • خذ مثلا : أحكام الاعدام : فليس مفروضا على فقط أن أوقع على أحكام باعدام أشخاص من رأيى أنه لا ينبغى اعدامهم ولكن كذلك لا يجوز لى اصدار أحكام باعدام أناس كثيرين من رأيى أنه ينبغى اعدامهم •

وهذا هو سر الأزمة الوزارية • فماجنوس لا يرضى لنفسه ولا لغيره أن يكون مجرد « خاتم مطاط » ولكن يشرح لبونرجز أن الضرورة تقضى بهذا أن الانسانية قد تغير حالها فمنذ أجيال قليلة كانت تؤمن بحق الملوك الالهى وهى الآن تؤمن بالملك خاتم المطاط • ثم هى تطبق ذلك على الوزراء بعد أن طبقته على الملوك •

ماجنوس : ٠٠ فالموظفون الدائمون فى وزارتك سوف يتناولونك ويستخدمونك استخدامهم لخاتم المطاط ٠ وفى كل عشرين مرة ستسمح لهم أن يفعلوا ذلك بك ، لأنك لن تستطيع أن تعرف كل شىء ، وحتى لو استطعت أن تعرف كل شىء فلن تستطيع أن تعمل كل شىء وأن تكون فى كل مكان٠ ومع ذلك فهناك المرة العشرون ٠

فى هذه المرة العشرين يرفض الحاكم أن يكون خاتما من المطاط ويأبى أن يبصم على ما يقدم له من أوراق لا يعتقد بصواب ما تقول ٠ وهذا يدل على أن للحاكم روحا تهتز وعقلا يفكر وارادة مستقلة تسعى الى الظهور وماجنوس لا يطلب من وزرائه شيئا كثيرا ٠ هو يعرف أنه خاتم مطاط وهو راض بذلك ٠ ولكنه يطلب أن يسمحوا له أن يثبت أنه رجل حى له روح وعقل وارادة مرة واحدة كل عشرين مرة ٠ ان بونرجز نفسه قد غضب حين وصفه ماجنوس بأنه مجرد خاتم من مطاط ، فلماذا يطلب الى ماجنوس أن يكون كذلك ؟

وهكذا يمضى هذا الملك الدمث الماكر فى اللعب بعقل بونرجز حتى يبلبل أفكاره ويروضه ترويضا٠ فهو آنا يتملق غروره بقوله ان برونرجز وزير يسمو على بقية الوزراء لأنه ليس خاتما من المطاط بل هو رجل حى ذو روح وعقل وارادة ٠

ويحسب بونرجز بأن ماجنوس يتلاعب به فيقول :

بونرجز : ٠٠٠ ومع ذلك فأنا أومن بالنظام الجمهورى٠

ماجنوس : وهذا مصدر دهشتى الدائمة ٠ أتعتقد حقا أنه يجوز لأى رجل أن يتمتع بالسلطة الشخصية الواسعة التى يتمتع بها الرؤساء فى الدول الجمهورية ؟ ان الملوك الطموحين يحسدونهم على ذلك ٠

بونرجز : ماذا ؟ أنا لا أفهم ما تقوه ٠

ماجنوس (مبتسما) : أنت لا تستطيع أن تضحك على ذقنى يا مستر بونرجز أنا أعرف لماذا أنت جمهورى ٠ فاذا

عزلنى الشعب الانجليزى وأقام جمهورية فأنت أقرب الناس لأن تكون أول رئيس بريطانى ··

فاذا حدث ذلك فسوف يكون لك من السلطة عشرة أمثال ما لى ·

بونرجز (غير مقتنع تماما) : وكيف يكون ذلك ؟ أنت الملك ·

ماجنوس : وما الملك ؟ صنم أقامته جماعة من الأغنياء ليحكموا البلاد متخذين منه كبش الفداء أو دمية الأراجوز· أما رؤساء الجمهوريات فهم من اختيار الشعب والشعب يطلب دائما رجلا قويا ليحميه من الأغنياء ·

ولكن ماجنوس رغم هذا يؤثر وظيفة الملك على الوظائف المنتخبة فالأولى وظيفة ثابتة لا يطلب فى شاغلها مؤهل الا أن يكون ابن أبيه أو ابن أخى عمه كما هى الحالة مع ماجنوس · والثانية متقلبة من يتقلدها تحيط به زعازع الانتخابات · فأين يكون بونرجز مثلا اذا ظهر له منافس يطيح منه أصوات نقابات العمال · أما بونرجز فهو يرى غير هذا الرأى ويقول :

بونرجز : ما من ملك على وجه الأرض مطمئن فى منصبه اطمئنان ممثل نقابات العمال ·· فأنا أحدث هؤلاء الرجال والنساء فى الديمقراطية · أنا أقول لهم انهم يملكون الأصوات وأن لهم الملك والمجد والقوة · أقول لهم : « أنتم فوق كل شىء فباشروا سلطتكم » · فيقولون : صدقت ·

« يقولون خبرنا ماذا نفعل » ، فأخبرهم بما يفعلون ، أقول : « صوتوا بوعى وانتخبونى » ، فينتخبونى · هذه هى « الديمقراطية » ، وهى نظام بديع لأنها تضع أفضل الناس فى « أفضل المواضع » ·

وهنا يدخل أعضاء مجلس الوزراء لابسين أزياءهم الرسمية وعلى رأسهم بروتيوس رئيس الوزراء وهو رجل

متقلب كالحرباء كما يدل على ذلك اسمه ويدخل بليني وزير المالية المعتدل ونيكوبار وزير الخارجية وهو ماكر كالثعبان وكراسوس وزير المستعمرات الذى يدل اسمه على أنه من تجار الرقيق ثم بالبويس وزير الداخلية القاسى الذى لا عقل له ، وبعد أن يدخل الوزراء الذكور تدخل وزيرتان هما ليزيستراتا وزيرة الكهرباء وهى امرأة مخلصة للكهرباء ولبريطانيا كانت مدرسة فيما مضى ولا تزال تحتفظ بخصائص المدرسات وأمانيرا وزيرة البريد وهى مهرجة مرحة تنتصر على كل معارض بتقليده أمام الجماهير وبالغناء أمام الناس ٠

وقد اختار برنارد شو لجميع أشخاص مسرحيته أسماء رومانية ذات مدلول ليوحى لنا بأن الامبراطورية البريطانية تدخل الآن فى نفس المرحلة التى مرت بها الامبراطورية الرومانية قبل زوالها ٠

ويقدم بروتيوس باسم الوزراء انذارا للملك ماجنوس فيه ثلاثة بنود : أولا أن يمتنع الملك عن القاء الخطب الملكية ٠

ثانيا : أن يكف عن تهييج الصحافة على الوزارة من مطبخ القصر ٠

ثالثا : ألا يعود الملك الى التلويح ــ أمام الشعب ــ بما يملكه من حق الفيتو ٠

فاذا لم يستجب الملك لهذه المطالب ويوقع على الانذار بالقبول فان الوزارة ستستقبل ، وسيعرف الشعب سر الأزمة الوزارية وهو أن ملك بريطانيا يخرق الدستور الذى يقول ان الملك يملك ولا يحكم ، ويعرض النظام الديمقراطى كله للخطر ٠

ويتشدق كل وزير بثقة الشعب فى الوزارة لكثرة ما حققته من خير للبلاد ٠ فهذا بروتيوس يقول :

بروتيوس : وقد ألغينا الفقر والبأساء ولهذا يثق الشعب فينا •

(مخاطبا الملك) ولهذا سترضخ لمطالبنا مكرها • فالشعب الانجليزى يظاهرنا لأننا جعلناه يعيش فى بحبوحة تامة ، بحبوحة الطبقة المتوسطة •

فيجيبه الملك الذكى قائلا :

ماجنوس : كلا • نحن لم نلغ الفقر والبأساء ، وانما ألغاهما كبار الرأسماليين بيننا • وكيف ألغوهما ؟ بتصدير رؤوس أموالنا الى الخارج حيث لا يزال الفقر منتشرا ولا تزال البأساء ضاربة أطنابها ، أو بعبارة أخرى حيث اليد العاملة رخيصة • ونحن نعيش فى بحبوحة على الأرباح الواردة من رؤوس الأموال هذه • وقد أصبحنا بذلك جميعا من طبقة السادة والسيدات •

ويباهى وزير المستعمرات بأن انتاج انجلترا اليومى من الكريم شكولاتة قد بلغ عشرين ألف طن فيجيبه الملك الحصيف هادئا :

ماجنوس : مما يدعو الى الاطمئنان حقا أنه لو حاصرتنا عصبة الأمم حصارا سلميا لأمكننا أن نعيش على الكريم شكولاتة ثلاثة أسابيع على الأقل !

نعم ان هذا الملك الحصيف يرى الخطر الذى لا يراه وزراؤه • لأن الوزراء لا هم لهم الا استرضاء الجماهير بالأجور المرتفعة وبالربح الحرام من عرق العبيد فى المستعمرات •

بروتيوس : ماذا تقول فى هذا يا سيدى ؟ اقتنع أنت بأن البروليتاريا الانجليزية التى تتقاضى أعلى أجور العالم فى صفنا •

ماجنوس (فى جد عميق) : أنا أخشى الثورة •

(يضحك الجميع الا المرأتين ضحكا عاليا من هذا القول)

بونرجز : أنا معهم فى هذا يا سيدى اعارض الكريم شكولاتة بمقدار ما تعارضها ، فانا لا استسيغها • اما قيام ثورة في انجلترا ففكرة يجب أن تنزعها من رأسك ياسيدى- لن تكون هناك ثورة ولو مزقت الماجنا كارتا ميدانا فى الطرف الأغر وأحرقت كل عضو فى مجلس العموم فى سمتفيلد •

ماجنوس : أنا لم أكن أفكر في قيام ثورة فى انجلترا • وانما كنت أفكر في البلاد التى نعيش على ما ترسله لنا من جزية • افترضوا أن هذه البلاد فكرت في التوقف عن دفع الجزية • لقد حدث هذا قبل الآن •

بليني : محال يا سيدى محال • فماذا سيحدث لتجارتها الخارجية معنا •

ماجنوس : ستستغنى فى الضائقة عما تصدره لها من بسكويت عيد الميلاد •

ويحدث الملك الاضطراب في صفوف الوزراء • ان بونرجز متفق معه على أن الرخاء السائد فى انجلترا رخاء مفتعل • ووزيرة الكهرباء ليزيستراتا ثائرة لأن كراسوس يخرب عملها ، فوزارتها كانت تستطيع أن توفر الكهرباء رخيصة للشعب من حركة المد فى شمال اسكتلندا لولا أن كراسوس توسط لشركة يديرها عمه فى استغلال موارد القوى المائية هذه • وهكذا يؤلب هذا الملك الماكر وزيرا على وزير فينقسم مجلس الوزراء وينسى الموضوع الاصلى الا وهو الأزمة الدستورية • ولكن بروتيوس يتنبه الى كل هذه المراوغات فيرجو وزراءه ويركز تفكيرهم على ما جاءوا من أجله ، ألا وهو تسليم الانذار للملك •

ويطلب الملك مخرجا من هذا المأزق فلا يجد ، وينفد كل ما لديه من منطق وحيلة وتهديد فهو انا يجادلهم فى أن الفيتو حمايةللوزراء أنفسهم لأنه يحمل الملكالمسئولية

نيابة عنهم وهو آنا يروغ منهم روغان الثعلب بتفريع المناقشة ، وهو أحيانا يهددهم بفضح استغلالهم لنفوذهم فيتوعده بروتيوس بالتشهير بغرامياته الداعرة فيتراضى الطرفان على السكوت ٠

وحين لا يجد ماجنوس مخرجا يطلب من وزرائه مهلة حتى الساعة الخامسة مساء ليتدبر قراره النهائى ويصرف الوزراء ثم ينطلق الى بيت عشيقته أوريشيا ليستريح من جلائل الأعمال ٠٠ وليفكر فى طريقة يقلب بها عربة التفاح ٠

(٢)

وتحين الساعة الخامسة فنجد الملك ماجنوس جالسا مع زوجته الملكة جميما فى فراندة بالقصر وقد فرغا من تناول الشاى ٠ وقد رأى ماجنوس أن يستقبل مجلس وزرائه فى الفراندة ، ولهذا فهو يأمر برفع أدوات الشاى واستبقاء الكراسى انتظارا لوزرائه ٠ وفيما هو كذلك يعلن السكرتير بامفيليوس قدوم زائر غير منتظر هو سفير أمريكا ، مستر فانهاتان ٠

بامفيليوس : ٠٠٠ انه السفير الأمريكى ٠

الملكة (فى شيء من الاستياء) : أهو على موعد للمثول ؟

بامفيليوس : كلا يا سيدتى ٠ أعتقد أنه منفعل لأمر من الأمور وقد عجزت عن أن أفهم أى شيء من كلامه ٠ وهو يقول انه لابد من مقابلة جلالته فورا ٠

الملكة : لابد ! السفير الأمريكى لابد أن يقابل الملك فورا ، وبغير موعد للمثول ؟! هذا كلام لا يطاق !

ماجنوس (ينهض) : أدخله يا بام ٠

(يخرج بامفيليوس) ٠

الملكة : لو كنت مكانك لأبلغته أن يكتب طالبا المثول في حضرتك ثم جعلته ينتظر أسبوعا قبل أن آذن له ٠

ماجنوس : ما هذا الكلام ٠ اننا لا نزال مدينين لأمريكا بدين الحرب القديم ٠ وكيف أفعل هذا ورئيس جمهوريتهم استعماري مجنون كبوسفيلد ! كلا لو كنت مكانى لما فعلت ذلك يا عزيزتى ، بل لزحفت اليه زحفا وعاملته بمنتهى الأدب كما سأفعل أنا الآن ٠ عليه اللعنة !

ويدخل مستر فانهاتان وهو يتفجر حماسا كأنه واثق من استقبال حار ويندفع الى الملكة ولا يزال يهز يدها بشدة حتى يوشك أن يخلع ذراعها من جسدها فتستنجد الملكة بالملك بنظراتها ٠ ويعتذر السفير عن انفعاله الشديد بقوله انه قد جاء فى أمر خطير ٠ بل فى أمر جلل ، بل أمر تاريخى لعله أهم ما ذكره التاريخ أو سيذكره ٠ ويعجب الملك والملكة لكل هذه العواطف الفياضة ولكنهما يعجزان عن مشاطرته شعوره لجهلهما بأسباب انفعاله ٠ ويحاولان تهدئته بعرض فنجان من الشاى عليه ، ولكنه يمضى فى عباراته المسرفة فى التهويل حتى ينفد صبر الملك فيقول :

ماجنوس : يا عزيزى فانهاتان ، ما الخبر ؟ قل لى بحق الشيطان ! دعنا نصل الى بيت القصيد ٠

فانهاتان : أيها الملك ماجنوس ٠ ان لبلادى دينا على بلادك ٠

ماجنوس : وما أهمية هذا بعد أن نقل الرأسماليون الانجليز كل هذه الأموال الطائلة الى أمريكا لاستثمارها فى الشركات الأمريكية فأصبحتم بعد أن تستردوا مالكم من فائدة على هذا الدين مضطرين الى ارسال ألفى مليون دولار سنويا لموازنة حسابنا معكم ٠

فانهاتان : انس الأرقام مؤقتا يا ملك ان ما بين بلادى وبلادك ليس دينا فحسب ولكن حدودا كذلك ٠ وهى حدود

لا يحصنها مدفع واحد أو جندى واحد ، حدود يعبرها كل يوم المواطنون الأمريكيون ويصافحون الرعايا الكنديين التابعين لعرشك .

ماجنوس : وهناك أيضا حدود المحيط الأطلسى التى تدافع عنها عصبة الأمم على حسابنا معا وتكلفنا شيئا من المال .

فانهاتان (ينهض ليجعل لكلماته وقعا أعمق) : يا سيدى : لقد ألغى الدين ، والحدود لم يعد لها وجود .

الملكة : وكيف كان ذلك ؟

ماجنوس : أفهم من كلامك يا مستر فانهاتان ان الطبيعة قد أصابتها نوبة من التشنج فابتلع المحيط الأطلسى قارة أمريكا الشمالية ؟

فانهاتان : بل حدث ما هو أعجب من ذلك ، اذا أردنا وصفه قلنا ان الامبراطورية البريطانية قد ابتلعت المحيط الأطلسى .

ماجنوس : أعتقد أن من الخير أن تنبئنا بما حدث بما يمكن من الاختصار . تفضل واجلس .

فانهاتان (يستأنف الجلوس) : أنت تعلم يا سيدى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت فى يوم من الأيام جزءا من امبراطوريتك .

ماجنوس : نعم ، يقال شىء من هذا القبيل .

فانهاتان : هذا ليس مجرد قول يا سيدى . انه حقيقة تاريخية لا مراء فيها ، ففى القرن الثامن عشر ..

ماجنوس : هذا زمن بعيد .

فانهاتان : ان القرون حسابها ضئيل فى حياة الأمم العظيمة ، يا سيدى . دعنى أذكر حكاية الابن الضال .

ويضيق الملك ذرعا بهـذا الحديث اللولبى انه ينتظر مجلس الوزراء والسفير الأمريكى لا يقتصـد فى الـكلام · وأخيرا يأتى السفير بما عنده ·

فانهاتان : ان الابن الضال يا سـيدى قد عاد الى بيت أبيه ، وهو لم يعد فقيرا ولا جائعا ولا مهلهلا فى الأسـمال كما جاء فى الحكاية القديمة · لا لا · بل هو يعود هـذه المرة بخزائن الدنيا الى دار أسلافه ·

ماجنوس (ينهض عاجبا من مجلسه) : آنت لا تقصـد أن تقول ··

فانهاتان (ينهض كذلك فى تواضع المنتصر) · نعـم يا سيدى ، أقصد ذلك · لقد ألغى اعلان الاستقلال ومزقت المعاهدات التى أكدته · لقد قررنا أن نعود من جـديد الى حظيرة الامبراطورية البريطانيـة · ونحن طبعـا سـنتمتع بالحكم الذاتى تحت رئاسة مستر يوسفيلد بوصفنا دولة من دول الدومينيون · وسـأزوركم مرة أخـرى عما قـريب لا بوصفى سفيرا لدولة أجنبية ولكن بوصفى مندوبا ساميا فى أعظم أملاك الدومنيون التابعة لك ، وبوصفى رعية من رعاياك المتفانين فى الولاء والاخلاص لك يا سيدى ·

ويفقد ماجنوس سلطانه عـلى نفسـه لهول الصـدمة فيتهافت فى مقعده · ولكنـه لا يلبث أن يتمالك نفسـه من جديد ويفكر فيما سمع · انه يعرف عن رئيس جمهـورية الولايات المتحدة أن لسانه أنشط جزء من أجزاء رأسه فمحال أن تكون هذه الفكرة النيرة قد نبتت فى رأسه أولا · ويعرف من السفير الأمريكى أن هذه الفكرة النيرة انما نشأت بعـد زيارة رئيس دولة أيرلندا الحرة ، مستر أورفرتى للولايات المتحدة ·

ومعنى هذا أن مقر العرش سيكون فى دبلين ! وأن هذه طبعا ستكون نهاية انجلترا ! وحين يسمع السفير الامريكى هذا النعى يقول معزيا :

فانهاتان : ربما كان هذا صحيحا بمعنى من المعانى ، ولكن انجلترا لن تهلك • لسوف تندمج •• تندمج يا سيدى فى مؤسسة أكبر وأبهى • ربما كان من واجبى ان أذكر أننا اشترطنا أن تكون أنت امبراطورا علينـــا • ان وظيفة ملك قد تكون كافية لهـذه الجزيرة الصـغيرة ، أما اذا اشتركنا فستتطلب شيئا أضخم من ذلك •

ماجنوس : هذه الجزيرة الصغيرة « هذه الدرة القائمة فى بحر من لين » ، كما يقول الشاعر ! هل خطر لك يا مستر فانهاتان أننا قد نفضل احياء صيحة الحرب القديمة « نحن أنفسنا » (شين فين) ونحارب من اجل استقلالنا الى آخـر قطرة من دمائنـــا عـلى أن نضمر فنصـبح مجرد ملحق من الملحقات التى تملكها شركة أمريكية كبرى •

فانهاتان : يؤسـفنى اسـفا عميقا ان أفكر فى امكان ارتدادكم الى الماضى الوحشى • ولكن هذا لحسن الحظ أمر محال •• محال • فنصيحة الحرب القديمة لن تجد استجابة فى نفوس بحارة أسطول عصبة الأمم المرابطين فى المحيط الأطلسى لأنهم خليط من كل ملة ونحلة • سيحاصركم هـذا الأسـطول يا سيدى • وأخشى أننا سنضطر الى مقـاطعتكم ، وبالتـالى فان الألفى مليـون دولار التى تأتيـكم اعانة منا ستنقطع عنكم •

ماجنوس : ولكن فكر فى دول أوربا أتحسب أن هـذه الدول ستوافق اطلاقا على مثل هذا التغيير فى توازن القوى؟

فانهاتان : ولم لا توافق ؟ لن يكـون التغيير الا تغييرا اسميا •

ماجنـوس : اسـميا ! اتصـف ادماج الـكومونويلث البريطانى فى الولايات المتحدة بأنه تغيير اسمى كيف ستصفه فرنسا وألمانيا ؟

فانهاتان : فرنسا وألمانيا ؟ ان هذه المصطلحات الجغرافية الغريبه التى تستعملها فى كلامك بحـكم العادة لا تزعجنـا

أظنك تقصد بألمانيا سلسلة الجمهوريات السوفيتية بدرجات متفاوتة بين جبال الأورال وبحر الشمال • ان الرجال الأذكياء في موسكو وبرلين وجنيف يحاولون الآن ايجاد اتحاد بينهما ، ومن المفهوم تماما لدينا ولديهم انهم لن يعترضوا على عملنا اذا لم نعترض نحن على عملهم • أما فرنسا ، وأنت تقصد بها الحكومة القائمة فى نيوتمجاد على ما أعتقد ، فهى مشغولة فى أفريقيا بما فيها مصر عن الاحتجاج على ما يحدث فى نهايتكم من نفق المانش • وطالما أن باريس مليئة بالأمريكيين والأمريكيون مليئون بالمال فان كل شىء يسير على ما يرام من وجهة النظر الفرنسية •

هذا هو النبأ العظيم الذى جاء سفير امريكا يحمله الى ملك انجلترا ثم ينصرف • ويعلم ماجنوس أن انجلترا سوف تصبح بعد حين قليل الولاية التاسعة والأربعين فى الولايات المتحدة الأمريكية ويرمز لها « باضافة نجم جديد على العلم الأمريكى » ، أما الملكة فلا تجد بأسا من ذلك لأن زوجها سيصبح امبراطورا لا مجرد ملك ، ثم انها تعتقد أن الانجليز سوف يمدنون الأمريكيين لأنهم « أرقى منهم بالفطرة » • وأما الملك فهو غير متفائل اطلاقا •

وبعد أن ينصرف السفير الأمريكي يفد أعضاء مجلس الوزراء •

ويسأل الملك وزراءه ان كانوا قد عرفوا بالأنباء الواردة من أمريكا فيجيبه رئيس الوزراء بأنه على علم بها • ويطلب الملك مشورة وزرائه فى هذا العرض الخطير وبروتيوس يطلب مناقشة الانذار أولا •

ماجنوس : أتحسب أن الانذار ستكون له آية أهمية اذا انتقلت عاصمة الكومونولث البريطانى الى واشنطون ؟

نيكوبار : نحن نؤثر أن نراها تنتقل أولا الى ملبورن أو مونتريال أو جوهانسبرج •

ماجنوس : ولكنهـا لن تدوم هنـــاك · فهى لن تدوم الا حيث يكون هناك مركز ثقل حقيقى ·

بروتيوس : نحن متفقان على هذا · اذا كان للعاصمة أن تنتقل فستنتقل اما الى واشنطون أو الى موسكو ·

ولكن ·· ولكن الانذار أولا ·

أما ماجنوس فقد انتهى قراره الى شىء خطير · انه قرر الاستقالة ، أى التنازل عن العرش ·

وتقع كلمات الملك من نفوس وزرائه موقع الصاعقة · انه لن يوقع على الانذار بالقبول لأنه يعلم أنه سيخل بتعهده· هذه هى طبيعته وهو أعرف بها من غيره · وهو يقبل منهم حقا مبدأ الملكيـة الدستورية ، ولكنـه واثق أنه سـيخرق الدستور ان بقى على العرش · وهو لذلك لا يرى حلا الا أن يتنازل عن العرش ·

ثم يتشجع الوزراء شيئا فشيئا فلا يجدون غضاضة فى تنازل الملك عن العرش · بل هم يذهبون الى أكثر من ذلك ، فيلقون الخطب الرنانة فى اطراء الملك، ويعبرون عن أسفهم العميق لنهاية هذه الصداقة الجميلة ، ومنهم من تدمع عيناه لمرارة هذا الوداع ·

وهنا يفاجئهم الملك بقنبلة جديدة · انه لم يقـل انه سيلغى الملكية وانما قال انه سيتنازل عن العرش · بل هـو سيتنازل عنه صيانة للملكية ! وسوف يخلفه ابنـه روبرت وعندئذ يمكن للوزراء أن يطمئنوا الى أن عليهم ملكا يملك ولا يحكم ، ويحكم عن طريق وزرائه كما يقولون ·

أما هو فهو يعتزل العرش ولا يعتزل السياسة · نعم ·· سيكون آخر مرسوم يصدره ــ مرسوم بحل البرلمان ــ وبتجريد نفسه من جميع ألقابه وامتيازاته وبذلك يصبح رجلا عاديا كسائر الرجال · وبذلك يستطيع أن يرشح نفسه فى دائرة انتخابية هى دائرة وندسور حيث القصر الملكى ·

ولما كاو ماجنوس محبوبا فى وندسور فانتصاره لا شك محقق ، بل انتصاره لا شك مكتسح · وعندما يصير ماجنوس عضوا فى مجلس العموم سيؤلف حزبا سياسيا · وعندئذ · من يدرى ؟

ان من سلطات جلالة ابنه الدستورية أن يكلف من يشاء من زعماء الأحزاب أن يشكل وزارة يثق فيها مجلس العموم·

نعم من يدرى ؟

ربما كلف الملك الجديد أباه بتشكيل الوزارة الجديدة ··

وعندئذ لن تكون هناك أزمات دستورية ولا تنازع على سلطات السيادة لأن الابن والأب سيتقاسمان المملكة : الابن يملك والأب يحكم ·

وحين يسمع الوزراء هذ الكلام يسقط فى يدهم ·

لقد قلب لهم الملك عربة التفاح التى رتبوها أجمل ترتيب · ويطلب بروتيوس من الملك فى غيظ شديد أن يرد له الانذار فيرده له · ويمزق بروتيوس الانذار أربعا ، ويعلن غاضبا أن الأزمة الوزارية قد انتهت وأن كل شيء سيسير فى المستقبل كما كان يسير فى الماضى وينصرف · وينصرف بعده الوزراء واحدا بعد الآخر ·

وقبل أن ينفض الجمع تماما يستوقف الملك بالبوس وهو فى طريقه الى الخارج ويقول :

ماجنوس : ·· على فكرة · اذا تصادف ان لحقت برئيس الوزراء فأرجوك أن تتفضل بتذكيره أننا نسينا تماما أن نبت فى تلك المسألة البسيطة ، وهى اقتراح أمريكا بضم الكومو نولث البريطانى · فيقول بالبوس فى بلاهة :

بالبوس : بحق السماء لقد نسينا ! هذه فكاهة لطيفة ! ها ها ها ! ها ها ها !

وهكذا ينصرف بالبوس وهـو يضحك ضـحكة الخلى أو ضحكة الغبى • ويلتفت الملك ماجنوس الى الوزيرة الوحيدة النظيفة الجادة بين وزرائه ويقول :

ماجنوس : انهـم لا يفهمون يا ليزى • لا يفهمون من الموقف شيئا • انه أشبه شىء بكوكب آخر يوشك أن يصطدم بكوكبنا • وسيمضى عنا الملك والقوة والمجد ونبقى عرايا وجها لوجه مع أنفسنا الحقيقية آخر الأمر •

ست شخصيات تبحث عن مؤلف

كوميديا للكاتب الايطالى لويجى بيراندلو

حين ظهرت مسرحية « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » وهى كوميديا من ثلاثة فصول ، للكاتب الايطالى لويجى بيراندلو أحدثت ضجة كبرى فى العالم كله وترجمت الى اكثر لغات العالم ونشرت فى اللغة الانجليزية عام ١٩٢٢ .

وتعد هذه المسرحية حجر الزاوية فيما يسميه النقاد « المسرح الذهنى » أو « الدراما الذهنية » ، فهى تدور حول موضوع فلسفى هو الوجود الانسانى بين الحقيقة والوهم . أين تبدأ الحقيقة وأين يبدأ الوهم بل نحن اذ نفرع من قراءتها أو مشاهدتها نشك فى حقيقة الواقع ولا ندرى ان كانت هذه الحياة الانسانية التى نحياها حقيقة واقعة أم نسجا من الأحلام .

وسبيلنا الى هذا الشك هو تأمل ما بين الفن والحياة من صلة فغاية الفن المسرحى هى ما يسمونه تصوير الحياة على المسرح . وعماد الفن المسرحى هو ايهامنا بأن ما يجرى على المسرح ليس شيئا من نسج خيال المؤلف ولكن جزءا من واقع الحياة . ونحن نحكم على الفن بمقدار مطابقته للحقيقة . وفى اللحظة الفنية المثلى يتطابق الوهم والحقيقة على المسرح فى أذهاننا ويختلط علينا الأمر فلا نعرف ان كان ما نشاهد

وهما أم حقيقة ، وحين يبلغ الفن أعلى مراتبه يسيطر علينا الوهم فنخاله حقيقة ٠

فاذا كان الفن الخالق يستطيع أن يفعل هذا بالانسان ، فما الدليل على وجود الحقيقة فى الحياة ذاتها ؟

لقد شبه كتاب المسرح العالم بالمسرح والحياة بالمسرحية والناس بشخصيات المسرحية ولشكسبير فى هذا أقوال جميلة تدل على أن كل ما يحدث فى الحياة انما هو تمثيلية رائعة من وضع الفنان الأعظم ٠

أما الشك فى حقيقة الحقيقة بل القول بأن الحقيقة وهم فهو شيء قديم قدم التفكير الانسانى ، وقد بلغ قمته فى فلسفة أفلاطون الذى قال ان العالم المادى الذى تعيش فيه ان هو الا ظل ساقط من فكر الله أما الحقيقة والعالم الحق فلا وجود لهما الا فى الذهن الأعلى ، ذهن الخالق فى عالم المثل الكاملة المجردة التى لا يشوبها نقص ٠ أما ما نراه من أشياء فهو مجرد صورة للكمال الأعلى والصورة مهما دقت فهى ناقصة وهى لا يمكن أن تدانى الأصل فى الكمال ٠

وهذا هو الموضوع الذى يعالجه الكاتب المسرحى الكبير بيراندلو ٠ ان شخصيات المسرح ليست قاصرة على المسرح بل ان من يتأمل الأحياء أنفسهم يستطيع أن يتبين فيهم شخصيات مسرحية من أعظم طراز تجرى عليها أحداث الحياة كما تجرى الأحداث فى المسرحيات ٠ ومنهم من يمثل دوره فى الحياة وهو قانع بالمؤلف الأعظم وفنه الأعظم الذى خلقه ورسم له سيرته فى الحياة وقدر له المقادير ، ومنهم من ينهشه القلق فيذهب يبحث عن مؤلف آخر غير خالقه يؤلف من سيرته مسرحية كأنه غير قانع بما فى الحقيقة من فن أو كأنه غير راض بما فى الفن من أوهام ٠

ومن هؤلاء الأحياء ستة أشخاص ، كلهم أبناء أسرة واحدة اختارها بيراندلو ، ولأبناء هذه الأسرة قصة مترابطة الحلقات ، قصة يظن أبطالها أنها تصلح لأن تكون مادة للفن

وهم لذلك يبحثون عن مؤلف مسرحي يصوغ من سيرتهم ومن أشخاصهم مسرحية يزوج فيها الفن من الحقيقة ·

(١)

وأين يتجـه أفراد هـذه الأسرة للبحث عن مؤلف ؟ هم يتجهون الى مسرح من مسارح المدينة بطبيعة الحال · ولذا نراهم مجتمعين ذات صباح على فرقة من فرق التمثيل حيث اجتمع الممثلون وعلى رأسهم المخرج على خشبة المسرح يجرون البروفة لتمثيلية من التمثيليات ·

وليس لأفراد هـذه الأسرة أسماء معينة فنحن نعرفهم بأدوارهم وبعلاقة كل منهم بالباقين · فهناك الأب وهو رجل في الخمسين من عمره يميل الى السمنة قليلا عريض الجبهة طويل الشـارب كثير الابتسام ، في طبعه حـدة وتناقض ، فكلامه يعذب أحيانا ويعنف أحيانا آخرى · وهو رجل معقد متفلسف له نظـريات عجيبـة في حقيقة الـوهم وفي وهم الحقيقة لا في الحياة وحدها ولكن في الفن كذلك · وهناك الأم وهي امرأة كسيرة النظرة تحمـل جبـالا من الهمـوم سحقتها سحقا اعتملت في نفسها الذلة والعـار والشـعور بالخطيئة · نراها في ملابس الحداد لأنها ترملت في والد ابنها وعلى وجهها نقاب أسود من امارات الحداد · وهنـاك ابنة الأم وهي فتاة جميلة جريئة توشـك آن تبلغ جرأتهـا مبلغ الوقاحة وقد بدت في ملابس الحداد أيضا ، ولكن في أناقة فائقة وهناك أخوها الغلام التعس الذي تحتقره هـذه الفتاة احتقارا شديدا وهو يبدو أيضا في ملابس الحـداد واسمه هنا الغلام وهو في الرابعـة عشرة من عمره وهـذا الغلام المسكين يرتسم الجزع على وجهه لفرط ما يلاقي من اضطهاد وهـو صموت لا ينطق بكلمـة طوال المسرحيـة · وهناك الطفلة وهي في الرابعة من عمرها تبدو في فستان أبيض وحول وسطها زنار أسود هو شارة الحداد ، أما البنت

فهى تحب أختها الطفلة حبا جما وتدللها تدليلا على عكس ما تفعل بأخيها الغلام • وأخيرا هناك الابن وهو فى الثانية والعشرين من عمره مديد القامة قاسى النظرات مترفعا على الجميع ولا سيما على أبيه فهو يحتقر أباه احتقارا لا مزيد عليه وهو يترفع على أمه ويهملها اهمالا تاما ، يضيق بكل ما يجرى حوله ، فقد أتى الى المسرح على كره منه ولو استطاع الفرار من هذا المحيط كله لوجد فى ذلك راحته ويدخل الأب معه بقية أفراد أسرته ويقول للمخرج انهم قد جاءوا يبحثون عن مؤلف ، أى مؤلف ، فأفراد الأسرة يعتقدون أنهم شخصيات لا تقل حقا فى الحياة عن أبطال المسرح ، ولا ينقصهم الا المؤلف الذى يجعل من حياتهم مسرحية فنية صالحة للعرض على الجمهور •

ويغتاظ المخرج فهو يحسب هذه الجماعة أول الأمر من المتسكعين جاءوا ليضيعوا وقته ثم يخيل اليه أن محدثه مخبول لأنه يتفوه بأشياء لا يعقلها المنطق ولكنه يلتفت الى حديثه حين يسمع منه كلاما يشبه الحكمة •

الأب : أطلب عفوكِ فانما أسوق هذا الكلام لك فأنت تصيح قائلا انك لا تريد اضاعة وقتك مع المجانين ، ومع ذلك فأنت خير من يعرف أن الطبيعة تتخذ من خيال الانسان أداة تحقق بها غايتها الخلاقة •

المخرج : جميل جدا ، ولكن أين يفضى بنا هذا الكلام ؟

الأب : يفضى بنا الى لا شىء انما أردت أن أوضح لك أن المخلوق يخلق فى الحياة فى صور عديدة وفى أشكال كثيرة فقد يخلق شجرة أو حجرا أو ماء أو فراشة أو امرأة • وبالتالى فهو يمكن أن يخلق شخصية فى مسرحية •

المخرج (يصطنع الضيق بطريقة مضحكة) : وعلى هذا فأنت ورفاقك هؤلاء قد خلقوا شخصيات فى مسرحية ؟

الأب : بالضبط ، بل وشخصيات حية كما ترى !

(ينفجر المخرج والممثلون بالضحك)

الأب (متألما) : يؤسفنى أنكم تضحكون فنحن نحمل فينا مأساة ويمكنكم أن تستنتجوا ذلك من النقاب الأسود الذى تلبسه هذه المرأة ·

ويزداد ضيق المخرج بهذا اللجاج فيأمر عامل الديكور بطردهم ، ولكن الأب يعود ليشرح وجهة نظره ·

الأب (يتقدم فى تصميم) : انى أعجب لتشكككم هذا أيها السادة · ألم تتعودوا أن تروا الشخصيات التى يخلقها المؤلف تدب فيها الحياة فى أشخاصكم ويواجه بعضها البعض الآخر ؟ أترفضون تصديقنا (يشير الى كمبوشة الملقن) لمجرد أنه ليس هناك « كتاب » يحتوينا ··

ان من أسعده الحظ فخلق لكى يكون شخصية انما يستطيع أن يسخر من الموت فهو لا يمكن أن يموت · ان الانسان يموت — نعم يموت الكاتب وهو أداة الخلق ولكن خليقته لا تموت · وليس يلزم لتحقيق الخلود أن تتميز الشخصية بمواهب خارقة أو بقدرة على عمل المعجزات · فماذا كان سانكو بانزا ؟ وماذا كان دون أبونديو ؟ ومع ذلك فهما خالدان لأنهما وجدا — لحسن حظهما — المهبل الخصيب الذى ينموان فيه وهو خيال الكاتب الذى أنشأهما وغذاهما وجعلهما يعيشان الى الآن !

ان كلام هذا الرجل فيه شيء من الحقيقة ، بل فيه كثير من الحقيقة ، والمخرج قد بدأ يصغى بشيء من الاهتمام رغم غيظه الشديد · ان الآب لا يطلب الا شيئا واحدا هو ان يتاح له أن « يحيا » مع بقية أفراد أسرته ، أن يحيا فى اشخاص الممثلين المجتمعين حول هذا المخرج وفى فنهم · ثم ان الفتاة ، ابنة الأم ، تقول كلاما كثيرا فيه اغراء شديد · وهى تريد أن تثبت أنها شخصية في الحياة جديرة بأن تجد مؤلفا يحييها بفنه · وهى تعرض رقصة وتغنى اغنية يعجب بها الجميع · ثم ما هذا الكلام الغريب الذى تلقيه هذه البنت

عن نفسها وعن آمالها ؟ انها تقول انها تيتمت منذ شهرين، وهى تزخر أخاها « الابن » متأففة من ترفعه واستعلائه واحتقاره لبقية اخوته لأنه يعلم أنه الابن الشرعى الوحيد فى الأسرة وأن سائر اخوته أبناء زنا • وحين يبلغ حديثها هذا المبلغ يصيب الأم دوار شديد وتوشك أن تقع مغشيا عليها ، وتناشد المخرج باسم طفلتها البريئة وباسم غلامها المسكين أن يضع حدا لكل هذا • ثم ان « الأب » يتقدم نحوها فى قسوة ويكشف النقاب الأسود عن وجهها الشاحب الذى يشبه قناعا من الشمع ويدعو المخرج والممثلين للتملى منها كأنه يريد أن يفضحها • ان الأم تتعذب عذابا شديدا وهى تبغض أن تشارك فى هذه الفكرة الغريبة التى امتلأ بها خيال الأب وسيطرت على عقله ووجدانه • انها لا تريد أن تكون شخصية فى رواية مسرحية وقد سيقت الى هذا المكان سوقا •

ويجد المخرج نفسه فى تيه من الألغاز • ان الأب يقول ان هذه السيدة زوجته وهى مع ذلك تبدو فى ثياب الحداد لأنها ترملت منذ شهرين • وكيف تكون الزوجة أرملة وزوجها حى يرزق ؟ لابد من استيضاح كل ذلك • لا شك أن لهذه الأسرة قصة فريدة ، فليس غريبا اذن أن ينسى المخرج عمله وأن يتجه بكليته الى هؤلاء القوم ليستجلى حقيقة أمرهم •

ويحاول الأب أن يفسر الأمر فيقول ان الأم تلبس ثياب الحداد على عشيقها • الذى مات منذ شهرين وان ماساة الام هى فى بنيها الأربعة الذين جاءت بهم من رجلين •

وتحتج الأم بأن زوجها هو الذى دفعها الى هذا العشيق دفعا وأجبرها على أن تلجأ اليه اجبارا • ويروى الأب ما حدث فنعلم أنه استخدم رجلا فقيرا سكرتيرا له ، وأخلص له هذا الرجل اخلاصا شديدا فنشأت بينه وبين الأم صداقة قوية ، ولكنها كانت صداقة نقية لا تشوبها شائبة وليس فيها الا تعاطف روحى عميق • وأدرك الأب ما بين الأم وبين هذا الرجل من حب عميق فطرد السكرتير من خدمته ، فاستسلمت

الأم ليأس قاتل وغدت تهيم في البيت كالكلب الذى فقد سيده • ثم نزع الأب من الأم الابن لينشأ بعيدا عنها نشأة صحيحة ، وكان بعد وليدا ، فعهد به الى مرضعة في الريف• وأخيرا طرد الأب الأم من بيته لتتحرر من قيده أو ليتحرر من قيدها ، فلحقت الأم بمن تحب وعاشت معه آعواما طوالا في مكان مجهول وأنجبت منه أبناءها الثلاثة الأخر ، وهم ابنة الأم والغلام والطفلة • ثم مات العشيق وتركهم في عوز شديد ، فاشتغلت الأم خياطة في محل للأزياء يرتاده سراة القوم وتديره قوادة عجوز بدينة تدعى مدام باتشى• وكانت مدام باتشى تتخذ من مشغلها مكانا تجمع فيه الرجال بالنساء • وقد استطاعت أن تستغل فقر الأم وبنتها لتستدرج الابنة الى الخنا على غير علم أمها • ثم تطورت الأمور تطورا مخزنا ، فقد كان الأب من رواد مشغل مدام باتشى ، وذات يوم قصد المشغل كالمعتاد وأوشكت ابنة الأم أن تكون فريسته على غير علم لولا أن لطف به القدر فانقذه وأنقذها وأنقذ الأم جميعا من هذه المأساة التى كادت أن تتم • فقد دخلت الأم على غير انتظار وحين رأت ما رأت أعولت وولولت وعرفت الأب أن البنت بنتها • حين أدرك الأب حقيقة الموقف وعلم ما آلت اليه أسرته عاد بالأم وابنتها وغلامها وطفلتها الى داره • ولكنه نقلهم بذلك من طبقة في الجحيم الى طبقة أشد منها عذابا • فقد كان ينتظرهم في دار الأب ذلك الابن المتغطرس الذى آذلهم بكبريائه عاملهم معاملة الدخلاء فأغلق فؤاده دون الأم واضطهد ابنة الأم حتى آثرت التسكع في الشوارع على الاقامة الى جواره وأرهب الغلام حتى حطم كل معنوياته فغاضت منه الحياة وانتهت حياته نهاية فاجعة •

هذه هى القصة التى سمعها المخرج واهتز لها ووجد فيها العناصر اللازمة لبناء مسرحية عظيمة فقرر أن يتبنى الفكرة • ولم يكن هناك مؤلف يستعين به على صياغتها ولكن الأب أغراه بأن يقوم هو بهذه الصياغة فاستسلم المخرج لهذا الاغراء •

(٢)

وانتهى المخرج الى طريقة بارعة · انه ليس بحاجة الى كتابة هذه المسرحية ، ولو أنه أراد لما استطاع ، فما هو بكاتب · ثم انه ليس بحاجة الى كاتب ، فما من كاتب مهما بلغت موهبته يستطيع أن يضيف بفنه الى هذا الذى خلقته الحياة أو يخلق بخياله شيئا يتجاوز منطق الحياة · وانما يكفى أن يجعل هذه الشخصيات الست ذاتها تتحرك على المسرح ويمثل كل الدور الذى فرضته عليه الحياة ليخرج من هذا بمسرحيته المنشودة ·

وهكذا يطلب المخرج الى الملقن أن يعكس وظيفته فى عالم المسرح فلا يلقن أحدا ولكن يصغى الى من يلقنه الحوار الذى دار بين أفراد الأسرة وأن يدون ما يسمع بالاختزال حتى لا يضيع شيء · كذلك يطلب المخرج الى الممثلين والممثلات أن ينتبهوا فى يقظة تامة الى كل حركة من حركات هذه الشخصيات التى تعيد على خشبة المسرح تمثيل ما كان بينها من مشاهد فى الحياة · أما عامل الديكور فيطلب المخرج اليه أن يعد المنظر اللازم لتمثيل هذه المسرحية ·

وماذا يكون ؟ المنظر ؟ انه تلك الغرفة الآثمة فى مشغل مدام باتشى حيث التقى الأب بابنة الأم · فهناك واجهة محل الأزياء وهناك الكنبة الكبيرة الصفراء وهناك المائدة الصغيرة المصنوعة من خشب الموجنة وعليها الظرف الأزرق الذى دس فيه الأب مائة ليرة ووضعه على المائدة الصغيرة ثمنا لزيارته ، وهناك المرآة ، وهناك المشاجب التى علقت عليها الثياب ، وهناك قبعات النساء المعلقة ، وهناك ستار هو ذلك الستار الذى تتوارى خلفه النسوة ليتجردن · وهناك الممثلون فى جانب من المسرح يترقبون ما سيجرى ليتعلم كل دوره ·

ويمثل الأب والابنة بعض ما دار بينهما فى تلك الغرفة :

الأب (يتقدم ويتكلم بنبرة مختلفة) : مساء الخير يا أنسة !

(تطأطيء رأسها قليلا وهى تكتم اشمئزازها) : مساء الخير ! ٠

الأب (يتأمل وجهها من تحت قبعتها التى تخفى بعض وجهها ٠ وحين يلاحظ أنها حديثة السن جدا تبدر منه صيحة بعضها لاستغرابه وبعضها لخشيته أن يتورط فى مغامرة لا قبل له بها) : آه ٠٠ ولكن ٠٠ آه ٠٠ أحب أن أعرف ٠٠ ان هذه ليست أول‌مرة تأتين فيها الى هذا المكان ؟ ٠

ابنة الأم (فى حياء) : كلا يا سيدى ٠

الأب : اذن فقد جئت هنا من قبل ؟ (يراها تومىء بالايجاب) أكثر من مرة (ينتظر ردها ويتطلع اليها من قبعتها ويبتسم ثم يقول) اذن فلا داعى لكل هذا الحياء ٠ أتسمحين لى بأن أخلع عنك قبعتك ؟ ٠

ابنة الأم (تسبقه وهى تستر اشمئزازها) : كلا يا سيدى ٠٠ سأخلعها بنفسى (تخلع قبعتها بسرعة) ٠

وحين يبلغ المشهد هذه المرحلة تشهق الأم وتصرخ قائلة : « يا الهى يا الهى ! » وتخفى وجهها من فرط العار ، والى جوارها الابن وقد التصق بها الغلام والطفلة ٠ ويتعذب الجميع لفظاعة الموقف ٠ ويمضى الأب فى تودده لبنت الأم فيعرض عليها أن يبتاع لها قبعة جديدة جميلة تليق برأسها الجميل ، لكنها ترفض ، لا عفة منها ولكن لأن القبعة الجديدة لا تتناسب مع ثياب الحداد التى تلبسها ٠

وقد كانت الابنة تحب آن تمضى فى تمثيل الحقيقة كاملة لولا أن المخرج يستوقفها عند هذا القدر قائلا ان تصوير « الحقيقة » ليس عمل الفن ٠

بنت الأم : ولكن هذه هى الحقيقة !

المخرج : وما أهمية ذلك ؟ ان عملنا هو التمثيل · نحن نلتزم الحقيقة الى حد ما ، ولكننا لا نتجاوز هذا الحد ·

نعم ان المخرج مقيـد بتقـاليد المسرح ، ومن الأمـور مالا يجوز عرضه على الجمهور لأنه فاضح يثير الاشمئزاز · ويبعث على القيء · كذلك من الأمور مالا يفيد عرضه عـلى الجمهور لأنه بمثابة دراما باطنية · والأب والابنة هنا طرفا نقيض · أما الأب فعنده أن لب الحقيقة فى مأساته هو تأنيب الضمير وهو يريد أن يسخر كل شيء فى المسرحية لتـدوين ما يعتمل فى نفسه من وخز الضمير · وأما الابنة فهى ترى أن قصتها كما حدثت فعلا فى تلك الغرفة المشئومة هى أهم ما فى الموضوع وهى تريد الى المخرج أن يجعل منها المحـور الذى يدور حوله كل شيء ·

ابنة الأم : ··· لقد فهمت انه يريد أن يصل الى عرض « الدراما الذهنية » المعقدة التى تنهش نفسـه وأن يجعلكم تمثلون ندمه المشهور وقصة عذابه ، ولكنى أريد أن أمثـل دورى ··· دورى أنا ·

ولكن المخرج يرى غير هذا الرأى ، فلو أن المؤلف المسرحى سمح لكل بطل من أبطاله أن يعرض كل مشاكله الباطنيـة على الجمهور لانتهى الفن وتحولت المسرحيـة الى سلسلة من المحاضرات ·

أما الأم فتنتحب ، وحين تعجز عن احتمال رؤية هـذا الذى يجرى أمامها تتقدم لتحول بين الأب وابنتها صائحة :

« أيها الوحش انها ابنتى ! انها ابنتى ! ألا ترى أنها ابنتى » !

ويرقص المخرج طربا لروعة هـذا التمثيـل فيصيح قائلا : «ليس هناك ما هو أبدع من ذلك ! ثم يلى هذا ستار»!

نعم لقد كان الجميع يمثلون أما الأم فلم تكن تمثل · لقد كان قلبها يتمزق · كذلك كان الغلام الـواجم المأخوذ يحمل فى صمته أبلغ الآلام ··

(٣)

وهكذا ينتقل أفراد الأسرة بالمخرج والممثلين الى حديقة دار الأب وذلك بعد عودة الأم وابنتها وغلامها وطفلتها الى الدار ٠

ويجد المخرج عسرا شديدا فى التفاهم مع هذه الشخصيات الباحثة عن مؤلف ، فهو ينظر الى مأساتهم نظرة فنية وهم ينظرون اليها نظرة فلسفية ٠ فهم يصرون دائما على ابراز المعانى النفسية التى تعتمل فى نفوسهم كالندم « الأب » والتوبة « الأم » وشعور الفريسة « ابنة الأم » ، أما المخرج فيصر على طمس كل شخصية بالقدر الكافى الذى يجعلها تدخل فى الاطار الفني العام ٠ وهم يصرون على نقل الحقيقة بحذافيرها الى عالم الفن أما هو فيصر على آن الفن هو مجرد الايهام بالحقيقة ٠

الأب : فهمت ، ولكن ربما كنت لا تفهمنا ٠ أطلب عفوك ! أنت ترى أن المسألة بالنسبة لك ولممثليك هي مجرد لعبة ، وأنتم على حق فى ذلك ٠

الممثلة الأولى (تقاطعه غاضبة) : لعبة ! نحن لسنا أطفالا نلعب ، أرجوك أن تذكر ذلك ! نحن ممثلون جادون٠

الأب : لست أنكر ذلك ٠ وانما قصدت لعبة منكم التى تخلق كما يقول السيد الوهم الكامل بالحقيقة ٠

المخرج : بالضبط ٠٠٠ ؟

الأب : فاذا تذكرتم أننا (يشير الى شخصه والى الشخصيات الخمس الأخرى) بوضعنا الحالى ليست فينا أية حقيقة خارج هذا الوهم ٠٠

المخرج (ينظر متعجبا الى ممثليه الذين يشاركونه العجب) : وما معنى هذا الكلام ؟

الأب : (بعد أن يرقبهم لحظات وعلى شفتيه ابتسامة

كاسفة) ان ما هو عندكم لعبة الفن هو عندنا حقيقتنا الوحيدة كما ذكرت قبلا يا سيدى •

والأب لا يلقى القول على عواهنه بل ان له منطقا يثبت به أنه لا وجود للحقيقة خارج الشخصيات التى يخلقها الفن أما ما يسمونه عالم الحقيقة فهو محض وهم وخداع •

الأب (صائحا) : كلا يا سيدى ! هذا لا ينطبق على حقيقتنا ! فكر معى ! ان هذا هو الفرق الجوهرى ! فحقيقتنا لا تتغير ولا تستطيع أن تتغير ! انها لا تستطيع أن تختلف عما هى لأنها قد حددت فى الزمن الماضى الى الأبد • وهذا فظيع • ان حقيقتنا حقيقة ثابتة لا صيرورة فيها وهذا يجعلك ترتعد ان رأيتنا وأنت تعى حقا • ان حقيقتك مجرد وهم عابر يتخذ هذه الصورة اليوم وتلك الصورة غدا بحسب الأحوال وطبقا لارادتك وعواطفك وهى نفسها أشياء يحكمها عقلك الذى يصورها لك اليوم فى صورة معينة ويصورها غدا•• من يدرى فى أية صورة يصورها لك غدا ؟ انها أوهام بالحقيقة تتمثل فى كوميديا الحياة هذه التى لا تنتهى ولا يمكن أن تنتهى أبدا ! فلو قد انتهت غدا لانتهى •• لانتهى كل شىء • نعم • عند الأب أن كل حقيقة لابد أن تكون ثابتة • أما ما يطرأ عليه التغير وتجرى عليه الصيرورة فهو وهم زائف مهما بدا لنا فى صورة الحقيقة • انه يتفلسف ، والمخرج الحريص على وقته وفنه يزجره لهذا التفلسف • أما هو فيرى غير ذلك • انه يبدو كالمتفلسف لمن يغمض عينيه عمدا ليعمى عن الحقيقة • أما من يجابه الحقيقة بعين مفتوحة فهو لا شك يستطيع أن يرى كلامه بسيطا وسليما ومتماسكا • وأكبر الناس يعتقد أن اعماء النفس أقرب الى « الانسانية » من التحديق فى الحقيقة ولكن الناس مخطئون فى هذا الاعتقاد •

الأب : ••• فالانسان لا يفكر بعقله تفكيرا عميقا ويذهب الى استبطان دخيلة نفسه الا حينما يتألم ودافعه الى ذلك رغبته فى الوصول الى آلامه وفى التعرف على مسببها ،

والوقوف على ما اذا كان يستحقها أو لا يستحقها · وعلى العكس من ذلك نجد أن الانسان يستقبل سعادته حسبما تجيئه دون أن يحللها ، كأنما السعادة حق من حقوقه · ان الحيوان يتألم دون أن يفكر فى ألمه · ولكن الانسان اذا بدأ يفكر فى ألمه ·· لا ، لا · يجب الا يسمح بهذا ! فليتألم الانسان كما يتألم الحيوان ·· وعندئذ نقول انه «انسان»·

ويعود أفراد الأسرة الى تمثيل النهاية التى آلت اليها الشخصيات الست بعد أن اجتمع شملهم فى دار الأب · فالغلام المضطهد يجوس خلال الحديقة مختبئا وراء الأشجار والطفلة تلعب فى الحديقة الى جوار النافورة · ويسترجع أفراد الأسرة مشهدا فظيعا دقيقا محوره الابن · فالأم الشقية التى حرمت من الابن طول هذه السنين تقبل عليه لتفتح قلبها له فيعرض عنها · ويرفض الابن أن يشترك فى استرجاع الماضى ويهدد بالانصراف · فتتحداه ابنة الأم أن ينصرف فيعجز عن الحراك كأنه مشدود الى أسرته بوثاق من حديد · ويحتج الابن بأنه لم يكن هناك « مشهد » بينه وبين أمه · فهو قد انصرف عنها ليتجنب المشهد · وتدنو منه الأم مستعطفة ولكن لا يستجيب · فيثور أبوه ويأمره بأن يخاطب أمه ولكنه يأبى ·

الأم : أنا مستعدة ··· فى أى وقت تكون أنت فيه مستعدا · ليتك تهيىء لى فرصة التحدث اليه والافصاح له عما أشعر به فى قلبى ·

الأب (يتجه الى الابن فى هياج شديد) : أنت فاعل هذا من أجل أمك ·· من أجل أمك ·· أتفهم هذا ؟

الابن (فى تصميم) : لن أفعل شيئا !

الأب (يمسكه ويهزه هزا) : بحق الله افعل ما آمرك به ! ألا تسمع أمك تسألك أن تصنع لها هذا الجميل ؟ ألا تقوى حتى شعور البنوة ؟

الابن (يمسك بالأب) : كلا ! كلا ! كفى . كفى بحق الله ، والا ...

(اضــطراب عام . تجزع الأم وتحــاول أن تفــرق بينهما) .

الأم (مستعطفة) : أرجوك ! أرجوك !

الأب (ممســكا بالابن) : لابد أن تطيع ، ألا تســمع كلامى ؟

الابن (يوشك أن يصرخ من فرط الغضب) : ما معنى هــذا الخبل الذى اعتراك ؟ (يفترقان) ألم يعــد لديك أى شعور بالشرف حتى تصر على اطلاع كل الناس على عارنا ؟ لن أفعل ذلك . بأمر من خالقنا الذى رسم لنا هذا الطــريق لم يكن فى مشيئته أن يعرضنا على المسرح .

انه قد جاء على كره منه ، لأن أباه جذبه وراءه جذبا . ان المخرج يسأل عما حدث . لم يحدث شىء بينه وبين أمه ، فقد ازور عنها يوم جاءته وانطلق الى الحديقة وفى الحديقة رأى خاتمة المأساة . رأى الطفلة غرقى فى النافورة ، وكانت أمه تتبعه ، وقفز فى الماء لينتشــلها فرأى مشــهدا جمد له دمه . رأى الغلام واقفا متخشب الجسد ينظر كالمجنون الى أخته الصغيرة الغريقــة ، فى النافورة ثم .. ثم ماذا ؟ ثم يسمع على المسرح صوت طلقة نارية آتية من وراء الأشجار حيث كان الغلام يختفى .

وتنــدفع الأم الى مصــدر الطلقة وينــدفع معها بعض الممثلين ويسود اضطراب عظيم وتصيح الأم قائلة : ياولداه ! يا ولداه ! وتستغيث طالبة النجدة . يسأل المخرج قائلا :

المخرج : هل جرح حقا ؟

بعض الممثلين : لقد مات ! لقد مات !

البعض الآخر من الممثلين : كلا . كلا . انه مجرد وهم . مجرد وهم .

الأب (وهو يصرخ صرخة فظيعة) : وهم ؟ انها حقيقة يا سيدى . انها حقيقة ومن يدرى ان كان الأمر وهما أم حقيقة ؟

وعلى الحالين فان المخرج كان فى اضطراب عظيم . لقد أضاع يوما كاملا عـلى هـؤلاء القـوم الذين امتزجت فيهم الحقيقة بالأحلام .

الحضيض

للكاتب الروسى مكسيم جوركى

هو فندق من فنادق الفقراء تدوز فيه جميع الحوادث : ولا ننتقل منه الا قليلا حين نطل عـلى ما حـدث فى الأرض الخراب الواقعة خلفه • وصاحب هذا الفندق رجـل يدعى ميخائيل كوسيليوف له زوجة شرسة تدعى فاسيلسيا ومعهما تقيم أخت الزوجة الفتاة ناتاشا ، وعليهم يتردد عمها وهو شرطى اسمه مدفيديف •

أما نزلاء الفندق فهم جمـاعة من حثالة القـوم الذين هبطوا الى حضيض الحياة وطائفة من فقراء العمال ونفر من المتشردين •• ومن بين هؤلاء لص شاب يدعى فاسكا بيبـل وصانع أقفال يدعى كليشتش ، ومعه زوجته المريضة آنا ، وبغى تدعى ناستيا وبارون سكير ليس له اسـم يعرف به ، وانما يلقبه الجميع بالبارون ، هو أرستقراطى سابق أخنى عليه الدهر وسوء سلوكه حتى انتهى هـذه النهاية بين رعاع المجتمع ، وممثل كان فى يوم من الأيام نجما لامعا من نجوم المسرح ، أو هكذا كان يقول ، ولكنه أفرط فى الشراب وغدا لا يفيق فهوى كصاحبه الى الحضيض ثم عاطل اسمه سـاتين وصانع قبعات اسمه بوبنوف وصانع أحذية اسمه أليوشـكا وبائعة فطائر اسمها كفاشـنيا ، وحمالان أحـدهما يدعى زوب والآخر يلقب بالتترى • ويهبط على هذه الأشتات رجل

عجوز دائم الترحال يدعى لوكا ، جاء من المجهول ثم انطلق الى المجهول ، ولكنه ترك أثناء اقامته بينهم فى كل نفس من نفوس هؤلاء الأشقياء بصيصاً من الأمل ، ولو الى حين ٠

وينام نزلاء الفندق فى قبو كبير أشبه بكهف من الكهوف ، فيه نافذة يدخل منها الضوء ، وقد اتخذ اللص بيبل من الجانب الأيمن فى القبو ركنا جعل منه غرفته وأحاطه بألواح من الخشب الرقيق ليعزله عن بقية القبو ٠ والى جوار غرفة بيبل نرى فراش بوبنوف صانع القبعات ، وهو دكة من خشب ٠ وفى أيسر القبو مدفأة روسية جسيمة ، ثم باب يفضى الى المطبخ حيث ينام ثلاثة ، وهم البارون والبغى ناستيا وكفاشنيا بائعة الفطائر ٠ وبحذاء الحائط اصطفت الدكك الخشبية التى ينام عليها النزلاء ، وفى وسط القبو مائدة كبيرة وبنكان ومقعد خشبى وقد جلس كليشتش يجرب بعض المفاتيح فى بعض الأقفال ، وجلست كفاشنيا بائعة الفطائر تعد الشاى فى الساموفار ، وجلست ناستيا عند المائدة تقرأ كتابا صحائفه مهلهلة ، وعلى فراش تخفيه ستائر رقدت آنا زوجة كليشتش صانع الأقفال وهى تسعل سعالا شديدا ٠ وجلس بوبنوف يصلح من سروال قديم، ورقد ساتين على دكته وقد استيقظ لتوه من النوم فنحن لا نزال فى الصباح الباكر من يوم من أيام الربيع ، أما الممثل فهو راقد فوق المدفأة يتقلب فى نومه ٠

وفى مثل هذا الجو المزدحم يبدأ اليوم بالشحان وينتهى بالشحان ٠ فبائعة الفطائر كفاشنيا تروى كيف أن فتى عاشقا طلب اليها الزواج منه ولكنها رفضت طلبه لأنها امرأة حرة لا تقبل أن تدخل تحت نير زوج يضربها ويستعبدها ولو كان هذا الزوج أميرا أمريكيا ! ويستمع كليشتش الى كلامها فى احتقار قائلا : انها كاذبة فيما تدعيه ٠ أما البارون فيخطف الكتاب الذى تقرؤه ناستيا فى انهماك شديد ، ويوسعها سخرية ، فالكتاب قصة غرامية مثيرة اسمها « الحب القاتل » وهى حمقاء تضيع وقتها فى هذا الهذر الفارغ ٠

ويرتفع سعال آنا وتطل برأسها من وراء الستار وترجو من هؤلاء الصائحين أن يتركوها تموت فى هـدوء ، فهى تحس أنها قد أشرفت عـلى المـوت ، فيجيبها زوجها كليشتش ان الضـجة لم تمنع انسانا قط من المـوت ، وتعـير كفاشـنيا كليشتش بأنه المسـئول عن قتل زوجتـه المحتضرة آنا لكثرة ما انزله بها من ضرب وتعذيب ، ثم تتأهب كفاشينيا للخروج لبيع الفطائر فى السوق •

ويوقظ كليشتش الممثـل النائم عـلى المدفأة فى غلظـة وعنف ، فاليـوم دوره فى كنس الدار ، والممثـل راغب عن ذلك يصطنع الرقة وضعف البنية ، بل يصر على أن الدور دور البارون فى الكنس والتنظيف • ويعتذر البارون عن هذا الواجب لأنه ساع الى السوق فى صحبة كفاشنيا ، قائلا ان ناستيا ستقوم بالكنس نيابة عنه • تأبى ناستيا ان تفعل ذلك فيقع الاختيار على الممثل الذى يحتج بكامل قوته زاعما أنه فريسة الاضطهاد ، فهو دائما يسخر لكنس الدار ، انه مريض لأن الكحول سمم جسمه من ادمان الشراب ، وصدره لم يعد يتحمل الغبار المتصاعد من الكنس ويقف الممثل بينهم فى حركة مسرحية ، ويذكر كيف كان يمثل دور هاملت ، ويشترك ساتين فى هذا الجدل الذى لا ينتهى حول سفاسف الامور • ولكن مشكلة ساتين من نوع آخر ، فهو يقول انه كان رجلا مثقفا فى يوم من الأيام ، يقرأ من الكتب عددا لا نهاية له ، ولكن ما كان يسحره فيها لم يكن المعانى بل الألفاظ • ولم يكن هذا شيئا عجيبا ، فقد كان ساتين قبـل انهيـاره باحتساء الخمر موظفا فى التلغراف يرسل الكلمات بالبرق ويستقبل الكلمات ، وكان يحفظ عددا عظيما من الكلمات الصعبة الطويلة ويقول ان التعليم هو كل شىء فى الحياة ، فيعارضه الممثل بقوله ان الموهبة هى كل شىء فى الحياة • ويـؤيد الممثـل كـلامه بما حفظـه من أدوار الأبطال فى التمثيليـات ، أو عـلى الأصح بما بقى فى ذاكرته من هـذه الأدوار التى كانت عماد حياته فى يوم من الأيام • مادامت معه الرصاصة الفضية •

وفيما الجماعة تتجادل يهبط عليهم كوستيليوف صاحب الفندق ويطرق الألواح التى تتكون منها حجرة اللص ببيل ويناديه بأعلى صوته • ويشيع بين الجماعة حرج خفيف ، فهى تعلم أن فاسيليا زوجة صاحب الفندق خليلة فاسكا ببيل وهى كثيرا ما تقضى الليل معه وراء هذه الالواح الحاجزة ، ولعل كوستيليوف قد جاء باحثا عن زوجته عند ببيل • ويفتح ببيل بابه ويخرج الى كوستيليوف ليستفهم عن الخبر ، ويطل كوستيليوف داخل الحجرة ويجيل فيها بصره باحثا عن زوجته فى صمت ، ويصيح فيه ببيل قائلا : «اجئت بالنقود » ؟ ويتلعثم كوستيليوف قليلا • ان ببيل ، وهو لص يعيش مما يسرق ، سرق ساعة وباعه اياها لقاء عشرة روبلات لم يتقاض منها الا ثلاثة ، وهو فى انتظار الباقى • ولكن كوستيليوف الذى جاء باحثا عن زوجته ولم يأت ليتحاسب يتصرف على عجل من حيث جاء •

ويتندر ساتين والممثل بهذا الموقف الشاذ ويهنئان فاسكا ببيل على صيده الثمين ، أى على اصطياده ربة الدار ، ويوحيان اليه أن يستخدم ذكاءه فيتخلص من زوجها ويصبح رب الدار • ولكن اللص ببيل يعيرهما بتعطلهما ويجيبهما قائلا انه لو فعل ذلك لأتيا على كل ماله بالسكر والعربدة •

ويشمئز كليشتش من هؤلاء القوم المنحطين الذين فقدوا الضمير • انه صانع شريف يصلح الأقفال ، وقد قذف القدر والفقر به وبزوجته المريضة منذ ستة شهور الى هذا الفندق الوضيع ليعيشا فى هذا الحضيض بين حثالة الناس • وحلمه الأوحد الآن أن تمكنه ظروف الحياة من الفرار من هذا الحضيض ، فهذا ببيل يعيش من اللصوصية ويعاشر زوجة صاحب الفندق ثم يفلسف كل هذه الخسة بقوله « ان الشرف والضمير ترف يصلح للأغنياء » وهذا بوبنوف صانع القبعات يباهى بأن أمثاله من الفقراء بغير حاجة الى ضمير • نعم • لسوف يزحف كليشتش على أربع ليخرج من هذا الوجار القذر حين تموت زوجته أو تبرأ من علتها •

وتدخل ناتاشا أخت فاسيليسيا الصغرى بنزيل جديد يدعى لوكا وهو عجوز حزم كل ما يملكه من حطام الدنيا فى ربطة يحملها على ظهره وقد تدلت غلاية وابريق شاى من حزامه ، وغير هذا لا يملك الا عصاه • ولكن هذا العجوز لوكا رجل طيب القلب فتح فؤاده لجميع البشر ، فهو لا يتأفف من صحبة اللصوص والسكيرين والكسالى المتعطلين، بل يأنس الى كل من حوله ويقبلهم على علاتهم ، بل ويحاول أن يعينهم على الحياة ما وجد الى ذلك سبيلا • فهو صاحب فلسفة جميلة ونفس راضية تزين كل شىء فى الحياة باطار من ذهب وترى فى أبشع الأمور وجوها تجعلها سائغة للنفس •

ويطارح اللص بيبل الفتاة ناتاشا غرامه فتصده عنها ، فهى تعلم بصلته بأختها ، وهى بنت جادة شريفة تحمل لبيبل ودا عظيما وترجو له أن يروض نفسه على الاستقامة والشرف: أما كليشتش فيحذره ساخرا من خليلته فاسيليسيا التى لن تفرط فيه لامرأة أخرى ، ولو كانت أختها ، الا بعد أن تتركه جثة هامدة •

ويرى البارون أن الحفاوة بالقادم الجديد لوكا العجوز تقضى بفتح زجاجة من الخمر واحتسائها فى صحته • واللص بيبل وحده هو الذى يملك هذه الزجاجة • اما بيبل فهو يشترط على البارون السكير قبل فتح الزجاجة ان يمشى على اربع وأن ينبح كالكلاب ، ليدخل البهجة فى نفسه فان لم يفعل ذلك فلن يذوق الخمر • قائلا ان متعه فى اذلاله متعة سخيفة ، فأى متعة فى اذلال رجل مثله يعلم انه انحط الى درك أسفل من الدرك الذى انحط اليه اللص بيبل نفسه ؟ ويحلم البارون قليلا بأيامه الغابرة حين كان خدمه ياتونه بقهوة الصباح فى فراشه ، وهو يحلم أقرانه فى هذا الحضيض بتعال واحتقار ، فقد بقى له بعض مجده القديم رغم ما آل اليه من انهيار تام ، ثم ينطلق فى اعقاب بيبل ليأتيا بالزجاجة ، فيكون تعليق لوكا على ما راه من صلفه •

ان الارستقراطية كالجدرى ، قد يشفى منه الانسان ولكنه يترك آثاره •

ويدخل صانع الأحذية الشاب أليوشكا وهو ثمل بعض الشيء يحمل آلة موسيقية هى الكونسرتينا ، وتطارده صاحبة الدار فاسيليسيا ، وتأمره بمغادرة الفندق ، أما سر غضبها عليه فهو أنه أبلغها أن بيبل قد سئم عشرتها ، وأنه يسعى للزواج من أختها ناتاشا • ويعلو صياح فاسيليسيا حين تجد أن الغرفة لم تكنس بعد • وحين تبدى لنزلائها من سلاطة لسانها ما يضيقون به يحل لوكا الاشكال فيتطوع لكنس الغرفة • ولكن فاسيليسيا في حقيقة الأمر ما جاءت الا لتبحث عن بيبل وناتاشا وتتشاجر معهما وحين لا تجد طلبتها تنصرف وهى تهدر • ولا ينقضى وقت طويل حتى تسمع الجماعة أصواتا مضطربة فى الغرفة المجاورة ثم صياحا مختنقا ولكمات متعاقبة ، ويظهر كوستيليوف فى الباب طالبا النجدة قائلا ان زوجته فاسيليسيا تحاول أن تقتل أختها ناتاشا فينطلق بوبنوف والآخرون لانقاذ ناتاشا ، ولا يتبقى فى الغرفة الا لوكا العجوز الذى يكنس الغرفة وانا المريضة التى تنسى آلامها لحظة لترثى لناتاشا المسكينة •

●●●

وينقضى النهار بخيره وشره ، ويتجمع نزلاء الفندق ليلا فى حجرتهم الواسعة ، فيغنى بوبنوف والحمال زوب اغنية تقول : « تشرق الشمس وتغرب ، ولكن سجنى مظلم معتم •• » • ويجلس الحمال التترى واسمه حسن مع ساتين السكير والبارون والممثل يلعبون الورق ، لكن تسليتهم هذه تنتهى بالشجار لأن البارون يغش فى اللعب • ويجلس العجوز الطيب لوكا مع آنا المحتضرة يسرى عنها كربها ويعدها بأن الله سيلطف بها حين تنتقل اليه ويقول : « أنا أعرف آنا هذه • فخذها الى الفردوس لتستريح ، فقد كانت حياتها على الأرض شاقة ، وهى منهكة فدعوها تستريح » ، ويلتحم اللص بيبل مع الشرطى ميدفيديف عم ناتاشا

وفاسيليسيا ، فالشرطى ثائر على هذا اللص الذى لا يسرق المال فحسب ، بل يسرق زوجات الآخرين كذلك ، وهو الآن يريد أن يغرر بناتاشا • ويهدد الشرطى بيبل باعتقاله فيتوعده بيبل بأنه سيعلن أمام المحققين أن الذى دفعه الى اللصوصية وتستر عليه كل هذا الوقت هم آل كوستيليوف الذين ينتفعون من مسروقاته أما العجوز الطيب لوكا فهو يعلم أن اللص بيبل يحب ناتاشا حبا صادقا ويريد أن يتزوج منها وأن يكون أسرة شريفة تحيا حياة مستقيمة ، وهو يرى أنه لا أمل له فى شىء من ذلك الا اذا خرج من هذا الوجار القذر الذى يلوث روح الناس ورحل الى مكان قصى كسيبيريا ليبدأ فيه الحياة من جديد بالجد والكد لا بالسكر واللصوصية • ولوكا بحكمته يرى أن الحياة يمكن أن تكون جميلة ونظيفة فى كل مكان ، حتى فى سيبريا •

وتدخل عليهم فاسيليسيا وتصر على الانفراد بخليلها وتعنفه على هجرانها وعلى انصرافه الى أختها ناتاشا ، ولكنها تتظاهر بقبول ما حل بها ، بل وتعرض عليه عرضا غريبا ، فاذا كانت رغبته أن يتزوج من ناتاشا ، فهى ستعينه على تحقيق هذه الرغبة باعطائه كل ما يطلب من مال، ولا تشترط عليه فى سبيل ذلك الا شرطا واحدا ، وهو أن يخلصها من زوجها كوستيليوف الذى تمقته كل المقت • ولكن بيبل الحصيف يدرك حيلتها الاجرامية ، فلو نفذ خطتها لكان لها ما تريد من انتقام وانتصار : القبر للزوج البغيض والمشنقة للعشيق الغادر ، أما هى فلها الحرية الداعرة والمال الوفير•

ويقبل عليهما الزوج مهتاجا ويأمر زوجته بأن تأوى الى فراشها ويتبادل كوستيليوف وبيبل قارس الكلام ، ويلتحمان بالأيدى ويوشك بيبل أن يخنق كوستيليوف بيديه القويتين لولا أنه يتذكر فاسيليسيا وما طلبت فيفرج عن عنقه ويخرج الزوج من الحجرة صائحا مستغيثا • ويعود لوكا الى فكرته الأولى قائلا لبيبل انه لا نجاة له من مخالب فاسيليسيا الا أن يهرب مع أختها ناتاشا الى أى مكان آخر مجهول، وبهذا

ينجو من كارثة محققة ، ويبدأ صفحة جديدة فى حيـاته ، فيقتنع بيبل بصدق رأيه •

أما الممثل الذى سمم الكحول ولوث روحه فقـد هداه لوكا العجوز أيضا الى رأى يحل جميع مشاكله ، ان فى البلاد الآن مصحات يأوى اليهـا مدمنـو الخمر فلا يخرجون منهـا الا وقد برئوا من علتهـم وانه لماض الى مصـحة من هـذه المصحات •

وفيما هم يتجادلون فى كل هذا يكتشفون ان آنا المسكينة قد برئت أيضا من علتها فقد فاضت روحهـا فى صـمت فى حين كان زوجها كليشتش يحتسى الخمـر فى حان الفنـدق وتجتمع هذه الحثالة من الناس غلاظ القلوب حول الجثة ، فلا تسمع منهم كلمة واحدة تدل على احترامهم لجلال الموت• وينامون بجوار الجثة حتى الصباح ، حين يعـدون العـدة لدفنها •

●●●

وهكذا تمضى الأيام على هذا النسق فى هذا الحضيض فنزلاء الفندق ماضون فى حياتهم الوضيعة التى اختلط فيها الشراب والميسر والفجور وفحش السباب ولكن فى قلب كل منهم حلما صغيرا ، فالبغى ناستيا تحلم بعاشق طاهر يحبهـا الى درجة العبادة وتحبه الى درجة العبادة عاشق من غير من ألفت من طلاب اللذة البهيمية الذين تبيعهم جسدها كل ليلة وتفرط ناستيا فى قراءة القصص الغرامية فيـذكى هـذا خيالها وتحلم بهذا الفارس المحب الذى سيأتى من المجهـول ويطرح قلبه عند قدميها فتسلمه زمام روحها وتنجو به من هذا الحضيض • وهى لا تفتأ تحدث أقرانها من نزلاء الفندق بخبر هذا العاشق المجهول حتى ليوشك أن تختلط فى حياتها الحقيقة والأحـلام • وهى تقـول ان عاشقها طالب « جاءها ذات ليلة فى الحديقة بعد طول الانتظار فارتجفت لرؤيتـه خوفا وأسى ، وارتجف هو أيضا وكان شاحب الوجه فى لون

الجبر ، وكان يحمل في يده « مسدسا » وقال لها : « يا من أحبها ولا أحب سواها ان والدى لا يوافقان على زواجنا ويتوعدانى بالتبرؤ منى من أجل حبى لك ، ولذا فلابد لى من التخلص من حياتى ، فهذه كانت كلماته • وكان مسدسه جسيما ومحشوا بعشر رصاصات •• وقال : الوداع ايتها الرفيقة الحبيبة ! لقد استقر عزمى على طلب الموت، ولا رجعة فى ذلك •• فبغيرك لا أستطيع الحياة ! فأجبته قائلة : اى صديقى الماثل أبدا فى خاطرى ، أى راؤول » •

ويسخر البارون منها فى قسوة وغلظة ولا يرحم أحلامها ، فقد كان جليا أن البغى ناستيا تتقمص شخصية غادة الكاميليا ، ويذكرها بأن عاشقها كان اسمه منذ أيام جاستون وليس راؤول • وينشب بينهما شجار عنيف ، فتعيره بالتبطل والسكر ويعيرها بالكذب واختلاق المحبين • ويتدخل لوكا ، فينهر البارون على قسوته ويدخل السكينة على قلب ناستيا ، فهو يصدقها ، ولو كذّبها جميع الناس ، وهو يصدقها لأنه يعلم أن الألفاظ لا أهمية لها مهما كانت كاذبه وأن المهم هو ما وراء الألفاظ من معان سامية وعواطف صادقة • وهكذا تمضى ناستيا فى قصتها فترى كيف أنها حالت بين حبيبها وبين الموت قائلة ان الموت حق عليها وحدها ، ثم تغطى وجهها بيديها وتنتحب فى وداعة •

ويرق لها قلب ناتاشا لكن بوبنوف والبارون يعودان الى السخرية منها ويثور كليشتش فى وجه لوكا الذى يحاول أن يعزى كل انسان ويشجع الناس على الفرار من حقيقة الحياة البشعة وخداع النفس بكاذب الأحلام • أما لوكا فهو يؤمن أن الحقيقة ليست كل شىء فى الحياة وأنها ليست سبيل السعادة فهى لا تؤسى الجراح فلا ضير اذن من التماس السعادة فى الأحلام • فهو مثلا يعرف رجلا يؤمن بوجود أرض الفضيلة ، وكان هذا الرجل يقول : « لابد أن هناك فى مكان ما من هذه الأرض أرضا فاضلة حيث يعيش أخيار الناس ، الذين يحترم بعضهم بعضا ويعين بعضهم بعضا ويسود بينهم

الخير والسلام » ، وكان هذا الرجل فقيرا أفقر ما يكون ، بائسا أبأس ما يكون ، ولكنه رغم ذلك طفق يجـوب الافاق باحثا عن أرض الفضيلة ، ولكم صادف من مشقة وخيبـة أمل ومع هذا فهو لم ييأس أبدا من بحثه عن هـذا المصـدر الأوحـد لسعادته • حتى جاء يوم ، وكان ذلك فى سيبيريا ، فالتقى هذا الشقى بسجين من السجناء ، وكان هذا السجين عالما واسع العلم ، فلما عرف بطلبه فتح كل كتبه وفرش كل خرائطه وذهب يبحث فيها عن أرض الفضيلة ولكنه لم يجد لها أثرا • وقال السجين العالم : هذه كتبى ، وهذه خرائطى، كلها صحيحة تبين كل البـلاد والأراضى والبحـار ، فأرض الفضيلة لا وجود لها • وغضب الباحث الشقى ، فقد كابد وكابد فى هذه الحياة التاعسة بأمل واحد وهو ان يجد أرض الفضيلة فى يوم من الأيام • فلابد اذن أن تكـون الـكتب كاذبة وأن تكون الخرائط زائفة وأن يكون صاحبه العـالم أفاكا دعيا • وأحس بأن الرجل سلبه أعز شىء لديه وأعماه الغضب فلكمه لكما أفقده البصر ، ثم انطلق الى داره وشـنق نفسه •

وهـكذا الناس عند لوكا • كلهم باحث عن شىء أرقى وساع الى حياة أفضل ، ومن جد وجد ، وليس أمامنا الا أن نسأل الله أن يلهمهم الصبر فى بحثه وسعيهم •

كذلك كان حال بيبل ، فهو قد غدا يعيش وفى قلبه حلم صغير ، • انه سيطلق اللصوصية طلقة بائنة • انه سيذهب الى سيبيريا مع ناتاشا حيث يبدأ حياة جديدة نظيفة • انه غير تائب فمن كان بغير ضمير لا يعرف التوبة ، ولكنه يحس بأن هناك حياة أفضل ، حياة تقوم على احترام النفس ، وكل هذا معلق بارادة ناتاشا ، ان شاءت تحقق حلمه وان أبت تبخر• أما ناتاشـا فهى تحب أن تقبله زوجا وأن تنطلق معـه الى الرحاب الواسعة ليبنى حياته من جديد ، ولكنها تخشى أن يرتد بيبل الى الحضيض ويجرها معه اليه • ولكن لوكا يبدد

مخاوفها · ان بيبل يحبها حبا مخلصا ، وهو رجل مكتمل الرجولة لا ينقصه الا أن يثق فى نفسه حتى يحسن عملا ، وهو لن يثق فى نفسه الا اذا وثقت هى فيه ·

ويتفق بيبل وناتاشا على الرحيل · ويقرر لوكا الرحيل أيضا ، فهو جواب لا يطيب له مقام فى مكان واحد · ولكن الأمور تتطور بغير ما دبروا · فحين تعلم فاسيليسيا وكوستيليوف بعزم بيبل على الهرب مع ناتاشا ، ينقضان على ناتاشا ويوسعانها ضربا ويسلخان قدميها بالماء المغلى من ابريق الشاى ، ويوشكان أن يقتلاها لولا تدخل لوكا وساتين والتترى · ثم يهجم بيبل على كوستيليوف ويلكمه لكمة هائلة يسقط بها على الأرض صريعا · ولا تلبث فاسيليسيا أن تكتشف أنه مات فتستغيث ويتجمهر النزلاء حول الجثة ويطلق اليوشكا صفارة الشرطى ميدفيديف بعد أن يختطفها منه · وتطالب فاسيليسيا بالقبض على بيبل ، فيدافع ساتين عن بيبل قائلا انه أيضا اشترك فى هذا الضرب الذى أفضى الى موت كوستيليوف ، وأن فى وسع بيبل أن يستشهد به أمام القضاء · وتتحرك شهوة الانتقام فى نفس بيبل فيقول انه ليس بحاجة للدفاع عن نفسه ، وأنه سيجر فاسيليسيا وراءه الى الهاوية فهى التى أرادت اليه أن يقتل زوجها وساومته على ذلك وألحت عليه الحاحا ·

وما أن تسمع ناتاشا قول بيبل حتى تضطرب نفسها وتصرخ فى بيبل قائلة انها قد أدركت الآن كل شىء وتيقنت من أن بيبل لا يزال يتخذ من فاسيليسيا خليلة له ، وأنهما قد دبرا معا هذا القتل ليزيلا الزوج من الطريق ويرتعا فى ماله من بعده ، بل هى تذهب الى أبعد من هذا فتتهم بيبل بتدبير هذا المنظر الغرامى بينه وبينها حتى تسمع فاسيليسيا بعزمها على الفرار فيجرى كل ما جرى ·

ويذهل بيبل حين يسمع هذه الاتهامات ويحاول عبثا أن يؤكد لناتاشا صدق حبه لها · وما هى الا لحظات حتى يأتى بسعادة الضابط فيسوق بيبل وفاسيليسيا الى قسم البوليس ؛

أما ناتاشا فتحمل الى المستشفى ، وفى هـذا الهـرج العظيم يختفى العجوز الطيب لوكا وينطلق الى المجهول كما جاء من المجهول ٠

●

وهكذا ينتهى كل شىء أو يكاد ، فلا يبقى فى الفنـدق الا البارون والبغى ناستيا وكليشتش صانع الأقفال وساتين والممثل الذى أمسك يوما كاملا عن الشراب واشـتغل بكنس الطرقات ليجمع بضعة دراهم تعينه على رحلته الى المصحة ثم بوبنوف صانع القبعات واليوشـكا صـانع الأحذية وزوب الحمال والتترى المسلم حسن أو حسنكا كما كانوا يسمونه ، الذى يبشر رفاقه بالقرآن ٠

ويأسف الجميع على رحيل العجوز لوكا الذى علمهم قيمة الأحلام فى الحياة والتطلع الأبدى الى شىء أفضل ٠ ويتطلع البارون قليـلا ، ولكنـه لا يتطلع الى الأمام بل يتطلـع الى الوراء ، فيذكر آسلافه وأسلاف أسلافه من النبلاء وقصورهم فى موسكو وبطرسبرج والخيل المطهمة وفاخر العربات ٠ كل هذا ضاع منه وهو لا يعلم كيف ضاع ٠ فقد ابتلاه القـدر بزوجة لعينة فبدد كل ماله ، وكان يشغل منصبا ملحوظا فى وزارة الخارجيـة ، فلما ضـاع ماله اختلس مال الدولة ، وهكذا خلع ثياب النبلاء ولبس ثياب المساجين ٠ ولكن كل هذا حدث دون أن يعرف البارون كيف حدث ٠ فقد ولد وفى عقله ما يشبه الضباب ، ومضت حيـاته كلهـا وكأنها حلم غريب ٠

وينشب بينه وبين ناستيا شجار من شجارهما الأبدى ، فهى تتهمه بالكذب واختلاق الأوهام ليشبه للناس أنه سـليل الأكابر وما هو الا من حثالة الحثالة ٠ وهنا تذكر الجمـاعة لوكا العجـوز ، فلو قد كان حاضرا لقـال : ولـم لا يعيش البارون فى الأوهام اذا كان يجد فى ذلك سعادته ٠

ويمسـك صـانع الأحـذية اليوشكا بالكونسرتينا التى أصلحها صانع الأقفال كليشتش ويبدأ بالعزف عليها ، ويغنى

اليوشكا ويرقص ، فلم يبق للناس فى هذا الحضيض الا الرقص والغناء • وتأتى الجماعه بالفودكا ليكتمل سمرهم ، فقد أزمعوا أن يسمروا طول الليل ، فلقد رأوا ما كفاهم من الحياة • رأوا كل من اراد ان يخرج من هذا الحضيض يتردى فى حضيض أفظع وأنكى • اين المرأة الطيبة أنا ؟ فى القبر • وأين كوستيليوف البخيل ؟ فى القبر • وأين ناتاشا الآن ؟ فى المستشفى ولن تشفى من عاهتها ؟ وأين فاسيليسيا الخائنة الضارية وأين بيبل الذى أراد أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته ؟ انه يبدؤها فى السجن الطويل • وأين العجوز الكاذب لوكا الذى كان يزين الحياة بالأحلام ؟ انه مضى ولم يترك أثرا • حتى التترى حسنكا يطلب مزيدا من الفودكا ، فهو يعلم أن النهاية آتية لا ريب فيها ، بل ولن تتأخر كثيرا • ويغنى الحمال زوب أغنيته التى لا يمل من غنائها : « تشرق الشمس وتغرب » فيردد القرار بوبنوف صانع القبعات : « ولكن سجنى مظلم معتم » فلا نعلم ان كانا يغنيان بسجن الحياة أم بهذا الحضيض الذى لا يجد أحد سبيلا الى الخروج منه مهما سعى •

ولكن هذه الأغنية الشجية تضيع فى جلبة الباب الذى يفتح فجأة ، ويبدو فيه البارون وهو يصرخ كالمجنون :
« تعالوا •• انظروا •• لقد شنق الممثل نفسه •• » •

ويحملق الجميع فى البارون ويخيم صمت ثقيل • ثم يرتفع صوت ساتين فاترا كأنما لم يحدث شىء البتة قائلا :
« عليه اللعنة •• لقد أفسد علينا هذه الأغنية •• » !

الامبراطور جونز

للكاتب الأمريكي يوجين أونيل

تجرى وقائع مسرحية « الامبراطور جونز » كلها فى أقل من نصف يوم ، فهى تبدأ فى عصر يوم من الأيام ، ولا يبزغ فجر اليوم التالى حتى يكون كل شىء قد انجلى • أما المكان فهو جزيرة من جزر الهند الغربية الواقعة بين الأمريكتين ، سكانها من الزنوج السود ولم تصل الى شواطئها بعد أساطيل الرجل الأبيض لتقرر مصيرها بالاكراه وتضمها الى دولة البيض • فالجزيرة اذن لا تزال مستقلة ، أما نظام الحكم فيها فهو النظام « الامبراطورى » فحاكمها زنجى يلقب بالامبراطور جونز • وتجرى كل الوقائع فيها بعد حرب تحرير العبيد التى شنها الجنوب ليعتق العبيد وليوحد الولايات الأمريكية •

وللامبراطور جونز ، واسمه الكامل بروتوس جونز ، قصر فى الجزيرة لا أقول منيف ولكنه رحيب ، سقوفه عالية وقد طليت جدرانه باللون الأبيض • وحجرة العرش فى هذا القصر توشك أن تكون خالية من كل أثاث الا العرش ، بلاطها أبيض وجدرانها بيضاء ، والقصر كله مقام على مرتفع فالمطل منه يرى التلال البعيدة التى كستها أحراش النخيل الكثيفة ، وقد اختفى وراءها ساحل الجزيرة ،

وتوسطت بين القصر والتلال غابة هائلة يضل فيها كل من اقتحمها .

عرش الامبراطور خاو لأن الامبراطور لا يجلس عليه فهو ينام للراحة بعد الظهيرة ، ولكن العرش يلهب الأنظار فقد طلي باللون الأحمر الفاتح ، وأمامه ممشاة مهلهلة مصبوغة بالحمرة الفاقعة تمتد حتى مدخل الحجرة .

والجو خانق في أوج الصيف عند خط الاستواء . وفي هذا الجو الخانق زنجية عجوز حافية بمدخل حجرة العرش وقد غطت رأسها بمنديل وجمعت أشياءها في ربطة ملونة علقتها في طرف عكاز وحملتها على ظهرها . وتدب هذه العجوز الفانية في خفة وقد أخذها هلع شديد فهي تخشى أن يبصرها أحد وهي تحاول الافلات من القصر الامبراطوري .

وفيما هي تنساب على حذر يبدو رجل يدعى سميذرس بالقرب من المدخل ، وهو أفاق من البيض ، كهل مديد القامة أشرف على الأربعين ، أصلع الرأس بقامته حدبة ، ولاحت على محياه الذي لفحته شمس هذه المناطق الحارة امارات النذالة والخسة ، وقد تمنطق بحزام فيه مسدس وغطى رأسه الأصلع بقبعة كبيرة بيضاء من الفلين ، وحمل في يده سوطا .

ويمسك الأفاق سميذرس بكتف الزنجية العجوز مستوقفا فتحاول الخلاص من قبضته ، وحين تعجز عن ذلك تستسلم وتذهب تستعطفه ألا يشي بها عند جلالة الامبراطور . ويحسب سميذرس أنها قد سرقت في ربطتها شيئا ، ولكنه لا يلبث أن يدرك أن الأمر قد تجاوز ذلك .

فكل من في القصر من حرس وخدم وحشم وعبيد قد هجر القصر انطلق الى التلال ، ولم يبق فيه الا هذه العجوز الفانية . وهي الآن قد جمعت أشياءها لتلحق بالجميع بين التلال ، فالامبراطور جونز لا يزال نائما نومة القيلولة ، وهذه فرصتها الوحيدة للفرار من القصر .

ويدرك سميدرس أن الساعة قد اقتربت ، فأهل الجزيرة فى ثورة على ملكهم الظالم الامبراطور جونز • انه كان يتوقع هذه الثورة وهى قد جاءت أخيرا • وزنوج الجزيرة قد اجتمعوا عند التلال وعما قريب سوف يبداون قرع الطبول ثم يقبضون على هذا الأفاق الزنجى ويقتلونه ، هذا الذى جاءهم من المجهول ، وقام فيهم حاكما وسامهم كل لون من ألوان العسف والارهاب ، فابتز أموالهم بالضرائب الباهظة حتى اعتصر منهم كل ما يملكون •

ولا يخفى الأفاق الأبيض سميدرس سروره لهذه النهاية، فهو يبغض الامبراطور الزنجي جونز من صميم قلبه رغم أنه يصانعه • فجونز رجل قوى • قوى بجسده ، قوى بارادته ، قوى بشجاعته ، قوى بحيلته الواسعة وبخلقه البطاش • ولولا جونز لصادف هذا الأفاق حظا بين أهل الجزيرة أحسن مما صادف ، ولوجدها أرضا عزلاء ينهب خيراتها نهبا - وسلطان هذا الأفاق الزنجى هو الحائل الوحيد دون تغلغل هذا الأفاق الأبيض فى الجزيرة •

وحين يقف سميدرس من الزنجية العجوز على هذا السر يخلى سبيلها لتنصرف وهو يلوح بمسدسه فى غلظة لارهابها•

وهنا يدخل جونز حجرة العرش بعد أن صحا من نومه ، فاذا به زنجى فحل قوى البنية فى منتصف العمر ينطق وجهه بالأنفة والعزة والارادة القوية والاعتماد التام على النفس، من رآه احترمه وأنفه راغم ، لكن عينيه تنطقان أيضا بالمكر والدهاء الواسع ، وهو الى جانب حصافته شكاك مراوغ • وقد ارتدى حلة عسكرية زرقاء اصطفت عليها الأزرار النحاسية وزينتها الشراريب الذهبية مكان الكتفين والوشى الذهبى فى الياقة وحول المعصمين ، وبطول سرواله الأحمر مشى شريط أزرق ، وفى حذائه اللماع برز مهماز نحاسى ، وحول خصره حزام تدلى منه مسدس ضخم فى جرابه الجلدى، أما عظمة هيئته فتدعو الى شىء من السخرية ولكن له طريقة فى الكلام والسلوك تبدد هذا الاحساس •

لقد أيقظ جونز صفير سميذرس ، فهـو يدخل حجرة العرش وهو يفرك عينيه ويصيح هائجا انه سيسلخ جلد هذا الذى اجترأ على الصفير فأيقظ الامبراطور من نومه • فلما يرى سـميذرس ويعلم أنه مصـدر الصفير يقطب حاجبيـه غضبا ، فيقول سميذرس بين خائف ومتوقح انه قد جاء اليه بأنباء مهمة •

ويستطلع جونز الخبر فيسأله سميذرس قائلا :

سميذرس : ألم تلاحظ اليوم شيئا غريبا ؟

جونز (فى برود) : أى شىء غريب ؟ لا • أنا لم ألاحظ شيئا غريبا •

سميذرس : اذن فلست الثعلب الماكر الذى خلته • أين بلاطك ؟ (متهكما) أين قوادك ووزراؤك وجميع حاشيتك؟

جونز (بلا أدنى انزعاج) : انهم فى المدينة على عادتهم يشربون الروم ويتفاخرون ، وأنا عـلى عادتى أتظاهر بأنى لا أعرف شيئا •

ويزجر جونز سميذرس فيحتج سميذرس ، ويذكر جلالة الامبراطور بأنه لم يكن على كل هذا الصلف حين جاء به فى سفينته الى الجزيرة لأول مرة • وتمتد يد جونز فى سرعة البرق الى مسدسه ويصيح فى سميذرس قائلا : « تأدب فى الكلام ، أيها الرجل الأبيض ! تأدب فى الكلام ! هل سـمعت ما أقول • أنا السيد هنا الآن ، هل نسيت ذلك » ؟ ويخشى سميذرس بأس جونز فيعتذر له بأنه لم يقصد اساءته ، ولكنه يذكره برفق أنه كان الوحيد الذى أنقذه ، فقـد رضى أن يستخدمه حين رفض جميع الرجال البيض بسبب ما شـاع عنه من أنه هارب من الليمان فى الولايات المتحدة وهـكذا جاء به الى الجزيرة حيث أصـبح شـيئا مذكورا • ويجيبه جونز قائلا انه يعترف بكل ذلك ولكن الرجل الأبيض لا فضل له عليه فقد تناول أجره وعلاوة • أما هو فقد بنى مجده فى الجزيرة بيديه ، وتحول فى عامين من هارب على ظهر سفينه

الى امبراطور عظيم ، بعد أن روض زنوج الغاب الحمقى ووضع كلا فى مكانه ٠

ويسأل سميذرس جونز ان كان قد جمع بعض المال وأخفاه فيجيبه جونز (فى غبطة) : طبعا جمعت بعض المال ! وهو مودع فى بنك أجنبى حيث لا يستطيع غيرى أن يصرفه مهما حدث٠ أظننت أننى أضطلع بوظيفة الامبراطور هذه من أجل المجد ؟ نعم ، ان الضجيج والمجد جزء منها ، ولكن الغرض من هذا لا يتجاوز الضحك على عقول زنوج الغاب المقيمين هنا ٠ انهم يطلبون احتفالات السيرك الكبيرة لقاء ما يدفعونه من مال ، فأعطيهم أنا ذلك وآخذ منهم المال٠

ان سميذرس المغفل يقول ان جونز قد استنزف كل أموال رعاياه حتى غدوا جلدا على عظم ٠ ولكن سميذرس مغفل فهو لا يفهم أنه طالما بقى جونز على عرشه فهو يعلم ان فى الجزيرة بقية من خير لا تزال باقية له٠ والا فلماذا يبقى الأهالى عليه ؟ أو على الأصح ان سميذرس لص صغير لا يفهم عقلية اللص الكبير ٠ انه يتحدث عن القوانين التى يسنها جونز لرعاياه كل يوم ويكسرها بنفسه كل يوم ٠

جونز : ألست الامبراطور ؟ ان القوانين لا تنطبق على الامبراطور ٠

(بلهجة المشرع) : اسمع لقولى يا سميذرس ٠ هناك سلب صغير مثل سلبك ، وسلب كبير مثل سلبى ٠ وهم يضعونك فى السجن عاجلا أو آجلا عقابا لك على السلب الصغير ، ولكنهم يجعلونك امبراطورا على السلب الكبير ويتوجونك فى بهو المجد (يتوه فى الذكريات) ان كنت قد تعلمت شيئا من حديث السادة البيض فى السنوات العشر التى خدمت أثناءها فى عربات البولمان ، فهو هذا ٠ وحين عرضت لى فرصة الاستفادة من هذا الدرس أصبحت امبراطورا بعد عامين ٠

وسميذرس مغفل لأنه يتحدث عن الحظ ، ويزعم أن

جونز ما بلغ كل هذا الا لأنه رجل محظوظ . وهـو يذكر كيف أن جونز حين هبط الجزيرة واشترك فى الثورة التى قام بها الزنوج على حاكمهم القديم أراد الزنجى العجوز ليم أن يغتاله ، وأطلق عليه الرصاص على بعد ثلاثة أمتار ولكنه أخطأ المرمى . وحين علم الزنوج أن جـونز قد قدر له ألا يموت الا اذا أصابته رصاصة من فضة ، انضموا اليه وأصبح بذلك زعيمهم ، وكان هذا سبيله الى العرش .

ويسـخر جـونز من هذا الأفاق الأبيض التـافه الذى الذى لا يفهـم أن الحظ يأتى للجميع ولـكن لا ينتفع منـه الا الموهوبون . فقـد كان من حسن حظه حقـا أن الزنجى ليم أخطأ المرمى ، ولـكن جـونز سرعان ما اختلق حـكاية الرصاصة الفضية ليوهم أهـل الجزيرة البلهـاء انه محصن برقية وأنه لا سبيل الى قتله . فمجـده اذن ليس ابن الحظ ولكن ابن الذكاء . انه لا يزال يذكر كيف سجد الناس أمامه حين روى عليهم قصـة الرصاصـة الفضية وذهبوا يعفرون جباههم فى التراب صائحين ان معجزة من معجزات الكتـاب المقدس قد حدثت فى بلادهم . أما الفلسفة التى يدين بهـا جونز فهى مضمنة فى هذا السؤال : « أليس الكلام المتعاظم هو الذى يجعل الانسان عظيما طالما يصـدق النـاس هـذا الكلام » ؟

نعم ان حكاية الرصاصة المصنوعة من فضة من نسـج خياله . ولكن جونز قد جعل من الخيـال حقيقة . فهـو قد صنع بنفسه رصاصة من الفضة . صنعها بنفسـه ولنفسـه وهو يخرج مسدسه ويفتح ساقيته ليرى سميذرس مابها . ان فيها ست رصاصات ، خمس منهـا صنعت من رصـاص والسادسة ، وهى الأخيرة ، صنعت من الفضة .

ويحسب الغبى الأبيض أن جونز يتخذ من هذه الرصاصة الفضية رقية تحميه من الموت . ولكن جونز يشرح له فى هدوء أنه قد أعد لكل شىء عدته . فهو يعلم أنه ينهب زنوج الجزيرة . وهو يعلم أن هذه الحالة لن تدوم مدى الحياة ،

وسوف يأتى يوم يثور فيه أهل الجزيرة ويخرجون فى طلبه ويطاردونه كما يطاردون الوحش الكاسر • ولكن جونز لن يقع فى أسر هؤلاء الزنوج الحمقى • انه زنجى مثلهم ولكنه خلق للسيادة • انه يعيش ليومه ويستنزف منهم كل ما يستطيع • وحين تشب الثورة بين الزنوج سوف يستقيل ويمضى على عجل الى حيث يستطيع أن ينعم بما كدسه من ثروة • فان حوصر قاوم الى آخر رصاصة فى مسدسه ، الا واحدة ، هى تلك الرصاصة الفضية التى صنعها ليقتل بها نفسه حتى لا يقع فى أسر هؤلاء الحمقى • لقد عاش ملكا وسيموت ملكا ، ولن تقتله الا رصاصة من فضة •

فهو اذن لم يكذب على الزنوج • ولكنه يعلم أن كل هذا مجرد احتياط لا أكثر • فهو لن يقع فى أيدى هؤلاء البلهاء حين تشب الثورة ، بل سيهرب الى حيث خبأ أمواله • انه لن يعود الى الولايات المتحدة • حيث البيض يشنقون السود دون محاكمة • ان له تاريخا حافلا مع البيض فى الولايات المتحدة • انه كان مسجونا لأنه تشاجر مع زنجى آخر يلاعبه القمار وطعنه بالموسى فقضى عليه • وكان عليه أن يقضى عشرين عاما فى الأشغال الشاقة ، ولكنه ثار على غلظة الحارس الأبيض الذى كان يضرب المسجونين بالسوط وهم يصلحون الطريق ، وشج رأس الحارس الأبيض ففاضت روحه ، وفر جونز حيث حطم السلاسل التى أوثقت بها قدماه ثم فر من الولايات المتحدة ويتنبه جونز الى أنه أسرف فى الكلام مع الأفاق الأبيض وأطلعه على ما ينبغى أن يجهله من أسرار حياته ، فيهدده بالقتل ان هو ردد كلمة واحدة مما سمع ، فيعد سميذر جونز بذلك وهو فى فزع شديد مؤكدا وفاءه له وأمانته •

ودليله على هذا الوفاء هو ما جاء يحمله اليه من نبأ ، وما هذا النبأ الا أن الوقت قد أزف ليستقيل جونز ، فالثورة قد شبت فعلا فى الجزيرة ، وكل من فيها قد لجأ الى التلال ، وان كان جونز لا يعلم بذلك •

ويحار جونز أول الأمر ، ثم يكذب سميذرس . فيكون رد سميذرس بسيطا . أين رجالك الآن ؟ ادعهم ، فلن يجيبوا . وتمتد يد جونز الى الجرس الموضوع تحت عرشه ويذهب يدقه بقوة فلا يجيبه مجيب ويتسمع برهة فلا يسمع صوتا ، وينطلق الى المدخل فيدرك أن الجرذان قد هجرت السفينة التى تغرق . فيسب ويلعن زنوج الغاب ، ولكنه لا يلبث أن يتمالك أعصابه حين يلاحظ أن عين الخبيث سميذرس ترقبه . ويضحك ضحكة الخلى قائلا : « لقد بالغت فى تقدير قوتى هذه المرة .. أقلت لك أنى سأبقى على العرش ستة شهور أخرى ؟ لقد غيرت رأيى . سآخذ النمن وأستقيل من وظيفة الامبراطور فى التو واللحظة » .

ويعجب سميذرس لبرودة أعصابه ، لكن جونز يشرح له فى هدوء أن العناد لا يجدى ، وما دامت اللعبة قد انكشفت والثورة قد اندلعت والثوار قد لجأوا الى التلال ، فلابد من التسليم بالأمر الواقع .

لم يبق الا أن يهرب جونز من القصر حتى لا يقع فى قبضة الثوار . فيتناول قبعة كبيرة من الخوص ويهم بالخروج ، ولكن سميذرس ينبئه بأن رجاله استولوا على جواده ليمنعوه من الهرب ، فينزعج قليلا ثم يعود اليه هدوؤه ، ويقرر أن يسعى الى الساحل على قدميه . ان الساعة الثالثة والنصف والشمس تغرب فى السادسة والنصف ، ولا يزال أمامه ثلاث ساعات وهى كافية ، انه يعرف الغابة الكبيرة التى يضل فيها كل من اقتحمها كما يعرف طريقه الى بيته . فقد كان يتوغل فيها المرة بعد المرة ، متظاهرا بأنه خرج للصيد ، ليدرس معالمها ويكتشف مجاهلها . وقد خبأ فى موضع منها بعض الطعام المحفوظ فى العلب . كل ذلك فعله استعدادا لهذا اليوم الذى تدور عليه فيه الدائرة . وفى الغابة سيبقى مختفيا حتى الصباح حين يخرج من طرفها الآخر ويقصد الى الساحل . وهناك تحمله سفينة حربية فرنسية الى جزائر المارتنيك حيث يعيش منعما بما سلب

ونهب من أموال الزنوج ، كل شيء اذن مرسوم ، ولم يبق الا تنفيذ الخطة · وانه ليسخر من ذلك الزنجي الوغد ليم الذي حرض عليه الزنوج ، فهو لا شك وراء هذه الثورة · ثم انه لا يهاب شيئا في الوجود ·

وفيما هو يحدث سميدرس في كل هذه الأشياء يسمع الرجلان من وراء التلال البعيدة قرعا رتيبا خافتا هو قرع الطبل الذي يدقه الزنوج في رقصة الحرب وتبدأ الضربات بمعدل النبض العادي أي ٧٢ ضربة في الدقيقة · ويتزعج جونز حين يأتيه قرع الطبل ويستفهم من صاحبه عما يجري، فيبلغه صاحبه أن الاحتفال قد بدأ ، وأن القوم يحمسون أنفسهم بالطبل والرقص تمهيدا للخروج في طلبه · ولكن جونز يسترد هدوءه ، ويسخر من وثنية هؤلاء الزنوج الذين يعتمدون على السحر والتعاويذ للفتك بأعدائهم · اما هو فبروتستانتي من أتباع الكنيسة المعمودية ، والكنيسة المعمودية كفيلة بأن تقيه شر هؤلاء الوثنيين ·

ثم ينطلق جونز في رحلته ، وينطلق بلا متاع الا قبعته الخوصية ، ويودع الأفاق الأبيض سميدرس بعد أن وهبه القصر وكل ما فيه من متاع ، ولكنه لا يخرج من الباب الخلفي متلصصا بل يخرج من الباب الكبير في كبرياء الأباطرة ، فهو لا يزال الامبراطور جونز ·

ويبلغ جونز حافة السهل الذي تبدأ عنده الغابة الكبيرة ، يبلغها وهو يتصبب عرقا وقد أضناه طول المسير والشمس المحرقة التي اختفت الآن وراء الأفق فانتشر المساء ويستلقي على الأرض منهكا ويخلع نعليه لتبرد قدماه ·· ويحمد الحظ الذي جعله يبلغ طرف الغابة عند هبوط الظلمة · انه الآن بمأمن من أعدائه ، وان كان لا يزال أمامه اختراق هذه الغابة المهولة التي يوشك ألا يتبين أشجارها لكثافة الظلام ، ويتحاشى النظر الى الغابة كأن بها روحا جبارة تضمر له العداء ، ويبلغ سمعه قرع الطبل الرتيب فيلعن أولئك الزنوج الذين لا يكفون عن قرعه الساعات والساعات ، ويتملكه

الاضطراب حين يفكر فيهم • فالظلام حالك • ولئن كان الظلام الحالك يستره عن أعدائه ، فهو أيضا يحجب أعداءه عن ناظريه • فلو قد كانوا يتربصون به على بعد ثلاثين مترا لما رآهم •

ولكنه يعود فيهدىء نفسه في روية • انه جائع • وبطنه الخاوية هي لا شك مصدر كل هذه الأفكار السوداء • انه قد أخفى الطعام المعلب عند حافة الغابة وجعل علامته حجرا أقامه بجواره • فليبحث اذن عن الطعام ، وبعد أن تمتلىء بطنه ستهدأ نفسه، ويمضى في رحلته مجتازا الغابة •

.. ويذهب جونز يبحث عن صندوق الطعام الذى أخفاه تحت الأرض ، فهو يعلم أنه في المكان الذى أخفى فيه الصندوق ، يبحث عن الحجر وبعد تعثر كثير يجد الحجر فتغتبط نفسه ، ويقلب الحجر فلا يجد شيئا • فتأخذه الحيرة • لعل هذا الحجر غير الحجر الذى وضعه علامة ، ويمضى في البحث فيجد حجرا آخر • ويقلب الحجر الثانى فلا يجد تحته شيئا ، وتستبد به الحيرة والجوع معا • ان الظلام صفيق ، فقد مضى المساء وأقبل الليل الأسحم • أتراه ضل الطريق ؟ كلا • فكيف يضل الطريق ورحلته الى الغابة كانت في وضح النهار ؟ انه حائر حقا • فهو يرى في الظلمة الصفيقة حجرا ثالثا وحجرا رابعا وحجرا خامسا • ترى كيف جاءت كل هذه الأحجار الى هذا المكان وهو لم يضع فيه الا حجرا واحدا •

كل هذا والسهل المظلم من خلفه والغابة الظلماء من أمامه • ومن بطن الغابة الظلماء تخرج على جونز أشباح صغيرة أشكالها غير محددة هى «المخاوف الغامضة الصغيرة» ، فلونها أسود ولا تتبين منها في الحلكة الا عيونها البراقة • ولا يسمع لدبيبها حس ويرى جونز هذه المخاوف الغامضة الصغيرة تجتمع من حوله وتتراقص • فيضطرب قلبه اضطرابا وتنطلق من فمه صرخة المرتاع ، ويقفز قفزة عصبية الى الوراء ويخرج مسدسه ويأمر المخاوف أو تنصرف فلا تصدع بأمره ، ويطلق عليها رصاصة تتجاوب أصداؤها في الظلمة

الساكنة فتختفي أشباح المخاوف • وتعود الى قلبه السكينة • ويلوم نفسه على جزعها • ان في يده مسدسا ففيم الخوف ؟ ويسمع جونز قرع الطبل البعيد فيسرع في خفقانه ولكنه لم يعد يبالى • ان المخاوف الغامضة الصغيرة قد عادت الى مكمنها في بطن الغابة • ولابد مما ليس منه بد • لابد من اجتياز الغابة قبل الصباح على بطن خاوية • انه يعلم أنه قد أخطأ باطلاق النار من مسدسه ، فالصوت يهدى الزنوج الى مصدره •

ويعقد جونز عزمه على اقتحام الغابة قبل أن يهتدى أعداؤه الى مكانه • وهكذا ينفذ بين أشجارها الجسيمة وقد استعاد كل شجاعته •

ويسعى جونز في الظلمة زمنا • وكل شيء من حوله هادىء فلا يسمع حسا الا صوت الطبل البعيد وقد اشتد سرعة وازداد وضوحا • ثم يبزغ القمر وينتشر نوره بين أوراق الأشجار فتبرق بلون غريب • يبلغ جونز فضاء صغيرا وسط الغابة أناره نور القمر وانبعث منه صوت كالصليل المتقطع • ويحدق جونز في الأرض الفضاء ويتسمع الصليل المتقطع • فيبصر في نهاية الأرض الفضاء شبح الزنجي جيف الذى كان قد قضى عليه بطعنات الموسى وهو يشاجره في المقامرة ، يبصر شبح جيف الأسود قاعدا القرفصاء مرتديا حلة الخدم من عمال عربات البولمان وعلى رأسه الكاسكيتة ، ويراه يقذف بزهرين من زهر النرد على الأرض ثم يلتقطهما ويقذف بهما المرة بعد المرة في حركة آلية • وحين يقع بصر جونز على الزنجي جيف يقف كالمصعوق ويلهث في ارتياع شديد ثم يشخص كالمسحور ، ويذهب يعوى قائلا : من هناك ؟ من هذا ؟ آهذا أنت يا جيف ؟ انى سعيد لرؤيتك حقا • ولكنهم قالوا لى انك مت من طعنة الموسى التى كلتها لك •

ثم يفيق من حلمه المأخوذ ويتنبه الى أنه يخاطب شبح الرجل المقتول • ويعوى من جديد وقد أخرج مسدسه من

جرابه . ان جيف قد مات . فكيف جاء الى هذا المكان ؟ لقد قتله مرة ولكنة حي يمثل أمامه وهو يلعب بالزهر . لابد من قتله ثانية . ويطلق جونز رصاصة على شبح جيف فيختفي الشبح . ويلبث جونز في مكانه وهو يرتجف . وترتفع في سمعه دقات الطبل وتشتد سرعته فتبلغ سرعة خفقات قلبه ضربات نبضه . انهم يقتربون منه . انهم يسرعون اليه . هكذا خيل له . لابد من الفرار . لابد من الفرار .

وينسى جونز في فزعه الطريق المكشوف الذى كان ينبغي أن يمضي فيه ويحتمي بالأشجار الكثيفة السامقة التى لا ينفذ فيها نور القمر فيبتلعه الظلام .

ويبلغ جونز طريقا في الغابة تكسوه الأوحال ، شق بين الأشجار فيمضي فيه وهو بين حائر وفزع ، وقد ضاعت منه قبعته وتمزقت على جسده حلة الامبراطور من كثرة احتكاكها بالأغصان ، وتصبب العرق على جبينه وعلى سائر أعضائه وضاقت أنفاسه وتحرج صدره من كثرة العدو ، ودميت قدماه ، وتخاذلتا تحت جسده الهائل .

كل ذلك وقرع الطبل لا ينقطع . ويخلع جونز سترة الامبراطور ويقذف بها بعيدا فيرتاح صدره المختنق ، وتعود أنفاسه الى الانتظام ، ثم يتأمل الطريق في حيرة وارتياب . انه لم ير هذا الطريق من قبل قط . ترى هل ضل الطريق ؟ كلا . انه لا يمكن أن يضل فهو يعرف كل شبر في هذه الغابة المسكونة . المسكونة ؟ ان الغابة ليست مسكونة ، وانما كل ما رآه جونز من أطياف وأشباح انما هو من صنع خياله الخائف . انه مسيحي مؤمن وهو بروتستانتي متمدن وهو من أتباع كنيسة المعمودية ، فكيف يؤمن بهذا الهراء الذى يسمونه الجن والأشباح ؟ ومهما يكن من أمر فالحمد لله لأن الأشباح قد سكنت ولم تعد تعترض طريقه . والقمر الآن في كبد السماء ينير الغابة يهديه في مسعاه ، والليل قد مضى نصفه ، وفي الصباح يبلغ جونز الساحل ، وعندئذ يكون في مأمن من كل خطر .

وفيما هو يناجى نفسه على هـذا الوجه يبصر جماعة قليلة العدد من الزنوج تخطر أمامه فى ثياب المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، رؤوسهم محلوقة وفى أقدامهم اصفاد الحـديد ، ومنهـم من يحمـل الفـؤوس ومنهم من يحمـل الجواريف · ومن ورائهم يسوقهم حارس من البيض يرتدى حلة السجان ويعلق على كتفه بندقية ويحمل فى يمينه سوطا غليظا ·

ويحملق جونز فى هذا المشهد وقد تملكه رعب قاتل شل حركته ويصرخ بصوت متحشرج : « يا يسوع » !

ويفرقع السجان فلا يخرج منه صوت · ولكن السجناء يصدعون باشارته ويقبلون على العمـل فيضربون بالفؤوس ويجمعون بالجواريف فى حركات آلية منتظمة جوفاء لا صوت لها · ويشير السجان الى جونز بسوطه ويأمره أن يأخذ مكانه بين الأشقياء ، فيجمجم جونز كالمسحور قائلا : « نعم ياسيدى سآتى بالتأكيد » · ويتقدم نحو الجماعة ثم يأتى بحـركات كأن بيده جاروفا يعبىء فيه التراب · ويقترب السجان منه فجأة وينهال بسوطه فى وحشية على كتفيه · فينكمش جسد جونز ألما وذلة ، وينصرف عنه السجان فى احتقار شديد · وهنا يرفع جونز جاروفه ويهوى به على رأس السجان ·

ثم يستيقظ جونز من هذه الرؤيا ويدرك أنه لا يمسك بيده شيئا فيهذى كالمحموم مخاطبا السجناء الزنوج قائلا : « الى بجاروف حتى أشج رأسه ·· الى بجاروف مرضاة لله » · فلا يجيبه أحد من هذه الأشباح الخاوية · ويأخذ الرعب من جونز كل مأخذ فيصيح وقد خنقه غيظه : « سأقتلك أيهـا الشيطان الأبيض ، ولو كان هذا آخـر ما أعمل فى هـذه الحياة ! كن شبحا أو شـيطانا · سأقتلك مرة أخـرى مهما تكن » !

ويخرج جونز مسدسه ويطلق عـلى ظهر السـجان منه رصاصة · وفجأة يختفى الطريق الذى كان ماثلا أمام عينيه فلا يرى أمامه الا الأشجار الكثيفة السـامقة ، ولا يسـمع

الا حفيف الأشجار التى يصطدم بها وهو يعدو وقرع الطبل الذى اقترب منه شيئا فشيئا وأسرع فى دقاته فكأنها دقات قلبه الوجل وضربات نبضه المرتجف .

ويبلغ جونز بقعة من الغابة فيها دائرة كبيرة من الفضاء تحيط بها الأشجار الهائلة من كل جانب ، وفى وسطها جذع شجرة مجتثة وقد سبحت الأرض الفضاء فى نور القمر . ويدنو جونز من الجذع ، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ وتمزق سرواله حتى صار كالخرقة المهلهلة ، ويجثو على قدميه فى هيئة المصلى ويستنجد قائلا : « يا يسوع ! يا يسوع ! اسمع صلاتى . لقد كنت من الخطاة البائسين ! أنا أعلم أنى أذنب ! نعم أعلم أنى أذنبت ! ولكننى حين ضبطت جف وهو يغش فى اللعب بالزهر المغشوش أستولى على الغضب وصرعته » !

ويطلب جونز من الله غفران آثامه فى ضراعة تمزق نياط القلب . ويسأله أن يقيه من الأشباح ومن صوت الطبل اللعين الذى يدق فى أذنيه بلا انقطاع . انه لا يخشى الرجال اذا كانوا من لحم ودم . أما هذه الأشباح فهى تدفع به الى الجنون .

وبعد الصلاة يسترد جونز هدوءه . ويحس بقدميه الداميتين تتمزقان من فرط الألم ، فيخلع حذاءه الذى صار الى قطعتين من الجلد الشائه المكور ، ويحمل حذاءه تحت ابطه ، ويتأمل حاله الزرى فيرثى لما آلت اليه أبهة الامبراطور .

ويتنهد . ويحملق فى دائرة الأرض الفارغة وهو فى بحران . فيرى جماعة من الأطياف تتجمع من كل جانب بالقرب من جذع الشجرة ، وكلهم فى ملابس السادة من أهل الجنوب الأمريكى البيض فى القرن الماضى وأزياؤهم من عام ١٨٥٠ قبل تحرر العبيد ، وتدل هيئتهم على أنهم من أصحاب المزارع . وفى صحبة هؤلاء نسوة من بنات المجتمع الأرستقراطى اجتمعن ليشهدن المزاد فهناك مزاد ، مزاد

لبيع العبيد • وقد وقف المثمن الى جوار جذع الشجرة ليؤدى عمله •

ويرتقى المثمن جذع الشجرة ويلمس كتف جونز ، كأنه المطروح فى المزاد • وتتطلع اليه أنظار السادة والسيدات البيض ويتبادلون الملاحظات ، وينظر جونز من حوله ليرى مهربا بين الجمع المتراص من حوله • ويصيح المثمن داعيا لجونز مرغبا فيه قائلا انه قوى يصلح لفلاحة الأرض ، ويشير الى عضلاته المفتولة والى قامته الهائلة والى كتفيه العريضتين • ويبدأ المزارعون المزايدة ويشتد اقبالهم عليه •

ويدرك جونز الموقف فيثور ثورة اليائس الهائج ويصيح بالجمع قائلا انه زنجي حر ، وان تجارة العبيد قد انتهى زمانها منذ الحرب الأهلية • ويخرج مسدسه من جرابه ويطلق منه رصاصة على المثمن الفصيح ورصاصة على المزارعين فيتبددون فى الهواء كأنما ابتلعهم الفضاء • ويلتفت جونز حوله فلا يرى أثرا لدائرة خالية ولا لجذع ولا لشيء مما توهمه خياله ، وانما يرى الغابة على عهدها كثيفة فى الليل البهيم ، متراصة أشجارها كأنها جدار متماسك • ولا يسمع فى هذه الظلمة المتراكبة الا قرع الطبل الرتيب يزداد عنفا ويسرع فى الضربات •

ويمضى جونز فيضرب فى الغابة المتشابكة متحسسا طريقه فى هذا التيه العظيم • ويناجى نفسه قائلا : « رباه ! رباه ! ترى ماذا أنا فاعل الآن ؟ لم يبق معى الا رصاصة واحدة ، هى الرصاصة الفضية • ولو طاردتنى أشباح أخرى ، فكيف أخفيها وأطردها عنى ! رباه ! لم يبق معى الا الرصاصة الفضية » !

ويشتد ظلام الغابة • فالأشجار تتشابك فوق رأسه حتى تحجب القمر فى علاه • ولا يعود جونز يبصر شيئا • فيتحسس طريقه بيديه • انه لم يعد يكترث الآن أيحيا أم يموت • ان كل ما يطلبه الآن هو الراحة ، ولو كانت راحة الموت •

ويخيل اليه أنه يجد فراغا ، فيستلقى على الأرض منكفئا على بطنه ويستريح ويخيل اليه أنه يرى جماعة من الزنج وقد جلسوا صفين متقابلين وجها لوجه ويترنحون الى الوراء والى الأمام على نحو رتيب كأنهم يجدفون فى جارية تمخر بحرا متلاطم الأمواج، على ايقاع الطبل الذى يدق دقا منتظما تشتد سرعته · ويخيل اليه أنه يسمع صوتا يغنى معولا من بعيد · ويشترك جونز مع العبيد فى كوراس الغناء الحزين، ويرتفع صوته الحزين على أصواتهم فتتلاشى الأصوات رويدا رويدا ولا يبقى الا صوته · وعندئذ يفيق جونز من رؤياه فلا يجد من حوله الا الغابة الظلماء وقرع الطبل يدوى فى أذنه ·

ويبلغ جونز شاطىء نهر كبير قامت عنده شجرة سامقة، وعندالشجرة يرى بناء حجريا كأنه مذبح فى محراب، فيتقدم نحو المذبح بقوة غرزية لا تقهر ويجثو أمام المذبح · ويخيل اليه أنه يعرف هذا المكان وأنه رأى هذه الشجرة وهذه الأشجار وهذا النهر من قبل · ويظهر من قلب الظلمة ساحر افريقى من الكونغو يقف الى جوار الشجرة وقد زين جسده بالخرز الأحمر والرياش ولبس قرنين دلالة مهنته ، ويومىء الساحر لجونز وهو يرقص رقصا صامتا رهيبا أن يقترب من المذبح فيصدع جونز بأمره · يمثل الساحر أمام جونز المسحور مشهدا رمزيا بالرقص والقفز والايقاع ويدرك جونز مغزى هذا المشهد اذ تتقمصه روح الساحر · يدرك أن قوى الشر تطلب ضحية ، فهى هائجة لا تهدأ الا اذا قدم لها قربان · ويدرك من اشارات الساحر أنه هو الضحية والقربان الذى تنتظره هذه الآلهة الوثنية فيصرخ جونز هاتفا : الرحمة يا الهى ! الرحمة ! الرحمة لعبدك الخاطىء ·

وينادى الساحر من بطن النهر اله الأعماق ، فيخرج على الشاطىء تمساح مهول يحدق فى جونز فيسحره بنظراته · ويزحف جونز على بطنه ويقترب شيئا فشيئا من التمساح ليلتهمه ، كل هذا وهو يبتهل قائلا : رحماك يارب! رحماك!

وحين يدنو جونز من فم التمساح يعلو دق الطبل الرتيب ويسرع في جنـون • ويصرخ الساحر صرخة المجذوب الفرحان ، ويمزق جونز الظلام القطيع بصيحة ضارعة قائلا : « أغثني يا يسوع ، أغثني » !

وما أن تنطلق من فمه هذه الصيحة حتى تلمع فى ذهنه الرصاصة الفضية الأخيرة فيخرج مسدسه ويصوبه الى عيني التمساح المشتعلتين أمامه كأنهما كرتان خضراوان ، ويطلق النـــار •

ويغوص رأس التمساح فى النهر ، ويتلاشى الساحر فى الظلمات • أما جونز فيرقد منبطحا على بطنه وقد امتدت ذراعاه على جانبيه ، وهـو يرتجف من الهلع • ولكن الطبـل البعيـد يخفق في وجوم كأنه قلب كائن منتقم افلتت منه فريسته ، وهو يتحفز للانقضاض •

ويطلع الفجر على الغابة والبقاع ، والزنج من حـول الطبل مجتمعون عرايا ، أو ما يشبه ذلك وعلى راسهم العجوز ليم والتاجر الأبيض الأفاق سميذرس •

ويقـول سـميذرس ان جـونز قد أفلت من قبضتهم ولا شك أنه قد بلغ شاطيء البحر مع الفجر العريض •

ويقول ليم : لقد أمسكناه •

ويسمع صوت بنادق تطلق فى الغابة ، وصيحات الفرح المتوحش تنطلق فى الفضـاء البعيـد • ويكف الطبـل عن الدق فجأة •

وينظر ليم العجوز الى الأفاق الأبيض ويقول :

ـ لقد أمسكناه • لقد مات نعم ، لقد أمسكوه نعم ، لقد مات هذا الذى لا يرديه الرصاص • لقد أقاموا طول الليـل يصهرون النقود على قرع الطبل ليصنعوا له رصـاصا من الفضة •

وبعد حين يقبل الزنوج من الغابة حاملين جثة الامبراطور جونز .. ثقيلة تتهدل وقد غاض منها كبرياء الحياة . لقد جاء الموت جونز على الوجه الذى أراد ، ولكنه جاءه على غير ما رسم وقدر .

للكاتب الأمريكى يوجين أونيل

لا يزال اسم يوجين أونيل بعد وفاته ألمع اسم فى تاريخ المسرح الأمريكى ، كما كان أثناء حياته التى امتدت خمسا وستين سنة بين ١٨٨٨ و ١٩٥٣ . وقد بلغ بعض الأحياء من كتاب المسرح الأمريكى من أمثال تنسى ويليامز وأرثر ميلر قمة مجدهم الفنى اليوم ، ولكن يوجين أونيل مع ذلك لم يتوار أمامهم . وهو الى الآن بمثابة العمود الأكبر فى بناء ذلك المسرح .

وقد كتب أونيل عددا لا بأس به من المسرحيات التى تتناول حياة البحارة أو حياة الزنوج قبل أن يكتب الدراما العظيمة « فى ظلال الدردار » ، ولكن هذه الدراما كانت أول انتاج له انتهج فيه نهجا انسانيا . ودل على أن له موهبة خاصة فى معالجة مشاكل القلب الانسانى واذا كانت المأساة المشهورة « الحداد يناسب اليكترا » تعد قمة ما وصل اليه « أونيل » فى فن الدراما ، فان « ظلال الدردار » تعد أول عمل من أعماله ضمن له الخلود ، أما عن حياة يوجين أونيل فقد كانت حياة عاصفة . فهو لم يولد كسائر الناس فى بيت من البيوت ولكنه ولد فى فندق بشارع برودواى ، شارع الملاهى بنيويورك ، وكان أبوه جيمس أونيل ممثلا معروفا من أصل ايرلندى انقطع لتمثيل روايات شكسبير ثم انقطع

عن شكسبير ليجمع بعض المال بتمثيله دور «مونت كريستو» فى فرقة متنقلة • وكان يوجين أونيل يتنقل كثيرا مع أبيــه فى رحلاته التمثيلية فتعلم فنيــة المسرح عمليا ، الى جانب دراساته النظرية ، وكان فى شبابه نموذجا للفنان البوهيمى الذى لا ينتج الفن ولكن يحياه ، ويرتكب كل الموبقات ليختبر الحياة ويخالط أقران السوء ، ولم يستقر يوجين أونيل فى عمل من الأعمال فاشتغل سكرتيرا فى شركة بنيويورك ، ثم مديرا مساعدا لفرقة تمثيلية متنقلة ، وفى عام ١٩٠٩ سافر مع جماعة الى أمريكا الوسطى للبحث عن الذهب ولم يلبث أن عاد بعد ستة أشهر مصابا بحمى المناطق الحارة ثم سافر الى الأرجنتين وتنقل فيها من عمل الى عمل ثم سافر الى جنوب افريقية وكان يسهر على البفالفى سفينة تنقل الماشية ، ومن ثم عاد الى الأرجنتين وهناك عاش زمنا فى فقر مدقع ، وبعد رحلة أخرى اشتغل مخبرا فى صــحيفة بالولايات المتحــدة ، وأصابه السل فدخل مصحة مدة ستة شهور كل ذلك قبل أن يبلغ يوجين أونيل الرابعة والعشرين من عمره • قد كان لمرضه أثر كبير فى التحول الذى أصــابه من الأســفار الى الكتابة • فكتب أول مسرحية له ثم أخذ يدرس نظرية المسرح على الأستاذ بيكر ويؤلف للفرق التمثيلية ، أما بقية حيــاته فهى حياة المؤلف المسرحى أى انها ســلسلة من الانتصــارات الفنية يتخللها بعض الفشل وقد تزوج يوجين أونيــل ثلاث مرات كان آخــر زواج له من الممثلة كارلوتا مونتيرى زواجا سعيدا •

تدور حوادث هذه المسرحية من أولها الى آخرها فى بيت ريفى يملكه آل كابوت فى ولاية نيــو انجلاند عام ١٨٥٠ حيث نجد خارج البيت شجرتين جسيمتين من أشجار الدردار احداهما تحت البيت من جانب والثانية تحته من الجــانب الآخر وقد تدلت أغصانهما المديدة عــلى ســطح ذلك البيت الأشهب اللون ذى البوابة الخشبية فكأنما الشجرتان تحرسان أو تحنوان عليه حنو أم شريرة شقية على أبنائهــا • وكأنما

اكتسبت الشجرتان بعض صفات الانسان لطول معاشرتهما للأحياء • فكلما أمطرت السماء ذرفت أوراقهما العبرات على البيت وآله وليس فى هذا البيت الا أربعة أشخاص هم آل كابوت ، أفرايم كابوت الأب ، وأبناؤه الثلاثة سميون وبيتر وايبين ، ومعهم شخص خامس خفى يسكن البيت ويتمشى فى جنباته ولعله يسير كل ما يجرى فيه من أحداث دون أن تراه العيون ، وهذا الخامس هو روح زوجة صاحب الدار أفرايم كابوت أو زوجته الثانية التى توفيت من منذ زمن طويل ولكن روحهـا لا تزال رابضـة فى الدار لا تريد ان تبرحها ، والى هؤلاء الأربعة أو الخمسة يضاف شخص خامس أو سادس هو آبى بتنام التى جاء بها أفرايم كابوت لتدون زوجته الثالثة فتكون هذه بداية المأساة •

أما رب الدار فهو الآن عجوز فى السادسة والسبعين من عمره طويل القامة صلب العود رغم نحوله الشديد فقد نبت أفرايم كابوت هذا كما تنبت شجرة الصبار وسـط القحـل والأحجار الجرد بغير ماء يسقيها ولا تربة تغذيهـا يقـاوم الطبيعة القاسية وتقاومه الطبيعة القاسية حتى قهر الطبيعة وجعل من الأرض البور التى تحيط به حقلا ممرعا خصيبا ، وهو رغم شيخوخته الطاعنة ثابت كالصخرة يقف على حافة القبر فى صلابة تعلمها فى كفاحه المتواصل مع الأرض أكثر من سبعين عاما فهو ينظر الى أولاده الثـلاثة سيمون وبيتر وايبين فى احتقار شديد لأن النعمة دمثتهم ومشت بالطراوة فى أجسادهم وأرواحهم •

وقد تزوج أفرايم كابوت من قبل مرتين فى شـبابه ثم فى كهولته أما زوجته الأولى فقد أنجبت له سميون وهو الآن فى التاسعة والثلاثين ، وبيتر وهو الآن فى السابعة والثلاثين ثم ماتت وبعد زمن من الوحدة الكئيبة تزوج أفرايم كابوت سيدة من أهل الجيرة كانت بينه وبين ذويها نزاع مسـتحكم على الأرض وقضـايا فى المحـاكم لا تنتهى وأنجبت له هذه السيدة أصغر أبنائه ايبين وهو الآن فى التاسعة والعشرين

وقد ماتت أم ايبين عن ولدها وهو بعد فى يفاعته فاهتز لموتها وجدانه أيما اهتزاز فقد كانت المظهر الوحيد من مظاهر الحب فى هذه الدار التى لم تعرف فى يوم من الأيام من معانى الحب معنى واحدا ولم تر من آلوان الحياة الا المكابدة المريرة وشظف العيش وشظف النفوس • لهذا فقد شب ايبين هذا وهو يعتقد أن روح أمه لم تبرح الدار أبدا فهى قابعة فى غرفة الاستقبال حيث رقدت مسجاة عند وفاتها فهى الملاك الحارس الخفى الذى يحرسه من عدوان أبيه •

أما الجو الذى نشأ فيه أفرايم كابوت بولاية نيو آنجلاند فى النصف الأول من القرن الماضى وأنشأ فيه بنيه فهو جو البيوريتان من غلاة المتزمتين فى الدين •

ولم يكن أفرايم كابوت فريدا فى تزمته الدينى فقد كان هذا التزمت مأثورا عن الكثرة المطلقة من أبناء هذه الولاية فى تلك الفترة من التاريخ حتى لقد وصف الكتاب عقلية بيوريتان نيو أنجلاند ونفسيتهم فى ألف كتاب وكتاب ولا غرابة فى أن يرى أفرايم كابوت ومن حوله من الناس فى الدين عسرا لا يسرا ، وألا يروا من صفات الله غير انه الجبار العنيد الشديد الحساب فما رأوا فى الطبيعة الا الغلظة والقسوة والضرع الشحيح •

ونحن الآن فى بيت آل كابوت تحت أغصان الدردار حيث أبناؤه الثلاثة قد اجتمعوا ، أما الأب العجوز أفرايم كابوت فقد اختفى من البيت فجأة منذ شهرين دون أن يبلغ بنيه عن وجهته أو يطلعهم على نيته وفى الأفق الغربى تضطرم شمس المغيب كأنها تغرب فى عين حمئة فيتوهج الأفق بلون الذهب ويتأمل الثلاثة الشمس الغاربة ويقول سميون (فى مقت) : منظر رائع •

بيتر : نعم •

سميون : (فجأة) منذ ثمانى عشرة سنة •

بيتر : ماذا حدث ؟ •

سميون : زوجتي جيني • ماتت • وأنا أذكرها من حين لآخر ، وهذا يزيد من وحشتي • كان شعرها طويلا كذيل الحصان ، أصفر كالذهب !

بيتر : (في لهجة غير مكترثة يحسم بها الموضوع) انها ماتت • (وبعد صمت) في الغرب ذهب ياسميون •

سميون : (تائها وهو لا يزال متأثرا بألوان الغروب) نعم في السماء ذهب •

بيتر : نعم اذا شئت بالمجاز ـ فهذا هو الوعد في الكتاب. (يشتد انفعاله) في السماء ذهب ••• الباب الذهبي ••• كاليفورنيا ! •• الغرب الذهبي ••• مروج الذهب •• !

سميون : لقد كدحنا ، بذلنا قوتنا •• بذلنا العمر • دفناهما تحت الأرض التي حرثنا (يضرب الأرض بقدمه متمردا) ومع ذلك فنحن نتعفن لنهيىء التربة لمحصوله •

ان العجوز أفرايم كابوت قد غادر البيت ذات مساء فجأة منذ شهرين وهو لا يزال غائبا ، وهو أمر عجيب فهو ما ترك داره منذ ثلاثين عاما الا ليقصد الى القرية • ترى أين يكون ؟ لا شك أنه شد رحاله الى كاليفورنيا الى الغرب ، الغرب الذهبي كما يسميه الأمريكيون ، باحثا عن الذهب ، كما كانت عادة الناس أن يفعلوا في تلك الأيام ، هذا ما يظنه أولاده على الأقل •

أما سميون وبيتر فيستقر رأيهما على الرحيل الى الغرب للبحث عن الذهب لا للبحث عن أبيهما فالحب مفقود بين ال كابوت • فكما كان كابوت العجوز يحتقر أبناءه الضعفاء المدللين فقد كان أبناء كابوت يمقتون أباهم الطاغية القاسي ••• بل ان أصغرهم وهو ايبين يصلي الى الله حتى لا يعود أبوه ، بل يصلي الى الله أن يخطف روح أبيه ، فقلبه مسمم بالأفكار السوداء لأنه يعتقد أن أباه قتل أمه بالارهاق

في العمل وسوء المعاملة ويستنكر الاخوان سميون وبيتر في أخيهما هذا الشعور المسموم ويقول سميون انه لم يستعبد أم ايبين وحدها بل استعبد نفسه واستعبد جميع أولاده ، فهو لم يقتل أم ايبين وانما قتلها القدر الذى ركب في هذه الطبيعة القاسية • ولكن هذا التعنيف لا يجدى نفعا مع ايبين الذى أشرف على الثلاثين ولكنه رغم ذلك لا يستطيع أن ينسى صورة أمه المسكينة التي ماتت من فرط الهم والاجهاد منذ خمسة عشر عاما ، وهو كثيرا ما يراها أو يرى شبحها يمشى في جنبات الدار ويقف بجوار المدفأة فهي لا تزال بعد مماتها سجينة هذه الدار كما كانت سجينتها في حياتها وهى لا تجد حتى في قبرها سبيلا الى الفكاك من هذا البيت اللعين والانطلاق منه الى حيث تنطلق الأرواح •

ان ايبين يضيق بالبيت وبمن فيه واذا كان أبوه قد خرج ولم يعد ، واذا كان أخواه يرغبان في السفر الى كاليفورنيا ، للبحث عن الذهب ، فهو يرغب في الانطلاق للبحث عن البنت مينى ، هي بنت فاسدة الخلق يسمونها « المرأة الحمراء » يتردد عليها ايبين ويحسب أنه الوحيد الذى يتردد عليها فاذا به يكتشف أن آل كابوت جميعهم يترددون عليها كذلك ، ويثور ايبين حين يكتشف ذلك ، ويقول انه ماض ليهشم رأس « المرأة الحمراء » هذه ••• ولكنه لا يلبث أن يضعف حين يذكر جمالها الفاتن، وأنوثتها الناضجة ورائحتها التى تذكر ايبين الفلاح برائحة حقل « دافىء محروث » وينطلق اليها وهو يحلم بقضاء وقت سعيد •

ويعود ايبين من القرية قبل الفجر وهو منفعل أشد الانفعال ، ويوقظ أخويه سميون وبيتر ليقص عليهما ما سمعه عن أبيه أثناء زيارته للقرية المجاورة ، ان العجوز أفرايم كابوت لم يرحل الى الغرب للبحث عن الذهب ، بل رحل الى بلدة مجاورة ليبحث عن زوجة •

وقد وجد هذه الزوجة وهى امرأة جميلة في الخامسة

والثلاثين من عمرها اسمها آبى وهو قادم بها الى الدار فى مطلع النهار ٠

. ويسقط في يد سميون وبيتر حين يسمعان هذا النبأ ، أما ايبين فهو ثائر ولا سبيل الى تهدئة ثورته ، ان الحقل والدار وكل ما يملكه أبوهم العجوز سوف يؤول الآن بعد وفاته الى زوجته الثالثة هذه ٠ فما جدوى البقاء مع ابيهم بعد الآن ؟ ان ثلاثتهم سيكدون ويكدحون كما كانوا يكدون ويكدحون ولكن من أجل هذه الدخيلة ، كلا ان سميون وبيتر يعرفان طريق الخلاص وهما عازمان على الرحيل الى الغرب للبحث عن الذهب ، انهما لن ينتظرا عودة أبيهما العجوز بعروسه الشابة بل سينطلقان على الفور ما ان تبزغ تباشير الفجر ٠

أما ايبين فهو يأبى أن يغادر الدار فهو يشعر أنه مقيد بها بأغلال من حديد ، ان الحقل والدار وأكثر ما يملكه أبوهم العجوز أفرايم كابوت انما هو ملك لأمه ٠٠ أو كان من قبل ملكا لأمه من أسرتها حتى جاء أبوه الخبيث الماكر وسرقه منها ، فقد كانت بينه وبين أسرة أمه دعاوى أمام القضاء على ملكية الأرض ، وقبل أن يغلب على أمره تقدم هذا الماكر اللعين لخطبة بنت خصومه وتزوج منها وهكذا استولى على الأرض بالزواج حين عجز عن الاستيلاء عليها بالقضاء ، ومنذ أن ماتت زوجته الثانية أم ايبين وهو يتصرف فى ميراثها كأنه ملك له ويستخدم ايبين صاحب الحق فى كل شىء واستخدامه لأجير يعمل لبطنه ٠٠ والآن ؟ ٠٠٠ الآن سيؤول الحقل والدار والمال المدخر الى هذه البغى الجديدة آبى ، التى يسمونها زوجته ، فهى لا شك بغى لأنها ترضى وهى امرأة فى الخامسة والثلاثين أن تبيع نفسها لشيخ فان فى السادسة والسبعين لتستولى هى على املاكه بعد وفاته ٠

كلا ٠٠٠ ان ايبين لن يرحل الى الغرب ولكنه سيبقى ليستخلص جميع حقوقه من أبيه ومن هذه المرأة الدخيلة

وسوف تعينه روح آمه فى مثواها ويعـود اليهـا الهـدوء والسلام ٠

وايبين يعرف أين كانت آمه تخبىء المال المدخر ، وهو في الحقيقة ماله ، فلا ضير عليه ان هو استولى عليه فى غيبة أبيه ٠ ويعرض ايبين على أخويه أن يزود كلا منهما بثلاثمائة دولار تعينه في رحلته الى الغرب ان هو وقع تنازلا عن كل حقوقه فى الدار وفى الحقل ٠ ويقبل سميون وبيتر هـذا العـرض وتنـازل كل عن نصيبه فى تركة لا رجاء منهـا ، وينطلقان في الصباح الباكر فى طريقهما الى كاليفورنيـا للبحث عن الذهب ، ويبقى ايبين وحده فى الدار ليـواجه أباه وأمه الجديدة المستقبل الغامض الذى ينذر بشر مستطير ٠

ولكن العجوز أفرايم كابوت يصل ومعه عروسه الشابة الى الدار قبـل أن يرحل عنها سميون وبيتر ، فقـد كان كل منهما يجمع أشـياءه ويعـد عدته حتى أدركهمـا الصباح العريض ، وتتلفت آبى حولها وتجيل البصر فرحة فى الدار وما (حولها) كأنها عثرت على كنز وتصيح قائلة :

آبى : ان البيت جميل ! نعم جميل ! لا أصدق أنه بيتى حقيقة !

كابوت : (بحدة) بيتك ؟ انه بيتى (يحدق فيها ببصر نافذ ، فتحدق فيه ببصر نافذ ، فيمضى قائلا وقد رق لهـا قلبه) : فلنقل انه بيتنا ٠

لقـد سـادته الوحشـة أطول مما يجب وجاء الـربيع فأحسست بالشيخوخة ، لابد للبيت من امرأة ٠

آبى : (فى صوت يسـوده التملك) ولابد للمرأة من بيت !

ويقع بصرهما على سميون وبيتر عنـد باب الحـديقة وينهرهما كابوت لأنهما لم يخرجا للعمل مع بزوغ الفجر ٠

سميون (بخشونة) : انتظرنا لنرحب بك عند عودتك انت وعروسك الجديدة ٠

كابوت (مضطربا) : صحيح ؟ هذه أمكما الجديدة ٠

سميون : (يتحول عنها ويبصق باحتقار) انى أراها !

بيتر : (يبصق أيضا) وأنا أراها ٠

وينصح الولدان أباهما أن يؤوى زوجته الجديدة فى حظيرة الخنازير فهذا مكانها ٠ انهما الآن يتنفسان نسيم الحرية ، وهما يسخران من أبيهما الهرم ومن زوجته الشابة سخرية مرة يصعق لها آفرايم كابوت ، وهكذا ينطلق سميون وبيتر الى الرحاب الواسعة بعد أن حطما أغلال الاستعباد ، ويقذفان النوافذ الزجاجية بالأحجار قبل انصرافهما ، وهما يغنيان الأغنية المعروفة « آه يا كاليفورنيا ، أنت أرض مناى ! » أما آبى فلا تهتز لهذا الاستقبال السيىء ٠ فقد كانت تتوقع شيئا من هذا القبيل ، بل هى تسر لرحيل سميون وبيتر عن الدار الى الأبد ، وتعد أنها كسبت نصف المعركة ٠ ولم يبق الا ايبين فان عرفت كيف تروضه أو تتخلص منه خلا لها الجو وأصبحت سيدة البيت بالمعنى الكامل ٠

وحين تلتقى بايبين يوسعها اهانة وغلظة ويكون بينهما شجار عاصف فهو يعيرها بأنها بغى باعت نفسها لشيخ فان من أجل المال ، وهو يلعنها لأنها احتلت مكانا ليس مكانها بل مكان أمه التى تحيا ذكراها فى كل شىء بالدار ويجوس شبحها خلال جنباته ٠

وتعلم آبى أن ايبين ليس كأخويه غليظ النفس خشن الطباع ، فهو قد ورث عن أمه رقتها وضعفها ، واذا كان ايبين يضيق بها الآن ويغلظ لها القول فلعلها مستطيعة بما أوتيت من دهاء أن تروضه وأن تجعل منه صديقا لها ٠

وما ان تخلو آبى بايبين حتى تحاول أن تستدر عطفه فتقص عليه أشياء عن فقرها وفقر آلها وقسوة الحياة عليها ، فلولا قسوة الحياة عليها لما تزوجت من شيخ على حافة القبر

كأفرايم كابوت ، ويثور ايبين في وجهها ويهددها أنه سيبلغ أباه قولها انها ما تزوجته الا لماله ، فتتنمر له آبى قائلة انها ستكذبه وتكيل له أشنع الاتهامات ، ثم تعود آبى الى نعومتها الأولى ، بل وتستخدم مع ايبين ما حبتها به الطبيعة من دلال الأنثى واغرائها فتمسك بذراعه قائلة : انها تأمل أن تكون صديقة له وأن يكون صديقا لها • ويضعف أمامها ايبين مسحورا بجمالها فيجيب بالايجاب • ولكنه لا يلبث أن ينزع ذراعه من قبضتها غاضبا وهو يصيح « كلا ، كلا ، أيتها الساحرة اللعينة ! انى أمقتك ! » ويتولى عنها فى هياج شديد وقد أعماه الغضب •

وتكون حرب خاطفة مدمرة بين ايبين وآبى فهذه الزوجة الشابة تشتهى ابن زوجها اشتهاء مدمرا خالطه جشعها ورغبتها فى أن تلعب به وبأبيه لتكون هى سيدة البيت فيؤول اليها كل شىء • ويشتهى ايبين هذه الساحرة اللعينة اشتهاء مدمرا ، ولكنه يمقتها فى الوقت نفسه من صميم فؤاده ، وهى تعلم بحالها وبحاله ، أما هو فيصدها عنه آنا صدا عنيفا ويضعف أمامها آنا ضعفا صريحا •

وذات يوم قائظ من أيام الأحد تتصدى آبى لايبين وهى فى أحسن زينة تحت شجرة الدردار وتوحى له أن يكسر الحائل القائم بينهما وأن ينساق معها فى الحب المحرم فهى تقول له انه يحبها وانه يغالب طبيعته ، ولكنه هيهات له أن ينتصر على طبيعته وتهمس له فى اغراء •

« ألا ترى الشمس قوية ؟ انك تحس بنارها تلهب الأرض وتضرم جسد الطبيعة ، فتنمو بها الأشياء ، وتزداد نموا • انها تضطرم فى أحشائك وتجعلك تشتاق الى النمو فتصير الى شىء آخر حتى تتحد مع هذا الشىء وتمتلكه فاذا به ملك لك • ولكنك تصبح ملكا له كذلك ، انها تجعلك تنمو نمو الشجرة • تنمو كشجر الدردار هذا الواقف أمامنا •• ان الطبيعة ستقهرك يا ايبين فمن الخير لك أن تعترف بالهزيمة منذ الآن •

وينسى ايبين نفسه لحظات ويندفع نحوها كالمشدود بمغناطيس في سحرها ، ولكنه لا يلبث أن يثوب الى رشده ، فيبتعد عنها وهو يندد برغبتها في خيانة زوجها واستغفاله قائلا في تحد : « لا • لا • اني سأحاربه ، وسأحاربك • سأحاربكما حتى أستخلص حقوق أمي في هذا البيت •• »

ويهم بالمضى عنها فتستوقفه ، ان اليوم يوم الأحد وهو ماض الى القرية ، ولكن آبى لا يروقها أن يمضى ايبين الى القرية ، وهي تعيره بصاحبته البغى مينى التى يعودها كلما مضى الى القرية ، أما ايبين فيجيبها ساخرا ان البغى مينى أشرف منها ألف مرة لأنها لا تدعى العفة ، ولا تستتر في زى الزوجة الطاهرة ولا تلقى كل هذه الأحابيل لتستولى على حقله ومتاعه » •

وفيما هما يتشاجران على هذا النحو ، يأتى كابوت العجوز ويستفسر فيم الصياح ، وينصرف ايبين وتنكر آبى أن في الأمر شيئا • وتبدو الدماثة والرضا على وجه العجوز على غير عادته • ان أفرايم كابوت قد انتابه تطور منذ زواجه فهو الآن أقل تصلبا وقسوة مما كان في الماضى ، وهو يتحدث كثيرا عن شيخوخته في استسلام ليس من خلقه ، ويفكر في قرب وفاته كأنه أدى رسالته في الحياة ، بل هو يتحدث في عطف ليس من شيمته على ولده ايبين الذى لم يرحل كأخويه الجاحدين بل بقى الى جواره ••• حتى تثور الغيرة في قلب آبى ، ويتبادر الى ذهنها أنه قد يترك له الميراث كله ، وتقول :

آبى : اذن فأنت تفكر في أن تترك له الحقل ؟

كابوت : (ذاهلا) أترك الحقل •• ؟ (غاضبا في عناد) أنا لن أترك الحقل لأحد !

آبى : (ميتة الشعور) انك لن تأخذه معك الى الآخرة •

كابوت : (يفكر لحظة ثم يقول على الرغم منه) صحيح أننى لن آخذه معى (بعد صمت وشعور غريب) ولكنى

أقسم بالله لو كان فى امكانى أن آخذه معى لأخذته ولو استطعت ساعة منيتى أن أضرم فيه النار وأتأمله وهو يحترق لفعلت ٠

نعم لو استطاع العجوز كابوت أن يدمر كل شىء حتى لا يتمتع أحد بثمرة كده وكدحه طول حياته لفعل ، الا الأبقار ، فقد كان كابوت يحب أبقاره وسيطلقها لتسعى حرة بعد موته ، وتغضب آبى لذلك وتتأكد فى نفسها مخاوفها فتتحامل على ايبين وتكيد له عند أبيه قائلة ، انه فاسد الخلق يعاشر البغى مينى ولا يرعى حرمة ليوم الأحد ، بل تدعى أن ايبين يغازلها وحين تثور ثائرة كابوت يفكر فى قتله ويبدأ فى البحث عن بندقيته تعود آبى فتطمئنه قائلة ان ايبين يهزل معها لا أكثر ولا أقل ٠ ويهدد كابوت بطرد ايبين من مزرعته ، ولكن آبى تتمسك به قائلة ان الحقل بحاجة الى ذراعه القوية ، ومن العقل أن ينتظر كابوت حتى تنجب هى له غلاما يكبر ويقوم مقامه ٠

وحين يسمع الشيخ ذكر الغلام تلمع عيناه زهوا ويستخفه الطرب وتقول الزوجة الماكرة انها تصلى لله صباح مساء ليرزقها بغلام ٠ وتأخذ كابوت النشوة فيقسم لزوجته أنه سيجيبها الى كل ما تطلب أن هى جاءته بغلام ٠ وهل لآبى الا مطلب واحد ، وهو أن يوصى لها بحقله بعد موته ؟

ألم يزل كابوت قويا رغم سنينه الكثيرة وهو أخشن من أبنائه الذين أفسدتهم الراحة ، انه تعلم الصلابة فى مدرسة الحياة القاسية ، فليس محالا أن ينجب غلاما فى هذه السن الطاعنة ٠ وما قيمة الزوجة بغير غلام ؟ ٠ ان آبى لن تنال منه شيئا الا اذا أنجبت له غلاما من صلبه يرى نفسه فيه ويستمر به بقاؤه على وجه الأرض ٠ وتعده آبى بذلك فيعجب كابوت لوثوقها من شىء فى علم الغيب ، ويحدجها بنظرة فاحصة ، فهو لا ينسى رغم صلابته أن عظمه قد وهن وأن صلابته صلابة مارد هرم لا يريد أن يموت ، أما آبى فتقول ان الله

سيستجيب لصلاتها ، وهنا يطمئن قلب هذا العجوز المؤمن بالله وقدرته .

ولكن فى نفس آبى شيئا آخر غير الصلاة لله فهى تفكر فى ايبين تفكيرا آثما . انها تحب هذا الفتى النافر المليء بالعواطف المتناقضة ، ولسوف تحاصره حتى يستسلم . ويكون لها ما تريد ، فهى تخلو بايبين بعد عودته من القرية، وتضرم جسده بالنار بالاغراء الصريح وتقبله فينسى نفسه ويقبلها ولكنه يعود الى صوابه فينهرها ولا تترك آبى ايبين الا بعد أن تحس أنه قد غلب على أمره . وهى تقول انها تنتظره فى حجرة الاستقبال المغلقة منذ ماتت فيها أمه . نعم، ان آبى قد سيطرت على كل ما فى الدار الا هذه الحجرة المغلقة وقد قررت أن تفتحها وأن تطرد منها شبح أم ايبين كذلك . وتبع ايبين آبى الى هذه الحجرة مضطرب النفس ، تتصارع فيه الخواطر ويحس بروح أمه تتحرك فى الحجرة فيستنجد بها لكى تلهمه الصواب ، وتقول آبى انها تحبه حب الأم لولدها وحب العاشقة لعاشقها . ويقول ايبين ان أمه تمقتها لأنها احتلت مكانها ، فتقول آبى بل ان أمه تحبها لأنها تعلم أنها تحب ايبين ، وأنها تحيا فيها كما تحيا فيه ، ويتملك ايبين شعور غريب جارف : ان هذا الحب الآثم هو شر انتقام لأمه من أبيه الذى سلبها مالها وقتلها بالقسوة والاذلال ، وانه لمنتقم لأمه من أبيه حتى تهدأ روحها الهائمة، ويستسلم ايبين لهذا الحب الآثم ، ويفرج لآبى عن كل ما به من عواطف مكبوتة وشهوات حبيسة فى مرجل الجسد .

ولأول مرة يستيقظ ايبين فى الصباح الباكر قبل أبيه، ويحس بأنه سيد هذا البيت الملعون ، ويعنف أباه على كسله وقعوده عن الخروج الى الحقل مع الشروق .

وفى الربيع تلد آبى غلاما ، وبعد أسبوعين تنقه تماما ويقيم كابوت حفلا بهيا راقصا فى الدار ليحتفى بمولوده ، وتجرى الراح أنهارا ويستقبل كابوت وآبى أهل الجيرة من نساء ورجال ، وهما فى سعادة لا توصف ، أما الضيوف

فيتغامزون ويسخرون منها بمعوج الكلام ، تلميحا يوشك أن يكون تصريحا ـ فأهل الجيرة على علم بما يجرى فى دار كابوت ، ويدلل لهم كابوت على قوته فيرقص رقصة سريعة طويلة يتعب منها لاعب الكمان ولا يتعب هو ، ولكن كابوت رغم مرحه الشديد ومباهاته بقوته يساوره احساس غامض ينقبض له صدره كأنه هم خفى يتساقط من شجر الدردار ، وينساب فى نفسه ويستقر فيها فلا يجلوه رقص ولا تبدده الأنغام .

والكل يسأل عن ايبين فى ضحك وتغامز وايبين معتكف فى حجرته ويزجر كابوت ايبين لامتناعه عن المشاركة فى الاحتفال قائلا ان أمثاله من الشبان يتعرفون على عرائسهم فى أمثال هذه الحفلات ، ان ايبين قد نضج للزواج ، ولعله يجد بين بنات الجيرة من يتزوجها فتأتيه بحقل يستقر فيه ، وهنا يثور ايبين حين يتذكر أن أباه ما تزوج أمه الا ليستولى على مزرعتها .

ان ايبين ليس بحاجة الى حقل لأن عنده حقله ، وهو هذا الحقل الذى تركته أمه وكدح فيه طول حياته ، ويثور كابوت قائلا ان الحقل سيؤول للوليد الجديد ، فقد عاهدته آبى أن تنجب له غلاما وعاهد آبى أن يوصى لها بالحقل ان هى أنجبت له غلاما . بل ان الوقت قد حان ليرحل ايبين عن الدار فبقاؤه فيها غير مرغوب فيه ، فآبى قد قالت له انه يغازلها ولولاها لقتل كابوت ايبين منذ شهور . أما الآن فلم تعد به اليه حاجة . فالحقل حقل آبى وابنها ولايبين عرض الطريق .

ويغلى الدم فى رأس ايبين ، ويهم بالمضى لقتل هذه المخادعة التى تتجر بالحب لتستولى على الحقل ويتصدى كابوت لايبين ليحول دون خروجه ويشتبك الأب والابن فى صراع فظيع ، ويقبض كابوت على حلق ايبين بيد من حديد حتى يوشك أن يخنقه . وتبلغ الجلبة مسامع آبى فتخف اليهما وتفصل بينهما .

ويمضي كايوت الى ضيوفه • أما ايبين فيعزم على الرحيل • لقد أدرك حقيقة الموقف ، ان هذه البغي قد فعلت كل هذا لتستولى على الحقل عن طريق ابنها بعد أن عجزت عن امتلاكه بشخصها ، ولكن ايبين لن ينصرف حتى يطلع أباه على الحقيقة ، وهكذا يتركه في جحيم لا يطاق بين زوجه زانية وابن سفاح •

ويطير لب آبى حين تعلم بعزمه على الرحيل • انها تحب ايبين حبا مدمرا ولا تطيق الحياة بدونه ، انها تعترف أنها بدات باغوائه لتستولى على الحقل ، ولكنها الآن تحبه بكل كيانها ، وقد استولى عليها ايبين ، فان أراد أن يستولى على الحقل كذلك فهو له ان كل ما تطلبه هو أن يبقى ايبين الى جوارها ، واذا كان هذا الوليد الشقى هو الحائل بينهما فانها ستقتل وليدها لتثبت لايبين أنها قد أمست تحبه لذاته وأن حبها له يتجاوز حبها لأعز شيء في الوجود ، ويرق لها قلب ايبين ، وفى غمرة الحنان يوافق على البقاء •

وفى اعجاز الليل تنهض آبى الى فراش طفلها وتزهق أنفاسه بالوسادة ، ثم تركع الى جوار الفراش فيما يشبه البحران •

وعند الفجر تنطلق آبى الى ايبين وقد تملكتها الهستريا قائلة انها قتلته ، ويحسب ايبين أول الأمر أنها قتلت اباه فلا يحفل بهذا النبأ • ان رأيه قد استقر أثناء الليل على الرحيل الى الغرب •• الى كاليفورنيا وقد أعد حقيبته • انه لن يطلع أباه على الحقيقة وسيترك روح أمه لتثأر منهما ، ولكنه حين يعلم أن آبى قد قتلت طفلها وطفله يجمد الدم فى عروقه ويتهافت جاثيا على ركبتيه صائحا : « يا الهى ! يا الهى ! أين كنت يا أماه لماذا لم تمنعيها يا أماه ! » ويخفى ايبين وجهه فى راحتيه ، ثم ينتابه هياج فظيع ، وينطلق الى القرية ليبلغ الشرطة بهذه الجريمة النكراء •

ويستيقظ كابوت فى الضحى وقد نام نوما هادئا لأول

مرة فى حياته ، ويمضى الى الطفل ليهش له ويلاعبه ، وحين يعرف الحقيقة ينتابه الذهول ، ثم يجن جنونه ، ويهم بقتل آبى ، ولكن آبى بعد أن قتلت فلذة كبدها فى لحظة جنون لم تعد تكترث لشىء فى الوجود ، وتصرخ آبى فى وجه زوجها العجوز أن يغرب عن وجهها • ان الطفل ليس ابنه ، بل ابن حبيبها ايبين ، ويا ليتها قتلت هذا العجوز الأبله بدلا من ان تقتل طفلها ، وتنتحب آبى انتحابا مريرا ما له آخر •

ويعود ايبين من القرية عدوا قبل أن يصل رجال الشرطة • انه قلب الأمور على كل وجه ، وهو يرى أنه شريك لآبى فى هذه الجريمة الفاجعة ، انه شريكها فى الحب الاثم، وشريكها فى قتل ولده ، أو لم يوافقها على التخلص من ولده حين عرضت عليه ذلك أثناء الليل لتستبقيه ؟ انه قد عجل اليها قبل أن يصل الشرطة ليهرب معها الى الغرب حيث يبدآن حياة جديدة ولكن آبى تستمع اليه فى هدوء وحنان عميق، كلا • انها لن ترحل الى الغرب ، ولن تبدأ حياة جديدة ، انها قتلت ولدها ولابد أن تدفع ثمن هذه الجريمة المنكرة ، انها ستنتظر الشرطة وتكفر بدمها عما جنت يداها •

والى جوارها يقف ايبين ليحمل نصيبه فى القصاص انهما يتناجيان الآن بنجوى المحبين فى وضح النهار ، لا يرهبان شيئا حتى الموت •

وحين تأتى الشرطة يمضى العجوز كابوت الى حقله وأبقاره ولكنه لا يخرج كعادته للحرث والحصد ، بل يخرج ليحرق الجرن ، ويطلق الأبقار لتسعى حرة فى خلوات الله والغابات • وينطلق هو الى الغرب حيث مروج الذهب وهو يعلم أنه لن يتمم رحلته بل يتطلع الى السماء الضاحكة حيث مروج الذهب لا ينضب لها معين •

ولا يبقى فى الدار الا روح أم ايبين تتنقل فى جنباتها وتزمزم فى حفيف الدردار •• لها الدار والحقل وكل ما اغتصبه منها الأحياء •

وبعد طول رحيل ...
الليل يرخي سدوله

للكاتب الأمريكي : يوجين أونيل

كان يوجين أونيل الى يوم وفاته عام ١٩٥٣ عن خمسة وستين عاما دعامة من أكبر دعامات المسرح الحديث وقد برز بوجه خاص في انشاء المآسي ، ومن النقاد من بعده ملك التراجيديا في فترة ما بين الحربين ، وقد كلل انتاجه المسرحي بأعظم تكريم يمكن أن يظفر به كاتب معاصر ففاز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٣٦ ، وهي جائزة لا تمنح الا لأدباء الطراز الأول الذين استقرت مكانتهم في الأدب العالمي ، واعترف الخاص والعام بأن آثارهم من الشوامخ التي لا يأكلها الدهر أو يبليها تغير الأذواق والمقاييس .

وأهم مسرحيات هذا الكاتب العظيم ، « الامبراطور جونز » ١٩٢١ و « آنا كريستي » ١٩٢٢ و « كل أطفال الله لهم أجنحة » ١٩٢٢ و « الشهوة تحت الدردار » ١٩٢٥ و « الحداد يناسب أليكترا » ١٩٤١ الخ .. وتمثل مآسي يوجين أونيل في كل مكان فلا يكاد يخلو موسم من مواسم المسرح في أية حاضرة من حواضر العالم المتحضر من عرض لمسرحية أو أكثر من مسرحياته .

وهذه المأساة التي نلخصها ليست من أروع ما كتب وليست آخر ما كتب ولكنها آخر ما نشر له ، فقد أخرجتها

مطبعة جامعة ييل ١٩٥٦ بعـد آن ظلت مخطوطا منـذ أن وضعها عام ١٩٤٠ ولم يقدم صاحبها على نشرها أثناء حياته لأنها تصور جانبا فاجعا من جوانب حياته الخاصة بين زوجه وبنيه ، فهى بمثابة حلقة فى سيرة يوجين أونيل نفسه نقراها أو نراها على المسرح فنأسى لهذا الكاتب الممزق الذى يعيش فى أسرة لا نعرف لها وصفا ، فنقول انها أسرة ملعونة تطارد أفرادها أشـباح غريبـة ويختلط فيهم الحب والأنانيـة والشذوذ فهى اذن حلقة مقفلة أطبقت عليه لا مخرج له منها الا بالنهاية الفاجعة ، والحيـاة فى هـذه الأسرة أشبه شىء برحلة طويلة فى نهار طويل لا ينتهى الا بعد آن يرخى الليل سدوله ، لأنها لا تنتهى بالموت ، كما ينتهى النهـار بالليـل بل تنتهى بالجنون ٠

ويوجين أونيل أمريكى من أصل ايرلندى ولهذا فهـذه الأسرة التى يطلعنا على حيـاتها أسرة ايرلنـدية استوطنت أمريكا ٠ وهذه حقيقة لا سبيل الى اغفالها ، فالأيرلنديون قوم لهم خصائصهم وعقـائدهم التى لا ينزلون عنهـا مهما باعدت الأيام بينهم وبين وطنهم أيرلندا ومهما طالت السنون وتعاقبت الأجيال ٠ فهم كاثوليك متمسكون بالكثلكة الى حد التعصب وهم يرون أيرلندا فى كل شىء : يرونها فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وأحلامهم وأخذهم لكل أمر من الأمور ، وهم قوم طباعهم حامية يغلى دمهم ويفور لأقل استثارة ، وهم قوم أصحاب نكتة مريرة قاسية وخيال خصب ملىء بالهواجس الفاجعة السـوداء وبالمعتقـدات التى اختلط فيهـا المنطق الصارم بشعر الأساطير ، وهم الى جانب كل هذا وذاك قوم يقبلون على الشراب ٠

كل هـذه الخصـائص والصفات نجدها مجسدة فى آل تيرون ، وآل تيرون هم أفراد هذه الأسرة التى يصفها لنـا يوجين أونيل وما وصف الا نفسه وذويه ، مع شىء قليل من التصرف الذى يقتضيه الفن ويرضاه الخيال ٠

وآل تيرون أربعة هم جيمس تيرون الأب وهو ممثل فى

الخامسة والستين من عمره قوى البنيان عريض الصدر جهير الصوت جميله ، وزوجه مارى تيرون وهى امراة فى الخامسة والخمسين من عمرها تميل الى السمنة قليــلا ولا يزال لهــا جمالها ، ولكن آثار السنين تجلت على وجهها أكبر مما تجلت على وجه زوجها ، وهى عصبية تغالب طـول الوقت لتخفى اضطرابها العصبى ، ثم الابن الأكبر وهو جيمى تيرون وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره وهو رجل قوى البنية كســول متلاف يحترف التمثيل كأبيه ولكن على كره منــه لأنه يؤثر البطالة والشراب وارتياد النساء الفاسدات على العمل ويعيش نصف عامه على أبيه وأخوه أدموند وهو فى الرابعة والعشرين وهو شاب مصدور ناحل ضعيف البنية ينخر السل فى جسده دون أن يعلم حتى تتكشــف أعراضــه فيعرض نفسه عــلى الطبيب ٠

ونحن نقيم بين أفراد هذه الأسرة يوما كاملا ، فندخل الحجرة الرئيسية بدار آل تيرون فى الصــباح الباكر حيث يستيقظون ويجتمعون بعدالفطور ثم حين يجتمعون بعدالغداء ثم حين يجتمعون مرة ثالثة فى المساء ثم لا نتركهم الا بعد منتصف الليل ، فعندئذ ينسدل الستار الاخير على هذه الأسرة القلقة المضطربة ٠

وتبــدو مارى فى هــذا الصباح أحسن صــحة وأهدأ أعصابا من أى وقت مضى فيقبل عليها زوجهــا فى حــدب وحنان قائلا : « ان هذا الخجل من آثار الوهم يا مارى ٠ ان كنت قد تأملتك فما ذلك الا لأعجب بامتلاء جسمك وبجمالك البهى (وهنا يهتز صوته بشعور عميق) أنا لا أستطيع أن أصــف لك مبلغ ســعادتى ٠ يا حبيبتى حين أراك تحتفظين بصحتك كما كنت يوم عــدت الينا فى حالتك الطبيعية مرة أخرى ٠

وبعــد أن يفرغ الــولدان جيمى وأدموند من تنــاول طعــامهما ينضمان الى والديهما وهما يتضاحــكان ٠ وحين يستفسر تيرون الأب عن سر هذا المرح الشديد يروى عليــه

أدموند طرفا من أنواع الشحان التى تجرى بين أهل الجيرة ·
فهنالك المزارع الماكر الأيرلندى الأصل شونسى الذى يأكل حقوق الناس ويدأب فى شكواه لعله يستطيع أن يخفض ايجار الأرض التى أجرها لها تيرون الأب ، بل ولا يدفع ايجار الأرض الا حين يهدده تيرون باستصدار أمر الاخلاء ·

وهنـاك المليونير هاركر صـديق تيرون الذى يستثمر ملايينه فى شركة استاندارد أويل ، وقد نشب بين الرجلين عراك لأن خنازير شونسى قد كسرت السياج الحاجز بين حقله وضيعة هاركر وذهبت تستحم فى بركة هاركر المغطاة بالجليد فى الصيف بالتبريد وقد أكد خولى هاركر لهاركر أن شونسى كسر السياج عمدا حتى تغتسل خنازيره مجانا ·

أما شونسى فقد قصد الى الحان وشرب كأسين ليتشـجع وهنالك واجه المليونير هاركز وسبه واتهمه بأنه أوعز الى الخولى الذى يعمل فى ضيعته أن يكسر السياج عمدا ليجتذب خنازيره الى بركته المغطاة بالجليد ليهلكها ، وقد هلك منهـا فعلا عدد عظيم بعد أن أصيب بالالتهاب الرئوى ثم نفق ، وقد رفع شونسى دعوى على هاركر مطالبـا بالتعويض عما أصابه من أضرار ·

أدموند : وقلت لشونسى انه كان ينبغى عليه أن يذكر هاركر بأن من كان مليونيرا مساهما فى اسـتاندارد أويل وجب عليه أن يرحب بطعم الخنازير فى مائه المثلج فهـذا يناسب الحال ·

تيرون : أقلت ذلك بحق الشيطان ! (عابسا) لا تزج بعواطفك الاشتراكية الفوضوية فى شئونى !

ويعنف تيرون ولده المريض أدموند عـلى هذه الفكاهة التى لا يرى لها موضعا فهو لا يحب أن يشتبك فى القضايا التى يرفعها الناس على الناس ، فينصرف أدموند الى غرفتـه ممتعضا وقد أخذه السعال ، وتأخذ مارى الشفقة بولدها فتقول :

ماری : لا تعتب عـلى أدموند يا جيمس وتذكـره أنه مريض • ان سعال الصيف يجعل أى انسان متوتر الأعصاب•

جيمی : (فی قلق حقيقی) ان ما به ليس مجرد سعال ، فالولد مريض جدا (يحدجه أبوه بنظرة حادة محذرة ولكنه لا يلحظها) •

ماری : (تثور عليه) ولم تقول ذلك ؟ ان سـعاله من سعال البرد وهـذا واضح لكل من يراه أنت دائما فريسـة للأوهام •

تيرون : (يحدجه بنظرة أخرى محذرا ويقول ببساطة) ان كل ما قصد اليه جيمى هو أن أدموند قد يدون به شىء من داء آخر أيضا مما يجعل البرد عنده حادا •

جيمى : نعم يا أماه • هذا كل ما قصدت اليه •

وهكذا يجتهد تيرون وجيمى لاخفاء الحقيقة عن ماری• وما الحقيقة ؟ ان أدموند مصاب بذات الرئة ، ولكن هذا لم يتأكد بعد فالدكتور هاردى طبيب الأسرة مشتبه فى أمره • وما أن تخـرج ماری حتى يدور هـذا الحديث بين تيرون وجيمى :

تيرون : انه لا يسـتطيع أن يقطـع بشىء حتى الآن ، وسيتصل بى اليوم تليفونيا قبل أن يذهب اليه ادموند •

جيمى : (فى بطء) انه يعتقد أنه مسلول أليس هـذا اعتقاده يا أبى ؟

تيرون : (على كره منه) قال ربما كان ذلك •

جيمى : (متأثرا وقد هاجه حبه لأخيه) مسكين هـذا الولد لعنة الله عـلى هـذا (يهاجم أباه متهما اياه) لو انك أرسلته الى طبيب حقيقى حين بدت عليه علته لما حدث هذا•

تيرون : وما عيب هاردى ؟ لقد كان طبيبنا دائما •

جيمى : ان به كل العيوب ! وحتى فى هذه المدينةالتافهة

يعــده الناس فى الطبقة الثالثة بين الأطبـاء • انه دجال عجوز رخيص !

تيرون : استمر ! شنع به ! شنع بالجميع ! الجميع عندك دجالون !

جيمى : (باحتقار) ان هاردى لا يتقاضى الا دولارا واحدا وهذا ما يجعلك تظن أنه طبيب عظيم !

ويحتدم الشجار بين تيرون وجيمى • ان تيرون يدعى الفقر فكل أملاكه مرهونة ، ولكنها فى الواقع مرهونة لان يشترى باستمرار أرضـا جديدة بدلا من الـوفاء بديونه القديمة ، وهو أكبر الملاك فى المنطقة كلها ، فهو المســئول عن مرض أدموند لبخله الشديد • أما تيرون فيقول مهتاجا ان المسئول عن علة أدموند هو جيمى نفسه لأنه ولد فاسـد قضى كل شبابه فى العربدة ولا يزال ينفق كل سنت يكسبه على الويسكى وعلى العاهرات • وقد ضرب اسوا مثل لاخيـه الصغير أدموند الذى تشبه به فى سوء السلوك ، وجيمى بطل قوى لا تؤثر العربدة فى صحته أما أدموند فوا أسفاه ، فهو فتى ضعيف البنيان حطمت العربدة حياته وقد طرد جيمى من المدرسة لسوء سلوكه ثم طرد ادموند من المدرسة لســوء سلوكه أيضا • وها هو ذا جيمى الآن يعيش عالة على أبيه ولا يمكث فى عمل من الأعمال الا شهورا ثم يضيق به ويعود الى ذويه مؤثرا حياة البطالة والشراب •

وسواء كان تيرون هو المسئول عن انهيار صحة أدموند لفرط بخله أو كان جيمى هو المسئول عن ذلك بسبب لياليه الحمراء ، فان هذه لم تكن المشــكلة الوحيدة فى حيـاة آل تيرون ، بل كانت هناك مشكلة أخرى لا تقل عنها خطرا هى مشكلة الأم مارى ، فكما أن ولدها أدموند صاحب علة فهى أيضا صاحبة علة من نوع آخر ، وأهم ما فى الموضوع الان أن يكتم الجميع عنها هذا النبأ حتى لا تثقل عليها ، فتنهـار انهيارا تاما ، ولا سيما أنها تعلم أن آباها الذى كانت تحبه وتجله الى حد العبادة قد مات مصدورا ، ثم ان الطب قد تقدم

تقدما عظيما ، فلا بأس اليوم من النجاة من داء السل ، ولكن كيف السبيل الى اقناع مارى بكل هـذا اذا كانت خـرافات الأيرلنديين البسطاء التى تملأ رأسـها تقـول ان السل داء لا شفاء منه ولا نجاة ؟ والوقع أن جيمى أكثر أفراد الأسرة قلقا على مارى لأنه يعرف شيئا لا يعرفه أحد سواه ، فلقـد رآها فى الليلة السابقة تنهض فى الهزيع الأخير من الليـل وتدخل حجرة أدموند لتطمئن على صحته بعد أن اشتد عليها السعال ، ثم رآها تتوارى فى حجـرة النوم المهجـورة التى لا يدخلها أحد لأنها مخصصة للضيوف ، وجيمى يخشى أن تكون أمه قد عادت الى سيرتها الأولى بعد أن ظن الجميع أنها قد شفيت منها تماما · وقد أثار هذه الهواجس فى نفسـه علمه أنها كانت قبل شفائها من دائها تتوارى دائما فى هذه الحجرة المنعزلة المهجورة ، ولقد تلصص عليها جيمى طـول الليل وادعى النوم ولكنه كان فى الواقع يسـترق السـمع ليحصى عليها خطواتها ·

ولكن لعل هواجس جيمى فى غير محلها ، فالكل يعلم أن مارى قد شفيت تماما من دائها ومن حق الأم أن تقلق عـلى ولدها فتنهض أثناء الليل لتطمئن على صحته ·

جيمى : (متألما) كفى اتهاما قلت لك انى كنت مخطئا تماما · ألا تعتقد أنى لا أقل عنك ابتهاجا بشفائها !

تيرون : (بلين) لا شك عندى فى هذا يا جيمى (يسكت ثم يشيع الحزن فى محياه ، ويتكلم ببطء وهو يتطير خوفا) ان قلقها على أدموند لو تجدد لكان كاللعنة التى لا سبيل الى النجاة منها ، فلقد عرفت هذا الداء للمرة الأولى أيام مرضها الطويل ، بعد أن ولدت أدموند ··

جيمى : لم يكن الذنب ذنبها ·

تيرون : أنا لا ألومها ·

جيمى : (بلهجة لاذعة) اذن من تلوم ؟ أتلوم أدموند لأنه ولد ؟

تيرون : أيها الأحمق اللعين لا ذنب لأحد فى هذا ٠

جيمى : بل الذنب ذنب ذلك الطبيب ابن الزنا ! لقد قالت امى انه كان دجالا رخيصا من طراز هاردى ، وقد رفضت أن تدعو طبيبا من كبار الأطباء ٠

تيرون : أنت كاذب (هائجا) أنت اذن تلومنى ٠ أهذا ما تقصد اليه أيها العاطل المسموم التفكير !

ولكنهما يكفان عن الشحان لأن مارى تقبل عليهما من بعيد ٠

نعم : لقد كانت هذه مأساة مارى فقد أصيبت بمرض طويل فظيع حين أنجبت أدموند ، وكان الطبيب يسكن آلامها المبرحة بالمورفين ٠ وقد شفيت من مرضها ولكنها أصيبت بهذا الداء الوبيل الذى عصف بحياتها عصفا وأودى بعقلها زمنا فنقلت الى المصحة حيث أقامت حتى تم شفاؤها وارتد اليها عقلها ، وها هى ذى قد عادت الى زوجها وبنيها وقد برئت من علتها ، ولكن يبدو أن كل شىء فى حياتها قد غدا معلقا بشعرة ٠

ان كل من فى الدار يتجسس عليها من فرط القلق خشية أن ترتد الى تناول هذا المخدر ٠ بل ان كل من فى الدار يتناوب حراستها فلا تخلو الدار من أحدهم أبدا كأنهم على اتفاق سابق حتى يبقى الى جوارها دائما من يرصد حركاتها ويحول دون عودتها الى سيرتها الأولى ، وتحتج مارى على فقدان الثقة فيها ، ولكن آل تيرون يتظاهرون أمامها بأن ثقتهم فيها لا تحد ، وينكرون انكارا تاما أنهم يتجسسون عليها ٠ أو يحولون دون انفرادها بنفسها ، وتقسم مارى بشرفها بأنها لن تعود الى عادتها الأولى ، وأنها لن تكسر الوعد الذى أعطت ، ولكن آل تيرون يعرفون قيمة هذه الوعود وهذه الأقسام فلا يلقون اليها بالا ٠

أما مارى فقد كان لها عالمها الخاص الذى تعيش فيه ٠ فهى حقا لا تلقى الا كل حب وحنان من زوجها ، وهى حقا

تجد السعادة بين ولديها لكن قل من يعلم أنها تعيش فى دارها عيشة الغرباء • ولقد قضت كل هذه السنين الطويلة منذ زواجها فى عزلة روحية تامة عن زوجها هذا الذى لم يفهمها أبدا ولم تفهمه أبدا رغم ما بينهما من حب أكيد ومودة لا شك فيها ، انها عاشت هذه السنين الطويلة كالغريبة بغير دار تقيم مع زوجها الممثل الناجح البخيل فى أرخص الفنادق وتنتقل من فندق الى فندق •

بل وتنجب الولد فى الفنادق ، لا تزور أحدا ولا يزورها أحد ، فتيرون لا يألف حياة الأسرة بالمعنى الذى يفهمه جميع الناس ، وهى لا تألف حياة المسرح رغم أن زوجها يقضى عامة وقته بين المسارح ولقد جنبها تيرون حقا عنتا شديدا فهو لا يدخل بيوت الممثلين ولا يدخل الممثلين بيته ، بل يلتقى بهم اما فى دور التمثيل واما فى الحانات ، وقد كان لها فى هذا بعض العزاء ، فهى لا تفهم هؤلاء القوم العجيبين ولا تحب أن تفهمهم • فقد نبتت فى أسرة محافظة وربيت تربية دينية بين الراهبات ، وأرادت لها أمها أن تدخل الدير ، لولا أنها التقت بجيمس تيرون فأحبته وأحبها وانتهى أمرهما الى الزواج •

ولقد رأت من بخل تيرون شيئا كثيرا وهى التى لم تتعود من أبيها الا السخاء الذى لا سخاء بعده ، فتيرون قابض يده على عنقه لا يبسطها مهما أنعم الله عليه بالمال والخيرات ، فهو مكتف من كل شىء بأرخص ما يجده منه ، وكل دولار يخرج من جيبه بمثابة قطعة من لحمه تقتطع اقتطاعا ، ولو علمت أن بخله على نفسه وعليها وعلى بنيها مرض عضال من أمراض النفس لغض ذلك من حبها له بل وليئست من الحياة فقد كانت مارى تعلم أن زوجها يحبها أعظم الحب ويسعى الى ارضائها بكل سبيل ولكن حرصه على الدرهم كان يعمى بصيرته فيجعله يأتى ما يؤذى شعورها دون وعى منه ، فحين هداه الله الى شراء هذا البيت المريض تخير أنجس بقعة وأنجس بناء وأنجس أثاث رغم وفرة ماله ، وحين أراد أن

يهديها سيارة ابتاع لها سيارة مستعملة تخجل من الظهور فيها أمام أهل الجيرة ·

وولداها جيمى وأدمـوند ؟ انهما يسرفان فى الشراب كمـا يسرف أبوهما ويرتادان الحـانات بلا انقطاع حيث يجتمعان بالصحاب والسمار ، ولكنهما على نقيض أبيهما فهما لا يعرفان للمال قيمة ولا يقدران للعمـل ضرورة ويرتعان بين النساء والفاسدات حتى لقـد ساءت سـمعتهما ولم يعد هناك فى المدينة رجل يحترم نفسه يقبل أن يدخلهما داره أو أن يخالط أحدهما بنتا له ، ولـكم أحزن مارى أن يصـير ولداها الى هذا المصير ، فلقد كانت تؤثر لهما أن يعيشا عيشة نظيفة ، وأن يتأهلا وأن يصيبا من السعادة ما لم تصبه هى فى حياتها ·

وها هو ذا أدموند آخر العنقود وفلذة كبدها يصـاب بذات الرئة ويسير سيرا أكيدا الى النهاية المحققة ، ان كل من بالدار يعلم هذه الحقيقة ولا سيما بعد أن يجىء الدكتور هاردى بالخبر اليقين ، ولكن كل من بالدار يتكلف الجلد ويتجمل بالصبر ·

وحين تعلم مارى أن ولدها أدموند ماض الى المصـحة ترفض رفضا باتا أن تصدق انه مصدور ، ولكنها تهتز فى دخيلة نفسها لهذه الحقيقة ، فهى تعلم أن هذه هى الحقيقة رغم مكابرتهـا ، وتنفرد مارى بنفسـها وتخلو الى أفكارها المشوشة التى اختلط فيها الحاضر بالماضى ·

وحين تعود الى الغرفة حيث اجتمع الجميع نحو منتصف الليل وهم فى سـكر شـديد تعزف لحظة عـلى البيانو بعض فالسات شوبان ثم تقف فى المدخل فاذا بها فى قميص النوم وقد ارتدت فوقه ازارا أزرق من زرقة السـماء ، ولبست خفيها الأنيقتين وقد اتسعت عيناها وشحب وجهها ، ولكنـه برغم شحوبه قد بدا آية فى الصفاء والشباب ، وقد اختفت منه التجاعيد فعادت كما كانت قبل زواجهـا بنتـا بريئـة ساذجة تبتسم ابتسامة تفيض بالحياء ، وقد تدلت ضفيرتاها

على صدرها وحملت على ذراعها ثوب زفافها الأبيض القديم الموشى بالدانتلا ٠

وتقف مارى برهة شاردة اللب ترتسم الحيرة على محياها كأنها قد جاءت تبحث عن شيء فلا تجده او لعلها نسيت ما قد جاءت فى سبيله ٠ وترمق الجميع بنظرتهـا التى ترى كل شيء ولكنها لا تميز شـيئا ويحملق فيهـا الجميع عاجبين ٠ ويرتفع صوت جيمى قائلا :

جيمى : منظر المجنونة فى مسرحيـة هاملت : تدخـل أوفيليا !

ويغضب تيرون وأدموند لهذه الاهانة التى وجهها هذا المخمور الى أمه المسكينة فيسبانه ويسـكتانه ، ويخيم عـلى الجميع صمت عميق فى انتظار ما ستقوله مارى فتقول :

مارى : انى أعـزفَ الآن عزفا رديئا فقـد كففت عن التمرين وسوف تؤنبنى الأخت « الراهبة » تيريزا قائلة انى أظلم أبى الذى يضيع هذا المال على دروس الموسيقى الاضافية التى أتلقاها ، والأخت تيريزا على حق فيما تقول ، فهذا ظلم منى لأبى الذى يسخو معى كل هذا السخاء ، ويباهى بى كل هذه المباهاة ٠ وسوف أواصل التمرين على البيانو كل يـوم من الآن فصـاعدا ولـكن يدى قد نزل بهما عطب شـديد فأصابعى قد فقدت مرونتها ٠

ويعلم الجميع أنهـا تهـذى ٠ ثـوب الزفاف ! الأخت تيريزا ! دروس البيانو ! لقد ارتدت الى أيام عذارتها أيام كانت تأخـذ العلم والدين وكل شيء عن الراهبات ويقترب منها أدموند فى حيرة كأنه غلام صغير ويمسـك بذراعهـا ، انها لا تصدقه حين يقول انه مصاب بذات الرئة وتنهاه عن الرحيل ويضرع اليها أدموند قائلا :

أدموند : أماه ! ان ما بى ليس برد الصيف ! ٠٠ انه السل يا أماه ٠

وتنفذ كلماته فى قلبها فترتجف لها ويبدو الذعر على محياها وتصيح قائلة : (لا !) ولكن سرعان ما تعود الى شرودها فتتوه فى بيد من الأحلام وتتمتم قائلة فى حنان : « اياك أن تلمسنى ، اياك أن تمسكنى فليس هذا صوابا حين أحاول أن أكون راهبة » ٠

نعم : ان أدموند لم يعد ولدها بل أمسى أمامها (رجلا) تجفل منه خفرا ان مسها جفول العذراء البتول ٠

وتعود مارى الى كلامها وقد سطع فى وجهها بريق من بريق الشباب !

مارى : لقد تحدثت مع الأم (الراهبة) اليزابيث ٠ يا لها من امرأة وديعة مفطورة على الخير ٠ انها قديسه تمشى على الأرض ، وأنا أحبها من كل قلبى وقد يكون ما أقول خطيئة ولكنى أحبها أكثر مما أحب امى لأنها تفهم كل شىء بل تفهم قبل أن ينطق الانسان بكلمة ٠ ان عينيها الزرقاوين الرحيمتين تنفذان فى القلب نفاذا فلا سبيل الى كتمان سر من الأسرار عنها ، ولا سبيل الى خداعها ، حتى ولو سولت لانسان نفسه الخبيثة أن يخدعها « تهز رأسها هزا خفيفا فى تحد من تحدى البنات وكبريائهن » ومع ذلك فلست أحسب أنها فهمتنى هذه المرة ٠ لقد أخبرتها انى أريد أن أكون راهبة ، وأوضحت لها ثقتى من صدق استعدادى لأداء هذه الرسالة وذكرت لها أنى صليت للعذراء المباركة أن تثبت يقينى وأن تجعلنى أهلا لذلك ٠ قلت للأم اليزابيث انى قد تجلت لى رؤيا صادقة عندما كنت أصلى فى محراب نوتر دام دى لرود فى الجزيرة الصغيرة الواقعة فى البحيرة ٠ قلت انى واثقة وباركتنى حين استجابت لرجائى ثقتى من أنى كنت أركع أمامها هنالك ! ولكن الأم اليزابيث قالت لى انه لابد من استزادتى من هذا الوثوق ، بل قالت انه يجب أن أثبت أن ما رأيت لم يكن مجرد هواجس من نسج الخيال ، قالت : لو أنى كنت واثقة كل هذا الوثوق فلن يضيرنى أن أضع نفسى موضع التجربة بأن أعود الى أسرتى بعد تخرجى وأن أعيش

كما تعيش سائر الفتيات فأشترك فى الحفلات وفى الرقص وفى الاستمتاع بالحياة ، فان أحسست بعد انقضاء عام أو عامين بما أحس به الآن من صـــدق رغبتى فى الخلـوص للعبادة ، فان فى استطاعتى العودة لزيارتها والتحدث اليهـا فى هذا الموضوع مرة أخرى . (تهز رأسها فى غضب) أنا ما تصورت أبدا أن أمى الروحية يمكن أن تتقدم الى بهـذه النصيحة ! ولقد صدمت حقا فى قرارة نفسى . قلت طبعـا انى سأعمل أى شىء تنصحنى به ، ولكننى كنت أعلم أن هذا مضيعة للوقت لا شك فى ذلك . وحين تركتها اختلطت الأمور فى عقلى فقصدت الى المحراب وصليت للعذراء المباركة فعادت الى قلبى السكينة من جديد لأنى علمت أنها استمعت لصلاتى وأنها ستحبنى دائما أبدا ولن ترضى بأن يمسنى سوء ما دمت أقيم على ايمانى بها .. (تتوقف عن الكلام وتعلو وجهها امارات القلق المتزايد . وتمر بيدها على جبينها كأنها تمسح عن عقلها العناكب وتسترسل فى ذكرياتها الغامضة) .

لقد حدث هذا فى الشتاء الذى كنت أدرس فيه للبكالوريا ثم حدث لى شىء فى الربيع . نعم لقـد أحببت جيمى تيرون وكنت أسعد السعداء فترة من الزمن . (تحملق فى الفضاء وكأنها فى حلم أليم . ويتحرك تيرون فى مقعده أما أدموند وجيمى فيظلان بلا حراك) .

وهكذا يسدل الستار عـلى هـذه الفاجعـة . لقد عادت مارى الى تناول المورفين لتسكن آلامها الكثيرة الدفينة ، وقد تناولت جرعة كبيرة أودت بعقلها وردتها الى ربيع الحياة .

أما حياتها الزوجية المديدة فقد بدت لها كحلم غريب مضطرب بعـالم غـريب مضطرب لم تدخله آبدا بل وقفت دائما على أعتابه . وقد تلاشى هذا العالم من ذاكرتها كمـا تتلاشى الأحلام المضطربة فى السبات المظلم العميق .

العـــاقر

للشاعر الاسبانى جارثيا لوركا

نحن فى اسبانيا وكأننا فى ريف مصر ، بين الفـلاحين والفلاحات ، حيث الأمومة هى عماد الحياة ولا عماد للحياة الا الأمومة . والمرأة العاقر شـقية كالأرض الجـدباء التى لا ينفع فيها رى ولا يفيد فيها بذار .

نحن فى اسـبانيا وكأننـا فى ريف مصر حيث ينبت الأولاد فى الأرحام كما تنبت أعواد القصب وأعـواد الذرة وسنابل القمح من رحم الأرض الخصيبة الولود .

فمن عقرت أو عقمت أو جف ضرعها نظر الناس اليهـا شزرا ونظرت الى الناس شزرا ولغط من حولها اللاغطون ، وقيل ركبتها الأرواح النجسة أو حقت عليها لعنة من الله .

والأولياء هم الأولياء ، والقديسـون هم القديسـون ، وفى كل عام تخرج اليهم العاقرات فى طلب المعجزة .

هذه مأساة « يرما » أو « الجـدباء » التى نظمهـا لنا الشاعر الاسبانى المعاصر « فريديريكو جارثيا لوركا » عام ١٩٣٤ فى شعر تمثيلى من ثلاثة فصول ، وصـور لنا فيهـا مأساة فلاحة عاقر تمزقت نفسها بين الوفاء لزوجها والحنين للأمومة ، فخلد بها جانبا من حياة الريف الاسبانى واستخرج

لنا من مكنونات النفس الانسانية ما تذهل له النساء قبل الرجال ٠

●●●

يرما بنت فلاحة فى قرية من قرى اسبانيا تعيش مع زوجها الفلاح خوان ، وعليهما ترفرف السعادة بجناحيها فلا ترى بينهما الا المودة والتعاطف ، ولا تسمع فى دارهما الا عبارات الحدب والحنان ٠ وتنقضى الشهور الطوال قصارا ، ويرما الراضية لا تزال راضية ولكن شيئا واحدا يجثم فى خاطرها ويشغل بالها ، فهى برغم مرور هذه الشهور الطوال لم تحمل من زوجها ولم تنعم بعد بحقها فى الأمومة ٠

وتراودها الأحلام والرؤى ، فيخيل اليها وهى نائمة قبيل الفجر أنها ترى راعيا من رعاة القرية يدب الى حجرتها على أطراف قدميه وفى صحبته طفل بهى يرفل فى ثوب أبيض ناصع البياض ، ثم ينصرف هذا الراعى وقد تبلج الصباح وانتشرت فى الجو روائح الربيع ، وتستيقظ يرما من وهمها ، فلا ترى الا زوجها خوان قد تأهب للخروج الى حقله ٠

وتنادى يرما زوجها ليشرب كوبا من اللبن قبل أن ينطلق الى عمله ، فهو بحاجة الى التغذية ، وهو يجهد نفسه فى العمل اجهادا يفوق طاقته ، حتى غدا نحيلا شاحب الوجه شحوبا فظيعا ، ولكن خوان يطمئن يرما قائلا ان هذه عادة الرجال ، كلما تقدمت بهم السن وضمرت أجسادهم غدت قوتهم من قوة الفولاذ ٠ ثم ان قلقها عليه لا مبرر له ، فهو بخير ، وهو سعيد معها وهى سعيدة معه ، وزراعته ناجحة مثمرة ، وبيتهما يرفرف عليه الهدوء فليس لهما أطفال يجلبون عليهم القلق والانزعاج وهنا تقول يرما :

يرما : نعم ٠٠ نحن بلا ولد يا خوان !

خوان : وهل فى هذا ضير ؟

يرما : ألست أحبك ؟

خوان : نعم ، أنت تحبينني ·

يرما : أنا أعرف بناتا ارتجفن وبكين ليلة العرس قبل أن يدخلن على أزواجهن · فهل بكيت آنا حين دخلت عليك أول مرة ؟ ألم أغن وأنا أقلب غطاء الفراش وأقول : هذا الغطاء له رائحة التفاح ؟

خوان : بلى ، هذا ما قلتيه ·

يرما : ان أمي بكت لأنى لم أكن آسفة على فراقها · وهذا صحيح ، فما من امرأة استقبلت الزواج فى سعادة مثل سعادتى · ومع ذلك ··

خوان : صمتا ! فشديد على نفسى أن آسمع طول الوقت أنى ···

ويرما تقصد أن تقول انها لم تكن يوم تزوجت بنتا غريرة ساذجة تخشى الرجال ، بل كانت فتاة ناضجة تعرف أسرار الزواج ، وها قد مضى على زواجها عامان بغير ثمرة · ترى ما الخطب ؟ انها تسمع الناس يتحدثون عن زوجها قائلين انه رجل عقيم ، لا يستطيع أن ينجب الولد ، ولكن يرما لا تصدق كلام الناس · وتعتقد أن الغيث لابد أن ينبت النبت ولو سقط على أرض من صخور · انما الأمر أمر وقت وانتظار ·

وهكذا تقبل يرما على خوان وتقبله فى دلال ، مودعة اياه قبل أن يمضى الى الحقول ·

وحين ينصرف خوان ، تجلس يرما الى تطريزها وتذهب تغنى أغنية المرأة المشتاقة الى الأمومة ·

يرما : من أين تأتى يا حبيبى ، يا وليدى ؟
قال : « من ثلوج الجبال الباردة » ·
والام تحتاج يا حبيبى ، يا وليدى ؟
قال : « احتاج الى طيات ثوبك الدافئة » ·

فلترتعش الأغصان فى ضياء الشمس .
ولتتفجر من حولنا الينابيع ! ..
سأقول لك يا طفلاه ،
أجل من أجلك سأتمزق وأتصدع، فما أشد أوجاع رحمى
هذا الذى سيكون مهادك الأول !
فمتى تجىء يا غلام ، متى تجىء ؟
فلترتعش الأغصان فى ضياء الشمس .
ولتتفجر من حولنا الينابيع !

وفيما هى تغنى تقبل عليها جارة من جاراتها هى ماريا ، وقد عادت من السوق حاملة شيئا من الصوف الملون والدنتلا وبعض الشرائط الحريرية ، وتعلم منها يرما أنها تنتظر الحادث السعيد فهى تعد لهذا الشىء عدته . وتنظر اليها يرما فى اعجاب شديد فهى قد حملت ولم ينقض على زواجها خمسة شهور . وماريا رغم سعادتها بهذه الأمومة المنتظرة جفلى تخامرها المشاعر المختلطة . فهى تحس بالجنين فى أحشائها وكأنه « طائر سجين ينتفض فى قبضة يدها » ، وتقول ان زوجها « طفق يحدثها عنه فى ليلة الزفاف وفمه لاصق بخدها ، حتى ليخيل اليها أن طفلها حمامة من نار أطلقها فى جسدها من خلال أذنها » .

وتعزى ماريا يرما عن حالها ، فهى الوحيدة التى لم تنجب ولدا من بين بنات القرية اللواتى تزوجن معها وتعزى يرما نفسها بقولها انه ينبغى عليها أن تصطبر، فلعل المستقبل يجيئها بغلام . وتضرب على ذلك الأمثال ، فجارتها هيلينا ظلت ثلاث سنوات قبل أن تعقب نسلا ، وقد سمعت بأخريات ظللن عاقرات الأعوام والأعوام بل ان لماريا عمة لم تنجب الا بعد أربعة عشر عاما من زواجها . ولكن يرما رغم هذا العلم كثيرا ما تترك نفسها نهبا للهواجس ، وتخرج فى ظلام الليل حافية تمشى على الثرى لعل هذا يزيل عقمها ، وهى تعلم أنها لو مضت فى هذه الأفعال لانتهى أمرها الى السقوط .

وتحدث ماريا يرما عن مخاوفها ، فهى تسمع من النساء أن البنين مجلبة للشقاء ولكن يرما تهدىء من روعها قائلة : « هذا كذب صريح · ولا تقول هذا الا الأمهات الضعيفات الشاكيات · والا فلماذا تنجب الأمهات البنين ؟ ان النسل ليس باقة من الأزهار، فلابد أن تشقى الأمهات ليرين أبناءهن ينمون ويشبون ·· وفى كل امرأة دم يكفى أربعة أطفال أو خمسة ان لم تنجبهم تحول دمها الى سم يأكلها أكلا » · ولسوف يكون هذا مآلها ان لم تنجب ولدا ·

وحين تنصرف ماريا يأتى فتى من أهل الجيرة يدعى فكتور ، وهو صديق للأسرة يرعى الغنم ولا يلقى الى الدنيا بالا ، وهو يتفجر بالرجولة والشباب دون أن تكون فيه خفة لاهية أو عبث الفتيان · بل على العكس من ذلك يتصف بالحزم والوقار ويسأل فكتور عن خوان ليحدثه فى أمر غنمه فيعلم أنه فى حقله · وحين يقع بصره على المرايل التى تخيطها يرما يحسب أنها تنتظر مولودا فيبتسم ويعبر لها عن سروره ، فلما تبلغه يرما أن المولود مولود ماريا يجيبها قائلا : « سلى زوجك أن يقل من التفكير فى عمله · فهو يطلب جمع المال وسوف يجمعه ، ولكن لمن سيترك هذا المال حين يموت ؟ » ثم ينصرف فيكتور عنها · مبتسما بعد أن يوصيها بأن تحاول جادة لتنجب نسلا ·

وحين يمضى فكتور تجد يرما نفسها وحيدة فتعود الى غنائها الحزين المشوق الى الأمومة · ثم تقف حيث كان فكتور يقف وتتنفس ملء رئتيها كأنما تريد ان تستنشق جو الرجولة الذى كان ينبعث منه ، فقد كان بينها وبين فكتور حب قديم مكتوم ، ولكنها غالبت هذا الحب حين تزوجت من خوان وكانت له نعم الزوج الوفية ·

●●●

ويمر عام آخر ويرما لا تزال جدباء لا يخصب لها رحم ولا يسيل لها ضرع ·

وتخرج ذات يوم الى الحقل حاملة سلة فيها طعام زوجها • وتلتقي في طريقها بامرأة عجوز تحمل الطعام الى زوجها العجوز كذلك • ولا حديث بين المرآتين الا عن الأبناء ، وتقول العجوز ليرما انها تزوجت مرتين ، وأنجبت من الزيجتين أربعة عشر ولدا ، مات منهم خمسة وبقى تسعة كلهم ذكور وكلهم يخرج الى الحقل ، وهى لهذا برغم تقدمها فى العمر لا تزال تخرج وحدها بالطعام الى الحقل •

وتستفهم يرما من هذه المرأة الولود عن سبب عقمها انها على استعداد أن تأخذ بمشورتها في كل شيء لو أنها دلتها على طريقة تنجب بها الولد •

أما العجوز فهى لا تعلم للعقم سببا ولا للخصوبة سببا ، وكل ما تعلمه أنها تستلقى فى فراشها فيأتيها الأولاد فى يسر يسير • وتسأل العجوز يرما عن حالها مع زوجها ، فتعلم منها أنها لا تشتهى زوجها اشتهاء المرأة للرجل ، فهى ما أحست قط بهذا الاحساس الا مع الراعى فكتور الذى رقصت معه ذات مرة فأخذتها رعشة شديدة حين دنا منها ، وحملها مرة فى صباها ليعبر بها مخاضة فارتعدت بين ذراعيه حتى اصطكت أسنانها • أما زوجها فهى تحبه حبا من نوع آخر ، وهى سعيدة معه كل السعادة برغم أنها لا تحمل له هذا الحب الخافق الدافق • ان آباها هو الذى اختاره لها زوجا ، فقبلته وهى تفكر منذ اللحظة الأولى فى أن زواجها منه سيثمر البنين والبنات ، ولكنها مع ذلك تحس أنها ليست زوجته بل ابنته •

ان يرما فى حيرة عظيمة من أمرها ، فهذه العجوز تقول ان المرأة لا تثمر الا اذا أحبت زوجها بالجسد أولا وقبل كل شيء ، فلا غرابة اذن أن تكون يرما عاقرا جدباء • وهذه العجوز توشك أن تلقى اليها أن تبحث عن الحب مع غير زوجها اذا لم تكن تجد فى زوجها ما تشتهيه اشتهاء المرأة للرجل • وهى تستمطر لعنات السماء على أولئك الرجال الجدب الذين يؤتيهم الله نساء كالحقول الخصيبة • فاذا بهذه

الحقول برك من الأوحال • ولكن العجوز تمسك عن التصريح بأفكارها ليرما حتى لا تقودها فى طريق الغواية • وتمضى العجوز الى حال سبيلها وقد بلبلت خواطر يرما بما ألقت اليها من تلميحات • ولكن يرما الوفية المستمسكة بشرفها وشرف أسرتها لا تلبث أن تطرد عنها كل هذه الهواجس ، وتتبين أنه ليس أمامها الا سبيل واحد هو سبيل الشرف والوفاء وانتظار النعمة من الله •

وتلتقى يرما فى طريقها ببنت من بنات القرية عاقر مثلها ولكنها راضية بجدبها ، فهى تعتقد أن الحياة أجمل وأهدأ بغير نسل • وهى قد تزوجت من فلاح بالقرية لا لأنها أرادت ذلك ، بل لأن أمها ألحت عليها فى الزواج منه ولا يمضها الآن الا أمها التى لا تجد وسيلة الا توصلت بها لتجعل بنتها امرأة مخصبة • فهى لا تكف عن اعطائها الأعشاب المختلفة لتشفيها من عقمها وهى ترتب لها فى شهر أكتوبر حجا الى ضريح قديس من أولئك القديسين الذين يطرحون البركة فى أرحام النساء •

انها بنت المرأة العجوز دولوريس التى تسكن فى أطراف القرية ودارها فى قمة التل • وقد اشتهرت دولوريس هذه بأنها تشفى النساء العاقرات بالتمائم والاعشاب ، فاذا أحبت يرما أن تزورها فى هذا الأمر • فهذا من شأنها وحدها • أما البنت فهى ماضية الى زوجها فى حقله تحمل اليه طعامه ، ولكم كانت تود أن تكون ماضية الى عشيق لها ، فهى تضيق بالزواج والأزواج ، وهى تعتقد أن الزواج سخافة من سخافات العجائز اخترعوها ليفسدوا الحياة على الشباب •

وما أن تنصرف هذه البنت العاشقة حتى تسمع يرما صوت الراعى فكتور ينشد أغنية من أغانى الرعاة قائلا :

« لم تنام وحيدا أيها الراعى ؟

لم تنام وحيدا أيها الراعى ؟

لو نمت على لحافى الصوفى السميك
لنمت نوما أهنأ ٠
لم تنام وحيدا أيها الراعى ؟ »

فيهز صوته الشجى أعماقها ٠ وحين يلتقيان تضطرب يرما لمرآه اضطرابا شديدا ٠ ويتجلى حزنها حين يتجلى مرح فكتور الخلى الذى لا يقيم للدنيا بالا ٠ تذكر خوان الكئيب الذى لا يفهم للحياة معنى الا آن تكون السعى الى حقله وتنمية ماله ٠ ويخيل الى يرما أنها تسمع صوت طفل وليد يصرخ وكأنه يوشك آن يغرق فى جدول ، وما هذه التخيلات الا من أوهام الجسد ، فهى لا تبصر فكتور الا وتتملكها الرغبة فيه ، وطريق الغواية الآن واسع فى هذه الفلوات الرحيبة ٠

ويجفل فكتور أمام نظراتها الشاخصة ويوشك آن يمضى عنها مخافة أن تجرفهما الرغبة ، وهنا يهبط عليهما خوان ، الذى يجد فى طول غيبة يرما مدعاة للتعنيف ، ولا سيما بعد أن ينصرف فكتور ٠ وتعتذر يرما عن تأخرها بأنها كانت تستمع الى الأطيار وهى تصدح ٠ فيذكرها خوان بأن تصرفاتها هذه برغم براءتها هى التى تجعل ألسنة السوء تتهامس وتلغط من حولها ٠ ويسألها خوان آن تعود الى البيت ، قائلا :

خوان : كفى كلاما ٠ عودى الى البيت ٠
يرما : سأفعل ذلك ٠ هل أنتظرك ؟

خوان : كلا ٠ فسأشتغل بالرى طول الليل ، فالماء قليل جدا ، وهذا دورى فى الرى حتى بزوغ الشمس ، ولابد من حراسته خشية أن يسرقه اللصوص ٠ فامضى الى الفراش ونامى ٠

يرما « فى انفعال » : نعم ، سأنام ٠

وهكذا تنصرف يرما عن هذا الزوج الذى أوتى حقلين،

فأقبل على أحدهما حتى أثمر وأينع وأهمل الآخر حتى جف وأجدب ٠

●●●

وذات يوم من أيام الشتاء القارس تجتمع جماعة من غسالات القرية ، عددهن ست ، عند مجرى يتدفق على الجبل الناهض فى مشارف القرية ، ويمضين فى غسل الثياب والثرثرة فى سير الناس ٠ فنعلم منهن أن يرما تاتى بشاذ الأفعال التى عرضت سمعتها للقيل والقال ٠ فهى تجلس طول الليل على عتبة دارها برغم البرد القارس ، وهى تخرج وحدها حافية فى الطرقات وتخوض الجداول والينابيع وقد جاء خوان بأختيه العانسين ليقيما معه فى بيته ويحرسا زوجته الغريبة الأطوار حتى تمتنع عنها ألسنة السوء ٠ فقد رآها نسوة القرية تتحدث مع راع من رعاة القرية فشاع عنها أنها تتصيد هذا الرجل وأنها بحبه هائمة ، ولا تجد يرما من يدافع عنها الا واحدة من الغسالات ترى أن العيب عيب الزوج خوان لا عيب الزوجة يرما ، وتغنى الغسالات أغانى جميلة عن الأمومة وخصوبة الأرحام الا واحدة منهن تغنى أغنية حزينة عن الشقاء الذى تعيش فيه المرأة العاقر الجدباء وتقول :

« واحزناه على الزوجة الجدباء ! واحزناه على من أقفر ثدياها كما تقفر الرمال » !

●●●

وفى الدار يجلس خوان بين أختيه المتشحتين بثياب الحداد ، الجار حتى النظرات كأنهما صقران حطا فى دار يرما ولا يريدان أن يطيرا عنها ٠ ويعنف خوان أختيه لأن يرما عصت أمره وخرجت ، وهو ما استقدمهما الا ليقوما بحراستها ويمنعاها من الخروج ٠

ان خوان قد بدأ يمل هذه الحياة ٠ فعمله فى الحقول

شاق مضن ، ولكن شرفه فى البيت يقلق باله الليل والنهار • فان لم تسهر الأختان على شرفه فخير لهما أن تنصرفا •

وما شرف خوان الا شرف أختيه أيضا وشرف أسرته ، فهو اذن يطلب منهما مزيدا من اليقظة والتشدد •

وتعود يرما حاملة جرتين ملأتهما بالماء العذب من الينبوع • وتنتظر يرما من خوان أن يبقى معها فالغسق قد هبط والليل قد دهم ومكان الرجل الى جوار زوجته اذا حل المساء • ولكن خوان يقول انه لابد من المضى الى حقله • فهو قد قلم الأشجار بالأمس ، وواجبه الليلة أن يسهر على غنمه • لكل واجبه فى الحياة • وواجب المرأة أن تصون عرضها فى بيتها • ويرما تخرج من بيتها أكثر مما يليق للمرأة الفاضلة أن تخرج •

وخوان لهذا مضطرب البال ساخط لأن السعادة عنده أن تبقى الغنم فى الحظيرة والمرأة فى البيت ، وهو لا يفهم معنى لقلق يرما هذا الذى يدفعها الى التسكع فى طرقات القرية وعند الينابيع • وبين الحقول • انه لا يحرمها من شىء • فالزاد وفير فى بيتهما ، وهى لا تحتاج الى شىء الا وأرسل فى طلبه من المدينة المجاورة ان السكينة لن تعود الى قلبه الا اذا أغمض عينيه فى حقله وهو يعلم أن زوجته نائمة فى دارها •

أما يرما فهى تقضى الليالى فى سهاد ، تتقلب وحيدة فى فراشها • نعم ، انه لا ينقصها شىء فى الحياة كما يقول خوان الا شىء واحد ، وهذا هو الحياة ذاتها ، فدارها كالقبر • باردة كالقبر ، هادئة كالقبر ، ليس فيه حب ولا صبية يمرحون وقد مضت الآن على زواجهما خمس سنوات ، وهى تنام على الأشواك وتستيقظ على الأشواك • فليتركها خوان اذن لأشواكها ولينطلق الى حقله ، وهو مطمئن الى شرفه هذا الذى جاء بأختيه لتحرساه ، وهى لا تذكر أنها عصت له أمرا أو أتت ما يشينه منذ أن تزوجها • ان خوان لا يفهم أن العمل

للرجال والأطفال للنساء · فليمض اذن الى عمله وليتركها لأشواكها ·

ويسأل خوان يرما أن تقلع عن هذه الأفكار السوداء وأن ترضى بنصيبها فى الحياة والا سارت الى الجنون سيرا أكيدا · وهى تحزنه وتحزن نفسها بغير جدوى بالتفكير المستمر فى أمر لا طائل وراءه · انها تدمره تدميرا وتسمم عليه حياته وتنشر الشائعات من حوله كلما خاطبت الغرباء ناسية أنها امرأة متزوجة ·

ويمضى خوان الى الحجرة المجاورة ليتناول عشاء مع أختيه وتجلس يرما وتغنى هذه الأغنية الحزينة وكأنها تسبح فى حلم من الأحلام :

« آه ، ما أرحب حقول أحزانى !

آه فقد أغلق دونى باب الجمال ! ··

ولكن تعال الى يا وليدى الحبيب ، لابد أن تأتى ·

فمن الماء يخرج الملح ومن الأرض يخرج الثمار ·

والرحم يضمر الوليد الوديع ·

كما تضمر الغمامة الغيث الوديع » ·

وتقبل عليها ماريا وهى فى هذا الحلم الحزين تسكب الدمع فى صمت حزين ، تقبل عليها حاملة طفلها ، وتغريها عن اشجانها · وتشكو يرما لماريا أن زوجها وأختيه قد اصطلحوا عليها وأنهم يظنون بها الظنون · فيحسبون أنها عاشقة لرجل غير زوجها ، وينسون أنها امرأة عفيفة تحفظ عرضها مهما يكن من حال ، ولو كانت تعشق غير زوجها لما بدل هذا من أمرها شيئا · فهى تعرف أن الشرف هو أثمن ما فى الدنيا وأنه فوق كل شىء وقبل كل شىء ·

انها لم تعد تعرف ان كان زوجها مقيما على حبها أم انه انصرف بقلبه عنها ، ولكنها تعلم شيئا واحدا وهو أن زوجها

يظلها بسقفه ويطعمها بخبزه وأنها ستكون الوفية له ما بقيا على قيد الحياة •

ويقبل الراعي فكتور ليسلم على خوان ويرما مودعا فقد عزم على الرحيل عن القرية بعد أن دعاه أبوه الهرم ليبقى الى جواره ويرعاه • وتعلم يرما أن خوان قد اشترى منـه غنمه وسخا معه في الصفقة ، ولعله فعل ذلك ليعجل برحيله • وتنفرد يرما بفكتور لحظات • ويجالد كل منهما ما به من عاطفة جياشة حتى ينتصر على نفسه • كل شيء في مكانه وينبغي أن يبقى في مكانه ، فهذه ارادة القدر وهذه طبيعة الأشياء ولا مناص من أن يجري كل شيء في مجراه الذي خطته له يد الحياة •

ويتمنى فكتـور ليرما وزوجهـا كل سعادة وكل توفيق قائلا أن أرض خوان ستنبت حصادا وفيرا ، فتجيبه يرما ساهمة ان كل امرئ يحصد بقدر ما زرع ، وهي لا تفكر في حقل زوجها ولكن تفكر في شيء آخر •

وينطلق فكتور ومعه ينطلق خوان ليرافقه حتى مشارف القرية في الظلام ، وتتبع يرما فكتور بنظراتها لحظات ثم تتنـاول شـالها وتعتطف به ، وتنطلق وراءهما في الظلام تاركة الأختين تناديان نداء الغاضب « يرما ! » ، « يرما ! » فلا يأتيهما جواب الا أصوات بعيدة من نفير الرعاة •

لم يبق أمام يرما الا أن تلجأ الى السحر لعلها تجد فيـه ما ترتجي • وهكذا تمضي تحت جنح الليـل الى بيت المرأة العجوز دولوريس في أطراف القرية على أعلى درجات التـل الى جوار القبور ، لتأخذ عنها التعاويذ التي قد تخرجها من محنتها • وفي هذا الظلام الدامس تعلم دولوريس يرما أن تتلو صـلوات معينـة مرتين وهي تشرب شرابا ذوبت فيه أوراق الغار ، وأن تتلو صلاة القديسة آنا عند الظهـيرة ، وأن تقبل على زوجها اقبال الزوجة المحبـة لزوجهـا ، وأن تنتظر البركة من الله •

تهم يرما بالانصراف قبل أن تطلع تباشير الفجر ، واذا بزوجها يفاجئها فى بيت الساحرة وهو ينتفض غضبا ، فهى قد جعلته بمسلكها هذا مضغة فى أفواه أهل القرية • ويتهم خوان يرما بأنها تخرج فى هزيع الليل لتخونه بين المقابر وعند الساحرات وتقسم يرما على براءتها وتدافع عنها العجوز دولوريس قائلة انها ما أتت شيئا مشينا • أما خوان فلم يعد يحتمل تهامس الناس ولغطهم • بل لم يعد يحتمل صمتهم الفظيع الذى هو أشد قسوة وايلاما من التهامس واللغط • فكلما حل على قوم ستكوا سكوت الواجم أو سكوت المحرج الذى يؤثر الصمت على الكلام ، حتى الحقول ذاتها غدت صامتة والأشجار صمتت أغصانها ، فهو يستيقظ أثناء الليل فى حقله فيراها ترنو اليه ولا يسمع لها حفيفا • انه لا يفهم عم تبحث يرما حتى تجوس القرية أثناء الليل •

أما يرما فتعلم أنها تبحث عن زوجها هذا الذى ينكرها أو يوشك أن ينكرها ، تبحث عن حبه المثمر الذى به وحده تخصب وتثقل وتنجب فتعود الى نفسها السكينة ، وتقبل يرما على زوجها اقبال المرأة المشوقة لرجلها ، ولكنه يصدها عنه فى غلظة ويأمرها بأن تعود معه الى الدار • وتتهافت يرما وتسقط على الأرض وهى تصرخ : « ملعون أبى هذا الذى أورثنى دما يكفى مائة ولد • ملعون دمى هذا الذى يبحث عن البنين وسط هذا القفر الأزلى » • ويحاول خوان أن يسكتها خشية الفضيحة فتعود الى هياجها العصبى وتردد فيما يشبه الهمس : « ما أبعد الفرق بين التمنى بالعقل والتمنى بالجسد ، ملعون هذا الجسد الذى لا يستجيب لنداء العقل • محنة كتبتها على المقادير ، ولن أثور على مشيئة القدر • فليخرس اذن لسانى وليصمت صمتا بليغا ! » •

وهكذا تنصرف يرما الى دارها مع زوجها ، وهى تحس فى أعمق أعماقها أنها تدخل عالما مظلما ليس لظلمته قرار •

وتلوذ يرما بمقام ولى من الأولياء قائم على قمة جبل تقصده النساء العاقرات لتخصب أرحامهن • وتضربه

خيمتها على عربة تأوى اليها حين تطلب النوم ، وترى نسوة يحملن القرابين الى محراب هـذا القـديس ويمشين اليـه حافيات ، ومعهن تلك العجوز التي أوشكت أن تدل يرما منذ سنوات على طريق السقوط . وتسمع أغنية تقول :

« ما كنت أراك وأنت عذراء

طليقة الخيال .

أما وقد أصبحت زوجة

فلسوف أجـدك

ومن ثيابك أجردك .

أيتها الزوجة التي تحج الى المقام

حينما يرخى الليل سدوله .

وتدق الساعة منتصف الليل » .

وتسخر العجـوز من امرأة عاقر تشرب المـاء المقـدس لتحمل ببركة القديس ، قائلة لها ان مقام القديس تأتيه كل عام مئات النساء العاقرات ولكن ججيجه من الشباب الذكور فيما ترين يتزايد عاما بعد عام وها هو ذا ولدها قد جاء الى هذا المقام ، وهى تلازمه حتى لا يقتل نفسـه مع النسـاء العاقرات . وحين تسمع المرأة العاقر هذا الكلام تصلى الى الله ليغفر لهذه العجوز التي لا تؤمن بقدرة الأولياء . فتنصرف العجوز وهى تمعن في سخريتها .

وتقبل ماريا لتقول ان يرما وزوجها خوان قد جاءا الى المقام ، ولكن بعد أن طال اقناعهما بضرورة المجىء . وماريا ترى أن يرما لا شك تخفى أمرا خطيرا ، فحالها قد تبدلت وهى قد لازمت مقعدها شهرا كاملا لا تنهض منه . وتشكو المرأة العاقر لماريا أولئك الشـباب المـاجنين الرقعاء الذين يضايقون النسـوة من زائرات المقـام ، حتى لقـد مشت

الأقاويل بين الناس بفظائع الأمور ، وتقول المرأة انها رأت أربعين برميلا من براميل النبيذ مكدسة وراء المقام •

وتدخل يرما بين رتل من ست نساء ويقصدن حافيات الى المحراب وهن يحملن الشموع المزينة ، فقد هبط الليل وبدأت الصلوات ، وتجثو ماريا والباقيات مصليات •

ماريا : يارب اجعل الوردة تتفتح ، ولا تترك وردتى مهملة فى الظلام •

المرأة : وعلى جسدها المجدب اجعل الوردة الصفراء تتفتح •

ماريا : وفى رحم عبداتك أطلق لهيب الأرض الأسود• يارب اجعل الوردة تتفتح ، ولا تترك وردتى مهملة فى الظلال •

يرما : فى السماء حدائق لا ريب فى ذلك ، فيها البهجة من أشجار الورد ، وبين الوردة والورد وردة هى عجيبة العجائب • ويشرق ضياء الفجر الساطع ويقف كبير الملائكة حارسا عليها كالديدبان وقد نشر جناحيه كأنهما جناحا العاصفة وعيناه تشبهان الآلام ، بينما تسيل على أوراقها جداول من اللبن الدافىء حلوة كالشهد ، وتتراقص وتبلل وجوه النجوم الساكنة • فيارب اجعل شجرة وردك تزكو على جسدى المجدب •

استمع الى يا سميع ، أنا التائبة فى الحج المقدس ، اجعل وردتك تتفتح فى جسدى ، ولو كان فى وردتك آلاف الأشواك •

وتنهض المصليات ، وهنا يدخل رتل من البنات حاملات أكاليل الزهور ، وتعلو أصوات أطواق معلقة فيها أجراس ويظهر شخصان يلبس كل منهما قناعا أحدهما ذكر والآخر أنثى • ويلوح الذكر بقرن وتهز الأنثى • طوقا علقت به أجراس ويصيح أطفال قائلين : «الشيطان وزوجه ! الشيطان

وزوجه ! » يبدأ الجمع فى الصياح والتصفيق الرتيب وسط الرقص المجذوب وأنغام القيثار ، وبعد أن ينتهى الرقص يخرج الراقصان حاملا القناعين ويختفيان عن الأبصار ٠

وتعود العجوز الى غواية يرما التى بدا عليها الاعياء الشديد وشخصت ببصرها فى الفضاء كأنها تضمر شيئا رهيبا ٠ وتسأل العجوز يرما عن زوجها فتعلم منها أنه منهمك فى الشراب ٠٠ وتقول العجوز ان يرما عاقر لأن زوجها عقيم ، أما هى فلا عيب فيها ٠ انها تعرف خوان وتعرف أسرته ، فهم سبط ضعاف هزال لا ينجب أحد منهم ولدا الا اذا انطبقت السماء على الأرض ٠ أما هى فاخوتها وبنو عمومتها وخئولتها يملأون القرى آلى مائة ميل فى الشرق والغرب والشمال والجنوب، نعم انها لعنة ألقيت على شبابها الناضج فأذوته وأذبلته ٠

ان هذه العجوز تعلم أن النساء العاقرات لا يزرن هذا المقام الا ليجربن رجالا غير أزواجهن ، ثم يأتى القديس بالمعجزة ٠ وهى توحى ليرما بأن تهجر زوجها ، وأن تعود معها لتخالل ابنها القوى الذى سيملأ بيتها بالبنين وبالبنات أما ألسنة الناس ، فلتنطلق فيها كما تشاء ، فما يعبأ بألسنة الناس الا الضعفاء ٠

وحين تبلغ العجوز هذه المرحلة من الكلام ، تسكتها يرما قائلة انها لن تسلم جسدها الا لزوجها ، ولو عاشت عاقرا بقية أيامها ٠

وتعود يرما الى عربتها فتجد زوجها وقد اختبأ ليرصد حركاتها ويسترق السمع الى كل ما تقول ٠ وتسأله يرما أن يمضى الى حيث ينشد المنشدون ، ليشترك معهم فى الصلاة ٠ ويجيبها خوان بأنه قد سئم كل هذا الهراء ، وسئم نواحها الدائم على شىء لن يكون ٠ انها تعيش فى أوهام ٠ أما هو فهو يعيش فى الحقيقة ٠ انه لا يكترث بشىء فى الوجود

الا ما يستطيع أن يتحسسه بيديه ، وأن يراه بعينيه • أما هذه الترهات التى تعيش يرما فيهـا وتقتات عليهـا فهو لا يحفل بها • فان كانت تريد أن تعـرف الحقيقة فاليهـا الحقيقة : انها لا تنجب البنين لأنه عقيم لا لأنها عاقر • وانه لسعيد بهذا العقم كل السعادة ، فهـو يحب يرما لذاتهـا لا لنسلها •

وهنا ترى يرما كل شىء على حقيقته ان هذا الرجل قد تزوج منها وهو يعلم أنه عقيم ، تزوج منها لأنه يريد امرأة يعاشرها ويستخدمها فى طهى طعامه وترتيب بيته ، وهـو يعترف بذلك دون خجل أو حياء •

لقد قضى على شبابها ، وهو الآن يريد أن يدمر بقيـة حياتها • انه يستلقى على الأرض ويطلب اليها أن تقبله • لا أمل اذن فى الأمومة وأفراحها • وليس أمامها الا الجدب والوحدة القاتلة وليت زوجها كان حزينا من بعض حزنهـا اذن لأحست بأنه يأسى لآلامها ويتعذب لعذابها ، ولكنه سعيد كل السعادة بما جلب عليها من شقاء « جميلة أنت فى نور القمر فقبليتى ! » هكذا يقول : فتجيبـه يرما فيما يشـبه البحران : « انك تشتهينى كما تشتهى حمامة لعشائك » ثم تتملكها سورة رهيبة فتصرخ صرخة رهيبة ، وتطبق بيديها على عنق زوجها ، ولا تتركه حتى يفارق الحياة •

عربة اسمها اللذة

للكاتب الأمريكي : تنيسي وليامز

بلانش ديبوا امرأة جميلة في الثلاثين من عمرها كانت تعمل الى عهد قريب مدرسة للغة الانجليزية بمدرسة فى مدينة لوريل من أعمال الجنوب فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى تركت عملها فى ظروف غامضة وانتقلت الى مدينة نيوأورليانز الكبيرة حيث تقيم أختها استيلا ديبوا ، أو على الأصح استيلا كوفالسكى مع زوجها ستانلى كوفالسكى فى بيت حقير بحى الفقراء فى المدينة ٠

وحين تصل بلانش الى البيت تقف أمامه حاملة حقيبتها بيد وبيدها الأخرى ورقة فيها عنوان البيت ، وتبدو عليها الحيرة فينتقل بصرها مرارا من الورقة الى البيت ومن البيت الى الورقة ٠ ويبدو مظهرها شاذا فى هذا الوسط الفقير فهى على أناقة واضحة فى فستان أبيض ناصع وجوانتى أبيض وقبعة واسعة ثمينة وقد زينت صدرها بعقد من اللؤلؤ وأذنيها بقرط من اللؤلؤ ٠ وتظهر فى جمالها الهش كالفراشة حطت فى حقول غير مزهرة ٠

ولا تجد بلانش عند وصولها أحدا فى البيت الا جارة اسمها يونيس ، وتلتقى بها يونيس خارج البيت وتراها مصدومة حائرة ٠ فتسألها ان كانت قد ضلت طريقها فتجيبها بلانش قائلة : « وقالوا لى أن أركب عربة ترام اسمها اللذة»

ثم أخبر لترام آخر اسـمه الجبانات يسير بى ســت نواص ، فأصل الى شارع اسمه جنة عدن ! » وتعرف بلانش يونيس أنها فعلا فى جنة عدن • انهــا تبحث عن المنزل رقم ٦٣٢ فتقول يونيس انه أمامك • انها تبحث عن أختهــا اســتيلا ديبوا ، تقصد مسز ستانلى كوفالسكى • وهذا من غير شك بيت أختها ، ويونيس خير من يعرف ذلك لأنها تقيم معها فى هذا البيت الصغير المكون من دورين ، فهى تشغل مع زوجها ستيف الدور الأعلى بينما تشغل اسـتيلا وزوجهــا ســتانلى كوفالســكى الدور الأســفل ، وليس بينهما الا سلم داخلى يصل الطابقين •

وتفتح يونيس الباب الخارجى المشترك فتدخل بلانش وتجيل نظرها فى الشقة كالمصعوقة ، فهى لا ترى الا حجرتين تنتهيان بالحمام ، أو على الأصح حجرة واحدة تستعمل للنوم، أما الحجرة الأولى فهى تستعمل مطبخا ، وقد جهزت بسرير لتنام عليه بلانش عند وصولها • وليس بين الحجرتين باب يفصل بينهما • انها لم تألف هذه الحياة فهى قد ربيت مع أختها استيلا فى أسرة كريمة عريقة منحدرة من أصل فرنسى كانت تملك عزبة كبيرة بها دار فخمة ذات أعمــدة جميلة آثيلة يعرفهــا كل من جاورهم من ســكان المسسبى باســم « بيل ريف » • وهى لهــذا تعجب أن ترضى أختهــا استيلا بالعيش فى هذا الوسط الوضيع • كانت تحسب أن أختهــا استيلا منذ أن غادرت « بيل ريف » لســنوات خلت لتشــق طريقها فى الحياة ، قد تزوجت برجل من طبقتها •

وترحب يونيس ببــلانش قائلة طالما ســمعت ســتيلا تتحدث عنها وعن عزبتهما بيل ريف ودارهما ذات الأعمدة فتصرفها بلانش قائلة انها مرهقة وتحب أن تخلو بنفسها • وتنطلق يونيس الى مكان ليس ببعيد لتبلغ استيلا وزوجهــا بمجىء بلانش فتقبل عــلى المطبخ باحثــة عن شىء تشربه ، وتجد زجاجة الويسكى فتصب لنفسها كوبا تشربه ثم تغسل الكوب فى عناية ثم تجلس بجوار المائدة •

وبعد حين قليل تعود استيلا الى بيتها ، وهي امرأة هادئة تصغر أختهـا بخمس سـنوات وتحملق كل من الآختين في الأخرى لحظة ثم تنهض بلانش وتعانق أختها وهي تصيح في عصبية شديدة • « استيلا ! استيلا ! » ••• يا طفلتي المسكينة ! » انهما لم يلتقيا منذ سنوات عديدة • وتمضي بلانش ترثي لحالها ولحظها القاسي الذي قذف بهـا لتعيش في هذا المكان الوضيع • ولا تكف بلانش لحظة عن الكلام ، ثم تعجب لصمت استيلا ، فتذكرها استيلا في هدوء بأنهـا لا تدع لها فرصة للكلام • ثم تؤكد لها أنها على غير ما تعتقد تحب زوجها راضية بحياتها •

وتفسر بلانش سبب مجيئها بقولها ان الارهاق أخـذ منها كل مأخذ حتى انهارت أعصابها وأوشكت تجن فنصحها المشرف على المدرسة بأن تأخذ أجازة تستجم فيها •

وتعرف بلانش أنها ستنام في المطبخ وتلاحظ أنه ليس هناك باب يفصلها عن حجرة نوم أختها ، فتقول استيلا ان زوجها ستانلي بولندي ، والبولنديون كالايرلنديين لا يخجلون بسهولة • وتعرف بلانش أن سـتانلي يجتمع أكثر الليـالي بأصحابه ليلعبوا الورق في البيت ، فتقول انها جاءت بثياب جميلة كثيرة لتبدو في أحسن زينة أمام أصحابها • ولـكن اسـتيلا تجيب بأن بلانش لن تسر كثيرا برؤية أصـحاب زوجها ، فهم نماذج من غير من ألفت أن تراهم في بيل ريف فهي لن تحتاج الى كل هذه الأناقة بينهم •

وتقول بلانش لأختها أن بيت بيل ريف قد ضاع ، فتبدو الدهشة والاستياء على وجه استيلا • ولـكن بلانش تدافع عن نفسها قائلة ان استيلا لا يجوز لها أن تبدي كل هذا الجزع على دار كانت هي أول من هجرها • وبعد أن تركت استيلا بيل ريف وقع كل العبء عـلى كاهـل بلانش التي جاهدت ما أمكنها ذلك لتحتفظ بميراث الأسرة ولتحافظ على تقاليد الأسرة • ان استيلا لا تعرف أن بلانش كابدت وشقيت في بيل ريف وتحملت العبء كله فهي التي دفنت أباها وأمهـا

ثم أختها مرجريت ثم عمتها جسى . كلهم ذهبوا .. الواحد بعد الآخر ، وكانت هى ، بلانش ، الى جوارهم وهم يحتضرون . انها استيلا لم تسمعهم وهم يصرخون متشبثين بالحياة : « لا تتركينى أموت . لا تتركينى أموت . » حتى العجائز منهم كانوا يتشبثون بالحياة . أما استيلا فقد كانت بعيدة كل البعد عن كل ذلك . لقد كانت حقا تأتى بانتظام لحضور الجنازات ولكن الجنازات شىء هادىء يجلله الصمت وتكثر فيه باقات الزهور . واذا كانت استيلا لا تعرف فيجب أن تعرف أن الموت يكلف مالا كثيرا . ومن أين تأتى بلانش بكل هذا المال . لم يكن بد اذن من الاستدانة . وقد ضاع البيت وفاء لهذه الديون الكثيرة . ان استيلا تلومها على ضياع بيل ريف ، وهى التى كانت تنعم بأطيب الأوقات فى أحضان زوجها البولندى بينما كانت بلانش تواجه حقائق الحياة والموت فى شجاعة .

وتبكى استيلا من قسوة هذا الكلام وتدخل الحمام لتجفف دموعها وتغسل وجهها فى هذه الأثناء يقبل ستانلى كوفالسكى ومعه جاره ستيف وصديقه ميتش فتتوارى بلانش فى حجرة النوم ، وتسمع الرجال الثلاثة يتواعدون على لعب البوكر فى المساء التالى . وتسمع ميتش يقول انه يفضل ألا يكون ذلك فى منزله لأن أمه العجوز مريضة جدا وهذا يزعجها فيقول ستانلى : اذن فلنلعب فى بيتى بشرط أن تأتوا ومعكم البيرة . ثم يصعد ستيف الى الدور الأعلى حيث يقيم وينصرف ميتش .. وهنا تخرج بلانش وتعرف ستانلى كوفالسكى بنفسها . وتنظر اليه لحظة فتجده رجلا متوسط الطول متين البنيان ، تبدو الحيوانية الشرهة فى كل قسماته والغلظة فى كل حركاته والسوقية فى كل كلماته .

ولا يلبث ستانلى أن يقول لبلانش ان العرق يجعل قميصه يلتصق بجسمه ، ويخلع قميصه أمامها دون تحرج . ويبحث عن زجاجة الويسكى ويلاحظ ما بها من نقص فيقول هازئا ان الويسكى يتبخر بسرعة فى أيام الصيف . ثم يسأل

بلانش عن حياتها الخاصة . انه سمع من أختها أنها كانت متزوجة في يوم من الأيام . فتضطرب بلانش ويصيبها دوار شديد وتجيبه قائلة : نعم .. كان هذا منذ زمن بعيد ، حين كانت في السابعة عشرة . ويلحف ستانلي في السؤال : وماذا حدث ؟ فتجيبه في اعياء : ان الفتى الذى تزوجته .. قد مات . ثم تسقط برأسها على ذراعها وتغيب في ذهول . فينصرف ستانلي للنوم .

وفي مساء اليوم التالي تخبر استيلا زوجها ستانلي أنها ستخرج بأختها بلانش للنزهة ليخلو البيت له ولأصدقائه فليلعبوا البوكر كما يحبون ، وأن بلانش الآن تأخذ حماما ساخنا في الصيف لتهدىء أعصابها الثائرة . وتبلغ استيلا زوجها أن دار بيل ريف ضاعت ، وهي لا تعرف كيف ضاعت ولكنها تعتقد أنها ضاعت وفاء للديون . وترجو استيلا ستانلي أن يحسن معاملة أختها فلا ينسى أن يطري جمالها ومظهرها حين يراها فهي بنت مرهفة الحس . وهي قد صدمت لأنها لم تكن تنتظر أن تجدهما في هذا البيت الصغير الفقير ، فهي لم تألف هذا النوع من الحياة . نعم . يجب أن يظهر ستانلي اعجابه بأناقة بلانش لأنها تهتم كثيرا بجمال المظهر .

ويختصر ستانلي الطريق ويقول في غلظة : كل هذا حسن . ولكن كيف ضاعت بيل ريف . وترجوه استيلا أن يرجىء الحديث في هذا الموضوع حتى تسترد بلانش هدوءها وصحتها . ويعود ستانلي الى جفافه فيقول : أين عقد البيع . أريد أن ألقى عليه نظرة . فتجيب استيلا أن بلانش لم تعرض عليها أوراقا . ويصر ستانلي على فحص الأوراق . وحين تقول استيلا أنها تثق في أختها وأنها لا تكترث بالأوراق ، يقول ستانلي في خشونة : هل سمعت بشىء اسمه قوانين نابوليون ؟ اذا كنت لا تعرفين فيجب أن تعرفي أن قوانين نابوليون هي القوانين المعمول بها في ولاية لويزيانا ، وبموجب هذه القوانين كل ما تملكه الزوجة يملكه الزوج وكل ما يملكه الزوج تملكه الزوجة .

وتقول استيلا أن رأسها يدور ، ولكن ستانلى يمضى فى غلظته قائلا : سننتظر اذن حتى تهدأ أعصاب صاحبة السمو أختك ، ثم نعلمها أحكام قوانين نابوليون ولكن الذى يبدو واضحا له هو أن أختها نصبت عليها ، ونصبت عليه ، فهو له حق فى كل ما تملكه استيلا ٠

وتحتج استيلا قائلة : ان ستانلى بلغ أسخف السخف فى كلامه فليس بين أهلها أحد ينصب على أحد ٠ ويسألها ستانلى: أين اذن المال اذا كان البيت قد بيع ؟ فتجيبه : « انه لم يبع ، بل ضاع ٠ ضاع » فينطلق ستانلى الى حقيبة بلانش هائجا ويفتحها ويجمع بين ذراعيه عددا كبيرا من الأثواب ويصيح : افتحى عينيك ٠ انظرى الى كل هذا ٠ أتظنين أنها اشترته من مرتب مدرسة ٠ انظرى الى هذه الرياش ٠ وهذا الرينار أرجنتيه ٠ ويلقى ستانلى بالثياب على السرير ثم يخرج من الحقيبة علبة الجواهر ويستخرج منها الأسورة الذهبية وعقود اللؤلؤ وأقراط الماس ، وتاجا من الماس ، وهو يسب ويصخب ٠ وتحاول استيلا أن تفهمه أن فرو الثعلب كان عند بلانش من زمن طويل ، وأن كل ما يراه من لؤلؤ وماس وذهب من الحلى الفالصو ، ولكنه يصر على أن زينة بلانش هذه هى التى ابتلعت بيل ريف وأنه سيعرض هذه الأشياء على صديق له خبير بالجواهر لتعرف قيمتها الحقيقية وحين لا تجد ستيلا سبيلا الى اسكاته تمضى الى الباب الخارجى وتنتظر به منعا للجدل ٠

وتخرج بلانش من الحمام وهى تطفح بشرا وتفيض عطرا ٠ تلاحظ أن ملابسها موضوعة على السرير ، فيقول ستانلى مفسرا انه أراد أن يعينها على ترتيب أشيائها ثم يضيف هازئا : يبدو أنك سطوت على محل أزياء فى باريس ٠ فتجيبه بلانش ان الثياب الجميلة هى نقطة ضعفها ٠ ويسألها عن فرو الثعلب فتقول انه هدية من معجب أيام أن كان جمالها يستحق الاعجاب ٠ أما الآن ، فمن ذا الذى يظن أنها كانت جميلة فى يوم من الأيام ! فيقول ستانلى كالتيس ان منظرها

لا غبار عليه • فتضحك بلانش وتقول انها كانت تتصيد منه الاطراء • فيجيب بقوله ان النساء تافهات مغرورات لا عمل لهن الا تصيد الاطراء من الرجال • أما هو ، فهو لا يكترث لهذه الفتنة التي تضحك بها النساء على الرجال • وهو لا يهتم الا بالمرأة التي تكشف كل أوراقها وتعامله بصراحة • فتقول بلانش متملقة : انها فهمته في أول لحظة رأته فيها فقالت لنفسها ان أختها قد تزوجت رجلا •

وتعود استيلا ، ويعود ستانلي كوفالسكي الى قصة المرأة التي يجب أن تكشف كل أوراقها • فتكف بلانش عن المراوغة وتقول انها مستعدة للاجابة عن كل سؤال • ويذكرها ستانلي بقوانين نابوليون المتبعة في ولاية لويزيانا يضيف : أين الأوراق ؟ أهي في الحقيبة • فتجيبه : ان كل ما أملك موجود في الحقيبة •

ويهجم ستانلي على الحقيبة ويذهب ينبش فيها بحثا عن الأوراق ، فتغضب بلانش وتصيح به : ما هذا الذى تفعل أتظن أني أخفي عن أختي شيئا ؟ دعني آتيك بالأوراق فهذا أبسط وأسرع •

وتخرج بلانش من الحقيبة صندوقا من الصفيح وتفتحه • ويلمح ستانلي ربطة من الأوراق في الحقيبة ، ويسألها عنها فتقول انها خطابات غرامية ، فيخطف الربطة • وتصرخ فيه بلانش في حدة : هات هذه الرسائل • ولكن ستانلي يصر على فحصها أولا ، فتصرخ فيه قائلة : انك تلوثها بلمسها • ولا يكترث بكلامها ويذهب يتصفحها • وتتناثر من يده الأوراق على الأرض • فتجمعها بلانش قائلة : سأحرقها ما دمت قد لوثتها بيدك ونظرك • ويسألها ستانلي ذاهلا عن مضمون هذه الأوراق فتجيبه : انها قصائد كتبها فتى صغير • كتبها زوجي • وقد مات • وأنا أسأت اليه كما تريد أنت الآن أن تسيء الى • ولكنك لن تدفعني كما دفعته الى •• أنا لم أعد صغيرة ولم يعد من السهل جرحي •

وتوشك أن يغمى عليها ولكنها تتمالك قواها وتجلس ، وتقول : (معذرة · ان لكل منا أشياء خاصة لا يجب أن يطلع عليها الغير · لقد فقدت صوابي لحظة) ثم تناوله أوراقا من الصندوق الصفيح تحمل اسم « شركة أميلر وأميلز للرهونات » · نعم هذه هى الشركة التى اقرضتها المال وارتهنت دار بيل ريف ثم استولت عليها حين عجزت عن السداد ويسألها فى غلظة عن بقية الأوراق ، فتسلمه مجموعة ضخمة منها وهى تصيح : هذا كل ما تبقى من بيل ريف ، تاريخ مئات السنين تحولت الى أوراق ضاعت جزءا جزءا · اضاعت أجدادنا فى ملاحم النكاح والصبوات هذه هى الصراحة · لقد أضاعت عزتنا كلمة من ثلاثة أحرف · اسأل ستيلا عن التفاصيل · وكل ما ورثناه منها البيت وعشرون فدانا والمقبرة التى تضم رميم كل آل ديبوا الا ستيلا وأنا · اليك بالأوراق · ادرسها · احفظها عن ظهر قلب · من حسن حظ بيل ريف أن يقع مصيرها بين يديك القادرتين » ·

ويقول ستانلى : ان قوانين نابوليون تخول له أن يرعى شئون زوجته المالية ، ولا سيما أن ستيلا حامل ·

وتعود ستيلا فتهنئها بلانش على أنها تنتظر مولودا · وتعتذر ستيلا لبلانش عن فظاظة زوجها ، فتقول بلانش : الآن وقد فقدنا بيل ريف فلعله ينفعنا أن يحتفظ دم الأسرة بدم رجل مثل ستانلى كوفالسكى ·

وتنصرف ستيلا وبلانش للنزهة · ويقبل الضيوف واحدا بعد الآخر ، فهذه ليلة البوكر ·

يقبل الجار ستيف وصديق العمل ميتش هبل ثم بابلوجونزاليس ، وكلهم فى قمصان سوقية الألوان · ويضعون على المائدة زجاجة من الويسكى ويمضون فى اللعب · وبعد قليل ينذر ميتش الجماعة أنه لن يفرط فى السهر معهم لأن له أما مريضة وهى لا تنام قبل عودته · انكم متزوجون ومعكم زوجاتكم ، أما هو فسيبقى وحيدا فى

الحياة حتى تموت آمه • ويعيره ستانلى بأنه لا يزال بحاجة الى بزازة •

وبعد قليل تعود ستيلا وبلانش من السينما • ولما تقترب منهم بلانش تقول للرجال بلهجة السيدات الكرائم : أرجوكم ألا تقفوا • فيقول ستانلى هازئا : اطمئنى لن يقف لك آحد • ولكن ميتش هو الوحيد الذى يعامل بلانش باحترام فيلفت هذا نظر بلانش اليه • وتذهب تجمع مع أختها المعلومات عنه وهما على حدة • كلا • انه ليس متزوجا كلا • انه ليس زير نساء • نعم هو زميل ستانلى وهو يعمل فى ضبط الأدوات بالمصنع فى قسم قطع الغيار • ويعلو حديث الأختين وضحكهما فيغتاظ ستانلى لأن الضجة تفسد عليه لعبة البوكر ، فيأمرهما بالسكوت فى هياج وقد امتلأت شرايينه بالويسكى • فتسكت الأختان قليلا ثم تمضى بلانش الى الراديو فتسمع منه موسيقى الرومبا • وتطرب الجماعة للموسيقى الا ستانلى الذى بدأ يفقد أعصابه من الشراب ومن الخسارة فى البوكر • ويصيح ستانلى : اقفليه • ولكن بلانش لا تتحرك من مقعدها ، فينهض ستانلى ويقفل الراديو فى عصبية ويعود الى مكانه •

ويأنس ميتش للحديث مع بلانش فلا يلقى بالا للعب، بل يذهب يتجاذب معها أطراف الحديث ، وتطلب بلانش سيجارة فيهديها ميتش علبة سجائره الفضية • وتقبلها بلانش معجبة فتقرأ عليها نقشا يقول : « ولو أراد الله لزاد حبى لك •• بعد الموت !» وهو بيت من شعر اليزابيث براوننج • ويقول ميتش ان البنت التى أهدته العلبة قد ماتت وأنه حزن لموتها حزنا شديدا •• فتقول بلانش ان الأحزان تطهر النفوس • وتفتح بلانش الراديو مرة أخرى فيسمع منه فالس جميل ترقص عليه بلانش بمفردها ، ويجاريها ميتش وهو فى سعادة قصوى • ولكن ستانلى يثور حنقا ويندفع الى الراديو ويرفعه ويقذف به من النافذة •

وتعنفه ستيلا غاضبة وهى تصيح أنت سكران · أنت سكران ·

هيا انصرفوا جميعا · ان كانت بكم بقيـة من كرامة فأرجوكم أن تنصرفوا ·

ويهجم ستانلى على ستيلا قاصدا ضربها ·· وتصيح بلانش قائلة ان أختى حامل · ويهدىء الرجال من ثائرته وتتفاداه ستيلا ثم تتوارى فى المطبخ ، ولكن ستانلى الهائج يتبعها ويلكمها · وتصرخ بلانش ، ويتجمهر الرجال على ستانلى ، ويدفعونه دفعا الى حجرة النوم · يتهافت ستانلى على الفراش بعد أن كان يقاوم مقاومة عنيفة · وتصرخ ستيلا : « أريد أن أرحل ! أريد أن أرحل ! » ويقول ميتش : « هذا فظيع ! هذا فظيع ! ان البوكر لا يلعب فى بيت فيه نساء » · وتجمع بلانش ملابس أختها وتصعد معها الى شقة يونيس فى الدور الأعلى· ويضع الرجال ستانلى تحت الدوش حتى يفيق ثم ينصرفون كل بما كسب · ويجـأر ستانلى بالصياح قائلا : ستيلا يا حبيبتى ! عودى الى يا حبيبتى يونيس ! يونيس ! ردى الى حبيبتى ! وتجيبه يونيس :

كفى نباحا ونم ·· ويعود ستانلى الى الصياح : ستيلا ! ستيلا ! يا حبيبتى ! عودى الى يا حبيبتى · فتجيبه يونيس مرة أخرى : انها لن تعود ، فكف عن الصياح ، والا ناديت البوليس ·

ولكن ستانلى لا يكف عن الصياح وهو يبكى بكاء الأطفال : ستيلا ! ستيلا ! عودى يا ستيلا ! ويصعد السلم ويدق بكلتا يديه باب يونيس وهو لا يكف عن النداء بأعلى صوته · وأخيرا يفتح الباب وتخرج منه ستيلا والدموع تبرق فى عينيها وشعرها محلول على كتفيها ، ويحملق كل منهما فى الآخر لحظة ثم يمضيان نحو غرفة النوم وهما يئنان أنا خفيضا من أنين الحيوان ، ويركع ستانلى أمامها ويلصق خده ببطنها فيشيع فى جسدها حنان قوى ، وينهض ويحملها

على ذراعيه الى الغرفة المظلمة ويجذب الستار الذى يفصلهما عن المطبخ الكبير .

ويعود ميتش ليطمئن على ما يجرى فيجد بلانش ذاهلة من هذا الذى رأت . ان أختها ستيلا دخلت مع زوجها حجرة النوم بعد كل الذى فعل . انها لم تألف هذه الأشياء .

ويشرح لها ميتش أن هذه عاصفة فى فنجان ، ولكنها لا تفيق من دهشتها . ويخرج ميتش الى الهواء لتدخن معه سيجارة تهدىء بها أعصابها .

وفى صباح اليوم التالى تنهض ستيلا من نوم عميق مريح ، وقد تلألأ وجهها بضياء الراحة والسعادة . أما بلانش فقد قضت ليلة ساهدة لم تذق فيها طعم النوم . أما ستانلى فقد خرج ليصلح الراديو وليشحن السيارة .

ويدور بين الأختين حديث يبدأ هادئا ثم يعنف . ان ستيلا كانت مجنونة لأنها عادت الى زوجها ــ بل لعلها استسلمت له ــ بعد أن ضربها . وتعتذر ستيلا لأختها عما كان من ازعاج لها فى الليلة السابقة . ولكنها تجد أن بلانش تهول فى الأمر ، وهى تفهم هذا فقد كانت بلانش دائما بنتا عصبية . انها لا تقر ما فعله زوجها ولكنها لا ترى داعيا للمبالغة فى الأمور . فالرجال حين يشربون يميلون الى الشجار ومنهم من يحطم كل ما تقع عليه يده . وستانلى من هذا النوع . وهى تذكر كيف أنه ليلة الزواج تناول حذاءها وذهب يكسر كل اللمبات الكهربائية بكعبه وهو قد اعتذر لها فى الليلة السابقة بما فيه الكفاية فلا ضرورة اذن للتهويل فى الأمر كما تفعل بلانش .

أما بلانش فتصر على أن ستيلا متزوجة من مجنون وأنه لابد من ايجاد مخرج لهما . فلا يجب أن تبقى هى أو أختها لحظة واحدة تحت سقف هذا الوضيع الذى يضرب زوجته ، وبلانش تعرف طريقا ، فاستيلا لا شك تذكر صديق الأسرة الفتى شب هنتلى . انه الآن من أصحاب الملايين فى تكساس

يملك آبار البترول التى تتجشأ الذهب فى جيبه ، وهى قد التقت به فى الكريسماس الماضى ، وفى استطاعتهما أن يقصدا اليه فيعينهما بفتح محل تجارى لهما • ان قلبها يتفطر لسوء حالة أختها استيلا ولسوف تنقذها وتنقذ نفسها من هذا الجحيم الذى تعيشان فيه •

وتهم بلانش فعلا بارسال برقية الى شب هنتلى تعلن قدومهما ، ولكن ستيلا تمنعها من ذلك قائلة انها لا تعيش فى جحيم كما تتوهم بلانش ، بل على العكس من ذلك فهى سعيدة مع زوجها • وتجيبها بلانش قائلة انها لا تتحدث عن السعادة بل تتحدث عن اللذة ، اللذة الصاخبة التى تصخب حتى تصم آذانها كما تصخب عربة الترام تلك التى يسمونها اللذة فى شوارع مدينتها الضيقة ، وحقيقة الأمر أن زوجها حيوان • مجرد حيوان • انه رجل من العصر الحجرى يخرج كل يوم للصيد وفى المساء يعود اليها ليضربها ويقبلها ويحملها الى مغارة من تلك المغارات المظلمة التى لا تختلف كثيرا عن حجرة نومها • ولكن ستيلا تنسى أن العالم قد تقدم، وأن فيه شيئا اسمه الشعر والموسيقى وكل ما هو جميل ورقيق •

ويعود ستانلى الى بيته ويلتقى ببلانش متجاهلا ما حدث، ولكنه يحدجها بنظرات شك واضحة ويسألها قائلا : «أتعرفين رجلا اسمه شو ! » فترتبك بلانش قليلا ولكنها تتمالك نفسها وتجيب : « ليس هناك أحد لا يعرف رجلا اسمه شو» • فيمضى ستانلى فى كلامه قائلا : ان شو هذا يعتقد أنه قابلك فى مدينة لوريل • لا شك أن الأمر اختلط عليه فهو يقول انه قابلك فى فندق فلامنجو، هو فندق سيىء السمعة • انه يذهب يوميا الى لوريل لتصريف منتجات الشركة ، وفى امكانه التحقق من الأمر » •

وبعد أن ينصرف ستانلى يعود الاضطراب الى بلانش وترتجف يداها • وتراها ستيلا على هذه الحال فتسألها عما بها • فتقول بلانش فى شبه هذيان : هل سمعت أحدا يخوض

في سيرتي ؟ ماذا يثرثر الناس عني · وتنفى ستيلا عاجبة أنها سمعت أحدا يذكرها بسوء · فتقول بلانش انها لم تكن مثالية السلوك في السنتين الأخيرتين ، بعد أن ضاعت بيل ريف · انها كانت ضعيفة ، وكان جمالها مصدر قوة لها، أما الآن فجمالها يذبل وهي قد بلغت الثلاثين ·

وتسرع بلانش الى الشراب فتخلط لها ستيلا الويسكى بالكاكولا لتهدئها · ولكن بلانش تظل على حالتها العصبيه وتقول : ان متش قادم في الساعة السابعة · وأنا لم أعطه شيئا الا قبلة وداع · أنا أريده أن يحترمني · انه لا يعرف حقيقة سني · أنا متعبة ·· متعبة جدا ·· وأريد أن أستريح ، ولو تزوجني انتهت مشاكلي ومشاكلكم ·

وتقول ستيلا لبلانش مشجعة ان أمنيتها ستتحقق ، وتحذرها من الافراط في الشراب ثم تنصرف للقاء زوجها في الخارج · ولكن بلانش تبادر الى زجاجة الويسكى وتشرب منها بيد مرتعشة ، ان ميتش هو أملها الأخير ·· ولو ضاع منها ميتش ، فما أبأسها ·· ! ترى ماذا يكون مصيرها ! هل تعود الى لوريل ·

ويقبل فتى حديث السن ويضرب الجرس فتفتح له الباب · انه محصل جريدة « الايفننج ستار » · وحين تقع عينها عليه تتوه في الذكريات البعيدة ، وتذكر زوجها الذى مات وهو بعد دون العشرين · وتعتذر له بأن ربة البيت قد خرجت فيجيب : لا بأس اذن · سأعود في وقت آخر · ويهم بالانصراف فتدعوه اليها كأن مغناطيسيا يجذبها اليه قائلة : أيها الفتى ! أما سمعت أحدا يقول لك انك تشبه أميرا صغيرا في ألف ليلة وليلة ·

ويضحك الفتى ويحمر وجهه خجلا فتقول له بلانش : تعال الى ·· أريد أن أقبلك · قبلة واحدة رقيقة على فمك ·

وقبل أن يتنبه الفتى تقبله بلانش قبلة واحدة رقيقة على فمه ثم تقول : هيا انصرف · انصرف بسرعة ··

فلا ينبغى أن أتعرض للأطفال .. » ويحملق الفتى فيها ذاهلا ثم ينصرف وهى تتبعه بنظرات غريبة زائغة .

وما أن يختفى حتى يظهر ميتش عند المنعطف حاملا باقة من الورد ، فتطرب لرؤياه وحين يصل ميتش تقول فى بهجة : يا فارسى ! انحن أولا ثم قدم لى ورودك .

وتخرج بلانش وميتش لقضاء المساء فى الملاهى .. ويعودان بعد الساعة الثانية صباحا فيجدان أن ستانلى وستيلا لم يعودا بعد من نزهتهما . ويتضح من هيئة بلانش وميتش ومن كلامهما أنهما لم يقضيا مساء موفقا ، فقد كانا مكتئبين أكثر الوقت . واجتهدت بلانش أن تتكلف المرح طول المساء ، ولكن شخصيتها النوراستينية كانت دائما تغلبها ، وكان هو يحاول تقبيلها ولكنها كانت ترده لخشيتها من توغله فيما بعد القبل .

وتدعو بلانش ميتش للدخول حتى تعود أختها وزوجها فيدخل . وتأتيه بشىء من الويسكى لينبسط انقباضه . ولا يجدان ما يتحدثان فيه فيذهب يحدثها عن وزنه وعن وزنها ، ويعلم منها أنها لم تعد موضع ترحيب فى بيت أختها ، وأنها لهذا ستترحل عنه قريبا . انها تمقت هذا البيت وتمقت ستانلى . انها منذ أن وقعت عينها عليه وهى تعتقد أنه جلادها .. انه محطم حياتها . انها تعلم أنه يمقتها من صميم قلبه ، ولا يجد سبيلاً إلى اهانتها الا وسلكه .

ويجمع ميتش قواه ويسألها فجأة عن عمرها ، فترتجف وتقول : وفيم هذا السؤال ؟ » فيقول ميتش : « لأنى تحدثت مع أمى عنك فسألتنى : كم عمر بلانش ؟ ولم أعرف بماذا أجيب » . نعم انه تحدث مع أمه عن بلانش وقال لها انها بنت لطيفة وأنه يأنس اليها كثيرا . وأمه المريضة تعرف انها لن تعيش أكثر من شهور معدودة وهى لهذا تحب له أن يتزوج قبل أن ترحل هى عن الحياة ، وهذا سر اهتمامها بعمر بلانش .

ان بلانش تفهمه حق الفهم • انه رجـل مخلص متفان في الاخلاص • وحين تموت أمه سيعيش في وحدة قاتلة • انها تفهمه لأنها تعرف معنى الوحدة القاتله • فقد احبت هي ايضا شخصا ما ، أحبته حب العبادة ، ثم فقدته • ومنذ ذلك اليوم وهي تعيش في وحدة قاتلة • وتستعين بلانش بكأس أخرى من الويسكي لتهـدىء أعصـابها ثم تمضي في سردها فتقول لميتش : « كان غلاما صـغيرا ، وكنت بنتـا صغيرة ، فحين كنت في السادسة عشرة اكتشفت الحب •• اكتشفته فجأة وفي اكتمـاله وتمامه • كأن انوارا كشـافة تغشى الأبصار سقطت على شىء كان دائما نصف محجـوب في الظلال •• وكنت سيئة الحظ • فقد كان الفتى مختلفا عن غيره من الفتيان •• كانت فيه عصبية ورقة وحنان ليست من صفات الرجال ، وان كان أبعد ما يكون عن الخنونة •• وجاءني يطلب العون• ولم أكن أعرف أنه ينتظر مني العون• لم أعرف ذلك الا بعد زواجنا •• بعد أن هربنا وعدنا •• وكان كل ما عرفته أني عجزت عن مساعدته في شىء غامض، وفشلت في اعطائه العون الذى كان يحتاج اليه ولـكن كان يعجز عن الافصاح عنه • كان كمن تسوخ قدماه في الرمال المتحركة وقد تشبث بي طالبا النجـدة •• ولـكنى لم أكن أجذبه بل أسوخ معـه في الرمال • ولكنى لم أعـرف ذلك وقتئذ • وكل ما كنت أعرفه أني أحببته حبا لا يطاق ••• ثم اكتشفت الحقيقة في أبشع صورها • فذات يوم دخلت فجأة غرفة كنت أحسبها خالية • ولكني وجدت فيهـا هـذا الغلام الذى تزوجته ومعه رجل يكبره سنا كان صديقه من سنوات •• بعد ذلك تظاهرنا بأني لم أكتشف شـيئا ••• وخرجنا ثلاثتنا في سـيارة الى كازينـو مون ليك ونحن في سكر شديد نضحك طول الطريق • ورقصنا بولكا الفارسو فنافيا •• وفي منتصف الرقص لم أملك نفسى فجأة فعبرته بما فعل • وانفلت الغلام مني وخرج من الكازينو ••• وبعد لحظات سمعنا طلقة •• » وهكذا انتحر زوجها ألان ، وجرت هي لترى ما الخبر ولـكن الناس منعـوها من الاقتراب من

جثته . وهى منذ ذلك الوقت تعيش فى وحـدة قاتلة ...
تعرف مئات الناس ولكنها تعيش فى وحدة قاتلة .

ويهدئها ميتش قائلا انه بحاجة اليها وأنها بحاجة اليه . فهل تقبله زوجا . فتتمتم بلانش قائلة : الله .. انه أحيانا أقرب الينا من حبل الوريد .

وفى اليوم التالى يدخل ستانلى كوفالسكى فيجد زوجته ستيلا ترتب الشموع لعيد ميلاد بلانش فيقول هازئا : لقد اكتشفتها ! لقد اكتشفتها ! انه تحقق الآن من كل شىء . تحقق من أن أختها أفاقة من أعظم طراز وكذابة من الدرجة الأولى ، فالـكذبة الأولى أنها تمثل أمام ميتش دور المـرأة الطاهرة التى يخدشها مر النسيم والعذراء التى لم يقبلهـا رجل والحقيقة التى جاء بها صاحبه شو من مدينة لوريل أنها كانت تعيش فى فندق فلامنجو الذى لا يسأل فيه نزيل عن شىء يفعله وأن كل أهل المدينة يعرفونها ، بل ويشيرون اليها بالأصابع ويسمونها المجنونة . والكذبة الثانية هى أنها تقول انهـا راجعة الى مدرستها فى لوريل وهى تعلم تماما انهـا طردت من عملها لأنهم اتهموها باغواء فتى فى السابعة عشرة فاشتكى أبوه للناظر .

وتدافع ستيلا عن أختها بحرارة قائلة انها لا تصـدق كلمة واحدة من هذه الوشايات . وتمضى فى ترتيب الشموع ، وهى تتحدث عن زيارة ميتش المنتظرة ، فيقاطعها سـتانلى قائلا انه من الخير ألا تنتظر ميتش . ان ميتش صـديقه وزميله فى العمل وهو لن يقوى على مواجهته اذا اكتشـف هذه الحقائق بعد فوات الأوان . وهو لذا قد أطلعه على كل شىء حتى يكون عـلى بينـة من أمره ، بل أكثر من ذلك ان ستانلى قد اشترى لبلانش تذكرة سفر الى لوريل ، فهى لابد أن ترحل بعد يومين .

وينصرف ستانلى بعد أن أفرغ كل ما فى جعبتـه من وشايات ويسقط فى يد ستيلا حين تسمع كل هـذا الـكلام وتلزم مكانها كالمصعوقة . وحين تقبل عليها بلانش متمهلة

فى انتظار ميتش ترى وجهها فى شحوب الموتى ، فتستفسر عن الخبر فى انزعاج شديد ، ولكن ستيلا تمضى فى ترتيب المائدة متظاهرة بأن كل شىء على ما يرام ٠

وبعد ساعة يجتمع ثلاثتهم حول مائدة الطعام ويحتفلون بعيد ميلاد بلانش احتفالا غريبا ٠ فاستيلا تبتسم فى وجوم وفى عينيها عبرة معلقة لا تريد أن تغيض ولا تريد أن تنهمر ، وبلانش يبدو عليها القلق الشديد لعدم مجىء ميتش ، وستانلى لا يكف عن العبارات الموجعة يكيلها لبلانش ٠ وبعد العشاء يقول ستانلى ان لديه هدية يريد أن يقدمها الى بلانش ٠ بمناسبة هذا العيد ؛ ويخرج من جيبه تذكرة السفن الى لوريل ويقدمها الى بلانش ، التى لا تحتمل هذا الموقف فتجرى الى الحمام لتنتحب فى خلوة ، أما ستيلا الغاضبة فيصيبها دوار ، وقبل أن يثقل عليها الألم تقول لستانلى : « انقلنى الى المستشفى » لقد جاءها المخاض ٠

ويعود ستانلى بعد أن نقل ستيلا الى المستشفى ؛ يعود ليجد أن ميتش قد جاء ليعنف بلانش ثم مضى ، وأن بلانش قد عرفت أنه قد دمر حياتها ، أو ما بقى من حياتها ٠ ويجد ستانلى بلانش وقد أفرطت فى الشراب بعد انصراف ميتش ٠ وتسأله بلانش عن صحة ستيلا فيجيبها انها فى صحة جيدة ٠ وتسأله عن الطفل فيقول انه لن يولد حتى الصباح ٠ وتتنبه بلانش الى أنها وحيدة مع ستانلى وترتجف ويتنبه ستانلى الى أنه وحيد مع بلانش ، ويمضى الى غرفة النوم ويلبس بيجامته الحريرية ويقول انه لم يلبس هذه البيجاما منذ ليلة زفافه ، وهو يلبسها الليلة احتفالا بالمولود ٠

وتصطنع بلانش أولا عدم الاكتراث وتذهب تتحدث عن صديقها المليونير شب الذى سيضيفها ويحترمها لأنه يحبها حبا أفلاطونيا انه جنتلمان ٠ انه يحترم عقلها وثقافتها أما هنا فهى تلقى دورها أمام الخنازير ٠ وينظر اليها ستانلى فتقرأ الشبق الجائع فى نظراته ، انه لا يفتأ يعيرها مستهزئا بكل هذا الذى سمعه عنها ، انه ينظر اليها نظرة بغى ٠

وتحاول بلانش أن تتجنبه ، ولكنه يدنو منها وترى فى عينيه نظرات وحش مفترس • انه ليس بالأبله ليستمع لاحاديثها الزائفة عن شعر الحياة وموسيقاها ومعانيها السامية • انه يعرف ماضيها فى لوريل •

وتسعى بلانش للخروج وتراه يعترض طريقها أو يخيل لها ذلك • وتأمره أن يبتعد من طريقها ، فتلهب فيه الرغبة ويدنو منها فتتراجع بلانش حتى تبلغ غرفة النوم ، وتجد زجاجة فترفعها ثم تحطمها على المائدة وتشهر راس الزجاجة المكسور صائحة أنها ستدافع عن نفسها ، وتتراجع الى الغرفة فيتبعها كأنه يتبع قنيصة ويقول : ما دمت تطلبين العنف • فليكن عنفا • ويهجم عليها ويقبض على معصمها بيد من حديد حتى تسقط من يدها الزجاجة • وتسقط بلانش متهافتة على الأرض ، فيحملها ستانلى على ذراعيه ويتجه نحو الفراش قائلا : « هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الأول » !

وتعود ستيلا مع وليدها من المستشفى فتجد أن بلانش قد انهارت تماما • أنها لم تعد تأكل زادا ، وهى لا تكف عن الشراب وهى تحدثها عن شىء فظيع جرى بينها وبين ستانلى ليلة دخولها المستشفى • إن حديثها قد غدا كالهذيان المستمر ، ولابد من حل عاجل لأنها فى كل يوم تسوء عنها فى سابقه • ان ستيلا لا تعرف أتصدق ما تقوله بلانش عن ستانلى أم تعده ضربا من هذيانها • انها لن تطيق الحياة مع ستانلى بعد ذلك ان كان هذا صحيحا • وتميل عليها جارتها يونيس قائلة : « لا تصدقى شيئا مما سمعت ، فلابد أن تجرى الحياة مجراها • ومهما حدث حولك من أشياء ، فلابد أن تشابرى على الحياة » •

وبعد قليل يأتى طبيب الأمراض العقلية ومعه الممرضة تحمل الكاميزول احتياطا للطوارىء • وتقاوم بلانش أول الأمر ولكن الطبيب العجوز يقول فى رفق واحترام : لا تجزعى يا آنسة ديبوا ! وتحملق فيه بلانش ، وتأنس الى

أديه الجم . ان هذا السيد الغريب يناديها قائلا : يا آنسة ديبوا . انه لا شك فارس شهم جاء لينقذها من الجحيم الذى تعيش فيه . وتهش له بلانش وتقول فى صوت تشيح فيه الراحة : « لقد اعتمدت دائما على كرم الغرباء » .

وتعتمد على ذراعه وتخرج معه فى هدوء تتبعهما الممرضة .

قالت العنقاء

أنا أصعد فى اللهب !؟

للكاتب الأمريكى تنيسى وليامز

تمثيلية عن موت الكاتب الكبير د . هـ . لورانس

كان القدماء يرمزون للروح بالعنقاء ، وكانوا يقولون ان العنقاء كالروح خالدة لا تموت . فكلما اكتملت عليها مائة عام رفرفت بجناحيها فى معبدها القائم عند مشرق الشمس وغمست جناحيها ثلاثا فى ينبوعها المقدس ثم طارت الى الغرب وينتهى بها المطاف فى معبد الشمس بمصر . حيث تبنى عشها الذى تموت فيه وتولد من جديد . وكانت العنقاء فى طريقها تجمع أزكى الطيوب واعطر الأعشاب ومن هذه الطيوب والأعشاب تبنى عشها ، وهو لحدها ومهدها معا .

وفى معبد لون (عين شمس) تحضر العنقاء الوفاة فيضطرم جسدها حتى يخرج من حرها لهب فتحترق فى عشها المحترق ومن رمادها تخرج العنقاء الجديدة ... وتولد الحياة الجديدة .

كان الكاتب الانجليزى دافيد هربرت لورانس أعظم فنان استخدم القلم فى وصف مكنونات الحياة الجنسية فى الرجل والمرأة . وقد صودرت بعض كتاباته كقصة « عشيق الليدى تشاترلى » واختلفت فيه آراء النقاد ولكن مجدته كثرتهم المطلقة حين استبان لها أن لورانس ليس مجرد كاتب قذر التفكير يسعى لاثارة الحواس ، بل حكيم من حكماء عصرنا يحاول تشخيص علل الحضارة الراهنة ويقترح لها علاجا .

وأهم هذه العلل فى نظره أن الحيـاة الحديثة قد نمت الجانب العقلى فى حياة الانسان الى حد قتل حياته الجسدية وحطم كفايته الجنسية فذوت فيه الخصوبة الخالقة وصار الى كائن ممسوخ هزيل تملؤه العقد ٠

ولهذا طالب لورانس بالثورة على العقل والثقافة والكتب والعودة الى حياة الفطرة السليمة حيث الانسان يعرف الحق والخير والجمال بالالهام ، ومجد الهمج وعاش بينهم زمنـا ولكنه أصيب بخيبة أمل شديدة فقد وجدهم أشد انحطاطا من المتحضرين ٠

وقد مات لورانس معذبا كما عاش معذبا ٠ مات بذات الرئة الى جوار زوجتـه الألمانية فريدا التى كانت عنصرا لازما من عناصر حياته الصاخبة ٠ مات فى بلدة فانس فى جنوب فرنسا حيث كان يستشـفى بشـمس البحر الابيض المتوسط ٠

وقد كان لورانس يتخذ من العنقاء رمزا لحياته وللحياة المتجددة ويعلق فى داره راية عليها نقش العنقاء ٠ فحياته كلها وعامة فنه يدوران حول تجدد الحياة ، وقد كان يرى ما يراه متصوفة الهند من أن تجـدد الروح يكون باحراق الجسد فى سعير الأشواق ٠

وقد اتخذ الـكاتب الأمريكى الـكبير من موت لورانس مادة لتمثيلية شعرية خلد فيها وفاته بين زوجتـه الألمانيـة فريدا وصديقته الانجليزية برتا ٠ وهذا نص التمثيلية :

●●●

لورانس : (دون أن يدير رأسه) : ما هذا ؟

فريدا : شىء ترك على العتبة ٠

لوارنس : هاته ٠

فريدا : صاحبة الهدية لا تذكر اسمها انما لمحتها لمحـة خاطفة من النافذة ٠

لورانس : امرأة ؟

فريدا : نعم ٠

لورانس : نعم ٠٠٠

فريدا : انها عانس ضئيلة الجسم خافتة الأنفاس تلبس سترة محببة زرقاء وقد وضعت الهدية فى المدخل ثم هبطت التل قبل أن أرد على الجرس ٠

لورانس : (يرتفع صوته ويشتد حدة كأنه يشاحن) : ان الهدية لى ٠ أليست لى ؟ ٠

فريدا (بالألمانية) : بلى ، انها لك ٠

لورانس : اذن هاتها ٠ عليك اللعنة يا ٠٠٠

فريدا : صمتا ٠ كنت أظن أن الشمس حسنت حالتك النفسية ٠

لورانس : انها سوأت حالتى النفسية فقد لبثنا هنا طول العمر ٠٠ أغايظها وتغايظنى أقول للشمس : أبرئينى من المرض أيتها البغى العجوز ٠ جددى قواى خذى يدى فى يديك واجذبينى من هذا المقعد ! ولكن الشمس كربة البيت البخيلة تمضى فى كنس عتبة الدار وتتظاهر بأنها لا تسمع سؤالى٠ ولكنى لا ألومها على ذلك فأنا نفسى لا أحب السائلين٠ فالسؤال ليس من شيم الرجال ٠ فمن واجب الرجل أن يضع يده على ما يريد وأن ينتزعه من قبضة غريمه ٠ فاذا عجز عن أخذه اذا عجز عن انتزاعه ، فعليه اذن أن يفرط فيه وأن يكف عن طلبه راضيا بالفشل ٠ انظرى (وقد فتح الربطة) انها اناء صغير من مربى البرتقال (يبتسم فى سرور الأطفال) هذا حصاد أغسطس جمع فى زجاجة ٠

فريدا : نعم ! حلو جدا ! يمكنك أن تفطر منه ٠

لورانس (يتناول من الخيط الذهبى الصافى فى حنان) : بديع ! يمكننى أن أفطر منه بقية أيام حياتى ، ألا ترين ذلك يافريدا ؟ ان حجم الاناء يكفى لذلك بالضبط٠

فريدا : صمتا ٠

(تبدأ فى انتزاع الاناء منه ولكنه يقبض على معصمها بقبضة من فولاذ فى سرعة القط) ٠

لورانس : اتركيه عليك اللعنة !

فريدا (تضحك) : يا الهى ! انك لا تزال قويا !

لورانس : أكنت تظنين غير ذلك ؟

فريدا : لقد نسيت ، لشدة ما رأيت من وداعتك فى الأيام الأخيرة ٠

لورانس : ظننت أنك روضتينى ؟

فريدا : نعم ، ولكن كان ينبغى أن أحسن التقدير ٠ كان ينبغى أن أفطن الى ما فعلته بنفسك فى دخيلة نفسك ، فقد كنت تبتلع هذا الدفء الأصفر كأنه اللارنج ، أيها الثعلب العجوز ، وتمتص الشمس الضاربة الحمراء فى جسدك طول النهار لتحيلها الى سم تبصقه فى وجهى ٠

لورانس : كلا ٠٠٠ انما كنت أنصب فخا ، كنت أنصب فخا براقا من الفولاذ لأقتنصك فيه ، أيتها البقرة ! فاخرجى الآن من الفخ اذ استطعت !

فريدا (وهى تبتسم ابتسامة صفراء وتختلج فى ألم) : يا الهى ! انك تؤلمنى !

لورانس (يفرج عنها تدريجيا) : ٠٠ لا تكذبى ٠٠ ما أوفر الحياة فيك ! لم وهبك الله بسخاء وشح على فى العطاء ؟ ان فى امكانك أن تقبضى على ذراعى وأن تكسريها كعود جاف ٠

فريدا : كلا ٠٠ فقد كنت دائما تفوقنى قوة ، ورغم جسامتى لم أستطع أن أغلبك فى يوم من الأيام ٠ هل استطعت أن أغلبك ؟

لورانس (راضيا) : كلا ، لم تستطيعى (يحز صوته بخشونة) : ضعى الاناء على النافذة ٠

فريدا (تطيعه) : أرى بطاقة الصـقت عليـه · هى تقول : « من احدى قارئاتك المخلصات » وظهرها يقـول : « أنا أعبدك يا مستر لورانس · فانى أعلم أنه لا يعـرف أسرار الحياة كل هذه المعرفة الا اله ! » ·

لورانس (فى جفاف) : يبـدو أنى نجحت بالصـدفة أثناء بحثى الفاشل عن الله فى خلق اله تعبده عانس مجهولة الاسم ترتدى سترة محببة زرقاء · وهى تقدم قربانها اناء من مربى البرتقال الشهية على مذبح الهها الوثنى ! يا لها من امرأة صغيرة مجردة من القيم ! فليس يقدر على هذا التجديف الجسيم الا صغار الناس فى هذه الحياة ممن يهبطون التـل هبوط الحصى تجرفه الأمطار · انهم يجدون الههم ويقدمون له مربى البرتقال ولو أنني وجدت الهى ·· يوما ما ·· لو أنني وجدت الهى لنزعت له قلبى من جسـدى وأحرقته له قربانا ·

فريدا : انك تسترد صحتك ·

لورانس : وماذا يحملك على هذا الظن !

فريدا : انك غدوت ترثى لحالك ، اذ يسـاء تقديرك ويساء فهمك الى حد بعيد ·· انك تمقت يسوع المسيح لأنه انتصر عليك فى هذا · لكم كنت تحب أن تكابد آلام الصلب « الأول » !

لورانس : ليتنى أستطيع أن أطبق بأصابعى على حلقك ·

فريدا (تنحنى الى جواره) : هاك حلقى ·· هيا اخنقنى ·

لورانس : (يلمس حلقها فى رفق بأطراف أنامله) : فريدا أتظنين أنى سأعود الى نيو مكسيكو فى يوم من الأيام؟

فريدا : أنت تفعل دائما ماتريد أن تفعله يا لورانس · فليس هناك حائل من أى نوع كان لم تستطع أن تقفز فوقه أو تزحف تحته أو تنفذ خلاله ·

لورانس : أتظنين أني سأعود اليها في يوم من الأيام على صهوة جواد أبيض قوى وانطلق انطلاق الريح فأجتاز صحراءها اللامعة ؟ أنا لست أديبا وقد سئمت الكتب . انها لأضحوكة بشعة لا يعرفها أحد ألا تتجلى حياة رجل مثلى الا فى الكتب .

فريدا : وفيم يجب أن تتجلى فى غير الكتب ؟

لورانس : في عمل من عنيف الأعمال ولكن كل ما أفعله فى حياتى هو أنى أجوب الأرض مسافرا مع النساء والمخطوطات وطباعى الكريهة . وأزعم أنى أشن الحرب على المفاهيم الأخلاقية البورجوازية وعلى التزمت وعلى الحياة الفكرية وعلى القوى الخارجية وما هى بخارجية أبدا . وواقع الأمر أن ما أحاربه هو العانس الساكنة فى نفسى ، العانس خافتة الأنفاس التى تهبط التل قبلما يخف الله للرد على الجرس . وأنا الآن أريد أن أعود الى الصحراء وأجرب حياة الهمجية مرة أخرى كما فعلت فى القديم .

أريد أن أقف على اللوبوس وأتأمل العاصفة المطيرة تهب من عشرة أميال كأنها فرقة من العمالقة تتقدم فى خوذاتها الفضية .

وهذا ما أنا فاعله ، عليك اللعنة !

فريدا : ومن أنكر أنك فاعله ؟

لورانس : أنت .. فأنت تعلمين أني لن أفعل من ذلك شيئا . أنت تعلمين أن الهمجى الذكر فى كيانى قد مات وأن كل ما تبقى منى هو الهندية الحمراء الجبانة الضعيفة الفؤاد . ان فى النساء الهاما دقيقا يعرفن به الموت ، فهن يشممن رائحته ولما يبدأ . وأعتقد أن من يفتح الباب للموت فعلا هن النساء . فهن يهمس في أذنه ويومئن له ويدسسن فى يده المفتاح الأسود من تحت المرايل .. ألا يفعلن ذلك ؟

فريدا : كلا .. ان النساء هن اللواتى يدفعن ثمن دخول الحياة . وهن اللواتى يمددن أذرعتهن طول الحياة

كأنها عوارض الحديد خلف الباب الذى يريد الموت أن يدلف منه • ان الرجال يعشقون المــوت ••• أما النســاء فلا • فالرجال يثخنون بعضهم بعضا بالجراح ، أما النساء فيوقفن النزيف •

لورانس : أجل ، بشرب الدماء • لا تمســينى بهــذه القوة ! (تترك أصابعه) ان أصابعك تجعلنى أحس بازدياد ضعفى فهى تستنزف من جسدى قوته •

فريدا : لا • لا • لا • بل هى ترد الى جســدك قــوته يا حبيبى •

لورانس : أريد أن تعدينى بشىء • لئن مت يافريدا•• فانى أرجوك أن تتركينى وحــدى فى لحظة المــوت ! ••• لا تلمسينى ولا تضعى يدك على جسدى ولا تأذنى لغيرك بأن يفعل ذلك •• ان بى احساسا مخيفا بأن النساء سوف يحطن بى ساعة منيتى • سوف يقتحمن الباب والنــوافذ لحظة أن أفقد القوة على دفعهن بعيدا عنى • ســوف ينحن ويرفرفن كالحمائم من حول العنقاء المحترقة • ســوف يكسين وجهى وراحتى بقبلاتهن الشفافة ودموعهن الصغيرة المتحــدرة • فالبنت ألما عاشقة الأطيــاف وبرتا ذات العــذارة وكل من عرفت من نســاء شــاحبات الأنوثة أو مسرفات فيهــا ممن يحسبننى نبى شهوتهن الشاذة كل هؤلاء النسوة سوف يرجعن الى جميعا باخلاصهن الخانق • أنا لا أريد من هذا شيئا • بل أريد أن أموت ميتة الحيوان فى وحدته • أريد أن أموت ميتة ضــارية ، ميتة نظيفــة فلا أجابه فى خاتمتى شــيئا الا الغضب والخوف وما شابه ذلك من صعاب الأمور •

أتفهمين يا فريدا ؟

ما زالت بى بقية من رجولة الرجل وهذا ما سأجابه به شبح المنون •

وحين يأتى النزيف الأخير ، ولسوف يأتى بعــد حــين قليل ، لا أريد أن تزج بى النساء فى فراشى أو تنهنهنى كأنى

طفل وليد · لن أبقى فى الدار يا فريدا سوف أفتح هـذا الباب وأمضى الى الصخرة · ولست أحب أن يتبعنى أحد · هذا لب الكلام يا فريدا · أريد أن أجابه الموت وحـدى · هناك أجلس مع الركام والمياه · يغمرنى ضـياء الشـمس يجللنى نور النجوم ، بلا ايد ولا شفاه ولا نساء بلا شىء الا الطبيعة الضارية ···

فريدا : أنا لا أصـدقك ، فلست أظن أن هنـاك من لا يطلب الا « الطبيعة الضارية » عندما تحضره ··

لورانس : أتقصدين أنك ترفضين يا فريدا ؟

فريدا : كلا ، بل أوافق على الاطلاق .

لورانس : أتعدينني بذلك ؟

فريدا (بالألمانية) : نعم ، وعدا أبديا والآن فلنفكر فى شىء غير هذا · سأمضى لاعداد الشاى (تهم بالانصراف) ·

لورانس : (وقد لاحظ شيئا فجأة) : يا الهى ·

فريدا : ماذا جرى ؟

لورانس : ضعى اناء الأسماك على قاعدة النافذة ·

فريدا : ولم تطلب ذلك ؟

لورانس : لكى أرقبها · لقد سطت هذه القطة اللعينـة على الأسماك ثانية ·

فريدا : وكيف علمت ذلك ؟

لورانس : كيف علمت ذلك ؟ لقد كانت الأسماك أربعا وهى الآن ثلاث ·

فريدا : لقد خرجت القطة ·

لورانس : لتلعق فريستها · عليها اللعنة ! ضعى اناء الأسماك على قاعدة النافذة ·

فريدا : محال أن تبقى الأسماك فى الشمس ، فالشمس سوف تقتلها ·

لورانس (فى هياج) : لا تعارضينى · ضعيها هناك !

فريدا (بالألمانية) : كما تريد !

(تبادر الى وضع اناء الأسماك على قاعدة النافذة)

لورانس : أتعرفين ماذا يجول ببالى ؟ آنا أظن أنك أطعمت القطة بالسمكة · ان مثل هذه الأفعال من خلالك · فأنت والقطة تلتقيان فى السمنة والشره . وكلتا كما قوية الصحة شديدة الجوع بصورة منحطة !

فريدا : كل هذا الضجيج من أجل سمكة !

لورانس : انها ليست مجردة سمكة ·

فريدا : ما هى اذن ؟

لورانس : الآن وقد تدهورت قوتى لا يسعنى الا أن أفكر كم أضعت منها فى الشحان معك ·

فريدا (تغطى وجهها بيديها فجأة) : هذا فظيع يا لورانس ·

لورانس : ماذا تفعلين ؟ أتبكين ؟ كفى عن البكاء · أنا لا أحتمل رؤية الدموع · أنها تثقل على الداء ·

فريدا : أعتقد أنك « تكرهنى » يا لورانس ·

(يلمس ذراعها بعد لحظة فى خجل)

لورانس : لا تصدقى ما أقول ·· انى أحبك · (بالألمانية) : انى أحبك يا فريدا · ضعى شيئا من الروم فى الشاى · ان صحتى فى تحسن عظيم ، فلم أحس بكل هذا الضعف ؟

فريدا (وهى تلمس جبينه) : ليتك تعود الى فراشك ·

لورانس : لو عدت اليه لبقيت فيه ومن أين لى أن أعرف أنى سأخرج منه اذا دخلته ؟ هل جبينى ساخن ؟

(تضع فريدا يدها فى حنان على عينيه ويتلو لورانس بصوت صبيانى عالى الطبقة شعرا من شعر الأطفال) :

« يا بقة السيدة يا بقتى الطائرة !
طيرى الى منزلك ·
فبيتك يشتعل وأولادك سيحترقون » !
(يبتسم ابتسامة خفيفة)

كانت أمى تغنى هذه الأغنية كلما رأت بقة طائرة ·· الأمر بسيط ·· ان أكثر الناس معقدون تعقيدا لعينا ومع ذلك فهم تافهون ·

فريدا (تتحرك ثم تقف أمام الراية) : آه أيها العنقاء العجوز ·· أيها الطائر الجسور الغاضب فى عشك المشتعل باللهيب! أعتقد أنك تستسلم بعض الشىء للعاطفة الساذجة ·

لورانس (يميل الى الأمام فجأة) : هات الشاى لثلاثة !

فريدا : من الثالث ؟

لورانس : برتا ! ·· لقد عادت من لندن بأنباء المعرض · (ينهض عن مقعده فى جهد) ·

فريدا : ماذا أنت فاعل ؟

لورانس : انى خارج للقائها ·

فريدا : اجلس أيها الأحمق ! سأقابلها أنا · واياك أن تجسر على دعوتها للاقامة فى هذا البيت ·· فان دعوتها تركت البيت !

(تخرج)

لورانس : كاك ! كاك! كاك· كاك·· أيتها الدجاجة : أتحسبين أنى حريص على زيادة الدجاج من حولى ؟

(يتلوى فى ألم على مقعده لحظة ثم يقذف بالغطاء ويقف على قدميه فى جهد ، ويتعثر فى دوار ثقيل الأنفاس،

ويتحرك صوب باب المدخل الداخلي حتى يبلغه ويتوقف وقد أدركته نوبة سعال- يتطلع خلفه في قلق الى المقعد قائلا) : « كلا ، كلا • عليك اللعنة •• لن أعود اليك ! » وينظر الى العنقاء وينصب قامته في شجاعة فائقة ويخرج •

وتعود فريدا بعد لحظات ومعها برتا، وهي امرأة صغيرة الجسم • خفيفة الحركة من سيدات الطبقة الوسطى الانجليزية ذات صوت مبادر وعينين سريعتي التنقل كالأطفال) •

فريدا : يا الهي ! لقد نهض من مقعده !

برتا : أكان ينبغي أن يلزم مقعده ؟

فريدا : لو أصابه نزيف آخر لقتله • ان أقل جهد يبذله يحتمل أن يسبب له نزيفا • أين أنت يالورنزو ؟

لورانس (من الخلف) : لا تكاكي ، أيتها الدجاجة المشتاقة •• اني أجيئكما بالشاي •

برتا : اذهبي اليه • اجعليه يكف عن هذا !

فريدا : لن يكف •

برتا : أيريد أن يموت ؟

فريدا : كلا • كلا • كلا • كلا ؟ انه بغير رئتين ، وهو مع ذلك يتنفس • ان قلبه مستهلك ومع ذلك فهو يخفق ما أفظع رؤية هذه المكابدة • ليته يكف • ليته يستسلم ويسلم الحياة !

برتا : فريدا !

فريدا : ان جسده بيت صنع من ورق القماش واندلعت فيه النيران ، فجدرانه شفافة أضاءها اللهيب ! كان ينبغي أن تخرج الروح من أجساد من يشرفون على الموت •• كان ينبغي أن تنطفيء رويدا رويدا قبلما ينتهي الجسد كان ينبغي ألا تراها تتوهج بهذا البريق المخيف وهي تلتهم الجدران التي تؤويها !

برتا : أنا ما اعتقدت قط أن لورنزو يمكن أن يموت . وحتى هذه اللحظة لا أعتقد أنه سيموت .

فريدا : أيستطيع أن يحقق ذلك ؟ أيستطيع أن يعيش بغير جسد ؟ أقصد مجرد لهب بلا شيء ياكله اللهب فيذكو به .

برتا : العنقاء تستطيع .

فريدا : العنقاء أسطورة أما لورنزو فهو انسان .

برتا : أعلم أن هذا كان رأيك دائما ولكنك مخطئة .

برتا : أنت لن تعترفي بأن لورنزو اله .

فريدا : كلا لقد عرفته في الفراش .

برتا : ان في الانسان ما يعرف فوق ما يعرفه اللحم .

فريدا : ولكن معرفة اللحم في المقام الأول .

برتا : أنا أخالفك في الرأى .

فريدا : وتخالفين لورانس اذن في الرأى أيضا . فقد كان دائما يؤكد أنه لا سبيل الى معرفة النساء حتى تعرفه أجسادهن .

برتا : أعتقد يا فريدا أنك أنت التى أبقيتيه كل هذا الابقاء في جسده !

فريدا : ان كنت قد فعلت هذا فقد أعطيته شيئا يشكرني علية .

برتا : لست واثقة من أن هذا شيء يستحق الشكر .

فريدا : ماذا كنت فاعلة به لو قدر لك أن تنشبي فيه مخالبك .

برتا : مخالبي ؟ .. فريدا !

فريدا : اذن لكنت تنزعينه من جسده نزعا ، ترى أين يكون الآن ؟ .. في الهواء ؟ نعم ، دائما أنا الغبية وأنت صاحبة الفهم العميق !

برتا : فريدا !

فريدا : انك بكل بساطة تجهلين الموضوع · ان معنى لورانس يفوتك ، انه يمجد الجسد فى جميع آثاره · لـكم يحتقر تزمت الناس الذين يريدون اخفاء الجسد ·

برتا : هكذا نعود الى شجارنا القديم يا فريدا ·

فريدا : نعم ، وكفانا هذا ، فلا نحاول أن نقتسم مابقى من لورنزو !

برتا : ان ما بقى من لورنزو شىء لا يمكن اقتسامه !

فريدا : اصمتى ! ··· انه قادم ·

برتا : (تتقدم بضع خطوات صوب الباب) : لورنزو!

لورانس (لا يرى وهو يتكلم) : « يا قطتى الصغيرة ، يا قطتى الصغيرة ، أين كنت » ؟

برتا (فى مرح) : « كنت فى لندن لأرى الملكة ! »

لورانس (يقترب) : « يا قطتى الصغيرة ، يا قطتى الصغيرة ، وماذا فعلت هناك » ؟

برتا : (ينسجم صوتها قليلا مع صوته) طاردت فأرا صغيرا ·· تحت مقعد !

(يظهر لورانس عند الباب ضاحكا وهو يدفع مائـدة صغيرة ذات عجلات تحمل أدوات الشـاى · تحملق فيه برتا مرتاعة) :

لورانس : نعم ، أعلم ذلك ·· أعلم ذلك ·· أعلم أنى أبدو كجثة محنطة بغير اتقان ألا يدل مظهرى على ذلك ؟

برتا (بشجاعة) : انك فى صحة جيدة يا لورنزو ·

لورانس : انالحمرة فى وجهى ليست من طلاءالغوانى · انها الحمى ! انى أحترق ، أحترق ، ومع ذلك لا أصـير الى رماد · لقد أدهشت جميع الأطباء ، وخيبت آمالهم كذلك ·

أما أرملتى المترقبة هذه فهى قد قطعت الأمل . (تتقدم برتا لتعينه على دفع المائدة) لا تزعجى نفسك ففى استطاعتى أن أدفعها وحدى .

فريدا : انه يرفض أن يهدأ . انه يرفض أن يرتاح !

لورانس : كاك ! كاك ! كاك ! خير لك أن تراقبى الديك ، أيتها الدجاجة المشتاقة العجوز !

فريدا : وأنت تبدو كالديك الفصيح البديع فى هذا الشال الأزرق الفاتح المشرب بحمرة خفيفة !

لورانس : من ذا الذى ألقاه على ؟ . أنت ، أنت ألقيته على أيتها اللبؤة (يقذف به بعيدا) ان الراحة لم تفسدنى أبدا يا برتا .

برتا : اخلد الى الراحة قليلا ، وبعدها نخرج ثانية للنزهة فى الزورق !

لورانس : نخرج ثلاثتنا ثانية للنزهة فى الزورق ؟!

« ثلاثة من الحمقى فى برميل .. برتا وفريدا وآكل النار العجوز ! » .

برتا (تشد لحيته) انتبهى ! الآن لابد أن أمشط لحيتى (يخرج مرآة صغيرة ومشطا) .

فريدا : انه شديد الفخر بسالفيه الأحمرين البشعين !

لورانس (يمشط لحيته) : انها تغار من لحيتى . كل النساء يكرهن سوالف الرجال . هن يمقتن كل شىء يميز الرجال من النساء يا برتا .

فريدا : بالعكس تماما (تصب الشاى) .

لورانس : انهن يحتوين الرجال فى أجسادهن .. ولكن بأمل خفى واحد هو ألا يستطيعوا الفكاك منهن ، وأن يقعوا فى أسرهن الى الأبد .

فريدا : أى كلام هذا الذى تلقيه عـلى مسـامع آنسة عـذراء !

لورانس : ها قد عادت الى سلاطتها ثانية يا برتا ... هذه المخلوقة العجوز ، ذات التفكير الداعر ! انها تشمت فى عزوبيتك !

فريدا : أنا أشمت فى عزوبيتها ؟ محال ! أنا أظنها من أسعد الناس فليس هناك ما يلزمها بأن تسمع مائة مرة فى اليوم أن الرجل هو الحياة وأن المرأة ما هى الا قطعة سالبة من البروتوبلاسم .

لورانس : أنا ما قلت سالبة قط ، وانما قلت دائمـا شريرة .

(يضع المشط جانبا ويشخص الى المرآة) أليست هيئتى كهيئة الشيطان ؟

فريدا : اسمعى يا برتا ، ان آراءه فى الجنس تمتد الآن الى الكون كذلك ! فحين تشرق الشـمس فى الصـباح ... أتعرفين ماذا يقـول ؟ كلا لن أردد ما يقول ! وحين تغـرب الشمس .. لا داعى للكلام فستسمعينه يتكلم بنفسك .

لورانس (يصدر صوتا بلسانه) : نعم ، فأنا أكـرر نفس العبارة . وسوف تسمعين ما أقول بعد دقائق معدودة (يضع المرآة جانبا) . والآن يا برتا !

برتا : نعم ، يا لورنزو !

لورانس : أنت لم تقولى شيئا حتى الآن .

برتا : لم أقل شيئا ؟ فى أى موضوع ؟

لورانس : فيم تظنين أنى أرسلتك الى لندن ؟

برتا : لتبعدنى من طريقك !

لورانس : هناك سبب آخر .. تكلمى ، عليك اللعنة ! المعرض !

ماذا كان رأيهم فى لوحاتى !

برتا : رأيهم ··

فريدا : تكلمى يا برتا · قولى الحقيقة · فهذا الوحش لن يهدأ حتى يسمع رأيهم !

برتا : رأيهم ··

فريدا : ان المعرض فشــل فشــلا تاما ! بالضبط كما تنبأت له !

لورانس : تقصدين أنهن « أحبوا » لوحاتى ؟

فريدا : أحبوا لوحاتك ؟ انهم وصفوها بأنها مغثية !

لورانس : آه ! ·· لقد أصبت النجاح انهم قالوا انى لا أعرف كيف أرسم ؟ أرسم كالطفل ؟ وصفوا رسومى بأنها غريبــة تدعو الى الســخرية ؟ ثقيلة بلا شــكل ولا قالب ، فاضحة ، شائهة وحشية بشعة ·

برتا : لابد أن تكون قد رأيت أقوال الصحف وقرأتها بنفسك ·

لورانس : أهذا بالنص ما تقول ؟

فريدا : نعم ، هذا بالنص ما تقول !

لورانس : وماذا كان رأى الجمهــور ؟ ماذا كان رأى الجمهور ؟

فريدا : الجمهور ضحك !

لورانس : ضحك ؟

فريدا : طبعا ضحك · انك لست برسام يا لورنزو · انك كاتب ! وكيف تكون رساما وانت لا تستطيع ان ترسم خطا مستقيما !

لورانس : هذا صحيح ، ولكنى أستطيع أن أرسم خطا معوجا يا فريدا · وهــذا ما يجعلنى أنفث « الحيــاة » فى لوحاتى · كيف كان الاقبال عــلى المعــرض ؟ كم كان عدد المشاهدين ؟

برتا : بعد أن حدث الاضطراب ، اضطروا الى وضع حبل لمنع المتجمهرين ·

لورانس : الاضطراب ؟ أى اضطراب ؟

فريدا : أنظرى اليه· ان الوحش قد استخفته النشوة !

لورانس : استمرى · خبرينى بما حدث !

برتا : حاولت جماعة من الأعضاء فى ناد من نوادى السيدات تمزيق لوحة آدم وحواء ·

(يضحك لورانس حتى يهتز بنيانه)

فريدا : كف عن الضحك يا لورنزو ·

برتا : كان هذا ما لفت أنظار البوليس ·

لورانس : البوليس ! (ينهض) ماذا فعلوا بلوحاتى ؟· هل أحرقوها ؟ هل حطموها ؟

برتا : كلا ، فقد حصلنا على أمر منعهم من احراق اللوحات ·

لورانس : هل اللوحات فى أمان ؟

برتا : اللوحات فى أمان يا لورنزو ·

فريدا : اجلس فى هذا المقعد والا اضطررت أن أعيدك الى الفراش !

(تحاول أن تجلسه بالقوة ، فيلطم وجهها بوحشية) ·

برتا : لورنزو !

لورانس : انها فخور بقوتها · انها تشمت فى ضعفى ، حاولى أن تعيدينى الى الفراش · حاولى ·· أتحداك ان أن تلمسينى !

فريدا : اجلس يا لورانس فى هذا المقعد والا تجدد النزيف ·

(يحملق فيها لحظة ثم يطيعها فى بطء)

لورانس (فى ضعف) : أعيدى الى الشال • ان ضــوء الشمس يضعف واله الشمس الفتى ذو الشعر الذهبى قد بدأت تغويه بغى الظلام •••

فريدا : انه يتأهب لترديد ملاحظاته التقليدية عـــلى الغروب •

(تلف الشال حوله)

لورانس : نعم •• اللوحات •• انها لم تكن جيدة جدا ولكنها كانت تفيض بالحيوية الضارية •

برتا : انها كانت تفيض بك • ولكن لم أردت أن ترسم يا لورنزو ؟

لورانس : ولــم أردت أن أكتب ؟ لأنى فنــان •• وما الفنان ؟ •• انسان تجاوز المدى فى حبه للحياة حتى غدا يبغض الحياة ويسعى ليلطمها بقبضته كما لطمت فريدا •• حتى يعلمها أنه عليم بألاعيبها وأنه لا يزال سيدها !

(يبدأ النور الأصفر الدخانى فى الخفوت)

آه يا برتا ! آه يا فريدا ! •• لقد أردت أن أمد ذراعى الطويلتين الحنونتين حتى أعانق الدنيا كلهــا ! ولكن ليس فنى بكاف أن نجابه الحياة بالحب ، ولذا فقد شددت قبضتى وضربتها ثم ضربتها • ان الألفاظ لم تكن تكفى •• ولذا فقد لجأت الى اللون أيضــا • لجأت الى الرســوم ورســمت بالأسلوب الذى كتبت به ! وكان فنى ضاريا لا مكان للخجل فيه ! « هذه » هى الحياة • هكذا قلت لهم : ان الحيــاة من « هذا » الذى ترون ! عجيبة ! مظلمة ! هائلة ! فصــادروا كتبى وأرادوا أن يحرقوا صورى ! ــ هذه هى الحقيقة •• حين نتطلع الى الشمس لأول مرة تغشينا بضيائها • والحياة •• تعشى ••

(يجلس ويميل الى الأمام)

ان اله الشمس ٠٠ يغرب ٠ لقد أغوته بغى الظلمات٠

فريدا : الآن سيردد عبارته ٠٠ ضعى أصابعك فى أذنيك !

لورانس : الآن استولت عليه ، انهما يتباضعان ! واله الشمس خارت قواه فقد سلبته اياها بغى الظلمات ، وهى الآن تتهيأ لتدميره ٠ انها تلتهمه ٠٠ ولكنه لن يبقى أبدا مغلوبا على أمره ٠ ولسوف يخرج من أحشائها ثانية فيكون نور ٠

وفى النهاية سيكون دائما نور ٠٠ وأنا رسول هذا النور

(ينهض فى مشقة)

برتا : لورنزو !

فريدا : انتبه لنفسك يا لورنزو ٠

لورانس : صمتا ، لا تلمسينى ٠ (يترنح فى طريقه الى النافذة الكبيرة) فى النهاية سيكون نور ٠٠ نور ، نور !

(يرتفع صوته ويمد ذراعيه كأنه نبى من أنبياء الكتاب المقدس)

نور عظيم ! ٠٠ « نور » عظيم يعشى الأبصار ويملأ أرجاء الكون ! و « أنا » ٠٠ رسول هذا النور !

(يترنح ويمسك بفمه)

فريدا : لورانس !

برتا (مذعورة) : ماذا حدث ؟

فريدا : النزيف !

برتا : لورنزو !

(تحاول أن تندفع نحوه ولكن فريدا تمسك بذراعها)

لورانس : لا تلمسانى يا هاتان أريد أن أجابه الموت وحدى ٠٠ لا تتحركا حتى يقضى الأمر ٠

(يبدأ في التهافت درجة درجة كأنما تدفعه الى الأرض قوة خفية ، ولكنه لا ينفك يتعلق بالجدار ويتحرك بحذائه وهو يلهث من قلة الأنفـاس ، حتى يبلغ البـاب ويفتحه) لا تتعباني ٠

(يخـرج)

برتا (تجاهد بعنف مع فريدا) : دعيني أذهب ، دعيني أذهب ، أريد أن أذهب اليه ٠

فريدا : وعدته بأن أبعد عنه النساء !

برتا : اذهبي أنت ٠

فريدا : لن يذهب اليـه أحد ٠ لن يذهب اليـه أحد ! لا أنت ولا أنا ! لن تقربه امرأة !

برتا : محال أن يمـوت وحيـدا ! لن أتركه ! ما من انسان يتركه يموت وحيدا !

فريدا (تتعذب) : أنا سأتركه ٠ لقد وعدته أن أتركه!

(تهب الريح فتفتح الباب المؤدى الى الفراندة ، ويسمع صوت الأمواج وهي تتكسر ٠ وترفرف رآية العنقاء عـلى الحائط وتوشك برتا أن تتملص من قبضة فريدا ، ولـكن فريدا تمنعها ثانية بعنف ٠ تصرخ برتا قائلة : « يا لك من وحش ! » ثم تنهار منتحبة على أرض الغرفة ٠ يسود الصمت لحظات ، ثم يسمع صوت لورانس خافتا كأنه آت من بعيـد قائلا) : فريدا !

(وفي لحظة واحدة تدفع فريدا المـرأة المنتحبة بعنف من طريقها وتندفع الى الفراندة كطائر مجنح جسيم) ٠

فريدا (ملتاعة وفي حنان لا حد له تقول بالألمانية) : اني قادمة ! اني قادمة يا حبيبي !

موت قومسيونجى

للكاتب الأمريكى : آرثر ميلر

من المفارقات الغريبة أن يلمع اسم الكاتب الأمريكى آرثر ميلر فى السنة الأخيرة من زواجه من الممثلة الجميله مارلين مونرو ، فتصل شهرته الى رجل الشارع الذى لا يحفل كثيرا بالأدب .

ولكن آرثر ميلر لم يكن نكرة قبل هذا الزواج ، بل كان علما من أعلام الأدب الأمريكى المعاصر ، وكان مكانه فى المقدمة من كتاب المسرح . وأهم عمل من أعماله هو هذه المأساة « موت قومسيونجى » التى ظهرت سنة ١٩٤٩ ، ونالت جائزة يوليتزر المشهورة فى أمريكا وجائزة حلقة النقاد ، وأخذت مكانها فى المسرح العالمى حتى التفتت اليها السينما فأخرجها ستانلى كرامر للشاشة البيضاء .

وأهمية هذه المأساة فى أنها صورة من صور عصرنا ، صور قاسية بشعة لما انتهى اليه الانسان فى هذه الحضارة الصناعية التجارية التى تطحن الانسانية طحنا ، وهى صورة أمينة لأنها تصور الضعف الفردى وسط مجتمع فيه من وحوش الغاب شىء كثير . وبطل هذه المأساة ليس أميرا ولا ملكا ولا عبقريا فذا ولكنه واحد من بسطاء الناس يعيش فى دنياه البسيطة ويزاول عمله البسيط ، ويحلم أحلامه

البسيطة ، ولكن الحياة لا ترحمه لأنه لا مكان فيها للبسطاء ٠ هذا هو ويلى لومان القومسيونجى الذى أفنى عمره ، أفنى خمسا وثلاثين سنة بالضبط ، فى خدمة شركة من الشركات يعيش على ما يتقاضاه من مرتب صغير وعمولة صغيرة عن كل سلعة يبيعها ٠

خمسا وثلاثين سنة قضاها ويلى لومان يسوق سيارته الشفروليه ثم سيارته الستودبيكر آلاف الأميال كل أسبوع مسافرا بحقيبتيه المليئتين بالعينات ، من نيويورك حيث يقيم مع أسرته ، زوجته ليندا وولده الأصغر هارولد أو هالى كما يسمونه ، الى بوسطون فى الشمال الى نيوهامبشير ومين ، والآن وقد أرهقه العمل وبلغ سن الشيخوخة وتجاوز الستين، ولم يعد قادرا على سحر الزبائن كما كان يفعل فى شبابه يجيئه من مدير الشركة خطاب يقول ان الشركة لن تدفع له مرتبا شهريا وأنه لن يحصل منها الا على العمولة عما يبيع من بضاعتها ٠

ولكن شيخوخة ويلى لومان لم يحطمها هذا الخطاب وحده ، وانما حطمتها أيضا كل أحلامه الضائعة ، وأخص هذه الأحلام حلمه الكبير ، أكبر حلم فى حياته ، وهو ولده الأكبر بيف ، الذى كان يرجو له النجاح فى الحياة فلم يخرج منه الا شاب هايف هلفوت ، بلغ الخامسة والثلاثين من عمره يتقلب من عمل الى آخر دون أن يستقر فى الحياة على شىء ، بعد أن كان بيف زينة الفتيان أيام الدراسة الثانوية وأبرعهم فى كرة القدم وكان كل الناس يشيرون اليه بالبنان ، حتى انه فى سنة البكالوريا تلقى جملة عروض بمنح دراسية من جامعات مختلفة ، واختار منها جامعة فرجينيا ٠٠ ولكن بيف رسب فى البكالوريا ٠ وكان من الممكن أن ينهض من عثرته لولا أن حادثا مؤسفا حدث له فغير مجرى حياته كلها ٠

ونحن الآن فى بيت ويلى لومان بضاحية بروكلين فى نيويورك ٠ وهو بيت صغير تحيط به تلك العمارات الشاهقة

البشعة من كل مكان ، بناه ويلى لومان بالتقسيط منذ ثلاثين سنة ، ولم يبق من ثمنه الا القسط الأخير • وحين بناه ويلى لومان لم تكن العمارات الشاهقة قد أحاطت به بعد ، ولكم كان يحلم أن تكون له حديقة كبيرة حول المنزل يزرع فيها الخضر ، ولكن العمارات العالية من حوله لم تترك له الا فناء خلفيا مساحته ثلاثة أمتار فى ثلاثة أمتار •

وفى فراشها تجلس زوجته ليندا وهى امرأة فى سن الثالثة والخمسين من عمرها شاب شعرها ، وقد ايقظها حركة سمعتها ، وتعلم أن زوجها عاد من رحلته ، فتلبس الروب منادية : « أهذا أنت يا ويلى ؟ » فيجيبها لومان بالايجاب •

ولا يلبث ويلى لومان أن يدخل ويخلع جاكتته وكرافتته فتساعده ليندا على ذلك بصورة آلية ، وهى تنظر اليه نظرة فيها استفهام كثير وقلق كبير ، فهو قد عاد من طوافه قبل الأوان • وتسأله ليندا ان كان قد حدث شىء أو كانت سيارته قد انكسرت فيجيبها فى غلظة انه لم يحدث شىء البتة • كل ما حدث أنه عجز عن المضى فى سواقة سيارته الى آخر الطريق فعاد أدراجه •

وبعد أن يهدأ ويلى لومان يروى على زوجته كيف أن زمام السيارة كان يفلت من يده حين بلغ ضاحية يونكرز ، فكان يجنح بالسيارة كثيرا الى اليمين وهو يسوق بسرعة ستين ميلا فى الساعة دون وعى منه ، ومرت عليه خمس دقائق شرد فيها ذهنه تماما فليس يذكر منها لحظة واحدة • ولولا لطف الله لكان جنوحه الى اليسار ولاصطدم بالسيارات الأخرى ، انه يعلم أن نظره سليم ، ولكنه فى الأيام الأخيرة لم يعد له سلطان على أفكاره ، ومع ذلك فلابد من سفره كل أسبوع الى ولاية نيوانجلند لتصريف بضاعة الشركة •

وتنصحه ليندا ، وهى تساعده على خلع حذائه ، أن يطلب الى مستر هوارد مدير الشركة أن يسمح له بالعمل فى نيويورك ، ولكن ويلى لومان يتحسر على أيام المدير السابق

مستر فاجنر والد هوارد لأنه كان رجلا شهما يفهم متـاعب مرؤوسيه ويساعدهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وكان يختصه هو بالذات بكل عطف ،فهو الذى فتح أسواق الشمال للشركة بكده المتواصل • وتلح عليه ليندا فى ذلك فيتشجع ويلى لومان ويعدها بشرح حالته لهوارد ، لعله يعفيه من هده الـرحلات المضنية ويعينـه فى وظيفـة فى مركز الشركة بنيويورك •

ويتجادل ويلى لومان وهيلدا فى أمر ولدهما الأكبر بيف الذى عاد اليهما آخيرا • فقد تشاجر لومان وبيف قبل سفر لومان ، وكان سبب الشجار أنه سأل ابنـه ان كان يكسب رزقه • انه يحتار فى أمر بيف • انه ترك البيت منذ اكثر من عشر سنوات وهو لا يكسب الآن الا خمسة وثلاثين دولارا أسبوعيا ، وينتقل من عمل الى عمل ومن ولاية الى ولاية دون أن يستقر على شىء • ان من كان فى سنه وجب أن يكون ربا لأسرة ، ولكن عيب بيف أنه رجل كسول هايف لا يحب العمل، والا لشق طريقه فى الحياة • وهذا آخر عمل كان به : عامل زراعى فى تكساس ، وهو قد تركه •

وتدافع هيلدا عن ولدها بيف قائلة انه ليس كسولا ، وانما هو يبحث عن موهبته الحقيقية • فيوافقها ويلى لومان على ذلك وهو يعجب كيف يضيع شاب مثله ذكى قادر جذاب الشخصية صبور على العمل فى أمريكا بلد الفرص والآفاق الواسعة • كلا • ان بيف ليس هلفوتا كسولا • فهذه آخـر صفاته •• انه يذكر كيف كان بيف فى المدرسة الثانوية فخر لاعبى الكرة وموضع اعجاب الجميع • انه يعرف أن المخترع أديسون وجودريتش صاحب اطارات جودريتش وغيرهما لم تتفتح مواهبهم الا فى سن متأخرة • وهـو يراهن ان ولده بيف سينجح آخر الأمر ، ويتوه لومان فى الذكريات •

ويستيقظ الابنان بيف وهابى عـلى صـوت أبيهما • ويبدى هابى انزعاجه على ما آلت اليه حال أبيه ، فهو كلما خرج بسيارته فى الأيام الأخيرة يرتكب مخالفات المـرور ،

فهو يقف عند النور الأخضر وينطلق عند النور احمر ، وهو قد كثرت حوادثه · ويرجو هابى الى أخيه الأكبر بيف أن يصفو لأبيه وأن ينسى ما كان بينهما من شجار حاد فى الصباح قبل خروجه الى العمل · ان شيئا ما يعترى أباهما ، فهو يحدث نفسه وهو كثير الذهول·· بل هو كلما كلم نفسه بدا وكأنه يكلم بيف بكلام غير مفهوم · فلا شك أن قلقه على مستقبل بيف وراء هذه الأزمة التى يمر بها ·

ويجيب فى غموض أنه ليس وحده المسئول عن انقباض أبيه ، فهو يعلم أن فى عقل أبيه شيئا آخر يجثم على صدره ، ويملؤه بهذه الخواطر السوداء · أما هو فلا يعرف لنفسه هدفا فى الحياة · انه جرب العمل فى المدن فضاق به وطلب الخلاء وجرب العمل فى الحقول فضاق به وطلب المدن ·· انه اشتغل كاتب شحن وقومسيونجيا وتاجرا وراعى خيل ، وكان فى كل مرة يحن الى ما ليس له · انه أضاع حياته وهو ليس بشاعر كما يقول أخوه هابى بل رجل مبلبل · ولعل الزواج يعلمه الاستقرار فيصبح مثل هابى سعيدا ناجحا ·

ولكن هابى يقول انه أبعد ما يكون عن السعادة · انه حقا مستقر لا بأس بدخله ، يقيم بالقرب من والديه ويملك سيارة · ولكن أى أمل له فى الحياة ؟ انه مساعد مدير قسم البضائع ، ولم يبق له الا آن ينتظر موت المدير ليرقى الى وظيفته ·· وهبه أصبح مدير قسم البضائع فماذا بعد ذلك ؟ ان عنده كل ما يريده : شقته وسيارته وعدد لا يحصى من البنات · ومع ذلك فهو يحس بالوحدة القاتلة · ان موظفى المحل يفسحون الطريق للمدير حين يمر ، وهو لا يفضله فى شىء · والسبب بسيط انه قوى بماله وآل لومان لا يعرفون كيف يجمعون المال · انه يحلم مثل بيف أن يكون له فى يوم من الأيام مزرعة ، نعم · مزرعة جميلة يملكها الأخوان لومان معا · هذه فكرة بارعة · ولكن اذا كان هابى لا يعرف كيف يجمع المال فهو يعرف كيف يغازل النساء منذ أن علمه أخوه بيف كيف يغازل النساء · وهو متخصص فى اغواء

نساء رؤسائه ، ولا شك أن روح المنافسة قد اتخذت هـذه الصورة عنده ·

ويشجع بيف أخاه هابى على التفكير فى شراء المزرعة · انه يعرف مصـدرا يقترض منـه عشرة آلاف دولار لهـذا الغرض · انه كان يعمل فى متجر بيـل أوليفر منـذ عشر سنوات ، وكان بيل أوليفر صاحب المتجر يحبه حبا عظيمـا ويقدر كفاءته · ويوم خرج من خدمتـه أحاط بيل كتفيـه بذراعه وقال : « ان احتجت لأى شىء يا بيف فتعال الى » انه سيذهب الى بيل أوليفر ويطلب اليه اقراضـه هـذا المبلغ لشراء المزرعة · ولكن بيل أوليفر كان يعتقد أن بيف سرق صندوقا من كرات الباسكت بول من متجره · ولعله الآن قد نسى الموضوع كله بعد فوات عشر سنوات · ولكن بيل أوليفر لم يطرده من عمله · وبيف لومان لا يعرف ما خطبه · فى كل مرة ترك فيها عمله كان يخرج بعد أن يسرق شيئا ، شـيئا عديم القيمة ، شيئا لا يستحق السرقة ، وكان أحيانا يضبط ويطرد وأحيانا يختفى من تلقاء نفسه ·

كل هذا والأب ويلى لومان مسترسل فى هذيانه · انه لا يتوه فى الذكريات كما يفعل غيره ، بل يستحضر الماضى البعيد ويعيش فيه كأنه يحياه فعلا كلما جلبت به نوبة من هذه النوبات ، فاذا به يرى النـاس والأشـياء رؤية العين ويحدثهم ويسمع كلامهم كأنهم ماثلون أمامه فعلا ·

ويدخل عليه بيف وهابى وهما فى سن الدراسة الثانوية ، يملأ ويلى لومان عينه اعجـابا بولده بيف الذى سيبرز فى مباراة الـكرة السـنوية · وويلى لومان يداعب الفتى بيف قائلا انه لا ينبغى له أن يأخذ البنات مأخذ الجد فهو مازال صغيرا ، على كل حال لا ينبغى أو يعـد احداهن بشىء ، لأن البنات يصدقن وعود الشبان · ان البنات يلتففن حول بيف الوسيم ويشترين له الجـلاس والشـكولاتة · فليلعب بيف ما أحب أن يلعب ولكن حذار أن يعد بنتا بشىء · ان المستقبل أمامه عظيم ، والجامعات ستتخاطفه حـين يحصـل عـلى البكالوريا · وبيف لومان نفسه أصبح رجلا صاحب نفـوذ

فهو يستطيع أن يقابل عمدة بوسطون ووجهاء القوم ، وهم يحبونه • ما أكثر أصدقاءه • ما أكثر أصدقاء القومسيونجى وبفضل أصدقائه ومحبيه سيساعد ويلى لومان ولديه على شق طريقهما في الحياة على أحسن وجه • ويدخل الفتى برنارد ابن جاره تشارلى ، وهو زميل بيف فى المدرسة ، ويطلب من بيف أن يكف عن التدريب على الكرة وأن يمضى معه لمذاكرة الدروس ، فالامتحان قريب • ثم ان مستر بيرنياوم مدرس الرياضة يقول ان بيف سيرسب في الرياضة اذا لم يذاكر المقرر وهو لن يعطيه نمرة واحدة فوق ما يستحق • وهذا انذار أخير • واذا لم يحصل بيف على البكالوريا فلن تقبله جامعة فرجينيا ، وان كانت قد عرضت عليه منحة دراسية لتفوقه في كرة القدم ، ثم ينصرف برنارد قائلا انه سينتظر بيف في غرفته للمذاكرة •

ويدافع ويلى لومان عن ولده بيف قائلا ان برنارد فتى هزيل الجسم يلبس نظارات • امارات الأنيميا بادية عليه ، وهو لهذا يغار من بيف وتفوقه فى كرة القدم •

ولكن برنارد مخطىء ، فالدروس ليست كل شيء ، وأهم من الدروس أن يكون الفتى صاحب شخصية قوية جذابة ومظهر جميل وموضعا لحب الناس • وسيرى برنارد وكل الفتيان الذين يكدون أبصارهم وأجسادهم بالدراسة أن بيف سيسبقهم في معترك الحياة •

وتتمثل له ليندا وهي بعد في شبابها الناضج تحمل سبت الغسيل ، فيأخذ بيف وهابى منها السبت ويخرجان بالغسيل لنشره • وتجلس ليندا ليحدثها ويلى عن ثمرة رحلته الى بوسطن في ذلك الأسبوع • فيقول متفاخرا انه باع نحو خمسمائة قروسة في بروفيدانس وسبعمائة فى بوسطن • وتبتهج ليندا وتحسب عمولته بالقلم والورقة فتجد أنه كسب في أسبوع واحد مائتي دولار •• ولكن ويلى لومان لا يلبث أن يتواضع في الرقم فيقول انه لم يبع في الرحلة كلها الا مائتي قروسة ، فربحه منها نحو سبعين دولارا فقط •

ويوزع الزوج وزوجته ربح الأسبوع على الديون ٠ فقسط الثلاجة الكهربائية ١٦ دولارا وقسط الغسالة الكهربائية ١٠ دولارات وقسط المكنسة الكهربائية ٤ دولارات واصلاح السيارات ٤ دولارات ٠ المهم ان مجموع الديون المستحقة بعد ٤ أيام يبلغ ١٢٠ دولارا ٠

ويغتم ويلى لومان لقلة مكسبه رغم أنه يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا ، ولكن زوجته تعزيه باسمة وهى تقول : ان الأسبوع المقبل سيكون أحسن من هذا الأسبوع وتجلس ليندا وتخرج من مريلتها جوربها وتبدأ فى رتقه ويعود ويلى الى شكواه ٠ ان الناس لا يلتفتون اليه ٠ انه يعلم السبب ٠ انه ثرثار مهذار ٠ وجاره تشارلى رجل ناجح لأنه قليل الكلام فالناس تحترمه ٠ انه يعرف السبب ٠٠ ان ملبسه خال من الأناقة ٠ وتهدئه ليندا قائلة فى حب عميق : انه أعظم الرجال أناقة فى نظرها ٠

وكأنما فتحت هذه العبارة طاقة فى عقل ويلى لومان ، فاذا بليندا الجالسة أمامه تختفى فى ظلام غريب واذا به يسمع ضحكات امرأة ، ولكنه يستمر فى مخاطبة ليندا قائلا: انه يغبنها كثيرا ، ولكنه يتمنى أن يعوضها عن هذا الغبن ولكنه يسمع ضحكات المرأة البدينة ويسمعها تقول له وهى تتطلع الى وجهها فى المرآة ، ان الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ٠ ولابد لها من الانصراف ، وموعدهما اذن بعد أسبوعين عند عودته الى بوسطون ، وهى تشكره على الجوارب الحريرية التى أهداها اليها ٠ انها تتمتع معه بأطيب الأوقات فهو رجل مهذار مسل ، وهى تحب الضحك ٠ ثم تنصرف المرأة ، وتمثل أمامه زوجته ليندا من جديد وهى ترتق جوربها الحريرى وتقول انه أعظم الرجال أناقة فى نظرها ٠ وتضيف فى رفق انه لم يغبنها قط ٠

ويتنبه ويلى لومان فى أحلامه الى أن ليندا ترتق جوربها ٠ فيغضب ويعنفها طالبا اليها أن تكف عن ذلك ، وأن تقذف

بالجوارب القديمة كلها فى الشارع ، فهو لا يقبل نظرياتها فى الادخار ٠

وينزل هابى في بيجامته ، هابى الرجل لا هابى الغلام، ويراه أبوه فى رجولته الكاملة فيفيق من احــلامه البعيــدة ويعود الى واقع الحياة ٠ ويسأل هابى أباه عن سبب عــودته الباكرة ، فيروى عليه ما اعتراه من نوبات فى الطــريق ٠ ويتأمل ويلى لومان ما آلت اليه حاله ٠ فهو نموذج للفشل فى الحياة ٠ شيخ تجاوز الســتين انهارت صــحته وأعصابه من كثرة العمل ، وهو رغم ذلك مضطر الى الاستمرار فى العمل ليكسب قوته اليومى ٠

ويلوم ويلى لومان نفسه عــلى أنه لم يستمع الى نصــح أخيه الأكبر بن ويذهب الى الأسكا مغامرا وراء المال ٠ نعم ان أخاه بن مثل للرجل الناجح فى الحياة ٠ ان فى الحيــاة لغزا لا يفهمه ويلى لومان ، ان أخاه بن عرف ما يريده فى الحياة وخرج وراءه فكان له ما أراد ٠ ان الحياة غابة وأخوه بن دخلها وهو فى السابعة عشرة من عمره ثم خرج من الغابة وهو فى الحادية والعشرين ثريا ثراء قارون ٠ فليعلم هابى اذن أن الحياة صدفة فيها لؤلؤة ولكن الصدفة لا تكسر عــلى وسادة ناعمة فليتعلم هابى هذا الدرس من عمه ٠

ويأتى جارهم تشارلى والد برنارد بعد أن سمع الضوضاء مستفسرا عن سبب عــودة ويلى ٠ وحين يعلم ما أصــابه فى الطريق يعرض على ويلى لومان وظيفة عنده تمكنه من البقاء فى نيويورك وتجنبه السفر المتواصل ٠ ولكن كبرياء ويلى لومان تجعله يرفض هــذا العرض فى غلظة وكيف يشــتغل موظفا عند جاره ؟

ويشعر ويلى لومان بالذلة فيتــوه فى بحــار الذكريات وهو يحدث جاره تشــارلى ٠ ويتمثل أمامه شــخص أخيه بن حاملا شمسيته وهو يحادثه قائلا انه لو كان قد خــرج الى الاسكا لما انتهى الى هذه الحال ٠ ويروى عليه كيف أنه خرج وراء حظه وهو غلام الى الأسكا ولكن معرفتــه بالجغرافيــا

كانت ضئيلة ، وبدلا من أن يبحر شمالا أبحر جنوبا فوجد نفسه في افريقيا ، وهناك وجد مناجم الماس ..

وفي هذيانه يرى ويلي لومان ولديه بيف وهابي وهما بعد في شرخ الفتوة ويعرفهما بعمهما الذى دخل الحياة وهو في السابعة عشرة خاوى الوفاض وخرج منها وهو في الحادية والعشرين وهو يملك الكنوز . يقول ويلي لومان متهللا ان المعجزات لا تزال تحدث في الحياة ، وما على ولديه الا إتخاذ عمهما مثلهما الأعلى في الحياة . انه يربيهما على الرياضة والخشونة ليكونا في قوة عمهما . ويقول العم بن للفتى بيف : هيا جرب أن تلاكمني . هذه بطني . اضرب بأقصى قوة . ويعتذر بيف في خجل قائلا انه لا يستطيع أن يفعل ذلك ولكن أباه يأمره أن يفعل ذلك . ويتأهب بيف للملاكمة . ولكن سرعان ما يجد نفسه طريحا على الأرض بعد أن قلبه عمه بن، ويرى عمه بن يسدد شمسيته الى عينيه قائلا . هذا درس لك يا بني لا تكن رياضيا أبدا مع الغريب ، والا لما خرجت قط من غابة الحياة . ثم ينظر الى ساعته ويقول بلهجة مهذبة وهو ينحني . والآن وداعا . لابد أن أرحل . كان شرفا عظيما ومتعة عظيمة أن أزوركم ، اني مسافر لاتمام صفقة وسأزوركم مرة أخرى في طريق عودتي الى افريقيا . وينصرف .

وينهض ويلي لومان كأنه يبحث عن شيء ثم يقول انه خارج لنزهة صغيرة وترتاع ليندا لأن زوجها يهم بالخروج وهو يلبس شبشبه ويهمهم : ان بن على صواب . ان بن على صواب . تذكره ليندا بأنه يلبس شبشبه . وينزل بيف في بيجامته ليرى أباه على هذا الحال من الذهول وهو يكلم نفسه . ويسأل بيف أمه في انزعاج ان كان أبوه دائما على هذه الحالة ، فتجيبه بأن حالته تشتد سوءا كلما عاد بيف الى البيت وكلما تلقوا خطابا بمجيئه يتهلل أبوه فرحا ويشرق طول الوقت . ولكن عندما يقترب وقت مجيئه يشتد اضطرابه ، فلما يصل بيف يبدأ أبوه في الشجان والشجار معه كأنه لا يطيق رؤيته .

وتســأل ليندا ولدها بيف عن سر هــذه البغضاء التى تستولى عليه وعلى أبيه كلما التقيا ، فيروغ بيف عن الاجابة ، ويقول ان أباه مجنون ، وتغضب ليندا قائلة ان بعض الناس يظنون أنه فقد توازنه العقلى ، لكنه متعب لا أكثر ولا أقل ٠ ان ويلى لومان متعب ٠ انه ليس رجــلا عظيمــا ، واســمه لا ينشر فى الصــحف ، وهــو لم يكســب مالا كثيرا ، وهى لا تدعى أنه أبدع خلق الله ، ولكنه انسان ، ان شيئا فظيعا يحل به ، وهو بحــاجة الى رعاية فى شيخوخته ٠ ان ولديه هلفوتان لا نفع فيهما : هابى يجرى وراء البنات وبيف يهاجر كالطير ويعود كل سنة مع الربيع ، وهو لا يظهر الحب أو الاحترام الكافى لأبيه ٠ ان ويلى لومان بحاجة الى رعاية ٠ نعم لابد من رعايته ٠ ان غيبة بيف تكسر قلبــه ويجب أن يقيم بيف مع أبيه فى نيويورك ويرعاه ، ولكن فليعلم بيف أنه لا مكان له فى البيت اذا لم يظهـــر الحب والاحترام الواجبين لأبيه ٠

ان ويلى لومان يقترض كل أسبوع خمسين دولارا من جاره تشارلى ويدعى أمامها أنهــا مرتبــه ، وهى تعلم أن رئيسه الجديد هوارد حرمه من مرتبــه ولم يعــد يعطيه الا العمولة ٠ ان بيف لا يعرف ما يفعله أبوه ٠ ان كل الناس تظن أن حوادثه الكثيرة نتيجة لاضطرابه ، ولكنها تعلم أنه يحاول الانتحار ٠ ويوم دخل بسيارته فى درابزين الكوبرى الصغير وسقط فى الترعة لم ينقذه الا ضحولة المــاء ، وقد أثبت الشهود أنه كان يسوق بمنتهى البطء وأن سيارته لم تنزلق ٠ انهــا اكتشفت أنه ركب أنبــوبة من المطاط عــلى صنبور الغاز فهو يفكر فى الانتحار ٠ انها خجلى لا تعــرف كيف تواجهه بهذا ٠ وفى كل يــوم يخرج زوجهــا الى عمله تنزع أنبوبة المطاط ، ثم تعيدها الى مكانها حين يعود حتى لا يحس بأنها تراقبه أو بأنها تشك فى شىء ٠

وتنهمر دموع ليــندا غــزارا وهى تقــول كل ذلك ، تكفكف دموعها متظاهرة بالشــجاعة ٠ ويحس بيف وهابى

بالندم العميق • ويعد بيف أمه بالبقاء الى جوار أبيه والبحث عن عمل فى نيويورك ، وارضائه بكل وسيلة ممكنة •

ويعود ويلى لومان ليجد بيف وهابى فى انتظاره ليعلنا له الخبر ، وهو أن بيف قرر البقاء فى نيويورك • ويتشاجر بيف وأبوه أولا ثم يتصافيان • ويعلن بيف اباه انه ذاهب فى الصباح الى صديقه ورئيسه القديم بيـــل أوليفر ليقترض منه عشرة آلاف دولار ، فقد اتفق بيف مع أخيه هابى عـــلى افتتاح محل لبيع أدوات الرياضة وانشاء فريقين للباسكت بول يتبـــاريان فى كل مكان للاعلان عن مخلهما • وينظـــر ويلى لومان الى ولده بيف فى اعجاب • ان هذه فكرة تساوى مليون دولار ، ولا شك أن بيل أوليفر سيعجب بالفكرة ويقرضـــه المـــال اللازم • ويذهب يزود بيف بالنصـــائح ••• يجب أن يكون هادئا حين يزور مكتب بيل أوليفر ، وان يتسم بالجد والوقار ، وأن يمتنع عن الثرثرة • يجب أن يتمسك بخمسة عشر ألف دولار ولا يقبل قرضا أقل من هذا ، فالفكرة عظيمة ورجال الأعمال لا يخافون من الأرقام • واذ سقط شيء من مكتب بيل أوليفر فلا ينبغى أن ينحنى بيف لرفعه ، فهـــذا عمل الخدم •

وتسبح الأسرة كلها فى الأمل الباسم ، وتعود السكينة الى قلب ويلى لومان وتتجدد نفسه بالأمل • وحين يخلد الى فراشه لا تنسى ليندا أن تذكره بأن يقصد فى الغد الى مدير شركة هوارد ـــ ليطالبه بوظيفة فى نيويورك •

ويغمض ويلى لومان عينيه وينام نوما قريرا لم يذقه منذ زمان طويل ، فى حين تمتد يد بيف الى ظهـــر مدفأة الغـــاز فتقع يده على أنبوبة المطاط فينظر اليها بارتياع •••

وفى الصباح يقصد كل وجهته وصدره زاخر بالأمل • يقصد ويلى لومان الى مكتب رئيسه هوارد ويقصـــد بيف الى مكتب رئيسه القديم بيل أوليفر ، ويتواعد الولدان مع ابيهما على الاحتفاء به مســـاء فى مطعم فرانك حيث يتعشى ثلاثتهم عشاء فاخرا احتفالا بهذا اليوم السعيد •

ويجد ويلي لومان المدير هوارد في مكتبه متهللا كالأطفال، وقد وضع أمامه آخر اختراع ومعجزة الاختراعات .. الريكوردر أو مسجل الصوت ، أخذ يستمع الى صوته وصوت زوجته بنته وابنه وهو يتلو في صوت منغم : الاباما وعاصمتها مونتجومرى ، أريزونا وعاصمتها فينكس . اركانساس وعاصمتها ليتل روك ، كاليفورنيا وعاصمتها ساكرمنتو الخ .. ويشرح هوارد لويلي لومان فوائد الجهاز الجديد في لغو من لغو الصبية ، وأخيرا يتنبه الى أنه يخاطب ويلي لومان فيسأله عاجبا عن سبب مجيئه وتخلفه عن السفر الى بوسطون .

ويدخل ويلي لومان في الموضوع . انه جاء يطلب وظيفة في مقر الشركة تعفيه من السفر المتواصل ، فهو قد بدأ يحس بالارهاق . ويجيبه هوارد أنه يقدر ظروفه ولكنه لا يجد له وظيفة في نيويورك . ويذكره ويلي لومان بوعده السالف يوم عيد الميلاد ، ويذكر هوارد هذا الوعد ولكنه يتنصل منه ، ان مقر الشركة ليس فيه الا ستة يقومون بالبيع ، أما هو فعمله هو عمل القومسيونجي المتنقل من بلد الى بلد .

ويخاطب ويلي لومان في هوارد انسانيته . ويذكره بأن أباه المرحوم مستر فاجنر كان يحبه ويعطف عليه . كان يعمل للشركة أيام كان أبوه يحمله بين ذراعيه ويدلله في المكتب . نعم تلك كانت أياما جميلة . انه يذكر أن المرحوم مستر فاجنر جاءه عند ولادة هوارد ، وسأله عن رأيه في اسمه .. انه لا يطلب الا خمسين دولارا في الأسبوع .

ولا يحرك هذا الكلام عاطفة في نفس هوارد ، بل يبدأ يتململ في مكانه . انه يقدر كل هذه الذكريات الجميلة ، ولكن العمل عمل والعواطف عواطف ولا يلتقي الاثنان .. وينفعل ويلي لومان ونسي الأيام القديمة حين كانت المهنة فنا شريفا يقوم على التقدير الشخصي والتعاون والاحترام وروح الزمالة والاعتراف بالجميل . أما اليوم فكل شيء غدا آليا لا مكان فيه للتقدير الشخصي أو لأى مبدا من هذه المبادىء

الجميلة • ان الناس يتنكر بعضهم لبعض وينسون الصداقة والوفاء تحت شعار أن العمل عمل • انه يرضى بأربعين دولارا فى الأسبوع •

ولكن هوارد لا يلين • ويذكر ويلى لومان هوارد وهو ثائر بوعود أبيه وبتفانيه فى خدمة الشركة ، ولكن هوارد يوليه ظهره قائلا ان لديه أعمالا كثيرة ، وحين لا يفيد كلام، يرضخ ويلى لومان للأمر الواقع ويقول : « سأسافر اذن الى بوسطن » ، فاذا بهوارد يجيبه أن الشركة بغير حاجة الى سفره ، وأنه بحاجة الى راحة طويلة • وقد أراد منذ مدة أن يبلغه رغبة الشركة فى الاستغناء عن خدماته • وهذه فرصة مناسبة • وحين يسترد ويلى لومان صحته ، يمكنه أن يمر به ليرى ان كان هناك مجال لاستئناف العمل •

ويسقط فى يد ويلى لومان ، ويقول بصوت مختنق انه بحاجة الى أن يكسب قوته ، فيجيبه هوارد قائلا ان له ولدين يستطيعان أن يعولاه • ثم يتركه وينصرف •

وتظلم الدنيا فى عينى ويلى لومان ويتوه فى ذكريات الماضى برهة ثم يرتد الى رشده أو بعض رشده ، ويخرج وهو يكلم نفسه ونظرات الناس تحدجه فى المصعد •

وفى خروجه يلتقى ويلى لومان ببرنارد ابن جاره شارلى ويسلم عليه فى ذلة وحرارة معا فهو لم يره منذ زمن • ان برنارد زميل ولده بيف فى الدراسة تخرج من الجامعة وأصبح محاميا ناجحا • ان ويلى لومان لا يفهم • لابد أن فى الأمر سرا • كل الناس ناجحون الا هو وولديه • ويسأل ويلى لومان برنارد فى ذهول : « ما السر أجبنى • » ويعجب برنارد لهذا السؤال الغريب ويسأله : « أى سر ؟ » فيقول ويلى لومان برنارد فى ذهول : « ما السر أجبنى » • ويعجب برنارد زميل بيف حتى البكالوريا ، ان حياة بيف توقفت عند البكالوريا •

ولا يجد برنارد ما يقوله الا أن بيف لم يعد نفسه لأى

عمل فى الحياة • ويكذب ويلى هذا قائلا ان بيف درس هندسة الراديو والتليفزيون وأشياء كثيرة بالمراسلة ، ومع ذلك لم يوفق فى شىء •

ويسأله برنارد أن يجيبه بصراحة • ان أمرا ما حدث لبيف سنة البكالوريا وغير مجرى حياته • فماذا حدث • انه رسب فى الرياضة • وكان يعتزم الاستعداد للملحق أثناء الصيف ، ولكنه لم يفعل ، ولو أنه فعل لحصل على البكالوريا ودخل الجامعة وسارت كل أموره سيرها الطبيعى • فهل أبوه هو الذى أشار عليه بعدم دخول الفصول الصيفية ؟

ان ويلى لومان لم يشر على ابنه بشىء من هذا ، بل على العكس من ذلك أمره بدخول المدرسة الصيفية ، ولكن بيف لم يدخل • فلماذا لم يدخل بيف المدرسة ؟ هذا هو السؤال الذى لاحق ويلى لومان خمس عشرة سنة دون أن يعرف له جوابا • انه سقط فى مادة الرياضة ثم سقط بعدها كميت هوت عليه مطرقة ولم ينهض بعدها من كبوته • ومع ذلك فبرنارد يقول ان رسوب بيف لم يكن له أى أثر فى معنوياته فقد كان على أتم استعدادلدخول المدرسة • وسافرالى بوسطن ليقابل أباه ، ولكنه بعد عودته من بوسطن كان شخصا آخر•

ويأتى تشارلى والد برنارد فيطلب اليه ويلى لومان أن يقرضه مائة دولار ، فأمامه قسط التأمين وأمامه آخر قسط من أقساط البيت يدفعه فيصبح البيت ملكه بعد خمس وعشرين سنة• ويجدد عليه تشارلى عرضه السابق أن يعمل ويلى لحسابه مقابل خمسين دولارا أسبوعيا• ولكن ويلى لومان يرفض رفضا باتا متظاهرا بأنه لا يبحث عن عمل • ويرثى تشارلى لهذه الأزمة النفسية التى يعانيها جاره ويلى لومان ، فيعطيه ما طلب • وتنهار أعصاب ويلى لومان فيروى على تشارلى أن هوارد فصله رغم ما كان بينه وبين أبيه من ود قديم ، فيجيبه تشارلى أنه ينبغى أن يستيقظ من أحلامه ، فليس للمرء فى هذه الحياة الا ما يستطيع أن يبيعه • ان ويلى يتحدث عن الحب بين الرجال فمن الذى يحب المليونير

مورجان ؟ ومن ذا الذى يؤخذ بشخصيته ان مورجان لو دخل حماما تركيا لما كان هناك أى فرق بينه وبين أى جزار فى أمريكا .

وفى مطعم فرانك يعد هابى العدة للعشاء الكبير ، وفى المطعم تصخب الموسيقى الراقصة ويعد الجرسون ستانلى المائدة ويجهز أكواب الشمبانيا للاحتفال . وفيما ينتظر هابى أخاه بيف وأباه يلمح غانية جميلة ، ويغازلها ، وبعد دقيقة يتقارعان الكئوس . ويصل بيف الى المطعم ، وينضم اليهما ، ويطلب هابى من الغانية أن تدعو صديقة لها ترافق أخاه بيف فتمضى الى التليفون .

ويروى بيف على هابى ما كان من أمره مع بيل أوليفر . انه انتظره خارج مكتبه ست ساعات ولم يستطع أن يقابله . وحين خرج بيل أوليفر من مكتبه جرى خلفه فوجده لا يذكر شيئا عنه ، فلما ذكره بنفسه رمقه بنظرة احتقار قائلا : أنت لم تكن بائعا فى محلى . أنت كنت كاتب شحن . ثم انصرف ومن بعده سكرتيره . ووجد بيف نفسه وحيدا فدخل مكتب بيل أوليفر وسرق قلمه الأبنوس الفاخر بلا وعى ثم انطلق كالمجنون ..

أن حلمه وحلم أبيه قد تبدد . ترى كيف يواجه أباه بالحقيقة . ان أباه بحاجة الى خبر سعيد يرفع معنوياته . محال أن يستمر هذا الحال . ان آل لومان كلهم يعيشون على الأوهام ، ولابد أن تتبدد الأوهام ويجابهوا الحقيقة .

ويصل ويلى لومان الى المطعم . حين يعرف بحقيقة ما كان بين بيف وبيل . أوليفر ينقض عليه الخبر كالصاعقة . ان الغابات تحترق من حوله وهو الآن محاصر بين النيران . انه فصل من عمله . وهذا بيف يجيئه بالخبر المشئوم .

وتتجمع السحب فى عقل ويلى لومان من جديد ويرجع الى الماضى البعيد . حين رسب بيف فى البكالوريا فسافر الى بوسطن ليبلغ أباه برسوبه ويطلب اليه أن يتوسط عند

المدرس بيرنباوم ليعطية ثلاث درجات فى الرياضة فينجح . ويتمثل ويلى لومان نفسه فى بوسطن . فى الفندق الذى تعود أن ينزل فيه .. والساعة الثانية صباحا . وباب حجرته يدق . والمرأة البدينة الى جواره فى الفراش تقول . انهض وانظر من الطارق فينهض وتختفى المرأة فى الحمام. ويفتح ويلى لومان الباب فإذا به بيف . ويدخل بيف ويبدأ فى الحديث عن الامتحان . وتضحك المرأة البدينة فى الحمام ثم تدخل على ويلى لومان وبيف عارية لا يسترها الا لباس اسود ويصعق بيف . ويحاول ويلى لومان أن يفهمه والعرق يتصبب من وجهه انها مجرد جارة له فى الفندق لجأت الى غرفته حتى يتم طلاء غرفتها . وتنهمر الدموع من عين بيف ، وينظر الى أبيه فى احتقار شديد ثم ينفجر فيه قائلا : لا تمسنى أيها الكذاب .. أنت رجل مزيف .. ثم ينطلق خارجا ، ويترك أباه راكعا على الأرض يضربها بقبضته .

ويسقط ويلى لومان على أرض المطعم ، ويفيق من بحرانه ويساعده الجرسون ستانلى فى النهوض . ويبحث عن ولديه فلا يجدهما . ويعلم أنهما غادرا المطعم مع الفتاتين حين رأياه يكلم نفسه ويهذى بعبارات غير مفهومة ،وقد أنكرا أمامهما كل صلة به .

ويساعده الجرسون ستانلى على اصلاح هيئته ويرفض رفضا باتا أن يقبل منه أى بقشيش . ويعود ويلى لومان الى بيته . وفى طريقه يمر بدكان يبيع البذور . ان حلما من أحلام حياته أن يزرع البنجر والجزر فى الفناء الخلفى الصغير الواقع وراء بيته . وفى البيت ليندا تعنف ولديها على تركهما أباهما فى المطعم . وينكر بيف وهابى أنه كان فى خطر ، ويزعمان أنهم كانوا جميعا على أحسن حال مع فتاتين صديقتين . وتنهال عليهما أمهما بالشتائم وتطردهما من البيت . انهما فى مصاف الحيوان لقد كان فى امكانهما أن يؤجلا صحبة البغايا ليوم آخر .

وترقب ليندا زوجها وهو فى الفناء الخلفى يقلب

الأرض ويدفن البذور ، أما ويلى لومان فهو فى بحران ، انه يكلم نفسه يكلم أخاه بن قائلا : اسمع لهذا المشروع يا بن ، وقـل لى رأيك انه مشروع عظيـــم ٠٠ عشرون ألف دولار مضمونة مائة فى المائة ٠٠ انها قاست كثيرا يا بن ٠٠ أتفهم ما أقول ؟ ان زوجتى قاست كثيرا ٠٠ ويســمع ويلى لومان أخاه بن يجيبه : هل أنت واثق من أن شركة التأمين ســتدفع البوليصة ؟ فيجيبه ويلى لومان : نعم ٠ دون أدنى شك ٠ كل قسط فيها مدفوع ٠ ويقول بن : ســيقولون انك جبــان ٠ فيجيبه ويلى لومان : وأى شجاعة فى أن اســتمر فى حيــاة لا قيمة لها ٠

ويقتنع بن ويقول : هذا مشروع عظيم تأكد فقط أنهم سيدفعون بوليصة التأمين ٠

وترتاح نفس ويلى لومان لأن أخاه بن قال انه راض بمشروعه الكبير ٠ ويرى فى حلك الليل عشرين ألف دولار وكأنها ماسة كبيرة تلمع فى الظلام ٠٠ ويرى الماسة فى يد زوجته ٠

ويكون سكون ٠٠ وتســمع ليندا وبيف وهابى موتور السيارة يخفق ثم ينطلق ٠

وهكذا تكون نهاية القومسيونجى ٠

وبعد قليل تجتمع أسرته حول قبره ٠ ثم ينصرف بيف وهابى ويتركان أمهما المتشحة بالسواد راكمة عند قبره وفى يدها باقة من الأزهار ٠

رصد فينوس

للشاعر الانجليزى كريستوفر فراى

سبق أن قدمت في عدد من مجلة « المجلة » مسرحية بقلم الشاعر الانجليزى المعاصر كريستوفر فراى اسمها « لا تحرقوا هذه السيدة » ، واليوم أقدم على صفحات « الشعب » مسرحية أخرى بقلم هذا الشاعر الكبير وهى مسرحية « رصد فينوس » . ولعل هاتين المسرحيتين أهم ما كتب فراى ، وأقربهما الى الاتقان ، وليس معنى هذا أن بقية انتاجه للمسرح ليس على المستوى العالى الذى يلزم كل مشتغل بالأدب بالاطلاع عليه ، فان لكل مسرحية من مسرحيات هذا الشاعر الجديد الفريد الذى سطع نجمه فجأة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مكانة خاصة لدى النقاد ، وهذه المسرحيات الأخرى هى: « فى الظلام نور يكفى » و « البكرى » و « عنقاء تتجدد كثيرا » و « نوم السجناء » و « الرب ثور مع الملائكة » .

وقد حسب الناس أن زمن الشعر التمثيلى قد مضى وانقضى ، ولكن توفيق كريستوفر فراى فى أن يكتب مسرحيات بالشعر تعد من درر الشعر ومن درر المسرح فى وقت واحد قد جعل النقاد ينظرون الى مستقبل الشعر التمثيلى فى تفاؤل جديد . وليس أدل على نجاح هذا الفن

من فنون الأدب من اقبال الناس عليه سواء فى صورته المعروضة على المسرح أو فى صورته المنشورة ٠

و « رصد فينوس » كوميديا من ثلاثة فصول ، وهى من ثمار عام ١٩٤٩ ٠ وقد أخرجها على مسرح سانت جيمس بلندن لأول مرة السير لورانس أوليفييه فى يناير ١٩٥٠ ، وقد نشرت لأول مرة عام ١٩٥٠ وصدرت منها ثلاث طبعات فى تلك السنة ، ثم أعيد طبعها عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، ولعل طبعها تجدد بعد ذلك ، فهذه الطبعة الأخيرة هى الطبعة التى استخدمتها فى تلخيص هذه المسرحية ٠

و « رصد فينوس » تدور بطبيعة الحال حول قصة ، ولكن المتأمل فى أشخاصها وما يقدمون عليه من أعمال وما يدور فى خواطرهم من أفكار يدرك أن كريستوفر فراى انما أراد أن يصور لنا فى هذه الكوميديا العالية جانبا مؤسيا من جوانب الحياة الانسانية ، وهذا الجانب هو العزلة الروحية التى يعيش فيها كل أشخاص مسرحه ، فكلهم باحث عن شىء لا يعرف كنهه على وجه التحديد ٠ وكلهم يحيا فى هذه الدنيا بعقلية اللاجىء الذى فقد وطنه الأول دون أن يستقر له مقام فى وطنه الجديد ٠ وكلهم خاطىء تؤرقه خطيئته ولا يجد مخرجا من عذاب الضمير الا أن « يسلم نفسه » ، وأن « يعترف » وتكاد أن تتعقد الأمور وتسوء فى النهاية لولا أن فينوس فى ثوبها الجديد ، فى زى بريتوا ، أى « الفتاة الخالدة » ترأم كل جرح وترأب كل صدع وتصلح كل خطأ وتضع كل شىء فى محله بفضل ما أوتيت من قوة الحب ٠

وفينوس هى الزهرة ، والزهرة هى النجمة التى جعلها القدماء أم الغرام ٠٠ لا الغرام الشاعرى الحالم الذى نسجت أحلامه من ضياء القمر ، ولكن الغرام الحى الملتهب الذى ينشر على الأرض ألوان الربيع ٠

— ١ —

أما أشخاص هذه الكوميديا فهم دوق التبر وهو شيخ قارب الستين من عمره متصاب كل ما فى حياته يقول انه زير نساء • ولكنه ليس مجرد زير تافه فهو رجل ذو فلسفة خاصة في الحياة ، تؤمن باجتباء اللذات لا عن ضعف ولكن عن قوة ، وهو رجل قوى الشخصية تطغى شخصيته على كل من حوله ، وتجذب اليه النساء ، ثم ولده الشاب ادجار الذى حجب ابوه شبابه وأوشك أن يحجب وجوده كله بقوة شخصيته ثم وكيل الدوق واسمه ريديك هو شيخ مثقف ذواقة واسع الاطلاع في الآداب والفنون ولكنه واسع الاطلاع أيضا فى حسابات مخدومه يعرف من مداخلها ومن مخارجها ما جعله يجمع ثروة طائلة في خلسة من الدوق ، ثم ولد ريديك هذا ، واسمه دومنيك وهو فتى حساس يتلقى العلم فى جامعة كامبريدج يعرف عن ألاعيب أبيه شيئا كثيرا •

فهناك اذن شيخان ماكران فاسقان كل على طريقته هذا يجمع النساء وذاك يجمع المال ، وهناك شابان بريئان أوشكا أن يتفتحا لجمال الحياة فلا يريان الا العالم المستهتر الذى يعيش فيه الأبوان • وهناك كوكبة من النساء هن أولا ثلاث: الآنسة روزا بيلا فلمنج ، والسيدة جيسى ديل والسيدة هيلدا تيلور سنيل وهى آخر عشيقات الدوق التبر ، حضرن جميعا في وقت متقارب بدعوة من الدوق دون أن تعلم احداهن بأمر الأخرى ، وهو أمر محرج أشد الحرج للعشيقات ! ثم تنضم اليهن فجأة رابعة هي الآنسة بربتوا بنت الوكيل ريديك فيحدث حضورها كل هذه الضجة الكبرى التى سنشهدها في قصر الدوق المعروف باسم فستيلمين بارك بل وفى مرصده وفى قلبه وفى قلوب الحاضرين •

غير هؤلاء ليس هناك الا رجلان من خدم الدوق هما ردلان وهو خادم قصر الدوق وبيتس وهو خادم الدوق الخاص ، وأولهما يضطهد الثانى ولا ينى عن ايذائه •

أما المكان فهو بين حجرة المرصد بقصر الدوق ومعبد بالقصر اسمه معبد الفضائل القديمة ! وحجرة المرصد هذه حجرة فى أعلى القصر كانت تستخدم فيما مضى حجرة للنوم ثم جهزت بتلسكوب يرصد به الدوق ـ ومن معه ـ الأجرام السماوية · ورصد الأجرام السماوية يجرى عادة فى الليل ولكننا لا نزال بعد فى رابعة النهار · لهذا فالجمع يجتمع فى حجرة المرصد لا لرصد الأفلاك ولكن لمشاهدة كسوف الشمس الذى يقال لنا انه سيكون كسوفا كاملا فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين ·

غير أن للدوق فى هذا اليوم بالذات مشكلة غير مشكلة رصد الكسوف ، وهو فى حقيقة الأمر لا يجمع عشيقاته الثلاث فى مكان واحد وفى وقت واحد ليعرض عليهن عجائب الطبيعة ، وانما يجمعهن لأمر فى نفسه لا يخفيه بل يذهب يجادل ابنه فيه حتى يقتنع الابن ·

الدوق : ان من يراك يحسب أنى قد ألقيت عليك اقتراحا خارقا للعادة · وواقع الأمر أن اقتراحى طبيعى الى أبعد الحدود · ألست ولدى ؟

ادجار : بلى ، يا أبى ، أنا طبعا ولدك ·

الدوق : اذن فمن حقك أن تختار من ستكون أمك · أفى هذا ما يجافى الذوق يا ريدبك ؟

ريدبك : كلا ، يا صاحب النبالة · ان هذا قد لا يكون مألوفا ، ولكن قل بين الآباء من يراعى شعور بنيه كما تفعل نبالتك · وأنا لا أجد الفكرة رديئة على الاطلاق ·

ادجار : وأنا أتصبب عرقا من فرط الحرج ·

نعم ان الدوق ألتير قد قرر أخيرا أن يتزوج بعد خمس وعشرين سنة قضاها عزبا ينعم بملذات الحياة ، أى منذ أن توفيت زوجته ، دوقة ألتير ، وهى تضع وتدها ادجار هذا الذى أصبح الآن شابا قويا جذابا · وهو لم يهتد الى هذا

القرار الا بعد أن تحقق له أن ربيع حياته قد فات بغير رجعة، وأنه الآن فى خريف العمر الذى سيصبح عما قريب شتاء ، ولا يعرين معنى الخريف الا من ذاق جمــال الربيع وأحس بقوة الصيف • ولعله ما اختار هــذا اليــوم العجيب من بين الأيام ليحزم فيه أمره وليحســم فيــه بين أمســه وغده الا لأن كسوف الشمس وهى فى أوج الضحى كان نذيرا له بأفول شمسه وهو بعد فى عنفوانه الحيوى ، يكابر الحياة ويغالب المشيب فيوشك أن يغلبه • ولكن الدوق الذكى الفطن يعلم أيضا ما فى الطبيعة من نواميس لا سبيل الى ردها ، ويعلم أن خريف العمر يعقب صيفه بقوة قاهرة لا سبيل الى ردها ، كما يعقب الليل النهار • نعم ، هو يعلم أنه لابد فى نهاية المطاف « أن يستسلم للزوجة الواحدة » على حد قوله • لسوف تقبل على قصر ستيلمير بارك ثلاث حســان عرف معهن فى آونة مختلفة أسعد الأوقات ، وأن على هــذا الفتى الخجول ادجار الذى قضى حياته الجميلة بين الاسطبلات ، من فرط ولعه بالخيل والرياضة ، أن يختار لأبيه من بينهن زوجتــه المقبلة ، وأن تكون دلالة هذا الاختيار هى أن يقــدم الابن تفاحة لتلك التى تقع فى نفسه أحسن موقع ويؤثرها لتحتل هذه المنزلة • لســوف تقبــل هيلدا وروزابيلا وجيسى كما أقبلت أفروديت وهيرا وأثينا فى قصص القدماء أمام باريس بطل طروادة ، وسوف يهدى أجملهن تفاحة علامة الفوز كما كان يفعل القدماء •

وهكذا يرضخ ادجار لرأى أبيــه ثم ينصرف • وتــرد للوكيل ريديك برقية مهمة من ابنته بريتوا تقول : « وصلت الى انجلترا وأرجو أن أقبلك قبل الغداء » •

وما أن يقرأ ريديك هــذه البرقيــة حتى يرقص طربا فبريتوا عنده « وردة استنبتها من صخرة » ، وقد كانت نعمة من النعم عليه أن ينجيها وأن ينشئها حتى فرت بهــا أمها من منزل الزوجية الى أمريكا منذ عشرة أعوام فعرف الشقاء •• وها هى ذى تعود الآن اليه بغير شك فتاة رائعة الجمال مكتملة

الصحة تملأ داره بشرا • ولئن وصلت الى قصر ستيملي بارك قبل موعد الكسوف فسـوف تشترك مع الأخريات فى رؤية الشمس المحتجبة وراء القمر من مرصد الدوق •

ويختلى الفتى دومنيك بأبيه ريديك وينشب بينهما شجار مكظوم • فدومنيك شقى بأبيه هـذا الذى وضـع فيه الدوق ثقته فخان الأمانة وذهب يختلس المـال من صاحبه يمنـة ويسرة ، فيرفع ايجارات الأراضى ولا يدون الا الايجـارات القديمة ويبيع المحصول ولا يسجل فى دفاتره المزورة الا بعض ما جمع من ثمن • ان أمر ريديك ولا شك سيفتضح قريبـا ولن يحميه من السـجن شيء • وان دومنيك ليخجـل من أن يكون ابنا لهـذا اللص المستتر فى زى رجل مثقف مهـذب شريف وهو لا يعرف حقا كيف يعود الى جامعـة كامبريدج حيث يتلقى العلم بين أبناء الأشراف اذا افتضح أمر أبيـه وسيق الى السجن كأى نصاب رخيص • ولـكن الأب ريديك يحتمل كل هذا التعنيف من ولده بأعصاب ثابتة وينكر كل ما وجهه اليه دومنيك من تهم زاعما أنه قد ورث ما جد عليه من مال كثير من أخ له في استراليا ومن مخدومته السابقة او كما جاء على لسانه اللبق : « نعم بالميراث كما تقول ! فقـد كنا من أصحاب الحظ السعيد • فعمك هكتور عندما لبس ثوب الخلود فى تسمانيا حررنا من العوز الى حد ما ، والسيدة العجوز الليـدى برايت ، مخـدومتى الأولى ، حينما قبضت روحها السماء ، قبضت روحها فقط وقبضت أنا الباقى » •

وفيما هما يتشاجران عـلى هـذا النحو تقبـل عليهما الآنسة روزابيلا فليمنج ، ثم السيدة جيسى ديل وتسـألان عن الدوق وتنظر كل منهما الى حجرة المرصد التى كانت من قبل حجرة نوم بقصر الدوق ، وتذكر أن هذه الحجرة ليست غريبة عليها فترتبك وتحس بالحرج من وجـود الأخـرى ، وتوشك روزابيلا أن تنصرف استياء من هـذه الدعوة التى تتنافى مع الذوق السليم ، ولكن الدوق يقبل عليهما ويطيب خاطرهما ، وحين تنضم السيدة هيلدا تيلور الى الجميع يفعل

بهـا الدوق ما فعله بعشـيقتيه الأخـريين • انه قد دعاهن ليمتعن برؤية كسوف الشمس من مرصده • ويوزع الدوق عليهن النظارات السوداء ليحدقن فى الشمس الكاسفة درجة درجة وراء القمـر الذى يتوسط بينهـا وبين الأرض حتى يكون الكسوف الكامل فاذا الأرض فيما يشبه الغسق واذا ثلاثة نجوم أو أربعة قد بدأت تختلج فى السماء من ظلمـة الصباح • كل هذا وريديك من ناحيـة يتطلع من النـافذة لا ليتمتع بمرأى الشمس الكاسفة ولكن ليرقب مجىء ابنتـه بريتوا كأنها كوكب سيبزغ من وراء الأفق •

كل هذا وادجار ابن الدوق يراقب النسوة ويتفحصهن الواحدة بعد الأخرى ويستمع الى لغوهن مع الدوق عساه أن يجد فى احداهن ما يفضلها عن الأخريين، فيأنس الى روزابيلا أكثر مما يأنس الى غيرها ، فهى أكثر الثلاثة لباقة وأقلهن ثرثرة ، ولعلها أسرته برقة عواطفها ودقة احسـاسها حين ذهبت جيسى تفخر فى غير حياء بأنها صديقة الدوق منذ عهد مديد وأن زوجها أيضا صديق الدوق • فأجابتها روزابيلا قائلة « ••• وهذا شىء لا تحبه نفسى ، وهو أن أزحف فى مسالك الفكر الجارية فى عقل شخص آخر باحثة عن موقعى فيها ، خشية أن أجد بها ما يخيب ظنى • فما من أحد يملك الحق فى ذلك » •

لهذا نجد أن ادجار يبادر الى اعطاء روزابيلا فليمنج التفاحة • غير أنه لا يلبث أن ينـدم علـى ذلك حين يراها تنفجر فى أبيه وتوسعه ايذاء بفظيع الكلام • فهى لم تعـد تستطيع أن تكتم ضيقها بهذا الرجل المتجبر الذى لا يحترم شعورها ، بل لا يحترم شعور أحد ، ويمضى فى عبثه بالنساء الى حد أنه يجمع عشيقاته الثلاث فى حجرة واحدة ليستمتعن بمنظر الكسوف • انها تختنق فى هـذه الحجرة واذا كانت المرأتان الأخريان تجدان فى هذا النوع من العبث متعـة ، فهى لا تجد فيه الا الاستهانة بعواطفها •

روزابيلا : لا فائدة • لابد أن أنطلق الى الهواء ! ان التنفس هنا مستحيل !

الدوق : ماذا بك يا روزابيلا ؟ أتضيقين بالأماكن المقفلة وأنت على حافة السماوات الطليقة ؟ هيا تخيلى هذا الكسوف كمغيب الشمس المألوف كلما نكس علم النهار ، لقد كنت تحبين هذه الغرفة في الليل •

روزابيلا : وكيف تعلم هذا ؟ كيف تعرف ما أحب ومتى أحب ولماذا ، وليس لقلبك خفقة واحدة تستحق أن تصغى اليها اذن ! انك تجلس هنا طول الليل وتتطلع الى النجوم فى تيهك يوما بعد يوم بعيدا عن دنيا الأحياء • انى أمقت منظارك المقرب ! من أين لك أن تعرف ما تفعله أفظع الصدمات فى عقل الانسان اذا كانت البأساء لم ترمك بوابل أثقل من قطرات المطر ؟ ولو قد عرفت ذلك لما اهتزت له نفسك ، فأنت المعتصم بمظلة الغبطة الصفيقة التى لا تخترقها الأحزان ! وانك لتصلح من هندامك كلما مررت فى بركة من الأوحال ، وتضحك كلما ذكرت أن غيرك قد يغرق فيها • وانك لا تصدق أن من الحب ما يؤثر أن يدفن فى خشوع على أن تمد فى حياته على هذا النحو الزائف الذى تفعله • انك لشيطان ، نعم ، شيطان أنت شيطان ، شيطان •

وحين يشهد ادجار هذه الثورة العاصفة يسترد من يدها التفاحة مدركا أنه قد أساء الاختيار • ولكنه لا يفهم أن ثورة روزابيلا هذه لم تكن الا من فرط حبها للدوق ومن فرط اعزازها لما بينهما من ذكريات الغرام التى تأبى أن يعبث بها هذا الماجن المتعالى كل هذا العبث •

وتنقشع الظلال القاتمة التى تحجب وجه الشمس فتعود ذكاء أبهى سناء وأصفى ضياء ويغمر نورها حجرة المرصد من جديد ، فاذا بفتاة رائعة الجمال قد انبثقت فجأة من المجهول على فيض النور كما انبثقت فينوس ربة الحب الخالدة من محارتها بين الأمواج الزرقاء والشبح الأبيض الناصع ببحر الروم فى قديم الزمان ، وهذه الفتاة هى

بربتوا بنت ريدبك ، وكيل الدوق ويؤخذ الجميع بجمالها الرائع فيجد الدوق فيها كل ما تشتهيه العين ويقبل عليها اقبالا ويهم بأن يعطيها التفاحة بنفسه لولا أن ولده ادجار يعترض على ذلك بقوة ، فهو أيضا قد سحره جمالها وهو الحريص أيضا على مكان الحظوة لديها ولم يرض هذا الدوق فيمسك بالتفاحة بين أنامله ملوحا بها ، ولكن بربتوا سرعان ما تستخرج مسدسا صغيرا تصوبه الى التفاحة وتحكم الرماية فتفلق التفاحة بالرصاص ٠

ويسود جزع صامت فما كان أحد ينتظر مثل هذه الدعابة العجيبة التى كان الدوق سيذهب ضحية لها لو أن هذه الفتاة الجامحة الآتية من أمريكا أخطأت الهدف قيد شعرة ٠ وتعتذر بربتوا بأنها لم تنس بعد ما ألفته من عادات فى الدنيا الجديدة حيث نشأت ، وقد كانت تؤلف ، مع خلانها فى الجامعة رابطة من الطلبة الثائرين تسمى «جمعية تحطيم الأخطاء الجسيمة ، قديمها وحديثها» ٠ هدفها تدمير كل ما يضيق به أعضاء هذه الرابطة وقد سجنتها السلطات الأمريكية شهورا لكثرة اخلالها بالأمن العام ، وفى السجن ثابت بريتوا الى رشدها فقررت أن تبدأ حياة جديدة تبذر فيها بذور الخير بدلا من اشتغالها بتدمير الشر ، وهى لهذا قد عادت الى انجلترا وطنها الأول ، لتبحث فيه عن نفسها ولتبدأ فيه هذه الحياة الجديدة ٠

وتسلم بربتوا المسدس للدوق ٠

وهكذا تعود الطمأنينة الى نفوس الجميع ولا تبقى فى هذه النفوس من آثر الا ما تركه جمال بربتوا وحيويتها الفائضة وينزل الجميع لتناول الغداء ٠

— ٢ —

وبعد الغداء يختلى الفتى دومنيك بأخته بربتوا فى « معبد الفضائل القديمة » بالقرب من بحيرة الدوق الواقعة فى حديقة قصره ٠

ويتدارس الأخ وأخته موقف أبيهما ريدبك ، وهو موقف جد خطير ، فالشائعات عن اختلاس المال من الدوق وابتزازه قوت الأهلين لم تعد مجرد شائعات بل أصبحت يقينا يعرفه جميع الناس ولا يكتم هذا اليقين عن السلطات الا صمت الدوق . وهو لا شك غريب • ولو أن الدوق خرج عن صمته لدخل ريدبك السجن لا محالة ولعاش الولدان فى عار مقيم لا يعرفان منه مخرجا •

لابد اذن من انقاذ الموقف بأى ثمن : ويوحى لها دومنيك بأن تسعى الى الزواج من الدوق ، فلو قد تزوجته لما استطاع الدوق أن يزج بحميه فى السجن ولستر اخطاءه ان لم يكن اكراما لزوجته فحفظا لشرفه على أقل تقدير •

وتقبل بربتوا أن تقوم بهذه التضحية الكبرى قائلة :

« نعم أنت على حق ، فان كان لابد لأحد أن يسجن ، فلأسجن أنا » فهى تعلم أن زواجها من الدوق الهرم الذى يعادل أباها سنا هو بمثابة سجن دائم لن تتحرر منه الا بالموت •

وحين يفد عليهما الأب ريدبك يجادلانه فيما اختلس من مال ، فاذا به يعترف فى غير حياء ويهون من هذا الأمر بل ويبرره تبريرا • فهو رجل متمدن يؤمن بالمدينة ومفاتنها • وهل أحفظ للحضارة من المال ؟ ومن أين لولديه هذه التنشئة فى أرقى الجامعات وهذا الاختلاط بأرقى الجامعات بغير المال ؟ واذا كان هذا صحيحا فمن أين له المال الا بالاختلاس • أما الدوق فهو لا يرى من مباهج الحياة الا طعم النساء وما الى ذلك من متع حسية • أما هو فهو يعشق الفنون والآداب والثقافة العليا وكل ما يميز الانسان المتحضر عن الانسان المتبربر ، وهو يقول لابنته فى ذلك : « يا عزيزتى ، أنا لم أومن فى يوم من الأيام بتوزيع الملكية سواسية بين الناس • وانما اعتقد أن المال يكون فى يدى أجمل مما يكون فى يد الدوق • ولكن من قلة الذوق أن أقول له ذلك » •

أما الدوق الذى يطارد بربتوا ، فهو يتعقبها الى أن يجدها فى « معبد الفضائل القديمة » قرب الغدير ، ويقبل

عليهما حاملا قوسه وسهامه ، فهو قد خرج الى حديقة القصر وطلبا للرياضة ، ورياضته المفضلة بعد اغواء النساء ورصد النجوم هي الصيد والقنص • وهي التي تحسن الرماية بالمسدس في الدنيا الجديدة قد عادت الى الدنيا القديمة فلتتعلم اذن كيف تحسن الرماية بالقوس والسهم ، فهكذا يترويض الناس ، أو وجهاء الناس ، في الدنيا القديمة •

وهكذا ينطلق الدوق ببروبتوا في ادغال حديقته ليعلمها الرماية فيجد منها حسن القبول ، وحين يميل في آذنها همسا : « ثم الليلة يا بربتوا ، لئن صفا وجه السماء فاستمالك للتطلع اليه ، وظلت الجوزاء في مكانها معلقة ، فما رأيك لو سددنا المنظار المقرب نحو اللانهاية وانتفعنا بما نستطيع رؤيته فيها : آلا يزال ذلك يثير اهتمامك كما كان يثيره في الصباح » ، يجد عندها حسن القبول كذلك ، فهي تجيبه : « نعم ، اني قادمة من المدينة ، ومرأى النجوم جديد على » ولكن حقيقة الأمر هي أن كلا منهما قد خرج ليصطاد الآخر •

ويحس الجميع أن شيئا ما يوشك ان يجرى بين الدوق وبربتوا • وحين يلتقي ريدبك بولده ويعرف منه ما استقر عليه قرار ابنته تثور ثائرته ويكيل لابنه أشنع السباب قائلا ان خسته لا حد لها فهو يبيع أخته لا لينقذ شيئا ذا بال ولكن لينقذ اسمه من العار ، وهي أنانية منه لا بنوة ووفاء • وحين يلتقي الدوق بولده ادجار يثور ادجار على أبيه ثورة عاصفة يطالبه بألا يحتكر كل عذراء يلقى بها القدر في طريقه • ويرجو ادجار بربتوا أن تخرج معه في المساء ولكنها تعتذر له بأن الرحلة أجهدتها وبأنها ستأوى الى فراشها في المساء الباكر •

وحين تلتقي روزابيلا بالدوق تعرض عليه زيارته في مرصده ليلا ، ولكنه يعتذر كاذبا بأنه لن يناجي النجوم في تلك الليلة فهو بحاجة الى الراحة الباكرة •

أما روزابيلا فتدرك بفطنتها أن هذا الرجل الذى تحبه

وتخلص له قد طار عنها الى غرام جديد لن يكون فى المرصد انسان فى تلك الليلة ، هكذا يقول الدوق نفسه • انها تمقت هذا المرصد ولسوف تحطمه تحطيما ، وهى فى ذلك تقول لجيسى « لن يكون فيه أحد الليلة • ولسوف ترين كيف أرد مرصده رمادا كما رد نيرون روما رمادا • لسوف أطلق أمامه طريقا من اللهب يهديه الى الانسانية ! »

ولكن المرصد لم يكن خاليا فى تلك الليلة ، بل كان فيه الدوق ينتظر محبوبته وهو متكىء على أريكة يتربص فى الظلام ..

وحين تقبل عليه بربتوا يذهب يغازلها بكل لسان ، ولكن بربتوا تثوب الى رشدها وترتد عنها بكل بيان • ان خير ما فى الدوق العجوز عندها أنه يشبه ولده ادجار ، ان الدوق العجوز يعرض عليها ان تكون دوقة التير ، ويلح فى طلبه ، ولكن بربتوا تأبى وتصر على ابائها • فلما ان ينفد صبر الدوق المدله يجرب سلاحا رهيبا لعله يحطم به ارادة هذه الفتاة العنيدة ، فيذهب يحدثها عن أبيها وعن اختلاساته وعن دفاتره المزورة • نعم ان الدوق يعرف كل شىء عن ألاعيب وكيله ، بل ويعرفه منذ زمن طويل ، وان كلمة واحدة منه لتكفى لسجنه السنوات الطوال ، وكلمة واحدة منها تكفى لانقاذه من هذا المصير الشائن •

وتغضب بربتوا حين تسمع هذا الوعيد وتمعن فى رفضها وتعنفه تعنيفا • وفيما هما يتجادلان تمتد من حولهما ألسنة اللهب حتى توشك أن تبلغ حجرة الرصد • وينتاب بربتوا ذعر شديد ولكن الدوق المتمالك لأعصابه يحاول ان يهدئها ما استطاع الى ذلك سبيلا • ويفتح الدوق الباب فاذا النار قد اندلعت فى السلم وأوشكت أن تأتى عليه وان بقى فيه هيكل متماسك • وتهاب بربتوا منظر النيران فترفض التماس النجاة من الباب وتهرع الى النافذة المطلة على الحديقة فاذا الارتفاع شاهق لا يترك أملا فى النجاة • ويطلب الدوق النجدة بالتليفون • وينتظر الدوق وبربتوا

يرسل العناية الالهية لتنقذهما من الموت المحقق • ان بربتوا لا تجد من يحميها الآن الا الدوق ، ان كانت فى أجلها بقية • ويطلب الدوق اليها أن تقبله فتقبله ، وهما يقفان هكذا بين الموت والحياة • ثم يأتى الغوث من كل جانب فريدلمان خادم القصر قد اقتحم النار على درج السلم وهو يقف بالباب داعيا ، وبيتس الخادم الخاص قد تسلق سلما خشبيا وهو الآن يدعو من النافذة ، ويتنافس الخادمان على انقاذ الدوق وبربتوا حتى يبلغ بهما الأمر حد الشتائم ، فتتبع بربتوا بيتس وتنجو من النافذة • أما الدوق الرابط الجأش فيتبع ريدلمان مقتحما وراءه النار وينجو من السلم •

— ٣ —

وبعد أن ينجلى كل شىء ولا يبقى الا ضياء الدار المحترقة منعكسا على صفحة الغدير ، تجلس روزا بيلا فليمنج على حافة الغدير وهى تنتحب انتحابا مريرا • لقد اشتعلت النار فى ذلك الجناح من القصر لتدمر المرصد ، والآن يعذبها ضميرها لما جنت يداها ، فهى تتمنى لنفسها الموت ولا تفتأ تردد أنها ملعونة بين النساء ويلحق بها دومنيك فاذا به فى يأس أسود لا يجد ما يقيه من عذاب الضمير فهو الذى دفع أخته بربتوا للذهاب الى مرصد الدوق وقد كان يمكن أن تلقى منيتها بذلك •

فما السبيل الى الخلاص من كل هذا العذاب • لابد أن تسلم روزابيلا نفسها للبوليس ، وان كل ما ترجوه هو ألا تلتقى بالدوق • ولكن الدوق يبدو أمامها حاملا مصباحا يبدد به بعض الظلام فيتركهما دومنيك فى خلوة يصفيان ما بينهما من حساب • ويذهل الدوق حين تعترف له روزابيلا بأنها مضرمة الحريق •

روزابيلا : أنا أشعلت النار •

الدوق : وكيف فعلت ذلك ؟ لعـل شرارة وقعت عفـوا من عينيك الملتهبتين •

روزابيلا : لابد أن تصدقني • أنا أضرمت النار في الجناح لأدمر المرصد فأجعل منك انسـانا ، وأنزل بك من سمواتك فتعيش بيننـا مثلما نعيش ، وأجعلك تدرك معنى الأحزان الفاجعة التي تعانيها دون أن تحس بها وأنت في عليائك • واليوم ، في هـذا اليوم المشـئوم عصفت بنفسي عاصفة هوجاء من أحزاني القديمة فهزتها هزا وانقضت على فطمرتني تحتها أخيرا • أنا أعلم كم كان هذا فظيعا ، نعم ، وأدركه ادراكي لوجودي ، ولكنني ما كنت أعلم أنك هناك • صدقني : ما كنت أعلم أن في المرصد أحدا •

الدوق : أواه يا روزابيلا ! اواه ! أواه لو أنك سألتني قبل أن تقدمي على ذلك لقلت لك انه ما في الدنيا نار تكفي لحرق السماء ، وما دامت السماء من فوقنا قائمة فلسـوف أجد لنفسي مكانا رحيبا أتجسس منه على المجهول ••

ان الحب وحده هو الذي دفع روزابيلا الى هذه الفعلة الشنعاء ، ولكن الدوق قد غفر لها هذا الذنب العظيم رغـم أن كل ما كان يعتز به ويعيش من أجله قد استحال الى كومة من رماد • وبينما يطيب الدوق خاطرها تتسلل روزابيـلا تحت جنح الليل وتحل محلها بربتوا دون أن يتنبه الى ذلك ، ويسترسل في لغـوه عن الحيـاة وعن عزلة الاحيـاء وعن ضرورة الادراك والغفران (فهذه هي العظات التي تعلمها من هذه التجربة الفظيعة) ، ثم يتنبه الى وجود بربتوا فيعود اليه مرحه ويخف حديثه • انه قد أمر الخادم بيتس باحضار الشمبانيا فبعد الحريق لم يبق الا أن يجلس هو وهي والأحياء على حشائش الحديقة بجوار الرماد ويوقدوا بالمصابيح نار الحب ويكووا قلوبهم بالشمبانيا • وترجوه بربتوا أن يستمع لها الآن لأن لديها من خطير الكلام ما تريد أن تقوله ، ولكنه يمضي في لغوه وحديثه العابث المرح ••

ويأتي الخادم ريدلمان بخوان ويأتي الخادم بيتس بالشمبانيا فكأنهما يعدان العدة لحفل أو وليمة ٠

ويلتئم شمل الجماعة شيئا فشيئا فيقبل ريدبك ومعه والده دومنيك ٠ ان ريديك منذ أن علم بذهاب ابنته الى المرصد وقرارها بأن تتزوج من الدوق اذا استطاعت لتنقذه من السجن قد غدا وأمسى رجلا يعيش في جحيم لا يطاق من تبكيت الضمير واعتزم أن ينقذ ابنته من براثن هذا العجوز المتصابي ولو قضى بقية عمره في السجن ٠ وهو الآن يريد أن يعترف للدوق بكل شيء وأن يرضخ راضيا لحكمة فيه ، ولكن الدوق لا يعطيه فرصة للكلام ٠

نعم : ان الدوق في بحران هو من نشوة العشاق ، وهو لا يريد ان يتحدث في شيء الا ما هو فيه من بهجة ٠ وهو يوزع الشمبانيا على الجميع فالليلة يحتفل الدوق بخطبته الى بربتوا الجميلة ٠

ويرفض ريدبك أن يشاركه الشراب أو يشاطره البهجة ويعترف أمامه بكل ما ارتكب من اختلاس وتزوير ٠ ولكن الدوق يهون عليه الأمر قائلا انه قد كتب بيده وثيقة تجعل كل ما استولى عليه من مال ملكا له قانونا باتفاقه ورضاه ، فلا داعي اذن لأن يسلم الأب ريدبك نفسه للجاويش بولين كما يقول انه أزمع أن يفعل ٠ فليشرب الجميع الراح أنهارا فلقد رأى الدوق العجوز اليوم براعم الحب تتفتح في قلب بربتوا وسط ألسنة اللهب عندما وقف لحظة بين الموت والحياة ٠ لقد قبلته واسترخت بين ذراعيه وقالت انها تدرك في تلك اللحظة أن قلبها قادر على حبه ٠

وهنا تقاطعه بربتوا قائلة : ان الخوف جعلها ترتكب حماقة كبرى ، فقد اختلط عليها الأمر عند مرأى الموت فذهبت تهذي بما لا تعي ٠ انها لا تحبه ولا تستطيع أن تحبه وهي الآن تطلب من الدوق عفوه على ضعفها هذا الذي أطاش عقلها وبلبل وجدانها في تلك اللحظة الرهيبة ٠

ويقع هذا الكلام من نفس الدوق ٠ وقع الصاعقة ، ولكنه يتمالك أعصابه ويتكلف الهدوء التام ، فكأنما نفسه المضطربة في الأعماق غدير صافي الوجه عكرته حصاة تافهة ٠ ويقول بعد صمت شديد :

ـ فلنشرب اذن نخب الخوف ٠

وانه ليغفر لهم جميعا : يغفر لروزابيلا أنها أحرقت داره وتريدبك أنه اختلس ماله ولبربتوا أنها سرقت قلبه ٠

وهل يتوج هذا اليوم المضحك المبكي بالغفران وحده ؟ كلا ٠ لأن ادجار حين يقف وجها لوجه أمام بربتوا وقفة العاشق المسحور يعرف أن يد الحب الساحرة قد مست قلبها كذلك ٠

أما الدوق فهو يدرك أن حب روزابيلا له قد جاوز احتماله ، فدمرت حيث لم تستطيع أن تبنى ، وقد استيقظ قلبه لكل هذه المعانى بعد ما رأى من أهوال شداد وهى الآن عنده كنفحة الصيف التى تهب فى أوج الخريف فتمشى فيه بأنفاس القوة والفتوة ٠ وانه لينتظر عودتها ليبنى بها وتبنى به : فقلبه الآن يحدثه بأن روزابيلا هى « الزوجة الواحدة » التى سيقضى معها خريف العمر وشتاء الحياة ٠

فهرس

٦:٢

شكسبير

جارثيا لوركا

تنيسي وليامز

آرثر ميلر

كريستوفر فراى

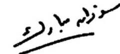
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www.maktabetelosra..org
E-mail:info@egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٠٥٨ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9591 - x



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية والأسلوب الأمثل للتعلم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.





الثمن ٣٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب